رسائل إخوان الصفاء وخِلّان الوفاء

(الجزء الثاني)



إخوان الصفا

رسائل إخوان الصفاء وخِلَّان الوفاء (الجزء الثاني)

تأليف
إخوان الصفا

مراجعة
خير الدين الزركلي



رسائل إخوان الصفاء وخِلَّان الوفاء (الجزء الثاني)

إخوان الصفا

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٥٤٦ ٤

المحتويات

الجسمانيات الطبيعيَّات

الرسالة الأولى

في بيان الهَيُولَى والصورة والحركة والزمان والمكان، وما فيها من المعاني إذا أُضيف بعضُها إلى بعض

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ — أيَّدك الله وإيانا برُوح منه — أنا قد فرغنا من الرسائل الرياضية بجملتها حسب ما وعدنا في صدر الكتاب، واستوفينا الكلام في ذلك حسب ما يَلِيق بنا، فعلينا أن نشتغل بذكر القسم الثاني وهو في «الجسمانيات الطبيعيات»، فلنبدأ بالرسالة الأُولَى منها في «الهَيُولَى والصورة» فنقول: لما كان النظر في علم الطبيعيات جزءًا من أجزاء صناعة إخواننا — أيَّدهم الله — والأصل في هذا العلم هو معرفة خمسة أشياء؛ وهي: الهَيُولَى والصورة والحركة والزمان والمكان، وما فيها من المعاني إذا أُضيف بعضها إلى بعض، احتَجْنا أن نذكِّر في هذه الرسالة طرفًا من معاني الهَيُولَى والصورة؛ شبه المدخل والمقدمات؛ ليكون أقرب من فهْم المبتدئين عند النظر في الطبيعيات، وأسهل على تعليمهم، فنقول: اعلم — وفَّقك الله — أن معنى قول الحكماء: «الهَيُولَى» إنما يَعنون به كلَّ جَوْهر قابلٍ للصورة، وقولهم: «الصورة» يعنون به كلَّ شكل ونقش يَقبَله الجوهر.

واعلم أن اختلاف الموجودات إنما هو بالصورة لا بالهَيُولَى؛ وذلك أنَّا نجد أشياء كثيرة جوهرها واحد وصُوَرها مختلفة؛ مثال ذلك: السكين والسيف والفأس والمنشار، وكل ما يُعمَل من الحديد من الآلات والأدوات والأواني، فإن اختلاف أسمائها من أجْل اختلاف صورها لا من أجْل اختلاف جواهرها؛ لأن كلها بالحديد واحد، وكذلك الباب والكرسي والسَّرير والسفينة، وكل ما يعمل من الخشب، فإن اختلاف أسمائها إنما هو بحسب اختلاف صورها، فأما هَيُولاها التي هي الخشب فواحدة، وعلى هذا المثال يعتبر حال الهَيُولَى والصورة في المصنوعات كلها؛ لأن كل مصنوع لا بد له من هَيُولَى وصورة يُركَّب منهما.

واعلم أن الهَيُولَى على أربعة أنواع؛ منها: هَيُولَى الصناعة، وهَيُولَى الطبيعة، وهَيُولَى الكل، والهَيُولَى الأولى، فهَيُولَى الصناعة: هي كل جسم يَعمَل منه وفيه الصانع صنعته كالخشب للنجَّارين، والحديد للحدَّادين، والتراب والماء للبنَّائين، والغزل للحاكة، والدقيق للخبَّازين، وعلى هذا القياس كل صانع لا بد له من جسم يعمل صنعته منه وفيه، فذلك الجسم هو هَيُولَى الصناعة، أما الأشكال والنقوش التي يعملها فيها فهي الصورة، فهذا هو معنى الهَيُولَى والصورة في الصنائع، وأما الهَيُولَى الطبيعية فهي الأركان الأربعة؛ وذلك أن كل ما تحت فلك القمر من الكائنات، أعني النبات والحيوان والمعادن، فمِنها تتكوَّن، وإليها تستحيل عند الفساد، أما الطبيعة الفاعلة لهذا فهي قوة من قوى النفس الكلية الفلكية، وقد بيَّنَّا كيفية فِعْلها في هذه الهَيُولَى في رسالة أخرى، وأما هَيُولَى الكل فهي الجسم المطلق الذي منه جملة العالَم، وأعني الأفلاك والكواكب والأركان والكائنات أجمع؛ لأنها كلها أجسام، وإنما اختلافها من أجْل صُوَرها المختلفة، وأما الهَيُولَى الأولى فهي جوهر بسيط معقول لا يُدرِكه الحس؛ وذلك أنه صورة الوجود حسب، وهو الهوية، ولمَّا قبلتِ الهوية الكمية صارتْ بذلك جسمًا مطلقًا مشارًا إليه أنه ذو ثلاثة أبعاد، التي هي الطُّول والعَرْض والعُمْق، ولمَّا قَبِل الجسم الكيفية وهي الشكْل كالتدوير والتثليث والتربيع وغيرها من الأشكال صار بذلك جسمًا مخصوصًا مشارًا إليه أي شكل هو، فالكيفية هي كالثلاثة، والكمية كالاثنين والهوية كالواحد، وكما أن الثلاثة متأخِّرة الوجود عن الاثنين كذلك الكيفية متأخِّرة الوجود عن الكمية، وكما أن الاثنين متأخِّرة الوجود عن الواحد، كذلك الكمية متأخِّرة الوجود عن الهوية، والهوية هي متقدِّمة الوجود على الكمية والكيفية وغيرهما، كتقدُّم الواحد على الاثنين، والثلاثة، وجميع العدد.

ثم اعلم أن الهوية والكمية والكيفية كلها صور بسيطة معقولة غير محسوسة، فإذا تركبَ بعضها على بعض صار بعضها كالهَيُولَى وبعضها كالصورة، فالكيفية هي صورة في الكمية، والكمية هَيُولَى لها، والكمية هي صورة في الهوية، والهوية هَيُولَى لها، والمثال في ذلك من المحسوسات أن القميص صورة في الثوب، والثوب هَيُولَى له، والثوب صورة في الغزل، والغزل هَيُولَى له، والغزل صورة في القطن، والقطن هَيُولَى له، والقطن صورة في النبات، والنبات هَيُولَى له، والنبات صورة في الأركان، وهي هَيُولَى له، والأركان صورة في الجسم، والجسم هَيُولَى لها، والجسم صورة في الجوهر، والجوهر هَيُولَى له، وكذلك الخبز صورة في العجين، والعجين هَيُولَى له، والعجين صورة في الدقيق، والدقيق هَيُولَى له، والدقيق صورة في الحَب، والحَب هَيُولَى له، والحَب صورة في النبات، والنبات هَيُولَى له، والنبات صورة في الأركان، وهي هَيُولَى له، وهي صورة في الجسم، والجسم هَيُولَى لها، والجسم صورة في الجوهر، والجوهر هَيُولَى له.

وعلى هذا المثال يُعتَبَر حال الصورة عند الهَيُولَى، وحال الهَيُولَى عند الصورة، إلى أن تنتهي الأشياء كلها إلى الهَيُولَى الأولى التي هي صورة الوجود حسب، لا كيفية فيها ولا كمية، وهي جوهر بسيط لا تركيب فيه بوجه من الوجوه، قابل للصور كلها، ولكن على الترتيب كما بيَّنا، لا أي صورة كانت تأخَّرت أو تقدَّمت، بل الأول فالأول، مثال ذلك أن القطن لا يقبل صورة الثوب إلا بعد قبوله صورة الغزل، والغزل لا يقبل صورة القميص إلا بعد قبوله صورة الثوب، وكذلك الحَب لا يقبل صورة العجين إلا بعد قبوله صورة الدقيق، والدقيق لا يقبل صورة الخبز إلا بعد قبوله صورة العجين، وعلى هذا المثال يكون قبول الهَيُولَى للصُّوَر واحدةً بعد أخرى.

ثم اعلم أن الأجسام كلها جنس واحد من جوهر واحد وهَيُولَى واحدة، وإنما اختلافها بحسب اختلاف صورها، ومن أجْلها صار بعضها أصْفَى من بعض وأشرف، وذلك أن عالم الأفلاك أصْفَى وأشْرف من عالم الأركان، وعالم الأركان بعضها أشرف من بعض، وذلك أن النار أصفى من الهواء وأشرف منه، والهواء أصفى من الماء وألطف منه، والماء أصفى من التراب وأشرف منه، وكلها أجسام طبيعية يستحيل بعضها إلى بعض؛ وذلك أن النار إذا أُطفئت صارت هواء، والهواء إذا غلُظ صار ماء، والماء إذا غلُظ وجمد صار أرضًا، وليس للنار أن تلطف، أو للأرض أن تغلظ فتصير شيئًا آخر، بل إذا تكونت أجزاؤها يكون منها المولدات، أعنِي المعادِنَ والنبات والحيوان، لكن يكون بعضها أشرف تركيبًا من بعض؛ وذلك أن الياقوت أصفى من البلور وأشرف منه، وأن البلور أصفى من الزجاج وأشرف

منه، والزجاج أصفى من الخزف وأشرف منه، وكذلك الذهب أشرف من الفضة وأصفى منها، والفضة أصفى من النحاس وأشرف منه، والنحاس أصفى من الحديد وأشرف منه، والحديد أشرف من الأُسْرُب، وكلها أحجار معدنية أصلها كلها الزئبق والكبريت، والزئبق والكبريت أصلهما التراب والماء والهواء والنار، فهَيُولاها واحد وصورها مختلفة، وصفاؤها وشرفها بحسب تركيبها واختلاف صورها، وكذلك حكم الحيوان والنبات فإنها بالهَيُولَى واحد، وإن اختلافها وشرف بعضها على بعض بحسب اختلاف صورها.

(١) فصل في الأجسام الجزئية

اعلم أن الأجسام الجزئية منها ما يَقبَل صورةَ الكلِّيِّ إذا صُوِّر فيه، فيصير بقبوله تلك الصورة أفضل وأشرف من سائر الأجسام الجزئية الساذجة، والمثال في ذلك قطعة من النحاس إذا صُوِّر فيها الفلك مثل الأَصْطُرْلاب وذات الحلق والكرة المصورة، فإنها عند ذلك تكون أشرف وأفضل وأحسن من أن تكون ساذجة، وكذلك كل جسم قَبِل صورةً ما فإنه عند ذلك يكون أفضل وأشرف وأحسن من كونه ساذجًا، فهكذا الحكم في جواهر النفوس؛ وذلك أنها كلها جنس واحد وجوهر واحد وأن اختلافها بحسب معارفها وأخلاقها آرائها وأعمالها؛ لأن هذه الحالات هي صور في جواهرها وهي كالهَيُولَى، وكذلك النفس الجزئية إذا قَبِلت علمًا من العلوم تكون أفضل وأشرف من سائر النفوس التي هي أبناء جنسها.

ثم اعلم أن العلوم في النفس ليستْ بشيء سوى صور المعلومات انتزعتْها النفس وصوَّرتْها في فِكْرها، فيكون عند ذلك جوهر النفس لصور تلك المعلومات كالهَيُولَى، وهي فيها كالصورة.

واعلم أن من الأنفُس الجزئية ما يتصور بصورة النفس الكلية، ومنها ما يُقارِبها، وذلك بحسب قبولها ما يفيض عليها من العلوم والمعارف والأخلاق الجميلة، وكلما كانت أكثر قبولًا كانت أفضل وأشرف من سائر أبناء جنسها، مثل نفوس الأنبياء — علَيهِم السلامُ — فإنها لما قَبِلتِ بصفاءِ جوهرها الفَيْض من النفس الكلية أَتَتْ بالكتب الإلهية التي فيها عجائب العلوم الخفية والمعاني اللطيفة والأسرار المكنونة التي لا يمسُّها إلا المُطهَّرون من أدناس الطبيعة، وما وضعت من الشرائع العلمية النافعة للكل والسُّنَن العادلة الزكية، فاستنقذوا بها نفوسًا كثيرة غريقة في بحر الهَيُولَى وأَسْر الطبيعة، ومثل نفوس المحقِّقين من الحكماء التي استنبَطَتْ علومًا كثيرة حقيقية، واستخرجتْ صنائع بديعة، وبَنَتْ هياكل

حكيمة، ونصبتْ طلسمات عجيبة، ومثل نفوس الكَهَنة المُخبِرة بالكائنات قبل كونها بدلائل فلكية وعلامات زجرية، وإلى مثل هذه النفوس أشاروا بقولهم: «الفلسفة هي التشبُّه بالآلة بحسب الطاقة الإنسانية.» وإليها أشاروا بقولهم: «مِن خاصية العقل المُنفَعِل أنْ يَقبَل الجزءُ منه صورةَ الكُلِّ.» وإليها أشار القائل بقوله:

كلُّ الهياكلِ صورةٌ مذمومة إلا التي في صورة الأفلاك
وأتمُّها بينَ الذوات لأنها قَبِلَتْ تمامًا صورة الإدراك
كم بين نفس شامخ في ذروةٍ أو ما يكون حجارة الحكاك

وإليها أشار القائل بقوله:

وما كان إلا كوكبًا كان بيننا فوَدَّعَنا جادتْ معاهدَه رُهْمُ
وأصبح روحًا لم يقيِّدْه منزل وأضحى بسيطًا ليس يدركه وَهْمُ
رأى المَسْكنَ العلويَّ أوْلَى بمثله ففاز وأضحى بين أشكاله نجْمُ

واعلم يا أخي أن فضائل النفس الكلية فائضة على الأنفس الجزئية دفعةً واحدة مبذولة لها دائمَ الأوقات، لكن الأنفُس الجزئية لا تُطِيق قبولَها إلا شيئًا بعد شيءٍ في ممر الزمان، والمثال في ذلك فيض الأنفس الجزئية بعضها على بعض؛ وذلك أن الأب الشفيق والمعلِّم الحريص على تعليم تلميذه يوَدُّ أنْ يُعلِّم كلَّ ما يُحسِنه ويَعلَمه لتلميذه دفعةً واحدة، ولكنَّ نفْسَ المتعلِّم لا تَقبَل إلا شيئًا بعد الشيء على التدريج.

ثم إن المانع للأنفس الجزئية قبول فيض النفس الكلية دفعة واحدة هو لأجْل استغراقها في بحْر الهَيُولَى وتراكُم ظلمات الأجسام على بصرها؛ لشدة مَيْلها إلى الشهوات الجسمانية وغرورها باللذَّات الجرمانية، فمتى انتبهتْ من نوم الغفلة، واستيقظت من رقدة الجهالة، وصَحَتْ من سَكْرة عمايتها، وأفاقتْ من غَمرة غشيتها، وأخذتْ ترتقي في العلوم والمعارف، ودامتْ على تلك الحال لَحِقَتْ بالنفس الكلية، وشاهدتْ تلك الأنوار العقلية والأضواء البهية، ونالتْ تلك الملاذَّ الروحانية والسرورات الديمومية الأبدية التي كلها أشرف وأعلى منزلة مما كان فوق ما تقدَّم قبلَه ودونَ ما يأتي بعده، ومتى هي أعرضتْ عمَّا وصفْنَا وأقبلتْ على طلب الشهوات الجسمانية والزينة الطبيعية بعدتْ من هناك، وانحطَّتْ إلى أسفل السافلين، وغَرِقَتْ في بحْر الهَيُولَى، وغشيتْها أمواجُها، وتراكمت

على بصرها ظلماتُها، وإلى هاتين الحالتين أشار — عزَّ اسمُه — بقوله تَعالَى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ ... الآية، ثم قالَ تَعالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ... الآية.

(٢) فصل في أقاويل الحكماء في ماهية المكان

أما المكان عند الجمهور فهو الوعاء الذي يكون فيه المتمكِّن، فيُقال إن الماء مكانه الكوز الذي هو فيه، وإن الخلَّ مكانه الزِّقُّ الذي هو فيه، وعلى هذا القياس مكان كل شيء هو الوعاء الذي هو فيه، وكما يُقال إن مكان السمك هو الماء، ومكان الطير هو الهواء، وبالجملة مكان كل متمكِّن هو الجسم المحيط به، وقيل أيضًا إن المكان هو سطح الجسم الحاوي الذي يَلِي المحويَّ، وقيل لا، بل المكان هو سطح الجسم المحويِّ الذي يَلِي الحاويَ، وعلى كِلَا الرأيَيْن والقولَيْن يجب أن يكون المكان جوهرًا، وقيل إن المكان هو الفصل المشترك بين سطح الجسم الحاوي وسطح المحوي، وعلى هذا الرأي يجب أن يكون المكان عَرَضًا، وقيل أيضًا إن المكان هو الفضاء الذي يكون فيه الجسم ذاهبًا طولًا وعرضًا وعمقًا، وإن مكان كل جسم مثله سواء، فإن كان الجسم مدوَّر الشكل، أو مربَّعًا أو مثلَّثًا أو غيرها من الأشكال فإن مكانه مثله سواء لا أصغر ولا أكبر، حتى قيل في المثل: إن المكان مكيال الجسم، وعلى هذا الرأي يجب أن يكون المكان جوهرًا، واعلم أن الذين قالوا إن المكان هو الفضاء إنما نظروا إلى صورة الجسم ثم انتزعوها من الهَيُولَى بالقوة الفكرية وصوَّروها في نفوسهم وسمَّوْها الفضاء، وإذا نظروا إليها وهي في الهَيُولَى سمَّوْها المكان، وهذا يدل على قلة معرفتهم أيضًا بجوهر النفس وكيفية معارفها ومعانيها.

واعلم أن مِن شرف جوهر النفس وعجائب قواها وظرائف معارفها أنها تنتزع صورة المحسوسات من هيولاها، وتصوِّرها في ذاتها، وتنظر إليها خلوًا من الهَيُولَى، وتفرق بين الهَيُولَى والصورة، وانظر إلى كل واحد منهما تارةً مفردة وتارةً مركبة، وإن من شدة قوَّتها الوهمية أنها تارةً تنظر إلى العالَم وكأنها خارجة منه، وتارةً تنظر إليه وكأنها داخلة فيه، وربما ترفع العالم من الوجود أصلًا، وربما تقدمت الزمان الماضي، ونظرت إلى بدء كون العالم، وبحثَتْ عن عِلَّة كونه بعد أنْ لم يكن شيئًا، وربما سبقت الزمان المستقبل، ونظرت إلى فناء العالَم قبلَ حينه، وتصور كيف يكون ذلك، وإن من شدة قوَّتها أيضًا أنها تُضاعِف العدد إلى ما لا نهاية له، وتُجري المقادير إلى ما لا نهاية

لها، وتتوهم أيضًا أن خارج العالَم فضاءً إلى ما لا نهاية له، وما يُشاكِل هذا من أفعالها العجيبة، وما يتصور بقوتها الوهمية، فمَن ظن أن الفضاء هو جوهر قائم بنفسه وأن خارج العالم فضاءً لا نهاية له، وأن المدة جوهر أسبق من نشوء العالم، وأن الجزء من الهَيُولَى يتجزأ أبدًا وما شاكل هذه المسائل، فكل هذه الأقاويل قالوها لقلة معرفتهم بجوهر النفس وعجائب قواها وكيفية تصرفها في المعارف والعلوم.

(٣) فصل في أقاويل الحكماء في ماهية الحركة

الحركة — يُقال — على ستة أوجُه: الكَوْن والفساد والزيادة والنقصان والتغيُّر والنقلة، فالكون هو خروج الشيء من العَدَم إلى الوجود، أو مِن القوة إلى الفعل، والفساد عكس ذلك، والزيادة هي تباعُد نهايات الجسم عن مركزه، والنقصان عكس ذلك، والتغيُّر هو تبدُّل الصفات على الموصوف من الألوان والطعوم والروائح وغيرها من الصفات، وأما الحركة التي تُسمَّى النقلة فهي عند جمهور الناس الخروج من مكان إلى مكان آخر، وقد يُقال إن النقلة هي الكون في محاذاة ناحية أخرى في زمان ثانٍ، وكلا القولين يَصِحُّ في الحركة التي هي على سبيل الاستقامة، فأما التي على الاستدارة فلا يصح؛ لأن المتحرِّك على الاستدارة ينتقل من مكان إلى مكان، ولا يصير في محاذاة أخرى في زمان ثانٍ، فإن قيل إن المتحرِّك على الاستدارة أجزاؤه كلها تتبدَّل أماكنها، وتصير في محاذاة أخرى في زمان ثانٍ إلا الجزء الذي هو ساكن في المركز، فإنه ساكن فيه لا يتحرك، فليعلم مَن يقول هذا القول ويظن هذا الظن، أو يقدِّر أن هذا الرأي صحيح أن المركز، إنما هو نقطة متوهَّمة وهي رأس الخط، ورأس الخط لا يكون مكان الجزء من الجسم، وليعلم أيضًا أن المتحرك على الاستدارة بجميع أجزائه متحرك، وهو لا ينتقل من مكان إلى مكان، ولا يصير محاذيًا بالشيء آخر في زمان ثانٍ، فأما الحركة على الاستقامة فلا يمكن أن تكون إلا بالانتقال من مكان إلى مكان، والمرور بمحاذيات في زمان ثانٍ، فإذا قيل إنه يمكن ذلك فإن الإنسان مثلًا قد يُحرِّك يدَه أو بعض أجزائه وهو لا ينتقل من مكان إلى مكان فماذا ترى كيف يكون حال اليد؟ هل يجوز أن تتحرك ولا تخرج من مكان إلى مكان؟! وكذلك حكم الإصبع هل يجوز أن يتحرك ولا ينتقل من مكان إلى مكان، ولا يمر بمحاذاة أخرى في زمان ثانٍ؟!

واعلم أنه متى تحركت الأجزاء من جسم فقد تحركت تلك الجملة، ومتى تحركت تلك الجملة فقد تحركت تلك الأجزاء؛ لأن تلك الأجزاء ليست غير تلك الجملة، وذلك أنه

إذا تحرك الإنسان فقد تحركت جملة أعضائه، وإذا تحركت أعضاؤه فقد تحرك هو، وإن تحركت يده وحدها فقد تحركت أجزاء اليد كلها؛ لأن اليد ليست شيئًا غير تلك الأجزاء، وكذلك إن تحرك إصبع واحد فقد تحركت أجزاء الإصبع كلها؛ لأن الإصبع ليست غير تلك الأجزاء، فمَن ظن أنه يجوز أن تتحرك الأجزاء ولا تتحرك الجملة، أو تتحرك الجملة ولا تتحرك بعض الأجزاء فقد أخطأ.

واعلم أنه قد ظن كثير من أهل العلم أن المتحرك على الاستقامة يتحرك حركات كثيرة؛ لأنه يمر في حركته بمحاذيات كثيرة في حال حركته، ولا ينبغي أن تعتبر كثرة الحركات لكثرة المحاذيات، فإن السهم في مروره إلى أن يقع حركة واحدة يمر بمحاذيات كثيرة، وكذلك المتحرك على الاستدارة فحركته واحدة إلى أن يقف، وإن كان يدور أدوارًا كثيرة.

ثم اعلم أنه لا تنفصل حركة عن حركة إلا بسكون بينهما، وهذا يعرفه — ولا يشك فيه — أهل صناعة الموسيقى؛ وذلك أن صناعتهم معرفة تأليف النَّغَم، والنغم لا يكون إلا بالأصوات، والأصوات لا تحدث إلا من تصادم الأجسام، وتصادم الأجسام لا يكون إلا بالحركات، والحركات لا تنفصل بعضها عن بعض إلا بسكونات تكون بينها، فمِن أجْل هذا قال الذين نظروا في تأليف النغم إن بين زمان كل نقرتين زمان سكون، وقد بيَّنَّا طرفًا من هذا العلم في رسالتنا تأليف اللحون ما هي؟ وكم هي؟ وكيف هي؟ فاعرفها من هناك.

واعلم أنه ينبغي لِمَن ينظر في حقائق الأشياء ويبحث عن ماهيتها أن يبتدئ أولًا وينظر ويبحث هل الشيء جوهر أو عرض أو هَيُولَى أو صورة جسمانية أو روحانية، فإن كان جوهرًا فأي جوهر هو؟ وإن كان عرضًا فأي عرض هو؟ وإن كان هَيُولَى فأي هَيُولَى هو؟ وإن كان صورة فأي صورة هي؟ وكيف هي؟

واعلم أن الحركة في بعض الأجسام جوهرية كحركة النار، فإنها متى سكنتْ حركتُها طُفِئَتْ وبطلتْ وبطَلَ وجودُها، وفي بعض الأجسام عرضية لها الحركة كحركة الماء والهواء والأرض؛ لأنها إن سكنتْ حركتُها لا يبطل وجدانها.

واعلم أن الحركة هي صورة جعلتْها النفس في الجسم بعد الشكل، وأن السكون هو عدم تلك الصورة، والسكون بالجسم أولى من الحركة؛ لأن الجسم ذو جهات لا يمكنه أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة وليست حركته إلى جهة أولى به من جهة؛ فالسكون به إذن أولَى من الحركة.

واعلم أن الحركة وإنْ كانت صورة فهي صورة روحانية متمِّمة تسري في جميع أجزاء الجسم، وتنسلُّ عنه بلا زمان، كما يسري الضوء في جميع أجزاء الجسم الشفاف، وينسلُّ عنه بلا زمان، فإنك ترى السراج إذا دخل البيت أضاء البيت من أوله إلى آخره دفعة واحدة، وإذا خرج أظلم الهواء في البيت دفعة واحدة بلا زمان، وكذلك الشمس إذا طلعت بالمشرق أضاء الهواء من المشرق إلى المغرب دفعة واحدة، فإذا غابت بالمغرب أظلم الهواء دفعة واحدة، فالحرارة إذا بدتْ تدبُّ أولًا فأولًا يَحمَى الجوُّ بزمان، وكذلك إذا طلعت الشمس يَحمَى الجو أولًا فأولًا بزمان، وكذلك إذا غابت الشمس برد الهواء أولًا فأولًا بزمان.

واعلم أن الحركة حكمها كحكم الضوء، وذلك لو أن خشبة طولها من المشرق إلى المغرب نُصبت ثم جُذبت إلى المشرق أو إلى المغرب عقدًا واحدًا لتحركت جميع أجزائها دفعة واحدة.

واعلم أن بعض أفعال النفس في الجسم بزمان، وبعض أفعالها بلا زمان، دلالة على أن جوهرها فوق الزمان؛ لأن الزمان مقرون بحركة الجسم، والجسم مفعول النفس، وأن النفس لما جعلت الجسم الكلي كري الشكل الذي هو أفضل الأشكال؛ جعلت حركته أيضًا الحركة المستديرة التي هي أفضل الحركات.

(٤) فصل في ماهية الزمان من أقاويل العلماء

أما الزمان عند جمهور الناس فهو مرور السنين والشهور والأيام والساعات، وقد قيل إن عدد حركات الفلك بالتكرُّر، وقد قيل إنه مدة يعدُّها حركات الفلك، وقد يَظن كثير من الناس أن الزمان ليس بموجود أصلًا إذا اعتُبر بهذا الوجه، وذلك أن أطول أجزاء الزمان السنون، والسنون منها ما قد مضى ومنها ما لم يجئ بعدُ، وليس الموجود منها إلا سنة واحدة، وهذه السنة أيضًا شهور منها ما قد مضى، ومنها ما لم يجئ بعدُ، وليس الموجود منها إلا شهرًا واحدًا، وهذا الشهر منه أيام قد مضت، وأيام لم تجئ بعدُ، وليس الموجود منها إلا يومًا واحدًا، وهذا اليوم ساعات، منها ما قد مضت، ومنها ما لم تجئ بعدُ، وليس الموجود منها إلا ساعة واحدة وهذه الساعة أجزاء، منها ما قد مضى، وآخَر ما جاء بعدُ، فبهذا الاعتبار ليس للزمان وجود أصلًا.

فأما الوجه الآخر إذا اعتُبر؛ فالزمان موجود أبدًا، وذلك أن الزمان كله يوم وليلة أربع وعشرون ساعة، وهي موجودة في أربع وعشرين بقعة من استدارة الأرض تكون

حولها دائمًا، بيان ذلك أنه إذا كان نصف النهار في يوم الأحد مثلًا في البلد الذي طوله تسعون درجة، فإن الساعة الأولى من هذا اليوم موجودة في البلدان التي طولها من درجة إلى خمس عشرة درجة، والساعة الثانية موجودة في البلدان التي طولها من ست عشرة درجة إلى ثلاثين درجة، والساعة الثالثة موجودة في البلد الذي طوله من إحدى وثلاثين درجة إلى خمس وأربعين درجة، والساعة الرابعة موجودة في البلدان التي طولها من ست وأربعين درجة إلى ستين درجة، والساعة الخامسة موجودة في البلدان التي طولها من إحدى وستين درجة إلى خمس وسبعين درجة، والساعة السادسة موجودة في البلدان التي طولها من ست وسبعين درجة إلى تسعين درجة، والساعة السابعة موجودة في البلدان التي طولها من إحدى وتسعين درجة إلى مائة وخمس درجات، والساعة الثامنة موجودة في البلدان التي طولها مائة وست درجات تمام مائة وعشرين درجة، والساعة التاسعة موجودة في البلدان التي طولها مائة وخمس وثلاثون درجة، والساعة العاشرة موجودة في البلدان التي طولها إلى تمام مائة وخمسين درجة، والساعة الحادية عشرة موجودة في البلدان التي طولها إلى تمام مائة وخمس وستين درجة، والساعة الثانية عشرة موجودة في البلدان التي طولها إلى تمام مائة وثمانين درجة.

وفي مقابلة كل بقعة من هذه البقاع من استدارة الأرض ساعات الليل موجودة كل واحدة كنظيرتها، ولكل موضع من الأرض أقدار مختلفة من الليل والنهار، والشمس تُضيء في نصف الأرض أبدًا حيث كانت، ويستر قطر الأرض عن نصفها الآخَر الذي كان أشرق على نصفها الذي يلي الشمس، فيكون ما طلعت عليه الشمس نهارًا، وما سترت بقطرها عن نصفها من ضوء الشمس ليلًا، وكلما دار النهار دار الليل معه كل واحد منهما ضد صاحبه، وكلما زال أحدهما زال الآخَر معه، فالليل والنهار يبتديان الإقبال من مشرق الأرض ثم يسيران على مسير الشمس فيسبق طلوع الشمس على أول الأرض طلوعها على آخرها باثنتي عشرة ساعة، وكذلك الليل، فإن شككتَ فيما قلنا فاسأل أهل الصناعة الناظرين في علم المَجَسْطي يخبروك بصحة ما قلناه، فإنه قد قيل استعينوا على كل صناعة بأهلها.

ثم اعلم أن من كرور الليل والنهار حول الأرض دائمًا يحصل في نفس مَن يتأمَّلها صورة الزمان كلها، يحصل فيها صورة العَدَد من تكرار الواحد؛ وذلك أن العدد كله أفراده وأزواجه، صحيحه وكسوره، آحاده وعشراته ومئاته وألوفه ليست بشيء غير جملة الآحاد تحصل في نفس مَن يتأملها كما بيَّنَّا في رسالة العدد، وهكذا الزمان ليس

هو بشيء سوى جملة السنين والشهور والأيام والساعات تحصل صورتها في نفس مَن يتأمَّل تكرار كرور الليل والنهار حول الأرض دائمًا، فهذه الخمسة الأشياء التي أَتَيْنا على شرحها وهي: الهَيُولَى والصورة والمكان والزمان والحركة محتوية على كل جسم، فمَن لم يكن مرتاضًا بالنظر في هذه الأشياء فلا يَسَعُه النظر في أمور الطبيعة؛ لأنه لا يمكن له أن يعرفها كُنْه معرفتها البتة، ولو لم يكن مرتاضًا في الأمور الطبيعية فلا يسعه الكلام في الأمور الإلهية؛ لأنه لا يمكنه أن يعرفها كُنْه معرفتها.

فتفكَّر فيما ذكرنا يا أخي في هذه الرسالة من أقاويل العلماء لتفهَم ما قالوه، وتصور ما وضعوه من معاني هذه الأشياء، فإن كان عندك زيادة عليها أَفِدْناها، وإن أنكرتَ شيئًا ممَّا قالوه فبيِّنْه لنا، وإنِ اشتبه عليك شيء مما حكيناه فلا تتهمنا بأننا قصَّرْنا في البيان أو قلنا ما ليس بالحق.

ثم اعلم أن لكل صناعة أهلًا، ولكلِّ أهلِ علْمٍ وصناعةٍ أصولًا هم فيها متفِقون، وفي فروعها يتكلمون، وعلى تلك الأصول يقيسون فيما يختلفون.

واعلم بأن النظر في الأمور الطبيعية جزء من صناعة إخواننا الكرام، أيَّدهم الله تعالَى، والأمور الطبيعية هي الأجسام وما يعرض لها من الأعراض اللازِمة والمُزايِلة، وقد عمِلْنا في هذه العلوم سبْعَ رسائل أولُها هذه الرسالة التي ذكرنا فيها الهَيُولَى والصورة والحركة والمكان والزمان؛ إذ كانت هذه الأشياء الخمسة محتوية على كل جسم، وقد ذكرنا في رسالة الحاسِّ والمحسوس الأشياء العارِضة للأجسام بقول وجيز، ثم يتلو هذه الرسالة التي ذكرنا فيها السماء والعالم، ووصفنا فيها تركيب الأفلاك وكميتها وسعة أقطارها وسرعة دورانها وعِظَم الكواكب وفنون حركاتها وأوصاف البروج وتخصيصها، ثم يتلوها الرسالة التي ذكرنا فيها الكون والفساد وماهية الأركان الأربعة التي تحت فلك القمر، وهي النار والهواء والماء والأرض وصفْنَا فيها كيفية استحالة بعضها إلى بعض وحدوث الكائنات منها، ثم يتلوها الرسالة الرابعة التي فيها حوادث الجو والتغييرات التي تحدث في الهواء، ثم يتلوها الرسالة الخامسة التي ذكرنا فيها جواهر المعادن، ووصفْنَا كيفية تكوُّنها في باطن الأرض وجوف الجبال وقعر البحار، ثم يتلوها الرسالة السادسة التي ذكرنا فيها أَمْرَ النَّبات ووصفنا أجناسَه وأنواعَه وخواصه ومنافعه ومضارَّه، ثم يتلوها الرسالة السابعة التي ذكرنا فيها أجناس الحيوانات وأنواعها واختلاف طباعها بقول وجيز.

وقد عملنا خمس رسائل أُخَر قبل هذه الرسالة في الرياضيات؛ أوَّلها رسالة العدد وخواصه وكيفية نشوئه من الواحد الذي قبل الاثنين، ثم يتلوها الرسالة الثانية التي

ذكرنا فيها أصول الهندسة وأنواع المقادير وكيفية نشوئها من النقطة التي هي في صناعة الهندسة كالواحد في العدد، ثم يتلوها الرسالة الثالثة التي ذكرنا فيها النجوم، ووصفنا الأفلاك والكواكب وبينَّا أن نسبتها إلى الشمس كنسبة العدد من الواحد ومنشأ مقادير الهندسة من النقطة، ثم يتلوها الرسالة التي ذكرنا فيها النسبة العددية والهندسية والتأليفية وأن منشأها كلها من نسبة المساواة كمنشأ العدد من الواحد وكمنشأ مقادير الهندسة من النقطة، ثم يتلوها الرسالة التي ذكرنا فيها المنطق ووصفنا فيها المقولات العشرة التي كل واحد منها جنس الأجناس وبينَّا كمية أنواعها وخواصها وأن الواحد منها هو الجوهر والتسعة الباقية هي الأعراض وتعلقها في وجودها بالجوهر كتعلق العدد بالواحد الذي قبل الاثنين، وقد تكلم في هذه الأشياء مَن قبلَنا مِن الحكماء الأوَّلين ودوَّنوها في الكتب، وهي موجودة في أيدي الناس، ولكن من أجْل أنهم طوَّلوا فيها الخطب، ونقلوها من لغة إلى لغة أُغلق على الناظرين في تلك الكتب فهْم معانيها، وضاعت في الباحثين معرفة حقائقها، من أجْل هذا عملنا هذه الرسائل وأوجزنا القول فيها شبه المدخل والمقدمات؛ لكيما يقرب على المتعلِّمين فهْمُها ويسهل على المبتدئين النظر فيها.

فصل

واعلم — إنْ كنتَ محبًّا لأهل العلم والحكمة — أنك تحتاج أن تسلك طريق أهلِها، وهو أن تقتصر من أمور الدنيا على ما لا بد منه وتترك الفضول وتجعل أكثر همَّتك وعنايتك في طلب العلوم ولقاء أهلها ومجالستهم بالمذاكرة والبحث، وأن تروِّض نفسَك بالسيرة العادلة التي وُصِفت في كُتُب الأنبياء عليهم السلام، وبالنظر في هذه العلوم التي تقدَّم ذكرُها، وهي التي كانوا يروِّضون أولاد الحكماء بها، ويُخرِّجون بها تلامذتَهم ليقوَى فهمُهم على النظر في الأمور الإلهية التي هي الغرض الأقصى في المعارف.

ثم اعلم أن الأمور الإلهية هي الصُّوَر المجرَّدة من الهَيُولَى، وهي جواهر باقية خالدة لا يَعرِض لها الفساد والآفات كما يعرض للأمور الجسمانية، واعلم أنَّ نفسَك هي إحدى تلك الصور، فاجتهِدْ في معرفتها لعلك تخلِّصها من بحر الهَيُولَى وهاوية الأجسام وأسْر الطبيعة التي وقعنا فيها بجناية كانت من أبينا آدَمَ — عليه السلام — حين عصَى ربَّه فأُخرج هو وذريته من الجنة التي هي عالَم الأرواح، وقيل لهم: «اهْبِطُوا منها بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ» فقد

قيل في المثل: إن أول أناس إذا نُفخ في الصُّور وشُقَّ عليهم القبور يوم البعث والنشور وقيل: انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شُعب هو عالَم الأجسام ذو الطُّول والعَرْض والعمق، فاجتهد يا أخي في معرفة هذه المرامي والرموز التي ظهرتْ في كتب الأنبياء — عليهم السلام — لعل نفسك تنتبه من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، وتحيا بروح المعارف الربَّانية، وتعيش بحياة العلوم الإلهية، وتَسلَم من الآفات الطبيعية.

واعلم أن النفس بمجردها لا تَلْحَقها الآلام والأمراض والأسقام والجوع والعطش والحَرُّ والبرد والغموم والهموم والأحزان ونوائب الحدثان؛ لأن هذه كلها تَعرِض لها من أجْل مقارنتها للجسد؛ لأن الجسد جسم قابل للآفات والفساد والاستحالة والتغيُّر، فأما النفس فإنها جوهرة روحانية، فليس لها من هذه الآفات شيء.

واعلم أنه قد ذهب على أكثر أهل العلم معرفةُ أنفسِهم لتركهم النظر في علم النفس والبحث عن معرفة جواهرها والسؤال من العلماء العارفين بعلمها، ولقلة اهتمامهم بأمر أنفسهم وطلب خلاصها من بحر الهَيُولَى وهاوية الأجسام، والنجاة من أسْر الطبيعة، والخروج من ظلمة الأجسام لشدة مَيْلهم في الخلود إلى الدنيا، واستغراقهم في الشهوات الجسمانية، والغرور باللذَّات الحيوانية، والأنس بالمحسوسات الطبيعية، ولغفلتهم عما وُصف في الكُتُب الإلهية والنواميس الشرعية النبوية من نعيم الجنان، وما في عالَم الأرواح من الرَّوْح والريحان والنعيم والسرور واللذَّة والكرامة وبقاء الأبد التي وُعد المتقون: «فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ والنَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يؤمنون ...» الآية.

وإنما قلة رغبتهم فيها لقلة تصديقهم بما أَخْبرَتْ به الأنبياء — عليهم السلام — وما أشارت إليه الفلاسفة والحكماء مما يَقصُر الوصفُ عنه من لطيف المعاني، ودقائق الأسرار، فانصرفتْ هِمَم نفوسِهم كلها إلى أمْر هذا الجسد المستحيل، وجعلوا سعْيَهم كلَّه لصلاح معيشة الدنيا من جمع الأموال والمآكل والمشارب والملابس والمناكح والمراكب، وصيَّروا نفوسَهم عبيدًا لأجسادهم وأجسادهم مالكة لنفوسهم، وسلَّطوا الناسوت على اللاهوت، والظلمة والشياطين على النور والملائكة، وصاروا من حزب إبليس وأعداء الرحمن.

فهل لك يا أخي بأنْ تنظر لنفسك، وتسعى في صلاحها، وتطلب نجاتها، وتفك أسرها، وتخلِّصها من الغرق في بحر الهَيُولَى وأسْر الطبيعة وظلمة الأجسام، وتخفف

عنها أوزارها، وهي الأسباب المانعة لها عن الترقِّي إلى ملكوت السماء والدخول في زمر الملائكة والسيحان في فسحة عالم الأفلاك، والارتفاع في درجات الجنان، والتشمُّم من ذلك الرَّوْح والريحان المذكور في القرآن، وأن ترغب في صحبة أصدقاء لك نصحاء، وإخوان لك فضلاء، وادِّين لك كُرَماء، حريصين معاونين لك على صلاحك ونجاتك مع أنفسهم، قد خلعوا أنفسَهم من خدمة أبناء الدنيا، وجعلوا عنايتهم وكدَّهم في طلب نعيم الآخرة، بأن تسلك مسلكهم، وتقصد مقصدهم، وتخلص سِرَّك معهم، وتتخلَّق بأخلاقهم، وتسمع أقاويلهم لتعرِف اعتقادَهم، وتنظر في علومهم لتفهَمَ أسرارَهم وما يخبرونك به من العلوم النفسية والمعارف الحقيقية والمعقولات الرُّوحانية والمحسوسات النفسانية، إذا دخلتَ مدينتَنا الروحانية، وسِرْتَ بسيرتنا الملكية، وعملتَ بسنَّتِنا الزكية، وتفقَّهتَ في شريعتنا العقلية، فلعلك تؤيَّد برُوح الحياة لتنظر إلى الملأ الأعلى، وتعيش عيش السعداء مخلدًا مسرورًا أبدًا بنفسك الباقية الشريفة الشفافة الفاضلة، لا بجسدك المظلم الثقيل المتغير المستحيل الفاسد الفاني، وفَّقك الله وإيَّانا وجميع إخواننا للسداد، وهداك وإيانا وجميع إخواننا للرشاد، حيث كانوا في البلاد، إنه رءوف رحيم بالعباد.

(تمَّتْ رسالة الهَيُولَى والصورة وتتلوها رسالة السماء والعالم.)

الرسالة الثانية

من الجسمانيات الطبيعيات الموسومة بالسماء والعالم
في إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — أنه لما فرغنا من ذكر الجسم المطلق وما يخصه من الصفات المقوِّمة لذاته من الهَيُولَى والصورة وما يتبعها من سائر الصفات اللازمة مثل الحركة والسكون وما شاكلهما أردنا أن نذكر في هذه الرسالة المُلقَّبة بالسماء والعالم والأجسام الكليات البسيطات التي هي الأفلاك والكواكب والأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض؛ إذ كان الجسم المطلق أول ما ينقسم إليها ثم مِن بعدها الأجسام الجزئيات المولدات التي هي الحيوان والمعادن والنبات.

(١) فصل في بيان معرفة قول الحكماء: إن العالَم إنسان كبير

اعلم أيها الأخ أن معنَى قول الحكماء: العالَم إنما يَعنون به السموات السبع والأرضين وما بينهما من الخلائق أجمعين، وسمَّوْه أيضًا إنسانًا كبيرًا؛ لأنهم يَرَوْن أنه جسم واحد بجميع أفلاكه وأطباق سمواته وأركان أمَّهاته ومولداتها، ويرون أيضًا أن له نفسًا واحدة

سارية قواها في جميع أجزاء جسمها كسريان نفس الإنسان الواحد في جميع أجزاء جسده، فنريد أن نذكر في هذه الرسالة صورة العالم، ونَصِف كيفية تركيب جسمه كما وُصف في كتاب التشريح تركيبُ جسد الإنسان، ثم نَصِف في رسالة أخرى ماهية نَفْس العالَم وكيفية سريان قواها في الأجسام التي في العالم من أعلى الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، ثم نبيِّن فنون حركاتها وإظهار أفعالها في أجسام العالم بعضها في بعض.

فنرجع الآن إلى وصْف جسم العالم فنقول: الجسم هو أحد الموجودات بطريق الحواس بتوسُّط أعراضه كما بينَّا في رسالة الحاسِّ والمحسوس.

والموجودات كلها جواهر وأعراض وصور وهَيُولَيَات مركَّب منها كما بينَّا في رسالة الهَيُولَى والصورة.

والصورة نوعان مقوِّمة ومتمِّمة، كما بينَّا في رسالة العقل والمعقول.

والصورة المقوِّمة لذات الجسم هي الطول والعرض والعمق إذا وجدت في الهَيُولَى التي هي جوهر بسيط قابل للصورة.

والصورة المتمِّمة للجسم المُبلغة له إلى أفضل حالاته كثيرة لا يُحصِي عددَها إلا الله — عزَّ وجلَّ، ولكن نذكر منها طرفًا لتفهم معانيها، فمِن الصورة المتمِّمة للجسم الشكل.

والأشكال كثيرة كالتثليث والتربيع والتخميس والتدوير وما شاكلها، ومن الصورة المتمِّمة أيضًا الحركة، والحركات ستة أنواع أحدها النقلة وهي نوعان دورية ومستقيمة، ومن الصور المتمِّمة أيضًا النور وهي نوعان ذاتي وعرضي، ومن الصور المتمِّمة للجسم الصفاء، وأفضل الأشكال الشكل الكري كما بينَّا في رسالة الهندسة.

وأتم الحركات الدورية كما بينَّا في رسالة الحركات، وأبهى الأنوار الذاتية وأصفى النعوت الشفَّاف كما بينَّا في رسالة الصفات والموصوفات، فجسم العالَم بأسْرِه كريُّ الشكل وحركات أفلاكه كلها دورية، ونور الكواكب السماوية كلها ذاتي إلا القمر، وأجرام الكرة كلها شفافة إلا الأرض، فقد بينَّا ما العلة في أمر الأرض والقمر في رسالة العلل والمعلولات.

(٢) فصل في أن السموات هي الأفلاك

واعلم يا أخي أن السموات هي الأفلاك، وإنما سُمِّيت السماء سماءً لسموِّها والفلك لاستدارته، واعلم بأن الأفلاك تسعة؛ سبعة منها هي السموات السبع، وأدناها وأقربها إلينا فلك القمر وهي السماء الأولى، ثم مِن ورائه فلك عُطَارد وهي السماء الثانية، ومن ورائه فلك الزُّهَرة وهي السماء الثالثة، ثم من ورائه فلك الشمس وهي السماء الرابعة، ومن ورائه فلك المِرِّيخ وهي السماء الخامسة، ومن ورائه فلك المُشتَرِي وهي السماء السادسة، ثم من ورائه فلك زُحَل وهي السماء السابعة، وزُحَل النجم الثاقب، وإنما سُمِّي الثاقب؛ لأن نوره يثقب سمك سبع سموات حتى يبلغ أبصارنا، هكذا رُوِيَ في الخبر عن عبد الله بن عبَّاس تُرجمان القرآن، وأما الفلك الثامن وهو فلك الكواكب الثابتة الواسع المحيط بهذه الأفلاك السبعة، فهو الكرسي الذي وَسِعَ السموات والأرض، وأما الفلك الشاسع المحيط بهذه الأفلاك الثمانية فهو العرش العظيم الذي يحمله فوقهم يومئذٍ ثمانية، كما قال الله عزَّ وجلَّ.

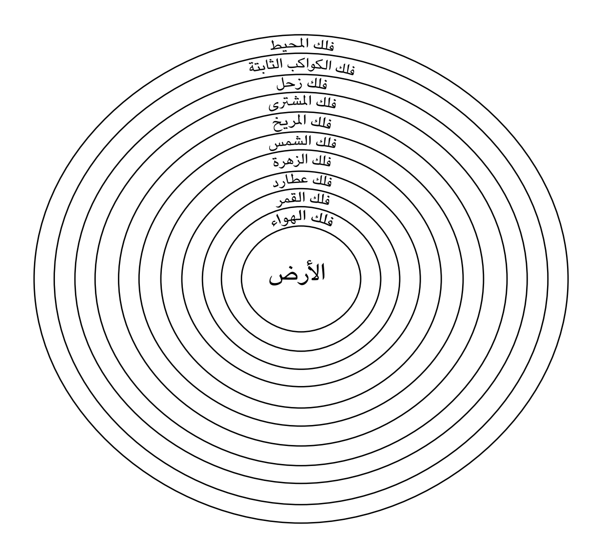
واعلم يا أخي أن كل واحد من هذه السبعة المقدَّم ذكرُها سماء لما تَحتَه وأرض لما فوقَه، ففلك القمر سماء الأرض التي نحن عليها وأرض لفلك عُطَارد، وكذلك فلك عُطَارد سماء لفلك القمر وأرض لفلك الزُّهَرة، وعلى هذا القياس حكم سائر الأفلاك كل واحد منها سماء لما تحته وأرض لما فوقه، إلى فلك زُحَل الذي هو السماء السابعة.

(٣) فصل في تركيب الأفلاك وأطباق السموات

اعلم يا أخي أن الأرض التي نحن عليها هي كرة واحدة بجميع ما عليها من الجبال والبحار والبراري والأنهار والعمران والخراب، وهي واقفة في مركز العالم في وسط الهواء بجميع ما عليها بإذن الله — عزَّ وجلَّ — والهواء محيط بها من جميع جهاته كإحاطة بياض البيضة بمُحِّها، وفلك القمر محيط بالهواء من جميع جهاته كإحاطة القشرة ببياض البيضة، وفلك عُطَارد محيط بفلك القمر على مثل ذلك.

وعلى هذا القياس سائر الأفلاك إلى أن تنتهي إلى الفلك المحيط بالكل كما ذكره الله — جلَّ ثناؤه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وهذا مثال تركيب الأفلاك وصورة سموك السموات، ومن فوقها فلك البروج، ومن فوقه الفلك المحيط:



فقد بان بهذا المثال أن جملة العالم إحدى عشرة كرة اثنتان في جوف فلك القمر وهما الأرض والهواء؛ لأن الأرض والماء كرة واحدة والهواء والأثير كرة واحدة، وتسع من ورائه محيطات بعضها ببعض.

(٤) فصل في أنه ليس للعالم فراغ

اعلم يا أخي أن هذه الأكر محيطات بعضها ببعض كإحاطة طبقات البصل، مماس سطح الحاوي بسطح المحوي، وليس بينهما فراغ ولا خلاء إلا فصل مشترك وهمي، وقد ظن قوم من أهل العلم أن بين فضاء الأفلاك وأطباق السموات وأجزاء الأمهات مواضع فارغة، وليس الأمر كما ظنوا؛ لأن معنى الخلاء هو المكان الفارغ الذي لا متمكن فيه، والمكان صفة من صفات الأجسام لا يقوم إلا بالجسم ولا يوجد إلا معه.

واعلم أن النور والظلمة هما أيضًا صفتان من صفات الأجسام، ولا يمكن أن يعقل أن موضعًا في العالم لا مظلمًا ولا مضيئًا البتة فأين وجود الخلاء إذن؟!

واعلم أنه إنما ظن مَن قال بوجود الخلاء أنه لما رأى بعض الأجسام تنتقل من موضع إلى موضع آخَر توهَّم أنه لولا الخلاء لكان الملء يمنعه من الحركة والنقلة.

واعلم بأنه لو كانت الأجسام كلها صلبة متماسكة الأجزاء كالحجر والحديد لكان الأمر كما ظنوا، ولكن لما كان بعض الأجسام رخوًا لطيفًا سيالًا كالماء والهواء لم يمتنع أن تتحرك بعض الأجسام بين أجزائه، كما يتحرك السمك في الماء، والطير في الهواء، وسائر الحيوانات على وجه الأرض.

(٥) فصل في أنه ليس خارج العالم لا خلاء ولا ملاء

اعلم أن الشمس لما كانت في الفلكاعلم يا أخي أن هذه الإحدى عشرة كرة هي جملة العالم ومساكن الخلائق أجمعين، وقد ظن كثير بالأوهام أن وراء الفلك المحيط جسم آخَر وخلاء بلا نهاية، وكلا الحكمين خطأ لا حقيقة له؛ لأنه قد قام بالبرهان العقلي أن الخلاء غير موجود أصلًا لا خارج العالم ولا داخله؛ لأن معنى الخلاء هو المكان الفارغ الذي لا متمكن فيه كما وصفنا، والمكان صفة من صفات الأجسام وهو عَرَض ولا يقوم إلا بالجسم ولا يوجد إلا معه، فمَن ادَّعَى أن خارج العالم جسم آخَر من أجْل الوَهْم الذي يتخيله فهو المُطالَب بالدليل على دعواه.

واعلم أن الوهم قوة من قوى النفس، وهي تتخيل ما لا حقيقة له، وما له حقيقة، فليس ينبغي أن يحكم على متخيلاتها أنها حق وباطل دون أن تشهد لها إحدى القوى الحساسة، ويقوم عليها برهان ضروري، أو يقضي لها العقل.

واعلم أن حكم العقل هو الذي يتساوى فيه العقلاء، وكلهم لم يتفقوا على أن خارج العالم جسم آخَر؛ لأن الحس لم يدركه، والعقل لم يقضِ به، والبرهان لم يَقُمْ عليه، فأي قضية تحكم أن هناك جسمًا آخَر غير تخيُّل الأوهام الكاذبة، فإن كان هناك جسم آخر كما ادَّعَى المُدَّعي فلا يمكن أن يكون من ورائه شيء آخَر؛ لأن الجسم ذو نهاية، والخلاء ليس بموجود ببراهين قد قامت كما ذكرنا، فأما الدليل على أن كل جسم ذو نهاية فقد اتَّفقت عليه الآراء النبوية والفلسفية جميعًا، وذلك أن من الرأي النبوي أن كل جسم مخلوق، وكل مخلوق ذو نهاية في أولية العقل، ومن الرأي الفلسفي أن كل جسم مركب من هَيُولَى وصورة، وكل مركب ذو نهاية في أولية العقل.

(٦) فصل في أن موضع الشمس وسط العالم

اعلم أن الشمس لما كانت في الفلك كالمَلِك في الأرض والكواكب لها كالجنود والأعوان والرعية للمَلِك، والأفلاك كالأقاليم، والبروج كالبلدان، والدرجات والدقائق كالقُرَى صار مركزُها بواجب الحكمة الإلهية وسط العالم، كما أن دار المَلِك وسط المدينة ومدينته وسط البلدان من مملكته، وذلك أن مركز الشمس وسط فلكها وفلكها في وسط الأفلاك؛ لأنه لما كانت جملة العالم إحدى عشرة كرة كما بينَّا قبلُ، وكان خمس منها من وراء فلكها محيطات بعضها ببعض، وهي كرة المِرِّيخ وكرة المُشتَرِي وكرة زحل وكرة الكواكب الثابتة وكرة المحيط وخمس دونها، وهي في جوف كرتها محيطات بعضها ببعض، أولها فلك الزُّهَرة، ودونها كرة عُطَارد، ودونها كرة القمر، ودونها كرة الهواء، ودونها كرة الأرض، فصار موضعها في وسط العالم بهذا الاعتبار، كما أن موضع الأرض في مركز العالم.

(٧) فصل في ماهية البروج

اعلم يا أخي أن البروج هي اثنا عشر، قسمة وهمية في سطح فلك المحيط يفصلها اثنا عشر خطًّا وهميًّا، وهي تبتدئ من نقطة وتنتهي إلى نقطة أخرى في مقابلتها، فيقسم سطح كرة باثنتَيْ عشرة قسمة، كل واحدة منها كأنها جزء البطيخة تسمى البرج، والنقطتان تسمَّيَان قطبَيِ الكرة، وأن الشمس ترسم على سطح كرتها بحركتها في كل ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا دائرة وهمية كما سنبيِّن بعدُ، والدائرة تقسم الكرة نصفين، وكل برج بقسمين متساويين، حصة كل برج من تلك الدائرة قطعة قوس قدرها ثلاثون جزءًا من ثلاثمائة وستين، وبهذه الدائرة ودرجتها يُقاس دوران سائر الأفلاك والكواكب، وبحركات الشمس تُعتبَر سائر حركات الكواكب في الزيجات، وبأحوال الشمس تعتبر أحوال الكواكب في المواليد.

(٨) فصل في أقطار الأفلاك وسموك السموات

واعلم يا أخي أن لكل كرة من هذه الأكر قطرًا وسمكًا، وسمك كل واحد منها أقل من قطرها إلا الأرض، فإن سمكها مثل قطرها؛ لأنها كرة غير مجوفة، وأما سائر الأكر فإنها

لما كانت مجوفة صارت سموكها أقل من أقطارها، فقطر الأرض ألفان ومائة وسبعة وستون فرسخًا، وأعظم دائرة على بسيطها ستة آلاف وثمانمائة فرسخ، وأما سمك كرة الهواء فإنه سبع عشرة مرة ونصف مثل قطر الأرض، فيكون ذلك سبعة وثلاثين ألفًا وتسعمائة واثنين وعشرين فرسخًا ونصف فرسخ، وقطر هذه الكرة مثل سمكها مرتين وزيادة قطر الأرض عليه مرة واحدة، وأما سمك كرة القمر فمثل سمك كرة الهواء سواء، وقطره مثل سمكه مرتين، وزيادة قطر الهواء عليها مرة واحدة، وأما سمك كرة عُطَارد فإنه مثل قطر الأرض مائة مرة وخمس، قطرها مثل سمكها مرتين وزيادة قطر فلك القمر عليها مرة واحدة، وأما سمك الزُّهَرة فمثل قطر الأرض تسعمائة وخمس عشرة مرة، وقطرها مثل سمكها مرتين وزيادة قطر فلك عُطَارد عليه مرة واحدة، وأما سمك كرة الشمس فمائة مرة مثل قطر الأرض، وقطرها مثل سمكها مرتين وزيادة قطر فلك الزُّهَرة عليه مرة واحدة.

أما سمك كرة المِرِّيخ فمثل قطر الأرض سبعة آلاف مرة وستمائة وست وخمسين مرة، وقطرها مثل سمكها مرتين، وزيادة قطر الشمس عليه مرة واحدة، وأما سمك فلك المُشتَرِي فمثل قطر الأرض خمسة آلاف مرة وخمسمائة وسبع وعشرين مرة، وقطرها مثل سمكها مرتين وزيادة قطر فلك المِرِّيخ عليه مرة واحدة، وأما سمك فلك زحل فمثل قطر الأرض سبعة آلاف وستمائة وخمس مرات، وقطرها مثل سمكها مرتين وزيادة قطر فلك المُشتَرِي عليه مرة واحدة، وأما سمك كرة فلك الكواكب الثابتة فإنه مثل قطر الأرض اثني عشر ألف مرة بالتقريب، وقطرها مثل سمكها مرتين وزيادة قطر زحل عليه مرة واحدة.

(٩) فصل في كمية عدد الكواكب الثابتة والسيارة

وهي ألف وتسعة وعشرون كوكبًا، الذي أُدرك بالرصد منها السبعة السيارة وهي: زُحَل والمُشتَرِي والمِرِّيخ والشمس والزُّهَرة وعُطَارد والقمر، لكل واحد منها فلك يختص به، وهي محيطات بعضها ببعض كما بينَّا من قبلُ، وأما سائر الكواكب وهي ألف واثنان وعشرون كوكبًا فكلها في فلك واحد وهو الفلك الثامن المحيط بفلك الكواكب أي زحل وسائر الأفلاك هي في جوفه.

(١٠) فصل في مقادير أقطارها في رأي العين

وقطر جرم الشمس في رأي العين مساوٍ لإحدى وثلاثين دقيقة من درجة على أن الدرجة ستون دقيقة، وقطر جرم القمر إذا كان في أبعد أبعاده مساوٍ لقطر الشمس، وقطر جرم عُطَارد إذا كان في بُعْده الأوسط جزء من خمسة وعشرين جزءًا من قطر الشمس، وقطر جرم الزُّهَرة جزء من اثني عشر جزءًا من قطر الشمس، وقطر جرم المِرِّيخ جزء من عشرين جزءًا من قطر الشمس، وقطر جرم المُشتَرِي جزء من اثني عشر جزءًا من قطر الشمس، وقطر جرم زحل جزء من ثمانية وعشرين جزءًا من قطر الشمس.

(١١) فصل في نسبة أقطارها من قطر الأرض

فقطر جرم عُطَارد جزء من ثمانية عشر جزءًا من قطر الأرض، وقطر جرم الزُّهَرة جزء وربع من ثلاثة أجزاء من قطر الأرض، وقطر جرم القمر جزآن وخمس من ثلاثة أجزاء من قطر الأرض، وقطر جرم الشمس مثل قطر الأرض خمس مرات ونصف، وقطر جرم المِرِّيخ مثل قطر الأرض مرة وسدس، وقطر جرم المُشتَرِي أربع مرات ونصف وثُمن مثل قطر الأرض، وقطر زحل أربع مرات ونصف مثل قطر الأرض.

(١٢) فصل في مقادير أجرام هذه الكواكب من جرم الأرض

القمر جزء من تسعة وثلاثين جزءًا من الأرض، وعُطَارد جزء من اثنين وعشرين جزءًا من الأرض، والزُّهَرة جزء من سبعة وأربعين جزءًا من الأرض، والشمس مثل الأرض مائة وستين مرة وكسر، والمِرِّيخ مثل الأرض مرة ونصف وثُمن، والمُشتَرِي مثل الأرض خمسًا وتسعين مرة، وزحل مثل الأرض إحدى وتسعين مرة.

(١٣) فصل في مقادير الكواكب الثابتة

وهي ألف واثنان وعشرون كوكبًا، خمسة عشر منها كل واحد مثل الأرض مائة مرة وثمانِ مرات، وقطر كل واحد منها مثل قطر الأرض أربع مرات ونصف وربع، وفي رأي العين جزء من عشرين جزءًا من قطر جرم الشمس، ومنها خمسة وأربعون كوكبًا كل واحد منها مثل الأرض تسعين مرة، ومنها مائتا كوكب وثمانية كواكب كل واحد مثل الأرض

اثنتين وسبعين مرة، ومنها أربعمائة وأربعة وسبعون كوكبًا كل واحد منها مثل الأرض أربعًا وخمسين مرة، ومنها مائتان وسبعة وعشرون كوكبًا كل واحد منها مثل الأرض ستًّا وثلاثين مرة، ومنها ثلاثة وثلاثون كوكبًا كل واحد منها مثل الأرض ثماني عشرة مرة.

(١٤) فصل في اختلاف دوران الأفلاك حول الأرض

واعلم يا أخي أن الفلك المحيط الذي هو المحرك الأول عن الحركة الأولى التي هي النفس الكلية يدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة سواء دورة واحدة، ولما كان الكوكب في جوفه مماسًّا له من داخله صار يديره معه نحو الجهة التي يدور إليها، ولكن تقصر حركته عن سرعة حركة محركه بشيء يسير، فيختلف عن موازاة أجزائه في كل مائة سنة درجة واحدة، ولما كان أيضًا فلك زحل في جوف هذا الفلك مماسًّا له في داخله صار يديره معه نحو الجهة التي يدور إليها، ويتبعه فلك زحل، ولكن يقصر أيضًا حركته عن سرعة محركه بشيء يسير، فيختلف في كل يوم عن موازاة أجزاء الفلك المحيط دقيقتين، وهكذا يجري حكم فلك المُشتَرِي في جوف ذلك زحل كل يوم خمس دقائق يتأخر عن موازاة أجزاء الفلك المحيط، وكذلك حكم فلك المِرِّيخ في جوف فلك المُشتَرِي يتأخر عن موازاة أجزاء الفلك المحيط في دورة في كل يوم إحدى وثلاثين دقيقة، وهكذا حكم الشمس في جوف فلك المِرِّيخ وفلك الزُّهَرة في جوف فلك الشمس، وفلك عُطَارد في جوف فلك الزُّهَرة يتأخر كل واحد منها عن موازاة أجزاء الفلك المحيط في كل يوم تسعًا وخمسين دقيقة، وأما فلك القمر فيتأخر كل يوم عن موازاة الدرجة التي كان موازيًا لها ثلاث عشرة درجة وكسرًا، فقد بان بهذا الشرح أن كل واحدة من هذه الأكر متحركة بما فوقها ومحركة لما تحتها إلى أن تنتهي إلى فلك القمر، وأن كل واحدة تنقص حركتها عن سرعة حركة محركها، وأن فلك القمر أبطؤها حركة من أجْل بُعْده من المحركة الأولى التي هي فلك المحيط لكثرة المتوسطات بينهما، فلهذا السبب صار دوران هذه الاكر حول الأرض مختلف الأزمان.

فصل

وأما تفاوت أزمان أدوارها فذلك أن الفلك المحيط يدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة سواء دورة واحدة، وفلك الكواكب في أكثر من هذه المدة بشيء يسير، وفلك زحل في أكثر من ذلك بما يكون مقداره جزءًا من أربعمائة وخمسين جزءًا من ساعة، وهكذا فلك

المُشتَرِي يدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة وجزءًا من مائة وثمانين جزءًا من ساعة دورة واحدة، وأما فلك المِرِّيخ فيدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة وسدسًا وخُمس ساعة من ساعة دورة واحدة، وأما فلك الشمس والزُّهَرة وعُطَارد فإن كل واحد منها يدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة وخُمس وثُلث ساعة من ساعة دورة واحدة، وأما القمر فإنه لما كان أبطأها حركة صار يدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة وزيادة ستة أسباع ساعة دورة واحدة.

(١٥) فصل فيما يعرض للكواكب من الدوران في فلك البروج

فلهذا السبب عرض للكواكب دورانها في فلك البروج في أزمان مختلفة، بيان ذلك أنه إذا سامتت الشمس بقعة من الأرض مع أول درجة من الحمل فإن تلك تعود إلى سمت تلك القبعة بعد أربع وعشرين ساعة وهكذا دأبها دائمًا، أما الشمس فإنها تعود إلى سمت تلك البقعة مع الدرجة الثانية منه وهكذا دأبها دائمًا، وأما القمر فإنه يعود إلى سمت تلك البقعة مع الدرجة الثالثة عشرة من برج الحمل بعد أربع وعشرين ساعة بزيادة ستة أسباع ساعة بالتقريب، وفي اليوم الثالث يعود في الدرجة السادسة والعشرين من برج الحمل بعد ساعة وخمسة أسباع ساعة، وفي اليوم الرابع يعود مع الدرجة التاسعة من برج الثور بعد ساعتين وأربعة أسباع ساعة، وعلى هذا القياس تتأخر مسامتته في كل يوم لتلك البقعة مع درجة أخرى، إلى أن يحصل هذا التأخر عن فلك البروج في كل سبعة وعشرين يومًا وتسع ساعات وخُمس وسُدس ساعة دورة واحدة، ويحصل له أيضًا في هذه المدة حول الأرض سبع وعشرون دورة وكسر، ويحصل أيضًا لتلك الدرجة في هذه المدة حول الأرض ثمانٍ وعشرون دورة وكسر، وأما الشمس فهكذا حكمها وذلك بأنها إذا سامتتْ بقعة من الأرض مع أول دقيقة من برج الحمل فإنها تعود إلى مسامتة تلك البقعة مع الدقيقة التاسعة والخمسين من تلك الدرجة بعد أربع وعشرين ساعة وخُمس دقيقة من ساعة، وفي اليوم الثاني تعود مع آخِر الدرجة الثانية من الحمل، وهكذا تتأخر مسامتتها في كل يوم مع درجة أخرى إلى أن يحصل لها في فلك البروج ثلاثمائة وخمسة وستون يومًا وست ساعات دورة واحدة، ويحصل أيضًا حول الأرض في هذه المدة ثلاثمائة وخمس وستون دورة وكسر، ويحصل لتلك الدقيقة في هذه المدة حول الأرض ثلاثمائة وست وستون دورة وكسر، وكذلك يجري حكم عُطَارد والزُّهَرة،

وأما المِرِّيخ فإنه إذا سامتَ بقعة من الأرض مع دقيقة من درجة فإنه يعود في اليوم الثاني مع الدقيقة الحادية والثلاثين من تلك الدرجة، وفي اليوم الثالث مع الدقيقة من الدرجة التي تتلوها إلى أن يحصل له في فلك البروج سنة فارسية وعشرة أشهر واثنان وعشرون يومًا دورة واحدة، وفي هذه المدة أيضًا يحصل له حول الأرض سبع وثمانون وستمائة دورة، ولتلك الدقيقة ٦٨٨ وهي زيادة دورة واحدة.

وأما المُشتَرِي إذا سامتَ بقعة مع دقيقة من درجة فإنه يعود إلى سمت تلك البقعة مع الدقيقة الخامسة من تلك الدرجة، وفي اليوم الثاني مع الدقيقة العاشرة وهكذا دأبه إلى أن يحصل في فلك البروج في كل إحدى عشرة سنة وعشرة أشهر وستة وعشرين يومًا دورة واحدة، ويحصل له في هذه المدة حول الأرض ٤٤٣٥ دورة، ولتلك الدقيقة ٤٣٣٦ دورة.

وأما زُحَل فإنه إذا سامت بقعة فإنه يعود في اليوم الثاني مع أول دقيقة ثالثة، وفي اليوم الثالث مع الدقيقة الخامسة وحصة كل يوم دقيقتان، إلى أن يحصل له في فلك البروج في كل تسع وعشرين سنة وخمسة أشهر وستة أيام دورة واحدة، ويحصل له حول الأرض في هذه المدة ٩١١١ دورة، ولتلك الدورة ٩١١٢ دورة.

وأما الكواكب الثابتة فإنه إذا سامت واحد منها بقعة من الأرض، فإنه يعود إلى تلك البقعة مسامتًا لها مع ثالثة من ثانية من دقيقة من درجة فيحصل له في فلك البروج في ست وثلاثين ألف سنة دورة واحدة، ويحصل له حول الأرض دورات كثيرة.

ولَمَّا بان لأصحاب الرصد دوران الفلك المحيط من المشرق إلى المغرب فوق الأرض، ومن المغرب إلى المشرق تحت الأرض ودوران باقي الأفلاك تابعة له بكواكبها ووجدوها مقصرة عنه عن سرعة حركته متأخرة عنه في كل يوم بقدر ما لكل دور دون الآخر كما بينَّا عملوا لها حسابًا ودوَّنوه في الزيجات، ليعرفوا أي وقت أرادوا مواضعها وموازاتها من فلك البروج معرفة حقيقته.

ولما تبين أصحاب الزيجات أيضًا ما يعرض للكواكب من الدوران في فلك البروج بسبب إبطاء حركة أكرها عن سرعة حركة فلك المحيط سمَّوْا ما يعرض لها في فلك البروج من الدوران حركة من المغرب إلى المشرق، ليكون فرق بالتسمية بين دورانها حول الأرض ودورانها في فلك البروج.

(١٦) فصل في بطلان قول مَن يقول إنها تتحرك من المغرب إلى المشرق

وقد ظن كثير من الناظرين في علم النجوم ممَّن ليس له رياضة بالنظر في علم الهندسة والطبيعيات أن هذه الكواكب السيارة تتحرك من المشرق إلى المغرب مخالفة لدوران الفلك المحيط، وليس الأمر كما ظنوا وتوهموا؛ لأنه لو كان كما ظنوا لكان سبيلها أن تطلع من المغرب وتغيب بالمشرق، كما أن الفلك المحيط تطلع درجاته من المشرق وتغيب في المغرب، وقد شهدوا دورانها في فلك البروج مخالفًا لدوران الفلك فسمَّوْها حركة من المشرق إلى المغرب، وشبَّهوها بحركات نملات تتحرك على وجه الرحى مستقلة بحركتها معاندة مخالفة لها في حركاتها والرحى بسرعة حركتها ترد تلك النملات إلى دورانها، فلو كان كما قالوا حقيقة لكانت حركتها سبعة فقط؛ لأنها سبعة كواكب، والأمر بخلاف ذلك؛ لأن أصحاب سيارة الرصد ذكروا أنها خمس وأربعون حركة كما سنبين بعدُ، وقالوا: إن القمر أسرع الكواكب حركة فلو كان كما ذكروا لدار حول الأرض في أقل من أربع وعشرين ساعة، وقد بينَّا أنه يدور في أكثر من ذلك، ولو كانت حركاتها بالقصد معاندة لحركات الفلك المحيط لوجب أن تكون طباعها مخالفة لطباع الفلك المضادة لها، وكان يجب أن يكون لها خمس وأربعون طبيعة؛ لأنها خمس وأربعون حركة، وليس الأمر كما ظنوا وتوهموا، بل طبيعة الأفلاك والكواكب كلها طبيعة واحدة في الحركة الدورية وقصدها قصد واحد، وإنما اختلفت حركاتها في السرعة والإبطاء من أجْل أنها في الأفلاك محركات ومتحركات كما بينَّا قبلُ، ومن أجْل اختلاف حركاتها في السرعة والإبطاء اختلفت أزمان أدوارها حول الأرض، ومن أجْل اختلافها حول الأرض اختلفت أدوارها في فلك البروج كما بينَّا، وأما مَثَل اختلاف دورانها حول الأرض كدوران الطائفين حول البيت الحرام.

(١٧) فصل في أن مثال دورانها حول الأرض كدوران الطائفين حول البيت الحرام

وذلك أن مثل البيت وسط المسجد الحرام، والمسجد وسط الحرم، والحرم وسط الحجاز، والحجاز وسط بلدان الإسلام كمثل الأرض وسط كرة الهواء، وكرة الهواء في وسط كرة القمر، وفلك القمر في وسط الأفلاك، وكمثل المصلِّين من الآفاق المتوجهين نحو البيت كمثل الكواكب في الأفلاك ومطارح شعاعاتها نحو مركز الأرض، ومثل دوران الأفلاك

بكواكبها حول الأرض كمثل دوران الطائفين حول البيت، ومثل اختلاف أدوارها حول الأرض كمثل اختلاف أشواط الطائفين حول البيت؛ وذلك أنَّا نرى الطائفين حول البيت منهم مَن يمشي الهُوَينَى، ومنهم مَن يستعجل، ومنهم مَن يهرول، ومنهم مَن يسعى، فتختلف بحسب ذلك أشواطهم، وكلهم متوجهون في طوافهم نحوًا واحدًا وقصدًا واحدًا، ولكن إذا بلغ الماشي الركن العراقي فقد بلغ المستعجل الركن الشامي، والمهرول الركن اليماني، والساعي الحجر الأسود، فبهذا السبب إذا طاف الماشي شوطًا واحدًا فقد طاف الساعي أشواطًا، فهؤلاء الطائفون وإن اختلفت أشواطهم من أجْل سرعة حركاتهم وإبطائها فليس قصدهم إلا قصدًا واحدًا إلى جهة واحدة، فهكذا حكم الأفلاك وكواكبها في دورانها حول الأرض، وكما أن الطائفين حول البيت يبتدئون من عند باب البيت، ويجتمعون عنده سبعة أشواط يدورونها حول البيت، فهكذا يُقال إن الكواكب كلها ابتدأت بحركاتها من موازاة أول دقيقة من برج الحمل الذي كأنه باب الفلك، ثم دارت حول الأرض، ثم اختلفت موازاتها بعد ذلك في درجات البروج بحسب سرعتها وإبطائها كما قيل، وإذا اجتمعت هذه كلها بعد دورات كثيرة في موازاة تلك الدقيقة التي ابتدأت منها قامت القومة الكبرى واستأنفت الدور.

(١٨) فصل في مثال أدوارها

واعلم يا أخي أن حكماء الهند ضربوا مثلًا لدوران هذه الكواكب حول الأرض ليقرب على المتعلِّمين فهمُه ويسهل على المتأملين تصوُّرُه: ذكروا أن مَلِكًا من الملوك بنى مدينة دُورها ستون فرسخًا، وأرسل سبعة نفر يدورون حولها بسير مختلف؛ أحدهم كل يوم فرسخًا، والآخر كل يوم فرسخين، والثالث كل يوم ثلاثة فراسخ، والرابع كل يوم أربعة فراسخ، والخامس كل يوم خمسة فراسخ، والسادس كل يوم ستة فراسخ، والسابع كل يوم سبعة فراسخ، فقال: دوروا حول هذه المدينة، وليكن ابتداؤكم من عند الباب، فإذا اجتمعتم عند الباب بعد دوراتكم فتعالَوْا فعرِّفوني كم دار كل واحد منكم.

فمَن فهِمَ حساب دوران هؤلاء النفر حول تلك المدينة وتصوَّره يمكنه أن يفهم دوران هذه الكواكب حول الأرض بعد كم دورة يجتمعون في أول برج الحمل كما كان ابتداؤهم، فأما حساب أولئك النفر فإنهم بعد ستين يومًا يجتمع ستة نفر عند باب المدينة وقد دار واحد منهم دورة والآخر دورتين والثالث ثلاث دورات والرابع أربع دورات والخامس خمس دورات والسادس ست دورات، فأما الذي يدور كل يوم سبعًا فقد دار

ثمانية أدوار وزاد أربعة أسباع فرسخ دور، فيحتاج هؤلاء النفر أن يستأنفوا الدور فبعد مائة وعشرين يومًا يجتمعون مرة أخرى عند الباب وقد دار كل واحد حسابه الأول مرة أخرى، ولكن السابع قد دار سبع عشرة مرة وزاد فرسخًا واحدًا، فيجتاحون أن يستأنفوا الدور، فبعد مائة وثمانين يومًا يجتمع الستة مرة ثانية وقد دار واحد حسابه الأول مرة ثالثة، ولكن صاحب السابع قد دار خمسًا وعشرين دورة وزاد خمسة أسباع فيحتاجون أن يستأنفوا الدور فبعد مائتين وأربعين يومًا يجتمعون مرة رابعة وقد دار كل واحد منهم حسابه الأول، ولكن صاحب السبعة قد دار أربعًا وثلاثين دورة وزاد سبعين، فيحتاجون أن يستأنفوا الدور فبعد ثلاثمائة يوم يجتمعون مرة خامسة وقد دار كل واحد منهم حسابه الأول مرة خامسة، ولكن صاحب السبعة قد دار اثنتين وأربعين دورة وزاد ستة أسباع فيحتاجون أن يستأنفوا الدور فبعد ثلاثمائة وستين يومًا يجتمعون مرة سادسة وقد دار كل واحد منهم لحسابه الأول مرة سادسة، ولكن صاحب السبعة دار إحدى وخمسين دورة وزاد ثلاثة فراسخ، فيحتاجون أن يستأنفوا الدور فبعد أربعمائة وعشرين يومًا يجتمعون كلهم عند باب المدينة وقد دار الأول سبعة أدوار والثاني أربع عشرة دورة، والثالث إحدى وعشرين دورة، والرابع ثمانيَ وعشرين دورة، والخامس خمسًا وثلاثين دورة، والسادس اثنتين وأربعين دورة، والسابع قد دار ستين دورة.

فهذا مثل ضربه حكماء الهند لدوران الأفلاك والكواكب حول الأرض، وذلك أن مثل الأرض كمثل تلك المدينة المبنية التي دُورها ستون فرسخًا، ومثل الكواكب السبعة السيارة ودورانها حول الأرض كمثل أولئك النفر السبعة، واختلاف حركاتهم في السرعة والإبطاء كاختلاف سير أولئك النفر، والمَلِك هو الله الباري المصوِّر، تبارك الله ربُّ العالَمِين.

(١٩) فصل فيما يُرَى لها من الرجوع والاستقامة والوقوف

اعلم يا أخي أن الذي يُوصف من هذه الكواكب السبعة السيارة خمسة منها، وهي: زُحَل والمُشتَرِي والمِرِّيخ والزُّهَرة وعُطَارد، تارةً بالرجوع، وتارةً بالوقوف، وليس بالحقيقة ذلك، وإنما هو عارض في رأي العين، وذلك أن كل كوكب جرمه على كرة صغيرة تسمَّى أفلاك التداوير، وهي مركبة كل واحدة على فلك من الأفلاك الكبار التي تقدَّم ذكرُها، وغائصة في غلظ سموكها، ويكون جانب منها مما يلي سطوحها العلوي، وجانب منها مما يلي سطوحها السفلي، كل واحدة منها أيضًا دائمة الدوران في مواضعها من أفلاكها الحاملة لها، ويعرض لكل كوكب إذا كان مركبًا عليها تارةً الصعود إلى أعلى سطح فلك

فيبعد عن الأرض، وتارةً النزول من هناك، فيقرب من الأرض، فإذا كان في أعلى ذراها ترى له حركة على توالي البروج من أولها إلى آخرها، وإذا كان في أسفل فلكه تُرى له حركة من آخر البروج إلى أولها، وإذا كان صاعدًا أو نازلًا يُرى كأنه واقف وليس بواقف ولا راجع، ولكن دأبه الدوران، وإنما جعل أصحاب الرصد هذه الأسماء ألقابًا له.

(٢٠) فصل في تفصيل الحركات الخمس والأربعين

اعلم يا أخي أنه يعرض لكل كوكب من هذه السبعة ست جهات مختلفات؛ إحداها: من المشرق إلى المغرب، وأخرى: من المغرب إلى المشرق، وأخرى: من الشمال إلى الجنوب، وأخرى: من الجنوب إلى الشمال، وأخرى: من فوق إلى أسفل، وأخرى: من أسفل إلى فوق، فتكون جملتها اثنتين وأربعين حركة، ويعرض للكواكب الثابتة حركتان وللفلك المحيط حركة واحدة، فتلك هي خمس وأربعون حركة، فأما حركتها من المشرق إلى المغرب فهي بالقصد الأول الحقيقي، وأما سائرها فبالعرض لا بالقصد، وأما الذي يعرض من المغرب إلى المشرق فقد بيَّنَّا معناه فيما تقدَّم، وأما الذي يعرض من فوق إلى أسفل ومن أسفل إلى فوق فهو من جهة أفلاك التداوير، ومن جهة الأفلاك الخارجة عن المراكز، وأما التي تعرض من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال فمن جهة مَيْل فلك البروج عن فلك معدل النهار وشرحها يطول، فمن أراد هذا العلم مستقصًى فلينظرْه في كتاب المَجَسْطي، أو بعض المختصرات في تركيب الأفلاك.

(٢١) فصل في بيان الظلمتين الموجودتين في العالم

اعلم يا أخي أن العالَم بأسْره مضيء بنور الشمس والكواكب، وليس فيه إلا ظلمتان: إحداهما ظل الأرض، والأخرى ظل القمر، وإنما صار لهذين الجسمين الظل من أجل أنهما غير نَيِّرَيْن ولا مشفَّيْن، وأما النور الذي يُرى على وجه القمر فإن ذلك من إشراق الشمس على سطح جرمه ولانعكاس شعاعاتها كما يرى مثل ذلك في وجه المرآة إذا قابلت الشمس، وأما سائر الأجسام التي في العالم فبعضها نيِّر ونورها ذاتي لها، وهي: الشمس والكواكب والنار التي عندنا، وأما باقي الأجسام فكلها مشفات وهي الأفلاك والهواء والماء وبعض الأجسام الأرضية كالزجاج والبلور وما شاكلها، والأجسام النيِّرة: هي التي نورها ذاتي، والأجسام المشفة هي التي ليس لها نور ذاتي ولا لون طبيعي،

ولكن إذا قابلها جسم نير سَرَى نوره في جميع أجزائها مرة واحدة؛ لأن النور صورة روحانية، ومن خاصية الصور الروحانية أن تسري في الأجسام دفعة واحدة، وتنسلَّ منها دفعة واحدة بلا زمان، فإذا حال بين الأجسام النيرة وبين الأجسام المشفة حائل غير مشف منع نور النيِّر أن يسري في الجسم المشف، والنور في جرم الشمس والكواكب والنار ذاتي لها، وأما في أجرام الأفلاك والهواء والماء فعرضي، وأما جرم الأرض والقمر فلما كانا غير نيرين ولا مشفين صار لهما الظل؛ لأن النور لا يسري فيهما كما يسري في الأجسام المشفة، غير أن جرم القمر صقيل يردُّ النور كما يرد وجه المرآة، وسطح جرم الأرض غير صقيل، فهذا هو الفرق بينهما.

(٢٢) فصل في علة الكسوفين

واعلم يا أخي أنه لما كان جرم الأرض وجرم القمر كل واحد منهما أصغر من جرم الشمس صار شكل ظلَّيْهما مخروطًا، وشكل المخروط هو الذي أوله غليظ وآخره دقيق، حتى ينقطع من دقَّتِه، فظِلُّ الأرض يبتدئ من سطحها، ويمتد في الهواء منخرطًا، حتى يبلغ إلى فلك القمر، ويمتد في سمكه حتى يبلغ إلى فلك عُطَارد، ويمتد في سمكه أيضًا إلى أن ينقطع هناك، فطوله من سطح الأرض إلى حيث ينقطع في فلك عُطَارد مثل قطر الأرض مائة مرة وثلاثون مرة، فيكون في سمك الهواء منه ستة عشر جزءًا ونصف، وفي سمك فلك القمر مثل ذلك، وسبعة وستون جزءًا منه في سمك فلك عُطَارد إلى حيث ينقطع، ويكون قطر هذا الظل حيث يمر القمر في وقت مقابلة الشمس مثل قطر جرم القمر مرتين وثلاثة أخماس، فإذا اتفق أن تكون الشمس عند إحدى العقدتين اللتين تسمَّيَان الرأس والذنب، فيكون مرور القمر في سمك الظل كله ممنوعًا عنه نور الشمس، فينكسف ثم يخرج من الجانب الآخر وينجلي.

وأما ظل جرم القمر فيبتدئ من سطح جرمه ويمتد منخرطًا في سمك بعضه، والباقي في سمك الهواء، ويقطعه حتى يصل إلى وجه الأرض، فيكون قطر استدارته على وجه الأرض هناك مقدار مائة وخمسين فرسخًا، يزيد وينقص بقدر بُعد القمر عن الأرض وقربه منها، وهذا في وقت اجتماعه مع الشمس، فإن اتفق اجتماعهما عند إحدى العقدتين نرى القمر محاذيًا لأبصارنا ولجرم الشمس فيمنع عنَّا نُورَها، فنراها منكسفة، وإذا كان القمر في غير هذين الموضعين — أعني الاجتماع والاستقبال — يكون إلى أحد الموضعين أقرب، فإن كان قربه إلى الاجتماع أكثر كان رأس مخروط ظله في سمك

الهواء، وإن كان إلى الاستقبال أقرب كان رأس مخروط ظله في سمك فلكه أو في سمك فلك عُطَارد، وأما رأس مخروط ظل الأرض فإلى الدرجة المقابلة لدرجة الشمس في أي برج كانت، ويدور أبدًا في مقابلة الشمس إذا كانت من فوق الأرض فظل الأرض تحتها، وإن كانت تحت الأرض فظل الأرض فوقها، وإن كانت بالمشرق فظل الأرض إلى ناحية المغرب، وإذا صارت بالمغرب صار الظل إلى ناحية المشرق، وهذا دأبهما دائمًا يكونان حول الأرض وهما الليل والنهار.

(٢٣) فصل في أن الفلك طبيعة خامسة

واعلم يا أخي أن معنى قول الحكماء: إن الفلك طبيعة خامسة، إنما يَعنون أن الأجسام الفلكية لا تقبل الكَوْن والفساد والتغيير والاستحالة والزيادة والنقصان، كما تقبلها الأجسام التي تحت فلك القمر، وأن حركاتها كلها دورية.

واعلم أن للأجسام صفات كثيرة، فمنها ما تشترك الأجسام كلها فيها، ومنها ما يختص ببعضها دون بعض، فالصفات التي تشترك فيها الأجسام كلها الطول والعرض والعمق فحسب.

واعلم أن الصفات إنما هي صور تحصل في الهَيُولَى، فيكون الهَيُولَى بها موصوفًا، فمن هذه الصورة التي تُسمَّى الصفات مهايا ذاتية للجسم مقوِّمة لوجدانه، كالطول والعرض والعمق؛ لأنها متى بطلت عن الجسم بطل وجدان الجسم، ومن الصورة ما هي متمِّمة للجسم مبلغة إلى أفضل حالاته، وهذه الصورة تختص ببعض الأجسام دون بعض، وربما يشترك فيها عدة أجسام فمِن الصور المتمِّمة ما يشترك فيها الأجسام الفلكية والطبيعية، وهي الشكل والحركة والنور والشفافة واليبس الذي هو تماسك الأجزاء، ومما يختص بالأجسام الطبيعية الحرارة والبرودة والثقل والتغيير والخفة والاستحالة والحركة على الاستقامة وما شاكلها، والذي يختص بالأجسام الفلكية سلب هذه الصفات كلها، فمِن أجْل هذا قيل إنها طبيعة خامسة؛ لأنها ليست حارة ولا باردة، ولا رطبة ولا ثقيلة ولا خفيفة، ولا يستحيل بعضها إلى بعض، فيكون منها شيء آخر، ولا يزيد في مقاديرها ولا ينقص؛ لأن الباري — جلَّ ثناؤه — أبدعها كلها، واخترعها تامة كاملة، فهي باقية بحالاتها إلى وقت ما يريد باريها — عزَّ وجلَّ — أن يُفنِيَها كيف شاء، كما أبدعها وصوَّرها واخترعَها وركَّبها وحرَّكها ودبَّرها، فتبارك الله أحسن الخالقين!

(٢٤) فصل في إبطال قول المتوهِّمين غير الحق

واعلم يا أخي أن كثيرًا من أهل العلم ظنوا أن معنى قول الحكماء إن الفلك طبيعة خامسة أنه مخالف لهذه الأجسام الطبيعية في كل الصفات، وليس الأمر كما ظنوا؛ لأن العيان يكذِّبهم، وذلك أن القمر أحد الأجسام الفلكية، وقد يُرى فيه اختلاف قبول النور والظلمة كما يُرى في الأجسام الأرضية وله ظل كظلالها، وهو غير مشفٍّ مثل الأرض، والأفلاك كلها تشارك الهواء والماء والبلور والزجاج في الإشفاف، والشمس والكواكب تشارك النار في النور، وكلها يشارك الأرض في اليبس، فقد بان بهذا أنهم لم يريدوا بقولهم طبيعة خامسة إلا الحركة الدورية، وأنها لا تَقبَل الكَوْن والفساد والزيادة والنقصان، كما تقبله الأجسام الطبيعية.

(٢٥) فصل في أنها ليست ثقيلة ولا خفيفة

واعلم يا أخي أنما قيل إن الأجسام الفلكية ليست خفيفة ولا ثقيلة؛ لأنها مُلازِمة لأماكنها الخاصة بها، وذلك أن الباري — عزَّ وجلَّ — لما خلق الجسم المطلق وفصل أبعاضه بالصور المتمِّمة، ورتَّبها محيطات بعضها ببعض كما بينَّا أولًا، جعل لكل واحد منها مكانًا هو أَلْيَق الأماكن به، وكل جسم في مكانه الخاص ليس بثقيل ولا خفيف؛ لأن الثقل والخفَّة يَعرِضان لبعض الأجسام بسبب خروجها من أماكنها الخاصة بها إلى مكان غريب.

واعلم يا أخي أن الأرض في مكانها، وهو مركز العالم ليست بثقيلة، ولا الماء فوقها بثقيل، ولا الهواء أيضًا ثقيل فوق الماء، ولا النار فوق الهواء أيضًا بثقيلة؛ لأنها في أماكنها الخاصة بها، وإنما يعرض الثقل والخفة لأجزائها إذا صارت في أماكن غريبة؛ وذلك أن أجزاء الأرض في جوف الماء والهواء غريبة، تريد اللحاق بمركزها وجنسها، فإذا منعها مانع وقع التنازع والتدافع، فيُسمَّى ذلك ثقلًا، وهكذا حكم الماء وأجزائه في جوف الهواء، وحكم أجزاء الهواء في الماء، وأجزاء النار في جوف الهواء، وكل واحد يريد اللحاق بعالمه ومركزه وأبناء جنسه، ولكن ما كان متوجِّهًا نحو مركز العالم يُسمَّى ثقيلًا، وما كان متوجهًا نحو المحيط يسمَّى خفيفًا، والدليل على أن كل جسم في موضعه ومكانه الخاص به لا خفيف ولا ثقيل هو كون أجزائه في جوف كليته لا ثقيلة ولا خفيفة، وبيان ذلك بالتجربة والاعتبار، وطريق تجربته أن تَملَأ قربتَيْن، إحداهما من الماء والأخرى من الريح

الذي هو الهواء، ثم تطرحهما في بركة ماء، فإنك ترى القربة التي هي مملوءة من الماء تغوص في جوف الماء، والتي فيها الريح تطفو فوق الماء، فإذا شيلت القربة التي هي مملوءة من الماء لا يوجد لها ثقل ما دامت في الماء؛ لأن الماء في الماء ليس بثقيل، وإذا صارتْ إلى فوق الماء أحس بثقلها، وأما القربة التي هي مملوءة من الهواء، فإنها إذا غُوِّصت في الماء وُجِد لها تمانُع شديد؛ لأن الهواء في جوف الماء خفيف، فإذا شيلت إلى الهواء لا يوجد ذلك التمانع؛ لأن الهواء في الهواء ليس بخفيف.

واعلم أنه إذا أُخذ من بِرْكة مُلِئتْ ماءً قدْرٌ من الماء، ثم رُدَّ إليها وقف ذلك الماء المردود حيث رُدَّ، كما أن التراب إذا أُخذَ من الأرض ثم رُدَّ إليها وقف حيث رُدَّ، وكذلك إذا استنشق الحيوان من الهواء ما يروح الحرارة الغريزية ثم ردَّه بالتنفُّس وقف ذلك الهواء المردود حيث رُدَّ، إن لم يعرض له دافع.

(٢٦) فصل في أن الأجسام الفلكية ليست بحارة ولا باردة ولا رطبة

واعلم يا أخي بأنه إنما قيل إنها ليست بحارة ولا باردة ولا رطبة من أجْل أن الحرارة إنما تعرض للأجسام السيَّالة المتحلِّلة عند الحركة؛ لأن أجزاءها تفارق مجاوراتها بعضها بعضًا وتتبدَّل بالغليان الذي هو الحرارة، ولما كانت الأجسام الفلكية متماسكة الأجزاء من شدة اليبس لم تفارق مجاورة أجزائها بعضها بعضًا، فلا يعرض لها الغليان الذي هو الحرارة، وأما البرودة فإنها تعرض للأجسام عند سكونها، والأجسام الفلكية دائمة الحركات والدوران فلا تسكن فتبرد، وأما الرطوبة فإنها تعرض للأجسام إذا تحرَّك بعض أجزائها وسكن البعض، وليس للأجسام الفلكية سكون.

واعلم أنه إنما صارت الأجسام الفلكية شديدة التماسُك من شدة اليُبس، وشدة اليبس من شدة الحركة والدوران؛ لأن الحركة تولد الحرارة، والحرارة تولد اليبوسة، واليبوسة إذا تناهت انطفأتِ الحرارة.

واعلم يا أخي أن الأجسام الفلكية محفوظة نظامها وباقية أشخاصها ما دامت ثابتة على دورانها، فإذا وقفت عن دورانها وسكنت حركاتها ولد السكون البرودة، وولدت الرطوبة التفشِّي والتبدُّد، والتفشي والتبدد يفسدان النظام، ومن فساد النظام يكون البوار والبطلان.

(٢٧) فصل في معنى القيامة

إنما يدوم دوران الفلك مادامت النفس الكلية مربوطة معه، فإذا فارقتْه قامتِ القيامة الكبرى؛ لأن معنى القيامة مشتقٌّ من القيام، فإذا فارقت النفس قامت قيامتها، قال رسول الله — صلَّى الله عليه وعلى آله: «مَن مَاتَ فقَدْ قَامَتْ قِيامتُه.» وإنما أراد قيام النفس لا الجسد؛ لأن الجسد لا يقوم عند الموت بل يقع وقوعًا لا يقوم بعده إلى أن تُرَدَّ النفس إليه ثانية، فانتَبِهْ يا أخي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتزوَّدْ للرحلة، واستعدَّ للقيامة قبل أن تقوم قيامتك، بأن يؤخذ منك هذا الهيكل المبني مملوءًا من آثار الحكمة قهرًا وأنت كارهٌ، فتبقى نفسُك بلا سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق ولا لمس، فارغة خاوية تهوي في هاوية البرزخ إلى يوم القيامة، إلى يوم يبعثون، فبادر وشمِّر واجتهد بأنْ تكتسب بتوسُّط هذا الهيكل الجسماني هيكلًا روحانيًّا، وبتوسط هذه الحواس الجسدانية حواسَّ عقلية، ليكون بعد حين، فترجع نفسك من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح بربح لا بخسران.

واعلم بأن النفس إذا فارقتْ هذا الهيكل فلا يَبقَى معها ولا يصحبها من آثار هذا الجسد إلا ما استفادت من المعارف الربانية والأخلاق الجميلة الملكية والآراء الصحيحة المنجية والأعمال الصالحة الزكية المرضية المربحة، وذلك أن تَبقَى هذه الأشياء في النفس مصورة في ذاتها إذا كانت معتادة لها صورةً روحانية نيِّرة بهيَّة، كلما لاحظت النفس ذاتها ورأت تلك الصورة فرحتْ بها وامتلأتْ سرورًا في ذاتها وفرحًا ولذةً، وذلك ثوابُها ونعيمُها بما أَسلَفَتْ في الأيام الخالية، وأما إذا كانت أخلاقها رديئة سيئة بشعة، وآراؤها فاسدة وأعمالها موبقة، وجهالاتُها متراكمة بقيتْ عمياء عن رؤية الحقائق، وتبقى هذه الأشياء في ذاتها مصورة صورةً قبيحة سَمِجة، فكلما لاحظتْ ذاتَها ونظرتْ إلى جوهرها رأتْ ما يسوءُها وتريد الفرار منه، وأين المفر لها من ذاتها؟!

فاعتبر يا أخي ما ذكرتُ لك، ولا تغترَّ بما أنتَ فيه من رغد العيش وصحة البدن وعشرة إخوان لك جسدانيين وأصدقاء جسمانيين، يريدونك لمعاونتهم على إصلاح أحوال أجسامهم، فإن قصَّرتَ عن معاونتهم أبغضوك، وإن تجلَّدتَ عليهم جَحَدوك، وإن عَلَوْتَهم حسدوك، وإن قصر حالُك شمتوا بك، ولا يريدونك إلا لصلاح ونجاح أمورهم وحوائجهم، فهلمَّ يا أخي إلى صحبة إخوان لك نفسانيين، وأقران لك روحانيين يريدونك، ولا يأخذون منك، ويخلِّصونك مما وقعتَ فيه بأن تدخل في صحبتهم وتسمع أقاويلهم

لتفهم مذاهبهم، وتنظر في كتبهم وتعرف طريقتهم وعلومهم، وتعمل بسنَّتِهم، وتسير بسيرتهم؛ لعلك تنجو بصحبتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون.

	فراسخ		فراسخ
قطر الأرض	٢١٦٧	سمك الشمس	٢١٦٨٠٠
دائرة على بسيط الأرض	٦٨٠٠	قطر الشمس	٤٩٩٠٠٣٧
سمك كرة الهواء	٦٨٠٢٢	سمك المِرِّيخ	٦٥٩٠٥٥٢
قطر الهواء	٧٨٢١٢	قطر المِرِّيخ	٣٨٠٨٤١
سمك القمر	٣٨٠٢٧	سمك المُشتَرِي	١١٩٨٧٠٠٩
قطر القمر	١٥٤٢٥٧	قطر المُشتَرِي	٦٢١٢٥١٥٩
سمك عُطَارد	١٢١٥٣٥	سمك زحل	١٦٤٧٠٠٣٥
قطر عُطَارد	٦٠٩٣٢٧	قطر زحل	٩٥٠٧٥٢٢٩
سمك الزُّهَرة	١٩٧٣٦٥٥	سمك فلك الكواكب الثابتة	٢٦٠٠٤٠٠
قطر الزُّهَرة	٤٥٥٦٦٣٧	قطر فلك الكواكب الثابتة	١٤٧٠٩٣٢٢٩

(تمَّت رسالة السماء والعالم، ويتلوها رسالة الكون والفساد.)

الرسالة الثالثة

من الجسمانيات الطبيعيات في بيان الكون والفساد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل في بيان الكون والفساد

اعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — أنه لما فرغنا من ذكر الأجسام الفلكية وبينَّا كمية أكرها وكيفية نظامها ومقادير أبعادها واختلاف دورانها وسرعة حركاتها وماهية طبائع جواهرها في الرسالة المُلقَّبة بالسماء والعالم، نريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقَّبة بالكون والفساد الأجسام الطبيعية التي دون فلك القمر، وكمية عددها، وكيفية نظامها، واختلاف طبائعها، وكيفية استحالة بعضها إلى بعض بتأثيرات الأجسام الفلكية فيها، وكمية الأجناس الكائنات المتولدة منها.

واعلم أيها الأخ — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — أن الأجسام التي تحت فلك القمر سبعة أجناس؛ أربعة منها هي الأمهات الكليات، وهي: النار والهواء والماء والأرض، وثلاثة هي المولَّدات الجزئيات، وهي: الحيوان والنبات والمعادن، فلنبدأ أولًا بوصف الأمهات الكليات، فنقول: إن الأمهات كل واحدة منها مركبة من هَيُولَى وصورة، فهيولاها كلها هو الجسم، وصورها هي التي بها تنفصل كل واحدة منها عن الأخرى، وهي الصورة المقوِّمة لذات كل واحدة منها، ولما كانت الصورة نوعين مقوِّمة ومتمِّمة احتجنا

أن نصفهما ليُعرَف الفرق بينهما، فنقول إن الصورة المقوِّمة لذات الشيء هي التي إذا فارقتْ هيولاها بطل وجدان ذلك الشيء، والصورة المتمِّمة هي التي تبلغ الشيء إلى أفضل حالاته التي يمكنه البلوغ إليها، وإذا فارقت هيولاها لم يبطل وجدان الهَيُولَى، مثال ذلك: السكون والحركة فإنهما إذا فارقا الجسم لا يبطل وجدان الجسم، وأما الطول والعرض والعمق فإذا فارقت الهَيُولَى يبطل وجدان الجسم.

واعلم يا أخي أن كل صورة مقوِّمة لذات الشيء تتلوها أخرى متمِّمة، وكل صورة مقوِّمة فاعلة لأخرى تابعة لها يتلو بعضها بعضًا، كما يتلو العدد أزواجُه أفرادَه، وأفرادُه أزواجَه بالغًا ما بلغ، مثال ذلك: الصورة المشاكِلة في جرم النار المقوِّمة لذاتها فهي حركة الغليان، والصورة المتمِّمة التابعة لها هي الحرارة، وتتلوها اليبوسة، ويتلوها تماسُك الأجزاء، فلولا رطوبة الهواء المحيطة بالنيران التي تمنعها أن تُفرِط في اليبوسة، لتماسكتْ أجزاؤها، وجفَّتْ كما تجفُّ نار الصاعقة، ولكن لو أصابها اليُبْس والجفاف لقلَّ الانتفاع بها، وهو الغرض الأقصى منها.

واعلم يا أخي أن الهواء جوهر شريف، فيه فضائل كثيرة وخواص عجيبة، من ذلك أنه يمنع النيران برطوبته أن تَيْبَس وتجفَّ، كما يمنع الأصوات بسيلانه أن تثبت زمانًا طويلًا، فيقلُّ الانتفاع بها، ويكثر الضرر منها، وذلك أن الأصوات ليست تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظَّها ثم تضمحل، ولو ثبتتِ الأصوات في الهواء زمانًا طويلًا لامتلأ الهواء من الأصوات، ولعظم الضرر منها حتى لا يمكن أن يُسمَع ما يُحتاج إليه من الكلام والأقاويل، وهكذا لو يبست النيران وجفت لما سَرَتْ في الأجسام ولم تنضجها، وبقيتِ الأشياء التي يُراد نضجها فجَّة غليظة.

فانظر يا أخي وتفكَّرْ في حكمة الباري — سُبْحَانَه — إذ جعل ثبات النيران بحسب مراد المستعمل لها، فإذا استغنَى عنها ردَّها إلى العدم بأسهل السعي، فلو بقيتْ بحالها لعظم الضرر منها، وقلَّ الانتفاع بها، ومن الصور المتمِّمة لذات النار اللطافة التي تُولِّدها الحرارة وتتلوها سرعة النفوذ في الأجسام، ومن الصور المتمِّمة لذات النار أيضًا النور، ويتلوه الإشراق، فقد اجتمعت في جرم النار عدة صور كلها متمِّمة لها، وهي الحركة والحرارة واليبوسة واللطافة والنور، وهي بكل صورة تفعل فعلًا غير ما تفعل بالأخرى، وذلك أنها بالحركة تُغلي الأجساد، وبالحرارة تُسخِّن، وباليبوسة تُنشِّف، وباللطافة تَنفُذ في الأجسام، وبالنور تُضيء ما حولها، وبالحرارة والحركة تُحِيل الأجسام إلى ذاتها، وأما الصورة المقوِّمة لذات الأرض فهي السكون الذي هو ضد الغليان، والتالية المتمِّمة لها

البرودة، والتالية للبرودة اليبوسة، والتالية لها تماسك أجزائها، ومن الصور المتمِّمة لها أيضًا غلظة جوهرها، ومن غلظة جوهرها تماسك أجزائها، ومن تماسك أجزائها نشأتِ الكائنات على ظهورها من الحيوان والنبات والمعادن.

واعلم يا أخي بأن اليبوسة نوعان؛ إحداهما: تابعة للحرارة وهي فاضلة، والأخرى: تابعة للبرودة وهي رذلة، وذلك أن اليبوسة التابعة للحرارة هضمة نضجة، والتي تتبع البرودة فجَّة غير نضجة، ومثال ذلك: يبوسة الياقوت والبلور وأشباهها فإنها قد نضجتها بالطبخ حرارة المعدن، فهي لا تستحيل ولا تتغيَّر، وأما التي تابعة للبرودة مثال يبوسة الثلج والجليد والملح وغيرها، فإنها لما كانت فجَّة غير نضجة صارت رذلة مستحيلة متغيرة، ومن أجْل هذا صارت الأجرام الفلكية لا تقبل الكون والفساد والتغيير والاستحالة؛ لأن تماسُك أجزائها من شدة يبوستِها، ويبوستُها تولَّدتْ من حرارة حركتها، ثم غلبت عليها اليبوسة فطفئت حرارتها، كما بينَّا في رسالة السماء والعالم.

وأما الأجسام الأرضية فلما كان تماسك أجزائها من اليبوسة الرذلة الغير النضجة المتولِّدة من البرودة والمتولِّدة من السكون صارت تستحيل وتتغير وتفسد.

فصل

واعلم يا أخي بأن الصورة المقوِّمة لذات الماء والهواء كليهما الرطوبة المتولدة من امتزاج الأجزاء المتحركة والساكنة جميعًا؛ وذلك أن اليبوسة لما كانت متولدة من شدة حركة أجزاء الهَيُولَى كلها، أو من شدة سكونها كلها، كما بينَّا قبلُ، وكانت الرطوبة ضدًّا لها دلَّتْ على أنها متولِّدة من مزاج الأجزاء المتحركة والساكنة، وأما الصورة المتمِّمة لذات الماء فهي كثيرة الأجزاء الساكنة الغليظة وقليلة الأجزاء المتحركة اللطيفة، ولما كانت الصورة المتمِّمة لذات الماء كثيرة الأجزاء الساكنة الغليظة وقليلة الأجزاء المتحركة اللطيفة صارتْ مُشاكِلة للأرض في البرودة، وصار مركزها مما يَلِي مركز الأرض، وأما الصورة المتمِّمة لذات الهواء فهي كثيرة الأجزاء اللطيفة المتحركة، وقليلة الأجزاء الغليظة الساكنة، ولما كانت الصورة المتمِّمة لذات الهواء كثيرة الأجزاء اللطيفة المتحركة صارت مشاكِلة للنار في الحرارة، وصار مركزها مما يلي مركز النار.

واعلم يا أخي بأنه لما كانت الصورة المقوِّمة للأجسام الفلكية هي شدة اليبوسة المتولدة من شدة الحرارة المتولدة من شدة سرعة الحركة، وكانت الصورة المقوِّمة للأجسام الأرضية اليبوسة المتولدة من شدة البرودة المتولدة من شدة السكون الذي هو

ضدُّ حركة الغليان، صارت الأجسام الأرضية مشاكِلة للفلكية في اليبوسة ومضادة لها في الحركة، ولما كانت حركتها حول المركز صار سكون هذه في المركز؛ لأن المضاد يفر من ضده إلى أبعد الأماكن، وأبعد الأماكن من المحيط هو المركز.

ولما كانت الصورة المقوِّمة للماء والهواء هي الرطوبة المتولدة من امتزاج الأجزاء المتحركة والساكنة، وكانت الرطوبة مضادة لليبوسة صار موضعها ما بين المحيط والمركز، ولما كانت الصورة المتمِّمة لذات الماء هي كثيرة الأجزاء الغليظة الساكنة فيه صار الماء مشاكِلًا للأرض في البرودة، وصار مركزه مما يلي مركزها، ولما كانت الصورة المتمِّمة لذات الهواء كثيرة الأجزاء اللطيفة المتحركة صارت مشاكلة للنار في الحرارة، وصار مركزها مما يلي مركزها، فقد بان يا أخي بهذا الشرح أن الأجسام بعضها مشاكِل لبعض في طبيعة ما، مضاد في طبيعة أخرى، ومن أجْل مضادة طباعها تبايَنَتْ مراكزُها، ومن أجْل مشاكلتها تَجَاوَرَتْ مراكزها، ولما ترتَّبتْ هذه الأجسام مراتبها صار كل واحد في مركزه الخاص به واقفًا بلا مماسك ولا عمد لا ثقيلًا ولا خفيفًا، ولا تخرج من مواضعها إلا بعارض قاهر لها، فإذا خَلَتْ رجَعَتْ إلى موضعها الخاص بها، فإن منعها مانع وقع التنازع بينهما، فإن كان النزوع إلى ناحية المحيط يُسمَّى خفيفًا، وإن كان إلى ناحية مركز العالَم يُسمِّى ثقيلًا، ولما ترتبت الأكر وقف كل واحد من هذه الأركان في موضعه الخاص به محيطات بعضها ببعض مستديرات إلا الماء، فقد منعتْه العناية الإلهية والحكمة الربانية من الإحاطة بالأرض من جميع الجهات؛ لأنه لو أحاطت كرة الماء بكرة الأرض من جميع الجهات لمنع كون الحيوان والنبات على وجه الأرض، ولكن جعلت للمياه مستنقعات في الأرض وهي البحار والآبار، وقد ذكرنا في رسالة جغرافيا صورة الأرض وكمية الجبال والبحار والأنهار والأقاليم والبلدان، ولكن لا بد أن نذكر منها ما يُحتاج إلى ذكره ها هنا.

فصل

اعلم يا أخي بأن الأرض كرة واحدة بجميع ما عليها من الجبال والبحار والأنهار والعمران والخراب، وهي واقفة في الهواء في مركز العالم، والهواء محيط بها ملتفٌّ عليها من جميع جهاتها، وأن البحر الأعظم موضعه تحت مدار برج الحمل ممتد من المشرق إلى المغرب، وأما سائر البحار فشُعَب وخِلْجان تأخذ من البحر الأعظم وتمتد إلى ناحية الشمال، وهي سبعة أبْحُر؛ فمنها: بحر الرُّوم وبحر القُلزُم وبحر فارس وبحر الصين وبحر الهند وبحر

يأجوج ومأجوج وبحر جرجان، وبين كل بحر منها وبين الآخر جزائر وبراري وعمران وجبال وآجام وأنهار تبتدئ من الجبال وتنتهي إلى البحار، وأن الجبال أصولها راسية في الأرض ورءوسها شامخة في الهواء شاهقة، وبين هذه الجبال أودية غائرة، وفي جوف الجبال مغارات وأهوية، وأن الأرض باطنها كثير التخلخل وظاهرها مختلف التربة، ومنها طينية وسبخة ورملة وحصًى وأحجار صلبة وبقاع مختلفة، وسبب اختلاف هذه كلها بحسب مسامتات الكواكب ومطارح شعاعاتها عليها من الآفاق وممرات درجات الفلك على سمت تلك البقاع، ومنها يكون الكون والفساد في هذه الأجسام التي تحت فلك القمر.

واعلم يا أخي بأن هذه الأركان الأربعة يستحيل بعضها إلى بعض، فيصير الماء تارةً هواء وتارةً أرضًا، وهكذا أيضًا حكم الهواء فإنه يصير تارةً ماء وتارةً نارًا، وكذلك النار، وذلك أن النار إذا أُطفِئَتْ وخمدت صارت هواء، والهواء إذا غلظ صار ماءً، والماء إذا جمد صار أرضًا، وعكس ذلك أن الأرض إذا تحللت ولطفت صارت ماءً، والماء إذا ذاب صار هواءً، والهواء إذا حَمِيَ صار نارًا، وليس للنار أن تلطف فتصير شيئًا آخَر، ولا للأرض أن تغلظ فتصير شيئًا آخر، ولكن إذا اختلطت أجزاء هذه الأركان بعضها ببعض كان منها المتولدات الكائنات الفاسدات التي هي المعادن والنبات والحيوان، وأصل هذه كلها البخارات والعصارات إذا امتزج بعضها ببعضها، فالبخار ما يصعد من لطائف البحار والأنهار والآجام في الهواء من إسخان الشمس والكواكب لها بمطارح شعاعاتها على سطوح البحار والأنهار والآجام والعصارات مما ينجلب في باطن الأرض من مياه الأمطار، وتخلط بالأجزاء الأرضية وتغلظ فتنضجها الحرارة المستبطنة في عمق الأرض.

واعلم يا أخي بأن أول ما يستحيل هي الأربعة الأركان إلى هذين الخليطين، أعني البخار والعصارات، ويكون هذان الخليطان هَيُولَى ومادة لسائر الكائنات الفاسدات التي تحت فلك القمر، وذلك أن الشمس والكواكب إذا سخنت المياه بإشراقها على سطح الأرض والبحار والآجام والأنهار قللت المياه ولطفت أجزاء الأرض، وصارت بخارًا ودخانًا، والبخار والدخان يصيران سحابًا، والسحاب يصير أمطارًا، والأمطار إذا بلَّلتِ التراب واختلطت الأجزاء الأرضية بالأجزاء المائية تتكون منها العصارات، والعصارات تكون مادة وهَيُولَى للكائنات التي هي المعادن والنبات والحيوان، وقد أفردنا لكل نوع منها رسالةً مفردةً، وبينَّا فيها كيفية تكوُّنها منها وتركيبها ونشوئها ونمائها وبلوغها

إلى أقصى مدى غاياتها، ثم كيفية فسادها وبلاها واستحالتها وبدئها ورجوعها إلى هذه الأركان الأربعة التي تتكون منها.

واعلم يا أخي بأن الكون والفساد هما ضدان لا يجتمعان في شيءٍ واحد في زمان واحد؛ لأن الكون هو حصول الصور في الهَيُولَى، والفساد هو انخلاعها منها، فإذا فسد شيء منها فلا بد أن يتكوَّن شيء آخَر؛ لأن الهَيُولَى إذا انتُزعت منها صورة أُلبست أخرى، فإن كانتْ التي أُلبست أشرف سُمِّي كونًا، وإن كانت أدْوَن سُمِّي فسادًا، مثال ذلك: أن يصير التراب والماء نباتًا، ويصير النبات حبًّا وثمارًا، والثمار والحب يصيران غذاءً، والغذاء يصير دمًا ولحمًا وعظمًا، فيكون من ذلك حيوان، والفساد أن يحترق النبات فيصير رمادًا، ويموت الحيوان فيصير ترابًا.

واعلم يا أخي أن جسدك الذي تختص به نفسك أحد الكائنات الفاسدات، وما هو بالنسبة إلى نفسك إلا كدارٍ سُكنت أو كلباس أُلبس فلا تكوننَّ كل همتك وأكثر عنايتك بتزويق هذه الدار وتطرية هذا اللباس، فإنك تعلم بأن كل مسكن يخرب وكل لباس لا بد أن يبلى، ولكنِ اجعل بعض أوقاتك للنظر في أمر نفسك وطلب معرفة جوهرها ومبدئها ومعادها، فإنها جوهرة خالدة أبدية الوجود، ولكن تنتقل لها حال بعد حال كما قيل:

اجهدْ على النفسِ واستكمِلْ فضائِلَها فأنتَ بالنفسِ لا بالجِسمِ إنسانُ

كما رُوِيَ في الخبر أن ابن أبي طالب — صلوات الله عليه — قال في خطبة له: «إنما خُلقتُم للأبد، ولكن مِن دارٍ إلى دارٍ تُنقَلون من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى الجنة أو إلى النار.»

فصل

واعلم يا أخي بأن الجنة إنما هي عالم الأرواح، وكله صورة روحانية لا هَيُولَى جرمانية، بل حياة محضة، وراحة ولذة، وسرور وغبطة، لا يعرض لها الكون والفساد، ولا التغيير والبلى؛ لأنها هي دار الحيوان لو كانوا يعلمون، فإذا كانت الدار هي الحيوان، فما ظنك يا أخي بأهل الدار كيف حالهم؟! فإنه يقصر الوصفُ عنهم إلا بالاختصار كما ذكر الله — تعالى — في كتابه على لسان نبيِّه محمد ﷺ فقال: ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

واعلم يا أخي أن النار وجهنم هي عالم الأجسام التي تحت فلك القمر الذي هو دائم في الكون والفساد والتغيير والاستحالة والبلى، وأن أهلها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، فازْهَدْ يا أخي في غرور هذه الدار كما زهد أنبياء الله — عزَّ وجلَّ — وأولياؤه والفلاسفة الحكماء، فقد علمتَ أنها ليستْ بدار المقام، فاستعدَّ للرحلة والانتقال باختيار منك لا مُكرهًا ولا مُجبرًا قبل فناء العمر وتقارُب الأَجَل.

واعلم أنه لا يستوي لك هذا إلا بعد أن تعرف فضل الآخرة على الدنيا معرفة صحيحة بلا شك ولا تقليد؛ لأن جِبِلَّة الإنسان أن لا يزهد في الحاضر العاجل ولا يرغب في الغائب الآجِل إلا بعد معرفة فضل الآجِل الغائب على العاجل الحاضر.

واجتهد يا أخي في معرفة طلب ما أشار إليه أنبياء الله — تعالى — في الكتب المنزَّلة على ألسنتهم المأخوذة عن الملائكة معانيها في وصف نعيم الجنان وسعادة أهلها وصفة النيران وشقاوة أهلها، وما أشار إليه أيضًا الفلاسفة والحكماء في رموزهم من وصف عالم الأرواح ومدح أهلها، وذمهم عالم الأجسام وسوء ثنائهم على أهلها، ولعلك تتصوَّر بعقلك ما تصوَّروا، وتشاهد بصفاء جوهر نفسك ما شاهدوا بصفاء جوهر نفوسهم، فتنتبه نفسك من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتعيش عيش السعداء العلماء، وترتقي في المعارف، وتعلو همتُك نحو ملكوت السماء، وتكون في الآخرة من السعداء، وفقك الله أيها الأخ وإيانا وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد للرشاد، إنه رءوف رحيم بالعباد.

وإذ قد فرغنا من ذكر الأركان الأربعة التي هي دون فلك القمر وهي: النار والهواء والماء والأرض، ووصفنا ما يخص كل واحدة من الصور المقوِّمة المبلِّغة له إلى أفضل حالاته، وبينَّا كيفية استحالات بعضها إلى بعض، وأخبرنا أن أول ما يتحلَّل من البخارات، ومن البخارات تنعقد العصارات، ومن العصارات تتكوَّن الكائنات التي هي المعادن والنباتات والحيوانات، فنختم هذه الرسالة ونبدأ بعدها برسالة أخرى نذكر فيها البخارات الصاعدة في الهواء، ونَصِف كيفية حوادث الجوِّ منها في رسالة أخرى، وهي الملقَّبة برسالة الآثار العلوية وحوادث الجو.

(تمَّت رسالة الكون والفساد، ويتلوها رسالة الآثار العلوية.)

الرسالة الرابعة

من الجسمانيات الطبيعيات في الآثار العلوية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيانا برُوح منه — أنه لما فرغنا من ذكر الأركان الأربعة، أردنا أن نذكر في هذه الرسالة الملقَّبة بالآثار العلوية حوادث الجو وتغييرات الهواء وكيفية حدوثها بتأثيرات الأشخاص الفلكية فيها، ولكن من أجْل أن كثيرًا من الناس العقلاء يظنون أن المطر ينزل من السماء من بحر هناك، وأن البرد يقع من جبال، ثم يستشهدون على صحة ظنونهم بقوله — عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾، ولا يعرفون معاني قوله — سبحانه — ولا تفسير آيات كتابه — جلَّ ثناؤه — احتَجْنا أن نذكر فيها طرفًا لنزول الشكوك والشبهة.

واعلم يا أخي بأن معنى السماء في لغة العرب هو: كل ما على الرءوس، وأن المطر إنما ينزل من السحاب، والسحاب يُسمَّى سماءً لارتفاعها في الجو، ويُسمى أيضًا السحاب جبالًا لتراكُمِه بعضه فوق بعض كتراكُم أركان الجبال، وركود أطوادها بعضها فوق

بعض، كما يُرى ذلك في أيام الربيع والخريف كأنها جبال من قطن مندوف متراكم بعضه فوق بعض.

(٢) فصل في ماهية الطبيعة

كان الذين يتكلمون في الحوادث الكائنات التي دُون فلك القمر من الحكماء، والفلاسفة ينسبون هذه الآثار والأفعال كلها إلى الطبيعة، وكما أن أقوامًا من العلماء ينكرون أفعالها وينكرون الطبيعة أيضًا أصلًا احتجنا أن نذكر معنى قولهم الطبيعة، ونبيِّن أن الذين أنكروا أفعالَها ذهب عليهم معنى الطبيعة ولم يعرفوها، فمِن ذلك أنكروا أفعالَها.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — أن الطبيعة إنما هي قوة من قوى النفس الكلية منبثَّة منها في جميع الأقسام التي دون فلك القمر، سارية في جميع أجزائها كلها، تُسمَّى باللفظ الشرعي الملائكة الموكَّلين بحفْظ العالَم وتدبير الخليقة بإذن الله، وتُسمى باللفظ الفلسفي قوًى طبيعية، وهي فاعلة في هذه الأجسام بإذن الباري — جلَّ ثناؤه — والذين أنكروا فعل الطبيعة إنما ذهب عليهم معنى هذه التسمية، وظنوا أنها متوجِّهة نحو الجسم، والجسم من حيث هو جسم لا فعل له البتة بالإجماع من الفريقين، بدلائل قد صحَّتْ وبراهين قد قامتْ.

واعلم يا أخي بأن الذين أنكروا فعل الطبيعة يقولون إنه لا يصح الفعل إلا مِن حيٍّ قادر — وهو قول صحيح — ولكنْ يظنون أن الحي القادر لا يكون إلا بجسم إذا كان على هيئة مخصوصة بأعراض تحلُّه بزعمهم مثل الحياة والقدرة والعلم وما شاكلها، ولا يدرون أن مع هذا الجسم جوهرًا آخَر روحانيًّا غير مرئي، وهي النفس، وأن هذه التي وصفوها من الأعراض بأنها حالَّة في الجسم هي التي تظهرها فيه، أعني النفس بفعلها في الجسم.

واعلم يا أخي أنما ذهب على الذين أنكروا فعل الطبيعة علم النفس، وخَفِي عليهم معرفتها من أجْل أنهم طلبوا إدراكها بالحواس فلم يجدوها، فأنكروا وجودها، وأما الذين أقرُّوا بالنفس وأدركوا وجودها فإنما عرفوا ذلك بالأفعال الصادرة عنها في الأجسام، وذلك أنهم اعتبروا أحوال الجسم فوجدوه لمجرده لا فعل له البتة ولا للأعراض الحالَّة فيه، وإنما الأفعال كلها للنفس، وأما الجسم وأعراضه فإنها للنفس بمنزلة أدوات وآلات لصانع يُظهِر بها ومنها أفعالَه كما يُرى ذلك من الصُّنَّاع البشريين، فإنهم بأدوات جسمانية يُظهِرون صناعاتهم في الأشياء، مثال ذلك: النجار؛ فإنه يُظهِر أفعاله في الخشب الذي

هو جسم طبيعي بآلات وأدوات جسمانية كالفأس والمنشار والمثقب وما شاكلها، وكلها أجسام صناعية، وأجسام الصناع هي أيضًا من الأجسام الطبيعية، وهي آلات لنفوسهم وأدوات لها يُظهِرون بها صناعتَهم وأفعالَهم، كما بيناً في رسالة تركيب الجسد ورسالة الصنائع العملية.

وإذ قد بان ما الطبيعة وأنها قوة من قوى النفس الكلية الفلكية، وأنه لا فعل إلا للنفس، وأنها تفعل أفعالَها بقوتها في الأجسام، وأن الأجسام كلها آلات وأدوات ومفعولات لها، كما أن الفِكْر والعلم آلات للنفس في إدراك المعلومات والمعقولات، وإخراجها من القوة إلى الفعل، فنرجع الآن إلى ذكر الأجسام البسيطة التي دون فلك القمر، ونقول إنها الهَيُولَى الموضوع للطبيعة، وهي فاعلةٌ فيها الأشكالَ والصورَ، صانعةٌ منها الحيوان والنبات والمعادن، وإن الأشخاص الفلكية لها كالأدوات للصانع، وذلك أن الفلك يدوم دورانه حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة دورة واحدة وبحركات كواكبه ومطارح شعاعاته في سمك الهواء على سطح الأرض والبحار، وإسخانها لها يُحلِّل المياهَ فيُصيِّرها بخارًا، ويُلطِّف أجزاءَ التراب فيُصيِّرها دخانًا، وتختلطان ويكون منهما المزاجات كما يكون من أصباغ المصورين.

ثم إن قوى النفس الكلية الفلكية السارية في جميع الأجسام المسماة الطبيعة تنقش وتصوِّر وتصوغ من تلك المزاجات والأخلاط أجناس الكائنات التي هي الحيوان والنبات والمعادن بإذن الله — عزَّ وجل، ولما كان أول اختلاط ومزاج يحدث في هيئة هذه الأركان هو تغييرات الهواء وحوادث الجو لسهولة انفعاله وسرعة استحالته، احتجْنا أن نذكر حال الهواء أولًا، ثم حال المياه، ثم حال بقاع الأرض، فنقول: إنا قد بيناً في رسالة السماء والعالم أن كرة الهواء محيطة بكرة الأرض من جميع جهاتها، وأن سمكها من ظاهر سطح الأرض إلى أدنى فلك القمر مثل قطر الأرض ست عشرة مرة ونصفها، وذلك أن قطر الأرض ألفان ومائة وسبعة وستون فرسخًا، فيكون سمك الهواء ٣٥٧٥٨ فرسخًا.

واعلم يا أخي بأن سمك الهواء ينفصل بثلاث طبائع متباينات، إحداها مما يلي سطح الأرض، والأخرى هي الوسط بينهما، وذلك أن الهواء الذي يلي فلك القمر هو نار سموم في غاية الحرارة يُسمَّى الأثير، والذي في الوسط بارد في غاية البرودة يُسمَّى الزمهرير، والذي يلي سطح الأرض معتدل المزاج في موضع دون موضع يسمَّى النسيم،

والعلة في اختلاف هذه الطبائع الثلاث هو أن الهواء المماسَّ لفلك القمر لدوام دورانه معه وسرعة حركته قد حَمِي حميًا شديدًا حتى صار نارًا سمومًا، ثم إنه لما كان منهبطًا إلى أسفل كان أبطأ لحركته وأقل لحرارته، وكلما قلَّتِ الحرارة غلبت البرودة، فلا يزال كذلك إلى أن يَصِير في غاية البرودة التي تُسمَّى زمهريرًا، والذي يلي سطح الأرض معتدل المزاج في موضع غير موضع، ولا يكون سمك كرة الأثير بالإضافة إلى كرة الزمهرير إلا شيئًا يسيرًا، ولولا مطارح شعاعات الشمس والقمر والكواكب على سطح الأرض وانعكاسها في الهواء وإسخانها له لكان المماسُّ لظاهر سطح الأرض أشد بردًا ممَّا سواه، كما يعرض ذلك تحت قطب الشمال، وذلك أنه يصير هناك ستة أشهر ليلًا كله فيبرد الهواء بردًا شديدًا وتجمد المياه ويظلم الجو ويغلظ ويهلك الحيوان والنبات، وأما في مقابلة هذا الموضع مما يلي قطب الجنوب يكون في هذه الأشهر الستة نهارًا كله، فيدوم إشراق الشمس على تلك البقاع، ويتصل انعكاس شعاعاتها في الهواء، فيحمى ويسخن إسخانًا شديدًا، حتى يصير نارًا سمومًا محرقة للحيوان والنبات، وعلةٌ أخرى هي أن الشمس في وقت مسامتتها لهذه البقاع تكون قريبة من الأرض؛ لأن حضيضها في آخر القوس، وأما إذا كانت في البروج الشمالية فإن تحت قطب الشمال يكون أيضًا ستة أشهر نهارًا كله، ولكن لا تسخن تلك البقاع كإسخانها البقاع التي تحت قطب الجنوب؛ لأنها تكون بعيدة من الأرض مرتفعة في الفلك؛ لأن أَوْجَهَا في آخِر الجوزاء.

ثم اعلم يا أخي بأن بين بُعدها في الأَوْج وبين قُربِها في الحضيض مقدار قطر الأرض مائة مرة، وهذا مقداره ٢١٦٧٥٥ فرسخًا، ومن أجْل هذا صار العامر من الأرض في الربع الشمالي من خط الاستواء إلى نيف وست وستين درجة، وهو بين ممر رأس الحمل على سمت الرأس إلى حيث ممر الكف الخضيب على سمت الرأس، وفي هذا الربع الأقاليم السبعة، كما بينَّا في رسالة جغرافيا، ووصفنا فيها ما في كل إقليمٍ من المدن والجبال والبحار والأنهار.

واعلم يا أخي أن على سمت هذه الأقاليم يخترق من الهواء النسيم أكثر، وفي هذه البلدان تعتدل الطبائع، ونريد أن نذكر سمك كرة الغيم والنسيم وأكثر ما ترتفع، وذلك تارةً يزيد في سمكه وارتفاعه، وتارةً ينقص من ذلك بحسب زوايا شعاعات الشمس والكواكب المنعكسة في طرفَيِ النهار وأنصافه وأيام الشتاء والصيف، وذلك أيضًا بحسب ارتفاعات الشمس والكواكب من الآفاق وممراتها على سمت البقاع.

فصل

واعلم يا أخي بأن الزوايا التي تحدث من انعكاس شعاعات الكواكب والشمس من وجه الأرض ثلاثة أنواع: حادَّة وقائمة ومنفرجة، وهذه الزوايا كلها مسخنة للمياه والأرض والهواء محركة لها، ولكن أشدها إسخانًا الزوايا الحادَّة، ثم القائمة، ثم المنفرجة، ولما كانت الزوايا المنفرجة بعضها أشدَّ انفراجًا من بعض، والحادة بعضها أحدَّ من بعض، والزوايا القائمة كلها متساوية احتجْنا أن نبيِّن متى تكون الزوايا منفرجة، ومتى تكون قائمة، ومتى تكون حادة.

فنقول: إنه إذا ابتدأتِ الشمس من الأفق أو القمر أو أي كوكب كان، وأشرقت على سطح الأرض والبحار، فإن زوايا شعاعاتها كلها تنعكس منفرجة في غاية الانفراج، ثم لا تزال كلما ارتفعتْ قلَّ انفراجُها وتضايَقَتْ، حتى إذا صار الارتفاع خمسًا وأربعين درجة صارت زوايا انعكاس الشعاع كلها قائمة في تلك البقعة حسب، فإذا زاد الارتفاع نقصتِ الزوايا وضاقتْ وصارتْ حادَّة، وكلما ارتفعتْ وزاد ارتفاعُها زادت الزوايا حِدَّة، إلى أن تُسامِت الكواكب البقعة فتنطبق الزوايا وتلتقي الأضلاع، فإذا زالتْ إلى ناحية المغرب انفصلتِ الأضلاع وانفتحتِ الزوايا الحادة في غاية الحِدَّة، وكلما انحطت الشمس أو أيُّ كوكب كان ازدادتِ الزوايا انفراجًا إلى أن يصير الارتفاع من جهة المغرب خمسًا وأربعين درجة مرة ثانية، وتصير الزوايا كلها قائمة مرة أخرى، فإذا نقص الارتفاع عن خمس وأربعين درجة صارت الزوايا كلها منفرجة، وكلما انحطَّتِ الكواكب إلى المغرب انفرجت الزوايا إلى وقت المغرب، فتصير كلها في غاية الانفراج كما كانت غدوة، فمِن أجْل هذا صارتْ أنصاف النهار أشدَّ حرارة من طرفَيْه؛ لأن الزوايا بالغدوات والعشيَّات تكون منفرجة، وفي أنصاف النهار حادة، وفيما بين الوقتين قائمة، ويكون الجو متوسطًا ما بين الحر والبرد، ولا تكون أنصاف نهار الشتاء شديدة الحر كما تكون أنصاف نهار الصيف؛ لأن ارتفاع الشمس في الشتاء لا يبلغ خمسًا وأربعين درجة.

وإذ قد فرغْنا من ذِكْر ما احتجْنا إلى ذكره فإنا نقول: إن أكثر ما يكون سمك كرة النسيم ستة عشر ألف ذراع ارتفاعًا في الهواء، وأقله ما يطابق سطح الأرض، ومن الدليل على أن أكثر ما يكون سمك كرة النسيم هذا المقدار هو أن أعلى جبل يوجد في الأرض لا يُجاوِز ارتفاعُ رأسه في الهواء هذا المقدارَ، وأن أعلى هذه الجبال لا يبلغ ارتفاع الغيوم رءوسها وإنما يمنعها شدة البرد المفرط هناك؛ لأن الرافع للغيوم في الهواء هي حرارة الجو من إسخان الكواكب له بمطارح شعاعاتها وانعكاس تلك الشعاعات من سطح

الأرض والبحار على زوايا حادة كما بينَّا قبلُ، وأنه أحد ما يتكون الزوايا على سطح الأرض، فأما في الهواء فإنه كلما ارتفع فإن أضلاع تلك الزوايا تنفرج وتتسع وتقبل التسخين هناك ويضعف فِعلُها ويضمحل تأثيرها في العلو فيغلب البرد هناك.

واعلم يا أخي أن أول ما يقبل الهواء من التغييرات والاستحالات هو النور والظلمة والحر والبرد ثم ما يحدث فيه من اختلاف الرياح من كثرة البخارات المتصاعدة والدخانات الساطعة المطبقة وتتبعها الزوابع والهالات والضباب والغيوم والرعود والبروق والصواعق والهزات، ثم الأمطار والطل والندى والصقيع والثلوج والبرد وقوس قزح والشهب وكواكب الأذناب، وما يتبع هذه من هيجان البحار والمد والجزر في البحار والأنهار.

واعلم يا أخي أن هذه التغييرات التي تكون في الجو لمَّا كان يحدث بعضُها في سمك كرة النسيم وبعضها في سمك كرة الزمهرير وبعضها في سمك كرة الأثير وبعضها في السطوح المشتركة بينها تحتاج إلى تفصيلها واحدة واحدة، ونبدأ أولًا بشرح حال السطوح. وذلك أن السطوح نوعان مشتركة ومتداخلة فالمشتركة مثل سطح الماء والهواء والسطح الذي بين الدهن والماء فإنه ليس بين الجسمين إلا فاصل مشترك يفصل أحدهما عن الآخر فصلًا وهميًّا فقط، وأما السطح المتداخل فمثل سطح الماء الواقف في الطين والرمل فإن الأجزاء الأرضية متداخلة لأجزاء الماء، وأجزاء الماء متداخلة لأجزاء التراب، فلا يكون بينهما فاصل مشترك يفصل بينهما.

واعلم يا أخي أن مِن السطوح ما يُقارِب طبيعة الجسمين المتماسَّيْن، ومنها ما لا يقارب مثل سطح الهواء من أسفل مما يلي الهواء فإن تلك الأجزاء ألطف من سائر الأجزاء التي تلي أسفل مما يلي الأرض، وكذلك سطح الهواء المحيط بالنيران التي عندنا فإنه يكون أسخن من سائر أجزائه البعيدة عن النار، وكذلك سطح النار مما يلي الهواء المحيط به أقل حرارة من سائر أجزائه الباقية، وأما سطوح الأجسام الصلبة مثل الحديد والخشب والحجر وما شاكلها إذا تجاورت فلا يعرض لها هذا الوصف.

وإذ قد فرغنا من ذكر ما احتجنا إلى ذكره فإنا نقول إن سطح كرة الأثير الذي يلي فلك القمر مشترك غير متداخل الأجزاء، وكذلك سطوح أكر الأفلاك والكواكب كلها، وقد ظن كثير من الطبيعيين أن بَيْنَ كرة الزمهرير والأثير سطحًا متداخلًا غير مشترك، وليس الأمر كما ظنوا؛ بل هو كما نبيِّن بعدُ. فأمَّا بينَ سطح كرة النسيم وبين كرة الزمهرير فنبيِّن أنه غير مشترك؛ بل متداخل كسطح النار والهواء والأرض، وأما سطح

كرة النسيم مما يلي الأرض فتَبَيَّن أنه متداخل الأجزاء أيضًا إلى عمق الأرض بحسب تخلخل الأجزاء الأرضية إلى نهاية ما، ثم يقف ولا يدخل إلى أكثر من ذلك، ومن الدليل على ذلك ما يعرض لحافري المعادن إلى أسفل، حتى إنهم ربما يحتاجون لترويح النسيم هناك بالمنافخ والأنابيب ليستنشقوا النسيم ويُضيء سرجهم هناك، فمتى انقطع النسيم لعارض طُفئت سرجهم واختنق مَن كان في المعادن فمات، ولا يمكن أن يكون في المواضع التي لا يخترقها النسيم حيوانات، كما بينَّا في رسالة الحيوان.

واعلم يا أخي أن الهواء بحر واقف لطيف الأجزاء خفيف الحركة سريع السيلان سهل القبول للتغييرات والحوادث، وقد بينَّا في رسالة الحاسِّ والمحسوس كيفية قبوله للنور والظلمة والأصوات والروائح، وكيفية قبوله البرد والحر في رسالة الكون والفساد، ونريد أن نَصِف في هذا الفصل كيفية حدوث الرياح وكمية أنواعها وجهاتها واختلاف تصاريفها، وما العلة المحرِّكة لها في وقت دون وقت وفي بلد دون بلد، ونبيِّن أيضًا كيفية سياقة الغيوم من البحار إلى البراري والقفار ورءوس الجبال، وكيف تهز السحاب حتى يهطل القطر، ولكن نحتاج قبل ذلك أن نذكر حالات القمر ومنازلَه واتصالاته بالكواكب التي هي المُوجِبة لإثارة البخارات والدخانات والتسخين الموجِبة لكون الرياح فنقول: إن للقمر في الفلك ثمانية وعشرين منزلًا كما ذكر الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

واعلم يا أخي أن لهذه المنازل خواصَّ يَظهَر تأثيرُها في هذه الأركان الأربعة، وفي المكنونات عند نزوله يومًا بيوم وليلة بليلة، وللشمس والكواكب أيضًا اتصالات بالكواكب بعضها ببعض يقوِّي فعلها، وتأثيرها فيها يطول شرحه، وهي مذكورة في كتب النجوم، ولكن نذكر منها ما لا بد من ذكره في هذا الفصل، وذلك أن مِن تلك المنازل ما يقوى أفعالُه في إثارة البخار من البحار والبطائح والآجام، ومنها ما يقوى أفعالُه في إثارة الدخانات من وجه الأرض والبراري، ومنها ما يقوى فعلُه في تبريد الهواء وزيادة الماء، ومنها ما يقوى فعلُه في إسخان الهواء ونقصان المياه، وخاصة إذا اتفق نزول القمر بمنزل واتصاله بكوكب مشاكِل فعلُه لخاصية المنزل.

واعلم أن الريح ليست شيئًا سوى تموج الهواء بحركته إلى الجهات الست، كما أن أمواج البحر ليست شيئًا سوى حركة الماء وتدافع أجزائه إلى الجهات الأربع، وذلك أن الماء والهواء بحران واقفان، غير أن أجزاء الماء غليظة ثقيلة الحركة، وأجزاء الهواء لطيفة خفيفة الحركة.

واعلم يا أخي أن أحد أسباب حركة الهواء هو أن صعود البخار من البحار والبراري والقفار أثار من البحار بخارًا رطبًا، ومن البراري والقفار دخانًا يابسًا أصعدتْها بحرارتها في الهواء، فيدفع الهواء بعضُه بعضًا إلى الجهات، فيتسع المكان للبخارين الصاعدين، فإن كان الدخان اليابس أكثر كانت منه الرياح؛ لأن تلك الأجزاء إذا صعدت إلى أعلى كرة النسيم وبردت ومنعها برد الزمهرير عن الصعود إلى فوق عطفتْ عند ذلك راجعة إلى أسفل ودافعتِ الهواء إلى الجهات الأربع، فكانت منها الرياح المختلفة.

واعلم أن الرياح كثيرة التصاريف في الجهات الست، ولكن جملتها أربعة عشر نوعًا، المعروف منها عند جمهور الناس أربع، وهي: الصبا والدبور والجنوب والشمال، وذلك أن الهواء إذا تموَّج من المشرق إلى المغرب يُسمَّى ذلك التموُّج ريح الصَّبا، وإذا تموَّج من الجنوب إلى الشمال يسمَّى التيمُّن، وإذا تموَّج من المغرب إلى المشرق يسمَّى دَبُورًا، وإذا تموَّج من الشمال إلى الجنوب يسمَّى الجربيا، فأما ما كان تدافُعُه إلى بين هذه الجهات فيسمَّى النكباء، وهذه ثمانية أنواع.

وأما التي تهبُّ من أسفل إلى فوق، فمنها تكون الزوابع، وهما ريحان تلتقيان وتصعدان كما يلتقي الماء في الكرادات، وعند نزوله في البلاليع والثقب.

وأما التي تهبُّ من فوق إلى أسفل فمنها الريح الصَّرْصَر التي أهلكتْ عادًا، وذلك أنها نفخَتْ عليهم غربي ديارهم من خلل الغَيْم من كرة الزمهرير التي فوق كرة النسيم ثمانية أيام ولياليها كما ذكر الله تعالى، وإذ ذكرنا ماهية الريح وكمية أنواعها وجهات هبوبها، فإنَّا نريد أن نذكر علة تصاريفها في الجهات، وما الغرض منها، وذلك أن أحد الأغراض من تصاريفها هو أن تَسُوق الغيم من سواحل البحار إلى البلدان البعيدة والبراري المقصودة بها، وأيضًا فإن أحد الأغراض من الجبال الشامخة الطوال المسطوحة على بسيط الأرض شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا هو أن تمنَعَ الرياح من سَوْق السحاب إلى غير البلدان والبراري المقصودة بها، وذلك أن هذه الجبال الراسيات تقوم لمنع الرياح أن تنصرف إلى كل الجهات، إلا الجهة المقصودة بها مقام المسنات والبريدات للأنهار والسواقي المانعة لها أن تفيض المياه، إلا إلى المزارع والمواضع المقصودة بها، وذلك أن كثيرًا من البلدان والبراري بعيدة من سواحل البحر، ولو لم تكن هذه الجبال الطوال الشامخة المانعة للرياح السائقة للغيوم لما وصلت السحاب والأمطار إلى تلك البلدان والبراري، كما أن الأنهار والسواقي إذا لم تكن لها مسنات وبريدات فاضت إلى الآجام والغدران والبطائح حيث يقل الانتفاع بها فلا تبلغ إلى البلدان البعيدة إلا بأنهار تُحفَر

وبريدات تُعمَل، ولهذه الجبال الشامخة غرض آخَر: وذلك أن في أجوافها مغارات وأهوية واسعة، فإذا هطلت في الشتاء في رءوسها الأمطار والثلوج وذابت غاضتِ المياه في تلك المغارات والأهوية، وصارتْ فيها كالمخزونة، وفي أسفل تلك الجبال منافذ ضيقة تخرج منها المياه المخزونة في تلك المغارات والأهوية، وهي العيون، وتجري منها جداول وتجتمع بعضها إلى بعض وتسيل منها أودية وأنهار تجري بين المدن والقرى والسوادات فتسقي وهي راجعة إلى البحار والآجام والغدران في ممرها الزروعَ والأشجارَ ومواضعَ العشب والكلأ، وما يفضل منها ينصبُّ إلى البحار والآجام والغدران وتلطِّفها الشمس وتصعدها بخارًا من الرأس وتكون منها الغيوم والسحاب وتسوقها الرياح إلى المواضع المقصودة بها كما كان عام أول، وذلك دأبها أبدًا، ذلك تقدير العزيز العليم.

فصل

فانظر يا أخي إلى هذه العناية الإلهية الكلية، والسياسة الربانية الحكمية، وتفكَّرْ فيها، واعتبِرْها، لعلَّ نفسَك تنتبه مِن نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، وتنفتح لها عين البصيرة، فتنظر بنور العقل إلى هذا الصانع الحكيم المدبِّر لهذه الأمور، كما نظرَتْ بعين الجَسَد إلى هذه المصنوعات التي نحن في ذكرها، فتكون من الشاهدين الذين مدحهم الله — تعالى — فقال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ ثم قال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وإذ قد فرغنا من ذكر الرياح، فسنذكر الغيوم والأمطار والنَّدَى والجليد والضباب والطل والسحاب والرعود والبروق والبرد، إذ كانت موادُّها البخارات الصاعدة كما ذكرنا قبلُ.

واعلم يا أخي أنه إذا ارتفعت البخارات في الهواء، وتدافع الهواء إلى الجهات، ويكون تدافعه إلى جهة أكثر من جهة، ويكون من قُدَّام له جبال شامخة مانعة، ومن فوق له برد الزمهرير مانع، ومن أسفل مادة البخارَيْن متصلة، فلا يزال البخاران يكثران ويغلظان في الهواء، وتتداخل أجزاء البخارَيْن بعضها في بعض، حيث يسخن ويكون منها سحاب مؤلَّف متراكِم، وكلما ارتفع السحاب بردت أجزاء البخارَيْن، وانضمَّتْ أجزاء البخار الرطب بعضها إلى بعض، وصار ما كان دخانًا يابسًا ريحًا، وما كان بخارًا رطبًا ماءً وأنداءً، ثم تلتئم تلك الأجزاء المائية بعضها إلى بعض وتصير قطرًا بردًا وتثقل فتهوي راجعة من العلو إلى السفل، فتُسمَّى حينئذٍ مطرًا، فإن كان صعود ذلك البخار الرطب

بالليل والهواء شديد البرد منع أن تصعد البخارات في الهواء، بل جمدها أولًا فأولًا، وقرَّبها من وجْه الأرض فيصير من ذلك ندًى وصقيع وطل، وإن ارتفعت تلك البخارات في الهواء قليلًا وعرض لها البرد صارت سحابًا رقيقًا، وإن كان البرد مفرطًا جمد القطر الصغار في حلل الغيم فكان من ذلك الجليد أو الثلج، ذلك أن البرد يجمد الأجزاء المائية ويختلط بالأجزاء الهوائية فينزل بالرفق، فمِن أجْل ذلك لا يكون لها على وجه الأرض وقْع شديد كما يكون للبرد والمطر، فإن كان الهواء دفيئًا ارتفع البخار في العلو وتراكم السحاب طبقات بعضها فوق بعض، كما يُرى في أيام الربيع والخريف كأنها جبال من قطن مندوف متراكمة بعضها فوق بعض، فإذا عرض لها برد الزمهرير من فوق غلظ البخار وصار ماء، وانضمت الأجزاء بعضها إلى بعض وصارت قطرًا، وعرض لها الثقل أخذت تهوي من أعلى سمك السحاب، ثم تتراكم وتلتئم تلك القطر الصغار بعضها إلى بعض، حتى إذا خرجت من أسفلها صارت مطرًا كبيرًا، فإن عرض لها برد مفرط في طريقها جمدت وصارت بردًا قبل أن تبلغ إلى الأرض، فما كان منها من أعلى السحاب هو الذي يصير بردًا، وما كان من أسفل السحاب كان مطرًا مختلطًا مع البرد.

ومَن أحبَّ أنْ يعلَم صدْقَ قولنا، ويتصور كيفية وصفنا صعود البخارَيْن، وكيفية تأليف السحاب منها، ونزول القطر فلينظر إلى تصعيدات المياه وتقطيرها، وكيف يعمل منها أصحابها مثل تصعيد ماء الورد والخل المصعد وما شاكَلَها، ومثل البخارات الصاعدة في بيوت الحمامات وكيفية تقطير الماء من سقوفها، وذلك أن سطح كرة الزمهرير الذي يلي كرة النسيم والجبال الشامخة حوالي البحار تقوم لمنع البخارين الصاعدين الذين يتكوَّن منهما السحاب والأمطار أن يتبدَّدا، ويتغشَّيَا حيطان الحمامات وسقوفها لمنع البخار الصاعد فيها أن يتبدَّد ويتغشَّى، وأيضًا فإنها تقوم مقام القرع والأنبيق في تصعيد رطوباتها وتقطيرها، وبمثل هذين يدبِّر أصحاب الصنعة عقاقيرَهم في تصعيد رطوباتها وتقطير مياهها.

وأما البروق والرعود فإنهما يَحدُثان في وقت واحد، ولكن البرق يسبق إلى الأبصار قبل الصوت إلى المسامع؛ لأن أحدهما روحاني الصورة وهو الضوء، والآخَر جسماني وهو الصوت، كما بيَّنَّاه في رسالة الحاسِّ والمحسوس، وأما علة حدوثهما فهي البخاران الصاعدان إذا اختلطا في الهواء والتفَّ البخار الرطب على البخار اليابس، الذي هو الدخان، واحتوى برد الزمهرير على البخار الرطب وضغطهما، فانحصر البخار اليابس في جوف البخار الرطب، والْتَهَبَ في جوف البخار الرطب وطلب الخروج دفعة، وانخرق

البخار الرطب وتفرقع من حرارة الدخان اليابس كما تتفرقع الأشياء الرطبة إذا احتوتْ عليها النار دفعة واحدة، وحدث من ذلك قَرْع في الهواء واندفع إلى جميع الجهات، كما بينًّا في رسالة الحاسِّ والمحسوس كيفية الصوت وانقدح من خروج ذلك البخار اليابس الدخاني ضوء يُسمَّى البَرْق، كما يحدث من دخان السراج المطفأ إذا أُدنِي من سراج مشتعل ثم ينطفئ، وربما يذوب ذلك البخار ويصير ريحًا، ويدور في جوف السحاب ويطلب الخروج، فيُسمَع له دَوِيٌّ وتقرقُرٌ، كما تسمع من الجوف المنتفخ ريحًا، وربما ينشقُّ السحاب دفعة واحدة بشدة فيكون من ذلك صوت هائل يُسمَّى صوت الصاعقة، كما يحدث من الزِّقِّ المنفوخ إذا وقع عليه حجر ثقيل فيشقُّه.

فصل

واعلم يا أخي أنه لولا العناية الإلهية ورحمة الباري — جلَّ جلالُه — بأنْ جعل سمك كرة النسيم عاليًا، ومركز السحاب مرتفعًا بعيدًا عن الأرض بمقدار الحاجة إليه، وجعل من شأن السحاب إذا انخرق أن يطلب البخار الصعود إلى فوق، وجعل من شأن قرع الهواء إذا حدث أن تكون حركته إلى فوق، لكانت أصوات الرعد أضرَّتْ بأسماع الحيوانات الضعيفة وقتَلَتْها، كما يكون ذلك في بعض الأحايين؛ وذلك أن السحب إذا تراكمت وتكابست يضغط بعضها بعضًا إلى أسفل حتى تقرب من الأرض وتحدث الرعود ويخرق السحاب من أسفل ويقرع الهواء ويندفع إلى وجه الأرض، فيكون من ذلك صوت هائل هو الصاعقة، فإنها تقتل كثيرًا من الحيوانات القريبة منها، ومن الناس أيضًا، كما فُعل بقوم شعيب وصالح — عليهما السلام — وكذلك حكم البروق أيضًا، وذلك أن مِن شأن النار أن تتحرك إلى فوق، فإذا منعها السحاب المتراكم رجعت منحطَّة إلى الأرض، فأحرقتْ ما أَتَتْ عليه من الحيوان والنبات، ولكن قلَّ ما تُحرَق الأجسام الرخوة؛ لأنها نار لطيفة تنفذ في مسامها، وأما الأجسام الصلبة فلتكابُس أجزائها وتمانُعها تتغلَّب عليها وتذوِّبها وتَحرِقها، وأما الهالة التي تكون حول الشمس والقمر، فإنها تدل على المطر ورطوبة الهواء، وذلك أنها تحدث في أعلى سطح كرة النسيم وقت ما يرتفع البخار إلى هناك ويأخذ يتألَّف منه الغيم؛ وعلَّتُها أن النيِّرَيْن إذا أشرقتا على ذلك السطح انعكس شعاعها من هناك إلى فوق، وحدث من ذلك الانعكاس دائرة كما يحدث من إشراقها على سطح الماء، ويشف رسم تلك الدائرة من تحت ذلك الغيم الرقيق كما يشف من وراء البلور والزجاج، ويكون مركز تلك الدائرة مسامتًا للبقعة التي يمر بها مسقط الحجر

الخارج من مركز النيرين إلى مركز الأرض، فكل مَن كان من الناظرين ممَّن يمرُّ ذلك النيِّر على سمتِ رأسِه سواء، فإنه يرى مركز تلك الدائرة من فوق رأسه، ومَن كان خارجًا من تحته إلى إحدى الجهات، فإنه يرى مركزها في الجهة المقابلة لموضعها، ويكون قُطْر هذه الدائرة أبدًا مثل سمك كرة البخار مرتين، قلَّ ذلك السمك أو كَثُرَ، وتقديرُها أكثر ما يكون اثنين وثلاثين ألف ذراع؛ لأن سمك كرة النسيم أكثر ما يكون ستة عشر ألف ذراع كما بينَّا قبلُ.

وأما قوس قُزَح فإنه يحدث في سمك كرة النسيم عند ترطيب الهواء مشبَّعًا، ولا يكون وضعه إلا منتصبًا قائمًا، وحدبته إلى فوق مما يلي سطح كرة الزمهرير، وطرفاه إلى أسفل مما يلي وجه الأرض، ولا يكاد يحدث إلا في طرفَي النهار في الجهة المقابلة لموضع الشمس مشرقًا أو مغربًا، ولا يُرَى منها إلا أقل من نصف محيط الدائرة، إلا أن تكون الشمس في الأفق سواء فإنها عند ذلك تُرَى في نصف محيط الدائرة سواء؛ لأن الخط الخارج من مركز جرم الشمس يمر مماسًّا يلي وجه الأرض ومركز هذه الدائرة، فيُرى القوس قائمًا منتصبًا مستويًا، وإذا كانت الشمس مرتفعة فإنها تُرى أقلَّ مِن نصف محيط الدائرة كلما كان الارتفاع أكثر كان القوس أقلَّ وأصغرَ؛ لأن القوس يكون مائلًا منحطًّا إلى الجهة المقابلة لموضع الشمس.

واعلم يا أخي أن بين وَتَر هذا القوس وبين قُطْر دائرة الهالة التي تقدَّم ذكرُها نسبة متساوية، وأما علة حدوث هذا القوس فهي أيضًا إشراق الشمس على أجزاء ذلك البخار الرطب الواقف في الهواء وانعكاس شعاعها منه إلى ناحية الشمس، وأما أصباغه التي تُرى فهي أربعة مطابقة للكيفيات الأربع، التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ولخاصية الأربعة الأركان التي هي: النار والهواء والماء والأرض، ولفصول الزمان الأربعة وهي: الصيف والخريف والشتاء والربيع، ولمشابهة الأخلاط الأربعة وهي: الصفراء والسوداء والدم والبلغم، ولمشاكلة ألوان زهر النبات والشجر؛ لأن هذه القوس إذا حدثتْ وكانت أصباغها مشبعة تدل على ترطيب الهواء، وكثرة العشب والكلأ، وزكاء ثمر الشجر وحب الزرع، فيكون ظهورها ورؤيتها كالبشارة قدَّمتْها الطبيعة للحيوان والناس منذِرة برِيف الزمان وخصبه.

وأما ما يقوله العامة وهو أن حُمْرتها تدلُّ على إهراق الدماء في تلك السنة وصفرتها تدل على الأمراض، وزُرْقتها تدلُّ على الجدب، وخُضْرتها تدل على الخصب، وعلى حسب كثرتها وقلَّتها تكون دلالتها، فإن هذا يكون دليلًا عند الزاجر على أصله وفرعه، وقد بينَّا ذلك في رسالة الزجر والفراسة.

وأما ترتيب ألوانها فإن الحمرة أبدًا تكون فوق الصفرة، والصفرة دونها، والزرقة دون الخضرة، فإن وجدتَ قوسًا أخرى دونها ترتَّبتْ هذه الألوان في القوس السفلي عكس ذلك، وشرح العلة في ذلك يطول؛ لأنه لا يفهمه إلا المرتاضون بالأشكال الهندسية والأمور الطبيعية والنِّسَب التأليفية.

وقد بينَّا فيما تقدَّم أن السحاب لا يرتفع من وجه الأرض في الجو أكثر من ستة عشر ألف ذراع، وأن أقربه ما كان مماسًّا لوجه الأرض، ولكن ذلك في الندرة في وقت من الأوقات، وبلد دون بلد؛ لأنه لو كان السحاب في كل وقت وفي كل بلد مارًّا مماسًّا لوجه الأرض لأضرَّ ذلك بالحيوان والنبات، ولَمَنَعَ الناسَ من التصرُّف كما يُرى ذلك يوم الضباب، وفي البلدان القريبة من سواحل البحار مثل البصرة والأنطاكية وطبرستان لقربها من البحار يرى أغفل ما يكون الإنسان، حتى إذا جاء الطل والمطر والضباب مقدار ما يضيق الصدر، ويأخذ النفس، وتبتلُّ الثياب والأمتعة، وأيضًا لو كان السحاب كله قريبًا من وجه الأرض لأضرَّ الرعد والبرق بأبصار الحيوان وأسماعها، ولو كان بعيدًا شديد الارتفاع في الهواء، بحيث لم يكن يُرى لكانت الأمطار والثلوج تجيء مفاجأة، والناس والحيوان عنها غافلون غير مستعدِّين للتحرُّز منها، فكان يكون في ذلك ضرر عظيم عام.

فلا تنظر يا أخي إلى فعل الطبيعة وتفكر في هذه الحكمة الإلهية والعناية الربانية؟ كيف رفعت هذه الأشياء في الهواء بمقدار الحاجة إليها؟ فلا بعيد مفرط ولا قريب جدًّا، إذا كان في كلا الأمرين ضرر على الناس والحيوان والنبات.

فصل

فأما علة كثرة الأمطار في الشتاء وقلَّتها في الصيف؛ فهو لأن صعود البخارين متصل أبدًا في العراق، وما يليه من الأقاليم الشمالية في الصيف أكثر منهما في الشتاء.

واعلم يا أخي أن لكل كائن تحت فلك القمر أربع علل لا يتكون شيء من الكائنات إلا بها كلها؛ إحداها: علة هيولانية، والأخرى: علة صورية، والأخرى: علة فاعلية، والأخرى: علة تمامية.

فأما العلة الهيولانية للسحاب والأمطار وما يتبعهما؛ فهما البخاران الصاعدان كما وصَفْنا قبلُ، العلة الفاعلية لها هي الشمس والكواكب بمطارح شعاعاتها كما تقدَّم

ذكرُها، والعلة الصورية عَقْد البخارين وجمودهما، والعلة الفاعلية لذلك برد الجو، والعلة التمامية تكون الأمطار؛ لكيما تبتلَّ الأرض وينبت النبات، ويتغذى منه الحيوان.

ولما كانت الشمس تقضي ستة أشهر في البروج الشمالية وتقرب من سمت رأس هذه البلاد فيسخن جو الهواء إسخانًا شديدًا، فتتحرك البخارات وتتغشى وتدفعها الرياح الشمالية إلى ناحية الجنوب، وبما أن الشمس تكون بعيدة من سمت تلك البلاد يبرد الجو، ويكون الشتاء هناك والأمطار والغيوم وما يتبعهما من حوادث الجو.

فإذا صارتِ الشمس بعد ستة أشهر إلى البروج الجنوبية قريبة من سمت تلك البلاد وبعدت من البلاد الشمالية صار الشتاء ها هنا والصيف هناك، وذلك دأبها ودأب الشتاء والصيف والغيوم والأمطار وما يتبعها من الحوادث التي تقدَّم ذكرُها، وكل هذه الحوادث تكون في سمك كرة النسيم دون كرة الزمهرير.

فصل

وأما الحوادث التي في سمك كرة الزمهرير فهي الشهب، وانقضاض الكواكب التي تُرى في الليالي فربما كثر ذلك، وربما قلَّ.

وأما هَيُولاها ومادتها فهو الدخان اليابس اللطيف الصاعد من الجبال والبراري، فإذا بلغت تلك المادة في صعودها إلى الفصل المشترك بين كرة الزمهرير وبين كرة الأثير استدارت هناك وتشكَّلت واشتعلت فيها نار الأثير كما يشتعل نار السراج في دخان السراج المنطفئ، وكما تشتعل نار البرق في الدخان اليابس الدهني الذي في السحاب، وكما تشتعل النار في النفط الأبيض ثم تُفنِيه بسرعة فينطفئ، ومما يدل على أن مادتها دخان يابس كثرة ما يُرى منها في سِنِي الجدْب.

وأما كيفية تشكُّل هذه الدخانات إذا صعدت إلى هناك واشتعلت فيها النار، فإنها إذا اعتبرت بالفكر وجدت تارةً كأنها أعمدة مخروطة قائمة قاعدتها مما يلي كرة النار، ومخروطها مما يلي وجه الأرض، ودليل ذلك أنه إذا اشتعلت النار فيها ترى عظيمة الاشتعال، ثم لا تزال تصغر وتنخرط وتقل حتى تنطفئ فيتخيل للناظرين أنها نار هوائية تنزل من السماء في حركتها.

وإذا اعتبرنا هذا المثال يظن أن بين كرة الزمهرير وكرة الأثير سطحًا متداخل الأجزاء غير مشترك، وتارةً تُرى حركتها عند انقضاضها كأنها كرة صغيرة هو ذي متدحرج على سطح كرة كبيرة، وذلك أنَّا نراها أحيانًا عند انقضاضها واشتعالها تبتدئ حركتها من

المشرق، فتمر على سَمْت رءوسنا إلى المغرب وتارةً من المغرب إلى المشرق، وتارةً تبتدئ من الجنوب وتمر على سمت رءوسنا إلى الشمال وتارة من الشمال إلى الجنوب، وتارة تتنكَّب هذه الجهات، فيتخيل للناظرين كأنها كرة من قطن اشتعل فيها النار ثم رميت في الهواء، وكلما أكلتْها النار تناثر شررها وصغرت حتى تفنى وتنطفئ، ومثالها الكرة التي يلعب بها أصحاب الخيالات بالليل، وذلك أنهم يتخذون كرة معجونة من سندروس وأجزاء عقاقير، ويشعلون فيها النار، ويأخذونها في أفواههم، فإذا رقصوا أو تنفسوا رُئِيَتِ النار تخرج من أفواههم ومناخرهم، ولا يزال ذلك دأبهم حتى تفنى تلك المادة وتنطفئ تلك النار.

فصل

وقد يظن كثير من الناس أنَّ انقضاض هذه الشهب هي كواكب تسقط ويُرمَى بها من السماء في الهواء إلى الأرض، ويستدلون على صحة ظنونهم الكاذبة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

وليس في هذه الآية دلالة على أن الكواكب هي تَرمِي بأنفُسِها؛ لأنك إذا قلتَ: اتخذتُ هذه القوسَ لأرمِيَ بها العدوَّ والكفار، فليس في قولك دلالة على أنك ترمي بنفس القوس، بل ترمي عنها بالنُّشَّاب، فهكذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾؛ أي يرمون عنها بالشهب؛ لأن هذه الشهب لا تحدث في الهواء إلا بإشراق هذه الكواكب وشعاعاتها في الهواء كما بيَّنَّا من قبلُ، وقد فسَّرْنا معنى هذه الآية وأخواتها في رسائل لنا.

واعلم أن أهل صناعة النجوم متفقون على أن هذه الكواكب الثابتة في الفلك الثامن هي من وراء فلك زُحَل الذي هو الكرسي الواسع كما بيَّنَّا في رسالة السماء والعالم، وإنما ذكر الله — تعالى — أنها زينة السماء الدنيا؛ لأن أهل الأرض لا يَرَوْنها إلا دُونَ فلك القمر الذي هو سماء الدنيا.

ومما يدل على أن هذه الشهب تحدث قريبة من الأرض بعيدة من فلك القمر سرعة حركتها، فإنها في لحظة تمر من المشرق إلى المغرب أو من المغرب إلى المشرق، فلو كانت قريبة من فلك القمر لما رأيت حركتها بهذه السرعة.

واعلم يا أخي أنها إذا حدث فمرَّتْ مقبِلة على الناظرين، وجازتْ على سمت رءوسهم إلى الجانب الآخر ذاهبة إلى الأفق بسيرها على الرؤية يتخيل للناظرين أنها وقعت إلى الأرض، وليس الأمر كذلك؛ لأنها مادة خفيفة تطلب العلو، ولا يزيدها اشتعالها إلا خفَّة،

فأما التي تقع منها إلى الأرض فهي التي تحدث في كرة النسيم فيضغطها السحاب ويردُّها إلى أسفل كنار البرق التي يضغطها السحاب من فوق إلى أسفل.

وأما علة استدارة تلك المادة فهي أن الأجسام السيالة من شأنها أن تتشكل ما لم يمنعها مانع أشكالًا كروية، كما يستدير القطر في الهواء؛ لأن الشكل الكروي أفضل الأشكال كما بينَّا في رسالة الهندسة.

وأما علة حركتها إلى جهة دون جهة فبحسب الدافع لها من جهة المقابل، وليست هي الريح؛ لأنها أسرع حركة من الريح، وقد بينَّا علة حركتها في رسالة الحركات.

فانظر يا أخي وتفكَّرْ في هذه الحكمة الإلهية والعناية الربانية كيف جعلتْ ورتَّبتْ كرة الأثير دون فلك القمر، وجعلتْها نارًا بلا ضياء كيما تحترق بحرارتها الدخانات الغليظة الصاعدة في الهواء، وتلطف البخارات العفنة الكثيفة ليكون الجوُّ أبدًا صافيًا شفافًا ولم تجعل تلك النار مضيئة؛ لأنها لو كانت مضيئة كالنيران التي عندنا لمنعتْ أبصار الحيوان عن رؤية عالم الأفلاك والكواكب، وخاصة الإنسان؛ لأنه لما منع الكون هناك لم يمنع الرؤية والنظر إليه، لكيما تشتاق النفوس إلى الصعود نحوها هناك كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. يعني به روح المؤمنين، وقال في منع روح الكافر: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، وقد جعلت الحكمة الإلهية أيضًا الزمهرير حجابًا بين كرة النسيم وبين كرة الأثير لتمنع ببردها وهج الأثير عن الحيوان والنبات أن يُتْلِفها، ولتبرد البخار وتعقده غيومًا ليكون أمطارًا تحيا بها البلاد، وجعلت كرة النسيم معتدلة المزاج، ولما كان سببها انعكاس شعاعات الكواكب كما بينَّا قبلُ وأكثرها وأوكدها هي الشمس، جعلت تارةً تغيب لبرد الجو وتارةً تطلع لسخن الهواء، ولو دامت بطلوعها لدام الإسخان ولأفرط الحر، وكان ذلك فسادًا كليًّا، وكذلك لو دام مغيبها لبرد الجو وجمدت المياه والرطوبات وهلك النبات والحيوان من البرد، وكذلك جعل لها أن تميل إلى ناحية الجنوب ليكون الصيف هناك والشتاء في الشمال: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وهذه من عظيم نِعَم الله على خلقه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ ... الآية. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا مَن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار، إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وعلى هذا القياس لو دام الشتاء والصيف لكان بوارًا وفسادًا للنظام، وكذلك إذا دام مدارها على سمت واحد، قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾، تارةً غاربة وتارةً طالعة وتارةً مائلة إلى الشمال وتارةً مائلة إلى الجنوب وتارةً مرتفعة في الأوج، وتارةً منحطة إلى الحضيض، وتارةً فوق الأرض، وتارةً تحتها، وتارةً موازية للبروج النارية، وتارةً للترابية، وتارةً للهوائية، وتارةً للمائية، وتارةً للبروج المتقلبة، وتارةً في الثابتة، وتارةً في ذوات الأجساد، وتارةً مجتمعة، وتارةً متفرقة، وتارةً ناظرة ينظر بعضها إلى بعض، وتارةً ساقطة، وتارةً منفصلة، وتارةً منصرفة، وتارةً كالواقفة، وتارةً راجعة، وتارةً مستقيمة، وتارةً شرقية، وتارةً غربية، وتارةً محترقة بنورها، وتارةً في بيوتها، وتارةً في غربة، وتارةً في الشرف، وتارةً في الهبوط.

هذه كلها من أوصافها وأحوالها لأغراض موصوفة وآجال معدودة لا يعلمها إلا هو: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، ولا يُحيط أهل صناعة النجوم والخلق أجمع بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيُّه السموات والأرض، وقد ذكرنا طرفًا من هذا العلم في رسالة الأدوار شبه النموذج والإشارة، فانظر فيها وتفكَّر فيما ذكرنا؛ لعل نفسك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، فتحيا حياة العلماء، وتعيش عيش السعداء مع الأبرار في دار القرار منعَّمة ملذَّذة فرحانة مسرورة أبد الآبدين، ولا تكن من الغافلين في أسفل السافلين في عالم الكون والفساد، واستعدَّ للرحيل قبل انقطاع المدة، وتزوَّدْ؛ فإن خير الزاد التقوى.

فصل

وأما الكواكب ذوات الأذناب التي تظهر في بعض الأحايين قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها، فإنها لا تحدث إلا في كرة الأثير قريبًا من فلك القمر، والدليل على ذلك دورانها مع فلك القمر، تارةً بالتقدُّم على توالي البروج كمسير الكواكب السيارة، وتارةً بالتأخُّر كرجوعها.

وأما مادتها التي تتكون منها فهي دخان وبخار لطيفان يصعدان إلى هناك فينعقدان بقوة زحل وعُطَارد، وتكون شفافة كشف البلور، إذا أشرقت عليها الشمس شفت من الجانب الآخر، فلا تزال تدور مع الفلك، وتطلع وتغيب إلى أن تضمحل وتتلاشى، وكل هذه الحوادث التي تُرى في ضوء الهواء إما بشارات من الله — تعالى — بالرخص والخصب والسلامة للناس والحيوان والصلاح، وإما إنذارات وتخويفات من الحدثان

والجدب والقحط والغلاء والزلازل والوباء والموت والخسوف والحروب والفتن؛ وذلك ليجعل العباد المكلفين يعتبرون بها، ويرتدعون عن معصية الله، وينقادون إلى طاعة الله، ويُظهِرون الدعاء والتضرُّع والتوبة والندم والتطوُّع بالصوم والصلاة والصدقة والقرابين في الهياكل والمساجد والبِيَع والصلاة؛ ليكون ذلك تلقينًا من الآباء للأولاد، ومن العلماء للجهال وتنبيهًا للغافلين عن معرفة الله — عزَّ وجلَّ — وهداية لهم كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾.

فانظر يا أخي وتفكَّرْ في ملكوت السموات والأرض، وما في الآفاق والأنفس من الآيات وقل: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، واشهد معهم كما ذكر الله — تعالى — فقال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، ولا تكن من الذين يمرُّون عليها وهم عن آياتها معرضون غافلون، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾، وقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. أعاذك الله وإيانا من هذه الجهالة والعَمَى، ووفقنا لما هو أرشد وأهدى برحمته، إنه قريب مجيب.

(تمَّتْ رسالة الآثار العلوية، وهي الرسالة الرابعة في الطبيعيات والسابعة عشرة من رسائل إخوان الصفا، وتتلوها رسالة تكوين المعادن.)

الرسالة الخامسة

من الجسمانيات الطبيعيات في بيان تكوين المعادن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

واعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — أنَّا قد بينَّا في رسالة الآراء والمذاهب بأن العالم مُحدَث مُبدَع مُختَرَع كائنٌ بعدَ أنْ لم يكن، وأن مُبدِعَه ومُختَرِعه ومُحدِثه وخالِقه ومصوِّره هو الباري — جلَّ جلالُه — أبدعه كما شاء وكيف شاء بقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ فكان، كما بينَّا في رسالة المبادئ العقلية، فنزيد أنْ نذكر في هذه الرسالة طرفًا من الحوادث والكائنات التي تتكوَّن وتفسد تحت فلك القمر بطول الأزمان والدهور والأدوار، كما بينَّا أيضًا كيفية فناء العالَم وكيفية نشء الآخرة والحشر والحساب والميزان والجواز على الصراط والنجاة من النيران والوصول إلى الجنان، وكيفية مجاورة الرحمن في رسالة البعث والقيامة؛ إذ قد تبيَّن ببراهين منطقية ودلائل عقلية بأن عالم الأفلاك وجواهر أشخاصها لا تمتزج بعضها ببعض، ولا تختلط أجزاؤها، ولا يتكوَّن منها شيء غيرها، بل هي باقية بما هي عليه الآن بطول الأزمان والدهور، وأنها أيضًا لا تتغير ولا تفسد ولا تستحيل ما دامت لها هذه الحركة الدورية والأشكال الكروية، إلا أنْ يشاء

باريها ومبدِعُها وخالقها أن يُبطِلها دفعة واحدة أو على التدريج أو يوقفها عن الدوران وهو أهون عليه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

واعلم أن وقوف الأفلاك عن الدوران هو موت العالم وبطلان حياة الكل ومفارقة النفس الكلية الفلكية عن الأجسام كلها دفعة واحدة، وتلك هي القيامة الكبرى والبوار الكلي وبطلان الجملة؛ لأن موت كل شخص من أشخاص الحيوانات هو مفارقة نفسه جسده، وهي قيامته كما قال رسول الله — صلَّى الله عليه وآله: «مَن مَاتَ فقد قَامتْ قيامتُه.» وقد بينَّا في رسالة لنا أن العالم إنسانٌ كبير ذو جسم ونفس وحياة وعلم، فاعرف حقيقة ما ذكرناه من هناك.

ثم اعلم يا أخي أن استحالة الكائنات الفاسدات التي تحت فلك القمر هي خمسة أنواع، فمنها: استحالة الأركان الأربعة بعضها إلى بعض، كما بينَّا طرفًا من كيفية ذلك في رسالة الكون والفساد، ومنها حوادث الجو وتغييرات الهواء، كما بينَّا طرفًا منها في رسالة الآثار العلوية، ومنها استحالة الكائنات الفاسدات التي تتكوَّن وتنعقد في باطن الأرض وعمق البحار وجوف الجبال، وهي الجواهر المعدنية كما سنبين طرفًا من كيفيتها في هذه الرسالة، ومنها استحالة النبات والأشجار، وهو كل جسم يتغذى وينمو كما بينَّا طرفًا منها في رسالة النبات، ومنها استحالة الحيوان، وهو كل جسم متحرك حساس كما بينَّا طرفًا منها في رسالة الحيوانات بعد ذكر النبات.

واعلم أن هذه الأشياء التي ذكرنا أنها تتكون وتحدث وتتغير وتفسد بطول الزمان والدهور وتناوب الليل والنهار وتعاقب الشتاء والصيف على الأركان الأربعة التي هي الأرض والماء والهواء والنار، إنما يكون باختلاف أحوالها بحسب موجبات أحكام النجوم في القِرانات والألوف والأدوار، وبحسب أشكال الفلك ومسيرات الكواكب ومطارح شعاعاتها من الأوتاد والآفاق، ونريد أن نبيِّن كيفية تكوين المعادن وأسرار اختلاف جواهرها وأنواعها وخواصها ومنافعها ومضارِّها.

وإذ قد فرغنا من ذكر أدوار الأفلاك وحركات الكواكب وقرانها في السنين والدهور، وكم هي، وكيف هي، وكيف يكون ذلك في رسالة لنا، فاعلم أن لكل كائن وحادث تحت فلك القمر أربع علل: علة فاعلية، وعلة هيولانية، وعلة صورية، وعلة تمامية.

فالعلة الفاعلية للجواهر المعدنية بإذن باريها — جلَّ جلالُه — هي الطبيعة، وقد بيَّنَّا ماهية الطبيعة وكيفية أفعالها في رسالة لنا.

وأما العلة الهيولانية للجواهر المعدنية فهي الزئبق والكبريت كما سنبيِّن في هذه الرسالة.

والعلة الصورية: هي دوران الأفلاك وحركات الكواكب حول الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض.

وأما العلة التمامية: فهي المنافع التي ينالها الإنسان والحيوانات جميعًا من هذه الجواهر المعدنية بإذن الله جلَّ جلالُه.

فصل

اعلم يا أخي أن الجواهر المعدنية مختلفة في طباعها وطعومها وألوانها وروائحها، كل ذلك بحسب اختلاف تُرَب بقاع معادنها ومياهها، وتغييرات أهويتها؛ وذلك أن كرة الأرض بجملتها وجميع أجزائها، عمقها وظاهرها وباطنها طبقات سافٌ فوق سافٍ متلبِّدة منعقدة مختلفة التركيب والخِلْقة؛ فمنها صخور وجبال صلبة وأحجار وجلامد صلدة وحصاة ملس ورمال جريشة وطين رخو وتراب لين وسباخ وشورج بعضها مختلط ببعض أو متجاورة كما وصفها الله — تعالى — بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾، وهي مختلفة الألوان والطعوم والروائح، فمِن ترابِها وطينها وأحجارها حُمْر وبِيض وسُود وخُضْر وزُرْق وصُفْر، كما ذكر الله — تعالى — بقوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، ومِن ترابِها وطينِها ما هو عذْب مذاقُه ومرٌّ طعْمُه أو مالح أو عفص أو حامض أو حلو، ومنه ما هو طيب شمُّه ومنتِن رائحته، فإن الأرض بجملتها كثيرة التخلخل والثقب والتجاويف والعروق والجداول والأنهار داخلها وخارجها كثيرة الأهوية والمغارات والكهوف، وكل هذه مملوءة من المياه والبخارات، وتكون طعوم تلك المياه وروائحها وغلظها ولطافتها وثقلها وخفتها بحسب تربة بقاعها وطين مكانها وأجوافها وقرارات مستنقعاتها.

فصل

واعلم بأن الجواهر المعدنية ثلاثة أنواع؛ فمنها ما يتكون في التراب والطين والأرض السبخة، ويتم نضجه في السنة أو أقل منها كالكبريت والأملاح والشبوب والزاجات وما شَاكَلَها، ومنها ما يتكون في قعْر البحار وقرار المياه ولا يتم نضجه إلا في سنة أو أكثر منها كالدرِّ والمرجان، فإن أحدهما نباتي وهو المرجان، والآخر حيواني وهو الدُّرُّ، ومنها ما يتكون في كهوف الجبال وجوف الأحجار وخلل الرمال، ولا يتم نضجه إلا في سنين

كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص وما شاكلها، ومنها ما لا يتم نضجه إلا في عدد سنين كالياقوت والزبرجد والعقيق وما شاكلها، ونريد أن نبيِّن ونَصِف طرقًا من كيفية تكوين كل نوع من هذه ليكون دلالة على سائرها، ولكن نحتاج قبل وصفنا هذه الأشياء أن نذكر صورة الأرض وكيفية قسمة أرباعها وصفات تلك الأرباع كيف تتغير أحوالها، وكيف تتبدَّل صفاتُها في الدهور والأزمان الطوال فنقول: إن الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعمران والخراب هي كرة واحدة معلَّقة في الهواء في مركز العالَم بإذن الله — جلَّ جلالُه — كما بيَّنَّا في رسالة الجغرافيا، فنقول إن الأرض بجملتها نصفان؛ نصف شمالي ونصف جنوبي، وظاهر كل قسم منها ينقسم إلى نصفين؛ فتكون جملته أربعة أرباع، كل ربع منها موصوف بأربعة أنواع، فمنها مواضع براري وقفار وفلوات وخراب، ومنها مواضع البحار والأنهار والآجام والغدران، ومنها مواضع الجبال والتلال والارتفاع والانخفاض، ومنها مواضع المراعي والقرى والمدن والعمران.

واعلم يا أخي أن هذه المواضع تتغير وتتبدل على طول الدهور والأزمان، وتصير مواضع الجبال براري وفلوات، وتصير مواضع البراري بحارًا وغدرانًا وأنهارًا، ويصير مواضع البحار جبالًا وتلالًا وسباخًا وآجامًا ورمالًا، وتصير مواضع العمران خرابًا، ومواضع الخراب عمرانًا، فوجب أن نذكر طرفًا من هذه الأوصاف؛ إذ كان هذا الفن من العلوم الغريبة البعيدة عن أفكار كثير من أهل العلم المرتاضين فضلًا عن غيرهم.

واعلم بأن في كل ثلاثة آلاف سنة تنتقل الكواكب الثابتة وأوجات الكواكب السيارة وجو زهرانها في البروج ودرجاتها، وفي كل تسعة آلاف سنة تنتقل إلى ربع من أرباع الفلك، وفي كل ستة وثلاثين ألف سنة تدور في البروج الاثني عشر دورة واحدة، فبهذا السبب تختلف مسامتات الكواكب ومطارح شعاعاتها على بقاع الأرض وأهوية البلاد، ويختلف تعاقب الليل والنهار والشتاء والصيف عليها، إما باعتدالٍ واستواءٍ أو بزيادة ونقص وإفراط من الحرارات والبرودات واعتدال منهما، وتكون هذه أسبابًا وعللًا لاختلاف أحوال الأرباع من الأرض وتغييرات أهوية البلاد والبقاع وتبديلها بالصفات من حال إلى حال.

ويَعرِف حقيقةَ ما قلنا الناظرون في علم المَجَسْطي وعلوم الطبيعيات، فتصير بهذه العلل والأسباب مواضع العمران خرابًا، ومواضع الخراب عمرانًا، ومواضع البراري بحارًا، ومواضع البحار براري وجبالًا، ويَعرِف حقيقةَ ما قلناه وصحة ما ذكرناه الناظرون في

علم الطبيعيات والإلهيات، الباحثون عن علل الكائنات الفاسدات التي تحت مقعد فلك القمر وكيفية تغييراتها، ولكن نريد أن نَصِف طرفًا من كيفية تكوين الجبال في البحار، وكيف يَصِير الطين اللين أحجارًا، وكيف تنكسر الأحجار فتصير منها حصًى ورملًا، وكيف تحملها سيول الأمطار إلى البحار في جريان الأودية والأنهار، وكيف ينعقد من ذلك الطين والرمال في قعور البحار حجارة وجبالًا.

واعلم يا أخي أن البحار هي كالمستنقعات على وجه الأرض، فإن الجبال منها كالمسنات والبريدات لها، لتفصل البحار بعضها عن بعض، ولئلا يكون وجه الأرض كله مغطًّى بالماء، وذلك أنه لو لم تَكُنِ الجبال على وجه الأرض وكان وجهها مستديرًا ملسًا لكانت مياه البحار تنبسط على وجهها، وتغطِّيها من جميع جهاتها، وتحيط بها كإحاطة كرة الهواء بالأرض كلها، وكان وجه الأرض كله بحرًا واحدًا، ولكن العناية الإلهية والحكمة الربانية قد قضتْ أن يكون وجه الأرض بعضه مكشوفًا ليكون مسكنًا لحيوان البر، وبعضه لمنابت العشب والأشجار والزروع، إذ كانت هذه غذاء الحيوانات ومادة لأجسادها: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

واعلم يا أخي أن الأودية والأنهار كلها تبتدئ من الجبال والتلال وتمر في مسيلها وجريانها نحو البحار والآجام والغدران، وأن الجبال من شدة إشراق الشمس والقمر والكواكب عليها بطول الأزمان والدهور، تنشف رطوباتها وتزداد جفافًا ويبسًا، وتنقطع وتنكسر، وخاصة عند انقضاض الصواعق، وتصير أحجارًا وصخورًا أو حصًى ورمالًا، ثم إن الأمطار والسيول تحط تلك الصخور والرمال إلى بطون الأودية والأنهار، ويحمل ذلك شدة جريانها إلى البحار والغدران والآجام، وإن البحار لشدة أمواجها وشدة اضطرابها وفورانها تبسط تلك الرمال والطين والحصى في قعرها سافًا على ساف بطول الزمان والدهور، ويتلبَّد بعضها فوق بعض، وينعقد وينبت في قعور البحار جبالًا وتلالًا، كما تتلبَّد من هبوب الرياح دِعَاص الرمال في البراري والقفار.

واعلم يا أخي أنه كلما انطمت قعور البحار من هذه الجبال والتلال التي ذكرنا أنها تنبت، فإن الماء يرتفع ويطلب الاتساع وينبسط على سواحلها نحو البراري والقفار، ويغطِّيها الماء، فلا يزال ذلك دأبه بطول الزمان حتى تصير مواضع البراري بحارًا ومواضع البحار يبسًا وقفارًا، وهكذا لا تزال الجبال تنكسر وتصير أحجارًا وحصًى ورمالًا تحطُّها سيول الأمطار، وتحملها إلى الأودية والأنهار بجريانها حتى البحار، وتنعقد هناك كما وصفنا، وتنخفض الجبال الشامخة وتنقص وتقصر حتى تستوي مع

وجه الأرض، وهكذا لا يزال ذلك الطين والرمال تنبسط في قعر البحار وتتلبَّد وتنبت عنها التلال والروابي والجبال، وينصبُّ من ذلك المكان الماء حتى تظهر تلك الجبال وتنكشف هذه التلال، وتصير جزائر وبراري، ويصير ما يبقى من الماء في وهادها وقعورها بحيرات أو آجامًا أو غدرانًا، وينبت فيها القصب والوحال، فلا تزول السيول تحمل إلى هناك الطين والرمال والوحول حتى تجفَّ تلك المواضع، وتنبت هناك الأشجار والعكرش والعشب، وتصير مواضع للسباع والوحوش، ثم يقصدها الناس لطلب المنافع والمرافق من الحطب والصيد وغيرها، وتصير مواضع الزروع والغروس والنبات بلدانًا وقرًى ومدنًا يسكنها الناس.

واعلم يا أخي أن هذه البحار التي ذكرنا أنها كالمستنقعات على وجه الأرض وبينها جبال شامخة، وهي كالمسنيات لها، وهي متصلة بعضها ببعض، إما بخلجان بينها على ظاهر الأرض، وإما بمنافذ لها وعروق في باطن الأرض، وإن في وسط هذه البحار جزائرَ كثيرة صغارًا وكبارًا وأنهارًا، ومنها عامرة بالناس فيها مزارع وقرًى ومدن وممالك، ومنها براري وقفار فيها جبال وآجام تسكنها سباع ووحوش وأنعام وأنواع من الحيوانات لا يعلم كثرتها إلا الله، وفي وسط تلك الجزائر بحيرات صغار وكبار، وأنهار وغدران وآجام، ومنها ما مياهها عذبة ومنها مالحة شديدة الملوحة، ومنها دون ذلك مختلفة أحوالها وأوصافها، فلنذكر طرفًا من عللها ليُعلَم حقيقة ما قلنا وصحة ما وصفنا.

أما علة هيجان البحار وارتفاع مياهها وبروزها على سواحلها وشدة تلاطم أمواجها وهبوب الرياح في وقت هيجانها إلى الجهات الخمس في أوقات مختلفة من الشتاء والصيف والربيع والخريف، أوائل الشهور وأواخرها، وساعات الليل والنهار، فهي من أجل أن مياهها إذا حميت في قرارها، وسخنتْ لطفتْ وتحلَّلتْ وطلبتْ مكانًا أَوْسَعَ ممَّا كانتْ فيه قبلُ، فيتدافع فيه بعض أجزائها إلى الجهات الخمس فوقًا وشرقًا وجنوبًا وشمالًا وغربًا للاتساع، فيكون في الوقت الواحد على سواحلها رياح مختلفة في جهات مختلفة، وأما علة هَيَجَانِها في وقت دون وقت فهو بحسب شكل الفلك ومطارح شعاعاته على سطوح تلك البحار من الآفاق والأوتاد الأربعة واتصالات القمر بها عند حلوله في منازله الثمانية والعشرين، كما هو مذكور في كتب أحكام النجوم، وأما علة مدود بعض البحار في وقت طلوعات القمر ومغيبه دون غيرها من البحار فهي من أَجْل أن تلك البحار في قرارها صخور صلبة، فإذا أشرق القمر على سطح ذلك البحر وصلت مطارح شعاعاته

إلى تلك الصخور والأحجار التي في قرارها، ثم انعكست من هناك راجعة فسخنت تلك المياه وحميت ولطفت وطلبت مكانًا أوسع وارتفعت إلى فوق ودفع بعضها بعضًا إلى فوق، وتموَّجت إلى سواحله وفاضتْ على سطوحها، وأرجعتْ مياه تلك الأنهار التي كانت تنصبُّ إليها إلى خلف، فلا يزال ذلك دأبها ما دام القمر مرتفعًا إلى وتد سمائه، فإذا انتهى إلى هناك وأخذ ينحطُّ سكن عند ذلك غليان تلك المياه، وبردت وانضمَّتْ تلك الأجزاء، وغلظت ورجعتْ إلى قرارها وجَرَتِ الأنهار على عاداتها، فلا يزال ذلك دأبها إلى أن يبلغ القمر إلى أفق تلك البحار الغربي منها، ثم يبتدئ المدُّ على مثل عادته، وهو في الأفق الشرقي، ولا يزال ذلك دأبه حتى يبلغ القمر إلى وتد الأرض، فينتهي المد من الرأس، ثم إذا زال القمر من وتد الأرض أخذ المدُّ راجعًا إلى أن يبلغ القمر إلى أفقه الشرقي من الرأس و﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، فإن قيل: لِمَ لا يكون المد والجزر عند طلوع الشمس وإشراقها على سطوح هذه البحار؟ فقد بيَّنَّا علة ذلك في رسالة العلل والمعلول، فاطلُبْها من هناك إن شاء الله تعالى.

وأما علة اختلاف تصاريف الرياح من الجهات الست في أوقات الليل والنهار والشتاء والصيف، فقد ذكرناها في رسالة الآثار العلوية.

وأما الجبال التي ذكرناها بأنها كالمسنيات للبحار والبريدات لها، فهي راسية في الأرض أصولها، شامخة في الجو رءوسها، شاهق في الهواء ارتفاعها ممتد على وجه الأرض بأطوال ما بين مائتي فرسخ إلى ألف، فمنها ما هو من المشرق إلى المغرب، ومنها ما هو من الشمال إلى الجنوب، ومنها ما هو نكباوات بين هذه الجهات، مذكورة في جغرافيا بعض أوصافها.

واعلم أن الجبال التي ذكرناها منها ما هو صخور صلدة وحجارة صلبة وصفوان أملس، فلا ينبت عليه النبات إلا شيء يسير، مثل جبال تهامة، ومنها ما هي صخور رخوة وطين لين وتراب ورمل وحصاة مختلقة متلبِّدة سافٌ فوق سافٍ، متماسك الأجزاء وهي مع ذلك كثيرة الكهوف والمغارات والأودية والأهوية والعيون والجداول والأنهار والأشجار، كثيرة النباتات والحشائش والأشجار مثل جبال فلسطين، وجبال لكام، وطبرستان، وغيرها، وأما الكهوف والمغارات والأهوية التي في جوف الأرض والجبال إذا لم يكن لها منافذ تخرج منها المياه بقيت تلك المياه هناك محبوسة زمانًا، وإذا حَمِيَ باطن الأرض وجوف تلك الجبال سخنت تلك المياه ولطفتْ وتحلَّلتْ وخرجتْ وصارتْ بخارًا، وارتفعتْ وطلبتْ مكانًا أوسع، فإن كانت الأرض كثيرة التخلخل تحلَّلتْ وخرجتْ

تلك البخارات من تلك المنافذ، وإن كان ظاهر الأرض شديد التكاثف حصيفًا مَنَعَها من الخروج، وبقيتْ محتبسة تتموَّج في تلك الأهوية لطلب الخروج، وربما انشقَّتِ الأرض في موضع منها، وخرجتْ تلك الرياح مفاجأة، وانخسف مكانها، ويُسمَع لها دويٌّ وهدَّة وزلزلة، وإن لم تجد لها مخرجًا بقيتْ هناك محتبسة وتدوم تلك الزلزلة إلى أن يبرد جو تلك المغارات والأهوية، ويغلظ، ومتى تكاثفت تلك البخارات واجتمعت أجزاؤها وصارت ماء خرَّتْ راجعة إلى قرار تلك الكهوف والمغارات والأهوية ومكثتْ زمانًا، وكلما طال وقوفها ازدادت صفاءً وغلظًا حتى تصير زئبقًا رجراجًا وتختلط بتربة تلك المعادن وتتحد بحرارة المعدن دائمًا في إنضاجها وطبخها، فتكون منها ضروب من الجواهر المعدنية المختلفة الطبائع كما سنبين.

وأما علة اختلاف مياه العيون والينابيع التي في جوف الأرض وكهوف الجبال من العذوبة والملوحة والحموضة والعفوصة الكبريتية منها والنفطية والدهنية، وعلة حرارتها في الشتاء وبردها في الصيف، وما كان على حالة واحدة في جميع الأوقات، فهي بحسب اختلاف تُرَب بقاعها وتغييرات أهوية مكانها والعوارض التي تَعرِض لها، ونحتاج إلى أن نذكر طرفًا من عللها ليكون قياسًا على البقية الباقية فنقول: أمَّا علة حرارة مياه أكثر العيون في الشتاء وبردها في الصيف فهي من أجْل كون الحرارة والبرودة ضدان لا يجتمعان في مكان واحد، فإذا جاء الشتاء وبرد الجو، فرَّتِ الحرارة فاستجنَّتْ باطنَ الأرض، فسخنت تلك المياه التي في باطنها وعمقها، فإذا جاء الصيف وحمي الجو فرَّتِ البرودة واستجنَّتْ في باطن الأرض، وبردت تلك المياه التي في باطنها وعمقها، وأما علة حرارة بعض العيون في الشتاء والصيف على حالة واحدة، فهي أن في باطن الأرض وكهوف الجبال مواضع، تربتها كبريتية فتصير تلك الرطوبات التي تنصبُّ هناك دهنية، وتكون الحرارة فيها راسية دائمة بينها أو فوقها مياه في جداول وعروق نافذة، فتسخن تلك المياه بمرورها هناك وجوازها عليها، ثم تخرج وتجري على وجه الأرض وهي حارة حامية، فإذا أصابها نسيم الهواء وبرد الجو بردت، وربما جمدت، إذا كانت غليظة، وانعقدت وصارت زئبقًا، أو رصاصًا أو قيرًا أو نِفْطًا أو مِلْحًا أو كِبْريتًا، أو بُورَقًا، أو شيئًا، أو ما شاكل ذلك بحسب اختلاف تُرَب البقاع وتغييرات الأهوية، وأما علة ملوحة مياه عامة البحار، فهي بعناية من الباري — جلَّ ثناؤه — وحكمة إلهية لما فيه من الصلاح الكلي والنفْع العام؛ وذلك أن البخارات المتصاعدة منها في الجو، إذا اختلطت أجزاؤها مع الهواء وتموَّجت إلى الجهات دبغتْها وملحتْها ومنعتْها من العفَن والتغيير

والفساد، فلولا ذلك لهلكتِ الحيوان المستنشقة للهواء دفعة واحدة، وهكذا أيضًا تمتنع ملوحة مياه البحار من أن تأسنَ أو تتغيَّر فيكون ذلك هلاك حيوان البحر جملة واحدة، ولهذه العلة أيضًا شدة أمواج البحار في أكثر الأوقات يختلط أعلاها بأسفلها وأسفلها بأعلاها، لئلَّا تغلظ بطول الوقوف غلظًا شديدًا أو تجمد فتكون أرضًا كلها، ولهذه العلة أيضًا إشراق الشمس والكواكب عليها وتسخينها لها، ومنعها من أن تغلظ وتجمد، وكذلك تفعل بالهواء والجو أيضًا؛ وذلك أنه لولا مطارح شعاعات الكواكب بالليل لجمد الهواء في المواضع التي لا يطلع عليها الشمس والقمر زمانًا، كالتي تحت قطب الشمال والجنوب جميعًا، وأما عفوصة مياه بعض العيون فلأنها تجري إليها من مواضع تربها زاجية، وهكذا حكم ما كان طعمه كبريتيًّا أو نفطيًّا.

واعلم أن في بعض المواضع يُرى من بعيد على رءوس الجبال وبطون الأودية نيران وضياء بالليل والنهار ودخان معتكر ساطع في الهواء ومرتفع في الجو، وعلته أن في جوف الجبال كهوفًا ومغارات وأهوية حارة ملتهبة تجري إليها مياه كبريتية أو نفطية دهنية، فتكون مادة لها دائمة، وهي مثل التي بجزيرة صقلية وبجبل مزمهر من خوزستان، وفي بعض المواضع جبال تهبُّ عليها رياح لينة دائمًا، وجبال تهب عليها رياح باردة في أوقات مختلفة، وهي الجبال التي تكون عليها الثلوج عند ذوبانها، وذلك أنه يتحلَّل من تلك الرطوبات أجزاء لطيفة تصير بخارًا، وترتفع في الهواء فيدفعها إلى الجهات الخمس أو إلى جهة دون جهة مثل ما يهبُّ من جبل الثلج الذي بدمشق، والذي ببلاد داور من جبال غور وجبل دوماند وما شاكلها من الجبال.

فأما الجبال التي تهبُّ منها رياح لينة في دائم الأوقات، فمثل التي ببلاد باميان، وذلك أن هذا الجبل تخرج من أسفله عيون كثيرة وحوله مروج كثيرة، وتجري إلى تلك المروج أنهار وجداول من غير أن تُرى عليه ثلوج وأمطار، بل تهبُّ منها أبدًا أرياح ليِّنة، فهذا دليل على أن في جوف هذا الجبل مغارات وكهوفًا وأهوية باردة مفرطة البرد، تجمد الهواء فيصير ماء، ثم ينصبُّ إلى أسفله وينزل من مسام ضيقة تجري منها تلك العيون والجداول إلى تلك المروج والبراري والقرى، وبها ينتفع الناس وسائر الحيوان من الوحوش والسباع والأنعام والطير الذي هناك؛ إذ كان هذا الجبل بعيدًا من البحار، ولعل الغيوم قلَّ ما تصل إلى هناك لطول المسافة، وإذا تأملتَ الذي ذكرناه تبيَّنتَ عناية الباري — جلَّ جلالُه — بتقدير خلقه وحسن سياسته لهم، وشفقته عليهم، وكثرة ما أزاح من العِلَل في مرافقهم وجرَّ المنافع إليهم من كل الوجوه الممكنة من الهَيُولَى المتأنِّي فيها أفعاله.

فصل

واعلم أن الأودية والأنهار أكثرها تبتدئ من الجبال والتلال، وتمرُّ في جريانها نحو البحار والآجام والغُدْران والبطائح والبحيرات، فمنها ما هو أنهار طوال جريانها من المشرق إلى المغرب كنهر مأوند من سجستان، فإنه يبتدئ من جبال باميان وجبال غور، ويمر نحو المغرب إلى تربة كرمان ثم إلى بحر هرمز، ومنها ما يمر في جريانه نحو المشرق كالأرس والكرس، وهما نهران ببلاد أَذْرَبِيجَان ابتداؤهما من جبال الروم، ويمران متوجِّهَيْن نحو المشرق إلى بحر طبرستان، فينصبَّان فيه، ومنها ما جريانه من الجنوب إلى الشمال نحو نيل مصر، فإنه يبتدئ من جبال القمر من وراء خط الاستواء، ويمر في جريانه متوجِّهًا نحو الشمال إلى أن ينصبَّ في بحر الروم، ومنها ما يكون جريانه من الشمال إلى الجنوب مثل دجلة، فإنها تبتدئ من جبال نصيبين وتمر في جريانها إلى الجنوب، ثم تنصبُّ إلى بحر فارس بعبادان، ومنها ما يكون جريانه متوجهًا في إحدى نكباوات مثل جيحون خراسان والفرات؛ وذلك أن جيحون يبتدئ من جبال صنعانيان ويمر متنكِّبًا للغرب والشمال، وينصبُّ إلى بحر جرجان بشمال بلاد خوارزم، والفرات يبتدئ من جبال الروم ويمر متنكبًا للمشرق والجنوب، وينصب إلى بحر فارس من عبادان، وعلى هذا المثال سائر الأنهار في الجريان.

وأما علة مدود أكثر الأنهار التي جريانُها من الشمال إلى الجنوب في أيام الربيع، فهي من أجْل أن الثلوج إذا كثرتْ في الشتاء على رءوس الجبال الشمالية ثم حَمِيَ الجوُّ بقرب الشمس من سمتها، ذابتْ تلك الثلوج وسَالَتْ منها الأودية والأنهار.

وأما علة مدِّ نيل مصر في أيام الصيف، فهو من أجْل أن هذا النهر يجري من الجنوب إلى الشمال، ومبدأ جريانه من وراء خط الاستواء حيث يكون الشتاء عندنا يكون صيفًا هناك، وفي الصيف عندنا يكون الشتاء هناك، فتكون في ذلك الوقت كثرة الأمطار هناك، ولهذه الأنهار عطفات وعراقيل يطول شرحها وشرح علتها، وهي تسقي في جريانها السوادات والمزارع والمدن والقرى وما يفضل من مياهها ينصبُّ إلى البحار والآجام والبطائح والبحيرات، ويمتزج بمياهها عذبة كانت أو مالحة، فإذا أشرقت عليها الشمس والكواكب سخنتْها وحميتْ ولطفتْ وتحلَّلتْ وصارتْ بخارًا فارتفعت في الهواء وتموَّجت إلى الجهات، ويكون منها الرياح والغيوم والضباب والطل والندى والصقيع والأنداء والثلوج والبرد على رءوس الجبال والبراري والعمران والخراب.

وأما الأمطار التي تكون على رءوس الجبال فإنها تغيض في شقوق تلك الجبال وخللها، وتنصبُّ إلى مغارات وكهوف وأهوية هناك، وتمتلئ وتكون كالمخزونة ويكون في أسفل تلك الجبال منافذ ضيقة تمر منها تلك المياه، وتجري وتجتمع وتصير أودية وأنهارًا، وتذوب تلك الثلوج على رءوس تلك الجبال وتجري إلى تلك الأودية وتمر في جريانها راجعة نحو البحار، ثم تكون منها البخارات والرياح والغيوم والأمطار كما كان في العام الأول و﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

فصل

وإذ قد فرغنا من ذكر صورة الأرض ووصْف البحار والبراري والجبال واختلاف تُرَب البلاد ومياهها، فنريد أنْ نذكر ها هنا طرفًا من أسرار المعادن فنقول إنه ليس من جبل من الجبال ولا بحر ولا تربة ولا جزيرة ولا نهر ولا بقعة ولا بلد من بقاع الأرض ولا صغيرة ولا كبيرة لا ظاهرها ولا باطنها إلا ولها خاصية ليست لأخرى أو عدة خواص، فمن خاصية بلد بلد أو بقعة بقعة أنه تتكوَّن هناك ضروب من الجواهر المعدنية أو عدة ضروب أو ينبت نوع من النبات أو يتولد جنس من الحيوان لا يتكون في بلد آخر، ولا ينبت في بقعة أخرى، ولا يتولد إلا هناك، مثال ذلك: أنه لا تتولد الفيلة إلا في جزائر البحار الجنوبية تحت مدار برج الحمل، وكذلك الزرافة لا تولد إلا في بلدان الحبشة، والسمور والسنجاب وغزال المسك لا يتولد إلا في البراري الشرقية الشمالية، وأما الصقور والبُزَاة والنسور وما شاكَلَها من أنواع الطيور، فإنها لا تفرخ إلا في رءوس الجبال الشاهقة، والقطا والنعام لا يفرخ إلا في البراري والفلوات، والبطوط والطِّيطَوَى وأمثالهما لا تفرخ إلا على الشطوط وسواحل البحار والبطايح والآجام، والعصافير والفواخت والقماري وأمثالها من الطيور لا تفرخ إلا بين الأشجار والدغال والقرى والبساتين، وعلى هذا المثال حكم النبات؛ فإن النخل والموز لا ينبتان إلا في البلاد الحارة والأراضي اللينة، والجوز واللوز والفستق والبندق وأمثالها لا تنبت إلا في البلاد الباردة، والحُلْبة والدُّلْب وأم غَيْلان في البراري والقفار، والقصب والصفصاف على شطوط الأنهار، وعلى هذا حكم سائر النبات، وهكذا أيضًا حكم الجواهر المعدنية لكل نوع منها بقعة مخصوصة وتربة معروفة لا تتكون إلا هناك كالذهب، فإنه لا تتكون إلا في البراري الرملية والجبال والأحجار الرخوة، والفضة والنحاس والحديد وأمثالها لا يتكون إلا في جوف الجبال والأحجار المختلطة بالتربة اللينة، والكبريت لا يتكون إلا في الأراضي النَّدِية

والتُّرَب اللَّيِّنة والرطوبات الدهنية، والقلقطار والأكحال لا ينعقد إلا في الأرض السبخة والبقاع المشروجة، والجِصُّ والإسفيذاج لا يتكونان إلا في الأرض الرملية المختلطة ترابها بالحصى، والزاجات والشبوب لا تتكون إلا في التُّرَب العفصة القشفة، وعلى هذا القياس حُكْم سائر أنواع الجواهر المعدنية.

فصل

واعلم أن الجواهر المعدنية كثيرة الأنواع لا يُحصِي عددها إلا الله تعالى، ولكن منها ما يعرفه الناس، ومنها ما لا يعرفونه، وقد ذكر بعض الحكماء ممَّن كانت له عناية بالنظر في هذا العلم والبحث عن هذه الأشياء، وأنه قد عرف وعدَّ منها نحو تسعمائة نوع، كلها مختلفة الطباع والشكل واللون والطعم والرائحة والثقل والخفة والمضرَّة والنفع، ونريد أن نذكر منها طرفًا ليكون دلالة على الباقية وقياسًا عليها فنقول: إن من الجواهر المعدنية ما هو حجري صلب، لكنْ يَذُوب بالنار ويجمد إذا برد مثل الذهب والفضة والنحاس والحديد والأُسْرُب والرصاص والزجاج وما شاكَلَها، ومنها ما هي صلبة حجرية لا تذوب إلا بالنار الشديدة، ولا تنكسر إلا بالماس كالياقوت والعقيق، ومنها ترابي رخو لا يذوب، ولكن ينفرك كالأملاح والزاجات والطلق، ومنها مائية رطبة تفر من النار كالزئبق، ومنها هوائي دهني تأكله النا كالكباريت والزرانيخ، ومنها نباتي كالمرجان الأبيض والأحمر، ومنها حيواني كالدُّرِّ، ومنها طلٌّ منعقِد كالعنبر والبازهرات، وذلك أن العنبر إنما هو طلٌّ يقع على سطح ماء البحر فينعقد في مواضع مخصوصة في زمان معلوم، وكذلك البازهرات أيضًا، فإنه طلٌّ يقع على بعض الأحجار، ثم يرسخ في خللها وينعقد هناك في بقاع مخصوصة في زمان معلوم، كما أن الزنجبيل إنما هو طلٌّ يقع على نوع من الشوك بخراسان، وهكذا اللَّكُّ إنما هو طلٌّ يقع على نبت مخصوص في زمان معلوم وينعقد عليه، وكذلك الدُّرُّ، فإنه طلٌّ يرسخ في أصداف نوع من الحيوان البحري، ثم يغلظ ويجمد وينعقد فيه، وكذلك الموميأ طلٌّ يرشح في خلل صخور ثم يغلظ هناك ثم يصير ماء ثم يبرز من مسام ضيقة ويجمد وينعقد، والطل هو رطوبة هوائية تجمد من برد الليل، وتقع على النبات والحجر والشجر والصخور، وعلى هذا القياس حكم جميع الجواهر المعدنية؛ فإن مادَّتها إنما هي رطوبات ومياه وأندية وبخارات تنعقد بطول الوقوف وممرِّ الزمان في البقاع المخصوصة لها، فقد تبيَّن بما ذكرنا أن الجواهر

المعدنية مركَّبة كلها مع اختلاف أنواعها وطبائعها وألوانها وطعومها وروائحها وثقلها وخفَّتها وصلابتها ورخاوتها ولِينها وخشونتها وخواصها ومنافعها ومضارِّها، مركبة كلها ومؤلَّفة من أجزاء ترابية صلبة ثقيلة مظلمة مشفة، ومن أجزاء مائية رطبة سيَّالة صافية بين الثقل والخفة، ومن أجزاء هوائية خفيفة لينة دهنية صافية نيِّرة، ومن حرارة قوية أو ضعيفة منضجة أو مقصرة، ومن تأليف على نسبة فاضلة أو دون ذلك من النسب التأليفية، وهي اثنتا عشرة مرتبة مضروبة في أربع طبائع، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، جملتها ثمانٍ وأربعون مرتبة، هذا هو الطُّول مضروبًا في نفسه، يكون ألفين وثلاثمائة وأربعة، هذا هو العرض مضروبًا في جذره ١١١٠٧٢، هذا هو المكعَّب آحاد، ونحتاج أن نشرح هذا الباب؛ لأنه أصل في معرفة كيفية تكوين المعادن.

فصل

اعلم يا أخي أن تلك الرطوبات المختنقة في باطن الأرض والبخارات المحتبسة هناك إذا احتوتْ عليها حرارة المعدن تحلَّلتْ ولطفتْ وخفَّتْ وتصاعدتْ علوًّا إلى سقوف تلك الأهوية والمغارات، ومكثتْ هناك زمانًا.

وإذا برد باطن الأرض في الصيف جمدت وغلظت وتقاطرت راجعة إلى أسفل تلك الأهوية والمغارات، واختلطتْ بتربة تلك البقاع وطينها، ومكثتْ هناك زمانًا، وحرارة المعدن دائمًا في نضجها وطبخها وهي تصفو بطول وقوفها وتزداد ثقلًا وغلظًا، وتصير تلك الرطوبات بما يخالطها من الأجزاء الترابية، وما يأخذ من ثقلها وغلظها وإنضاج الحرارة وطبخها إياه زئبقًا رجراجًا، وتصير تلك الأجزاء الهوائية الدهنية وما يتعلق بها من الأجزاء الترابية بطبخ الحرارة لها بطول الزمان كبريتًا محترقًا.

فإذا اختلطت أجزاء الكبريت والزئبق مرة ثانية تمازجت واختلطت واتَّحدت، والحرارة دائمة في نضجها وطبخها، فتنعقد عند ذلك ضروب الجواهر المعدنية المختلفة، وذلك أنه إذا كان الزئبق صافيًا والكبريت نقيًّا، واختلطت أجزاؤهما، وكانت مقاديرهما على النسبة الأفضل، واتَّحدت وامتصت الكبريتيةُ رطوبةَ الزئبق ونشفت نداوتَه، وكانت حرارة المعدن على الاعتدال في طبخها ونضجها، ولم يعرض لها عارض من البرد واليبس قبل إنضاجها انعقد من ذلك على طول الزمان الذهب الإبريز، وإن عرض لها البرد قبل النضج انعقدت وصارت فضة بيضاء، وإن عرض لها اليبس من فرط الحرارة وزيادة الأجزاء الأرضية انعقدت فصارت نُحاسًا أحمر يابسًا، وإن عرض لها البرد قبل أن تتحد

أجزاء الكبريت والزئبق قبل النضج انعقد منها رصاص قلعي، وإن عرض لها البرد قبل النضج وكانت الأجزاء الترابية أكثر صارتْ حديدًا أسود، وإن كان الزئبق أكثر والكبريت أقل والحرارة ضعيفة انعقد منها الأُسْرُب، وإن انفرطتِ الحرارة فأحرقتْه صار كحلًا، وعلى هذا القياس تختلف الجواهر المعدنية بأسباب عارضة خارجة عن الاعتدال وعن النسبة الأفضل من زيادة الكبريت والزئبق ونقصانهما وإفراط الحرارة أو نقصانها أو برد المعدن قبل نضجها أو خروجها عن الاعتدال، فعلى هذا القياس حكم الجواهر المعدنية الترابية.

وأما الجواهر الحجرية مثل البلور والياقوت والزبرجد والعقيق وما شاكلها من التي لا تذوب بالنار، فإنها تنعقد من مياه الأمطار والأنداء التي ترشح في تلك المغارات والكهوف والأودية التي من الجبال الصلدة والأحجار الصلبة، ولا يُخالطها شيء من الأجزاء الترابية والطين، بل بطول الزمان، كلما طال وقوفها هناك ازدادت المياه بقاء وثقلًا وغلظًا وحرارة المعدن دائمًا في نضجها وطبخها حتى تنعقد وتصير حجارة صلبة صافية، وتكون ألوانها وصفاؤها ورزانتها بحسب أنوار تلك الكواكب المتولِّية لذلك الجنس من الجواهر ومطارح شعاعاتها على تلك البقاع المختصة كما سنبيِّن في رسالة النبات؛ وذلك أن لون الياقوت الأصفر والذهب الإبريز ولون الزعفران وما شاكلها من النبات منسوبة إلى نور الشمس وبريق شعاعاتها، وكذلك بياض الفضة والملح والبلور والقطن والثلوج وما شاكلها من ألوان النبات منسوب إلى نور القمر وبريق شعاعه، وعلى هذا القياس سائر الألوان كل نوع منسوبة إلى كوكب من الكواكب السيارة والثابتة، مذكور ذلك في كتب أحكام النجوم، كما قيل إن السواد لزُحَل، والحُمْرة للمِرِّيخ، والخُضْرة للمُشتَرِي، والزُّرْقة للزُّهَرة، والصُّفْرة للشمس، والبياض للقمر، والمتلوِّن الألوانَ لعُطَارد.

وأما حكم الجواهر الترابية في كيفية تكوينها، فهي أن تلك المياه إذا اختلطت بتربة البقاع وعملت فيها حرارة المعدن تحل أكثر تلك الرطوبات وتصير بخارًا يرتفع في الهواء كما ذكرنا قبلُ، وما بَقِيَ منه يكون محبوسًا ملازمًا للأجزاء الأرضية متَّحدًا بها عملت فيها الحرارة ونضجتْها وطبختْها، حتى تغلظ وتنعقد فإن تكن تربة تلك البقاع مشورجة سبخة تكوَّنتْ منها ضروب الأملاح والبوارق والشبوب، وإن تكن تربة البقاع عفصة انعقدتْ منها ضروب الزاجات الخُضْر والصُّفْر والقلقطار، وهو جنس من الزاج وما شاكلها، وإن تكن تربة البقاع حصاة وترابًا ورمالًا مختلطة انعقد منها الجص

والإسفيذاج وما شاكلها، وإن تكن تربة البقاع تربة لَيِّنة وطينًا حرًّا انعقدت منها الكمأة، ونبتتْ منها ضروب العشب والحشائش والكلأ والأشجار والزروع.

فصل

واعلم يا أخي أن النار هي كالقاضي بين الجواهر المعدنية المتحكِّم فيها كلها والمفرِّق بينها وبين ما كان من غير جنسها، فأشرفها هي التي لا تقدر النار على أن تفرِّق بين أجزائها مثل الذهب والياقوت، وذلك لشدة اتحاد أجزائها بعضها ببعض، فإنه ليس بين خلل أجزائها رطوبة، وأما احتراق بعض الجواهر المعدنية وأكل النار لها وسرعة اشتعالها فيها كالكبريت والزرنيخ والقير والنفط وما شاكلها من المعدنيات فهي من الأجزاء الهوائية الدهنية المتعلقة بالأجزاء الترابية غير متحدة بها، والأجزاء المائية قليلة معها، وهي غير نضجة أيضًا ولا متحدة بها، فإذا أصابتْها حرارة النار ذابتْ بسرعة وتحلَّلتْ وصارتْ دخانًا وبخارًا، وفارقتِ الأجزاء الترابية، وارتفعتْ في الهواء واختلطتْ به، وتفرَّقتْ بين أجزاء الهواء، وأما إذا قيل ما العلة في أن الذهب يذوب ولا يحترق، والياقوت لا يذوب ولا يحترق؟ فنقول إن علة ذوبان الذهب هي من الرطوبة الدهنية المتحدة بالأجزاء الترابية، فإذا أصابتْها حرارة النار ذابتْ، ولانتْ الأجزاء الأرضية التي معها، وأما ما لم يحترق فمِن أجْل الأجزاء المائية المتحدة بالأجزاء الترابية والهوائية، فإنها تُقابِل النار وتدفع عن جسدها الترابي وهج النار ببردها ورطوبتها، فإذا خرجتْ من النار جمدتْ تلك الأجزاء الهوائية، الدهنية وغلظت الأجزاء المائية، وانعقدت وصارت الأجزاء الأرضية كما كانت، وعلى هذا القياس سائر الأجسام الترابية.

وأما الياقوت فلأنه أجزاء مائية غلظت وصفت بطول الوقوف بين الصخور وأنضجت بدوام طبخ حرارة المعدن لها، واتحدت أجزاؤها ويبست، فصارت لا تذوب بالنار؛ لأنه ليس فيها رطوبة دهنية، وأما علة صفائه فمن أجْل أنه ليس فيه أجزاء ترابية مظلمة، بل كلها أجزاء مائية قد غلظت وصَفَتْ ونضجت وجمدت ويبست، فلا تقدر النار على تفريق أجزائها لشدة اتحادها ويبسها، وأما سرعة ذوبان بعض الأجسام واحتراقها مثل الرصاص والأُسْرُب، فهو من أجْل أن الأجزاء المائية والهوائية غير متحدة بالأجزاء الترابية، وأما سوادها فمن أجْل أنها غير نضجة وثقلها من أجْل كثرة الأجزاء الأرضية فيها، والله أعلم.

فصل

واعلم يا أخي أن لهذه الجواهر خواص كثيرة وطباعها مختلفة؛ فمنها متضادة متنافرة، ومنها متشاكلة متآلِفة، ولها تأثيرات بعضها في بعض إمَّا جذبًا أو إمساكًا أو دفعًا أو نفورًا، ولها أيضًا شعور خفيٌّ وحسٌّ لطيف، كما للنبات والحيوان، إما شوقًا ومحبةً وإما بغضًا وعداوة، لا يَعلَم كُنْه عِلَلِها إلا الله تعالى، والدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصَفْنا قول الحكماء في كتاب الأحجار ونعتهم لها أن طبيعةً تَألَف طبيعةً، وطبيعةً تُناسِب طبيعةً أخرى، وطبيعة تَلصَق بطبيعة، وطبيعةً تَأنَس بطبيعة، وطبيعةً تَقهَر طبيعة، وطبيعة تَقوَى على طبيعة، وطبيعةً تَضعُف عن طبيعة، وطبيعة تُلهِب طبيعة، وطبيعة تحب طبيعة، وطبيعة تَطِيب مع طبيعة، وطبيعة تَفسد مع طبيعة، وطبيعة تُبيِّض طبيعة، وطبيعة تُحمِّر طبيعة، وطبيعة تَهرَب من طبيعة، وطبيعة تُبغِض طبيعة، وطبيعة تُمازِج طبيعة.

فأما الطبيعة التي تَألَف طبيعة أخرى فمثل الألماس والذهب، فإنه إذا قرب من الذهب الْتَصَق به وأمسكه، ويقال إن الألماس لا يوجد إلا في معدن الذهب، وفي وادٍ من ناحية المشرق، ومثل طبيعة حجر المغناطيس في جذب الحديد، فإن هذين الحجرين يابسين صلبين بين طبيعتهما أُلْفة واشتياق، فإنه إذا قرب الحديد من هذا الحجر حتى يشم رائحته ذهب إليه والْتَصق به وجذبه الحجر إلى نفسه ومسكه كما يفعل العاشق بالمعشوق، وهكذا يفعل الحجر الجاذب للحم، والحجر الجاذب للشعر، والحجر الجاذب للظفر، والحجر الجاذب للتبن، وعلى هذا القياس ما من حجر من الأحجار المعدنية إلا وبين طبيعته وبين طبيعة شيء آخر أُلْفة واشتياق، عرف الناس ذلك أم لم يعرفوه.

واعلم أن مثل مقابلة أفعال هذه الأحجار بعضها في بعض يكون مثل تأثيرات الدواء في العضو العليل، وذلك أن من خاصية كل عضو عليل اشتياقًا إلى طبيعة الدواء المضاد لطبيعة العلة التي به، فإذا حصل الدواء بالقرب من العضو العليل أحسَّ به وجذبتْه القوة الجاذبة إلى ذلك العضو، وأمسكتْه الماسكة، واستعان بالقوة المدبِّرة بطبيعة الدواء على دفْع طبيعة العلة المؤلِمة، وقَوِيَتْ عليها وغلبتْها ودفعتْها عن العضو العليل، كما يستعين ويدفع المحارب والمخاصم بقوة مَن يُعينه على خصمه وعدوه في دفعه عن نفسه، وهذه من إتقان حكمة الله — جلَّ جلالُه — وعجيب صُنْعه ولطيف تدبيره بخلقه من الحيوان، وحسن سياسته له؛ إذ جعل لكل داءٍ وعارض دواءً شافيًا، ثم أَلْهَمَه إياه، كما ذكر الله — تعالى — حكاية عن موسى — عليه السلام — لَمَّا قال له فرعون ولأخيه

هارون: «مَن ربُّكما يا موسى؟» قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ يعني خَلَقَه وصوَّره وعرَّفه منافعَه ومضارَّه وقوَّاه وأعانَه وحفِظَه ورعاه ودبَّره وساسَه كما شاء، وكيف شاء، فتبارك الله أحسن الخالقين!

وأما الطبيعة التي تقهر طبيعة أخرى فمثل طبيعة السنباذج التي تأكل الأحجار عند الحكِّ أكلًا، وتليِّنها وتجعلها ملسًا، ومثل طبيعة الأُسْرُب الوسخ الذي يفتِّت الماس القاهر لسائر الأحجار الصلبة، وذلك أن الماس لا يقهره شيء من الأحجار، وهو قاهر لها كلها، لو أنه تُرك على السندان وطُرق بالمطرقة لدخل في أحدهما ولم ينكسر، وإن جُعل بين صفحتَيْن من أُسْرُب وضُغط عليها تفتَّت.

ومثل طبيعة الزئبق، التيار الرطب القليل الصبر على حرارة النار إذا طُليت به الأحجار المعدنية الصلبة مثل الذهب والنحاس والفضة أوْهَنَها وأرْخَاها، حتى يمكن أن يُكسَر بأسهل سعي، ويُفتَّت قِطَعًا قطعًا، ومثل الكبريت المنتِن الرائحة المسوِّد للأحجار النيِّرة البرَّاقة المُذهِب لألْوَانِها وأصباغها يُمكِّن النار منها حتى تحترق في أسرع مدة، والعلة في ذلك أن في الكبريت رطوبة دهنية لزجة جامدة، فإذا أصابتْه حرارة النار ذاب والْتَصق بأجساد الأحجار ومازجها، فإذا تمكَّنتِ النار فيه احترق وأحرق معه تلك الأجساد ياقوتًا كانت أم ذهبًا أم غيرهما.

وأما الطبيعة التي تُزيِّن طبيعة أخرى وتنوِّرها، فمثل النوشادر الذي يغوص في قعر الأحجار ويغسلها من الوسخ.

وأما الطبيعة التي تُعِين طبيعة أخرى، فمثل البُورَق الذي يُعين النار على سرعة سبْك هذه الأحجار المعدنية الترابية، ومثل الزاجات والشبوب التي تجلوها وتنوِّرها وتصبغها ومثل المنيسا والقلى المعينان على سبك الرمل وتصفيته حتى يكون زجاجًا شفافًا، وعلى هذا القياس والمثال حكم سائر الأحجار المعدنية في تأثيرات بعضها في بعض، فأمَّا تأثيراتها في أجسام الحيوان، فقد ذكر ذلك في كتب الأدوية والطب والعقاقير.

فصل

واعلم أن لهذه الجواهر المعدنية خواص غريبة، وخَلْقها وتكوينها عجيب جدًّا، فإذا فكَّر العاقل في لطيف صُنْع الباري — جلَّ جلالُه — وإتقان حكمته فيها يبقى متعجبًا باهتًا،

ويزداد بربه معرفة ويقينًا، وخاصة إذا فكَّر في خِلْقة الدُّرَّة وتكوينها، وذلك أن هذه الجوهرة إنما هي ماء ورطوبة هوائية عذبة ودهنية جامدة منعقدة بين صدفين كأنهما خزفتان منطبقتان ظاهرهما خَشِن وسخ وباطنهما أملس نقي أبيض، في جوفها حيوان كأنه قطعة لحم خِلْقته خِلْقة الرَّحِم، مسكنه في قَعْر البحر المالح، وهو قد ضمَّ ذَيْنِك الصدفَيْن على نفسه من جانبَيْه كما يضم الطائر جناحيه عند السكون عن الطيران، مخافة أن يدخل فيه ماء البحر المالح، حتى إذا أحسَّ بسكون البحر عن الاضطراب في أمواجه ارتقى من قعره إلى أعلى سطحه بالليل في وقت من الزمان معلوم مخصوص عنده، وفتح تلك الصدفتين كما تَفتَح فراخ الطير أفواهها عند زَقِّ الطائر لها، وكما يُفتَح فم الرَّحِم عند الجِمَاع فيرشح في جوفه من ندى الهواء ورطوبة الجو، وتجتمع فيه قطرات من الماء العذب من ذلك والصقيع الذي يقع بالليل على النَّبْت والحشيش، فإذا اكتفى ضم تَيْنِك الصدفتين على نفسه ضمًّا شديدًا مخافة أن يرشح فيه ماء البحر المالح، فتفسد تلك الرطوبة العذبة بما يُخالطها من ملوحته، وينزل برفق إلى قرار البحر فيسكن هناك زمانًا، فإذا طال الزمان على تلك الرطوبة العذبة غلظت وثقلت وصارت في قوام الزئبق، وتدحرجت في جوفه بحركته، فيصير حبَّات مستديرات كما يصير الزئبق إذا تبدَّد وتدحرج، ثم على ممر الزمان تَجْمد وتَنعَقِد وتَصير دُرًّا صغارًا وكبارًا. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

فصل

واعلم يا أخي إذا تأمَّلتَ المحسوسات وتصفَّحتَ الموجودات وبحثتَ عن الكائنات التي دون فَلك القمر، وجدتَ أصغرَها جسدًا وأضعَفَها خِلْقة أشرَفَها جوهرًا وأجلَّها قدرًا وأعمَّها نفعًا.

وانظر إلى هذه الثلاثة التي هي الدُّرَّة والدِّيباج والعَسَل، وتأمَّلْها تَجِدْها عند الناس أجلَّ الأشياء قدْرًا وأنعمها لبسًا وأطيبها ذوقًا، أعني هذه الثلاثة، فإذا تأملتَ ما ذكر من خِلْقة هذا الحيوان تبيَّنتَ أنه أحقر حيوانات البحر وأضعفها، وكما ترى النحل أضعف الطيور بنية وأصغرها جثة، وهكذا دود القزِّ تراه أصغر الحيوان جثة.

فصل

واعلم أن الله — جلَّ ثناؤه — خلق هذه الأشياء المعدنية منافع للحيوان، وخاصة للناس، وجعلهم مُحتاجين إليها متصرِّفين فيها متنعِّمين بها إلى حين، لكيما يتفكَّر العقلاء في كونها وخَلْقها وصُنْعها، فتكون قياسًا لهم، فيعلمون أن العالَم أيضًا مُحدَث مصنوع كائن بعدَ أنْ لم يكن، وإن كان كبير الجثة عظيم الخِلْقة طويل العمر كبير القباء لا يدري العلماء الحكماء على التحقيق أنه متى كان ولا متى يفسد، ويعلمون أن له خالقًا خلقه وأوجده وصوَّره وركَّب أفلاكَه وأدارها وأجْرَى كواكبه وسيَّرها ومدَّ شعاعها نحو المركز، ومزج الأركان وزوَّج الطبائع وأولد منها الكائنات الفاسدات التي هي الحيوان والنبات والمعادن، وسخرها للإنسان وملَّكه عليها يتصرَّف فيها كيف يشاء ويحكم عليها بما يريد بالانتفاع منها أو دفع المضار بها، وإنما احتاج العلماء والعقلاء إلى الاستدلال بالشاهد على الغائب، وقياس الجزء على الكل، على أن العالم محدث عند حيرة عقولهم، فإذا فكَّروا في حدوثه وكَوْنه بعدَ أنْ لم يكن، وبحثوا عن تلك العلة الداعية للصانع إلى الفعل إن لم يكن فعل، وهي العلة التي تُسمَّى العلة التمامية التي من أجْلها يفعل الفاعل فعلَه.

ولما فكَّر كثير من العقلاء في هذه العلة وبحثوا عنها لم يعرفوها، وهكذا أيضًا لما فكروا في أمر الفاعل متى فعل، وفي أي زمان عمل، وفي أي مكان لم يعرفوها ولم يتصوَّروا ذلك، وأيضًا لما فكروا وطلبوا أنه من أي شيء عمله وكيف صوَّره، وأين كانت رِجْل البركار لما شكَّل أكر الأفلاك ودور الكواكب وما شاكل هذه المباحث والتفكر في أشياء ليس في طاقة الإنسان معرفتها، ولا في قوة نفسه تصوُّرها، فعند ذلك دعاهم جهلُهم وحيرتُهم وشكوكُهم إلى القول بقِدَم العالَم وأزليَّته بغير عِلْم ولا بيان إلا أوهام كاذبة وتخييلات باطلة وتمويهات مموهة، وقد علم الله — تعالى — قبلَ أن خلقهم أنه تَعرِض لهم هذه الشكوك والحيرة، فأزاح عِلَلَهم بأنْ أراهم أشياء لا يشكون فيها، ولا في كونها، ولا في حقيقتها؛ لتكون مثالًا لهم وقياسًا على ما لا يشهدونه ويتصورونه في حدوث العالم وصفته، وهي هذه الكائنات الفاسدات من النبات والمعادن والحيوان، وجعل أيضًا مركوزًا في جِبِلَّة العقول أن الصنعة المُتقَنَة لا تكون إلا من صانع قدير، وجعل أيضًا أثر الصنعة باقيًا في المصنوع يشاهدونها ليلَهم ونهارَهم من دوران هذه الأفلاك حول المركز وسَيْر الكواكب فيها وتَعاقُب الليل والنهار والشتاء والصيف على الأركان الأربعة والتغييرات والاستحالة وتكوين الكائنات الفاسدات، كل هذه دلالة للعقول

وشواهد للنفوس على حدوث العالَم وتكوينه بعد أنْ لم يكن إذ لم يوجد في جميع هذه الكائنات الجزئية شيء خالٍ من علة فاعلية وعلة هيولانية وعلة صورية وعلة تمامية، ونحن قد بيَّنَّا في رسالة المبادئ العقلية ما هذه العلل في حدوث العالم وكونه، فاعرفها من هناك.

وإذ قد ذكرنا طرفًا من كيفية تكوين المعادن، فنذكر الآن طرفًا من أنواع جوهرها وخواص أنواعها وما ذكره الحكماء، فنبدأ بذكر أشرفها الذي هو الذهب والياقوت، ثم سائر ما يتلوهما نوعًا فنوعًا؛ فأما الذهب فهو جوهر معتدل الطبائع صحيح المزاج نفسه متَّحدة بروحه وروحه متحدة بجسده، ونعني بالنفس الأجزاء الهوائية وبالروح الأجزاء المائية وبالجسد الأجزاء الترابية، ولكن لشدة اتحاد أجزائه وممازجتها لا يحترق بالنار؛ لأن النار لا تقدر على تفريق أجزائه، وهو لا يبلى في التراب ولا يصدى على طول الزمان ولا تُغيِّره الآفات العارضة، وهو جسم ليِّن المغمز أصفر اللون حلو الطعم طيب الرائحة ثقيل رزين، صُفْرة لونه ناريته وصفاؤه وبريقه من هوائيته ولِينه من دهنيته ورطوبته وثقله ورزانته من ترابيته؛ لأن كبريته كان نقيًّا وزيبقه كان صافيًا ومزاجه كان معتدلًا، وحرارة المعدن طبختْه على طول الزمان برفق واعتدال، فإذا أصابتْه حرارة النار ذابتْ رطوبته ودارتْ حول جسده ورطوبته تقابل حرارة النار، وتدفع عن جسده إحراقها، وإذا خرجتْ من النار جمدتْ تلك الرطوبة، وإذا طُرق امتدَّ تحت المطارق حارًّا أو باردًا، واتسع في الجهات ورقَّ وامتدَّ، ويُفتل منه كالخيوط، ويَقبَل جميع الأشكال من الأواني والحلي وهو يُخالِط الفضة والنحاس في السبك وينفصل عنهما إذا طُرح عليه المرقيشا الذهبي؛ لأنه جنس من الكبريت يَحرِق غيرَه ولا يحترق، وإذا سُحق منه وأُدخل في أدوية العين نَفَع، وإذا كُوي به موضع لم يَنفَط، وكان أسرع إلى البرء، وينفع من المرة السوداء وداء الحية وداء الثعلب وأمراض القلب، وهي قسمة الشمس من بين الكواكب، فمِن أجْل هذه الخصال والفضائل تجمعه الملوك وتدَّخِره في الخزائن، ومن أجْل ذلك يقلُّ وجودُه في أيدي الناس ويَعِزُّ وتكثر أثمانُه لا لقلَّة وجوده، ولكن كل مَن ظفر بشيء كثير منه دفنه في الأرض أو صانه وخبَّاه، فلا يُرى منه ظاهرًا إلا القليل.

وأما اليواقيت فأحجار صلبة حارة يابسة شديدة اليبس رزينة صافية شفافة مختلفة الألوان بين أحمر وأصفر وأخضر وأزرق، وأصلها كلها ماء عذب وقف في معادنها بين الأحجار الصلدة والصخور والصفوان زمانًا طويلًا، فغلظ وصَفَا وثقل وأنضجتْه حرارة المعدن لطول وقوفه، فاتحدت أجزاؤه وصارت صلبة لا تذوب في النار

البتة لقلة دهنيته، ولا تفرغ لغلظ رطوبته، بل يزداد حُسْن لونه، وخاصة الأحمر منه لا تعمل فيه المَبَارِد لشدة صلابته ويبسه إلا الماس والسباذج بالحكِّ في الماء ومعدنه في البلاد الجنوبية تحت خط الاستواء وهو قليل الوجود عزيز كثير الثمن لقلة وجوده.

ومن منافعه أن مَن تختَّم بشيء منه وكان في بلدة قد أصاب أهلَها الوباء والطاعون سَلِم منها بإذن الله — تعالى — ونَبُل في أعين الناس، وسهُل عليه قضاء حوائجه وأمور معائشه.

وأمر الزُّمُرُّد والزَّبَرْجد فهما حجران يابسان باردان جنسهما واحد موجودان في معادن الذهب وخيرهما وأجودهما أشدهما خُضْرة وصفاء وشفافًا، ومَن أكثر النظر إلى الزبرجد ذهب عن بصره الكلال، ومَن تقلَّد منه أو تختَّم به سَلِم من الصَّرَع، والدهنج عدوٌّ للزبرجد، ويُشبِهه في النظر، وإذا وضع معه في موضع واحد كسره وكدَّر لونَه وذهب بنضارته.

وأما الدُّرُّ فقد تقدَّم ذكرُه وهيئة تكوينه، وأما خاصيته فإنه ينفع في خفقان القلب من الخوف والجزع الذي يكون من مرة السوداء؛ لأنه يُطرِّي دمَ القلب ويدخل في أدوية العين ويشدُّ أعصاب العين، وإن حُكَّ وطُلي به بياض البرص أذهبه، وإنْ سُقي ذلك الماء مَن كان به صرع أسكنه.

وأما الفضة فإنها أقرب الجواهر الذائبة إلى الذهب، وهي باردة لينة معتدلة حتى تكاد تكون ذهبًا، لولا أنه غلب عليها البرد في معدنها قبل النضج، وهي في قسمة القمر، فإذا طُرح عليها المس أو الرصاص عند السبك امتزجت بهما، وإذا خُلِّصت منهما تخلَّصت ويسوِّدها الكبريت ويكسرها الزئبق، ويُحسِّن لونَها البُورق ويُعين على سبكها، ويدفع عنها إحراق النار، وإذا سُحقت وأُدخلت في الأدوية المشروبة نفعت من الرطوبات اللزجة، وهي تحترق بالنار إذا ألَحَّتْ عليها وتَبلَى في التراب بطول الزمان.

وأما النحاس فهو جرم حارٌّ يابس مفرط فيه، وهو قريب من الفضة، ليس بينهما تبايُن إلا في الحُمْرة واليبس؛ وذلك أن الفضة بيضاء ليِّنة والنحاس أحمر يابس كثير الوسخ، فحُمْرته من شدة حرارة كبريته ويبسه ووسخه لغلظه، فمَن قدر على تبييضه وتليينه أو تصغير الفضة وتليينها، فقد ظفر بحاجته، والنحاس إذا أُدني من الحموضات أخرج زنجارًا، والزنجار سمٌّ، وإنْ طُلي النحاس بالزئبق أرخاه وكسره، وإنْ سُبك النحاس وطُرح عليه زجاج شامي وطُرح بحرارته في الماء خرج لونه مثل لون الذهب، وإذا أُدني من النار اسودَّ؛ لأن النار هي كالقاضي بين الجواهر المعدنية يفصل بينها بالحق، ومَن

أدمَنَ الأكلَ والشرب في أواني النحاس أفسد مزاجَه وعَرضتْ له أعراض كثيرة شديدة، فإذا أُدنيت أواني النحاس من السَّمَك شُمَّ لها رائحة منتِنة، وإن كُبَّتْ آنية النحاس على سمك مشويٍّ أو مطبوخ بحرارتها صار سمًّا قاتلًا.

وأما الطاليقوني فهو جنس من النحاس طُرحت عليه أدوية حتى صار صلبًا، فإن اتُّخذ منه سكين أو سلاح وجرح به حيوان أضرَّ به مضرَّة مفرِطة، وإن اتُّخذ منه شصٌّ لصيد السمك وتعلَّق به لم يُمكِنه الخلاص، وإن صغر الشص وعظم الحوت، ومَن أصابه وجع اللقوة فدخل بيتًا لا يُرى فيه الضوء ونظر إلى مرآة طاليقون بَرَأ من اللقوة بإذن الله — تعالى — وإن أُحمي الطاليقون وغُمس في الماء لم يقرب ذلك الماء ذباب، وإنْ عُمل منه منقاش ونُتف به الشعر من الجسد ودهن الموضع لم ينبت الشعر بعد ذلك، وإنْ شرب الشراب من إناء طاليقوني لم يَسكَر.

وأما القَلَعِيُّ فهو قريب من الفضة في لونه، ولكنْ يُبايِنها بثلاث صفات؛ الرائحة والرخاوة والصرير، وهذه الآفات دخلتْ عليه وهو في معدنه كما تدخل الآفات على الجنين وهو في بطن أمه، فرخاوته لكثر هوائيته، وصريره لغلظ كبريته وقلة مزاجه بزئبقه، وهو سافٌ فوق سافٍ، فلذلك يَصِرُّ وتُنتِن رائحتُه لقلَّة نضجه، وإن مُزج بقضيب الريحانة المسمَّى آسًا والمرقيشا والملح والزرانيخ على ما ينبغي برئ من هذه الآفات، وإذا حُرق القَلَعِيُّ وجُعل في المراهم برئ الجرح والقروح التي تكون في عيون الناس.

وأما الأُسْرُبُّ فهو جنس من الرصاص، ولكنه كثير الكبريت غير نضج، ومنافعه معروفه بين الناس.

وأما الحديد فهو أجناس؛ فمنه لَيِّن رخو، ومنه ما إذا أُسقي الماء ازداد صلابة وحِدَّة، ولا يستغني عنه الصانع، ومنافعه بيِّنة ظاهرة لا يستغني الناس عنه كما لا يُستغنَى عن الماء والنار والملح، ومنه ما إذا طرحت عليه أدوية ازداد قوة وصلابة، ومن الجواهر المعمولة أيضًا الشبة، وهو نحاس طُرحت عليه أدوية فازداد صفرة ولينًا.

وأما الإسفندري فهو نحاس مُزج بالقَلَعي، والمفرغ نحاس وأُسْرُب، والمرداسج من الأُسْرُب إذا أُحرق الزنجار مع النحاس، والإسفيذاج من الأُسْرُب والحموضة، والإسريخ منه ومن الكبريت، والزنجفر من الزئبق والكبريت، والمرتك من الأُسْرُب، وأما منافعها — أعني هذه الأحجار — ومضارها فهي معروفة بين الناس، وقد ذُكرت في كتب الطب بشرحها، ومن الجواهر المعدنية الزئبق والكبريت.

فأما الكبريت فهو حجر دهني لزج يلصق بالأحجار المعدنية عند ذوبانها، ويحترق بالنار ويحرق الأحجار معه؛ لأنه دهن كله.

وأما الزئبق فهو جسم رطب سيَّال، يَطِير إذا أصابتْه حرارة النار، لا صبر له على حرِّ النار، وهو يُخالِط الأجسام المعدنية بالتدبير ويُرخيها ويكسرها ويوهنها، فإذا أصابتْ تلك الأجسام حرارة النار طار الزئبق ورجع إلى حالته الأولى صلبًا كما كانت، ومَثَلُه مع هذه الأحجار كمَثَل الماء مع الطين اليابس إذا غلبه الماء استرخى وتفتَّت، فإذا أصابتْه حرارة النار أو حرارة الشمس جفَّ وعاد كما كان أولًا.

واعلم أن الكبريت والزئبق أصلان للجواهر المعدنية الذائبة، كما أن التراب والماء أصلان للأجسام الصناعية كاللَّبِن والآجرِّ والكيزان والغضاير والقُدُور، وكل ما يُعمل من الطين، وقد تقدَّم ذكرُ كيفية تكوين الجواهر المعدنية الذائبة وعِلَل اختلاف طبائعها وصفاتها في فصلٍ قبلَ هذا، ومن الجواهر المعدنية أيضًا أنواع الأملاح والشبوب والبوارق والزاجات؛ فمنها عذْب كملح الطعام والملح الأندراني، ومنها مرٌّ كملح الصاغة، ومنها حادٌّ كالنوشادر، ومنها قابض كالشبوب والزاجات، ومنها دواء كالنفطي والهندي، ومنها بوارق الخبز، ومنها شوارج تصلح للدباغة، ومنها ملح القلى والنورة والرماد والبول يستعمله أصحاب الكيميا، وكل هذه رطوبات ومياه تختلط بتراب بقاع الأرض تحرقها حرارة الشمس أو النار أو حرارة المعدن، فتنعقد وتصير أملاحًا وشبوبًا وبوارق وفنون الزاجات، ومن الجواهر المعدنية أنواع الزرانيخ والمرقشيشا والمغنيسا والشادنج والكحل والتوتيا، ومنها الزجاج والبلور والمينا والطلق والشنج والعقيق والفيروزج والسنبادج والجزع واللَّازْوَرْد والعنبر والدهنج، ومنها القير والنفط والجِصُّ والإسفيذاج وما شاكلها.

واعلم يا أخي أن لكل نوع من الجواهر خواص ومنافع ومضار تركْنا ذكرها مخافة التطويل؛ إذ قد ذكرها الحكماء في كتبهم وهي موجودة في أيدي الناس، ولكن نذكر من خواص بعضها طرفًا، ليكون دليلًا على الباقي الذي لم نذكره منها، فأما الدهنج فهو حجر يتكون من معدن النحاس وطبيعته باردة لينة؛ لأنه دخان مرتفع من الكبريت المتولد من معدن النحاس، وهو أخضر مثل الزنجار، فإذا صار في موضع من جبال المعدن تكاثف وتلبَّدت أجزاؤه بعضها على بعض، وتجسَّد وتحجَّر فهو مختلف الألوان أخضر كَدِر حَسَن اللون، وفيه خاصية سم؛ مَن سُقي من سحالته تقطَّع[1] أمعاه وأمرضه

[1] وفي نسخة: تقطعت أمعاؤه.

وألْهَبَ معدتَه، وإنْ شرب وهو صحيح أضر، وهو يصفو مع الهواء ويتكدَّر معه، ويُذهِب تكسير الذهب وتشقيقه عند الطرق، ومع التناكر يكون أقوى فعلًا، وإن ذُوِّب ذلك وجُعل مع الذباب على لسع الزنابير سكَّنها، وإنْ سُحق وأُذيب بالخلِّ وطُلِي على القوباء أذهَبَها وينفع في السعفة التي في الرأس.

ومن الجواهر المعدنية البازهر:[٢] وهو جوهر ليِّن أمْلس مختلف الألوان، وأصله كان رطوبة هوائية دهنية جمدت في معدنه بطول الزمان، وهو حَجَر شريف تَظهَر منه أفعال كريمة؛ وذلك أنه ينفع من السموم القاتلة حارَّة كانت أو باردة، حيوانية كانت أو نباتية أو معدنية تلك السموم، ونحتاج أن نزيد في شرح هذا الباب؛ إذ كانت عقول الناس قد تحيَّرتْ في كيفية أفعال السمومات والترياقات والبازهرات[٣] في الأجسام الطبيعية؛ لأنها أجسام جامدات، وقد قام البرهان على أن الجسم لا فِعْل له من حيث هو جسم، ولا العرض له فعل أيضًا؛ لأنه أعجز من الجسم بكثير، فيجب أن نذكر أولًا كيفية الأفعال التي تَظهَر من هذه الأجسام بعضها من بعض، ثم نبيِّن مَن الفاعل بالحقيقة لها، وفيها ومنها وبها، أما السموم فنوعان حارة وباردة، فالباردة منها تجمد الدم والرطوبات الروحانية اللطيفة التي في أعضاء الحيوان التي بها صحة المزاج وقوام الحياة، والحارة منها تذوب الدم، وتلك الرطوبات وتُطيِّرها، فتفنَى ويذوب بدن الحيوان مع ذوبانها فيهلك، فأمَّا دَبِيب السموم الحارة في أبدان الحيوانات، فمثل دبيب لون الزعفران إذا وقع في الماء صبغه في لحظة، وأما الباردة منها فهي مثل فعل الإنْفَحة إذا وقعتْ في اللبن الحليب جمَّدتْه في أقرب مدة، وأما دبيب البازهرات والترياقات المضادة أفعالها لأفعال تلك السموم فهو مثل فعل الحموضات إذا وقعتْ على صبغ الزعفران غسَلَتْه من ساعتها، ومنعتْه أن يذوب إذا بُودِر بها، وأما ما الفاعل المحرك لهذه الأجسام فهو قوة روحانية من قوى النفس الكلية الفلكية السارية في جميع الأجسام مِن لدن فلك القمر إلى منتهى مركز الأرض، وهي المسمَّاة الطبيعة، فهذه الأجسام الجزئيات من الحيوان

---

[٢] وفي نسخة: الفاذزهر. قال صاحب الشفاء في الطب: بازهر الموجود في أيدي الناس نوعان: معدنيٌّ ينفع من لدغ العقرب فقط مقتصر الحيوان، والحيواني يكون في قلْب الإبل كما ذكره البيطار، وقيل في عينه، نافع للسموم جميعًا، وليس في الأحجار ما يقوم مقامَه، واقتصار صاحب إخوان الصفا على نفْع دفْع السمِّ بالمعدني يُخالِف تجربةَ رجال الطب قاطبة. ا.هـ.

[٣] الفاذزهرات (نسخة).

والنبات والمعادن هي للطبيعة كالآلات والأدوات للصانع الفاعل، يفعل بها وفيها ومنها أفعالًا مختلفة وأعمالًا مقننة بعضها ببعض، كالنجار الذي يفعل النشر بالمنشار ويعمل النحت بالفأس والثقب بالمثقب والكشاء بالإرتدج ويبرد بالمبرد، والفاعل واحد والأفعال مختلفة بحسب الآلات والأدوات والأغراض المقصودة، وهذه القوة الفاعلة المتقدِّم ذكرُها هي التي يسميها الأطباء والفلاسفة الطبيعة، ويسمِّيها الناموس ملائكة، والطبيب هو خادم الطبيعة، يناولها ما تحتاج إليه في وقت الحاجة كما يناول التلميذ الأستاذ أدواته وقت حاجته ويخدمه بها.

فصل

واعلم يا أخي أن هذه النفوس الجزئية المتجسدة الخادمة للنفس الكلية إذا أحسنت في خدمتها للنفس الكلية وطلبتِ الأجرَ والجزاء من الله فلها منزلة جليلة عند الله وكرامة ومكافأة بعد مفارقتها هياكلها، سواء كانت خدمتها في إصلاح أمر الدين أو الدنيا، فإنه لا يذهب لها عند الله شيء إذا كانت محتسبة لوجه الله — تعالى — وطالبة لما عنده من الوجه المقصود منه إليه، فلا يفوتها نصيبها من الدنيا كما ذكر برزويه الطبيب في كتاب كليلة ودمنة: إن الزَّرَّاع لم يزرع طلبًا للعشب، بل للحَبِّ، ولا بد للعشب أن يَنبُت، إنْ شاء الزَّرَّاع أو لم يشأ، كذلك طالب الأجْر والجزاء من الله — تعالى — لا يفوته نصيبه من الدنيا وما قُسم له، ما أراده أو لم يُرِد، كَرِهَ أو رضي، زهِدَ أو رَغِب، طلب أو لم يطلب، وتصديق هذا الرأي قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

واعلم يا أخي أن عبادة الله ليست كلها صلاة وصومًا، بل عمارة الدين والدنيا جميعًا؛ لأنه يريد أن يكونا عامرين، فمَن يَسعَى في صلاح أحدهما أو كلاهما فأَجْره على الله؛ لأنه مالكهما جميعًا والناس كلهم عبيده، وأحبُّ عِباده إليه مَن سعى في صلاح عباده وعِمارة عالَمَيْه جميعًا، وأبغضُ عبادِه مَن سعى في فسادهما جميعًا أو في فساد أحدهما، كما ذكر الله جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ... الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾.

ومن الجواهر المعدنية الماس، وطبيعته البرودة واليبوسة في الدرجة الرابعة، وقلَّ ما تجتمع هاتان الطبيعتان في شيء من الأحجار المعدنية، فبهذه الخاصية صار لا يحتكُّ بجسم من الأحجار المعدنية إلا أثَّر فيه أو كسره أو هشَّمه إلا جنسًا من الأُسْرُبِّ، فإنه يؤثِّر فيه ويكسره ويفتته مع رخاوته ولينه ونتن رائحته.

واعلم أن مثل تأثير هذا الحجر الضعيف المهين في هذا الجوهر الشريف القوي كمثل تأثير البَقَّة الضعيفة الصغيرة المهينة في الفيل العظيم الجثة الشديد القوة الذي يقهر الحيوانات بعظيم جثته وشدة قوته، وهذا يغلبه ويؤذيه ويضرُّ بِهِ بصغر جثته وخفَّة حركته، فإن في ذلك عبرة لأولي الأبصار، ودلالة لأولي الألباب على أن المسلِّط للصغير على الكبير هو خالقُهما ومصوِّرهما سبحانه.

وأما السباذج فهو قريب من هاتين الطبيعتين من الماس، ولكن تأثيره دون تأثيره.

وأما حجر المغناطيس فهو أيضًا عبرة لأولي الأبصار والتفكُّر في الأمور الطبيعية وخواص أفعال بعضها في بعض.

وذلك أن بين هذا الحجر والحديد مناسبة ومشاكلة في الطبيعة كالمناسبة والمشاكلة التي بين العاشق والمعشوق، وذلك أن الحديد مع شدة يبسه وصلابة جسمه وقهره للأجسام المعدنية والنباتية والحيوانية يتحرك نحو هذا الحجر ويلتصق به ويلتزمه كالْتِزام العاشق المحب المعشوق المحبوب المشتاق، فإذا فكَّر العاقل اللبيب في فعل هذين الحجرين وغيرهما من الأحجار المعدنية والأجسام النباتية علم وتبيَّن له بأن الفاعل المحرِّك لهما هو غيرهما؛ لأن الجسم لا فعل له من حيث هو جسم ببراهين قد قامت ودلائل قد وضحت، وأن هذه الأجسام كلها مع اختلافها واختلاف طبائعها وفنون أشكالها وخواص طبائعها هي كالأدوات والآلات للفاعل الصانع المحرك، وهو النفس الكلية الفلكية التي هذه التأثيرات كلها من أفعالها، وهي المسماة طبيعة، تظهر وتعمل بإذن باريها — جلَّ ثناؤه — وقد تبيَّن بدلائل عقلية أن الباري — جلَّ ثناؤه — لا يُباشِر الأجسام بذاته ولا يتولَّى من الأفعال بنفسه إلا الاختراع والإبداع حسب، وأما التأليف والتركيب والصنائع والأفعال والحركات التي تكون بالآلات والأدوات في الأماكن والأزمان، إنما يأمر ملائكته الموكَّلين وعبادَه المؤيَّدين بأن يفعلوا ما يؤمرون مثل أمر الملوك والرؤساء لعبيدهم وخدمهم وجنودهم.

فصل

وقد تبيَّن مما ذكرنا أن الجواهر المعدنية مع كثرة أنواعها واختلاف طبائعها وفنون خواصها أصلها كلها وهيولاها هي الأركان الأربعة التي تُسمى الأمهات، وهي النار والهواء والماء والأرض، وتبيَّن أيضًا أن الفاعل فيها والمؤلف لأجزائها والمركِّب لها هي الطبيعة بإذن الله تعالى، وتبيَّن بأن الغرض من هذه الجواهر المعدنية هو منافع الناس والحيوان وإصلاح أمر الحياة الدنيا ومعيشة الحيوان إلى وقت معلوم.

واعلم يا أخي بأن الجواهر المعدنية مع اختلاف طبائعها وأنواع أشكالها وفنون جواهرها وخواصها كالأدوات للطبيعة الفاعلة والآلات لها، تفعل بها وفيها ومنها في الأماكن المتباينة والأزمان المختلفة هذه الأفعال والصنائع والأعمال من التركيب والتأليف والجمع والتفريق لأجزاء هذه الأركان الأربعة من الكون والفساد والنشوء والبِلَى حسب دوران الأفلاك وحركات الكواكب وطوالع البروج على آفاق البلد من البر والبحر والسهل والجبل والعمران والخراب، كل ذلك بإذن الله — تعالى — الذي خَلَقَها ووكَّلها بالأركان وأيَّدها بالقوة الإلهية على هذه الأفعال والصنائع من تكوين المعادن والنبات والحيوان.

واعلم أن الطبيعة إنما هي مَلَك من ملائكة الله المؤيَّدين وعباده الطائعين، يفعلون ما يُؤمرون، لا يعصون الله ما أمرهم وهم من خشيته مشفقون.

واعلم أن الله — تعالى — غير محتاج في أفعاله إلى الأدوات والآلات والأماكن والأزمان والهَيُولَى والحركات، بل فعله الخاص هو الإبداع والاختراع، إذ الاختراع هو الإخراج من العَدَم إلى الوجود بحسب ما بيَّنَّا في رسالة المبادئ العقلية والأفعال الروحانية.

واعلم أن طائفة من المجادِلة أنكرتْ أفعالَ الطبيعة لما جهلت ماهية الطبيعة نفسها، ولم تَدْرِ أنها مَلَك من ملائكة الله — تعالى — الموكَّلين بتدبير عالمه وإصلاح خلائقه، فنَسَبتْ كل أفعال الطبيعة إلى الباري — جلَّ ثناؤه — حسنة كانت أو سيئة، خيرًا كانت أو شرًّا، وفيهم مَن نسب ما كان حسنًا إلى الباري، وما كان قبيحًا نسبه إلى غيره، ثم اختلفوا في الغير مَن هو، فمنهم مَن نسب تلك الأفعال إلى الطبيعة وإلى التولد، ومنهم مَن نسبها إلى النجوم، ومنهم من نسبها إلى البَخْت والاتفاق، ومنهم مَن نسبها إلى جريان العادة، ومنهم مَن نسبها إلى الشياطين، ولا يدري ما الشياطين، وكل هذه الأقاويل قالوها لجهلهم ماهية الطبيعة وقلة معرفتهم بأفعالها وأفعال ملائكة الله الموكلين بحفظ عالمه وإدارة أفلاكه وتسيير كواكبه وتوليد حيواناته وتربية نبات أرضه وتكوين معادنها.

واعلم يا أخي أن الباري — جلَّ ثناؤه — لا يباشر الأجسام بنفسه ولا يتولَّى الأفعال بذاته، بل يأمر ملائكته الموكَّلين وعباده المؤيَّدين فيفعلون ما يؤمرون كما يأمر الملوك

الذين هم خلفاء الله في أرضه عبيدهم وخدمهم ورعيتهم لا يتولَّوْن الأفعال بأنفسهم شرفًا وإجلالًا، كذلك يأمر — سبحانه — أو يريد أو يشاء أو يقول: كُنْ، فيكون ما أراد بأمره وإرادته ومشيئته واختراعه وإبداعه وإنشائه وإيجاده وإحداثه الهَيُولَى الأولى والخلق الأول، كما ذكر بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

واعلم يا أخي أن هذه الصنائع والأفعال التي تجري على أيدي عباده إذا نُسبت إلى الباري — جلَّ جلالُه — فإن نِسبتها على مثل نِسبة أفعال الملوك إذا قيل: بَنَى فلانٌ المَلِك مدينة كذا، وحفر نهر كذا، وعمر بلد كذا، كما يُقال: بَنى الإسكندر الرومي سدَّ يأجوج ومأجوج، وبنى سليمان بن داود — عليه السلام — مسجد إيليا، وبنى إبراهيم[٤] الخليل — عليه السلام — البيت الحرام، وبنى المنصور مدينة السلام؛ إذ كان ذلك بأمْرِهم وإرادتهم ومشيئتهم، وإلْقَائهم وعنايتهم، لا أنهم تولَّوا الأفعال بأنفسهم أو باشَروا الأعمال بأجسامهم، وكذلك حكم إضافة أعمال ملائكة الله وأنبيائه وعباده طبيعية كانت أو اختيارية، فنِسبتُها إلى الله — تعالى — على هذا المثال تكون كما ذكر الله — تعالى — لنبيِّه عليه السلام: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾، وما شَاكَلَ هذه الإضافات من الأفعال والأعمال والصنائع والتأليف والتركيب والجمع والتفريق والكون والفساد والنشوء والبلاء إذا نُسب إلى الله — تعالى — فعلى هذا السبيل تكون تلك النسبة؛ لأن الله — تعالى — خلق الفاعلين والصناع والعمال وأفعال البشر كانت أو الجن والشياطين والملائكة أو الطبيعة، فحكمها كلها بالإضافة إلى الله حكم واحد؛ لأنهم جميعًا عبيده وجنوده وخدمه، خَلَقَهم وربَّاهم وأنشأهم وقوَّاهم وعلَّمهم وهداهم وأمَرَهم ونَهَاهم، فمُطيع وعاصٍ، وخيِّرٌ وشرِّير، وفاضلٌ وناقصٌ، ومعذَّب ومنعَّم، ومحسِن ومُسِيء، ومبتلًى ومعافًى، خلقهم الله أطوارًا لسعة علمه ونفاذ مشيئته وإجراء أحكامه وعِزِّ سلطانه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

[٤] هذا ليس في محله؛ لأن الخليل بنى البيت الحرام بيَدِه كما وَرَدَ في الأخبار الصحيحة. ا.هـ.

فصل

إن طائفة من المجادِلة لمَّا لم يَعرِفوا ما الطبيعة نَسَبَتْ أفعالَها كلَّها إلى الباري — جل جلاله — ووقعتْ بذلك في شبهة عظيمة وحَيْرة وشكوك، وذلك لمَّا تبيَّن لهم بأن الفعل لا يكون إلا من فاعل، وشاهدوا أفعالًا لم يَرَوْا فاعِلِيها نسبوها إلى الباري — جلَّ ثناؤه — ونظروا فيها وبحثوا عنها فوجدوا بعضها شرورًا وفسادًا مثل موت الأطفال ومصائب الأخيار وتسليط الأشرار وتلف الحيوانات وما يلحقها من الأمراض والأوجاع والجهل والبلوى، كرهوا أن ينسبوا ذلك إلى الباري — عزَّ وجلَّ — فنسبوها إلى التولُّد بزعمهم، ومنهم مَن نسبها إلى البَخْت والاتفاق، ومنهم مَن نسبها إلى النجوم، ومنهم مَن نسبها إلى الباري — تعالى — وقال بالمكافأة والمجازاة، ومنهم مَن قال بالعرض وسابق النظر، ومنهم مَن قال بالأصلح واللطف، وأقاويل أخرى يطول شرحها من التعديل والتجويز، فطوَّلوا الخطب فيها، وقد بينَّا طرفًا من أقاويلهم في رسالة الآراء والمذاهب والديانات، فاعرفه من هناك إن شاء الله تعالى، ونحن قد بيَّنَّا أن هذه كلها أفعال الأنفس الجزئية التي هي كلها قوى النفس الكلية الفلكية كما أنشأها باريها — عزَّ وجلَّ — كما ذكر بقوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، فما كان من هذه الأفعال خيرًا نسب إلى النفس الجزئية الخيرية، وما كان منها شرًّا نسب إلى الأنفس الشريرة، وعليها تقع المجازاة والمكافأة عن الثواب والعقاب.

واعلم يا أخي أن نفسك هي إحدى النفوس الجزئية، وهي قوة من قوى النفس الكلية والفلكية، لا هي بعينها ولا منفصلة منها، كما أن جسدك جزءٌ من أجزاء جسم العالم، لا هو كله ولا منفصل منه، فانظر الآن كيف أعمالك وأفعالك وأخلاقك وآراؤك ومعارفك، فبحسب ذلك يكون جزاؤك ومكافأتك كما قال النبي ﷺ: «إنما هي أعمالكم تُردُّ إليكم.» وقال الله — تعالى — تصديقًا لقول رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ ... الآية، وفَّقك الله أيها الأخ للرشاد، وهداك للسداد، إنه رءوف بالعباد، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم صلِّ على محمدٍ وآله أجمعين.

(تمَّت رسالة تكوين المعادن، ويتلوها رسالة ماهية الطبيعة.)

الرسالة السادسة

من الجسمانيات الطبيعيات في ماهية الطبيعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — أنه لما فرغنا من ذكر الصنائع البشرية في الرسالة الملقَّبة بالصنائع العملية نريد أن نذكر في هذه الرسالة الصنائع الطبيعية، وكيفية أفعالها في الأركان الأربعة وكيفية مواليدها التي هي الحيوان والنبات والمعادن، والغرض منها تنبيه لنا عن أفعال النفس وماهية جوهرها والبيان عن أخبار الملائكة، ويسميها الفلاسفة روحانيات الكواكب، فنقول أولًا: «ما الطبيعة؟»

واعلم يا أخي أن الطبيعة إنما هي قوة النفس الكلية الفلكية، وهي سارية في جميع الأجسام التي دون فلك القمر من لدن كرة الأثير إلى منتهى مركز الأثير.

واعلم أن الأجسام التي دون فلك القمر نوعان؛ بسيطة ومركبة، فالبسيطة أربعة أنواع: وهي النار والهواء والماء والأرض، والمركَّبة ثلاثة أنواع: وهي المعادن والنبات والحيوانات، وهذه القوة — أعني الطبيعة — سارية فيها كلها، ومحرِّكة ومسكِّنة ومدبِّرة لها، ومتمِّمة ومبلِّغة لكل واحدة منها إلى أقصى مدى غاياتها بحسب ما يَلِيق

بواحدة واحدة منها، كما شاء باريها وكما بيَّنَّا في الرسائل الخمس، وهي رسالة الكون والفساد، ورسالة الآثار العلوية، ورسالة المعادن، ورسالة النبات، ورسالة الحيوان.

واعلم أن النفس الكلية هي روح العالَم كما بيَّنَّا في الرسالة التي ذكرنا فيها أن العالَم إنسان كبير، والطبيعة هي فعلها والأركان هي النار والهواء والماء والأرض، هي الهَيُولَى الموضوعة لها والأفلاك والكواكب كالأدوات لها، والمعادن والنبات والحيوانات كلها مصنوعاتها.

واعلم يا أخي أن الصُّنَّاع البشريين يعلمون أعمالَهم بأبدانهم وأيديهم وأرجلهم، وهي كلها مصنوعات للطبيعة كالخشب والحديد والقطن والحب وما شاكلها — كما بيَّنَّا في رسالة الصنائع العملية — ويُظهِرون صنائعهم بأدوات اتخذوها من مصنوعات الطبيعة أيضًا كالفأس والمنشار والإبرة والقلم وما شاكلها، فهيولاهم وأدواتهم خارجة من ذواتهم، وأما الطبيعة فهيولاها من ذاتها التي هي الأركان الأربعة وهي لها بمنزلة الأربعة الأخلاط في بدن إنسان واحد، وهي سارية فيها كلها وصانعة منها وفيها مصنوعاتها، ومصنوعاتها أيضًا ليست بخارجة من ذاتها، وهي كلها كالأعضاء في جسد حيوان واحد، وهي ثلاثة أجناس: معادن ونبات وحيوان، وكل جنس منها تحته أنواع، وكل نوع تحته أنواع، إلى أن تنتهي أنواع تحتها أشخاص، فأما الأنواع والأجناس فهي محفوظة معلومة صورها في الهَيُولَى، وأما الأشخاص فهي غير معلومة ولا محفوظة فيها، والعلة في حفظ صُوَر الأجناس والأنواع في الهَيُولَى هي ثبات عِلَلها الفلكية، وأما تغيير الأشخاص وسيلانها، فمن أجْل تغييرات نظامها، وذلك أن العلة الفاعلة لهذه المصنوعات هي النفس الكلية الفلكية بإذن باريها، وكانت الأركان هَيُولَى لها، والطبيعة فعلها، والفلك والكواكب كالأدوات لها، وكان الموضوع في أحكام النجوم ثلاثة أنواع: وهي الأفلاك والكواكب والبروج، وكانت تأثيراتها في هذه الأركان بحسب المناسبات الثلاث، كما بيَّنَّا في رسالة الموسيقى، وهي مناسبة أعظام أجرامها ومناسبة أبعاد مراكزها ومناسبة حركات بعضها من بعض، ولما كانت المناسبات التي بين فلك الكواكب الثابتة وبين هذه الأركان الأربعة محفوظة أبعادها وأعظامها وحركاتها صارت الأجناس الثلاث محفوظة صورها في الهَيُولَى، ولما كانت أيضًا المناسبات التي بين مراكز الأفلاك الحاملة وبين هذه الأركان محفوظة أبعادها وحركاتها وأعظامها صارت صور أنواع هذه الأجناس أيضًا محفوظة في الهَيُولَى، ولما كانت المناسبات من أجرام الكواكب السيارة وأفلاك تداويرها وبين هذه الأركان غير محفوظة صارتْ من أجْل ذلك أشخاص هذه الأنواع وصورها غير محفوظة في الهَيُولَى.

واعلم يا أخي أن العالم جملته إحدى عشرة كرة — كما بيَّنَّا في رسالة السماء والعالم — وأن الشمس مركز جرمها في أوسط الأكر؛ وذلك أن خمس أكر فوقها وخمس أكر دونها، فالتي فوقها كرة المِرِّيخ وكرة المُشتَرِي وكرة زُحَل وكرة الكواكب الثابتة وكرة المحيط، والتي دونها كرة الزُّهَرة وكرة عُطَارد وكرة القمر وكرة النار والهواء وكرة الماء والأرض، وأن حكم الكرتين اللتين فوق كرة زُحَل غير حكم الأكر الباقية، كما أن حكم الكرتين اللتين دون فلك القمر غير حكم الآخرين، وذلك أن كرة الأشخاص بين الكرتين في الطرفين وهي كرة الكواكب الثابتة وكرة الهواء، لكن تلك الكرة ثابتة صورها وهَيُولاها جميعًا، وهذه الكرة ثابتة بصورها، وهيولاها سيَّالة، فقد جعلتِ الحكمة الإلهية والعناية الربانية الكواكب السيارة واسطة بين الطرفين اللذين هما المركز والمحيط؛ لكيما إذا صعدتِ الكواكب في أوجاتها قربت من تلك الأشخاص الفاضلة واستمدَّت منها الفيض، وإذا انحطَّتْ في الحضيض أوصلتْ تلك الفيوضات إلى هذه الأركان، فتكوَّنتْ منها هذه الكائنات المتولدات التي هي المعادن والحيوان والنبات.

واعلم يا أخي أنه إذا سَرَتْ تلك الفيوضات من هناك نحو مركز العالم نزلت البركات من السماء إلى الأرض، وهي الأرزاق والرحمة والوحي والتأييد والنصر، فأول ما تسري تلك القُوَى في الأركان فتكون منها المزاجات الكائنات في باطن الأرض لتكوين المعادن المختلفة الجواهر الكثيرة المنافع، وعلى ظاهر وجهها يكون النبات الكثير الفوائد، وفي الهواء الحيوانات الكثيرة الصور العجيبة الأغراض باختلاف أنواعها وفنون أشخاصها، حتى إذا بلغ كل شيء منها إلى أقصى مدى غاياتها في أدوار الألوف عطفت تلك القوة راجعة نحو المحيط كما بدأ أول مرة، فيكون منها البعث والنشور والمعراج والقيامة، كما ذكر الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

واعلم أن تأثيرات الكواكب في هذه الأركان ومولداتها تكون بحسب مناسباتها، ومناسباتها تكون بحسب أعظام أجرامها وأبعاد مراكزها وحركات أجرامها، كما أن تأثيرات نغم الموسيقى تؤثِّر في النفوس بحسب مناسباتها وبحسب دقة أوتارها وغلظها وخرقها واسترخائها وثقل تحريكها وخفَّتها، كما بيَّنَّا في رسالة الموسيقى.

واعلم يا أخي أن المناسبات التي هي بين الأركان ومولداتها وبين الكواكب السيارة ومركز أفلاكها مختلفة تارةً تكون على نسبة الأفضل وتارةً تكون على نسبة الأدون وتارةً بين ذلك، فإذا اتفق أن تكون الكواكب عند استئناف الأدوار على نسبة الأفضل تكون الكائنات على أفضل حالها في تلك الأدوار، ويكون البشر أكثرهم أخيارًا وفضلًا مثل

الملائكة الذين كانوا قبل آدم أبي البشر، وإذا كانت على نسبة الأدون كانت بالضد من ذلك ويكون البشر أكثرهم أشرارًا مثل الذين يكونون في أواخر الزمان عند خراب العالَم، وإذا كانت متوسطة فبحسب ذلك تكون الكائنات، وأفضل حالات الكواكب أن تكون في صعودها أو إشرافها أو في أوجاتها، وأدوَنها أن تكون في مقابلة هذه المواضع أو وسطًا بين ذلك.

واعلم يا أخي أن كل كائن تحت فلك القمر وكل حادث في هذا العالم له وقت معلوم يحدث فيه لا يكون قبلُ ولا بعدُ، وله سبب موجب لكونه لا يكون إلا به، وله بقعة مخصوصة لا يوجد إلا هناك، لا يعلم تفصيلها إلا الله — عزَّ وجلَّ — ولكن نذكر منها طرفًا مجملًا ليكون على صحة ما قلنا ويتصور المتفكرون حقيقة ما وصفنا، وذلك أن الله — جلَّ ثناؤه — جعل الفلك محيطًا بالأرض من جميع الجهات كما بيَّنَّا في رسالة جغرافيا، ولما كان الفلك مقسومًا أربعة أقسام، وكل ربع منه مسامتًا لربع من الأرض، وكل كوكب يدور من المشرق إلى المغرب فوق الأرض ومن المغرب إلى المشرق تحت الأرض، فإنه يكون موازيًا الدائرة على بسيط الأرض، وتكون مطارح شعاعاته على بسيط الأرض ويكون لتلك الشعاعات زوايا ثلاث قائمة وحادة ومنفرجة، ولكل زاوية منها تأثيرات مختلفات كما بيَّنَّا في رسالة الآثار العلوية.

واعلم يا أخي بأن الباري — جلَّ ثناؤه — جعل حركات تلك الأشخاص في دورانها سببًا موجبًا لكون الحوادث في هذا العالم.

وعلة فاعلة للكائنات تحت فلك القمر وجعل الأوقات المعلومة بحسب اجتماعاتها ومناظراتها واتصالاتها في درجات البروج، وجعل البقاع المسامتة لها ولمطارح شعاعاتها مختصة لكونها وحدوثها، وذلك أن الأقاليم السبعة التي في الأرض كالأفلاك السبعة، والبلدان في الأقاليم كالبروج في الأفلاك، والمدن والقرى في البلدان كالوجود والحدود في البروج، والأسواق والمحال في المدن والقرى كالدرجات والدقائق في الحدود، والدور والمنازل والبيوت والدكاكين كالثواني والثوالث في الدقائق، واجتماعات الكواكب في درجات البروج بسبب اجتماعات الحيوانات والجواهر المعدنية والنبات في البلدان والمدن والقرى.

فحدود زُحَل في البروج سبب وعلة لحدوث الأنهار والجبال والبراري والآجام والغدران والشوارع والطرقات وما شاكلها من حدود البقاع.

وحدود المُشتَرِي في البروج سبب لحدوث المساجد والهياكل والبِيَع ومواضع الصلوات وبقاع القرابين، واجتماعات الكواكب في حدوده علة لاجتماعات الناس في الجمعات والأعياد

وتعلُّم أحكام النواميس وقراءة الكتب النبوية والتفقُّه في الدِّين والحكومة عند القضاة والحكام وما شاكل ذلك.

وحدود المِرِّيخ في البروج سبب وعلة لحدوث مواقد النيران ومذابح الحيوان ومعسكر الجيوش وأماكن السباع ومواضع الحروب والخصومات وما شاكل ذلك، واجتماعات الكواكب واتصالاتها في حدود المِرِّيخ علة لاجتماعات الناس والنبات والجواهر المعدنية في هذه المواضع والأماكن.

وحدود الزُّهَرة في البروج سبب لحدوث البساتين ومواضع النزهة ومجالس اللهو والأكل والشرب والفرح والسرور واللذة والمناظر الحسان، واجتماعات الكواكب ومطارح شعاعاتها في حدودها علة لاجتماعات الناس والنبات والحيوان في هذه المواضع.

وحدود عُطَارد في البروج سبب لحدوث الأسواق ومواضع الصناع ومجالس الكلام والعلوم ودواوين الكُتَّاب وجموع القُصَّاص ومناظرات العلماء، ودرجات أشرافها سبب لمنازل الملوك وسادات الناس، ودرجات هبوطها سبب لمواضع المَحْق والسقوط والحبوس وما شاكل ذلك.

(٢) فصل

في كيفية وصول تأثير الأشخاص الفلكية الثابتة الوجود الدائمة الدوران إلى هذه الأشخاص السفلية الكائنة عن حركاتها الفلكية القليلة الثبات الدائمة السيلان.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — أنه قد قامت البراهين الهندسية على أن الأرض هي مركز العالَم، وأن الهواء والأفلاك محيطة محدقة بها من جميع جهاتها.

واعلم أن مثال الأرض في وسط العالم كمثل بيت الله الحرام في وسط الحرم، وأن مثل الفلك المحيط وسائر مراكز الأفلاك في دورانها حول الأركان الأربعة كمثل الطائفين حول البيت.

وأن مثل الكواكب الثابتة مع مطارح شعاعاتها من المحيط نحو مركز الأرض كمثل المصلِّين المتوجِّهين من آفاق البلاد شطر البيت.

وأن مثل الكواكب السيارة في مسيرها ذاهبة وجائية تارةً من أوجاتها نحو المركز وتارةً ذاهبة من حضيضها نحو المحيط كمثل الحُجَّاج تارةً ذاهبين من بلدانهم نحو البيت وتارةً منصرفين عن البيت الحرام راجعين إلى بلدانهم، فإذا مروا متوجِّهين نحو البيت حمل كل واحد ممَّا في بلده من الأمتعة والنفقة والتحف والهدي والقلائد آمِّين نحو

البيت الحرام، فيجتمع هناك في الموسم ممَّا في كل بلد طوائفه وخواص أمتعته، وتجتمع الأمم من كل مذهب يتبايعون ويتشَارَوْن، فإذا قَضَوْا مناسكهم انصرف كل أهل بلد بطوائف ما في سائر البلدان ومغفرة من الله ورضوان.

فهكذا يا أخي حكم سريان قوى تلك الأشخاص العالية من محيط الفلك نحو مركز العالم، وذلك أنها إذا اجتمعتْ مطارح شعاعاتها على بسيط الأرض وتخلَّلتْ أجزاء الأركان وامتزج بعضها ببعض وسَرَتْ تلك القوى فيها يتكوَّن من امتزاجها ضروب المتولدات الكائنات من الحيوان والمعادن والنبات المختلفة الأجناس المفننة الأنواع المتغائرة الأشخاص، لا يَعلَم كثرة عددها واختلاف أحوالها إلا الله سبحانه.

ثم إن تلك القوى إذا بلغتْ أقصى مدى غاياتها وتمام نهاياتها المقصودة منها عطفت عند ذلك راجعة نحو المحيط، فيكون سببًا لبعث النفوس ونشر الأرواح، إما بربحٍ وغِبْطة، وإما بخسران وندامة كمثل الراجعين من تجار الحاج، إما بربحٍ وغفران، أو بندامة وخسران.

فانظر يا أخي وتفكَّرْ كيف يكون انصرافك من عالَم الكون والفساد إلى عالم الأفلاك التي جاءت من نفسك، واعتبر نسبة إلى الحُجَّاج إذا قضوا مناسكهم كيف ينصرفون مشتاقين إلى بيوتهم وأوطانهم.

واعلم يا أخي أن جميع مناسك الحج وفرائضه أمثال ضربها الله — عزَّ وجلَّ — للنفوس الإنسانية الواردة عن عالم الأفلاك وسعة السموات إلى عالم الكون والفساد؛ لكيما يتفكر العاقل ويعتبر وينبِّه نفسَه من سِنَة الغفلة ورقدة الجهالة وتَذكُر مبدَأَها ومعادَها وتَشتاق فترجع كما جاءتْ وتجيب الداعي إذا ناداها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾، فتقول: «لبيك اللهم لبيك.»

واعتبر يا أخي كيفية انصراف الحاج إلى بلدانهم، فإنك ترى لأهل كل بلد قافلة وطريقًا يمرون فيها متعاونين ذاهبين وراجعين، فهكذا وردت النفوس إلى هذا العالم في كل أمة بدلالة كوكب وبرج في قران، ولا تنصرف الدنيا إلا بدِين ومذهب، ويكون زاد كل نفس ما كسبت من خير وشر، فلا تظن يا أخي أنك تقدر على أن ترجع بنفسك وحدها.

واعلم أن الطريق بعيدة والشياطين بالمرصاد قعود كقُطَّاع الطريق، فاعتبر فكما أنك لا تقدر على أن تعيش وحدك إلا عيشًا نكدًا ولا تجد عيشًا هنيًّا إلا بمعاونة أهل مدينة وملازمة شريعة، فهكذا ينبغي لك أن تعتبر لتعلم بأنك محتاج إلى إخوان أصدقاء متعاونين لتنجو بشفاعتهم من جهنم، وتصعد إلى ملكوت السماء بمعاونتهم، وتدخل الجنة بلا حساب.

واعلم يا أخي علمًا يقينًا أنه لو كان يمكن أن تنجو نفس وحدها بمجردها لما أمر الله — تعالى — بالتعاون حيث قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وقال: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾، وكذلك قال: «ويوم نبعث من كل أمة فوجًا»، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

وانظر يا أخي بنور عقلك وتفكَّر بفهمك وقِفْ في مقامك وتوجَّه نحو البيت، لعلك تعرف بوقوفك على جبل عرفات ما عرف أهل المعارف الذين أشار إليهم بقوله — جلَّ ثناؤه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾؛ يعني بعلاماتهم فيزدلف بك معهم إلى المزدلفة، وتبلغ نحو المنى المتمنَّى، وهم يطمعون إذ تدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

واعلم يا أخي أن مَن حجَّ البيت بقلب ساهٍ ونفسٍ لاهية بلا علم ولا بصيرة ورأى تلك المناسك وسُنَنها ولم يعقل معانيَها ولا دَرَى ما الغرض منها ولا عرف شيئًا من أغراضها المقصودة بها رجع من هناك بقلب غافل، ونفس شاكَّة، وفكر متحيِّر؛ لأنه متى رآها ولم يدرِ معانيَها ولا عرف أغراضها، تخيل له عند ذلك أنها كلعب الصبيان من رمي الحصا والسعي بين الصفا والمروة والإحرام والتلبية والطواف والعمرة وما شاكلها من السنن والفرائض، وعلى هذا القياس لكل أمة من أمم الناس في بيوت عباداتهم من سنن مفترضات دياناتهم وقرابين هياكل صلواتهم أمثلة وأشائر ومرامي ومرموزات لواضعها، وإلى هذا المعنى أشار إبراهيم خليل الرحمن.

واعلم بأن غرض الأنبياء — عليهم السلام — وواضعي النواميس الإلهية أجمع غرض واحد وقصد واحد، وإنِ اختلفت شرائعهم وسُنَن مفترضاتهم وأزمان عباداتهم وأماكن بيوتاتهم وقرابينهم وصلواتهم، كما أن غرض الأطباء كلهم غرض واحد ومقصد واحد في حفظ الصحة الموجودة واسترجاع الصحة المفقودة، وإن اختلفت علاجاتهم في شرباتهم وأدويتهم بحسب اختلاف الأمراض العارضة للأبدان في الأوقات المختلفة والعادات المتغايرة والأسباب المفننة من الأهوية والبلدان.

وذلك أن غرض الأطباء كلهم هو اكتساب الصحة للمريض وحفظها على الأصحاء ودفع الأمراض وإزالتها عن المرضى، فهكذا غرض الأنبياء — عليهم السلام — وغرض جميع واضعي النواميس الإلهية من الفلاسفة والحكماء، وذلك أنهم أطباء النفوس وغرضهم هو نجاة النفوس الغريقة في بحر الهَيُولَى وإخراجها من هاوية عالم الكون والفساد وإيصالها إلى الجنة عالم الأفلاك وسعة السموات بتذكيرها ما قد نسيت من

مبدئها ومعادها كما قال الله — تعالى عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، وقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فتئوبون وترجعون كما قال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾.

فصل

واعلم يا أخي بأن سنن الديانات النبوية وموضوعات النواميس الفلسفية ومفروضات الشرائع كلها، ومناسك بيوتات العبادات وقرابين الهياكل والصلوات كلها إشارات ومرامي إلى ما أشار إليه إبراهيم خليل الرحمن في بنائه البيت الحرام ووضعه الحجر والمقام وتعليمه المناسك ذريته ودعائه الناس فيهم بالحج إلى البيت الحرام ليشهدوا منافع لهم، وذلك أن الإنسان العاقل اللبيب الفهيم الذكي إذا حجَّ ولبَّى وطاف وصلَّى ورأى البيت وشاهد كيفية الحج وما يفعل الحاج والمحرمون من عجائب سنن المناسك ومفروضاتها من الإحرام والتلبية والطواف والسعي ووقوف الحج بعرفات والمبيت بالمزدلفة والتضحية بمنًى والحلق والرمي وما شاكلها من فرائض الحج وسنن المناسك، وتفكَّر فيها بقلب مستيقظ، واعتبرها بعين بصيرة ونفس زكية، فطن لما أراده إبراهيم خليل الرحمن — عليه السلام — فيما سنَّ واحدة واحدة، وما الغرض الأقصى منها كلها، وعرف وفهم واهتدى قلبه واهتدت نفسه وانتبهت وأبصرت فتراجعت وشاهدت ورأت ما أشار الله — تعالى — إليه بقوله: «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤْمِنونَ بِهِ ويَستَغفِرونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ.»

واعلم يا أخي أن الملائكة الحافِّين بالعرش هم حَمَلة العرش، وهي الكواكب الثابتة الحافَّة بالفلك التاسع من داخله كما يحفُّ الحاجُّ بالبيت في طوافهم من خارجه فهم يسبِّحون بحمد ربهم كما قال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾، ويؤمنون به ويقرُّون بأن مِن وراء مراتبهم ومقاماتهم أمورًا أخرى هي أشرف وأعلى يقصر علمهم عنها ويقف فهمهم دونها، كما يقرُّ الحاجُّ من المؤمنين بأن من وراء السموات البيت المعمور وحوله جموع الملائكة طائفين يحجون إليه في كل يوم ألوف ألوف لا يعودون إليه أبدًا ويقولون إن هذا البيت الحرام في الأرض بحذاء ذلك البيت المعمور الذي في السماء، وأن هذه السنن والمناسك أمثلة وإشارات إلى تلك السنن والمناسك التي تنسكها الملائكة حول البيت المعمور.

فصل

وإذ قد فرغنا من ذكر ما احتجنا إليه فنقول إن قومًا من العلماء تكلموا في أحكام النجوم، فأثبتوا دلائلها على الكائنات وأنكروا أفعالَها من عالم الكون والفساد، وقوم أثبتوا دلائلها وأفعالَها جميعًا، وقوم آخرون أنكروها جميعًا، فأما الذين أثبتوا دلائلها فعند الاعتبار عرفوها، ولكن لم ينظروا إلى حقائق الأشياء كيف هي فلم يعرفوها.

وأما الذين أنكروا دلائلَها وأفعالَها فلتركهم النظر في هذا العلم، وأما الذين أثبتوا دلائلها وأفعالها فإنما عرفوا ذلك بعد النظر والبحث الشديد والاعتبار والتصفح لأمور الموجودات شيئًا بعد شيءٍ، حتى أَتَوْا على أواخرها، ثم نظروا إلى أوائلها فرَأَوْا أنَّها كلها مربوطة رباطًا واحدًا عن علة واحدة ومبدع واحد مثل العدد، ولما كنا قد قلنا فيها قبل إن هذه الأشياء كلها مفعولات الطبيعة، وإن الأشخاص الفلكية كالأدوات لها، وقوى تلك الأشخاص كالمعاونين للطبيعة احتجنا أن نبيِّن حقيقتَها فنقول: إنا قد بيَّنَّا معنى قول الحكماء إن العالم إنسان كبير له جسم ونفس، وبيَّنَّا تركيب جسمه في رسالة السماء والعالم، فنزيد أن نبيِّن كيف كان سريان قوى نفسه في الأجسام التي تحت فلك القمر.

واعلم يا أخي بأن جسم العالَم بأسره بمنزلة جسم إنسان واحد، وأن جميع أفلاكه وطبقات سمواته وكواكب أفلاكه وأركان طبائعه ومولداتها من جملة جسمه بمنزلة أعضاء بدن إنسان واحد ومفاصل جسده، فإن نفسه تُدِير أفلاكَه وتحرك كواكبها بإذن الباري — جلَّ وعزَّ — كما تحرك نفسُ إنسان واحد أعضاءَ جسده ومفاصل بدنه، وإن للنفس بحركات كواكبه فيما دون فلك القمر من الأركان ومولداتها أفعالًا فيها وبها ومنها لا يُحصي عددَها إلا الله — سبحانه — كما أن لنفس الإنسان الواحد في جميع بدنه ومفاصل جسده أفعالًا كثيرة، كما بيَّنَّا في رسالة تركيب الجسد، وذلك أن جسم العالَم مركَّب من إحدى عشر كرة، كما بيَّنَّا في رسالة تركيب الجسد، وأن العالَم مقسوم بنصفين، كما أن جسد الإنسان شِقَّان، وأن في الفلك اثنَيْ عشر برجًا لمسير كواكبه، منها ستة شمالية وستة جنوبية، كما أن في الجسد اثني عشر ثقبًا ستة منها في الجانب الأيمن وستة منها في الجانب الأيسر لمجاري حواسه وسريان قوى نفسه، وأن في الفلك سبعة كواكب مدبِّرة بها قوام أمره، وهي سبب الكائنات بإذن الباري — عزَّ وجلَّ — كما أن في الجسد سبع قوى فعَّالة بها قوام أمر الجسد وصلاح حاله، وهي القوة الجاذبة والقوة الماسكة والقوة الهاضمة والقوة الدافعة والقوة الغاذية والقوة النامية والقوة المصورة، ولكل قوة من هذه عضو مخصوص من الجسد، منه تسري القوة إلى جميع أعضاء

الجسد، وبه تُظهِر أفعالَها في البدن وهي المَعِدة والكَبِد والقَلْب والدِّماغ والرِّئة والطحال والمرارة، فكما أن من هذه الأعضاء تبث للنفس هذه القوى في البدن وتنشر أفعالها في الجسد، فهكذا حكم أفعال هذه الكواكب السبعة في الفلك، فإن النفس الكلية تنبثُّ قوتها في جميع العالم، وبها تظهر أفعالها في الكائنات التي تحت فلك القمر، وكما أن مِن إفراط أفعال هذه القوى ونقصانها يعرض في البدن الاضطراب والتألُّم كما يعرف الأطباء، فهكذا من إفراط تأثيرات هذه الكواكب ونقصان أفعال قوتها تكون المناحس والفساد في عالم الكون، كما يخبر بها أصحاب أحكام النجوم، وكما أن شرح علم الطب طويل، والصناعة عجيبة والعمر قصير كما قال بقراط حكيم اليونانيين، فهكذا شرح أحكام النجوم طويل، كما قال حكيم الفرس بزرجمهر كارهست مردينست.

ولكن نذكر منها طرفًا، فنقول: إنه ينبثُّ من جرم الشمس قوة روحانية في جميع العالم فتسري في أفلاكه وأركان طبائعه ومولداتها في جميع الأجساد الكلية والجزئية، وبها يكون صلاح العالم وتمام وجوده وكمال بقائه كما تنبعث من القلب الحرارة الغريزية في جميع الجسد التي بها تكون حياة البدن وصلاح الجسد، ويسمي الفلاسفة هذه القوة وما انبثَّ منها في العالم روحانيات الشمس، وذلك بحسب اختصاصها بجسم جسم كاختصاص الحرارة الغريزية بعضو عضو من الجسد وشرح كيفيتها يطول، وقد ذكرنا في رسالة أفعال الروحانيات طرفًا منه، وفي رسالة المعادن والنبات والحيوان، ويُسمِّي الناموس هذه القوة مَلَكًا ذا جنود وأعوان، وإسرافيل منهم صاحب الصور، وهكذا ينبثُّ من جرم زُحَل قوة روحانية تسري في جميع العالم من الأفلاك والأركان والمولدات، وبها تكون تماسك الصور في الهَيُولَى وانبثاثها كما تنبثُّ من جرم الطحال قوة الخلط السوداوي في جميع الجسد ومفاصله، وبها يكون تماسك الأجزاء في البدن من العظام والعصب والجلد وجمود الرطوبات التي لو لم تكن لسال هَيُولَى الجسد كما يسيل الماء والهواء، ويسمي الفلاسفة هذه القوة روحانيات زُحَل، والناموس يُسمِّيها مَلَكًا ذا جنود وأعوان، وملك الموت منهم ومنكر ونكير أيضًا، وهكذا ينبثُّ من جرم المِرِّيخ قوة روحانية تسري في جميع العالم من الأفلاك والأركان والمولدات، وبها يكون النزوع والنهوض نحو المطالب والنشاط نحو الأعمال والصنائع والترقِّي في المعالي، وطلب الغايات للبلوغ إلى التمام والوصول إلى الكمال في الموجودات كلها، وتسمِّي الفلاسفة هذه القوة وما ينبثُّ منها في العالم روحانيات المِرِّيخ، ويسميها الناموس مَلَكًا ذا جنود وأعوان، وجبرائيل ومنهم مَالِك الغضبان وخَزَنة جهنم أجمعون وسريانها في العالم

وانبثاث قواها كما ينبث من جرم المرارة والقوة الصفراوية المميزة للأخلاط الموصِّلة بها إلى مواضعها المقصودة من أطراف البدن ونهايات الجسد المثيرة للغضب والحقد والحَمِيَّة وما يُشاكِلها، وهكذا ينبثُّ من جرم المُشتَرِي قوة روحانية تسري في جميع العالم بها يكون اعتدال الطبائع المتضادات وتأليف القوى المتنافرات، وسبب المتولدات الكائنات وحفظ النظام على الموجودات كما ينبثُّ من الكبد رطوبة الدم التي بها يعتدل أخلاط الجسد، ويستوي مزاج الطبائع، وينمو الجسد، وتنشأ الأبدان، وتطيب الحياة، ويلذُّ بالعيش، وتأنس الأرواح، وتألف النفوس، وتسمِّي الفلاسفة هذه القوة وما ينبثُّ من أفعالها روحانيات المُشتَرِي، ويسميها الناموس مَلَكًا ذا جنود وأعوان، ورضوان خازن الجنان منهم.

وهكذا ينبثُّ من جرم الزُّهَرة قوة روحانية فتسري في جميع العالم وأجزائه، وبها تكون زينة العالم وحسن نظامه وبهاء أنواره ورونق الموجودات وزخرف الكائنات والتشوق إليها والعشق لها والمحبات والمودات أجمع، كما ينبث من جرم المعدة شهوة الملاذِّ إلى جميع مجاري الحواس التي بها تُستلذُّ المشتَهَيَات وتُستطاب النِّعَم وتُستحسَن الزينة، ومن أجْلها يُراد البقاء في الدنيا، ولا يُتمنَّى الوصول إلى الآخرة، ويُسمي الفلاسفة هذه القوة وما يتفرَّغ منها روحانيات الزُّهَرة، ويسمِّيها الناموس مَلَكًا ذا جنود وأعوان، منها الحور العين وخُزَّان الجنان.

وهكذا ينبثُّ من جرم عُطَارد قوة روحانية تسري في جميع جسم العالم وأجزائه بها تكون المعارف والإحساس في العالم والخواطر والإلهام والوحي والنبوة والعلوم أجمع، كما تنبثُّ من الدماغ القوة الوهمية وما يتبعها من الذهن والتخيل والذِّكْر والروِيَّة والتمييز والفراسة والخواطر والإلهام والشعور والإحساس والمعارف والعلوم أجمع، وتسمِّي الفلاسفة هذه القوة وما يتبعها روحانيات عُطَارد، ويسميها الناموس مَلَكًا ذا جنود وأعوان، والوِلْدان والذين هم خُدَّام أهل الجنان والكرام البررة والكرام الكاتبون منهم.

وهكذا ينبثُّ من جرم القمر قوة روحانية تسري في جميع العالم وأجزائه، وتكون النفس للموجودات في العالَمَيْن جميعًا؛ تارةً من عالم الأفلاك إلى عالم الكون والفساد من أول الشهر، وتارةً من عالم الكون والفساد نحو عالم الأفلاك من آخِر الشهر، وهي القوة المتوسطة بين عالم الأفلاك معدن البقاء والدوام، وبين عالم الأركان معدن الكون والفساد، كما ينبثُّ من جرم الرئة القوة التي يكون فيها التنفس تارةً باستنشاق الهواء

من خارج لحفظ الحرارة الغريزية على الجسد، وتارةً يكون التنفس بإرساله إلى خارج لترويحه، ويُسمِّي الفلاسفة هذه القوة وما ينبثُّ عنها من الأفعال روحانيات القمر، ويسمِّيها الناموس مَلَكًا ذا جنود وأعوان، فبهذه القوة تنزل الملائكة بالوحي والبركات من السماء، وبها يُصعد بأعمال بني آدم إلى السماء، وبها تَعرج الأرواح، والمُعقِّبات منهم.

وهكذا ينبثُّ من كل كوكب من الثوابت قوة روحانية تسري في جميع جسم العالم من أعلى الفلك الثامن الذي هو الكرسي الواسع إلى منتهى مركز الأرض كما ينبث من نور الشمس في الهواء والأجسام الشفافة، وبهذه القوة تحفظ صور أجناس الموجودات في الهَيُولَى، وبها صلاح العالم وقوام وجوده بإذن الباري — عزَّ وجلَّ — ومنها ثبات سكان السموات والأرضين، وإليها أشار بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وقال حكاية عنهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾، وحَمَلة العرش منهم.

وأما الملائكة الذين سجدوا لآدم أبي البشر، فهم الذين في الأرض خلفاء لهؤلاء الذين هم في الأفلاك وهي نفوس سائر الحيوانات الساجدة لآدم وذريته بالطاعة المسخرة لهم إلى يوم القيامة.

واعلم بأن خراب العالم إنما يكون سببه فساد الكون، وهذا يكون بغلبة أحد الأركان إما بطوفان من الماء مثل ما كان في زمان نوح النبي — عليه السلام — وإما بطوفان من النار مثل ما وعد في القرآن يكون في آخِر الزمان بقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، وسبب ذلك أن تستولي القرانات على البروج المائية والكواكب المائية فيكون طوفان الماء، والبروج النارية والكواكب النارية فيكون طوفان النار، فإذا بلغ قلب الأسد إلى حد المِرِّيخ في بروج الأسد بعد سنين فيكون طالع القران وطالع أشهر البروج النارية ويستولي المِرِّيخ عليها، فيشبه أن يكون طوفان من النار في ذلك الزمان، وكيفية ذلك أن يَحمَى الهواء فيصير نارًا سمومًا، فيحترق الإنسان والحيوان، ويبقى العالَم — أعني وجهَ الأرض — خرابًا بلا حيوان، ثم إن الله — سبحانه وتعالى — يُنشئ النشأة الآخِرة، كما وعد في القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ يعني النشأة الآخرة، وقال تعالى: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فعند ذلك يحصل أهل الجنة فيها منعمون وأهل النار فيها مخلدون، وقد بيَّنَّا في رسالة البعث كيف يكون ذلك، فانتبه يا أخي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة واستعدَّ واعمل للمعاد والنشأة الآخرة، لعلك تُبعث يوم القيامة من السعداء، وتصعد إلى ملكوت السماء، وتدخل في زمرة الملائكة الذين هم الملأ الأعلى،

ولا تكونن مع الذين يريدون الخلد في الدنيا عالم الكون والفساد لابثين فيها أحقابًا، لا يذوقون فيها بردَ عالم الأرواح ولا شراب نسيم الجنان، كلما نضجتْ جلودهم بالبِلَى بُدِّلوا بالكون جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب، أعاذك الله أيها الأخ من عذاب النار، وبلَّغك وإيانا وجميع إخواننا دار القرار مع الأبرار، إنه على ما يشاء قدير.

(تمَّتِ الرسالة والحمد لله كما هو أهله، وصلى الله على محمدٍ رسوله وآله الأئمة الطاهرين وسلَّم تسليمًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.)

(تمَّتْ رسالة ماهية الطبيعة، وتتلوها رسالة أجناس النبات.)

الرسالة السابعة

من الجسمانيات الطبيعيات في أجناس النبات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — أنه لما فرغنا من ذكر الجواهر المعدنية وبينَّا طرفًا من كيفية تكوينها وكمية أجناسها وفنون أنواعها وخواص منافعها ومضارها في رسالة لنا، وبيَّنَّا فيها أن آخِر مرتبة الجواهر المعدنية متصلة بأول مرتبة الجواهر النباتية، فنريد أن نتبعها برسالة النبات، ونبيِّن فيها أيضًا طرفًا من كيفية سريان القوى الثابتة فيها، والغرض منها تعديل أجناس النبات وكيفية تكوينها ونشوئها وأسباب اختلاف أنواعها من الأشكال والألوان والطعوم والروائح وأوراقها وأزهارها وحبوبها وبذورها ونموها وعروقها وقضبانها وأصولها من المنافع، فإن أول مرتبة النبات متصلة بأول مرتبة الحيوانية، وآخر مرتبة الحيوانية متصلة بأول مرتبة الإنسانية، وآخر مرتبة الإنسانية متصلة بأول مرتبة الملائكة الذين هم سكان السموات وقاطنو الأفلاك الذين خلقهم الله — تبارك وتعالى — لعمارة عالمه مطيعين في طاعته، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وهم من خشيته مشفقون.

فنقول: اعلم يا أخي بأنك مندوب للقاء ربك، ومبعوث من هذه الدنيا إلى هذه المرتبة، ومقصود بك إليها منذ يوم خُلقتَ، تنتقل من حال أدْوَن إلى حال هي أتمُّ وأكمل وأشرف، إلى أن تَلقَى ربك وتشاهده، فيوفي لك ما وعدك، فمن تلك الحالات ما قد جاوزتَ وشاهدتَ، ومنها ما لم تبلغها بعدُ، وأنك قد أتى عليك حينٌ من الدهر لم تك شيئًا مذكورًا، ثم خُلقتَ نطفة من ماء مهين، ثم نُقلتَ إلى الرحم في قرار مكين، ومكثتَ هناك تسعة أشهر لتتميم البنية وتكميل الصورة، ثم نُقلتَ إلى هذا الجو الفسيح ومكثتَ أربع سنين لإكمال التربية واشتداد القوة، وشاهدتَ بالحواس محسوساتها، وحصل لك الفهم والذهن والتمييز والتفكر والروية والمعرفة الغريزية، ثم أُسلمتَ إلى المكتب وعُلِّمتَ ما لم تكن تعلم من القراءة والكتابة والآداب والرياضيات وحساب الدواوين والكيل والموازين، ثم نُقلتَ إلى مجلس أهل العلم والفضل في المساجد والصلوات والمشاهد والأعياد، وإلى الأسواق والصنائع والأسفار لتشاهد هذا العالم بما فيه من الجبال والبراري والبحار والمدن والقرى والأنهار، وعاينتَ فيه أصناف الخلائق من الحيوان والنبات والمعادن، وعرفتَ تصاريف أحوالها في الحرِّ والبرْد والليل والشتاء والصيف والنور والظلام وتصاريف الرياح والغيوم والأمطار، وعاينتَ دوران الأفلاك وطوالع البروج، ومسيرات الكواكب، وحوادث الأيام، ونوائب الحدثان، كل ذلك كيما تنتبه نفسُك من نوم الغفلة وتستيقظ من رقدة الجهالة، وتتفكر فيما شاهدتَ، وتعتبر ما رأيتَ من أحوال هذه الدنيا.

ولتعلم علمًا يقينًا أنك منتقل من ها هنا إلى حالة أخرى بعد الموت، وتنشأ نشأة أخرى، فكن مستعدًّا للرحلة وتزوَّدْ للسفر قبل فناء العمر وتقارب الأجل، وهو أن تتخلَّق بأخلاق الملائكة، وتتزيَّن بشمائلها، وتترك أخلاق إخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين، وقد بيَّنَّا كيفية ذلك في رسائلنا الإحدى والخمسين رسالة، فاعرف من هناك إن شاء الله.

واعلم أخي — أيَّدك الله وإيانا بروح منه — بأن المصنوع المحكَم يدل على الصانع الحكيم، وإن كان الصانع الحكيم محتجبًا عن إدراك الأبصار، وكل عاقل إذا تأمل أحوال النبات من فنون أشكال أصولها وامتداد عروقها في الأرض وتفرع أغصانها في الهواء، وتقطيع أوراقها في فنون الأشكال وألوان أزهارها من الأصباغ، واختلاف صور حبوبها وأشكال أثمارها من الصغر والكبر واختلاف ألوانها وطعومها وروائحها يتبين له ويعلم علمًا ضروريًّا بأن لها صانعًا حكيمًا؛ لأن عقله يشهد له بأن الأركان الأربعة المتضادَّة القُوَى المتنافِرة الطباع لا تجمع ولا تأتلف ولا تصير على هذه الأوصاف التي تقدَّم ذكرها إلا بقصد صانع حكيم لا يشك فيه، لكن إذا لم يتفكر في كيفية صنعته لِمَ فعل هكذا،

ولم يفعل كذا وكذا؟ لا يفهم ولا يدري ولا يتصور له ذلك، فمِن أجْل هذا احتجنا إلى أن نذكر من هذا الفن طرفًا ليزداد علمًا كلُّ مَن يسمعه ويتفكر فيه.

واعلم يا أخي — أيدك الله وإيانا بروح منه — بأن النبات مصنوعات ظاهرة جليَّة لا تَخفَى، ولكن صانعها وعلتها باطنة خفية محتجبة عن إدراك الأبصار لها، وهي التي يُسمِّيها الفلاسفة القوى الطبيعية، ويسمِّيها الناموس الملائكةَ وجنود الله الموكَّلين بتربية النبات وتوليد الحيوانات وتكوين المعادن، ونحن نسميها النفوس الجزئية، والعبارات مختلفة والمعنى واحد، وإنما نسبت الفلاسفة والحكماء هذه المصنوعات إلى القوى الطبيعية، وصاحب الشرع إلى الملائكة ولم ينسبها إلى الله — تعالى — لأنه يَجِلُّ الباري — جلَّ ثناؤه — عن مباشرة الأجسام الطبيعية والحركات الجرمانية والأعمال الجسدانية، كما يجل الملوك والسادة والرؤساء عن مباشرة الأفعال بأنفسها، وإن كانت تُنسَب إليها على سبيل الأمر بها والإرادة لها كما يُقال: بنى الإسكندر السد، وبنى سليمان مسجد إيليا، وبنى المنصور مدينة السلام، إذ كان بناؤها بأمرهم لا يتولَّوْن الأفعال بأنفسهم، فعلى هذا المثال تُنسب أفعال عباد الله إلى الله — جلَّ ثناؤه — كما ذكر هو بقوله — تعالى — لنبيِّه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾، وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾، وقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، وآيات كثيرة في هذا المعنى في القرآن المبين.

واعلم يا أخي — أيدك الله وإيانا بروح منه — بأن العاقل اللبيب إذا تأمل أحوال النبات وتفكَّر فيها واعتبرها، فلا يجد شيئًا منها يخرج عن صورة جنسه أو يتجاوز عن أشكال نوعه؛ وذلك أنه ما رُئيتْ قطُّ ورقة زيتون خرجت من شجرة جَوْز، ولا حبة شعيرة خرجتْ من سنبلة حنطة.

وعلى هذا المثال والقياس سائر أنواع الحبوب والثمار والبقول والحشائش، تراها كل واحدة منها حافظة صورة أبناء جنسها، وشكل نوعها كأنها صُبَّتْ في قوالب مختلفة الأشكال محفوظة الأنواع.

وهكذا حكم كل الحيوانات التامة الخلقة الكاملة الصورة محفوظة صور أجناسها، وأشكال أنواعها في أشخاصها، وذلك أنه ما رُئِي قط خرج مُهْر من رَحِم ناقة، ولا جَدْيٌ خرج من رحم بقرة، ولا كُرْكِيٌّ خرج من بيض نعامة ولا فَرُّوج خرج من بيض حمامة.

وإذا فكَّر العاقل اللبيب في هذه الأشياء، وطلب العلة فيها وبحث عنها، فربما يتخيل له أو يتوهم بأنه ليس في قدرة الصانع غير ذلك، أو يظن أن الهَيُولَى لا تقبل إلا تلك

الصورة أو يقول إن الحكمة لا تقتضي غير ذلك، فإن توهَّم وظن أنه ليس في قدرة الصانع غير ذلك، فإن عقله ينكر ذلك عليه؛ لأن مَن يقدر على اختراع مصنوع فهو على تغيير بنيته أقدَر، وإن ظَنَّ أو توهم بأن الهَيُولَى لا تقبل غير ذلك من الصور فكيف وهي موضوعة لقبول جميع الصور، فقد أخطأ، وإن قال إن الحكمة لا تقتضي غير ذلك، فما وجه المنع في الحكمة أن يَخرُج عِجْل من رحم ناقة، أو جَمَلٌ من رحم بقرة أو جَدْي من رحم عنزٍ أو فرُّوج من بيضة حمامة؟ بيِّن لنا ذلك.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن لكل نوع من النبات أصلًا، فما لأصله كيموس[1] ما ولكيموسه مزاج ما، لا يتكون من ذلك المزاج إلا ذلك الكيموس، ولا يتكون من ذلك الكيموس إلا ذلك النوع من النبات، وإن كان يُسقَى بماء واحد وينبت في تربة واحدة ويلحقها نسيم هواء واحد وتنضجها حرارة شمس واحدة، فالهَيُولَى الأولى موضوعة لقبول جميع الصور، ولكن الهيولات الثواني كل واحدة منها لا تقبل الصور إلا بأعيان مخصوصة.

والمثال في ذلك أن التراب والماء موضوعة لشجرة الحنطة ولشجرة القطن، ولكن من القطن لا يجيء إلا الغزل، ومن الغزل الثوب، ومن الثوب القميص وغيره، ومن الحنطة لا يجيء إلا الدقيق، ومن الدقيق العجين ومن العجين الخبز.

فعلى هذا المثال والقياس تختلف أحوال النبات؛ وذلك أن رطوبة الماء ولطائف أجزاء التراب إذا حصلت في عروق النبات تغيَّرتْ وصارتْ كيموسًا على مزاج ما لا يجيء من ذلك الكيموس والمزاج غير ذلك النوع من النبات، وكذلك حكم أوراقه ونَوْره وثمره وحبه.

(٢) فصل

ثم لما كان النبات مختلف الطباع من الطعوم والألوان والروائح؛ لأنها غذاء للحيوان، وكانت الحيوانات مختلفة الطباع جعل كل نوع من النبات غذاء لنوع من الحيوان ودواء لداء يعرض لها، مذكور ذلك في كتب الطب والبيطرة بشرحها.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن لكل نوع من النبات أربع علل: علة هيولانية، وعلة فاعلية، وعلة تمامية، وعلة صورية.

---

[1] الكيموس معناه الخلط، وهي لفظة سريانية.

فأما العلة الهيولانية فهي الأركان الأربعة: النار والهواء والماء والأرض.

وأما العلة الفاعلية فهي قُوى النفس الكلية.

وأما العلة التمامية فإنها من أجْل الحيوان غذاء لها ومنافع.

وأما العلة الصورية فهي أسباب فلكية شرحها يطول، وكل ذلك بإذن الباري — جلَّ ثناؤه، ونريد أن نفصِّل كل علة منها ونشرحها ليكون في ذلك عبرة لأولي الأبصار ومعرفة لأولي الألباب.

وذلك أن أجزاء الأركان إذا اجتمعتْ واختلطتْ وامتزجتْ واتَّحدْت صارتْ هَيُولَى ليتكوَّن النبات، والمسبِّب في اجتماعها واختلاطها هو دوران الأفلاك حول الأركان ومسيرات الكواكب في البروج ومطارح شعاعاتها في جوِّ الهواء نحو مركز الأرض، كل ذلك بإذن الله — تعالى — ولطيف حكمته، فهو الذي خلق الأفلاك وأدارها، وقسم البروج وأطلعها، وصوَّر الكواكب وسيَّرها، وأرسل النفوس ووكَّلها، فتبارك الله أحسن الخالقين وأحكم الحاكمين.

وأما كيفية ذلك فنحن نذكرها ونبيِّنها لقوم يعقلون بعون الله وحسن توفيقه إن شاء الله.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — أن الشمس إذا طلعتْ على آفاق البلاد، وأشرقتْ على جوِّ الهواء، وأضاءتْ على وجه الأرض حَمِيَتْ مياه البحار والأنهار ولطفت أجزاؤها، وصارت بخارًا لطيفًا خفيفًا، وارتفعت في الهواء في جو السماء، حتى إذا بلغت إلى سطح الزمهرير، وجاوزت كرة النسيم بردتْ هناك واجتمعتْ ووقفتْ وغلظتْ وتراكمتْ وصارتْ غيومًا وسحابًا وضبابًا وطلًّا وصقيعًا، وتراكمتْ وساقتْها الرياح إلى رءوس الجبال ووجوه البراري والقفار والقرى والسوادات والمزارع، وهطلتْ هناك الأمطار وابتلَّ وجهُ الأرض، وشرب التراب رطوبةَ الماء واختلطتْ أجزاؤه واتَّحدتْ، فإذا طلعتِ الشمس على وجه الأرض وسخَّنتْها حيث تلك الأجزاء المائية جفَّتْ وأخذتْ ترتقي من قعر الأرض إلى وجهها ورفعتْ معها تلك الأجزاء الأرضية المتحدة بها إلى ظاهر سطح الأرض، ثم إنَّ قُوَى النفس البسيطة التي هي دون فلك القمر السارية في الأركان تُصوِّر من تلك المادة أنواع النبات بفنون أشكالها وألوان أصباغها، كما يعمل الصناع البشريون في أسواق المدن فنون المصنوعات من الهَيُولَيَات الموضوعات في صناعتهم المعروفة، كما بيَّنَّا في رسائلنا.

واعلم يا أخي بأن قوى النفس الكلية الفلكية البسيطة التي ذكرنا أنها تعمل أجناس النبات وأنواعها هي التي ذُكرتْ في كتب الأنبياء — عليهم السلام — أنها ملائكة الله وجنوده الموكَّلون بها، وذُكر أنه قد ورد في الأخبار المتواترة بأن مع كل ورقة وثمرة وحبة تخرجها الأرض من النبات مَلَكًا موكَّلًا يُربِّيها وينشئها ويحفظها من الآفات العارضة لها إلى أن تتمَّ وتكمل وتبلغ إلى أقصى مدى غاياتها، ومنتهى نهاياتها، كل ذلك بإذن الله خالقها وباريها، وكذلك حكم الحيوانات أجمع، كما ذكر الله — جلَّ ثناؤه — بقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾، ونحن نسمي ما كان منها موكلًا بالنبات النفس النباتية، واعلم يا أخي أن الله — جلَّ ثناؤه — قد أيد النفس النباتية بسبع قُوًى فعالة؛ وهي القوة الجاذبة والقوة الماسكة والقوة الهاضمة والقوة الدافعة والقوة الغاذية والقوة المصوِّرة والقوة النامية.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن كل قوة من هذه تفعل شيئًا خلاف ما تفعل القوة الأخرى في أجسام الحيوان والنبات، فأما أول فعلها في تكوين النبات فهو جذبها عصارات الأركان الأربعة ومصُّها لطينها وما فيها من الأجزاء المشاكلة لنوع نوع من أصول النبات، ثم إمساكها لها بالقوة الماسكة، ثم نضجها لها بالهاضمة، ثم دفعها إلى أطرافها بالدافعة، ثم تغذيتها لها بالغاذية، ثم النمو والزيادة في أقطارها بالنامية، ثم التصوير لها بأنواع الأشكال والأصباغ بالمصوِّرة، وذلك أن القوة الجاذبة إذا مصَّت نداوة الماء بعروق النبات كما يمتص الحجَّام الدم بالمحجمة، أو كما تمص النار الدهن بالفتيلة، وجذبتْها انجذبتْ معها الأجزاء الترابية اللطيفة لشدة انجذابها، فإذا حصلت تلك المادة في عروق النبات نضجتها الهاضمة، وصارت كيموسًا على مزاج ما شاكلها من الجرم والعروق، وتناولتْها القوة الغاذية، وألصقتْ بكل شكل ما يلائمه من تلك المادة، وزادت في أقطارها طولًا وعرضًا وعمقًا، وما فضل من تلك المادة ولطف ورق دفعتْه إلى فوق في أصول النبات وقضبانها وأغصانها أو جذبتْه الجاذبة إلى هناك وأمسكتْه الماسكة لئلا يسيلَ راجعًا إلى أسفل، ثم إن القوة الهاضمة تنضجها مرة ثانية وتغيِّر مزاجها وكيفيتها وتصيرها مشاكِلة لجرم الأصول والفروع والأغصان ومادة لها، وزادت في أقطارها طولًا وعرضًا وعمقًا، وما فضل منها ولطف ورقَّ دفعتْه إلى فوق إلى أعالي الفروع والقضبان والأغصان، وجذبتْه الجاذبة إلى هناك وأمسكتْه الماسكة، ثم إن القوة الهاضمة طبختْها مرة ثالثة وأنضجتْها وصيَّرتْها على مزاج آخَر مشاكلًا لجرم الورق والنَّوْر والزَّهْر وأكمام الحب والثمر مادة لها، وتزيَّدتْ في أقطارها طولًا وعرضًا

وعمقًا، وما لطف منها ورقَّ صيَّرتْه مادة للحب والثمر، وأمسكتْه هناك بالماسكة، ثم إن القوة الهاضمة تطبخها مرة رابعة وتنضجها وتلطِّفها وتميِّزها وتصيِّر الغليظ منها والكثيف منها مادة لجرم القشور والنوى، وتزيد فيها طولًا وعرضًا وعمقًا، وتصيِّر اللطيف الصافي منها مادة للفِّ الحب والثمر وهو الدقيق والدهن والشيرج والدبس، واللون والطعم والرائحة مختلفة طباعها ومنافعها ومضارها وأمزجتها في درجاتها، ولما هي مذكورة في كتب الطب وكتب الأغذية والحشائش بشرحها تركنا ذكرها مخافة التطويل، فهذه الأفعال التي ذكرناها كلها أفعال النفس النباتية الخادمة للنفس الحيوانية المتوسطة بينها وبين الأركان الأربعة، تتناول بعروقها عصاراتها نِيًّا فجًّا ثم تصفِّيها وتطبخها وتُناوِلها الحيوان غذاءً لطيفًا صافيًا لذيذًا هنيئًا مريئًا، كل ذلك لطف من الله — جلَّ ثناؤه — بخلقه وشفقته عليهم ورحمة لهم ورفق بهم، فله الحمد والثناء والشكر والدعاء، ومنه الفضل والنعماء والآلاء والإحسان في الآخرة.

واعلم يا أخي أن النباتات هي كل جسم يخرج من الأرض ويتغذَّى وينمو، فمنها ما هي أشجار تُغرَس قضبانها أو عروقها، ومنها ما هي زروع تُبذَر حبوبها أو بذورها أو قضبانها، ومنها ما هي أجزاء تتكون من أجزاء الأركان إذا اختلطت وامتزجت كالكلأ والحشائش، فهذه الثلاثة الأجناس يتنوع كل واحد منها أنواعًا كثيرة من جهات عدة وصفات مختلفة، نحتاج أن نذكر منها طرفًا ونشرحها ليكون قياسًا على باقيها، ودليلًا من القليل على الكثير، ونبدأ أولًا بذكر الأشجار فنقول: إن الشجر هو كل نبت يقوم على ساقه منتصبًا أصله مرتفعًا في الهواء، ويدور عليه الحول لا يجفُّ، وأما النجم فهو كل نبت لا يقوم أصله على ساقه مرتفعًا في الهواء، بل يمتدُّ على وجه الأرض أو يتعلق بالشجر ويرتقي معه في الهواء كيما يحصل عند ثقل ثماره بتلابيبه كشجرة الكَرْم والقَرْع القِثَّاء والبِطِّيخ، وما شاكَلَها.

واعلم بأن من الشجر ما هو تامٌّ كامل، ومنها ما هو ناقص غير كامل، فالتام الكامل من الأشجار ما كان له هذه التسعة الأجزاء، وهي الأصل والعروق والقضبان والفروع والورق والنَّوْر والثمر واللحا والصمغ، والناقص منها ما ينقص واحدة من هذه الأوصاف وأكثر كشجرة الدُّلْب، وأم غَيْلان، والحلاف، والطرفا، وما شاكلها مما لا ثمرة لها، أو ما لا ورقة لها، أو ما لا نَوْر لها، أو ما لا صمغ لها.

واعلم بأن مِن الأشجار التامة ما هي أتم وأكمل من بعض وتتفاضل في ذلك جهات عدة؛ فمنها ما هو من جهة أصولها؛ وذلك أن منها ما يقوم على أصول، ويرتفع في الهواء

ويتفرَّع في الجهات كشجرة التِّين، والتُّوت، واللَّوْز، والجَوْز، وغيرها، ومنها ما يرتفع في الهواء منتصبًا مفردًا مثل شجر النَّخْل والسَّرْو والقنا والصفصاف والسَّاج وغيرها، وهكذا حكم عروقها في الأرض؛ فإن منها ما تنزل عروقه في الأرض كالأوتاد منتصبة، ومنها ما يذهب في الجهات على الاستقامة، ومنها ما ينعطف ويتعوج ويلتفُّ، ومنها ما يُجاور بعضه بعضًا في منابته ويزدحم، ومنها ما ينفرد ولا ينبت تحتها معها غيرها، ومن النبات والشجر ما ورقه وثمرته متناسبات في الكِبَر، واللون، والشكل، واللمس، كالأترجِّ والنارنج والليمون والكِمَّثْرَى والتفاح وما شاكلها، ومن النبات والشجر ما ثمرته وحبه غير مناسب لورقه في الكبر مثل شجر الرمان، والتين، والعنب، والجوز، والنخل وغيرها مما شاكلها، وذلك أن شجرة الأترج مدحرج الشكل ثمرها أخضر اللون لين اللمس مناسب لورقه والنارنج مستدير الشكل مناسب لورقة شجره، والكمثرى مخروط الشكل وكذلك ورقة شجرته، والتفاح مستدير الشكل، وكذلك ورقة شجرته.

وأما ثمرة الرمان فغير مناسبة في الكِبَر لورقة شجرتها، وكذلك التِّين والعنب وغيرهما، وعلى هذا القياس حكم حبوب النبات وبذورها منها ما هو مناسب، ومنها ما هو غير مناسب، كل ذلك لعللٍ وأسبابٍ ومآرب.

(٣) فصل في بيان أجناس النبات من جهة الأماكن

واعلم يا أخي بأن من النبات ما ينبت في البراري والقفار، ومنه ما ينبت على رءوس الجبال، ومنه على شطوط الأنهار وسواحل البحار، ومنه ما ينبت في الآجام والغياض، ومنه ما يزرعه الناس ويغرسونه في القُرَى والسوادات والبساتين والأفرجة.

واعلم يا أخي بأن أكثر النبات ينبت على وجه الأرض إلا القليل منه، فإنه ينبت تحت الماء كقصب السكر والأرز والنَّيْلَوْفَر وأنواع من العكش.

ومن النبات ما ينبت على وجه الماء كالطحلب، ومنه ما ينسج على الشجر والنبات كالكثوثا واللبلاب، ومنه ما ينبت على وجه الصخور، كخضراء الدِّمَن.

ومن النبات ما لا ينبت إلا في البلدان الدفيئة، ومنه ما لا ينبت إلا في البلدان الباردة، ومنه ما لا ينبت إلا في التربة الطيبة، ومنه ما لا ينبت إلا في الرمال وبين الحصى والحجارة والصخور والأرض اليابسة، ومنه ما لا ينبت إلا في الأراضي السبخة المشورجة.

(٤) فصل في اختلاف النبات من جهة الأزمان

اعلم بأن أكثر العشب والكلأ والحشائش ينبت في أيام الربيع لاعتدال الزمان وطيب الهواء وكثرة الأمطار المتقدِّمة في الشتاء، وأما الذي ينبت منها في الفصول الثلاثة فهي قليلة، فمنها ما يزرعها الناس ويتعهدونها بالسقي كالحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها مما يُزرع في الخريف ويُحصد في الربيع، ومنها ما يُزرع في الشتاء ويُدرِك في الربيع كالقثاء والخيار والباذنجان، ومنها ما يُزرع في الخريف ويستحكم في الشتاء كالجزر والشلغم والكرنب والقرنبيط، ومنها ما يُزرع في الصيف ويُحصد في الخريف كالسمسم والذرة والأرز وغيرها، ومنها ما يُزرع في الربيع ويستحكم في الخريف كالقطن والقنب وغيرها.

واعلم يا أخي أن الباري الحكيم — جلَّ ثناؤه — جعل أوراق النبات زينة لها ودثارًا لثمارها ووقاية لحبوبها ونَوْرها وزهرها من الحرِّ والبرد المفرطين، ومن الرياح العواصف والغبار وشدة وهج الشمس، وجعلها أيضًا ظلالًا للحيوانات وكنًّا لها وسترًا ووطاء وغذاء ومادة لأجسادها وأدوية ومنافع كثيرة، وهكذا حكم ثمارها وحبوبها وبذورها ولحائها وعروقها وأصولها ولبسها وقضبانها وفروعها، كل واحدة من هذه الأنواع ذات منافع كثيرة لا يعلمها إلا الله، وذُكر منها طرف في كتب الطب وكتاب الحشائش، وما لم يُعلم ولم يُذكر أكثر مما عُلم وذُكر.

واعلم يا أخي بأن من أوراق الشجر والنبات ما هو مستطيل الشكل، ومنه ما هو مخروط الرأس مدوَّر الأسفل، ومنه مستدير الشكل، ومنه سقطي الشكل صليبي، ومنه ليلساني الشكل، وسابوري الشكل، ومنه زيتوني الشكل، ومنه جابوتي الشكل، ومنه ذو الأصابع مقسوم بنصفين، ومنه مثلثات، ومنه مزدوجات متقابلات، ومنه مفردات متجانبات، ومنه واسع عريض طويل، ومنه ضيق العرض قليل الطول ثخين لين، ومنه غليظ خشن، ومنه دقيق أملس شفاف أملس، ومنه طيب الرائحة، ومنه منتن الرائحة، ومنه مُرُّ الطعم، ومنه حلو الطعم، وغيرها من الطعوم.

وأكثر ألوان ورق النبات أخضر، ولكن منها مشبع اللون، ومنها أغبر اللون، ومنها صافي اللون، ومنها كمد اللون، ومنها لون ظاهرها خلاف باطنها، وهكذا حكم ثمارها وحبوبها وبذورها وأنوارها وأزهارها، كل ذلك لعلل وأسباب ومآرب، ذلك تقدير العزيز العليم، وذلك أن من الثمار ما له قشرة رقيقة نسجها حريري شفاف، ومنها ما قشرته غليظة نسجها ليفي موزي، أو غضروفي صلب، أو خزفي يابس، أو شبكي مربع واسع، أو

نسيجي كروشي ثخين، ومن الثمار ما في جوف قشرته شحمة ثخينة أو جامدة أو رطبة سيالة عذبة أو حلوة أو عفصة أو مُرَّة أو مالحة أو تفهة أو حامضة أو دهنية دسمة، ومن الثمار ما في جوف شحمه نواة مستديرة الشكل مستطيلة أو مخروطة أو مصمتة أو مجوَّفة أو في داخلها لبة دسمة أو مُرَّة أو حلوة أو طعم آخر من الطعوم التسعة، ومن الثمار ما في جوف شحمه حبٌّ صغار أو كبار، صلب أو رخو، عليها رطوبة لزجة أو تكون قشفة صلبة مختلفة الأشكال، أو مجوَّفة في داخلها لب أو تكون فارغة.

واعلم يا أخي بأن بين أوراق الشجر والنبات وبين ثمارها وحبوبها ونَوْرها وأزهارها مناسبات ومشاكلات في الصغر والكبر أو متباينات متفاوتات من جهات عدة، فمنها من جهة الصورة والشكل، ومنها من جهة اللون والطعم والرائحة، ومنها من جهة اللين والخشونة والصلابة والرخاوة، ومنها من جهة الكبر والصغر والسعة والضيق والثخن والرقة والشفافة والكمد والازدواج والانفراد وغير ذلك مما يطول شرحه، كل ذلك لعلل وأسباب ومآرب لا يعلم كنهها إلا الله — تعالى — الذي خلقها وأبدعها كما علمها.

ولكن نذكر من ذلك طرفًا ونُخبِر بعللها الهيولانية وأسبابها الصورية وأغراضها التمامية؛ ليكون دليلًا على الباقية وتنبيهًا لنفوس الغافلين عن التفكر في غرائب مصنوعات الباري الحكيم — جلَّ ثناؤه — ويكون عبرة لأولي الأبصار الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض والآيات التي في الأنفس والآفاق، وليكون أيضًا إرشادًا لقلوب المتحيِّرين الذين يظنون أنها ليست بصنع صانع حكيم ولا قصد قاصد، بل اتفاق، وينسبونها إلى الطبيعة ولا يدرون ما الطبيعة، وإلى النجوم والأفلاك ولا يدرون كيف ذلك ولم ذلك ولماذا وُجد؟

واعلم يا أخي بأن من الثمار ما هو طويل الشكل مدحرج الخلقة مختلف الألوان على نواة قشرة رقيقة حريرية لينة اللمس صلبة النسج، وعلى هذه النواة شحمة ثخينة عليها قشرة صلبة ملساء، وعلى ظهر النواة نقرة، وفي الجانب المقابل خضرة مستطيلة فيها حشو ليفي، وعلى رأس الثمرة من خارج قِمَعة عليها شظيات متفرقة متشبثة بالثمرة، ومادة هذه الثمرة من قبل النضج عفصة، وبعد النضج حلوة لزجة وهو التمر.

ومن الثمار ما شكله مستدير وخلقته كبيرة، عليه قشرة كثيفة ليفية ثخينة مجوفة من داخل واسعة فيها خزائن مقومة، وفيها دعاص مقسمة عليها حبوب مرصعة أشكالها مخروطة في جوف تلك الحبوب نواة خزفية رخوة في داخلها لبة دسمة، وفي أسفل رأس الثمرة من خارج فتحة مستديرة فيها غشاوة ليفية، وعليها شظيات نابتة وحولها شرفات قائمة مخروطة وهو ثمر الرمان.

ومن الثمار ما شكله مستدير، وشحمته ثخينة في جوفه نواة مستديرة حسن الملمس في داخل النواة لبة دسمة، وهو النبق.

ومن الثمر ما شكله مستدير سفطي، عليه قشرة ليفية ثخينة من داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة مجوفة فيها خزائن مقسومة فيها لبة دسمة عليها قشرة رقيقة وبينها حجب منخرقة أقسامها مهندمة، وإذا فصلت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين، وهي ثمرة الجوز.

ومن الثمار ما شكله مخروط سفطي وعليه قشرة ليفية في داخلها قشرة خزفية صلبة فيها ثقب نافذ فيها فتائل ليفية، وفي داخل هذه القشرة لبة دسمة عليها قشرة رقيقة صلبة، وهي ثمرة اللوز.

ومن الثمار ليس له نوى وعليه قشرة لحمية، وشكله مخروط صنوبري، وفي أسفله ثقبة مستديرة فيها شظيات زيبرية، وفي جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة وطعم مادته قبل النضج لين أبيض غليظ حادٌّ مُحرق، وبعد النضج طعمه حلو، وهو ثمرة التين.

ومن الثمار ما أشكاله مختلفة مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط ومختلف الألوان؛ أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأغبر، عليه قشور رقيقة صلبة ملسة ملصقة بشحمتها، وفي جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال زيتونية فقاعية مضاعفة ومفردة ومزدوجة وثلاثة أربعة خزفية وعظامية، ومنها صلبة، ومنها رخوة في جوف تلك الحبوب لبة دسمة، ومادة شحمتها قبل النضج حامضة، وقبل ذلك عفصة، وبعد النضج حلوة، وهي ثمرة الأعناب.

ومن الثمار ما أشكاله مخروطة أو صدفية عليها قشور رقيقة ملتصقة بشحمتها، وهي غليظة ثخينة في داخلها نواة خزفية أشكالها صدفية داخلها ملساء فيها لبة دسمة، وألوان هذه الثمار مختلفة وطعمها عذب وحلو ومر وحامض، وقبل النضج كلها عفصة وهي الإجاص والمشمش والخوخ وأمثالها.

ومن الثمار ما أشكاله كرية أو مستطيلة أو مدحرجة، وعليها قشور لحمية غليظة طعم شحمتها حامض، وفي داخلها حب صغار على دعاص مرصعة شبه التلال ما بين خللها لحمة طعمها حامض، وألوان قشرها أحمر وأخضر وأصفر ومادتها قبل النضج عفصة مثل الأترج والنارنج والليمون وما شاكلها.

ومن الثمار ما هي ذات حبة صغيرة، وفي داخلها نواة خزفية، وفي جوفها لبة دسمة مثل الحبة الخضراء والفستق والسماق وحب الصنوبر.

ومن الثمار ما لا ينضج مثل البلوط والعفص وثمر السرو والإهليلج.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الباري — جلَّ ثناؤه — لَمَّا أبدع الموجودات واخترع الكائنات جعل أصلها كلها من هَيُولَى واحدة وخالف بينها بالصور المختلفة وجعلها أجناسًا وأنواعًا مختلفة متفننة متباينة وقوى ما بين أطرافها وربط أوائلها وأواخرها بما قبلها رباطًا واحدًا على ترتيب ونظام لما فيه من إتقان الحكمة وإحكام الصنعة لتكون الموجودات كلها عالَمًا واحدًا منتظمًا نظامًا واحدًا وترتيبًا واحدًا لتدل على صانع أحد.

فمِن أجْل تلك الموجودات المختلفة الأجناس المتباينة الأنواع المربوطة أوائلها بأواخرها وأواخرها بما قبلها في الترتيب وانتظام المولدات، الكائنات التي دون فلك القمر، وهي أربعة أجناس: المعادن والنبات والحيوان والإنسان، وذلك أن كل جنس منها تحته أنواع كثيرة، فمنها ما هو في أدون المراتب، ومنها ما هو في أشرفها وأعلاها.

ومنها ما هو بين الطرفين فأدون أطراف المعادن مما يلي التراب الجص والزاج وأنواع الشبوب، والطرف الأشرف الياقوت والذهب الأحمر والباقي بين هذين الطرفين من الشرف والدناءة، كما بيَّنَّا في رسالة المعادن.

وهكذا أيضًا حكم النبات؛ فإنه أنواع كثيرة متباينة متفاوتة، ولكن منه ما هو في أدون الرتبة مما يلي رتبة المعادن، وهي خضراء الدِّمَن.

ومنها ما هو في أشرف الرتبة مما يلي رتبة الحيوان، وهي شجرة النخل، وبيان ذلك أن أول المرتبة النباتية وأدونها مما يلي التراب هي خضراء الدمن، وليس بشيء سوى غبار يتلبَّد على الأرض والصخور والأحجار، ثم تصيبه الأمطار وأنداء الليل، فيصبح بالغد كأنه نبت زرع وحشائش، فإذا أصابه حرُّ شمس نصف النهار جفَّ، ثم يصبح من غد مثل ذلك من أول الليل وطيب النسيم، ولا تنبت الكماة ولا خضراء الدمن إلا في أيام الربيع في البقاع المتجاورة لتقارب ما بينهما؛ لأن هذا معدن نباتي، وذلك نبات معدني.

وأما النخل فهو آخِر المرتبة النباتية مما يلي الحيوانية، وذلك أن النخل نبات حيواني؛ لأن بعض أحواله مباين لأحوال النبات وإن كان جسمه نباتًا، بيان ذلك أن القوة الفاعلة منفصلة من القوة المنفعلة، والدليل على ذلك أن أشخاص الفحولة منه مبايِنة لأشخاص الإناث، ولأشخاص فحولته لقاح في إناثها كما يكون ذلك للحيوان.

فأما سائر النبات فإن القوة الفاعلة فيها ليست بمنفصلة عن القوة المنفعلة بالشخص بالفعل حسب ما بيَّنَّا في رسالة لنا، وأيضًا فإن النخل إذا قُطعت رءوسها جفَّتْ وبطل نموُّها ونشوءها وماتتْ.

كل ذلك موجود في الحيوان، فبهذا الاعتبار تبيَّن أن النخل نباتي بالجسم حيواني بالنفس؛ إذ كانت أفعاله أفعال النفس الحيوانية وشكل جسمه شكل النبات.

وفي النبات نوع آخر فعلُه أيضًا فعلُ النفس الحيوانية لكن جسمه جسم النبات، وهو الكثوث؛ وذلك أن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت في الأرض كما يكون لسائر النباتات، ولا له أوراق كأوراقها؛ بل إنها تلتفُّ على الأشجار والزروع والشوك فتمتص من رطوبتها وتتغذَّى بها كما يتغذَّى الدود الذي يدبُّ على ورق الأشجار وقضبان النبات ويقرضها فيأكلها ويتغذَّى بها، وهذا النوع من النبات وإن كان جسمه يشبه النبات، فإن فِعْل نفسه فعْل الحيوان، فقد بان بما وصفنا أن آخر الرتبة النباتية متصل بأول المرتبة الحيوانية، وأما سائر المراتب النباتية فهي بين هذين.

واعلم يا أخي بأن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات، وآخِر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان، كما أن أول المرتبة النباتية متصل بآخر المرتبة المعدنية، وأول المرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء كما بيَّنَّا قبلُ، فأدوَنُ الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة فقط وهو الحلزون، وهي دودة في جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذي في سواحل البحار وشطوط الأنهار، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة، وتبسط يمنة ويسرة تطلب مادة يتغذى بها جسمها، فإذا أحسَّتْ برطوبة ولين انبسطت إليه، وإذا أحسَّتْ بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصَتْ في جوف تلك الأنبوبة حذرًا من مؤذٍ لجسمها ومفسد لهيكلها، وليس لها سمع ولا بصر ولا شمٌّ ولا ذَوْق إلا الحس واللمس فقط، وهكذا أكثر الديدان التي تتكون في الطين، وفي قعر البحار وأعماق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم؛ لأن الحكمة الإلهية من مقتضاها أنْ لا تُعطي الحيوان عضوًا لا يحتاج إليه جذب المنفعة ودفع المضرة؛ لأنها لو أعطتْه ما لا يحتاج إليه لكان وبالًا عليه في حفظه وبقائه.

فهذا النوع حيوان نباتي؛ لأن جسمه ينبت كما ينبت بعض النبات ويقوم على ساقه قائمًا، وهو من أجْل أن يتحرك جسمه حركة اختيارية حيوان، ومن أجل أنه ليست له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوان رتبة في الحيوانية، وتلك الحاسة أيضًا فقد يشارك بها النبات؛ وذلك أن النبات له حسُّ اللمْسِ فقط، والدليل على ذلك إرساله بعروقه نحو المواضع النديَّة وامتناعه من إرساله نحو الصخور واليبس، أيضًا فإنه متى اتفق منبته في مضيق مال وعدل عنه طالبًا للفسحة والسعة، فإن كان فوقه سقف يمنعه من الذهاب علوًّا، وكان له ثقب من جانب مال إلى نحو تلك الناحية حتى إذا طال طلع من هناك.

فهذه الأفعال تدل على أن له حسًّا وتمييزًا بمقدار الحاجة، وأما حس الألم فليس للنبات، وذلك أنه لم يَلِقْ بالحكمة الإلهية أن تجعل للنبات ألمًا ولم تجعل له حيلة الدفع كما جعلت للحيوان؛ وذلك أن الحيوان لما جعلت له أن يحس بالألم جعلتْ له أيضًا حيلة الدفع إما بالفرار والذهاب والهرب، وإما بالتحرُّز، وإما بالممانعة، فقد بان بما وصَفْنا كيفية مرتبة الحيوانية مما يلي النبات، فنريد أن نبيِّن كيفية مرتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسان فنقول: إن رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسانية ليستْ من وجه واحد، ولكن من عدة وجوه، وذلك أن رتبة الإنسانية لما كانت معدنًا للفَضْل وينبوعًا للمناقب لم يستوعبها نوع واحد من الحيوان، ولكن عدة أنواع، فمنها ما قارب رتبة الإنسانية بصورة جسده مثل القرد، ومنها ما قاربها بالأخلاق النفسانية كالفرس في كثير من أخلاقه، ومنها كالطائر الإنساني أيضًا، ومثل الفيل في ذكائه وكالببغاء والهزار ونحوهما من الأطيار الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات، ومنها النحل اللطيف الصنائع إلى ما شاكل هذه الأجناس، وذلك أنه ما من حيوان يستعمله الناس ويأنس بهم إلا ولنفسه قرب من نفس الإنسانية.

أما القرد فلقرب شكل جسمه من شكل جسد الإنسان صارت تُحاكِي أفعال النفس الإنسانية، وذلك مُشاهَد منه مُتعارَف بين الناس.

وأما الفرس الكريم فإنه قد بلغ من كرم أخلاقه أنه صار مركبًا للملوك؛ وذلك أنه ربما بلغ من أدبه أنه لا يبول ولا يروث ما دام بحضرة الملك أو حاملًا له، وله أيضًا مع ذلك ذكاء وإقدام في الهيجاء وصبر على الطعن والجراح كما يكون الرجال الشجعان، كما وصف الشاعر فقال:

وإذا شَكَا مُهْري إليَّ جراحَه ... عند اختلاف الطعن قلتُ له اقدما
لما رآني لستُ أقبَل عُذْرَه ... عض الشكيم على اللجام وحَمْحَمَا

وأما الفيل فإنه يفهم الخطاب بذكائه، ويمتثل الأمر والنهي كما يمتثل الرجل العاقل المأمور المنهي.

فهذه الحيوانات في آخِر مرتبة الحيوان مما يلي رتبة الإنسان؛ لما يظهر فيها من الفضائل الإنسانية، وأما باقي أنواع الحيوانات فهي فيما بين هاتين المرتبتين، فسبحان الخالق البارئ القادر القاهر الحكيم العالِم الذي خلق الخلائق بقدرته وفضَّل البعض على البعض برحمته، وخلق النبات مع اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها ومنافعها

مصلحة ومنفعة لخلقه، وخلق الحيوانات الخسيسة والشريفة لنظام العالَم ومعايش الخلائق بوجدانهم، تعالى الله علوًّا كبيرًا.

وإذ قد فرغنا من ذكر مراتب الحيوانية مما يلي مراتب الإنسانية، فينبغي أن نذكر أولًا المرتبة الإنسانية مما يلي الحيوانية.

(٥) فصل في مرتبة الإنسانية

اعلم يا أخي بأن أول مرتبة الإنسانية التي تلي مرتبة الحيوانية هي مرتبة الذين لا يعلمون من الأمور إلا المحسوسات، ولا يعرفون من العلوم إلا الجسمانيات، ولا يطلبون إلا إصلاح الأجساد، ولا يرغبون إلا في رُتَب الدنيا، ولا يتمنَّوْن إلا الخلود فيها مع علمهم بأنه لا سبيل لهم إلى ذلك، ولا يشتهون من اللذَّات إلا الأكل والشرب مثل البهائم، ولا يتنافسون إلا في الجِمَاع والنِّكَاح كالخنازير والحمير، ولا يحرصون إلا على جمع الذخائر من متاع الحياة الدنيا، ويجمعون ما لا يحتاجون إليه كالنمل، ويحبون ما لا ينتفعون به كالعقعق، ولا يعرفون من الزينة إلا أصباغ اللباس كالطواويس، ويتهارشون على حطام الدنيا كالكلاب على الجِيَف، فهؤلاء وإن كانتْ صورهم الجسدانية صورة الإنسان فإن أفعال نفوسهم أفعال النفوس الحيوانية والنباتية، فأعيذك أيها الأخ البار الرحيم أن تكون منهم أو مثلهم وإيانا وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد.

وأما رتبة الإنسانية التي تلي رتبة الملائكة فهو أن يجتهد الإنسان ويترك كل عمل وخُلُق مذموم قد اعتاده من الصِّبا، ويكتسب أضداده من الأخلاق الجميلة الحميدة، ويعمل عملًا صالحًا، ويتعلم علومًا حقيقية ويعتقد آراء صحيحة حتى يكون إنسان خير فاضلًا، وتصير نفسه مَلَكًا بالقوة، فإذا فارقتْ جسدَها عند الموت صارتْ ملكًا بالفِعْل، وعُرج بها إلى ملكوت السماء، ودخلت في زمرة الملائكة، ولقيتْ ربَّها بالتحية والسلام كما ذكر الله — جلَّ ثناؤه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وقال: ادخلوا الجنة التي كنتم توعدون، وآيات كثيرة من القرآن في هذا المعنى.

وإذ قد ذكرنا طرفًا من كيفية أصول الأشجار وثمارها وأوراقها ذكرًا مجملًا، فنريد أن نذكر أيضًا طرفًا من علل فنون تركيبها والأسباب التي من أجْلها وَجَب أن تكون كذلك ليتبيَّن ما الغرض منها، والعناية الربانية بها والحكمة الإلهية فيها؛ لتكون دليلًا

وقياسًا على غيرها مما لا يَعلَم أحدٌ كُنْهَ غاياتها إلا الله الذي خلقها وصوَّرها وأنشأها وأتمَّها لبلوغ غاياتها وتمام نهاياتها.

فمِن ذلك شجرة النخيل فإنها كثيرة العروق دقيقتها بطيئة النشوء طويلة العمر منتصبة الارتفاع مستديرة الأصل، مسدسة مخارج السعف مستطيلة الأوراق مزدوجة مقابل رخو الجرم متخلخلة تركيب الجسم محشو خللها بزيبر رخو ملتف حوله على أصول سعفه ليفات منسوجة موازية طبقات ثلاث.

وأما علة كثرة عدد عروق هذه الشجرة فهي لكيما تجذب بها القوة الطبيعية الجاذبة للمواد الكثيرة، وذلك لشدة حاجة هذا الجنس من النبات إلى المواد الكثيرة لكِبَر جثَّتها وعظم جرمها وطول قامتها وكثرة عدد سعفاتها وأوراقها لكيما تستعمل في جرم أصولها طولًا وعرضًا وعمقًا وبعضها في جرم سعفها مثل ذلك، وبعضها في جرم أوراقها مثل ذلك، وبعضها في ليفها، وبعضها في جرم أكمام طلعها وبعضها في جرم قضبان قنواتها، وبعضها في جرم نواة ثمرها، ودبسها وشيرجها.

وأما العلة في جعل تركيب جسم أصلها رطبًا رخوًا متخلخلًا فلكيما يسهل على القوى الطبيعية جذب تلك المواد من أسفلها إلى أعاليها ورءوس أجذاعها وفروع سعفها وأوراقها، فلو كان جرم أصلها صلبًا متكاثفًا مكتنزًا كسائر الأشجار الطوال كالسَّاج والدُّلْب والسَّرْو، لعَسُرَ على القُوَى الطبيعية جذْب تلك المواد إلى هناك، ولكثرة عدد عروق شجر النخل ولطافته علة أخرى، وذلك أن أصل جرمه لما كان مركبًا من قضبان كأنها خيوطات مجموعة متداخلة جعل لكل خيط منها عروق ممتدة في الأرض تمتص بها المواد إلى ذلك الخيط مفردًا ليسهل على الطبيعة تقسيم تلك المواد على تلك القضبان من أول الأمر، ولما كان تركيب جرم شجر النخل على ما ذكرنا من الرخاوة والتخلخل لفَّتْ عليها الطبيعة سعفات من الليف على أصول مخارج سعفاتها من أجذاعها كأنها مآزر مشدودة على وسط حمَّال متشمِّر؛ كل ذلك لكيما تمسك أصول تلك السعفات على جذوعها، ولا تنفصل عنها عند هزِّ الرياح العاصفة لها، ولا تتصدع تلك الأجذاع من ثقل أعاليها على أسافلها عند مَيَلانِها يمنة ويسرة عند تحريك الرياح لها.

وأما السبب الذي من أجله جُعل على الطَّلْع الغلاف، فلكيما يحفظه ويصونه من الآفات العارضة من البرد والحر المفرِطين والمطر الشديد والرياح والعواصف والغبار وما شاكل هذه الأشياء المُضرَّة بها؛ لأنها تَخرُج رطبة ندية رخصة رخوة، فإذا استحكمتْ واشتدَّتْ انشقَّتْ تلك الأكمام والغلف عنها، وظهرتْ لنسيم الهواء وحرارة الجو لتربو

وتسمن وتنضجها حرارة الشمس وتصير بُسرًا ورُطَبًا جنيًّا هضيمًا ثم تجفُّ وتصير تَمرًا ودبسًا جامدًا.

وأما النساجة الحريرية التي على نواه فجُعلتْ حاجزة بين جرم النواة، ودبس الثمرة لئلا يمتص عفوصة جرم النواة وغلظ جوهرها دبس الثمر وشيرجها؛ لأن من طبع جواهر الأجسام الأرضية أن تشرب نداوة الرطوبات الرقيقة الدهنية، وتمتصها، فلو لم تجعل تلك الغشاوة الرقيقة الحريرية النسج هناك لاختلط دبس الثمرة مع جرم نواتها، وقلَّ الانتفاع بها.

وأما الحفرة المستطيلة في جرم نواة الثمرة والفتيلة التي فيها، فإنما جعلت تلك لكيما تجري فيها تلك المواد من أولها إلى آخرها، وتجمد أولًا فأولًا.

وأما النقرة التي على ظهر النواة فإنما جُعلت تلك بابًا ومخرجًا عند الغرس، ومن هناك يخرج العرق النازل في الأرض ليجذب المواد ويمتص النداوة والرطوبة من المغرس، ومن هناك تخرج الطاقة المُورِقة التي تبدو أولًا وتظهر من الأرض عند الغرس ثم تصير أصلًا وجذعًا على مرور الأيام وطول الزمان.

وأما الأقماع التي على رءوس الثمرات فجعلت تلك مصفاة للمواد التي تجذبها القوى الطبيعية إلى هناك وتميز الغليظ من اللطيف، وترسل الليف الرقيق إلى ظاهر جرم الثمرة، وتجمده عليها دبسًا وشيرجًا، وترسل الغليظ الفحل إلى جرم النواة وتجمده عليها.

وأما ثمار الجوز واللوز والفستق وأشباهها، فتفعل بها الطبيعة مثل هذا التمييز سواء، ولكنها ترسل الغليظ الفحل إلى ظاهرها، واللطيف الرقيق إلى باطنها بالعكس مما تفعل في ثمرة التمرة.

وأما ثمرة التِّين والجميز فلم يميز لطيفها من غليظها؛ لأن موادها وكيموسها معتدلان، وليس بين الأجزاء الأرضية والأجزاء المائية كثير تفاوت، فلم تَحْتَجِ الطبيعة أن تميِّزهما وتفصلهما مثل ما فعلتْ في ثمرة التمرة والجوز وما شاكلها من سائر الثمار، بل قد ميَّزت الطبيعة تلك المادة بأجزاء أخرى، فجعلت في داخل الثمرة حبوبًا صغارًا، وعلى خارجها قشرة رقيقة ظاهرة صاينة لرطوبتها من الغبار والقذى.

وأما كيفية تركيب عروق شجرة التين وجرم أصولها وقضبانها وورقها وثمرها فهي على غير تركيب شجرة النخلة؛ وذلك أن عروق التين غلاظ ذاهبات تحت الأرض في الجهات مستقيمًا ومعوجًّا في عمقها، وفيها تجويفات مثل ما في جوف القصب، لكنها

أضيق قليلًا، وهكذا تركيب أصول شجر التين وقضبانها وفروعها فيها تجويفات لطيفة، ولها عُقَد مثل عُقَد القصب، وفي تلك التجويفات زيبرية محشوة خللها.

وأما سبب تلك التجويفات التي في عروقها وأصولها وقضبانها فهو لكيما يسهل على القوى الطبيعية الجاذبة جذب تلك المواد من عمق الأرض والتي هي الأجزاء الأرضية ورطوبات مائية إلى أصول أشجارها ورفعها من أسافلها إلى أعالي رءوسها وأطراف فروعها، وجُعلتْ تلك العُقَد في مواضع تلك التجويفات، وحُشيتْ زيبرًا لكيما يسهل على القوة الماسكة إمساك تلك المواد هناك؛ لئلا ترجع إلى أسفل بثقلها، وتبقى هناك تهضمها القوة الهاضمة، وتستعملها القوة الغاذية وتزيد في أجرامها وأطرافها طولًا وعرضًا وعمقًا القوة النامية.

وأما شجرة العنب فقد ركب جرم أصولها وجسم قضبانها تركيبًا غير تركيب شجرة النخل والتين، أما عروقها فتذهب تحت الأرض ممتدة في الجهات دقاقًا وغلاظًا، وفيها تجويفات مثل ما في عروق شجرة التين، ولكن جرم أصولها يمتد طويلًا على وجه الأرض، ولا يكاد يقوم على ساقه مرتفعًا في الهواء كثيرًا كغيره من الأشجار، وعلى ظاهر قضبانه عُقَد وأنابيب ظاهرة مجوَّفات محشوَّة زيبرًا مثل قضبان شجر التين للغرض الذي ذكرنا، وعليها ألْيِفة منسوجة رخوة سلسة، وعند عُقَد قضبانها تخرج شظيات لينة منبثَّة تلتفُّ على الأشجار وتتعلق بها وترتقي عليها لتحل عليها ثقل ثمرتها؛ لأن أصولها دقيقة لا تُطيق حمْلَها، ويخرج من ثمرتها حبات مجتمعة متجاورة متعلِّقة لتغطِّيها ورقة واحدة على عناقيدها غير محتاجة إلى غلاف أو أكمام تصونها من الآفات مثل ما تحتاج ثمرة النخل؛ لأن مثل مادتها غليظة صلبة عفصة لا تعرض لها الآفات كما تعرض لثمرة النخل؛ لأنها تخرج رخوة رخصة ندية تَرِفة تُسرِع إليها الآفات.

وأما تركيب ثمرة العنب وحباتها فإذا نضجتْ تبيَّن عليها هناك قشرة رقيقة حريرية النسج جعلت تلك لتحفظ رطوباتها هناك ودبسها وشيرجها من الآفات العارضة لها من الرياح والغبار، وحرارة الشمس أن تنشف تلك الرطوبات أو تحلِّلها كما تفعل بالمياه المستنقعات، وجُعل في وسط لحمِها عجمات صلبة خزفية مجوفة في داخلها لب دسم هو بذر العنب وبذوره، وإنما لم يَحتَجْ إلى أن يكون بين تلك العجمات وبين دبس العنب غشاوة رقيقة مثل ما بين نواة التمرة ودبسها كما ذكرنا قبلُ؛ لأن تلك العجمات وإن كانت جواهرها أرضية عفصية فهي صغيرة وهي أيضًا رخوة ليست صلابتها كصلابة نواة التمرة وغلظ جوهرها، وعلة أخرى أنها مجوَّفة في داخلها لبٌّ دسم فلم تجفَّ

الطبيعة حتى تنشف تلك العجمات بشيرج العنب، ولم تجعل بينهما حاجزًا كما جعلت في خلقة التمرة، وعلة أخرى أيضًا أن دبس العنبة وشيرجها كثير بالإضافة إلى جرم تلك العجمات، وليس حكم جرم نواة التمرة ودبسها مثل ذلك، بل جرم نواتها بالإضافة إلى دبسها وشيرجها كثير، فإن قال قائل أو ظن متوهِّم أن الأشجار تُغرس ولا تحتاج إلى بذر يزرع وبذر يحفظ إلى وقت الحاجة، فما الحكمة في كون عجمات العنب وحبات ثمرة التين وغيرها في جوفها؟! فليعلم هذا القائل بأن الحكمة الإلهية والعناية الربانية لم يذهب عليها هذا المقدار من العلم، ولكن خَفِيَتْ عليك تلك العلة وذلك السبب، فاعترضتْك الشكوك والحيرة والظنون والتخيُّل الفاسد والوهم الكاذب، وقد ذكرنا علَّتَها وسببها وجواب سؤالك في موضع آخر تجده إن شاء الله تعالى.

(تمَّت الرسالة السابعة من الطبيعيات في ماهية النبات، وهي الرسالة العشرون من رسائل إخوان الصفا، وتتلوها الرسالة الثامنة في بيان تكوين الحيوانات.)

الرسالة الثامنة

من الجسمانيات الطبيعيات في كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — أنه لما فرغنا من ذكْر النباتات، وبيَّنَّا طرفًا من كيفية تكوينها ونشوئها ونموها وكمية أجناسها وفنون أنواعها، وخواص طباعها ومنافعها ومضارها في رسالة لنا وبيَّنَّا فيها أيضًا بأن أول مرتبة النبات متصلة بآخر مرتبة الجواهر المعدنية، وأن آخرها متصل بأول مرتبة الحيوان، فنريد أن نذكر في هذه الرسالة أيضًا طرفًا من كيفية تكوين الحيوانات وبدء كونها ونشوئها ونمائها وكمية أجناسها وفنون أنواعها وخواص طباعها واختلاف أخلاقها، ونبيِّن أيضًا بأنَّ آخِر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان، وآخِر مرتبة الإنسان متصل بأول مرتبة الملائكة الذين هم سكان الهواء والأفلاك وأطباق السموات ليكون في ذلك بيان، ودليل لَمن كان له قلب صافٍ ونفس زكية وعقل راجح على كيفية ترتيب الموجودات ونظام الكائنات عن علة واحدة ومبدأ واحد، وأنها كترتيب العدد عن الواحد الذي قبل الاثنين، ونبيِّن أيضًا بأن نسبة صورة الإنسانية إلى صور سائر الحيوانات كنسبة الرأس من الجسد ونفسه كالسائس وأنفسها كالمسوس.

وقد بيَّنَّا في رسالة الأخلاق بأن صورة الإنسانية هي خليفة الله في أرضه، وبيَّنَّا فيها أيضًا كيف ينبغي أن تكون سيرة كل إنسان حتى يستأهل أن يكون من أولياء الله ويستحق الكرامة منه، وبيَّنَّا أيضًا في أكثر رسائلنا فضيلة الإنسان وخصاله المحمودة وأخلاقه المرضية ومعالمه الحقيقية وصنائعه الحكمية وتدابيره المرضية وسياسته الربانية، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفًا من فضائل الحيوانات وخصالها المحمودة وطبائعها المرضية وشمائلها السليمة، ونبيِّن أيضًا طرفًا من طغيان الإنسان وبغيه وتعدِّيه على ما سواه ممَّا سُخِّر له من الأنعام والحيوانات أجمع، وكفرانه النِّعَم وغفلته عمَّا يجب عليه من أداء الشكر، وأن الإنسان إذا كان فاضلًا خيِّرًا فهو مَلَك كريم خير البرية، وإن كان شرِّيرًا فهو شيطان رجيم شر البرية، وجعلنا بيان ذلك على ألسنة الحيوانات؛ ليكون أبلغ في المواعظ وأبْيَن في الخطاب وأعجب في الحكايات وأظرف في المسامع وأطرف في المنافع وأغوص في الأفكار وأحسن في الاعتبار.

فصل

واعلم أيها الأخ — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الجواهر المعدنية هي في أدون مراتب المولدات من الكائنات، وهي كل جسم متكوِّن منعقِد من أجزاء الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، وأن النبات يُشارك الجواهر في كونها من الأركان ويزيد عليها وينفصل منها بأنه كل جسم يتغذَّى من الأركان وينمو ويزيد في أقطارها الثلاثة طولًا وعرضًا وعمقًا، وأن الحيوان أيضًا يُشارك النبات في الغذاء والنمو، ويزيد عليه وينفصل عنه بأنه جسم متحرك حساس، والإنسان يشارك النبات والحيوان في أوصافها ويزيد عليها وينفصل عنها بأنه ناطق مميِّز جامع لهذه الأوصاف كلها.

فصل

ثم اعلم يا أخي بأن النبات متقدِّم الكون والوجود على الحيوان بالزمان؛ لأنه مادة لها كلها وهَيُولَى لصورها وغذاء لأجسادها، وهو كالوالدة للحيوان — أعني النبات — وذلك أنه يمتص رطوبات الماء ولطائف أجزاء الأرض بعروقه إلى أصوله، ثم يُحيلها إلى ذاته ويجعل من فضائل تلك المواد ورقًا وثمارًا وحبوبًا نضيجًا ويتناول الحيوان غذاءً صافيًا هنيئًا مريئًا كما تفعل الوالدة بالولد فإنها تأكل الطعام نضيجًا ونِيئًا وتُناوِل ولدَها لبنًا

خالصًا سائغًا للشاربين، فلو لم يكن النبات يفعل ذلك من الأركان لكان يحتاج الحيوان إلى أن يتغذَّى من الطين صرفًا، ومن التراب سفًّا، ويكون منغَّصًا في غذائه وملاذِّه، فانظر يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — إلى معرفة حكمة الباري — جلَّ ثناؤه — كيف جعل النبات واسطة بين الحيوان وبين الأركان حتى يتناول بعروقه لطائف الأركان وعصاراتها ويهضمها وينضجها ويصفِّيها ويُناوِل الحيوان من لطائف لبابها وحبوبها وقشورها وورقها وثمارها وصموغها ونَوْرها وأزهارها لطفًا من الله — تعالى — بخلْقه وعناية منه ببريَّتِه، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

فصل

ثم اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن من الحيوان ما هو تام الخلقة كامل الصورة، كالتي تَنْزُو وتَحبَل وتَلِد وتُرضِع، ومنها ما هو ناقص الخلقة، كالتي يتكوَّن من العفونات، ومنها ما هو كالحشرات والهوامِّ بين ذلك كالتي تنفذ وتبيض وتحضن وتربِّي.

ثم اعلم بأن الحيوانات الناقصة الخِلْقة متقدِّمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان في بدء الخلق؛ وذلك أنها تتكون في زمان قصير، والتي هي تامة الخلقة تتكون في زمان طويل لأسباب وعلل يطول شرحها، وقد ذكرنا طرفًا منها في رسالة مسقط النطفة ورسالة الأفعال الروحانية، ونقول أيضًا إن حيوان الماء وجوده قبل وجود حيوان البر بزمان؛ لأن الماء قبل التراب، والبحر قبل البَرِّ في بدء الخلق.

فصل

واعلم يا أخي بأن الحيوانات التامة الخِلْقة كلها كان بدء كونها من الطين أولًا من ذكر وأنثى، توالدت وتناسلت وانتشرت في الأرض سهلًا وجبلًا وبرًّا وبحرًا من تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار متساويين والزمان أبدًا معتدلًا هناك بين الحر والبرد والمواد المتهيئة لقبول الصورة موجودة دائمًا، وهناك أيضًا تكوَّن أبونا آدم أبو البشر وزوجته، ثم توالد وتناسلت أولادهما وامتلأت الأرض منهم سهلًا وجبلًا وبرًّا أو بحرًا إلى يومنا هذا.

ثم اعلم يا أخي بأن الحيوانات كلها متقدِّمة الوجود على الإنسان بالزمان؛ لأنها له ولأجله، وكل شيء هو من أجْل شيء آخر فهو متقدِّم الوجود عليه، هذه الحكمة في أولية

العقل لا تحتاج إلى دليل من المقدمات ونتائجها؛ لأنه لو لم يتقدَّم وجود هذه الحيوانات على وجود الإنسان لما كان للإنسان عيش هنيء ولا مروَّة كاملة، ولا نعمة سائغة؛ بل كان يعيش عيشًا نكدًا فقيرًا بائسًا بسوء الحال كما سنبيِّن بعد هذا في فصل آخَر عند فراغ زعيم أهل المدن من خطابهم وكيفية أحوالهم كيف تكون عند فقدان الحيوانات.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن صور النبات منكوسة الانتصاب إلى أسفل؛ لأن رءوسها نحو مركز الأرض ومؤخرها نحو محيط الأفلاك، والإنسان بالعكس من ذلك؛ لأن رأسه مما يلي الفلك ورجليه مما يلي مركز الأرض في أي موضع وقف على بسيطها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا من الجوانب كلها، ومن هذا الجانب ومن ذلك الجانب والحيوانات متوسِّطة بين ذلك لا منكوسة كالنبات ولا منتصبة كالإنسان، بل رءوسها إلى الآفاق ومؤخَّرها إلى ما يُقابله من الأفق الآخر، كيفما دارتْ وتصرفت في جميع أحوالها، وهذا الوضْع والترتيب الذي ذكرنا من أمرِ النبات والحيوانات والإنسان أمر إلهي بواجب الحكمة الإلهية والعناية الربانية ليكون في ذلك دلالة وبيان لأولي الأبصار والناظرين في أسرار الخِلْقة والباحثين عن حقائق الأشياء والمعتبرين بما في الأرض من الآيات والعلامات والدلالات بأن قُوَى النفس الكلية المنبثَّة في العالَم من أعلى فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض بعضها منتصب نحو المركز، وبعضها منصرف إلى المركز المحيط، وبعضها منبثٌّ متوجِّه نحو الآفاق على المركز، في كل فجٍّ منها جنود الله منصرفين لحفظ العالم وتدبير الخلائق والسياسة الكلية ومآرب أخرى لا يعرف كنه معرفتها أحد إلا الله عزَّ وجلَّ.

وقد بيَّنَّا في رسالة لنا بأن قوى النفس الكلية أول ما تبتدئ تسري في قعر الأجسام من أعلى سطح فلك المحيط إلى نحو مركز الأرض، فإذا سَرَتْ في الأفلاك والكواكب والأركان والمولدات، وبلغتْ إلى مركز الأرض من أقصى مدى غايتها ومنتهى نهاياتها عطفتْ عند ذلك راجعة نحو المحيط وهو المعراج والبعث والقيامة الكبرى.

فانظر الآن يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — كيف يكون انصراف نفسك من هذا العالم إلى هناك، فإنها هي إحدى تلك القوى المنبثَّة من النفس الكلية السارية في العالم، وقد بلغتْ إلى المركز وانصرفتْ ونَجَتْ من الكون في المعادن أو في النبات أو في الحيوان، وقد جاوزتِ الصراط المنكوس والصراط المقوس، وهي الآن على صراط مستقيم

آخِر درجات جهنم، وهي الصورة الإنسانية، فإن جاوزتْ وسلمتْ من هذه دخلت الجنة في أحد أبوابها، وهي الصورة الملكية التي تكسبها بأعمالك الصالحة وأخلاقك الجميلة وآرائك الصحيحة ومعارفك الحقيقية وبحسن اختيارك، فاجتهد يا أخي قبل الفوت وفناء العمر وتقارب الأجل، واركب مع إخوانك في سفينة النجاة يرحمك الله برحمته، ولا تكن مع المغرقين وإخوان الشياطين.

فصل

واعلم يا أخي بأن الحيوان هو جسم متحرِّك حساس يتغذَّى وينمو ويحس ويتحرك حركة مكان وأن من الحيوان ما هو في أشرف المراتب مما يلي رتبة الإنسانية، وهو ما كانت له الحواس الخمس والتمييز الدقيق وقبول التعليم، ومنه ما هو في أدون رتبة مما يلي النبات، وهو كل حيوان ليس له إلا حاسة اللمس حسب، كالأصداف وما كان كأجناس الديدان كلها، تتكوَّن في الطين أو في الماء أو في الخلِّ أو في الثلج أو في لبِّ الثَّمَر أو في الحبِّ أو لبِّ النبات والشجر أو في أجواف الحيوانات الكبار الجثة وما أشبهها.

وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحمية وبدنه متخلخل وجلده رقيق، وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة، ويحس اللمس، وليس له حاسة أخرى لا الذوق ولا الشم ولا السمع ولا البصر غير اللمس وحسب، وهو سريع التكوُّن وسريع الهلاك والفساد والبِلَى، ومنها ما هو أتمُّ بنية وأكمل صورة، وهو كل دودة تتكوَّن وتدبُّ على ورق الشجر والنبات ونَوْرها وزهرها، ولها ذوق ولمس، ومنها ما هو أتم وأكمل وهو كل حيوان له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر، وهي الحيوانات التي تعيش في قعر البحار والمياه والمواضع المُظلِمة، ومنها ما هو أتم وأكمل وهو كل حيوان من الهوامِّ والحشرات التي تدبُّ في المواضع المُظلِمة، له لمس وذوق وسمع وشم، وليس له بصر مثل الحلمة، فباللمس قوام جثته وبالذوق يميِّز الغذاء من غيره، وبالشم يعرف مواضع الغذاء والقوت، وبالسمع يعرف وطأ المؤذيات له، فيحترَّز قبل الورود والهجوم عليه، ولم يجعل له البصر؛ لأنه يعيش في المواضع المظلمة، ولا يحتاج إلى البصر ولو كان له بصر لكان ذلك وبالًا عليه من حفظه، ففي إغماض العين من القذي ضرورة؛ لأن الحكمة الإلهية لم تُعطِ الحيوان عضوًا ولا حاسة لا يحتاج إليها، ولا ينتفع بها، ومنه ما هو أتم بنية وأكمل صورة وهو ما له خمس حواس كاملة، وهي اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ثم يتفاضل في الجودة والدون.

فصل

ومن الحيوانات ما يتدحرج كدودة الثلج، ومنها ما يزحف كدودة الصدف، ومنها ما ينساب كالحية، ومنها ما يدبُّ كالعقارب، ومنها ما يعدو كالفأر، ومنها ما يطير كالذباب والبقِّ، ومما يدبُّ ويمشي ما له رجلان، ومنها ما له أربع أرجل، ومنها ما له ست أرجل، ومنها ما له أكثر كالدخال، ومما يطير من الحشرات ما له جناحان، ومنها ما له أربعة أجنحة، ومنها ما له ست أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخالب وقرون كالجراد، ومنها ما له خرطوم كالبقِّ والذباب، ومنها ما له مشفر وحُمَة كالزنابير، ومن الهوام والحشرات ما له فِكْر وروية وتمييز وتدبير وسياسة مثل النمل والنحل، يجتمع جماعة منهم ويتعاونون على أمر المعيشة واتخاذ المنازل والبيوت والقُرَى وجمع الذخائر والقُوت للشتاء، ويعيش حولًا وربما زاد، وما كان غير هذين من الهوامِّ والحشرات مثل البقِّ والبراغيث والذباب والجراد وما شاكلها فإنها لا تعيش حولًا كاملًا؛ لأنه يُهلِكها الحرُّ والبرد المفرطان، ثم يتكون في العام القابل مثلها.

فصل

ومن الحيوان ما هو أتم بنية مما ذكرنا، وأكمل صورة منها، وهو كل حيوان بدنه مؤلَّف من أعضاء مختلفة الأشكال، وكل عضو مركب من عدة قطعات من العظام، وكل قطعة منها مفننة الهيئات من الطول والقصر والدقة والغلظ والاستقامة والاعوجاج، ومؤلَّفة كلها بمفاصل مهندمة التركيب مشدودة الأعصاب والرباطات، محشوة الخلل باللحم، منسوجة بالعروق، محصنة بالجلدة، مغطاة بالشعر والوبر والصوف والريش أو الصَّدَف أو الفلوس، وفي باطن أجسادها أعضاء رئيسية كالدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتين والمثانة والأمعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرش والحوصلة والقانصة وما شاكلها.

وفي ظاهر البدن أرجل وأيد وأجنحة وذنب ومخالب ومناقير وحافر وظلف وخفٌّ وما شاكلها، كل ذلك لمآرب وخصال عدة ومنافع جمَّة، لا يعلمها إلا الذي خلقها وصوَّرها وأنشأها وأتمَّها وأكملها وبلَّغها إلى أقصى غاياتها وتمام نهاياتها.

وهذه كلها أوصاف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء وبعض الهوام كالحيات، والأنعام وهو كل ما له ظلف مشقوق.

والبهائم ما كان لها حافر، والسباع ما كان لها أنياب ومخالب، الوحوش ما كان مركبًا بين ذلك.

والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار، والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخالب معقفة معقربة.

وحيوان الماء ما يُقيم فيه ويعيش، والحشرات ما يطير وليس لها ريش، والهوام ما يدبُّ على رجلين أو أربعة أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبيه.

فصل

ثم اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية التي لها عظام كبار وجلود ثخان وأعصاب غلاظ وعروق واسعة وأعضاء كبيرة مثل الفيل والجمل والجاموس، وغيرها تحتاج أن تمكث في الرحم زمانًا طويلًا إلى أن تَلِد لعلَّتين اثنتين؛ إحداهما: كيما تجتمع في الرحم تلك المواد التي تحتاج إليها الطبيعة في تتميم البنية وتكميل الصورة.

والعلة الأخرى: كيما تدور الشمس في الفلك وتقطع البروج المثلثات المشاكلات الطباع وتحط من هناك قوى روحانيات الكواكب إلى عالم الكون والفساد التي تحتاج إليها في تتميم قوى النفس النامية النباتية وقوى النفس الحيوانية الحاسة ليَقبَل مِن كل جنس من الكائنات المولَّدات ما له أن يَقبَل مِن تلك القُوَى، كما بيَّنَّا طرفًا من ذلك في رسالة مسقط النطفة.

ثم اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الحيوانات التامة الخلقة الكبيرة الجثة العظيمة الصورة كلها كُوِّنتْ في بدء الخلق ذكرًا وأنثى من الطين تحت خط الاستواء؛ حيث يكون الليل والنهار هناك متساويين، والحر والبرد معتدلين، والمواضع الكنينة من تصاريف الرياح موجودة هناك، والمواد كثيرة متهيئة لقبول الصورة.

ولَمَّا لم يكن في الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف جُعلتْ أرحام إناث هذه الحيوانات على هذه الأوصاف من اعتدال الطباع لكيما إذا انتشرتْ في الأرض تناسلتْ وتوالدتْ حيث كانوا، وأكثر الناس يتعجَّبون من كون الحيوانات من الطين ولا يتعجبون من كونها في الرَّحِم من ماء مهين، وهي أعجب في الخلقة، وأعظم في القدرة؛ لأن من الناس مَن يَقدِر أن يصوِّر حيوانًا من الطين أو من الخشب أو من الحديد أو من النحاس كما هي موجودة مشاهدة في أيدي الناس من خلقة الأصنام.

ولا يمكن لأحد أن يصوِّر حيوانًا من الماء؛ لأن الماء جسم سيَّال لا تتماسك فيه الصورة، فتكون هذه الحيوانات في الأرحام أو في البيض من ماء مهين أعجب في الخلقة، وأعظم في القدرة من كونها من الطين.

وأيضًا إن أكثر الناس يتعجبون من خِلْقة الفيل أكثر من خِلْقة البقَّة، وهي أعجب خلقة وأظرف صورة؛ لأن الفيل من كبر جثته له أربع أرجل وخرطوم ونابان خارجيان، والبقة مع صغر جثتها لها ست أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخرى لا يُدرِكها البصر، وهي مع صِغَر جثَّتها مسلَّطة على الفيل بالأذيَّة، ولا يقدر عليها، ولا يمتنع بالتحرُّز منها، وأيضًا فإن الصانع البشري يقدر على أن يصوِّر فيلًا من الخشب أو من الحديد أو من غيرها بكماله ولا يقدر أحدٌ من الصناع أن يصور بقَّة لا من الخشب ولا من الحديد بكمالها.

وأيضًا فإن كون الإنسان من النطفة بديئًا، ثم في الرحم جنينًا، ثم في المهد رضيعًا، ثم في المكتب صبيًّا، ثم في تصاريف أمور الدنيا رجلًا حكيمًا أعجب أحوالًا وأعظم اقتدارًا من كونه يُبعَث من تراب قبره يوم القيامة وخروج الناس كأنهم جراد منتشر.

وهكذا أيضًا مشاهدة خروج عشرين فرخة من تحت حضن دجاجة واحدة أو ثلاث دراجات من تحت حضن دراجة واحدة ينفضُّ عنها قشور بيضها في ساعة واحدة وعَدْو كل واحدة في طلب الحَبِّ وفرارها وهربها من الطالب لها، حتى ربما لا يقدر عليها أعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة، فما الذي منع المنكرين من الإقرار بذلك، وهم يشاهدون مثل هذه التي أعجب هي منها وأعظم في القدرة لولا جريان العادة بها.

فصل

اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن مشاهدة جريان الأمور دائمًا إذا صارت عادة قلَّ تعجب الناس منها والفكر فيها، والاعتبار لها ويعرض لهم من ذلك سهو وغفلة ونوم النفس وموت الجهالة.

فاحذر من هذا الباب يا أخي، ولا تكن من الغافلين، وكن من الذين ذكرهم الله في كتابه ومدحهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وذمَّ الذين بخلافهم بقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن أبدان الحيوانات التامة الخلقة والناقصة الخلقة جميعًا مؤلَّفة ومركبة من أعضاء مختلفة الأشكال والمفاصل مفننة الهيئات كالرأس واليد والرِّجْل والظهر والبطن والقلب والكبد والرئة وغيرها، كل ذلك لأسبابٍ وعلل وأغراض لا يعلم كنه معرفتها إلا الله الذي خلقها وصوَّرها كما شاء وكيف شاء.

ولكن نذكر منها طرفًا ليتبيَّن صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا؛ وذلك أنه ما من عضو في أبدان الحيوانات صغيرًا كان أو كبيرًا إلا وهو خادم لعضو آخر ومعين له، إما في بقائه وتتميمه أو في أفعاله ومنافعه، مثال ذلك الدماغ في بدن الإنسان، فإنه مَلِك الجسد ومَنشَأ الحواس ومعدن الفكْر وبيت الرويَّة وخزانة الحفظ ومسكن النفس ومجلس محل العقل.

وإن القلب خادم للدماغ ومعينه في أفعاله، وإن كان هو أمير الجسد ومدبِّر البدن ومنشأ العروق الضوارب وينبوع الحرارة الغريزية، وخادم القلب ومعينه في أفعاله ثلاثة أعضاء أخرى وهي الكبد والعروق الضوارب والرئة.

وهكذا حكم الكبد بيت الشراب يخدمه ويُعينه في أفعاله خمسة أعضاء أخرى، وهي المعدة والأوراد والطحال والمرارة والكليتان.

وهكذا أيضًا حكم الرئة بيت الريح يخدمها ويُعينها في أفعالها أربعة أعضاء أخرى وهي الصدر والحجاب والحلقوم والمنخران؛ وذلك أن من المنخرين يُدخل الهواء المستنشق إلى الحلقوم، ويعتدل فيه مزاجه، ويصل إلى الرئة، ويتصفَّى فيها ثم يدخل إلى القلب ويروح الحرارة الغريزية هناك وينفذ من القلب إلى العروق الضوارب، ويبلغ إلى سائر أطراف البدن الذي يسمَّى النبض، ويخرج من القلب الهواء المحترق إلى الرئة، ومن الرئة إلى الحلقوم، ومن الحلقوم إلى المنخرين، أو إلى الفم، والصدر يخدم الرئة في فتحه لها عند استنشاق الهواء وضمِّه إياها عند خروج النفس، والحجب تحفظ الرئة من الآفات العارضة لها عند الصدمات والدفعات واضطراب أحوال البدن.

وهكذا حكم الكبد تخدمه المعدة بإنضاج الكيموس قبل وصوله إليه، وتخدمه الأوراد بمصِّها وإيصالها إليه بحال يجذب عكر الكيموس من الأخلاط الغليظة المحترقة منها إلى نفسها، وتخدمه المرارة بجذب المرة الصفراء إلى نفسها وتصفية الدم منها، وتخدمه الكليتان بجذب الرطوبة الرقيقة اللينة منها إلى نفسها، وهو الذي يكون منه البول،

وتخدمه العروق المجوفة بجذب الدم إليها وإيصاله إلى سائر أطراف الجسد الذي هو مادة لجميع أجزاء البدن.

وهكذا يخدم المريء والأسنان والفم المعدة؛ وذلك أن الفم هو باب الجسد الذي يدخل منه الطعام والشراب إلى عمق الجسد، والأسنان تخدمها بالطحن أو الدقِّ، والمريء يَزْدَرِد ويبْلَع ويوصلها إلى المعدة، والأمعاء تجذب الثقل وتخرجه من الجسد.

وعلى هذا المثال والقياس ما من عضو في بدن الحيوان إلا وهو يخدم البدن في أفعاله ويخدمه عضو آخر ويُعينه في أفعاله، والغرض الأقصى منها كلها هو بقاء الشخص وتتميمه وتبليغه إلى أكمل حالاته، إما بذاته أو ببقاء نسله أطول ما يمكن في جنس جنس، ونوع نوع، وشخص شخص.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن من الحيوانات ما هو أخرس لا منطق له ولا صوت كالسرطان والسلاحف والسمك، وبالجملة أكثر حيوان الماء إلا القليل منها مثل الضفدع والراديا، ومنها ما له صوت، وهو كل حيوان يستنشق الهواء ويُسمَع له دويٌّ وزَمْر كالبقِّ والذباب والزنابير والصراصير والجراد وما شاكلها، ويكون ذلك من تحريك أجنحتها.

واعلم بأن أصوات الحيوانات المتنفسة متفننة كثيرة الاختلاف من الطول والقصر والغلظ والعظم والصغر والجهير والخفيف وفنون الطنين والزمير والألحان والنغم، كل ذلك بحسب طول أعناقها وقصرها وسعة مناخيرها وحلاقيمها وضيقها وصفاء طبائعها وغلظها وشدة قوة استنشاقها الهواء وإرسالها وتعديل أنفاسها بعد ترويح الحرارة الغريزية التي في قلوبها أو في عمق أجسادها.

والعلة في أن حيوانات الماء أكثرها لا أصوات لها؛ لأنها لا رئات لها، ولا تستنشق الهواء، ولم يجعل لها ذلك؛ لأنها لا تحتاج إليها؛ وذلك أن الحكمة الإلهية والعناية الربانية جعلتْ لكل حيوان من الأعضاء والمفاصل والعروق والأعصاب والغشاوات والأوعية بحسب حاجته إليه في جر المنفعة أو دفع المضرة في بقاء شخصها وتتميمه وتكميله وبلوغه إلى أقصى مدى غاياته، ولسبب بقاء نسلها من آلات السفاد واللقاح وتربية الأولاد، وكل حيوان هو أتم بنية وأكمل صورة فهو أكثر حاجة إلى أعضاء كثيرة وآلات مختلفة وأدوات

مُعِينة في بقاء شخصه ونتاج نسله، وكل حيوان أنقص بنية وأدون صورة، فهو أقل حاجة إلى أعضاء مختلفة وأدوات مفننة في بقاء شخصه ودوام نسله.

بيان ذلك أن الحيوانات ثلاثة أنواع: فمنها ما هو أتم وأكمل، وهو كل حيوان ينزو ويَحبَل ويُرضِع ويُربِّي الأولاد، ومنها ما دون ذلك وهو كل حيوان يسفد ويبيض ويفرخ، ومنها دون ذلك وهو كل حيوان لا يسفد ولا يبيض ولا يلد، بل يتكون في العفونات ولا يعيش سنة كاملة؛ لأن الحر والبرد المفرطين يُهلِكانِها؛ لأن أجسادها متخلخلة مفتحة المسامِّ، وليس لها جلد ثخين ولا صوف ولا شعر ولا وبر ولا صدف ولا عظام ولا عصب ولا فلوس، فهي لا تحتاج إلى الرئة ولا الطحال ولا المرارة ولا الكلى ولا المثانة ولا استنشاق الهواء لترويح الحرارة الغريزية، إذ كان نسيم الهواء يتصل إلى عمق أبدانها لصغر جثتها وفتح مسامِّها ويحفظ الحرارة الغريزية التي في مزاج أبدانها وتركيب طبائعها.

وأما الحيوانات الكبيرة الجثة، العظيمة البنية، التي عليها جلود ثخان، ولحوم كثيرة، وغشاوات وعروق وأعصاب وعظام مصمتة ومجوفة، وأضلاع ومصارين وأمعاء وكروش ومعدة وقلب ورئة وطحال وكليتان ومثانة وقحف الرأس والشعر والوبر والصوف والريش والصدف وما شاكلها، مما يمنع وصول نسيم الهواء إلى عمق أبدانها وترويح الحرارة الغريزية فيها، فقد جعل لبعضها رئة وحلقوم ومجارٍ للنفس لكيما يصل نسيم الهواء إلى عمق أبدانها ومحابس قعر أجسادها، ويروِّح الحرارة الغريزية فيها ويحفظ الحياة عليها إلى وقت معلوم، فهذا الذي ذكرناه هو حكم الحيوانات التامة الخِلْقة الكاملة الصورة، التي تستنشق الهواء وتتنفس منه وتعيش فيه.

وأما أجناس الحيوانات التي تعيش في المياه ولا تخرج منها فإنها لا تحتاج إلى استنشاق الهواء ولا التنفس منه؛ لأن البارئ الحكيم — جلَّ ثناؤه — لَمَّا خلقها في الماء وجعل حياتها منه وفيه جعلها على طبيعة واحدة، وهي طبيعة الماء، وركَّب أبدانَها تركيبًا يصل برد الماء ورطوبته إلى قعر أبدانها وعمق أجسادها، وتروح الحرارة الغريزية التي في طباع تركيبها وتنوب عن استنشاقها الهواء وتنفسها منه، وجعل لكل نوع منها أعضاء مشاكِلة لبدنه ومفاصل مناسبة لجثته، وجعل على أبدانها من أنواع الصدف وفنون الفلوس وما شاكلها لباسًا لها ودثارًا من الحر والبرد وغطاء ووطاء ووقاية لها من الآفات العارضة، وجعل لبعضها أجنحة وأذنابًا تسبح بها في الماء مثل الطيور في الهواء، وجعل بعضها آكِلًا، وبعضها مأكولًا، وجعل نسل مأكولها أكثر عددًا من نسل

آكِلها، كل ذلك غرضًا لبقاء أشخاصها ودوام نسلها زمانًا طويلًا أطول ما يمكن في حياتها وطبائعها.

وأما أجناس الطيور التي هي سكان الهواء وقاطنوه، فإن الباري الحكيم — جلَّ ثناؤه — جعل أبدانها مختصرة من أعضاء كثيرة مما في أبدان الحيوان البري الذي يَحبَل ويَلِد ويُرضِع ليخفِّف عليها النهوض في الهواء والطيران فيه، وذلك أن الباري لم يجعل للطير أسنانًا ولا أذنًا بيِّنة ولا معدة ولا كرشًا ولا مثانة ولا خرزات الظهر ولا جلدًا ثخينًا ولا على أبدانها شعرًا ولا صوفًا ولا وبرًا؛ بل جعل بدل ذلك ريشًا لباسًا لها ودثارًا من الحر والبرد وغطاءًا ووطاء ووقاية من الآفات العارضة ويُعينها على النهوض والطيران، وبدل الأسنان منقارًا، وبدل المعدة حوصلة وبدل الكرش قانصة.

وعلى هذا القياس بدل كل عضو عدم منه عضوًا آخر مشاكِلًا لأبدانها ومناسبًا لأجسادها بحسب مآربها ومنافعها ودفع المضارِّ عنها، كل ذلك أسباب وعلل لبقاء أشخاصها ودوام نسلها مدة ما أطول ما يمكن في طبائعها وجِبِلَّتها.

وأما أجناس الحيوانات البرِّيَّة الآكِلة منها العشب فإن الباري الحكيم جعل لها أفواهًا واسعة تتمكَّن من القبض على الحشيش والكلأ في الرعي، وجعل لها أسنانًا حِدَادًا تَقطَع بها وأضراسًا صِلابًا تَطحَن بها الصلب من العشب والحب والورق والقشر والنوى، وجعل مريًّا واسعًا زلقًا تزدرد به ما تمضغه، وكروشًا واسعة محملة تملؤها وتحمل فيها زادَها، فإذا اكتفتْ رجعتْ إلى أماكنها ومرابطها وبركتْ واستراحتْ.

ومنها ما تَجتَرُّ وتسترجع ما بلعتْه وتطحنه ثانية وتبلع وتزدرد إلى مواضع أُخَر من كروشها خِلْقتها غير خِلْقة الأولى متهيِّئة لطَبْخ الحرارة الغريزية لها والتمكُّن من نضجها؛ لكيما تستمرئ بها الطبيعية، وتميِّز ثقلها من لطيفها، وتدفع الثقل إلى الأمعاء والمصارين، ويخرج من الثقب والمواضع المُعَدَّة لذلك، وترد اللطيف الصافي إلى الكبد لتطبخها ثانية وتصفِّيها وتفيض أخلاطها على الأوعية المُعدَّة لقبولها مثل الطحال والمرارة والقلب والكليتين والعروق المجوفة التي هي كالأنهار والجداول في أبدانها ليجري ذلك الدم الصافي فيها إلى سائر أطراف أجسادها، وتخلف بدلًا عمَّا تحلَّل من أبدانها إذ كانتْ أجساد الحيوانات كلها في الذوبان والسيلان من أسباب داخلة، ومن أسباب خارجة.

وما يفضل من تلك المواد في أبدان الذَّكَر فقد جعل الباري الحكيم لها أعضاء وأوعية ومجاريَ يحصل فيها وهي النطفة تجري منها إلى أرحام الإناث عند السفاد والنزو والجماع.

وجُعل في أبدان الإناث أعضاء وأوعية ومجارٍ يحصل فيها وينضاف إليها ما يفضل في أبدان الإناث من الرطوبات المشاكِلات لها على ممر الأيام والشهور، وتجتمع وتكثر ويخلق الباري الحكيم منها صورة مثل أحد الزوجين كما شاء، وكيف شاء كما بيَّنَّا طرفًا من ذلك في رسالة مسقط النطفة، وكل هذه الأسباب والعلل عناية من الباري الحكيم — جلَّ ثناؤه — لبقاء أشخاصها ودوام نسلها زمانًا طويلًا أطول ما يمكن، ويتهيَّأ في ذلك النوع من الحيوان، تبارك الله أحسن الخالقين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

فصل

وأما السباع الآكِلة اللحمان، فإن خِلْقتها وطباعها وتركيب بعض أعضائها الظاهرة والباطنة وأمزجتها وشهواتها مخالِفة لما عليه الحيوانات الآكلة العشب؛ وذلك أن الباري لمَّا خَلَقها، وجعل غذاءها من أكل اللحمان ومادة أبدانها من جثة الحيوانات جعل لها أنيابًا صِلابًا ومَخَالب مقوَّسة قويَّة وزندات متينة ووَثَبَات خفيفة وقَفَزات بعيدة شديدة تستعين بها على قبض الحيوانات وضبطها وخرق جلودها وشق أجوافها وكسر عظامها ونَهْش لحومها من غير رحمة لها ولا شفقة عليها.

وقد تحيَّر أكثر العقلاء وتاه أكثر العلماء والفلاسفة الحكماء من المحقِّقين بفكرتهم في هذا وبحثهم عن عِلَلها، وما وَجْه الحكمة والصواب في هذا؟ وقد بيَّنَّا نحن ما الحكمة وما الصواب في ذلك في رسالة العِلَل والمعلولات وسنذكر طرفًا منه في هذه الرسالة في فصل آخر إن شاء تعالى.

فصل

اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الباري الحكيم لمَّا خلق أجناس الحيوانات المختلفة الصُّوَر والطِّباع والمتصرفات قسَّمها أربعةَ أقسام: فمنها سكان الهواء، وهي أنواع الطيور أكثرها والحشرات جميعها.

ومنها سكان الماء، وهو كل حيوان يسبح في الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف ونحو ذلك.

ومنها سكان البر، وهي البهائم والأنعام والسباع، ومنها سكان التراب وهي الهوام، وجعل في كل قسم منها بعضًا آكِلًا وبعضًا مأكولًا.

وذلك أن من الطير ما يأكل الحبَّ والثَّمَر، ومنها ما يأكل اللحم وهي الجوارح وكل ما له مخلب ومنقار مقوس لا يقدر أن يلتقط الحَبَّ أو يأكل الثمر.

وهكذا حكم حيوان الماء، بعضه آكِلٌ وبعضه مأكول، وهكذا حكم حيوان التراب من الهوام كالحيات والضبِّ والقَطَايا وأشباهها.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — أن الباري الحكيم لَمَّا خلق الحيوانات التامَّة البنية، قسَّم بنية أجسادها نصفين اثنين يمنة ويسرة، ليكون مطابقًا لأول العدد وللأمور المثنوية العنصرية التي ذكرناها في رسالة المبادئ، وجعلها ثلاث طبقات؛ وسطًا وطرفين؛ ليكون مطابقًا لأول عدد فرد وللأمور ذوات الأوساط والطرفين، وجعل مزاج أبدانها من أربعة أخلاط مطابقًا لأول عدد مجذور، ومطابقًا أيضًا لأربع طبائع بعدد الأركان الأربعة، وجعل لها خمس حواس درَّاكة لصور المحسوسات ومطابقًا لأول عدد دائر ولعدد الطبائع الأربع والخامسة الطبيعة الفلكية، وجعل فيها قوة تتحرك بها إلى ست جهات مطابقًا لأول عدد تام، ولعدد سطوح المكعب وجعل في أبدانها سبع قوًى فعَّالة مطابقًا لأول عدد كامل ولعدد الكواكب السيارة، وجعل في أبدانها ثماني مزاجات؛ أربعة مفردة وأربعة مزدوجة مطابقًا لأول عدد مكعب ولعدد مناسبات الموسيقى، وجعل تركيب أبدانها وتأليف أجسادها من تسع طبقات مطابقًا لأول عدد فرد مجذور، ولعدد طبقات الأفلاك المحيطات، وجعل في أبدانها اثني عشر ثقبًا أبوابًا لحواسها ومآربها مطابقًا لأول عدد زائد ولعدد بروج الفلك، وأسَّس بناء أجسادها على أعمدة ظهورها ثمانٍ وعشرون خرزة مطابقًا لعدد تام ولمنازل القمر، وجعل في أبدانها ثلاثمائة وستين عرقًا لجريان الدم إلى سائر أطراف أبدانها مطابقًا لعدد درج بروج الفلك ولعدد أيام السنة، وعلى هذا القياس والمثال إذا عد واعتبر وجد عدد كل عضو مطابقًا لعدد جنس من الموجودات، فقد تبيَّن بما ذكرنا معنى قول الحكماء الفيثاغوريين إن الموجودات بحسب طبيعة العدد، وذلك تقدير العزيز العليم.

(٢) فصل

في ذكر تصانيف أحوال الطيور وأوقات الطيور وأوقات هيجانها وسفادها، وكيفية اتخاذها أعشاشها، وإصلاح أوكارها، وكمية بيضها ومدة حضانتها، وكيفية تربيتها لأولادها.

فنقول: اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن مِن الطيور ما يتزاوج ويتعاشق ويهيج ويسفد في سائر فصول السنة ويعاون الذكر منها الأنثى في تحضين البيض وفي تربية الأولاد كالحمام، ومنها ما لا يعاون لا في الحضانة ولا في تربية الأولاد كالديك، ومنها ما لا يهيج في السنة إلا مرتين عند الفصلين المعتدلين — الربيع والخريف — وفي الصيف، وأكثر الطيور لا تهيج ولا تسفد إلا في آخر الشتاء عند استقبال الربيع، وتبيض فيه وتحضن وتربِّي أولادها لعلمها بطيب الزمان واعتدال الهواء وكثرة الريف والقوت الموجود في أكثر الأماكن.

ومن الطيور ما تتخذ عشاشها بين أغصان الشجر وأوراقها، ومنها ما تتخذه في الأرضين الدغلة بين الحشيش والشوك كالقيج والدُّرَّاج والطَّيْهوج، ومنها في ثقب الحيطان أو في أصول الأشجار، ومنا تحت السقوف، ومنها على رءوس الحيطان والخرابات، ومنها على رءوس الجبال والتلال، ومنها على شطوط الأنهار وسواحل البحار، ومنها ما تتخذ في البراري والقفار وبين الأحجار، ومن طيور الماء ما يأخذ بيضها بإحدى رجليه على صدره ويسبح بالأخرى إلى أن تحضن وتخرج فراخها.

ومن الطيور ما يبيض ويحضن بيضتين، ومنها أربع، ومنها ست، ومنها ثماني، ومنها عشرة، واثنتي عشرة وعشرين وثلاثين.

ومن الطيور ما يربِّي فراخه مما في حوصلته من الحب المنقوع، ومنها ما تُلقِم أفراخَها بمنقارها من الصيد والحب والثمر، ومنها ما تفقص من بيضها بعضًا وتُحسِّيه أفراخَها كالنعامة، ومنها ما يبحث في الأرض ويُلقِي إلى أفراخه الحب والدبيب كالدراج والدَّجَاج.

ومن الطيور ما هو سريع الطيران دائمًا طول النهار كالخطاف، ومنها ما هو ثقيل الطيران قليلًا كالسمان، ومنها بعيد الورد كالقَطَا، ومنها بعيد الأسفار كالغراب، ومنها ما لا يفارق الموطن كالعصافير، ومنها ما تطير في أسفارها قطارًا كقطار الجمال كالكُرْكِيِّ، ومنها ما يطير مصطفًّا متحاذيًا كصف المصلِّين، ومنها ما يطير جماعات مختلطات ملتئمة، ومنها ما يطير مستقبلًا للريح، ومنها ما يطير مستدبرًا لها، ومنها

ما يطير موربًا على الجانب، ومنها ما يطير متوهجًا قاصدًا، ومنها ما يطير مرتفعًا ومنخفضًا ويمنة ويسرة، ومنها ما يطير مستقيمًا قاصدًا، ومنها ما إذا نهض للطيران عدا على وجه الأرض خطوات ثم استعلى في الجو، ومنها ما ينهض منتصبًا دفعة واحدة، ومنا ما يرتقي في جو الهواء مختلفًا مستديرًا كالصاعد إلى المنابر، ومنها ما إذا استقل استقل منعرجًا منعطفًا كالصاعد للعقبة، ومنها ما إذا استقل في جو الهواء أمسك عن تحريك جناحيه، ومنها ما يمسكها تارةً ويحركها تارةً أخرى، ومنها ما إذا أراد النزول إلى الأرض نكس رأسه وزجَّ نفسه منقضًّا ومصوبًا كالمطر يوم الريح، ومنها ما ينزل برفق ملويًّا كما ينزل من المنارة، ومنها ما ينزل منعطفًا يمنة ويسرة كما تنزل الدواب من العقبة، ومنها ما ينزل مدليًا رجليه ضامًّا جناحيه أو مدليًا مرسلًا، وكل واحد من الطيور متناسب الجناحين من الطول والعرض والوزن والعدد، وفي كل جناح أربع عشرة طاقة ريش صلبة قصباتها مجوفة خفاف مصطفَّة من جانب ومتوازية من جانب، وتمامها طاقات أُخَر أقصر منها موفور الدثار من الجانبين يسد خللها طاقات، وعلى أبدان الطائر طاقات من الريش أقصر من ذلك، وهو لباس لها، وفي خللها طاقات أخرى صغار لينة الزيبر بينة الريف هي دثار لها، ووطاء وغطاء من الحر والبرد وزينة لها.

وأيضًا أكثر الطير ذنبه مناسب لجناحيه وعدده اثنتا عشرة طاقة أو أنقص.

ومن الطير ما ذنبه أوفر من جناحية كالطاووس، ومنها ما جناحاه وافران طويلان، وذنبه قصير كالكراكي.

ومن الطير ما ينقض عن فرخه البيض، وهو موفَّر عليه ريشه كالدُّرَّاج والدَّجاج، ومنها ما يكون معرًّى من الريش، ثم يخرج ريشه في أيام التربية كفراخ الحمام.

ومن الطير ما على ريشه دهن فلا يبتلُّ كطير الماء، ومنها ما يرمي بريشه في كل سنة ويخرج له غيره، ومنه ما بين أصابع رجليه غشاوات.

ومن طير الماء ما ينهض من الماء في طيرانه، ومنها ما يخرج من الماء إلى الأرض ثم يطير.

ومن الطير ما هو طويل الرجلين والجناحين والعنق والمنقار، ومنها قصير الرقبة طويل المنقار، وأكثر الطيور في طيرانه يجمع رجليه إلى صدره، ومنها ما يمدُّها إلى خلفه مع ذنبه كالكراكي واللقالق.

ومن الطير ما يكون طويل العنق يطوي عنقه في طيرانه، ومنها ما هو يمدُّه إلى قدَّامِه كمَالِك الحَزِين.

ومن الجوارح من الطير ما يقبض على الطيور في جو الهواء ويأخذها في طيرانها، ومنها ما إذا لحقها في طيرانها دخل من تحتها مستلقيًا على ظهره وقبض عليها فقَلَبَها، ومنها ما ينحطُّ عليها ويخطفها من وجه الأرض، ومنها ما يقع على رءوس الغزلان وحمير الوحش، وينشب مخالبه فيها ويرفرف بجناحيه على أعينها ويقتلها، والحمام الهادي يَعرِف سمت البلد المقصود بالنظر في جو الهواء إلى جريان الأنهار وميل الأودية ثم ينحو السوادات ويتيامن عن الجبال ويتياسر عنها وعن مهبِّ الرياح في تصاريفها.

وهكذا تَعرِف الطيور التي تشتي في البلاد الدفيئة وتصيف في البلدان الباردة مواقعَها، وأكثر الطيور لها جودة البصر والشم والذوق والسمع، وأما اللمس فدون ذلك من أجْل الريش الذي على جلودها والجوارح من الطيور كلها وافية الجناحين عريضة الأذناب شديدة الطيران قصيرة الرجلين والرقبة طويلة الأفخاذ قوية المخاليب معقربة المناقير، لا تقدر على الْتِقاط الحبوب، بل تأكل اللحمان وتصطاد غيرها.

ومن الطيور ما يلقط الحب ويأكل الثمر، أو يصطاد الحشرات والهوامَّ ويأكل النبت والحشيش.

ومن الطيور ما يطير بالليل والنهار ويسافر ويتعيش.

ومن الطيور ما يطير بالليل دون النهار، وأما أكثرها فبالنهار دون الليل.

ومن الطيور ما يأوي بالليل إلى رءوس الأشجار وبين أغصانها وأوراقها، ومنها ما يأوي إلى رءوس الجبال والتلال والحيطان والقلاع، ومنها ما يأوي إلى الآجام والدغل، ومنها ما يأوي إلى الثقب والأعشاش والأجحرة وتحت السقوف، ومنها ما يأوي إلى الجزائر بين الأنهار والمياه، ومنها ما يبيت في الصحاري وعلى الشطوط ويتحارس بالنُّوَب وعلى السواحل، ومنها ما يبيت في الجو.

ومن الطيور ما ينتبه بالأسحار ويترنَّم ويسبح، ومنها ما يُبكِّر في طلب القُوت، ومنها ما يُسفِر ويتصبَّح ويُضحِي، ثم يمرُّ وينصرف في طلب القوت «تغدو خماصًا وتروح بطانًا.»

ومن الطيور ما يفرِّخ وينشر بالغدوات، ومنها بالعشيات، ومنها في أنصاف النهار، ومنها في يوم الغيم، ومنها في يوم الصحو، ومنها في يوم المطر، ومنها في شدة الحر، ومنها في شدة البرد، ومنها في يوم الريح.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوحٍ منه — أن من الطيور ما إذا نهض واستقلَّ في جو الهواء في طيرانه يكون كشكل المثلَّث يبسط بجناحين وافيين منشورَيْن وذنب مثل ذلك مناسب لهما مثل الزرازير والخطاطيف، ومنها ما يكون كشكل المربع بجناحين وافيين منشورين وعنق طويل ممتد من قدام ورجلين طويلتين ممتدتين من خلف وذنب قصير مثل الكراكي واللقالق، ومن الحشرات ما يكون في طيرانه كشكل المسدَّس له أربعة أجنحة من الجانبين ورأس قدام وذنب خلف كالجراد والبقِّ والزنابير.

واعلم يا أخي بأنك إذا تأملتَ واعتبرتَ أبدان الطيور والحشرات وجدتَها كلَّها متزنة الجانبين طولًا وعرضًا، خفَّة وثقلًا، يمنة ويسرة، وخلفًا وقدامًا، ومن أجل هذا إذا نُتف من إحدى جناحيه طاقات ريش اضطرب في طيرانه كرَجُل أعرج في مِشْيَتِه إذا كانت إحدى رجلَيْه أطول والأخرى أقصر، ومن أجْل ذلك أيضًا متى نُتف من ذنبه طاقات ريش اضطرب في طيرانه مكبوبًا على رأسه كمثال زورق أو سمارية في الماء في ثقل صدرها وخفَّة كوائلها، ومن أجْل هذا صار بعض الطيور إذا مدَّ رقبته إلى قدَّام مدَّ رجلَيْه إلى خلف ليتوازن ثقل رجليه بثقل رقبته كالكراكي، ومن الطير ما يطوي رقبته إلى صدره ويجمع رجليه تحت بطنه في طيرانه كمَالِك الحزين، وعلى هذا المثال حكم سائر الطيور والحشرات في طيرانها.

(٣) فصل في بيان بدء الخلق

يُقال إنه لما توالدت أولاد بني آدم وكثرت وانتشرت في الأرض برًّا وبحرًا وسهلًا وجبلًا متصرِّفين فيها في مآربهم آمنين بعدما كانوا قَلِقِين خائفين مستوحشين من كثرة السباع والوحوش في الأرض، وكانوا يأوون في رءوس الجبال والتلال متحصِّنين فيها، وفي المغارات والكهوف ويأكلون من ثمر الأشجار وبُقُول الأرض وحب النبات، وكانوا يستترون بأوراق الشجر من الحر والبرد ويشتون في البلدان الدفيئة، ويصيفون في البلدان الباردة، ثم بَنَوْا في سهول الأرض الحصون والقرى والمدن وسكنوها.

ثم سخَّروا من الأنعام البقر والغنم والجِمَال، ومن البهائم الخيل والبغال والحمير وقيَّدوها وألْجَموها وصرَّفوها في مآربهم من الركوب والحمل والحرس والدراس وأتْعَبوها في استخدامها وكلَّفوها أكثر من طاقتها ومنعوها من التصرف في مآربها بعدما كانت

مخلَّيات في البراري والآجام والغياض تذهب وتجيء حيث أرادت في طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها، ونَفَرَتْ منهم بقيَّتُها من حُمُر الوحوش والغزلان والسباع والوحوش والطيور، بعدما كانت مستأنِسة متوالِفة مطمئِنَّة في أوطانها وأماكنها، وهربتْ من ديار بني آدم إلى البراري البعيدة والآجام والدحال ورءوس الجبال، وشمَّر بنو آدم في طلبها بأنواع من الحِيَل والقَنْص والشِّباك والفِخَاخ، واعتقد بنو آدم فيها أنها عبيد لهم، هربتْ وخلعتِ الطاعة وعصَتْ، ثم مضتِ السنون والأيام على ذلك إلى أن بعث الله محمدًا — صلَّى الله عليه وآله — ودَعَا الإنس والجن إلى الله ودِين الإسلام، فأجابتْه طائفة من الجن وحسُنَ إسلامُها، ومضتْ على ذلك مدة من الزمان.

ثم إنه وَلِيَ على بَنِي الجانِّ مَلِك منها يُقال له بيراست الحكيم لقبه شاه مردان، وكانت دار مملكته مردان في جزيرة يُقال لها صاغون في وسط البحر الأخضر مما يلي خط الاستواء، وهي طيِّبة الهواء والتربة فيها أنهار عذْبة وعيون جارية، وهي كثيرة الريف والمرافق وفنون الأشجار وألوان الثمار والرياض والأنهار والرياحين والأنوار، ثم إنه طرحتِ الرياح العاصفة في وقت من الزمان مركبًا من سفن البحر إلى ساحل تلك الجزيرة، وكان فيها قوم من التجار والصُّنَّاع وأهل العِلْم وسائر أغنياء الناس، فخرجوا إلى تلك الجزيرة وطافوا فيها، فوجدوها كثيرة الأشجار والفواكه والثمار والمياه العذبة والهواء الطيب والتربة الحسنة والبقول والرياحين وأنواع الزرع والحبوب مما تنبته أمطار السماء، ورأَوْا فيها أصناف الحيوانات من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والهوامِّ والحشرات أجمع، وهي كلها متآلِفة بعضها في بعض مستأنِسة غير متنافِرة.

ثم إن أولئك القوم استطابوا ذلك المقام، واستوطنوا وبنَوْا هنالك البنيان وسكنوا، ثم إنهم أخذوا يتعرَّضون لتلك البهائم والأنعام التي هناك يُسخِّرونها ليركبوها ويحملوا عليها أثقالَهم على المنوال الذي كانوا يفعلون في بلدانهم، فنفرت منهم تلك البهائم والأنعام التي كانت هناك، وهربتْ وشمَّروا في طلبها بأنواع من الحِيَل في أخذها، واعتقدوا فيها أنها عَبِيد لهم، هربتْ وخلعتِ الطاعة وعصتْ، فلمَّا علمتْ تلك البهائم والأنعام هذا الاعتقاد منهم فيها جمعتْ زعماءَها وخطباءَها، وذهبتْ إلى بيراست الحكيم مَلِك الجن وشكَتْ إليه ما لَقِيَتْ من جَوْر بني آدَمَ وتعدِّيهم عليها واعتقادهم فيها، فبعث ملك الجن رسولًا إلى أولئك القوم ودعاهم إلى حضرته، فذهب طائفة من أهل ذلك المركب إلى هناك، وكانوا نحوًا من سبعين رجلًا من بلدان شتَّى، فلما بلغه قدومُهم أَمَرَ لهم بطرح الإنزال والإكرام، ثم أوصلهم إلى مجلسه بعد ثلاثة أيام.

وكان بيراست الحكيم عادلًا كريمًا منصفًا سمحًا يَقرِي الأضياف ويؤْوِي الغُرَباء ويَرحَم المُبتَلَى ويمنع الظلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يبتغي بذلك غير وجه الله — تعالى — ومرضاته، فلما وصلوا إليه ورأَوْه على سرير ملكه حيَّوْه بالتحية والسلام، فقال لهم الملك على لسان الترجمان: ما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟ وما دعاكم إلى جزيرتنا من غير مُراسَلة قبلَ ذلك؟

قال قائل من الإنس: دعانا ما سمعنا من فضائل المَلِك، وما بلغنا من مناقبه الحِسَان ومكارم أخلاقه الجِسَام، وعدله وإنصافه في الأحكام، فجئناه ليسمع كلامنا ويتبيَّن حجَّتَنا، ويحكم بيننا وبين عبيدنا الآبقين، وخَوَلِنا المُنكِرين وِلايتَنا، والله يوفِّق المَلِك للصواب ويسدِّده للرشاد، وهو أحكم الحاكمين.

فقال الملك: قولوا ما تريدون، وبيِّنوا ما تقولون، قال زعيم الإنس: نعم أيها الملك، نقول: إن هذه البهائم والأنعام والسباع والوحوش أجمع عبيد لنا، ونحن أربابها وهي خَوَلٌ لنا ونحن مواليها، فمنها هاربٌ آبِقٌ عاصٍ، ومنها مُطيعٌ كارِهٌ منكِر للعبودية، قال المَلِك للإنسي: ما الدليل والحجة على ما زعمتَ وادَّعَيْتَ؟ قال الإنسي: نعم أيها الملك، لنا دلائل شرعية سمعية على ما قُلْنا، وحُجَج عقلية على ما ادَّعَيْنا، فقال الملك: هاتِ، أوْرِدْها، فقام الخطيب من الإنس من أولاد العباس، ورَقِيَ المنبر وخطب الخطبة وقال: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيِّين وإمام المرسلين وصاحب الشفاعة يوم الدِّين، وصلوات الله على ملائكته المقرَّبين، وعلى عباده الصالحين من أهل السموات والأرضين من المؤمنين والمسلمين، وجعلنا وإياكم منهم برحمته وهو أرحم الراحمين.

الحمد لله الذي خلق من الماء بَشَرًا، فجعله نسبًا وصهرًا، وخلق منه زوجة، وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وأكرم ذريَّتَهما وحمَلَهم في البرِّ والبحر، ورزقهم من الطيبات، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، وقال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، وآيات كثيرة في القرآن والتوراة والإنجيل تدل على أنها خُلقتْ لنا ومن أجلنا، وهي عبيد لنا، ونحن أربابها، وأستغفر الله لي ولكم.

فقال الملك: قد سمِعْتُم يا معشر البهائم والأنعام ما قال الإنسي من آيات القرآن، فاستدلَّ بها على دعواه، فأيُّ شيءٍ لكم وعندكم فيما قال؟ فقام عند ذلك زعيمُها وهو البغل، فقال: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد القديم السرمد الذي كان قبل الأكوان بلا زمان ولا مكان، ثم قال: كن، فكان نورًا ساطعًا أظهره من مكنون غيبه، ثم خلق من النور بحرًا من النار أُجَاجًا، وبحرًا من الماء رجراجًا، ذا أمواج ثم خلق من الماء والنار أفلاكا ذوات أبراج وشهابًا وهَّاجًا، والسماء بناها والأرض دحاها والجبال أرساها وجعل أطباق السموات مسكن العليين وفسحة الأفلاك مسكن الملائكة المقربين، والأرض وضعها للأنام وهو النبات والحيوان، ثم خلق الجان من نار السموم، وخلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين في قرار مكين، وجعل ذريته في الأرض يخلفون ليعمروها ولا يُخرِّبوها ويحفظون الحيوانات وينتفعون بها ولا يظلمونها ولا يجورون عليها، أستغفر الله لي ولكم.

ثم قال: ليس في شيء مما قرأ هذا الإنسي من آيات القرآن أيها الملك دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم، إنما هي آيات تذكار بإنعام الله عليهم وإحسانه، فقال لهم: ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كما قال سخَّر الشمس والقمر والسحاب والرياح، أفترى أيها الملك بأنها عبيد لهم ومماليك وأنهم أربابها؟

واعلم أيها الملك بأن الله خلق كل ما في السموات والأرض، وجعلها مسخَّرة بعضها لبعض، إما لجَرِّ منفعتِها إليها أو دفْع مضرَّتِها، فسخَّر الله الحيوان للإنسان بما هو لإيصال المنفعة إليها ودفع المضرة عنها، كما سنبيِّن بعد هذا الفصل، لا كما ظنوا وتوهَّموا، وما قالوه من الزور والبهتان بأنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم.

فصل

ثم قال زعيم البهائم: أيها الملك، كنا نحن وآباؤنا سكان الأرض قبل خلق آدم أبي البشر قاطنين في أرجائها، ظاعنين في فِجَاجِها، تذهب وتجيء كل طائفة منَّا في بلاد الله في طلب معائشها، وتتصرف في صلاح أمورها، كل واحد مقبل على شأنه في مكان موافق لمآربه من برية أو أجمة أو جبل أو ساحل أو تلال أو غياض أو رمال، كل جنس منَّا مؤالِف لأبناء جنسه مشتغلين باتخاذ نتاجنا وتربية الأولاد في طيب من العيش بما قدَّر الله لنا من المآكل والمشارب والتمتُّع آمنين في أوطاننا معافَيْنَ في أبداننا نسبِّح الله ونقدِّسه ونوحِّده ليلًا ونهارًا، ولا نعصيه ولا نشرك به شيئًا، ومضتْ على ذلك الدهور والأزمان.

ثم إن الله — جلَّ ثناؤه — خلق آدم أبا البشر، وجعله خليفة في الأرض وتوالد أولاده، وكثرت ذريته وانتشرت في الأرض برًّا وبحرًا وسهلًا وجبلًا، وضيَّقوا علينا الأماكن والأوطان، وأُخذ منَّا مَن أُخذ أسيرًا من الغَنَم والبَقَر والخَيْل والبِغَال والحَمِير، وسخَّروها واستخدموها وأتْعَبوها بالكدِّ والعَنَاء في الأعمال الشاقَّة من الحمل والركوب في السفر والحضر والشدِّ في الفدن والدواليب والطواحين بالقَهْر والغَلَبة والضرب والهوان وألوان من العذاب طول أعمارنا، فهرب منَّا مَن هرب في البراري والقفار ورءوس الجبال، وشمَّر بنو آدم في طلبنا بأنواع من الحِيَل، فمَن وقع منَّا في أيديهم شدُّوه بالغلِّ والقَيْد والقنص والذبح والسلخ وشقِّ الأجواف، وقطع المفاصل ونتف الريش وجزِّ الشعر والوبر، ثم نار الطبخ والوقد والتشوية وألوان من العذاب ما لا يبلغ الوصف كنهها.

ومع هذه الأحوال كلها لا يَرضَى منَّا هؤلاء الآدميون حتى ادَّعَوْا علينا أن هذا حق واجب لهم علينا، وأنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم، فمَن هرب منَّا فهو آبقٌ عاصٍ تارك الطاعة، كل هذا بلا حجة لهم علينا، ولا بيان ولا برهان إلا القهر والغلبة.

فلما سمع الملك هذا الكلام وفهم هذا الخطاب أمر مناديًا فنادى في مملكته، ودعا الجنود والأعوان من قبائل الجن من بني ساسان وبني خاقان وأولاد شيصبان والقضاة العدول والفقهاء من آل إدريس وبني بلقيس وقعد لفصل القضاء بين زعماء الحيوانات والجدليين من الإنس، ثم قال لزعماء الإنس: ما تقولون فيما تحكي هذه البهائم والأنعام من الجَوْر وما يشكون من الظلم والتعدِّي منكم؟

فقال زعيم الإنس: نقول: إن هؤلاء عبيدٌ لنا، ونحن مواليها، ولنا أن نتحكَّم عليها تحكُّم الأرباب ونتصرَّف فيها تصرُّف المُلَّاك كيف شاء، فمَن أطاعنا طاعتُه لله، ومَن عصانا وهَرب فمعصيتُه لله، فقال الملك للإنسي: إن الدَّعاوَى لا تصحُّ عند الحكام إلا بالبيِّنات، ولا تُقبل إلا بالحجَّة الواضحة فيما قلتَ وادَّعَيْتَ، فقال الإنسي: إن لنا حججًا عقلية ودلائل فلسفية تدل على صحة ما قلنا، قال الملك: ما هي؟ بيِّنْها لنعلمها! قال: نعم؛ حُسْن صورتنا، وتقويم بنية هيكلنا وانتصاب قامتنا وجَوْدة حواسِّنا ودقة تمييزنا وذكاء نفوسنا ورجحان عقولنا، كل هذا يدل على أنَّا أرباب وهم عبيد لنا، فقال الملك لزعيم البهائم: ما تقولون فيما قال الإنسي؟ قال: ليس شيء مما قال بدليل على ما ادَّعى هذا الإنسي، قال الملك: أليس انتصاب القيام واستواء الجلوس من شِيَم الملوك؟ وانحناء الأصلاب والانكباب على الوجوه من صفات العبيد؟! قال الزعيم: وفقك الله أيها الملك للصواب، وصرف عنك سوء الأمور، استمع لما أقول.

اعلم بأن الله — جلَّ ثناؤه — ما خلقهم على تلك الصورة ولا سوَّاهم على هذه البنية لتكون دلالة على أنهم أرباب، ولا خلقنا على هذه الصورة وسوَّانا على هذه البنية لتكون دلالة على أننا عبيد، ولكن لعلمه واقتضاء حكمته بأن تلك البنية هي أصلح لهم، وهذه أصلح لنا.

(٤) فصل في بيان علة اختلاف صور الحيوانات

بيان ذلك أن الله — عزَّ وجلَّ — لما خلق آدم وأولاده عُرَاةً بلا ريش على أبدانهم ولا وَبَر ولا صوف على جلودهم يَقِيهم من الحر والبرد، وجعل أرزاقهم من ثمر الأشجار ودثارهم من أوراقها، وكانت الأشجار منتصبة في جو الهواء، جعل أيضًا قامتهم منتصبة ليسهل عليهم تناول الثمر والورق منها، وهكذا لما جعل أرزاقنا من حشيش الأرض جعل بنية أبداننا منحنية ليسهل علينا تناول العشب من الأرض، فلهذه العلة جعل صورهم منتصبة، وصورنا منحنية، لا كما توهَّموا، فقال الملك: ما تقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؟ قال الزعيم: إن للكتب النبوية تأويلات وتفسيرات غير ما يدل عليه ظاهر ألفاظها، يعرفها العلماء الراسخون في العلم، فليسأل الملك أهل الذكر، قال الملك لحكيم الجن: ما معنى قوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؟ قال: في اليوم الذي خُلق فيه آدم كانت الكواكب في إشراقها وأوتاد البروج قائمة، والزمان معتدلًا كثير المواد، وكانت متهيِّئة لقبول الصور، فجاءت بنيته في أحسن صورة وأكمل هيئة، قال الملك: وكفى بهذه الفصيلة كرامة وافتخارًا. قال الحكيم: إن لها معنًى غير ما ذُكر وتبين ذلك بقوله: ﴿فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، يعني لم يجعلك طويلًا دقيقًا ولا قصيرًا لزيقًا؛ بل ما بين ذلك، فقال زعيم البهائم: ونحن كذلك فُعل بنا أيضًا، لم يجعلنا طوالًا ولا دقاقًا ولا قصارًا ولا صغارًا؛ بل بين ذلك، فنحن وهم في هذه الصورة والفضيلة والكرامة بالسوية، فقال الإنسي لزعيم البهائم: مِن أين لكم اعتدال القامة واستواء البنية وتناسب الصورة وقد نرى الجَمَل عظيم الجثة طويل الرقبة صغير الأذنين قصير الذنب، ونرى الفيل عظيم الخلقة طويل النابين واسع الأذنين صغير العينين، ونرى البقر والجاموس طويل الذنب غليظ القرون ليس له أنياب من فوق، ونرى الكبش عظيم القرنين كبير الألية ليس له لحية، والتيس طويل اللحية ليس له ألية مكشوف العورة، ونرى الأرنب صغير الجثة كبير الأذنين؟ وعلى هذا المثال والقياس نجد الحيوانات والسباع والوحوش والطيور والهوام مضطربات البنية غير متناسبة الأعضاء.

فقال زعيم البهائم: هيهات، ذهب عليك أيها الإنسي أحسنها، وخفي عليك أحكمها، أما علمتَ أنك لَمَّا عِبْتَ المصنوعَ فقد عِبتَ الصانع؟! أولا ترى وتعلم بأن هذه كلها مصنوعات الباري الحكيم، خلقها بحكمته لعلل وأسباب وأغراض لجر المنفعة إليها ودفع المضرة عنها، ولا يعلم ذلك إلا هو والراسخون في العلم؟ قال الإنسي: فخبِّرْنا أيها الزعيم إذا كنتَ حكيمَ البهائم وخطيبها، ما العلة في طول رقبة الجمل؟ قال: ليكون مناسبًا لطول قوائمه لينال الحشيش من الأرض ويستعين به على النهوض بحمله، وليبلغ مشفره إلى سائر أطراف بدنه فيحكَّها.

وأما خرطوم الفيل فعِوَض عن طول الرقبة وكبر أذنيه ليذبَّ البقَّ والذباب عمَّا في عينيه وفمه؛ إذ كان فمه مفتوحًا أبدًا لا يمكنه ضم شفتيه لخروج أنيابه منه، وأنيابه سلاح له يمنع بها السباع عن نفسه.

وأما كبر أذن الأرنب فهو من أَجْل أن تكون دثارًا لها ووطاءً وغطاءً في الشتاء والصيف؛ لأنه رقيق الجلد تَرِف البدن، وعلى هذا القياس نجد كل حيوان جعل الله — عزَّ وجلَّ — له من الأعضاء والمفاصل والأدوات بحسب حاجته إليه لجر المنفعة أو دفع المضرة، وإلى هذا المعنى أشار موسى — عليه السلام — بقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

وأما الذي ذكرتَ أيها الإنسيُّ من حسن الصورة وافتخرتَ به علينا، فليس فيه شيء من الدلالة على ما زعمتَ بأنكم أرباب، ونحن عبيد، فإذا كان حسن الصورة شيئًا مرغوبًا فيه عند أبناء الجنس من الذكور والإناث ليدعوهم ذلك إلى الجماع والسفاد والنتاج والتناسل لبقاء النسل، فإننا لا نرغب في محاسن إناثنا ولا إناثنا في محاسن ذكراننا، كما لا يرغب السود في محاسن البيض، ولا البيض في محاسن السود، وكما لا يرغب اللُّوَّاط في محاسن الجواري ولا الزُّناة في محاسن الغلمان، فلا فخرَ لكم علينا بمحاسن الصور أيها الإنسي.

(٥) فصل في بيان جودة الحواس في الحيوانات

وأما الذي ذكرتَه من جودة حواسكم ودقة تمييزكم وافتخرتم به علينا، فليس ذلك لكم خاصة دون غيركم من الحيوانات؛ لأن فيها ما هو أجود حاسة منكم وأدق تمييزًا، فمن ذلك الجَمَل فإنه مع طول قوائمه ورقبته وارتفاع رأسه من الأرض في الهواء يُبصِر ويرى موضع قدَمَيْه في الطرقات الوعرة والمسالك الصعبة في ظُلَم الليل ما لا يرى ولا يبصر

أحدكم إلا بسراج أو مشعل أو شموع، وترى الفرس الجواد يَسمَع وطء الماشي من البعد في ظلمة الليل، حتى إنه ربما نبَّه صاحبه من نَومِه بركضة رجليه حذرًا عليه مِن عدوٍّ أو سبع، وهكذا نجد كثيرًا من الحَمِير والبقر إذا سلك بها صاحبها طريقًا لم يسلكها قبلُ خلاها، ثم رجعتْ إلى مكانها ومعقلها وموضعها المألوف، فلا تَتِيه، وقد يوجد من الإنس مَن قد يسلك طريقًا دفعات ثم إنه يضلُّ فيه ويَتِيه، ونجد من الغنم والشاء ما يَلِد منها في ليلة واحدة عددًا كثيرًا وتسرح من الغد إلى الرعي وتروح بالعشي وتُخلى من الوثاق مائة من البهائم وأكثر، فيذهب كل واحد إلى أمه لا يُشكِل عليها أمهاتها ولا تشتبه، وكذلك أولادها على أمهاتها، والإنسي ربما يمرُّ به الشهر والشهران أو أكثر وهو لا يعرف والدته من أخته، ولا والده من أخيه، فأين وجود الحاسة ودقة التمييز الذي ذكرتَه وافتخرتَ به علينا أيها الإنسي؟!

وأما الذي ذكرتَه من رجحان العقول، فلسنا نرى له أثرًا أو علامة؛ لأنه لو كان لكم عقول راجحة لما افتخرتُم علينا بشيء ليس هو من أفعالكم ولا اكتساب منكم، بل هي مواهب من الله — جلَّ ذِكْرُه — لتعرفوا مواقع النعم وتشكروا له، ولا تعصوه، وإنما العقلاء يفتخرون بأشياء هي مِن أفعالهم من الصنائع المحكمة والآراء الصحيحة والعلوم الحقيقية والمذاهب المرضية والسُّنَن العادلة والطرق المستقيمة، ولسنا نراكم تفتخرون بشيء منها غير دعوى بلا حجة وخصومة بلا بينة.

(٦) فصل في بيان شكاية الحيوان من جَوْر الإنس

قال الملك للإنس: قد سمعتَ الجواب، فهل عندك شيء غير ما ذكرت؟ قال: نعم أيها الملك، هنالك مسائل أُخَر ومناقب غير ما ذكرتُ تدل على أنَّا أرباب وهم عبيد لنا؛ فمن ذلك بَيْعُنا وشراؤنا لها وإطعامنا وسقيانا لها، ونكسوها ونكفيها من الحر والبرد، وندفع عنها السباع أن تفترسها ونداويها إذا مرضت وننفق عليها إذا اعتلَّتْ، ونعلِّمها إذا جَهِلَتْ ونُخليها إذا أَعْيَتْ، ونُعرِض عنها إذا جُنَّتْ، كل ذلك إشفاقًا عليها ورحمة لها، وتحننًا عليها، وكل هذا من أفعال الأرباب بعبيدها والموالي بخولها.

قال الملك للزعيم: قد سمعتَ ما ذكر، فأيُّ شيءٍ عندك؟ أجب! قال زعيم البهائم: أما قوله: إنَّا نبيعها ونشتريها، فهكذا يفعل أبناء فارس بأبناء الروم، وأبناء الروم بأبناء فارس إذا ظَفِر بعضهم ببعض، أفترى أيهم العبيد وأيهم الموالي والأرباب؟! وكذلك يفعل أبناء الهند بأبناء السند، وأبناء السند بأبناء الهند، فأيهم الموالي وأيهم العبيد؟!

وهكذا يفعل أبناء الحبشة بأبناء النوبة، وأبناء النوبة بأبناء الحبشة، وكذلك يفعل أبناء الأعراب والأكراد والأتراك بعضهم ببعض، فأيهم — ليتَ شِعرِي! — العبيدُ وأيهم الموالي بالحقيقة؟! وهل هي أيها الملك العادل إلا دُوَل ونُوَب تدور بين الناس بموجبات أحكام النجوم والقرانات كما ذكر الله تعالى ذلك: وتلك الأيام نداولها بين الناس وما يعقلها إلا العالمون، وأما الذي ذكر بأنَّا نطعمها ونسقيها ونكسوها، وما ذكره من سائر ما يفعلون بنا، فليس ذلك شفقة علينا منهم ولا رحمة لنا، ولا تحننًا علينا ولا رأفةً بنا؛ بل مخافة أن نَهلِك فيخسرون أثماننا وتفوتهم المنافع منَّا من شرب ألباننا ودثارهم من أصوافنا وأوبارنا وأشعارنا وركوبهم ظهورنا وحملهم أثقالهم علينا، لا شفقةً ولا رحمةً كما ذكر، ثم تكلم الحمار، فقال الحمار: أيها الملك، لو رأيتَنا ونحن أُسارَى في أيدي بني آدم موقرة ظهورنا بأثقالهم من الحجارة والآجرِّ والتراب والخشب والحديد وغيرها، ونحن نمشي تحتها ونجهد بكدٍّ وعناء شديد وبأيديهم العصا والمقارع يضربون وجوهنا وأدبارنا بحنق وعنف وضجر وصخب، لرَحِمْتَنا ورَثَيْتَ لنا وبكيتَ علينا. أيها الملك، فأين الرحمة؟ وأين الشفقة والرأفة منهم علينا كما زعم هذا الإنسي؟! ثم تكلم الثور فقال: لو رأيتَنا أيها الملك ونحن أُسارَى في أيدي بني آدم مقرَّنين في فدانهم مشدودين في دواليبهم وأرحيتهم مغطَّاة وجوهنا مشدودة أعيننا وهم يضربوننا مع ذلك لرحمْتَنا ورثيتَ لنا وبكيتَ علينا، فأين الرحمة والشفقة والرأفة منهم علينا كما زعم هذا الإنسي؟!

ثم تكلم الكبش فقال: أيها الملك لو رأيتَنَا ونحن أُسارَى في أيدي بني آدم يأخذون صغار أولادنا من الجدي والحملان فيفرِّقون بينها وبين أمهاتها ليستأثروا بألباننا لأولادهم ويجعلوا أولادَنا مشدودة أرجلها وأيديها محمولة إلى المذابح والمسالخ جائعة عطشانة تَصِيح فلا تُرحم، وتصرخ وتستغيث فلا تُغاث، ثم نراها مذبوحة مسلوخة مشقوقة أجوافها مفرَّقة أعضاؤها ورءوسها وكروشها ومصارينها وأكبادها في دكاكين القصَّابين مقطَّعة بالسواطير مطبوخة في القُدُور مشوية في التَّنُّور، ونحن سكوت ولا نبكي ولا نشكو، وإنْ شَكَوْنا أو بكَيْنا لم نُرحَم، فأية رحمة وأية رأفة لهم علينا كما زعم هذا الإنسي؟!

ثم تكلم الجمل فقال: أيها الملك، لو رأيتَنا ونحن أُسارى في أيدي بني آدم مخزومة أنوفنا، بأيدي جمَّاليهم خطامنا، يجرُّوننا على كُرْه منَّا محمَّلة ظهورنا بأثقالهم نُقاد ونُساق في ظلم الليل في القفار والفلوات والمسالك الوعرة والحيوانات قائمة في أوطانها، ونحن نمشي بأثقالهم نصدم الصخور والحجارة والدكادك بأخفافنا مقرَّحة جنوبنا

وظهورنا من احتكاك أقتابنا، ونحن جِيَاع عِطَاش لرحمتَنا ورثيتَ لنا وبكيتَ علينا أيها الملك، فأين الرحمة والرأفة علينا كما زعم هذا الإنسي؟!

ثم تكلم الفيل فقال: لو رأيتَنا أيها الملك ونحن أُسارَى في أيدي بني آدم والقيود في أرجلنا والقلوس في رقابنا وكلاليب الحديد في أيديهم يضربون بها في أدمغتنا، يضربوننا يمنة ويسرة على كُرْه منَّا، مع كبر جثَّتنا وعظم خلقتنا وطول أنيابنا وشدة قوانا لا نقدر على دفْع ما نَكْرَه لرحمتَنا ورثيتَ لنا وبكيتَ علينا أيها الملك، فأين الرحمة؟ وأين الرأفة لهم علينا كما زعم هذا الإنسي؟!

ثم تكلم الفرس فقال: أيها الملك، لو رأيتَنا ونحن أسارى في أيدي بني آدم واللجم في أفواهنا والسروج على ظهورنا والبطرنجات والحزم مشدودة على أوساطنا والفرسان المدرعة على ظهورنا تزجُّ وتهجم بنا في الغبار عواري جياعًا وعطاشًا، والسيوف في وجوهنا والسهام في نحورنا والرماح في صدورنا، نخوض المياه ونسبح الدماء لرحمْتَنا ورثيتَ لنا وبكيتَ علينا أيها الملك.

ثم تكلم البغل فقال: لو رأيتنا أيها الملك ونحن أسارى في أيدي بني آدم والشكال في أرجلنا واللجم في أفواهنا والحكمات في أحناكنا والأقفال على فروجنا ممنوعين عن شهوات نتاجنا، والأكف على ظهورنا، وسفهاء الإنس من الساسة والركابة فوق ذلك، وبأيديهم العصي والمقارع يضربون وجوهنا وأدبارنا ويشتمونا بأقبح ما يقدرون عليه من الشتم والفحشاء بحنق وغيظ وسفاهة، حتى إنه ربما بلغ به السفه منهم أن يشتموا أنفسهم وأخَوَاتهم وأمَّهاتهم وبناتهم ويقولون: أَيْر الحمار في است مَن باعه واشتراه أو ملكه، يعني به صاحبه، كل ذلك راجع إليهم وهم به أولى.

فإذا فكَّرتَ أيها الملك فيما هم فيه من هذه الأوصاف من السفاهة والجهالة والفحشاء والقبيح من الكلام رأيتَ منهم عجبًا من قلة التحصيل لما هم فيه من الأحوال المذمومة والصفات القبيحة والأخلاق الرديئة والأعمال السيئة والجهالة المتراكمة، والآراء الفاسدة والمذاهب المختلفة، ثم لا يتوبون ولا هم يذَّكَّرون، ولا يتعظون بمواعظ أنبيائهم، ولا يأتمرون بوصية ربهم حيث يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْض إلا على الله رزقها﴾، وقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا

نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾.

فلما فرغ البغل من كلامه الْتَفَتَ الجمل إلى الخنزير فقال له: قُمْ وتكلَّم واذكر ما تَلقَوْن معشر الخنازير من جور بني آدم، واشكُ إلى الملك الرحيم، فلعله يرقُّ لنا ويرحمنا ويفك أسرنا من أيدي بني آدم، فإنكم من الأنعام.

فقال حكيم من حكماء الجن: لا لعمري، ليس الخنزير من الأنعام، بل من السباع؛ ألا ترى أن له أنيابًا ويأكل الجِيَف؟

وقال قائل آخَر من الجن: بل هو من الأنعام، ألا ترى أن له ظلفًا، ويأكل العشب والعلف؟ وقال الآخَر: لا، بل هو مركَّب من السباع والأنعام والبهائم، مثل الفيل والزرافة مركبة من الحمار والجمل.

ثم قال الخنزير للجمل: والله، ما أدري ما أقول! وعمَّن أشكو من كثرة اختلاف القائلين في أمرنا!

أما حُكَماء الجن فقد سمعتَ ما قالوا، وأما الإنس فهم أكثر اختلافًا في أمرنا وأبعد رأيًا ومذهبًا؛ وذلك أن المسلمين يقولون إنَّا ممسوخون ملعونون، ويستقبِحُون صورتَنَا ويستثقلون أرواحنا ويستقذرون لحومنا، ويتشاءمون من ذِكْرِنا، وأما أبناء الروم فيتنافسون في أكل لحومنا في قرابينهم ويتبرَّكون بها إلى الله.

أما اليهود فيُغضبوننا ويشتموننا ويلعنوننا من غير ذنب منَّا إليهم، ولا جنايةً عليهم، لكنْ لعداوة بينهم وبين النصارى، وأبناء الروم وأبناء الأرمن، فحُكْمنا عندهم كحكم البقر والغنم عند غيرهم يتبرَّكون بنا من خصب أبداننا وسمن لحومنا وكثرة نتاجنا وغزارة ألباننا.

وأما الأطباء من اليونانيين، فيتداوَوْن بشحومنا ويتواصفونها في أدويتهم وعلاجاتهم.

وأما ساسة الدواب فيُخالطوننا بدوابِّهم وعلفها؛ لأن حالها يصلح عندهم بمخالطتنا وشمِّها روائحَنا.

وأما الأساكفة والجرازون فيتنافسون في شعر أعرافنا ويتبادرون في نتْف أسلتنا في شدة حاجتنا إليها، فقد تحيَّرنا، لا ندري لَمن نشكر وممَّن نشكو وممَّن نتظلم؟!

فلما فرغ الخنزير من كلامه التفتَ الحمار إلى الأرنب، وكان واقفًا بين قوائم الجمل، فقال له: قمْ فتكلَّم، واذكر ما تلقَوْن معشر الأرانب من جور بني آدم! واشكُ إلى الملك الرحيم؛ لعله يرحمنا وينظر في أمرنا ويفك أسرنا من أيدي بني آدم!

فقال الأرنب: أمَّا نحن فقد هربنا من بني آدم وتركنا دخول ديارهم وأوينا إلى الدِّحال والغِياض، وسلِمْنا من شرورهم، ولكنَّا بُلِينا بالكلاب والخيل والجوارح ومعاونتهم لبني آدم علينا، وحملهم إلينا وطلبهم لنا ولإخواننا من الغزلان وحُمْر الوحوش وبقرها وإبلها والوعول الساكنة في الجبال اعتصامًا بها.

ثم قال الأرنب: أما الكلاب والجوارح وتعاونهم لبني آدم فهم معذورون في معاونة الإنس علينا، لما لها من النصيب في أكل لحومنا؛ لأنها ليست من أبناء جنسنا، بل من السباع.

أما الخيل فلأنها منَّا، معاشِرَ البهائم، وليس لها نصيب في أكل لحومنا، فما لها ومعاونة الإنس علينا لولا الجهالة وقلة المعرفة وقلة التحصيل للأمور والحقائق؟

فصل في بيان تفضيل الخيل على سائر البهائم وغيرها

قال الإنسي للأرنب: أقصِرْ! فقد أكثرتَ اللَّوْم والذمَّ للخيل، ولو علمتَ أنها خير حيوان سخَّرتْه الإنس لما تكلَّمتَ بهذا الكلام، قال الملك للإنسي: وما تلك الخيرية التي قلتَها؟ اذكرها! قال: خصال محمودة، وأخلاق مَرْضِيَّة، وسيرة عجيبة، من ذلك حُسْن صورتها وتناسُب أعضاء أبدانها، وبنية هيكلها، وصفاء لونها، وحسن شعرها، وسرعة عَدْوِها، وطاعتها لفارسها، كيف شاء وكيف أراد صرفَها انقادتْ له يمنة ويسرة وقدامًا وخلفًا في الطلب والهرب، وذكاء نفسها وجودة حواسِّها، وحُسْن آدابها، ربما لا تبول ولا تروث مادام راكبها عليها، ولا تحرِّك ذنَبَها إذا ابتلَّ شعر ذنبها؛ لئلا يصيب صاحبها، ولها قوة الفيل وتحمِل راكبها بخوذته وجوشنه وسلاحه، مع ما لها من السرج واللجام والتجافيف وآلة الحديد نحو ألف رطل عند سرعة العدو، ولها صبر الحمار عند اختلاف الطعن في صدرها ونحْرِها في الهيجاء وسرعة عدوها في الغارات والطلب كحملات السرحان، وتمشي كمشي السِّنَّوْر في التبختُر، وهرولة كذئب يتنقل، وعطفات أيضًا كعطفات جلمود الصخر إذا حطَّه السيل، ومبادرة للعَدْو في الرِّهان كمَن يطلب الحلبة، قال الأرنب: نعم، ولكنْ لها مع هذه الخصال المحمودة والأخلاق الجميلة عيبٌ كبير يغطِّي هذه الخصال كلها.

فقال الملك: ما هو؟ بيِّن لي! قال: الجهالة، وقلَّة معرفة بالحقيقة؛ وذلك أنه يعدو تحت صاحبه الذي لم يَرَهُ قطُّ في الهرب مثل ما يعدو تحت صاحبه الذي وُلِد في داره وتربَّى في منزله في الطَّلَب، ويحمل عدوَّ صاحبه إليه في طلَبِه كما يحمل صاحبه في طلب عدوِّه، وما مثله في هذه الخصال إلا كمثل السيف الذي لا روح فيه ولا حس ولا شعور

ولا معرفة، فإنه يقطع عنق صيقله كما يقطع عنق مَن أراد كسرَه وتعويجه وعيبه أنه لا يعرف الفرق بينهما.

ثم قال الأرنب: ومثل هذه الخصال موجودة في بني آدم، وذلك أن أحدهم ربما يُعادي والدَّيْه وصاحبَه وإخوانه وأقرباءه، ويكيدهم ويسيء إليهم مثل ما يفعله بالعدوِّ البعيد الذي لم يَرَ منه برًّا ولا إحسانًا قط، وذلك أن هؤلاء الإنس يشربون ألبان هذه الأنعام كما يشربون ألبان أمَّهاتهم، ويركبون ظهور هذه البهائم كما يركبون أكتاف آبائهم صغارًا، وينتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، ثم آخِرَ الأمْرِ يذبحونها ويسلخونها، أو يشقون أجوافها ويقطعون مفاصلها ويذيقونها نار الطبخ والشَّيِّ، ولا يرحمونها ولا يذكرون إحسانها إليهم، وما نالوا من فضلها وبركتها.

فلما فرغ الأرنب من لَوْمه الإنس والخيل وما ذكر من عيوبهم، قال الحمار: لا تُكثِر من اللوم، فإنه ما من أحد من الخلق أُعطِيَ فضائل ومواهب جمَّة إلا وقد حُرم ما هو أكثر منها، وما من أحد حُرم مواهب إلا وقد أُعطِيَ شيئًا لم يُعطَه غيره؛ لأن مواهب الله كثيرة لا يستوفيها كلها شخص واحد، ولا نوع ولا جنس واحد؛ بل فُرِّقت على الخلق طرًّا، فمُكثِر ومُقلٌّ، وما مِن شخص آثار الربوبية فيه أظْهَر إلا ورقُّ العبودية عليه أبْيَن، مثل ذلك نَيِّرا الفلك وهما الشمس والقمر، فإنهما لما أُعطِيا من مواهب الله حظًّا جزيلًا من النور والعظمة والظهور والجلالة حتى إنه ربما توهَّم قوم أنهما ربان إلهان لبيان آثار الربوبية فيهما حُرِما بدلَ ذلك التحرُّز من الكسوف ليكون دليلًا لأولي الألباب على أنهما لو كانا إلهين لما انكسفا، وهكذا حكم سائر الكواكب الفلكية لَمَّا أُعطِيَت الأنوار الساطعة والأفلاك الدائرة والأعمار الطويلة، حرمت التحرُّز من الاحتراق والرجوع والهبوط لتكون آثار العبودية عليها ظاهرة، وهكذا حكم سائر الخلق من الجن والإنس والملائكة، فما منها أحد أُعطِيَ فضائل جمَّة ومواهب جزيلة إلا وقد حُرم ما هو أكبر وأجلُّ، وإنما الكمال لله الواحد القهار العزيز الغفار الشديد العقاب، ومن أجْل ما ذكرنا قيل:

ولستَ بمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّه   على شعثٍ أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟

فلما فرغ الحمار من كلامه تكلم الثور وقال: لكن ينبغي لِمَن وفر حظُّه من مواهب الله — تعالى — أن يؤدِّي شكرَها، وهو أن يتصدَّق من فضل ما أُعطِي على مَن قد حُرم ولم يُرزَق منها شيئًا.

أما ترى الشمس لما وفر حظُّها جزيلًا من النور كيف تفيض من نورها على الخلق ولا تمُنُّ عليهم، وكذلك القمر والكواكب، كل واحد على قدره، وكان سبيل هؤلاء الإنس لما أعطوا من مواهب الله — تعالى — ما قد حُرم غيرهم من الحيوان أن يتصدَّقوا عليها ولا يمنون.

ولما فرغ الثور من كلامه ضجَّتِ البهائم والأنعام وقالت جميعًا: ارحمنا أيها الملك العادل الكريم، وخذْ بأيدينا وخلِّصْنا من جور هؤلاء الإنس الآدميين الظلمة، فالْتَفَتَ الملك عند ذلك إلى جماعة ممَّن حضر من حكماء الجن وعلمائهم فقال: ألا تسمعون شكاية هذه البهائم والأنعام وما يصفون من جور بني آدم عليها وظلمهم لها وتعدِّيهم عليها وقلة رحمتهم بها؟!

قالوا: قد سَمِعْنا كلَّ ما قالوا، وهو حقٌّ وصدق، ومُشاهَد منهم ليلًا ونهارًا لا يَخفَى على العقلاء ذلك، ومن أَجْل ذلك هربتْ بنو الجان من بين أيديهم وظهرانَيْهِم إلى البراري والقفار والمفاوز والفلوات ورءوس الجبال والتلال وبطون الأودية وسواحل البحار لما رأَوْا من قبيح أفعالهم وسوء أعمالهم ورداءة أخلاقهم، وتركت أن تأوي ديار بني آدم، ومع هذه الخصال كلها لا يتخلَّصون من سوء ظنهم ورداءة أخلاقهم واعتقادهم في الجن، وذلك أنهم يقولون ويعتقدون أن للجن في الإنس نزغات وخبطات وفزعات في صبيانهم ونسائهم وجُهَّالهم، حتى إنهم يتعوَّذون من شر الجن بالتعاويذ والرُّقَى والأحراز والتمائم وما شاكلها، ولم يَرَوْا قط جنيًّا قتل إنسيًّا أو جرحه أو أخذ ثيابه أو سرق متاعه أو نقب داره أو فتق جيبه أو بتر كمَّه أو فشَّ قفل دكَّانه أو قطع على مسافر أو خرج على السلطان أو أغار غارة أو أخذ أسيرًا، وكل هذه الخصال توجد فيهم، ومنهم بعضًا لبعض ليلًا ونهارًا، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

فلما فرغ القائل من كلامه نادى منادٍ: ألا أيها الملأ، أمسيتم! فانصرفوا إلى مساكنكم مكرمين، لتعودوا غدًا آمنين.

(٧) فصل في بيان منفعة المشاورة لذوي الرأي

ثم إن الملك لما قام من المجلس خلا بوزيره بيراز، وكان رجلًا عاقلًا رزينًا فيلسوفًا حكيمًا، فقال له الملك: قد شاهدتَ المجلس وسمعتَ ما جرى من هؤلاء الطوائف الوافدين من الكلام والأقاويل، وعلمتَ فيما جاءوا له، فبماذا تُشِير أن نفعل بهم؟ وما الرأي الصواب الذي عندك؟

قال الوزير: أيَّد الله الملك وسدَّده وهداه الرشاد، الرأي الصواب عندي أن يأمر الملك قُضاة الجن وفقهاءها وحكماءها وأهل الرأي أن يجتمعوا عنده ويستشيرهم في هذا الأمر، فإن هذه قصة عظيمة وخطب جليل وخصومة طويلة، والأمر فيها مُشكِل جدًّا، والرأي مشترك، والمشاورة تزيد ذوي الرأي الرصين بصيرة، وتُفيد المتحيِّر رشدًا، والحازم اللبيب معرفة ويقينًا.

فقال الملك: نِعْمَ ما رأيتَ، وصوابٌ ما قلت، ثم أمر الملك بعد ذلك بإحضار قضاة الجن من آل جرجيس والفقهاء من بني ناهيد، وأهل الرأي من بني بيران الحكيم، والحكماء من آل لقمان، وأهل التجارب من بني هامان، والحكام والفلاسفة من بني كيوان، وأهل الصرامة والعزيمة من آل بهرام، فلما اجتمعوا عنده خلا بهم، ثم قال لهم: قد علمتم وُرُود هذه الطوائف إلى بلادنا، ونزولهم بساحتنا، ورأيتم حضورهم مجلسنا، وسمعتم أقاويلهم ومناظراتهم وشكاية هذه البهائم الأسيرة من جور بني آدم، وقد استجاروا بنا واستذمُّوا بذمامنا، وتحرَّموا بطعامنا، فماذا ترون؟ وما الذي تشيرون أن نفعل بهم؟ قال رأس الفقهاء من أهل ناهيد: بسط الله يد الملك بالقدرة، ووفقه للصواب، أما الرأي عندي أن يأمر الملك هذه البهائم أن يكتبوا قصتهم، ويذكروا فيها ما يَلْقَوْن من جور بني آدم ويأخذون فيها فتاوى الفقهاء، فإن في هذا خلاصًا لهم ونجاة من الظلم، فإن القاضي سيحكم لهم إمَّا بالبيع أو بالعتق أو بالتخفيف والإحسان إليهم، فإن لم يفعل بنو آدم ما حكم به، وهربت هذه البهائم منهم، فلا وِزْرَ عليها، فقال الملك للجماعة: ماذا تَرَوْن فيما قال وأشار؟ فقالوا: صوابًا ورشادًا، ثم أشار غير صاحب العزيمة من آل بهرام، فإنه قال: أرأيتم إنِ استباعتْ هذه البهائم وأجابتْها بنو آدَم إلى ذلك، مَن ذا الذي يَزِن أثمانها؟ قال الفقيه: المَلِك، قال: مِن أين؟ قال: مِن بيت مال المسلمين من الجن، قال صاحب الرأي: ليس في بيت المال ما يَفِي بأثمان هذه البهائم، وخصلة أخرى: أن كثيرًا من بني آدم لا يرغبون في بيعها لشدة حاجتهم إليها واستغنائهم عن أثمانها؛ مثل الملوك والأشراف والأغنياء، وهذا أمر لا يتم، فلا تُتعِبوا أفكارَكم في هذا، فقال الملك: فما الرأي الصواب عندك؟ قل لنا. قال: الصواب عندي أن يأمر الملك هذه البهائم والأنعام الأسيرة في أيدي بني آدم أن تُجمِع رأيَها وتهرب كلها في ليلة واحدة، وتبعد من ديار بني آدم كما فعلت حُمُر الوحْش والغزلان والوحوش والسباع وغيرها، فإن بني آدم إذا أصبحوا لم يجدوا ما يركبون ولا ما تحمل أثقالهم امتنعوا عن طلبها لبُعْد المسافة ومشقَّة الطريق، فيكون هذا نجاةً لها وخلاصًا من جور بني آدم، فعزم الملك على هذا

الرأي، ثم قال لَمَن كان حاضرًا: ماذا تَرَوْن فيما قال وأشار؟ قال رئيس الحكماء من آل لقمان: هذا عندي أمرٌ لا يتم، فلا تُتعِبوا أنفسَكم، فهو بعيد المرام؛ لأن أكثر هذه البهائم لا تكون بالليل إلا مقيدة أو مُغلَّلة، والأبواب عليها مغلقة، فكيف يتسنَّى لها الهرب في ليلة واحدة؟!

قال صاحب العزيمة: يبعث الملك تلك الليلة قبائل الجن يفتحون لها الأبواب ويحلُّون عُقُلَها وأوثاقها، ويُخبِلون حرَّاسها إلى أن تبعد البهائم، واعلم أيها الملك بأن لك في هذا أجرًا عظيمًا، وقد محضتُ لك النصيحة لما أدركني من الرحمة لها، وإن الله — تعالى — لما علم من الملك حسن النية وصحة العزيمة، فإنه يُعينه ويؤيِّده وينصره إذا شكر نعمته بمعاونة المظلومين، وتخليص المكروبين، فإن في بعض كتب الأنبياء — عليهم السلام — مكتوبًا يقول الله عز وجل: أيها الملك، إنِّي لم أسلِّطْك لتجمع المال وتتمتع وتشتغل بالشهوات واللذات، ولكن لتردَّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردُّها ولو كانت من كافر، فعزم الملك إلى ما أشار به صاحب الرأي، ثم قال لَمَن حوله من الحضور: ماذا تَرَوْن فيما قال؟ قالوا: محَّض النصيحة وبذل المجهود، فصدَّقوا رأيَه جميعًا غير حكيم من آل كيوان، فإنه قال: بصَّرك الله أيها الملك خفِيَّات الأمور، وكشف عن بصرك مشكلات الأسباب والدهور، إن في هذه الأسباب والعمل خَطْبًا جليلًا لا تؤمن غائلة عاقبته، ولا يُستدرَك إصلاح ما فات منه، ولا ما فرط، فقال الملك: عرِّفنا يا حكيم ما الرأي؟ وما الذي يُخاف ويُحذر؟ بيِّن لنا لنكون على علم وبصيرة، قال: نعم، أرأيتَ أيها الملك إن تمَّ ما أُشير به عليك من وجْه نجاة هذه البهائم من أيدي بني آدم وهربها من أيديهم، أليس بنو آدم من الغد يُصبِحون وقد رَأَوْا حادثًا عظيمًا من فرار هذه البهائم وهربها من ديارهم فيعلمون يقينًا بأن ذلك ليس من فعل البهائم ولا من تدبير الإنس، بل لا يشكُّون بأن ذلك من فعل الجن وحيلتهم! قال الملك: لا شك فيه، قال: أليس بعد ذلك كلما فكَّر بنو آدم فيما فاتها من المنافع والمرافق بهربها منهم امتلأت حزنًا وغيظًا وغمًّا وأسفًا على ما فاتها وحقدت على بني الجان عداوة وبغضًا، وأضمرت لهم حيلًا ومكائد ويطلبونهم كل مطلب، ويرصدونهم كل مرصد، ويقع بنو الجان عند ذلك في شغل وعداوة ووَجَل كانوا في غنًى عنه.

وقد قالت الحكماء: إن اللبيب العاقل هو الذي يُصلِح بين الأعداء، ولا يَجلِب إلى نفسه عداوة، ويجر المنافع إلى غيره ولا يضر نفسه، قالت الجماعة: صدق الحكيم الفيلسوف الفاضل، ثم قال القائل من الحكماء: ما الذي يُخاف ويُحذر من عداوة الإنس لبني الجان

أيها الحكيم أنْ ينالوهم من المكاره، وقد علمتَ بأن الجان أرواح خفيفة نارية تتحرك علوًّا طبعًا، وبنو آدم أجساد أرضية ثقيلة تتحرك بالطبيعة سفلًا، ونحن نراهم ولا يَرَوْنا، ونسير فيهم ولا يُحِسُّون بنا، ونحن نُحيطهم وهم لا يمسوننا، فأي شيء يُخاف منهم علينا أيها الحكيم؟ فقال له الحكيم: هيهات، ذهب عنك عظامها، وخفي عليك أجسامها، أما علمتَ أن بني آدم وإن كانت لهم أجساد أرضية ثقيلة؛ فإن لهم أرواحًا فلكية ونفوسًا ناطقة ملكية بها يفضلون عليكم ويمتازون عنكم؟! واعلموا أن لكم فيما مضى من أخبار القرون الأولى معتبرًا ومختبرًا، وفيما جرى بين بني آدم وبين بني الجان في الدهور السالفة دليلًا واضحًا، فقال الملك: أخبرنا أيها الحكيم كيف كان؟ وحدِّثْنا بما جرى من الخطوب، وكيف تم ذلك؟

(٨) فصل في بيان العداوة بين بني الجان وبين بني آدم وكيف كانت

قال الحكيم: نعم، إنَّ بين بني آدم وبني الجان عداوة طبيعية، وعصبية جاهلية، وطباعًا متنافرة يطول شرحها، قال الملك: اذكرْ منها طرفًا، وابتدِئ من أوَّله، قال الحكيم: فاعلم أن بني الجان كانتْ في قديم الأيام والأزمان قبل آدم أبي البشر — عليه السلام — سكان الأرض وقاطنيها، وكانوا قد طبَّقوا الأرض برًّا وبحرًا، سهلًا وجبلًا، فطالَتْ أعمارُهم وكثرت النعمة لديهم، وكان فيهم المُلْك والنُّبُوَّة والدِّين والشريعة، فطَغَتْ وبَغَتْ وتركتْ وصية أنبيائها وأكثرتْ في الأرض الفساد، فضجَّتِ الأرض ومَن عليها من جورهم، فلما انقضى الدور واستؤنف القِرَان أرسل الله — تعالى — جندًا من الملائكة نزلت من السماء فسكنتِ الأرض، وطردتْ بني الجان إلى أطراف الأرض منهزمة، وأخذت سبيًا كثيرًا منها، وكان فيمن أُخذ أسيرًا عزازيل إبليس اللعين فرعون آدم، وهو إذ ذاك صبيٌّ لم يُدرِك.

فلما نشأ مع الملائكة تعلَّم من علمها وتشبَّه بها في ظاهر الأمر، وأخذ من رسومه وجوهره غير رسومها وجوهرها، ولما طالتِ الأيام صار رئيسًا فيها آمرًا ناهيًا متبوعًا حينًا ودهرًا من الزمان والدهر، فلما انقضى الدور واستؤنف القِرَان أوْحَى الله إلى أولئك الملائكة الذين كانوا في الأرض فقال لهم: إني جاعلٌ في الأرض خليفة من غيركم، وأرفعكم إلى السماء»، فكرهَتِ الملائكة الذين كانوا في الأرض مفارقة الوطن المألوف، وقالتْ في مراجعة الجواب: أتجعلُ فيها مَن يُفسِد فيها ويسفك الدماء كما كانت بنو الجان، ونحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك؟! قال: «إني أعلم ما لا تعلمون؛ لأنِّي آلَيْتُ على نفسي أنْ لا أترك على وجه الأرض أحدًا من الملائكة، ولا من الإنس ولا من سائر الحيوان»، ولهذا

اليمين سرٌّ قد بينَّاه في موضع آخَر، فلما خلق الله — تعالى — آدم وسوَّاه ونفخ فيه من روحه، وخلق زوجته حواء أَمَرَ الملائكة الذين كانوا في الأرض بالطاعة، فانقادتْ لهما جميعًا ما عدا عزازيل، فإنه أَنِفَ وتكَبَّر وأخذتْه الحَمِيَّة حميَّة الجاهلية والحسد لما رأى أن رياسته قد زالتْ ويحتاج أن يكون تابعًا بعدما كان متبوعًا، ومرءوسًا بعدما كان رئيسًا، فأمر أولئك الملائكة أن يصعدوا بآدم عليه السلام فأدخلوه الجنة، وهي بستان من الشرق على رأس جبل الياقوت الذي لا يقدر أحد من البشر أن يصعد هنالك وهي طيبة التربة معتدلة الهواء شتاءً وصيفًا، ليلًا ونهارًا كثيرة الأنهار مخضرة الأشجار مفننة الثمار والفواكه والرياض والرياحين والأنهار والأزهار كثيرة الحيوانات غير المؤذية والطيور الطيبة الأصوات اللذيذة الألحان والنغمات، وكان على رأس آدم وحواء شعر طويل مدلًّى كأحسن ما يكون على الجواري والأبكار، يبلغ قدميهما ويستر عورتيهما، وكان دثارًا لهما وسترًا لهما وزينة وجمالًا، وكانا يمشيان على حافات تلك الأنهار، ويشمَّان من الرياحين والأزهار، ويأكلان من ثمار تلك الأشجار ويشربان من مياه تلك الأنهار بلا تعبٍ من الأبدان، ولا عناءٍ من النفوس، ولا مشقة من كدٍّ الحرث والنسل والزرع والسقي والحصاد والدراس والطحن، والخبز والغزل والنسج والخياطة والغسل، وما اليوم أولادهما به مبتلَوْن من شقاوة أسباب المعاش في هذه الدنيا، وكان حكمهما في تلك الجنة حكم الحيوانات التي هناك مستودعين مستريحين متلذِّذين، وكان الله — تعالى — أَلْهَمَ آدم أسماء تلك الأشجار والثمار والرياحين وأسماء تلك الحيوانات التي هناك.

فلما نطق آدم سأل الملائكة عنها، فلم يكن عندها جواب، فغدا عند ذلك آدم معلِّمًا يُعرِّفها أسماءها ومنافعها ومضارَّها، فانقادت الملائكة لأمره ونهيه لما تبيَّن لها فضله عليها.

ولَمَّا علم عزازيل ذلك ازْداد بُغْضًا وحسدًا لهما بالمكر والخديعة والحِيَل والدغل والغِشِّ، ثم أتاهما بصورة الناصح فقال لهما: لقد فضَّلَكما ربكما بما أنعم به عليكما من الفصاحة والبيان، ولو أكلتما من هذه الشجرة، لازددتما علمًا وبقيتما ها هنا خالدين آمنين لا تموتان، فاغترَّا بقوله لَمَّا حلف لهما: إني لكما لمن الناصحين، وحملهما الحِرصُ، فتسابقا وتناولا ما كان منهيَّيْن عنه.

فلما أكلا منها تناثرتْ شعورهما وانكشفتْ عوراتهما وبقيا عريانين، وأصابهما حر الشمس فاسودَّتْ أبدانهما وتغيَّرتْ ألوان وجوههما، ورأتِ الحيوان حالهما فأنكرتْهما ونفرَتْ منهما واستوحشَتْ من سوء حالهما، وأمر الله — تعالى — الملائكة أنْ أخرِجوهما

من هناك، فرَمَوْهما إلى أسفل الجبل، فوقعا في برِّيَّة قفراء، لا نبت فيها ولا ثمر، وبقيا هناك زمانًا طويلًا يبكيان وينوحان حزنًا وأسفًا على ما فاتهما نادمين على ما كان منهما.

ثم إن رحمة الله — تعالى — تداركتْهما، فتاب الله — تعالى — عليهما، وأرسل ملكًا يعلِّمهما الحَرْث والزَّرْع والدِّرَاس والحَصَاد والطَّحْن والخَبْز والغَزْل والطَّبْخ والخياطة واتخاذ اللباس.

ثم لَمَّا توالدا وتناسلا وكثرت ذريتهما خالَطَهم أولاد بني الجان، وعلَّموهم الصنائع والحرث والغرس والبنيان والمنافع والمضارَّ وصادقوهم، وتودَّدوا إليهم وعاشروهم مدة من الزمان بالحُسْنى، ولكن كلما ذكر بنو آدم ما جرى على أبيهم من كيد عزازيل وعداوته لهم امتلأتْ قلوب بني آدم غيظًا وحقدًا على بني الجان، فلما قتل قابيل هابيل اعتقدتْ أولاد هابيل بأن ذلك من تعليم بني الجان، فازدادوا غيظًا وعداوة، وطلبوهم كل مطلب واحتالوا عليهم بكل حيلة من العزائم والرُّقَى والمَنَادِل والدخن ودخان النفط والكبريت والحبس في القوارير والعذاب بألوان الدخان والبخارات المؤذية لأولاد بني الجان المنفِّرة لهم، المُشَتِّتة لأغراضهم، فكان ذلك دأبهم إلى أن بعث الله إدريس النبي — عليه السلام — وهو هرمس بلغة الحكماء، فأصلح بين بني الجان وبين أولاد آدم — عليه السلام — بالدِّين والشريعة والإسلام والملة وتراجعت بنو الجان إلى ديار بني آدم وخالطوهم وعاشوا فيها معهم بخير إلى أيام الطوفان، وبعد ذلك إلى أيام إبراهيم، فلما طُرح في النار اعتقد بنو آدم بأن تعليم المنجنيق كان من بني الجان لنمرود الجبار، فلما طرح إخوة يوسف — عليه السلام — أخاهم في الجُبِّ نُسب ذلك إلى نزغات الشيطان من أولاد الجان.

فلما بعث الله موسى — عليه السلام — أصلح بين بني الجان وبني إسرائيل بالدِّين والشريعة، ودخل كثير من الجن في دين موسى عليه السلام.

فلما كان أيام سليمان بن داود — عليهما السلام — شيَّد الله ملكه وسخَّر له الجن والشياطين، وغلب سليمان — عليه السلام — على ملوك الأرض، افتخرت الجن على الإنس بأن ذلك كان من معاونة الجن لسليمان وقالت: لولا معاونة الجن لسليمان كان حكمه حكم أحد ملوك بني آدم، وكانت الجن تُوهِم الإنس أنها تعلم الغيب.

فلما كان موت سليمان — عليه السلام — والجن في العذاب المُهِين لم تشعر بموته، فتبيَّن أنها لو كانتْ تعلم الغيب ما لبثوا في العذاب المهين.

وأيضًا لما جاء الهدهد بخبر بلقيس وقال سليمان — عليه السلام — ما قال للملأ من الجن والإنس: أيكم يأتيني بعرشها؟ افتخرتِ الجن، قال عفريتٌ من الجن وهو أضطر بن مايان من آل كيوان: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك؛ أي مجلس الحكمة، قال سليمان: أريد أسرع من هذا، قال الذي عنده علم من الكتاب: «أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك»، وهو آصف بن برخيا.

فلما رآه مستقرًّا عنده خرَّ سليمان — عليه السلام — ساجدًا لله — تعالى — وتبيَّن فضْل الإنس على الجن، وانقضى المجلس وانصرفت الجن من المجلس من هناك خجلين منكِّسين رءوسهم وغوغاء الإنس يتغطغطون في أثرهم، ويستقفون أثرهم شامتين بهم.

فلما جرى ما ذكرتُه هربتْ طائفة من الجن من سليمان، وخرج عليهم خارج منهم، فوجَّه سليمان — عليه السلام — في طلبهم من جنوده، وعلَّمهم كيف يأخذونهم بالرُّقَى والعزائم والكلمات والآيات المنزَّلات، وكيف يحسبونهم بالمنادل، وعمل في ذلك كتابًا وُجد في خزانته بعد موته، وشغل سليمانُ — عليه السلام — طغاة الجن بالأعمال الشاقَّة إلى أن مات.

ثم لما بُعث المسيح — عليه السلام — دعي الخلق من الجن والإنس إلى الله — تعالى عزَّ وجلَّ — ورغَّبهم في لقائه، وبيَّن لهم طريق الهدى، وعلَّمهم كيف الصعود إلى ملكوت السموات، فدخل في دينه طوائف من الجن وترهَّبتْ وارتقتْ إلى هناك، واستمعتْ من الملأ الأعلى الأخبار، وألقتْ إلى الكهنة.

فلما بعث الله محمدًا — صلى الله عليه وآله — مُنعتْ من استراق السمع، وقالت: «لا ندري أشرٌّ أُريد بمَن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا؟» ودخلت قبائل من الجن في دينه وحسن إسلامُها وانصلح الأمر بين بني الجان وبين المسلمين من أولاد آدم — عليه السلام — إلى يومنا هذا.

ثم قال الحكيم: يا معشر الجن! لا تتعرَّضوا لهم ولا تفسدوا الحال بينكم وبينهم، ولا تحرِّكوا الأحقاد الساكنة، ولا تثيروا الأضغان الكامنة والبغضاء والعداوة القديمة المركوزة في الطباع، والجِبِلَّة، فإنها كالنار الكامنة في الأحجار تَظهَر عند احتكاكها، فتشتعل بالكباريت، فتحترق المنازل والأسواق، ونعوذ بالله من ظفر الأشرار ودولة الفُجَّار والعار والبوار، فلما سمع الملك والجماعة هذه القصة العجيبة أطرقتْ مفكِّرة فيما سمعتْ.

ثم قال الملك الحكيم: فما الرأي الصواب عندك في أمر هذه الطوائف الواردة المستجيرة بنا؟ وعلى أي حال نصرفهم من بلادنا راضين بالحكم الصواب؟

قال الحكيم: الرأي الصواب لا يسنح إلا بعد التثبُّت والتأنِّي بالفكْر والروِيَّة والاعتبار بالأمور الماضية، والرأي عندي أن يجلس الملك غدًا في مجلس النظر ويحضر الخصوم ويسمع عنهم ما يقولون من الحجة والبيان، ليتبيَّن له على مَن يتوجَّه الحُكْم، ثم يدبِّر الرأي بعد ذلك.

قال صاحب العزيمة: أرأيتم إنْ عجزتْ هذه البهائم عن مقاومة الإنس في الخطاب بقصورها عن الفصاحة والبيان، واستظهرت الإنس عليها بذرابة ألسنتها وجودة عبارتها وفصاحتها، أترى أن تبقَى هذه البهائم أسيرة في أيديهم ليسوموها سوء العذاب دائمًا؟ قال: لا، ولكن تَصِير هذه البهائم في الأسْر والعبودية إلى أن ينقضي دور القِرَان، ويُستَأْنَف نشوء آخَر، ويأتي الله لها بالفرج والخلاص كما نجَّى آل إسرائيل من عذاب فرعون، وكما نجَّى آل داود من عذاب بختَ نصر، وكما نجَّى آل حِمْيَر من عذاب آل تُبَّع، وكما نجَّى آل ساسان من عذاب اليونان، وكما نجَّى آل عمران من عذاب أزدشير.

فإن أيام هذه الدنيا دُوَل بين أهلها، تدور بإذن الله — تعالى — وسابِق علمه ونفاذ مشيئته بموجبات أحكام القرانات والأدوار في كل ألف سنة مرة، أو في كل اثنتي عشر ألف سنة مرة، أو في كل ستة وثلاثين ألف سنة مرة، أو في كل ثلاثمائة ألف وستين ألف سنة مرة، أو في كل يوم مقداره خمسين ألف سنة مرة، فاعلم جميع ذلك.

(٩) فصل في بيان كيفية استخراج العامة أسرار الملوك

فنقول: اعلم أن الملك لما خلا بوزيره ذلك اليوم اجتمعتْ جماعة الإنس في مجلسهم، وكانوا سبعين رجلًا من بلدان شتَّى، فأخذوا يرجمون الظنون، فقال قائل منهم: قد رأيتم وسمعتم ما جرى اليوم بيننا وبين هؤلاء عبيدنا من الكلام الطويل، ولم تنفصل الحكومة فترى أي شيء رأى الملك في أمرنا؟ فقالوا: لا ندري، ولكن نظن أنه قد لحق الملك من ذلك ضَجَرٌ وشغل قلب، وأنه لا يجلس غدًا للحكومة بيننا وبينهم، قال الآخر: لكنْ أظن أنه يخلو غدًا مع وزيره ويشاوره في أمرنا، قال الآخر: بل يجمع غدًا الفقهاء والحكماء ويشاورهم في أمرنا، قال الآخر: ترى ما الذي يُشيرون به في أمرنا، فأظن أن الملك حسن الرأي فينا، ولكنْ أخاف أن الوزير ربما يَمِيل علينا ويَحِيف في أمرنا، قال الآخر: أمرُ الوزير سهل، نحمل إليه شيئًا من الهدايا يَلِين جانبُه ويَحسُن رأيُه، وقال الآخر: ولكنْ أخاف من شيء آخر، قالوا: وما هو؟ قال: فتاوى الحكماء والفقهاء وحكم الحاكم، قال: هؤلاء أمرهم أيضًا سهل نحمل إليهم شيئًا من التُّحَف والرشوة فيحسن

رأيهم فينا ويطلبون لنا حيلًا فقهية، ولا يُبالون بتغيير الأحكام، ولكن بليتنا والذي نخاف منه صاحب العزيمة فإنه صاحب الرأي والصواب والصرامة صلب الوجه وَقِح لا يُبالِي بأحد، فإن استشاره أخاف أن يُشِير عليه بالمعاونة لعبيدنا علينا ويعلمه كيف ينتزعها من أيدينا.

وقال آخر: القول كما ذكرتَ، ولكنْ إنِ استشار الملك الفلاسفة والحكماء يُخالِفونه في الرأي؛ فإن الحكماء إذا اجتمعتْ ونظرتْ في الأمور سَنَحَ لكل واحد منهم وجه من الرأي غير الذي يسنح للآخر فيختلفون فيما يُشيرون به، ولا يكادون يجتمعون على رأي واحد.

وقال آخر: أرأيتم إنِ استشار الملك القضاة والفقهاء، ماذا يُشيرون به علينا في أمرنا؟ قال الآخر: لا تخلو فتاوى الفقهاء وحكم القضاة من أحد ثلاثة وجوه: إما عتقُها وتخليتُها من أيدينا أو بيعُها وأخذ أثمانها أو التخفيفُ عنها والإحسان إليها، ليس في حكم الشريعة وأحكام الدين غير هذا.

وقال آخر: أرأيتم إنِ استشار الملك الوزير في أمرنا ماذا يشير عليه؟

ليتَ شعري! قال قائل منهم: أظنه سيقول: إن هذه الطوائف قد نزلوا بساحتنا واستذمُّوا بذمامنا واستجاروا بنا وهم مظلومون ونصرة المظلوم واجبة على الملوك المقسطين؛ لأنهم خلفاء الله في أرضه ملَّكهم على عباده وبلاده ليحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، ويعينوا الضعفاء ويرحموا أهل البلاء، ويقمعوا أهل الظلم، ويجبروا الخلق على أحكام الشريعة، ويحكموا بينهم بالحق؛ شكرًا لنِعَم الله عليهم وخوفًا من مساءلتهم غدًا.

وقال آخر: أرأيتم لو أَمَرَ الملكُ القاضيَ أن يحكم بيننا فيحكم بأحد الأحكام الثلاثة؟ ماذا تقولون؟ وماذا تفعلون؟ قالوا: ليس لنا أن نخرج من حكم الملك، ولا من حكم القاضي؛ لأن القضاة خلفاء الأنبياء والملك حارس الدِّين.

وقال آخر: أرأيتم إنْ حكم القاضي بعتقها وتخلية سبيلها، ماذا تصنعون؟ قال أحدهم: نقول مماليكنا وعبيدنا ورثناهم عن آبائنا وأجدادنا، ونحن بالخيار إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل.

قالوا: وإن قال القاضي: هاتوا الصكوك والوثائق والعهود والشهود بأن هؤلاء عبيدكم ورثتموهم عن آبائكم، قالوا: نجيء بالشهود من جيراننا وعدول بلادنا، قال: إن قال القاضي إني لا أقبل شهادة الإنس بعضهم لبعض على هذه البهائم أنها عبيد لهم؛

لأنهم كلهم خصماء لها، وشهادة الخصم لا تُقبل في أحكام الدين أو يقول القاضي: أين الوثائق والصكوك والعهود؟ هاتوها وأحضروها إن كنتم صادقين، ماذا نقول ونفعل عند ذلك؟ فلم يكن عند الجماعة جواب في ذلك غير العباسي، فإنه قد قال نقول: لقد كانت لنا عهود ووثائق وصكوك، ولكنها غَرِقَتْ في أيام الطوفان، قالوا: فإن قال القاضي: احلفوا بأيمانٍ مغلَّظة أنها عبيد لكم، قال: نقول لا يتوجَّه اليمين إلا على المنكرين، والبيِّنة على المدَّعِين، ونحن مدَّعون فلا يتوجَّه علينا اليمين، قال: فإن استحلف القاضي هذه البهائم، فحلفتْ بأنها ليستْ بعبيد لكم ماذا تفعلون؟ قال قائل منهم: نقول إنها قد حنثتْ فيما حلفتْ، ولنا حُجَج عقلية وبراهين ضرورية تدل على أنها عبيد لنا.

قال: أرأيتم إن حكم القاضي ببيعها وأخذ أثمانها، فماذا تقولون وماذا تفعلون؟ قال أهل المدن: نبيعها ونأخذ أثمانها وننتفع بها، فقال أهل الوبر من الأعراب والأكراد والأتراك والبوادي: هلكنا والله إن فعلنا ذلك، الله الله في أمرنا، ولا تحدثوا أنفسكم بهذا، فقال لهم أهل المدن: لم ذاك؟ قالوا: لأنَّا إذا فعلنا ذلك بقينا بلا لبن نشرب ولا لحم نأكل ولا ثياب من صوف ولا دثار من وبر ولا أثاث من شعر، ولا نِعال ولا خفٍّ ولا نِطَع ولا قِرْبة، ولا غطاء ولا لبود، ولا وطاء، فنبقى عراة حفاة أشقياء بسوء الحال، ويكون الموت خيرًا لنا من الحياة، ويصيب أهل المدن مثل ما أصابنا، فلا تعتقوها ولا تبيعوها، ولا تحدثوا أنفسكم بهذا الحديث، بل الإحسان إليها والتخفيف عنها والرفق بها والتحنُّن عليها والرحمة لها، فإنها لحم ودم مثلكم تحس وتتألَّم، ولم يكن لكم سابقة عند الله جازاكم بها حين سخرها لكم، ولا كان لها جناية عند الله عاقبها بها، ولا ذنب، ولكن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا رادَّ لحكمه، ولا مبدِّل لقضائه، ولا منازع له في ملكه ولا خلاف لمعلومه، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم إنه الغفور الرحيم.

فصل

ولما قام الملك من مجلسه وانصرفت طوائف الحضور اجتمعت البهائم، فخلصت نجيًّا، فقال قائل منهم: قد سمعتم ما جرى بيننا وبين خصمائنا من الكلام والمناظرة، ولم تنفصل الحكومة على شيء، فما الرأي عندكم؟ قال قائل منهم: نعود في غدٍ، ونشكو ونبكي ونتظلَّم، فلعل الملك يرحمنا ويفك أَسْرَنا، فإنه قد أدركتْه الرحمة علينا اليوم، ولكن ليس من الرأي الصواب للملوك والحكام أن يحكموا بين الخصوم إلا بعد أن يتوجَّه الحكم على أحد الخصمين بالحجَّة الواضحة والبينة العادلة، والحجة لا تصحُّ إلا

بالفصاحة والبيان وذرابة اللسان، وهذا حاكم الحكام محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله — يقول: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجة من بعض، فأحكم له، فمَن قضيتُ له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذ منه شيئًا، فإني إنما أقطع له قطعة من النار.»

واعلموا أن الإنس أفصح منَّا لسانًا وأجود بيانًا، وإنَّا نخاف عليكم أن يحكم لهم علينا غدًا عند الحِجَاج والمناظرة، فما الرأي الصواب عندكم؟ قولوا! فإن كل واحد من الجماعة إذا فكَّر سَنَحَ لكل واحد وجه من الرأي صوابًا كان أو خطأً.

قال قائل منهم: الرأي الصواب عندي أن نرسل رسلًا إلى سائر أجناس الحيوانات، فنعرِّفهم بالخبر ونسألهم أن يبعثوا إلينا زعماءهم وخطباءهم ليعاونونا فيما نحن فيه، فإن لكل جنس منها فضيلة ليستْ للأخرى بضروب من التمييز، والرأي الصواب والفصاحة والبيان والنظر والحجج، وإذا كثر الأنصار يُرجَى الفلاح والنجاح، والنصر من الله، ينصر مَن يشاء والعاقبة للمتقين.

فقالت الجماعة حينئذٍ: صوابًا ما رأيتَ، ونِعْمَ ما أشرتَ، فأرسَلُوا ستةَ نفَرٍ إلى ستة أجناس من الحيوان وسابعها كانوا هم حضورًا من البهائم والأنعام، منها رسولًا إلى الحشرات، ورسولًا إلى الطيور، ورسولًا إلى السباع، ورسولًا إلى الجوارح، ورسولًا إلى الهوامِّ، ورسولًا إلى حيوان الماء.

(١٠) فصل في بيان تبليغ الرسالة

ثم بعد ذلك رتَّبوا الرُّسُلَ، وبعثوا إلى كل واحد منهم، فلما وصل الرسول إلى أبي الحارث الأسد ملك السباع وعرَّفه الخبر، وقال له: إن زعماء البهائم والأنعام مجتمعون مع زعماء الإنس عند ملك الجن للمناظرة، وقد بعثوا إلى سائر أجناس الحيوانات يستمدون منها، وبعثوني إليك لترسل معي زعيمًا من جنودك من السباع ليُناظِر وليَنُوب عن الجماعة من أبناء جنسه إذا دارتِ النوبة في الخطاب إليه، فقال الملك للرسول: وماذا يزعم الإنس؟ وما يدَّعون على البهائم والأنعام؟ قال الرسول: يزعمون أنها عبيد لهم، وخَوَل وأنهم أرباب لها، ولسائر أجناس الحيوانات التي على وجه الأرض.

قال الأسد: وبماذا يفتخر الإنس عليها ويستحقون الربوبية؟ أبالقوة والشجاعة والجسارة، أم بالحملات والوثبات، أم بالقبض والإمساك بالمخالب، أو بالقتال والوقوف في الحرب، أم بالهيبة والغلبة؟ فإن كانوا يفتخرون بواحدة من هذه الخصال جمعتُ

جنودي ثم ذهبْنَا حتى نحمل عليهم حملة واحدة ونفرِّق جمعَهم ونشتِّت شملهم. قال الرسول: لعمري، إن من الإنس مَن يفتخر بمثل هذه الخصال التي ذكرها الملك، ولهم مع ذلك أعمال وصنائع وحِيَل ومرافق ومكائد لاتخاذ السلاح من السيوف والرماح الردينيات والحراب والسكاكين والنشَّاب والقِسِيِّ والجُنَن والاحتراز من مخالب السباع وأنيابها، باتخاذ لباس اللبود والجواشن والفرغندات والدروع والخوذ والزرد، ممَّا لا تنفذ فيها أنياب السباع، ولا تصل إليها مخالبُها، ولهم مع ذلك حِيَل أخرى في أخْذ السباع والوحوش من الخنادق المحفورة والزُّبْيات المستورة، والصناديق المعمولة والفِخَاخ المنصوبة، والوهق والستائر وآلات أُخَر لا تعرفها السباع فتحذرها ولا تهتدي كيف الخلاص منها إذا وقعتْ هي فيها، ولكن ليس الحكومة ولا المناظرة بحضرة ملك الجن بخصلة من هذه، وإنما الحِجَاج والمُناظرة بفصاحة الألسنة وجودة البيان ورجحان العقول ودقة التمييز.

فلما سمع الأسد قول الرسول وما أخبره به فكَّر ساعة ثم أمر مناديًا ينادي، فاجتمعتْ عنده جنودُه من أصناف السباع والوحوش من النمور والفهود والدببة وبنات آوى والذئاب والثعالب وسنانير البر والضباع وأصناف القرود وبنات عِرْس، وبالجملة كل ذي مخلب وناب يأكل اللحمان.

فلما اجتمعتْ عند المَلِك عرَّفها الملك الخبر وما قال الرسول ثم قال: أيُّكم يذهب إلى هناك فينوب عن الجماعة فنضمن له ما يريد ويتمنَّى علينا من الكرامة والقُربى إذا هو نجح في المناظرة والحُجَّة في الحِجَاج، فسكتَتِ السباع ساعة متفكرة هل أحد يصلح لهذا الشأن أم لا، ثم قال النمر للأسد: أنت مَلِكُنا ومولانا ونحن عبيدك ورعيَّتك وجنودك، وسبيل الملك أن يدبِّر الرأي ويشاور أهل البصيرة بالأمور، ثم يأمر وينهى ويدبِّر الأمور كما يجب، وسبيل الرعية أن يسمعوا ويطيعوا؛ لأن الملك من الرعية بمنزلة الرأس من الجسد، والرعية والجنود بمنزلة الأعضاء من البدن، فمتى قام كل واحد منها بما يجب من الشرائط انتظمت الأمور واستقامت، وكان في ذلك صلاح الجميع وفلاح الكل.

فقال الأسد للنمر: وما تلك الخصال والشرائط التي قلت إنها واجبة على الملك والرعية؟ بيِّنْها لنا. قال: نَعَم، أمَّا الملك فينبغي أن يكون رجلًا عاقلًا أديبًا لبيبًا سخيًّا شجاعًا عادلًا رحيمًا عالي الهِمَّة كثير التحنُّن شديد العزيمة صارمًا في الأمور متأنِّيًا ذا رأي وبصيرة، ومع هذه الخصال ينبغي أن يكون مشفقًا على رعيته متحنِّنًا على جنوده وأعوانه رحيمًا بها كالأب المشفق على أولاده الصغار شديد العناية بصلاح أمورهم.

وأما الذي يجب على الرعية والجنود والأعوان، فالسمع والطاعة للملك والمحبة له والنصيحة لأعوانه، وأن يعرِّفه كل واحد منهم ما عنده من المعرفة، وما يُحسِن من الصناعة وما يَصلح له من الأعمال، ويعرف الملك أخلاقه وسجاياه؛ ليكون الملك على علم منه، وينزل كل واحد منهم منزلته، ويستخدمه فيما يحسن ويستعين به فيما يصلح له.

قال الأسد: لقد قلت صوابًا ونطقتَ حقًّا، فبوركتَ من رحيم ناصح لَمِلِكِه ولإخوانه ولأبناء جنسه، فما الذي عندك من المعاونة في هذه الأمور التي قد دُعِينا إليها واستُعين بنا فيها؟

قال النمر للأسد: سَعِد نجمُك وظَفِرت يداك أيها الملك، إن كان الأمر يمشي هناك بالقوة والجَلَد والغلبة والقهر والحمل والحقد والحنق والحمية فأنا لها.

قال الملك: لا يمشي الأمر هناك بشيء مما ذكرتَ.

قال الفهد: إن كان الأمر يمشي هناك بشيء من الوثبات والقفزات والقبض والبسط فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الذئب: إن كان الأمر يمشي هناك بالغارات والخصومات والمكابرات فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الثعلب: إن كان الأمر يمشي هناك بالختل والحيلة والعطفات والزوغات وكثرة الالْتِفات والمَكْر فأنا لها، قال الملك: لا.

قال ابن عِرْس: إن كان الأمر يمشي باللصوصية والتجسس والاختفاء والسرقة فأنا لها، قال الملك: لا.

قال القِرْد: إن كان الأمر يمشي هناك بالخُيَلاء والمَجَانة واللعب واللهو والرقص وضرب الطبل والدف فأنا لها، قال الملك: لا.

قال السِّنَّوْر: إن كان الأمر يمشي هناك بالتواضُع والسؤال والكدية والمؤانسة والتخرخر فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الكلب: إن كان الأمر يمشي هناك بالبصبصة وتحريك الذنب واتِّباع الأثر والحراسة والنباح فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الضبع: إن كان الأمر يمشي هناك بنبش القبور وجرِّ الجِيَف وحرب الكلاب والكراع وثقل الروح فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الجُرَذ: إن كان الأمر يمشي هناك بالإضرار والإفساد والقرض والقطع والسرقة والإخراب فأنا لها، قال الملك: لا يمشي الأمر هناك بشيءٍ من هذه الخصال التي ذكرتموها.

ثم أقبل الأسد على النمر وقال: إن هذه الخصال والطباع والأخلاق والسجايا التي ذكرتْ هذه الطوائف من أنفسها لا تصلح إلا لجنود الملوك من بني آدم وسلاطينهم وأمرائهم وقادة الجيوش وولاة الحروب وهم إليها أحوج وألْيق بهم؛ لأن أنفسهم سبعية وإن كانت أجسادهم بشرية وصورهم آدمية.

أما مجالس العلماء والفقهاء والحكماء وأهل العقل والرأي والعلم والتمييز فإن أخلاقهم وسجاياهم أشبه بأخلاق الملائكة الذين هم سكان السموات وجنود رب العالمين، فمَن تُرى يصلح أن نبعثه إلى هناك لينوب عن الجماعة؟

قال النمر: صدقتَ أيها الملك فيما قلتَ، ولكنْ أرى العلماء والفقهاء من بني آدم قد تركوا هذه الطريقة التي قلت أنها أخلاق الملائكة، وأخذوا في ضروب من أخلاق الشياطين من المُكابَرة والمغالبة والتعصب والعداوة والبغضاء فيما يتناظرون ويتجادلون من الصياح والسفاهة، وهكذا مَن نجدهم في مجالس القضاة والحكام يفعلون ما ذكرتُ وتركوا استعمال الأدب والعقل والنصيحة والعدل، قال: صدقتَ، ولكنَّ رسول الملك يجب أن يكون رجلًا عاقلًا حكيمًا خبيرًا فاضلًا منصفًا كبيرًا لا يميل ولا يجنف في الأحكام، فمن تُرى أن نبعثه إلى هناك رسولًا وزعيمًا يفي بخصال الرسالة، وليس في جماعة الحاضرين مَن يفي بها ها هنا.

(١١) فصل في بيان صفة الرسول كيف ينبغي أن يكون

قال النمر للأسد: ما تلك الخصال التي ذكرتَ أيها الملك أنها يجب أن تكون في الرسول؟ بيِّنْها لنا. قال الملك: نَعَم، أوَّلُها: يحتاج أن يكون رجلًا عاقلًا حسن الأخلاق بليغ الكلام فصيح اللسان جيد البيان حافظًا لما يسمع، محترزًا فيما يجيب ويقول، مؤديًا للأمانة، حسن العهد، مراعيًا للحقوق، كتومًا للسر، قليل الفضول في الكلام، لا يقول من رأيه شيئًا غير ما قيل له إلا ما يرى فيه صلاح المُرسِل، ولا يكون شَرِهًا ولا يكون حريصًا إذا رأى كرامة عند المرسَل إليه مال إلى جهته وخان مرسِلَه واستوطن البلد لطيب عيشه هناك أو كرامة يجدها أو شهوة ينالها هناك، بل يكون ناصحًا لمرسِله ولإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه، ويبلغ الرسالة ويرجع بسرعة إلى مرسِله، فيعرِّفه جميع ما جرى من أوله إلى آخره، ولا يخاف في شيء منه في تبليغ رسالته مخافة من مكروه يناله، فإنه ليس على الرسول إلا البلاغ.

ثم قال الأسد للنمر: فمَن تُرى يصلح لهذا الأمر من هذه الطوائف؟ قال النمر: لا يصلح لهذا الشأن إلا الحكيم العادل والعالم الخبير كليلة أخو دمنة، قال الأسد لابن آوى

ما تقول فيما قال فيك؟ قال: أحسن الله جزاءه، وأطاب عنصره، قال ما يشبهه من الفضل والكرم، قال الملك لابن آوى: فهل تنشط وتمضي إلى هناك وتنوب عن الجماعة، ولك الكرامة علينا إذا رجعتَ وأفلحتَ، قال: سمعًا وطاعة لأمر الملك، ولكن لا أدري كيف أعمل وكيف أصنع مع كثرة أعدائي هناك من أبناء جنسنا؟

قال الملك: مَن هم؟ قال: الكلاب أيها الملك، قال: ما لها؟ قال: أليس قد استأمنت إلى بني آدم وصارت مُعِينة لهم علينا معشرَ السباع؟!

قال الملك: ما الذي دعاها إلى ذلك وحملها عليه حتى فارقتْ أبناء جنسها وصارت مع مَن لا يُشاكِلها مُعينة لهم على أبناء جنسها؟ فلم يكن عند أحد من ذلك علم غير الذئب، فإنه قال: أنا أدري كيف كان السبب، وما الذي دعاها إلى ذلك.

قال الملك: قل لنا، وبيِّنه لنعلم كما تعلم. قال: نَعَم، أيها الملك إنما دعا الكلاب إلى مجاورة بني آدم ومداخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق، وما وجدت عندهم من المرغوبات واللذات من المأكولات والمشروبات، وما في طباعها من الحرص والشَّرَه واللؤم والبخل وما في جِبِلَّتها من الأخلاق المذمومة الموجودة في بني آدم مما السباع عنه بمعزل، وذلك أن الكلاب تأكل اللحمان ميتًا وجيفًا ومذبوحًا قديدًا ومطبوخًا ومشويًّا ومالحًا وطريًّا وجيدًا ورديئًا وثمارًا وبقولًا وخبزًا ولبنًا وحليبًا وحامضًا وجبنًا وسمنًا ودسمًا ودبسًا وشيرجا وناطفًا وعسلًا وسويقًا وكوامخ، وما شَاكَلَها مِن أصناف مأكولات بني آدم التي أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها، ومع هذه الخصال كلها، فإن بها من الشَّرَه واللؤم والبخل ما لا يمكنها أن تترك أحدًا من السباع أن يدخل قرية أو مدينة، مخافةً أن ينازعها في شيء مما هي فيه حتى إنه ربما يدخل أحد من بنات آوى أو بنات أبي الحصين قرية بالليل ليسرق منها دجاجة أو ديكًا أو سِنَّوْرًا أو يجرَّ جِيفة مطروحة أو كسرة مرمية أو ثمرة متغيرة، فترى الكلاب كيف تحمل عليه وتطرده وتخرجه من القرية، ومع هذا كله أيضًا نرى بها من الذل والمسكنة والفقر والهوان والطمع ما إذا رأى في يد أحد من بني آدم من الرجال والنساء والصبيان رغيفًا أو كسرة أو تمرة أو لقمة كيف يطمع فيها، وكيف يتبعه ويبصبص بذنبه ويحرِّك برأسه ويحد النظر إلى حدقته حتى يستحي أحدهم فيرمي بها إليه، ثم تراه بعدُ كيف يعدو إليها بسرعة، وكيف يأخذها بعجلة مخافة أن يسبقه إليها غيره، وكل هذه الأخلاق المذمومة موجودة في الإنس والكلاب، فمجانسة الأخلاق ومشاكلة الطباع دعتِ الكلاب إلى أن فارقت أبناء جنسها من السباع واستأنست من الإنس، وصارت مُعينتهم على أبناء جنسها من السباع.

قال الملك: ومَن غيرهم مِن المستأمِنة إلى الإنس من السباع؟ قال الذئب: السنانير أيضًا، قال الملك: ولِمَ استأنستِ السنانير أيضًا؟ قال العلة واحدة وهي مشاكلة الطِّباع لأن السنانير بها أيضًا من الحرص والشَّرَه والرغبة في ألوان المأكولات والمشروبات مثل ما بالكلاب.

قال الملك: كيف حالُها عندهم؟ قال: هي أحسن حالًا من الكلاب قليلًا، وذلك أن السنانير تدخل بيوتهم وتنام في مجالسهم، وتحت فُرُشهم وتحضر موائدهم فيُطعِمونها مما يأكلون ويشربون، وهي أيضًا تسرق منهم أحيانًا إذا وجدت فرصة من المأكولات.

وأما الكلاب فلا يتركونها تدخل بيوتهم ومجالسهم وبين الكلاب وبين السنانير بهذا السبب حسد وعداوة شديدة، حتى إن الكلاب إذا رأتْ سِنَّوْرًا خرجتْ من بيوتهم حملت عليها حملة تريد أن تأخذها وتأكلها وتمزقها، والسنانير إذا رأتِ الكلاب نفخت في وجوهها ونفشت شعورها وأذنابها وتطاولت وتعظمت كل ذلك عنادًا لها، وعداوة ومناصبة وحسدًا وبغضًا وتنافسًا في المراتب عند بني آدم.

قال الأسد للذئب: مَن رأيتَ أيضًا من المستأنِسة غير هذين من جنس السباع؟ قال: الفأر والجرذان يدخلون منازلهم وبيوتهم ودكاكينهم وخاناتهم غير مستأنسين، بل على وحشة ونفور.

قال: فماذا يحملها على ذلك؟ قال: الرغبة في المأكولات والمشروبات من الألوان، قال: مَن يُداخلهم أيضًا من أجناس السباع؟ قال: ابن عِرْس على سبيل اللصوصية والخِلْسة والتجسس، قال: ومَن غيرها مَن يداخلهم؟ قال: لا غير، سوى الأسارى من الفهود والقرود على كُرْه منها.

ثم قال الملك للذئب: متى استأنستِ الكلاب والسنانير إلى الإنس؟ قال: منذ الزمان الذي استظهرتْ فيه بنو قابيل على بني هابيل، قال: كيف كان ذلك؟ حدِّثنا ذلك.

قال: لما قَتَلَ قابيلُ أَخَاه هابيلَ طالَبَ بنو هابيل من بني قابيل بثأر أبيهم، فاقتتلوا وتحاربوا، واستظهرت بنو قابيل على بني هابيل فهزموهم ونهبوا أموالهم، وساقوا مواشيهم من الأغنام والبقر والخيل والبغال والجمال، وغنموا واستغنَوْا، فأصلحوا الدعوات والولائم، وذبحوا حيوانات كثيرة ورموا برءوسها وأكارعها وكروشها حول ديارهم وقُرَاهم، فلما رأتْها الكلاب والسنانير رغبت جميعًا في كثرة الريف والخصب ورغد العيش، فداخلتْهم وفارقتْ أبناء جنسها، وصارتْ معهم مُعينة إلى يومنا هذا.

فلما سمع الملك الأسد ما ذكره الذئب من هذه القصة قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، واستكثر من هذه الكلمات وتكرارها، فقال له

الذئب: ما الذي أصابك أيها الملك الفاضل؟ وما هذا التأسف على مفارقة الكلاب والسنانير لأبناء جنسها؟ قال الأسد: ليس تأسُّفي على شيء فاتني منهم، ولكن لِمَا قالتِ الحُكَماء بأنه ليس شيء على الملوك أضرَّ ولا أفسدَ لأمرهم وأمر رعيتهم من المستأمن من جندهم وأعوانهم إلى عدوهم؛ لأنه يعرف أسرارهم وأخلاقهم وسريرتهم وعيوبهم وأوقات غفلتهم والنصحاء من جنودهم والخونة من رعيتهم، فيدلُّه على طرقات خفية ومكائد دقيقة، وكل هذه ضارة للملوك وجنودها، لا بارك الله في الكلاب والسنانير!

قال الذئب: قد فعل الله بها ما دعوتَه عليها أيها الملك واستجاب دعاك، ورفع البركة من نسلها وجعلها في الغنم، قال: كيف ذلك؟ قال: لأن الكلبة الواحدة تجتمع عليها فحول لتُحبلها، وتَلقَى هي من الشدة عند العلق والخلاص جهدًا وعناءً، ثم إنها تلد ثمانية أو أكثر، ولا يُرى منها في البر قطيع ولا في المدينة كما في الأغنام من القُطْعان يُذبح منها في كل يوم في المدن والقرى من العدد ما لا يُحصى كثرةً، وهي مع ذلك تُنتِج كل سنة واحدًا أو اثنين، والعلة في ذلك أن الآفات تُسرِع إلى أولاد الكلاب والسنانير قبل الفِطَام لكثرة اختلاف مأكولاتها، فيعرض لها من الأمراض المختلفة مما لا يعرض للسباع منها شيء، وكذلك إن سوء أخلاقها وتأذِّي الناس منها ينقص مِن عمرها ومن أولادها.

ثم قال الأسد لكليلة: سِرْ بالسلامة والبركة، على بركة الله وعونه إلى حضرة الملك، وبلِّغ ما أُرسلتَ به.

فصل

ولما وصل الرسول إلى مَلِك الطيور وهو الشاه مرغ أمر مناديًا ينادي، فنادى، فاجتمعت عنده أصناف الطيور من البر والبحر والسهل والجبل عدد كثير لا يُحصي عددها إلا الله، فأخبَرَهم ما أخبر به الرسول من اجتماع الحيوانات عند ملك الجن للمناظرة مع الإنس فيما ادَّعَوْه عليها من الرِّقِّ والعبودية.

ثم قال الشاه مرغ للطاووس وزيره: مَن ها هنا من فصحاء الطيور ومتكلِّميها يصلح أن نبعثه إلى هناك لينوب عن الجماعة في المناظرة مع الإنس؟

قال الطاووس: ها هنا جماعة تصلح لذلك قال: بيِّنْهم لي لأعرفهم. قال: ها هنا الهدهد الجاسوس والديك المؤذِّن والحمام الهادي والدُّرَّاج المنادي والدرج المغني والقُنبَر الخطيب والبلبل الحاكي والخطاف البنَّاء والغراب الكاهن والكَركِيُّ الحارس والقطاء الكدري والطِّيطَوَى الميمون والعصفور الشَّبِق والشقراق الأخضر والفاختة النائح والوَرَشان

الدجلي والقِمْري المكي والصقر الجبلي والزُّرزُور الفارسي والسمان البري واللَّقْلق القلقي والعَقْعَق البستاني والبط الكسكوكي ومَالِك الحزين وأبو تيمار أخوه والكُرْكِي البطائحي والهزار دستان اللغوي الكثير الألحان والغواص البحري والنعامة البدوي.

قال الشاه مرغ للطاووس: أَرِنِيهم واحدًا واحدًا لأنظر إليهم وأُبصِر شمائلهم، ومَن يصلح لذلك الأمر، قال: نَعَم.

أما الهدهد الجاسوس صاحب النبي سُلَيْمان — عليه السلام — فهو ذلك الشخص الواقف اللابس مرقَّعة ملوَّنة المُنتِن الرائحة قد وضع على رأسه البرنس ينقر كأنه يسجد ويركع، وهو الآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر، والقائل لسليمان في خطابه معه: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

وأما الديك المؤذِّن فهو ذلك الشخص الواقف فوق الحائط صاحب اللحية الحمراء والتاج ذي الشرفات، الأحمر العينين المنتشر الحاجبين الصفافين المنتصب الذنب كأنه أعلام، وهو الغَيُور السخي الشديد المراعاة لأمْرِ حَرَمه وحلائله، العارف بأوقات الصلاة، المذكِّر بالأسحار، المنبِّه للجيران، الحَسَن الموعظة، وهو القائل في أذانه في وقت السَّحَر: اذكروا الله، ما أطول ما أنتم نائمون! والموت والبلي لا تذكرون، ومِن النار لا تخافون، وإلى الجنة لا تشتاقون، ونِعَم الله لا تشكرون، ليتَ الخلائق لم يخلقوا، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، فاذكروا هازم اللذات وتزوَّدوا فإن خير الزاد التقوى.

وأما الدُّرَّاج المنادي فهو ذلك الشخص الواقف على التلِّ، الأبيض الخدَّيْن الأبْلَق الجناحين المحدودب الظهر من طول السجود والركوع وهو كثير الأولاد مبارك النتاج، المذكِّر المبشِّر في ندائه، وهو القائل لنفسه في أيام الربيع: بالشكر تدوم النِّعَم وبالكفر تحلُّ النِّقَم، واشكروا نِعَم الله يَزِدْكم، ثم يقول أيضًا في أيام الربيع شعرًا:

سبحانَ ربي وحدَه عزَّ وجلَّ حمدًا على نعمائه فقد شمل
جاء الربيع والشِّتَا قدِ ارتحَل ووازَنَ الليلُ النهارَ فاعتدل
ودارت الأيام حولًا قد كمل مَن عمل الخَيْرَ ففي الخير حصل

ثم يقول: اللهم اكْفِني شرَّ بنات آوى والجوارح والصيادين من بني آدم ووصف طباعهم من جهة التغذية والمنفعة وشهوات مرضاهم.

وأما الحمام الهادي فهو ذلك المحلِّق في الهواء الحامل كتابًا ما إلى بلدٍ بعيدٍ في رسالة، وهو القائل في طيرانه وذهابه شعرًا:

يا وحشتنا من فرقة الإخوان! يا طول أشواقي إلى الخلان!
يارِبِّ أرشِدْنا إلى الأوطان

وأما الدراج المغني فهو ذلك الماشي بالتبختر في وسط البستان بين الأشجار والريحان، المطرب بأصواته الحِسَان ذوات النَّغَم والألحان، وهو القائل في مراثيه ومواعظه شعرًا:

يا مفنيًا للعمر في البنيان وغارس الأشجار في البستان
وباني القصور في الميدان وقاعدًا في الصدر في الإيوان
وغافلًا عن نُوَب الزمان احذر ولا تغترَّ بالرحمن
واذكر غدًا الترحال للجَبَّان مجاور الحيات والديدان
مِن بعْدِ عيش طيِّب المكان

وأما القُنبَر الخطيب فهو ذلك الشخص صاحب الذَّنَب المرتفع في الهواء على رأس الزرع والحصاد في أنصاف النهار كالخطيب على المنبر، الملحن بأنواع الأصوات المطرِبة وفنون النغمات اللذيذة، وهو القائل في خطبته وتذكاره شعرًا:

أين أولو الألباب والأفكار؟ أين ذوو الأرباح والتجار؟
من حبة الزراع في العقار سبعون ضعفًا كِيلَ بالمِقْدار
مواهبًا من واحد غفَّار فاعتبروها يا أولي الأبصار

وآتُوا حقَّه يومَ حصاده، ولا تَغدُوا تخافَتون على حرْدٍ قادرين ألَّا يدخُلَنَّها اليوم عليكم مسكين، مَن يزرع اليوم خيرًا يحصده غدًا غبطة، ومن يغرس معروفًا يجني غدًا ربحًا، الدنيا كالمزرعة والعاملون من أبناء الآخرة كالحُرَّاث، وأعمالهم كالزرع والشجر، والموت كالحصاد، والقَبْر كالبَيْدر، ويوم البعث كأيام الدِّرَاس، وأهل الجنة كالحب والثمار، وأهل النار كالتبن والحطب ويومئذٍ يميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه

على بعض، فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم، وينجِّي الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون.

وأما البلبل الحاكي فهو ذلك القاعد على غصن تلك الشجرة، وهو الصغير الجثة السريع الحَرَكة، الأبيض الخدَّيْن الكثير الالتفات يمنة ويسرة، الفصيح اللسان الجيِّد البَيَان كثير الألحان، يُجاوِر بني آدم في بساتينهم ويُخالِطهم في مساكنهم، ويُكثِر مجاوَبَتَهم في كلامهم ويُحاكيهم في نغماتهم ويعظهم في تذكاره لهم، فهو القائل لهم عند لهوهم وغفلاتهم: سبحان الله كم تلعبون! سبحان الله كم تحكون! سبحان الله ألَا تسبِّحون! سبحان الله أليس للموت تُولَدون؟! أليس للبلاء تربُّون؟! أليس للخراب تبنون؟! أليس للفناء تجمعون؟! كم تلعبون؟! وكم تولعون؟! أليس غدًا تموتون؟! وفي التراب تدفنون؟! ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، يا ابن آدم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾، ثم يقول: اللهم اكفني ولع الصبيان، وشرَّ سنانير الجيران، يا حنان يا منان يا ديان يا غفران.

وأما الغراب الكاهن منبئ الأنباء، فهو ذلك الشخص اللابس السواد المتوقِّي المحذر المبكِّر بالأسحار للطَّوَاف في الديار، المتتبع للآثار، الشديد الطيران الكثير الأسفار، الذاهب في الأقطار، المُخبِر بالكائنات المحذِّر أوقات الغفلات، وهو القائل في نعيقه وإنذاره ألوحا ألوحا النجا النجا، احذر البلى يا مَن طغى وبغى، أين المفر والخلاص من القضاء إلا بالصلاة والدعاء؟ لعل رب السماء يكفيكم كيف يشاء.

وأما الخطاف البناء فهو ذلك السائح في الهواء الخفيف الطيران، القصير الرجلين الوافي الجناحين، المجاوِر لبني آدم في دُورهم، المربِّي لأولاده في منازلهم، وهو كثير التسبيح في الأسحار، كثير الدعاء والاستغفار، بالعَشِيِّ والإبكار، الذاهب البعيد في الأسفار، المصيف في الصرد والمشتي في الحرور، وهو القائل في تسبيحه وتذكاره ودعائه: سبحان خالق البحار والقفار! سبحان مُرسِي الجبال، ومُجري الأنهار! سبحان مولج الليل والنهار! سبحان مقدِّر الآجال والأرزاق بمقدار! سبحان مَن هو الصاحب في الأسفار! سبحان مَن هو الخليفة في الأهل والديار! ثم يقول: ذهبنا في البلاد ورأينا العباد، ورجعنا إلى مَوْضِع التِّلاد، ونتجنا بعد السِّفاد، فلله الحمد، إنه الكريم الجواد.

وأما الكُرْكِيُّ الحارس فهو ذلك الشخص القائم في الصحراء، الطويل الرقبة والرجلين، القصير الذَّنَب الوافِر الجناحين، وهو الذاهب في طيرانه، له صفير الحارس في الليل نوبَتَيْن، وهو القائل في تسبيحه: سبحان مُسخِّر النيِّرَيْن! سبحان مارج البحرين! سبحان رب المشرقين ورب المغربين! سبحان الله خالق الثقلين! سبحان هادي النجدين! سبحان الخالق مِن كل شيء زوجين اثنين! والقطا الكدري، فهو ساكن البراري والقفار، وهو بعيد الوِرْد إلى الأنهار، ويسافر بالليل والنهار، الكثير التسبيح والتذكار، القائل في غدوِّه ورَوَاحه ووُرُوده وصُدُوره: سبحان خالق السموات المسموكات! سبحان خالق الأرضين المدحوَّات، سبحان خالق الأفلاك الدايرات! سبحان خالق البروج الطالعات! سبحان خالق الكواكب السيارات! سبحان مرسل الرياح الذاريات! سبحان منشئ السحب الممطرات! سبحان رب الرعود المسبِّحات! سبحان رب البروق اللامعات! سبحان رب البحار الزاخرات! سبحان مُرسي الجبال الشامخات! سبحان مدبِّر الليل والنهار والأوقات! سبحان منشئ الحيوانات والنبات! سبحان خالق الأنوار والظلمات! سبحان خالق الخلق في البحار والفلوات! سبحان مُحْيِي العظام الرفات الدارسات الباليات بعد الممات! سبحان مَن تَكِلُّ الألْسُن عن مَدْحِه ووصفه بحقائق الصفات!

وأما الطيطوى الميمون المبارك، فهو ذلك القائم على المياه الأبيض الخدين الطويل الرجلين الزكي الخفيف الروح، وهو المحذِّر للطيور في الليل في أوقات الغفلات المبشِّر بالرخص والبركات، وهو القائل في تسبيحه:

يا فالق الإصباح والأنوار	ومرسل الرياح في الأقطار
ومنشئ السحاب ذي الأمطار	ومجري السيول والأنهار
ومنبت العشب مع الأشجار	ومخرج الحبوب والثمار
فاستبشروا يا معشر الأطيار	بسعة الرزق من الغفار

وأما الهزار داستان اللغوي الكثير الألحان، فهو ذلك القاعد على غصن الشجرة، الصغير الجثة الخفيف الحركة الطيب النغمة، وهو القائل في غنائه وألحانه شعرًا:

الحمد لله ذي القدر والإحسان	الواحد الفرد ذي الغفران
يا منعمًا في السر والإعلان	كم نعمة بمنة الرحمن

تفيض كالبحار في الجريان　　يا طيب عيش كان في الأزمان
بين رياض الرَّوْح والريحان　　وسط البساتين على الأغصان
مثمرة الأشجار بالألوان　　لو أنني ساعدني إخواني
ذاكرتُهم بكثرة الألحان

ثم قال الشاه مرغ للطاووس: مَن تُرى يصلح من هؤلاء أن نبعثه إلى هناك ليتناظر مع الإنس وينوب عن الجماعة؟

قال الطاووس: كلهم عبيدك يصلح لذلك؛ لأنهم كلهم فصحاء خطباء شعراء عقلاء فضلاء غير أن الهزار داستان أفصحهم لسانًا وأجودهم بيانًا وأطيبهم نغمة وألحانًا.

قال الشاه مرغ: سِرْ وتوكل على الله عزَّ وجلَّ، فبعثَه.

ولَمَّا وصل الرسول إلى ملك الحشرات وهو النحل وعرَّفه الخبر أمر مناديَه، فنادى، فاجتمعت عنده الحشرات من الزنانير واليعاسيب والذباب والبقِّ والجراجيس والجُعْلان والذراريح والجراد.

وبالجملة هي كل حيوان صغير الجثة يطير بالأجنحة، ليس له ريش ولا عظم ولا دفء ولا وَبَر ولا شعر، ولا يعيش سنة كاملة غير النحل؛ لأنه يُهلِكها الحرُّ المفرِط والبرد المفرط شتاء وصيفًا، ثم إنه عرَّفها الخبر.

وقال: أيكم يذهب إلى هناك وينوب عن الجماعة في مناظرة الإنس؟

قال الجماعة: بماذا يفتخر الإنسان علينا؟ قال الرسول: بكبر الجثة وعظم الخلقة وشدة القوة والقهر والغلبة.

قال زعيم الزنانير: نحن نمر إلى هناك وننوب عن الجماعة، قال زعيم الذباب: لا، بل نمر إلى هناك، قال زعيم الجراجيس: لا، بل نمر إلى هناك.

ثم قال زعيم البقِّ: نحن نمر إلى هناك، قال زعيم الجراد: نحن نمر إلى هناك، قال لهم الملك: ما لي أرى كل الطوائف قد تبادرت إلى البِرَاز من غير فِكْر ولا رَوِيَّة في هذا الأمر؟! قالتِ الجماعة: للثقة بنصر الله — تعالى — واليقين بالظفر بقوة الله وحوله، ولِمَا تقدَّم من التجربة فيما مضى من الدهور والأمم الخالية والملوك الجبابرة، قال: كيف كان ذلك؟ أخبروني!

قالت البق: أيها الملك، أصغرنا جثة وأضعفنا بنية قتل النمرود — لعنة الله عليه — أكبر ملوك بني آدم وأطغاهم وأعظمهم سلطانًا، وأشدهم صولة وتكبرًا، قال: صدقتَ.

قال الزنبور: أليس إذا لبس أحد من بني آدم سلاحه الشاكي، وأخذ بيده سيفَه ورمحَه وسكِّينَه ونشَّابه، فيَقدَم واحد منا فيلسعه بحُمَة مثل رأس إبرة فتشغله عن كل ما أراد وعزم عليه ويتورم جلده وتوهن أعضاؤه وتتربد أعصابه حتى لا يقدر على سيفه أو سكينه أو لجام فرسه؟! قال: صدقتَ.

قال الذباب: أليس أعظمهم سلطانًا وأشدهم هيبة إذا قعد الملك على سريره وقام الحجاب دونه شفقة عليه أن يناله أذًى أو مكروه، فيجيء أحدنا من مطبخه أو خلائه ملوث الرجلين والجناحين فيقعد على السرير وعلى ثيابه وعلى وجهه ولحيته ويعذِّبه ولا يقدر على الاحتراز منا؟! قال: صدقت.

قال الجرجيس: أليس إذا قعد أحدهم في مجلسه ودسته وسريره وكِلَله المنصوبة يدخل أحدنا بين ثيابه فيقرضه ويزعجه من سكونه، وإذا أراد أن يبطش بنا صفع نفسه بيده، ولطم خدَّه بكفِّه ودقَّ رأسه فنفلت منه؟!

قال: صدقتَ، ولكن ليس في حضرة ملك الجن يمشي الأمر بشيء مما ذكرتم، إنما يمشي الأمر هناك بالعدل والنصفة والأدب ودقة النظر وجودة التمييز والاحتجاج بالفصاحة والبيان بالمناظرة، فهل عندكم شيء منها؟

فأطرقتِ الجماعة ثم قال الملك: أنا أسير بنفسي وأنا أنصحكم، فقالت الجماعة فيما قال الملك: لا! قال الحكيم من النحل: أنا أقوم بهذا الأمر بعون الله ومشيئته.

قال الملك والجماعة: خار الله لك فيما عزمتَ عليه ونصرك وأظفرك على خصمائك ومَن يريد غلبك وعداوتك ثم ودَّعهم وتزوَّد ورحل حتى قَدِم على ملك الجن وحضر المجلس مع من حضر من غيره من سائر أصناف الحيوان.

فصل

ولما وصل الرسول — وهو البغل — إلى ملك الجوارح وهو العنقاء، وعرَّفه الخبر، نادى مناديه، فاجتمعت عنده أصناف الجوارح من النسور والعقبان والصقور والبزاة والشواهين والحِدَأ والرخم والبوم والببغاء وكل طير ذي مخلب مقوس المنقار يأكل اللحم.

ثم عرَّفها الخبر وما جاء به الرسول من اجتماع الحيوانات بحضرة ملك الجن للمناظرة مع الإنس، قال الملك لوزيره كَرْكَدَّن: أترى مَن يَصلح من هذه الجوارح أن نبعثه إلى هناك لينوب عن الجماعة من أبناء جنسه بالمناظرة مع الإنس؟ قال الوزير: ليس

فيها أحد يصلح لهذا الأمر غير البوم، قال: لم ذلك؟ قال: هذه الجوارح كلها تنفر من الإنس وتفزع منهم، ولا تفهم كلامهم ولا تحسن مخاطبتهم ولا تجاورهم.

وأما البوم فهو قريب المجاورة لهم في ديارهم العافية ومنازلهم الدارسة وقصورهم الخربة، وينظر إلى آثارهم القديمة، ويعتبر بالقرون الماضية، وفيه مع ذلك من الورع والزهد والخشوع والتقنُّع والتقشف ما ليس لغيره، يصوم النهار ويُحيِي الليل، وربما يعظ بني آدم يذكرهم وينوح على ملوكهم الماضية والأمم السالفة ويقول هذه الأبيات:

أين الملوك الماضية	تركوا المنازل خالية
جمعوا الكنوز بجدهم	تركوا الكنوز كما هيه
فانظر إليهم هل ترى	في دارهم من باقيه
إلا قبورًا دراسًا	فيها عظام باليه

ويقولون أيضًا شعر:

ألا يا دار وَيْحَك خبِّرينا	لماذا صار أهلك يهجرونا؟
فما نطقتْ، ولو نطقتْ لقالتْ	لأنك قد بليتِ وما بلِينَا

وربما قال:

سألتُ الدار تُخبِرني	عن الأحباب ما فعلوا
فقالتْ لي أقام القوم	أيامًا وقد رحلوا
فقلت فأين أطلبهم	وأي منازلٍ نزلوا
فقالت في القبور وقد	لقوا والله ما عملوا

وربما قال أيضًا:

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيتُ مواردًا	للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها	يَمضِي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقال أيضًا:

نام الخَلِيُّ فما أحسَّ رقادي واليوم محتضر لديَّ وِسَادِي
من غير ما سقم ولكن شفني همٌّ أراه فقد أصاب فؤادي
أين الملوك الأولون عهدتُهم بين العذيب وبين أرض مزاد
أرض تخيِّرها لطيب مقيلها كعب ابن مامة وابن أم زواد
أرض الخَوَرْنق والسَّدِير وبارق والقصر ذا الشرفات من شداد
ولقد غنوا فيها بأطيب عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهي به يومًا يصير إلى بلى ونفاد
جَرَتِ الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على الميعاد

ثم يقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾ ... الآية.

قال له العنقاء: ما تقول فيما ذكر الكَرْكَدَّن؟ قال البوم: صدق فيما قال، ولكن لا يمكن المصير إلى هناك.

قال العنقاء: لم ذاك؟ قال: لأن بني آدم يبغضونني ويتطيَّرون برؤيتي ويشتمونني من غير ذنب إليهم ولا أذية تنالهم مني، فكيف إذا رأَوْني وقد أظهرتُ لهم الخلاف ونازعتُهم في الكلام والمناظرة، وهي ضرب من الخصومة تُنتِج العداوة، والعداوة تدعو إلى المحاربة، والمحاربة تخرب الديار وتهلك أهلها.

قال العنقاء للبوم: فمَن تُرى يصلح لهذا الأمر؟ قال البوم: إن ملوك بني آدم يحبون الجوارح من البزاة والصقور والشواهين وغيرها، ويُكرِمونها ويحملونها على أيديهم ويمسحونها بأكمامهم، فلو بعث الملك بواحدة منها إليهم لكان رأيًا صوابًا.

قال العنقاء للجماعة: قد سمعتم ما قال البوم، وأي شيء عندكم؟ قال البازي: صدق البوم فيما قال، لكن ليستْ كرامتنا على بني آدم لقرابة بيننا وبينهم، ولا علم ولا أدب يجدونه عندنا، ولكن لأنهم يشاركوننا في معائشنا، ويأخذون من مكاسبنا، كل ذلك حرصًا منهم على ذلك، وشرهًا واتباعًا للشهوات واللعب والبطر والفضول، لا يشتغلون

بما هو واجب عليهم من إصلاح أمر معادهم ولما هو لازم لهم من طاعة ربهم وما هم مسئولون عنه يوم المعاد.

قال العنقاء للبازي: فمَن ترى يصلح لهذا الأمر؟ قال البازي: أظن أن الببغاء يصلح لهذا الأمر؛ لأن بني آدم يحبونها، ملوكهم ونساؤهم وخاصتهم وعامتهم، وشيوخهم وصبيانهم وعلماؤهم وجهلاؤهم، ويكلمهم ويسمعون منه ما يقولون، ويُحاكيهم في كلامهم وأقاويلهم.

فقال العنقاء للببغاء: ما تقول فيما قال البازي؟ قال: صدق فيما قال وأخبر، وإني ذاهب إلى هناك وأنوب عن الجماعة بحول الله وقوته وعونه ولكني محتاج إلى المعاونة من الملك ومن الجماعة، قال له العنقاء: ماذا تريد؟ قال: الدعاء لله والسؤال منه بالنصر والتأييد، فدعا له الملك بالنصر وأمَّنتِ الجماعة.

ثم قال البوم: «أيها الملك إن الدعاء إذا لم يكن مستجابًا فعناء ونَصَب وتَعَب بلا فائدة؛ لأن الدعاء لقاح والإجابة نتيجة فإذا لم يكن الدعاء مع الشرائط لم ينجح، قال الملك: فما شرائط الدعاء المستجاب؟ قال: النية الصادقة، وإخلاص القلوب كالمضطر، وأن يتقدَّمه الصوم، والصلاة والتوبات والصدقة، والبر، والمعروف، قالت الجماعة: صدقتَ وبررتَ فيما قلتَ أيها الزاهد الحكيم العالم العابد.»

قال العنقاء للجماعة من الجوارح الحضور: أما ترون معشر الطيور ما وقعنا فيه من جور بني آدم وتعذيبهم الحيوانات؟! حتى بلغ الأمر إلينا مع بُعْد ديارنا منهم ومجانبتنا إياهم وتركنا مداخلتهم! فأنا مع عظم جثتي وخَلْقي وشدة قوتي وسرعة طيراني تركتُ ديارهم وهربتُ منهم إلى الجزائر والبحار والجبال، وهكذا أخي الكَرْكَدَّن لزم البراري والقفار، وبعد مِن ديارهم طلبًا للسلامة من شرهم، ثم لم نتخلص من شرِّهم حتى أحوجونا إلى المناظرة والمحاججة والمحاكمة، ولو أراد أحد منا أن يختطف كل يوم منهم عددًا كثيرًا، لكُنَّا قادرين عليهم، ولكن من شيم الأحرار أن يجاوروا الأشرار ويعاملوهم ويكافئوهم على سوء أفعالهم، ولا يفعلوا مثل فعلهم، بل يتركونهم ويبعدون عنهم ويَكِلونهم إلى ربهم ويشتغلون بمصالحهم وبما يجر المنفعة وراحة القلب في المعاد.

ثم قال العنقاء: وكم من مركب في البحر طرحتْه الرياح عندي، فهديتُهم الطريق! وكم غريق كُسر به المركب فأنجيتُه إلى السواحل والجزائر! كل ذلك طلبًا لمرضاة ربي وشكرًا للنعمة التي أعطاني من عِظَم الخِلْقة وكبر الجثة، فشكرًا له على إحسانه إليَّ، وهو حسبنا ومُعيننا ونعم المولى ونعم النصير.

فصل

ثم لَمَّا وصل الرسول إلى ملك حيوان البحر وهو التِّنِّين، وعرَّفه الخبر نادى مناديه، فاجتمعتْ إليه أصناف الحيوانات البحرية من التنانين والكواسج والتماسيح والدلافين والحيتان والسموك والسرطانات والكرازنك والسلاحف والضفادع وذوات الأصداف والفلوس، وهي نحو سبعمائة صورة مختلفة الألوان والأشكال، فعرَّفها الخبر وما قاله الرسول، ثم قال التنين للرسول: بماذا يفتخر بنو آدم على غيرهم؟ أبكبر الجثة أم بالشدة والقوة أو بالقهر والغلبة؟ إن كان افتخارهم بواحدة منها ذهبتُ إلى هناك ونفختُ نفخة واحدة أحرقتُهُم من أولهم إلى آخرهم، ثم جذبتُهم برجوع نفسي فبلعتُهم.

قال الرسول: لا يفتخرون بشيء من ذلك، ولكن برجحان العقل وفنون العلم وغرائب الأدب ولطائف الحِيَل ودقَّة الصنائع والفكر والتمييز والروية وذكاء النفس.

قال التنين: صف لي شيئًا منها لأعلمه، قال: نَعَم، أيها الملك، ألستَ تعلم أن بني آدم ينزلون بحِيَلهم وعلومهم وحكمهم إلى قرار البحار الزاخرة المظلمة الكثيرة الأمواج ليستخرجوا من هناك الجواهر من الدرر والمرجان، وهكذا يُعمِلون الحيلة ويصعدون إلى رءوس الجبال الشامخة فيُنزِلون منها النسور والعقبان، وهكذا بالحيلة يعملون العجلة من الخشب ويشدونها في صدور الثيران وأكتافها، ثم يحملون عليها الأحمال الثقال وينقلونها من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، ويقطعون البراري والقفار والمفاوز.

وهكذا بالعلم والحيلة يبنون السفن والمراكب ويحملون فيها الأمتعة ويقطعون بها سعة البحار البعيدة الأقطار.

وهكذا بالعلم والحيلة يدخلون في كهوف الجبال ومفازات التلال وعمق الأرض فيخرجون منها الجواهر المعدنية والذهب والفضة والحديد والنحاس وغير ذلك.

وهكذا بالعلم والحيلة إذا نصب أحدهم على ساحل بحر أو على شط جزيرة أو على شرعة نهر طلسمًا أو صنمًا أو لعبة لم تقدر عشرة آلاف منكم يا معشر التنانين والكواسج والتماسيح أن تجتاز هناك أو تقرب من ذلك المكان، ولكن ليس أيها الملك بحضرة ملك الجن إلا العدل والإنصاف في الحكومة والحجة البينة لا بالقهر والغلبة والمكر والحيلة.

ولما سمع التنين مقالة الرسول قال لَمَن حوله مِن جنوده: ألا تسمعون؟! ماذا تَرَوْن؟ وأي شيءٍ تقولون؟ أيكم يذهب إلى هناك فيناظر الإنس وينوب عن الجماعة من إخوانه وأبناء جنسه.

قال له الدلفين منجي الغرقى: الحوت أولى حيوان البحر بهذا الأمر هو؛ لأنه أعظمها خِلْقة، وأكبرها جسمًا، وأحسنها صورة، وأنظفها بشرة، وأنقاها بياضًا، وأملسها بدنًا، وأسرعها حركة وأشدها سباحة وأكثرها عددًا ونتاجًا، ومن كان من أبناء جنسها من السموك حتى إنه قد امتلأت منها البحار والأنهار والبطائح والعيون والجداول والسواقي، صغارًا وكبارًا، وللحوت أيضًا يد بيضاء عند بني آدم حيث أجار نبيًّا لهم وآواه في بطنه وردَّه إلى مأمنه، والإنس أيضًا يرون ويعتقدون أن مستقر الأرض على ظهر الحوت.

قال التنين للحوت: ماذا ترى فيما قال الدلفين؟ قال: صدق في كل ما قال، ولكن لا أدري كيف أذهب إلى هناك؟ وكيف أخاطبهم وليس لي رجلان أمشي بهما ولا لسان ناطق ولا صبر لي عن الماء ساعة واحدة؟ ولكن أرى أن السلحفاة يصلح لهذا الأمر؛ لأنه يصبر عن الماء ويرعى في البر ويعيش كما يعيش في البحر، ويتنفس في الهواء كما يتنفس في الماء، وهو مع هذا قوي البدن، صلب الظهر، جيد العضو، حليم وقور صبور على الأذى محتمل الأثقال.

قال التنين للسلحفاة: فما ترى فيما قال؟ قال: صدق الحوت، ولكني لا أصلح لهذا الأمر؛ لأني ثقيل المشي والطريق بعيد وقليل الكلام أخرس، ولكن السَّرَطان يصلح لهذا الأمر والشأن؛ لأنه كثير الأرجل جيد المشي سريع العدْو حادُّ المخالب شديد العضِّ ذو فكَّيْن وأظافر حداد كثير الأسنان صلب الظهر مقاتل متدرِّع.

قال التنين للسرطان: ماذا ترى فيما ذكر السلحفاء؟

قال: صدق، ولكن لا أدري كيف أذهب إلى هناك مع عجيب خلقتي وتعوُّج صورتي، أخاف أن أكون شهرة هناك، قال التنين: كيف ذلك؟

قال: لأنهم يَرَوْني حيوانًا بلا رأس، عيناه على كتفَيْه، فمه في صدْره وفكَّاه مشقوقتان من جانبين، وله ثماني أرجل مقوسة معوجَّة ويمشي على جانبه وظهره كأنه من رصاص، قال التنين: صدقتَ، فمَن ترى يصلح لهذا الأمر أن يُوجَّه إلى هناك؟ قال السرطان: أظن أن التمساح يصلح لهذا الأمر؛ لأنه طويل الخلقة، شديد الأرجل، جيد المشي، سريع العدْو، واسع الفم، طويل اللسان، كثير الأسنان، قوي البدن، مهيب النظر، شديد الرصد لمطلبه، غواص في الماء وفي الطلب.

قال التنين للتمساح: ماذا تقول فيما ذكر السرطان؟ قال: صدق، ولكني لا أصلح لهذا الأمر؛ لأني غضوب ضجور وثَّاب مختلس فرَّار غدَّار، وإن الأمر ليس هناك بالقهر والغلبة، ولكن بالحلم والوقار والعدل والتمييز والفصاحة والبيان، والعدل والإنصاف في الخطاب.

قال التمساح: ولستُ أتعاطَى شيئًا من هذه الخصال، ولكني أرى الضفدع يصلح لهذا الأمر؛ لأنه حليم وقور صبور، وَرِع كثير التسبيح والتهليل بالليل والنهار وفي الأسحار، كثير الصلاة والدعاء بالعشي والإبكار، وهو يُداخِل بني آدم في منازلهم، وله عند بني إسرائيل يد بيضاء مرتين؛ إحداهما: يومَ طَرَحَ النمرودُ إبراهيمَ خليلَ الرحمن في النار، فإنه كان ينقل الماء بفيه فيصبه في النار على إبراهيم لتطفأ، ومرة أخرى: فإنه كان أيام موسى بن عمران معاونًا له على فرعون، وهو مع ذلك فصيح اللسان، جيد البيان كثير الكلام والتسبيح والتهليل والتكبير، وهو من الحيوان الذي يعيش في الماء، ويأوي البر والبحر، ويحسن المشي والسباحة جميعًا، وله رأس مدور مقنع، وعينان براقتان وذراعان وكفان مبسوطان، ويمشي متخطيًا ومتقفزًا سريعًا، ويقعد مربعًا، ويدخل منازل بني آدم ولا يَخافهم ولا يخافون منه.

قال التنين للضفدع: ماذا ترى فيما ذكر التمساح؟ قال: صدق، أنا أمر إلى هناك، وأنوب عن الجماعة من إخواننا وحيوان الماء أجمع، ولكني أريد أن تدعو الله بالنصر والتأييد والدعاء بدعاء مستجاب، قال التنين: كيف يكون الدعاء المستجاب؟ قال كما ذكر البوم للعنقاء في الفصل الذي قبل هذا الفصل، قالوا: نَعَم، صدق، فدَعَوا الله جميعًا بالنصر والتأييد له وودَّعوه، وسار عنهم وقدم على ملك الجن.

(١٢) فصل في بيان شفقة الثعبان على الهوام ورحمته لهم

ولَمَّا وصل الرسول إلى ملك الهوامِّ، وهو الثعبان، وعرَّفه الخبر نادى مناديه، فاجتمعتْ إليه أصناف الحيوانات من الهوام، مثل الأفاعي والحيات والعقارب والجرارات والدخالات والصنب وسام أبرص والحرابي والعظايا والخنافس وبنات وروان والعناكب والنمل والجنادب والبراغيث والقمل والسوالك والفار والصراصر وأصناف الديدان مما يتكون في العفونات أو يدبُّ على رءوس الأشجار أو يتكون في لبِّ الحبوب وقلوب الشجر وجوف الحيوانات الكبار والأَرَضة والحيوان الذي يتولَّد في الخلِّ أو في الثلج أو في ثمرة الشجرة والسوس، وما يتولَّد في السرقين أو في الطين، وما يدب في المغارات والظلمات والأهوية،

فاجتمعتْ كلها عند ملكها لا يُحصِيها عدد ولا يعلمها إلا الله الذي خلقها كلها وصوَّرها ورزقها ويعلم مستقرَّها ومستودعَها.

فلما نظر الملك إليها وهي من عجائب الصور وأصناف الأشكال بقى متعجبًا منها ساعة طويلة، ثم فتَّشها، فإذا هي أكثر الحيوانات عددًا وأصغرها جثة وأضعفها بنية وأقلها حيلة وحواسَّ وشعورًا، وبقى متفكرًا في أمرها، ثم قال الثعبان لوزيره الأفعى: مَن ترى يصلح من هذه الطوائف أن نبعثه هناك للمناظرة؟ فإن أكثرها صمٌّ بكمٌ عميٌ بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا منقار ولا مخلب ولا ريش على أبدانها ولا شعر ولا وبر ولا صوف ولا فلوس، وإن أكثرها عُراة حُفاة حَسْرى ضعفاء فقراء مساكين بلا حيلة ولا حول ولا قوة، وأدركتْه رحمة عليه وتحنُّن وشفقة ورأفة ورقَّ قلبُه عليها، ودمعتْ عيناه من الحزن، ثم نظر إلى السماء، ثم دعا وقال في دعائه: يا خالق الخلق، ويا باسط الرزق، ويا مدبر الأمور، ويا أرحم الراحمين، ويا مَن هو بالمنظر الأعلى، ويا مَن هو يسمع ويرى، ويا مَن يعلم السِّرَّ وأخفَى، أنتَ خالقُها ورازقها، وأنت مصوِّرها ومدبِّرها ومُبدِئها ومُعِيدها ومُحيِيها ومُمِيتها، كُنْ لها ولنا وليًّا وحافظًا وناصرًا ومعينًا وهاديًا ومرشدًا يا أرحم الراحمين، ويا رب العرش العظيم، فنطقتْ كلها بلسان فصيح، وقالت: آمين آمين رب العالمين.

(١٣) فصل في بيان خطبة الصرصر وحكمته

فلما رأى الصرصر ما أصاب الثعبان من التحنُّن والرأفة والرحمة على رعيته وجنوده وأعوانه وأبناء جنسه ارتقى إلى حائط بالقرب منه، وحرك أوتاره، وزمر بمزماره، وترنم بأصوات وألحان ونغمة لذيذة بالتحميد لله والتوحيد له، فقال: الحمد لله نحمده، ونستعينه ونشكره على نعمائه السابغة وآلائه الدائمة، فسبحان الله الحنان المنان الديان! سبحان الواحد الأحد سبوح قدوس، رب الملائكة والروح، الحي القيوم، ذو الجلال والإكرام، والأسماء العظام، والآيات والبرهان، قبل الأماكن والأزمان، والجواهر ذوات الكيان، لا هواء فوقه ولا ماء تحته، محتجبًا بنوره متوحدًا بوحدانيته وأسرار غيبه حين لا سماء مبنية ولا أرض مدحية، فسبحان الظاهر بالنسبة إلى ذاته لكل شيء، والخفي بالنسبة إلى ذاته عن كل شيء، ثم قضى ودبَّر وقدَّر كما شاء قدَّر، وأراد ثم أبدع نورًا بسيطًا لا من هَيُولَى متهيئة ولا من صورة متوهَّمة، بل بقوله: كن، فكان، فهو العقل الفعَّال ذو العلم والأسرار، خلق الخلائق لا لوحشة كانت في وحدته ولا استعانة بها على

أمر من أموره، ولكن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقِّب لحكمه ولا مردَّ لقضائه، وهو السريع الحساب.

ثم قال: أيها الملك المشفِق الرحيم الرءوف المتحنِّن على هذه الطوائف، لا يغمك ما ترى من ضعف أبدان هذه الطوائف وصغر جثتها وعمرها وفقرها وقلة حيلتها، فإن الله الذي هو خالقُها ورازقها هو أرحم الراحمين بها وعليها من الوالدة المشفِقة على أطفالها ومن الأب الرحيم على أولاده، وذلك أن الخالق — جلَّ ثناؤه — لما خلق الحيوانات المختلفة الصورة مفنَّنة الأشكال ورتَّبها مراتبها على منازل شتَّى ما بين كبير الجثة عظيم الخلقة قوي البنية شديد القوة، وما بين صغير الجثة ضعيف البنية قليل الحيلة ساوى بينهما في المواهب الجزيلة من الآلات والأدوات التي تُتناوَل بها المنافع، وتُدفَع بها المضرَّات، فصارتْ متكافئة في العطية.

مثال ذلك أنه لما أَعطَى الفيل الجثة العظيمة والبنية القوية والقوة الشديدة، ليدفع المكاره عن نفسه بأنيابه الطوال الصلاب، ويتناول المنافع بخرطومه الطويل أعطى أيضًا البقة الصغيرة الجثة الضعيفة البنية عوضًا من ذلك الجناحين اللطيفين، وسرعة الطيران، فتنجو من المكاره، وتتناول الغذاء بخرطومها، فصار الصغير والكبير في هذه المواهب التي تُجرُّ بها المنفعة، وتُدفَع بها المضرة متساوية، فهكذا ثمر الخالق الباري والمصور لهذه الطوائف الضعفاء الفقراء اللواتي تراها عراة حفاة حسرى، وذلك أن الباري — جلَّ ثناؤه — لما خلقها على هذه الأحوال التي تراها كفاها أمر مصالحها من جر المنفعة أو دفع المضرة عنها.

فانظر أيها الملك، وتأمل واعتبر أحوالها، فإنك ترى ما كان أصغر منها جثة وأضعف بنية وأقل حيلة كان أروح بدنًا وأربط جأشًا، وأسكن روعًا في دفع المكاره عن غيرها، وكان أطيب نفسًا وأقل اضطرابًا في طلب المعاش وجر المنافع وأخف مؤنة مما هو أعظم جثة وأقوى بنية وأكثر حيلة.

بيان ذلك أنك ترى إذا تأملتَ وجدتَ الكبار منها القوية البنية الشديدة القوة تدفع عن نفسها المكاره بالقهر والغلبة والقوة والجلد كالسباع والفيلة والجواميس وأمثالها وسائر الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة الخلقة الشديدة القوة، فمنها ما تدفع عن نفسها المكاره والضرر بالفرار والهرب وسرعة العدو كالغزلان والأرانب وغيرها من حمر الوحش، ومنها بالطيران والتخلف بالجو كالطيور، ومنها بالغوص في الماء والسباحة فيه، ومنها ما تدفع المكاره والمضار بالتحصن والاختفاء في الأجحرة والثقب كالفأرة والنمل

كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقيل لما سمع سليمان — عليه السلام — ذلك أَمَرَ بإحضار النملة فلما دخلتْ قالت: سلامٌ عليك يا نبي الله، إني وقعتُ فيما احترزتُ منه، فتعجَّب سليمان من قولها.

فلما وضعها على كفِّه سأل النملة: لماذا قلتِ: لا يحطمنكم سليمان وجنوده؟ ألستِ تدرين أني لا أظلم أحدًا؟ ولا أرْضى أن تَظلِم جنودي؟! فلو سمعتِ من هذا شيئًا فأخبريني، ولماذا قلتِ: إني وقعتُ فيما احترزتُ منه؟ ألستِ تعلمين أني لستُ بجائر ولا ظالم على خلق الله تعالى؟! فلم قلتِ هذا؟ قالت النملة: معاذ الله، إني أريد بتلك الإشارات حسبما فهمتَ، لكنِّي أريد بذلك أن الله أعطاك ملكًا لا يكون لأحد من بعدك من الزينة والعدل والإنصاف، وناديتُ مِن أجْل أنهم لا يخرجون من البيوت، ولا يشتغلون بالنظارة ليفوت عنهم ذكر الله — تعالى — أردتُ بذلك الإشارة إلى هذا المعنى، ومنها ما قد ألبسه الله من الجلود الثخينة الجزلة كالسلحفاة والسرطان والحلزون وذوات الأصداف من حيوان البحر، ومنها ما تدفع المكاره والضرر عن نفسها بإدخال رءوسها تحت أبدانها كالقنفد.

أما فنون تصاريفها في طلب المعائش والمنافع فمنها ما يصل إليه ويهتدي إليه بجودة النظر وشدة الطيران كالنسور والعقبان.

ومنها بجودة الشم كالنمل والجعلان والخنافس وغيرها.

ومنها ما يهتدي ويصل إليه بجودة الذوق كالسمك وغيرها من حيوان الماء.

ومنها بجودة الاستماع والأوصاف كالنسر، ولما منع الباري الحكيم هذه الطوائف والحيوانات الصغار الجثة الضعاف القوى والبنية القليلة الحيلة هذه الآلات والأدوات والحواس وجودتها لَطَف بها وكفاها مئونة الطلب وأسباب الهرب، وذلك أنه جعلها في مواضع كَنِينة وأماكن حَرِيزة، إما في الثِّقاب وإما في حب النبات وإما في أجواف الحيوانات الكبار أو في الطين أو في السرقين، وجعل غذاءها مختصًّا بها، وموادها حواليها، وجعل في أبدانها قوًى جاذبة تمتص بها الرطوبات المغذِّية لأبدانها المقوِّية لأجسادها، ولم يُحوِجها إلى الطلب ولا إلى الهرب.

فمِن أجل هذا لم يَخلق لها رِجْلين تمشي ولا يدين تتناول، ولا فمًا يفتح، ولا أسنانًا تمضغ، ولا حلقومًا يبلع، ولا مَرِيًّا يزدرد، ولا حوصلة تنقع فيها، ولا قانصة ولا معدة ولا كرشًا ينطبخ الكيموس فيها، ولا أمعاء ولا مصارين للثقل ولا كبدًا تصفِّي الدم، ولا طحالًا تجذب فضلات الكيموس الغليظة، ولا مرارة تجذب اللطيفة، ولا كليتين ولا

مثانة تجذب البول، ولا أورادًا يجري الدم فيها للنبض، ولا أعصابًا من الدماغ للحس، ولا تعرض لها الأمراض المزمنة والعِلَل المؤلِمة، ولا تحتاج إلى دواء ولا علاج ولا عناء من الآفات التي تَعرِض للحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية الشديدة القوة، فسبحان الخالق الحكيم الذي كفاها هذه المطالب، وهذه المئونة وأراحها من التعب والنصب، فله الحمد والمنة والشكر والثناء على جزيل مواهبه وعظيم نعمائه وحسن آلائه.

فلما فرغ الصرصر من هذه الخطبة، قال له الثعبان ملك الهوام: بارك الله فيك من خطيب، ما أفصحك! ومِن مذكِّر، ما أعلمك! ومِن واعظٍ، ما أبلغك! والحمد لله الذي جعل في أجناس هذه الطائفة مثل هذا الحكيم الفاضل المتكلِّم الفصيح، ثم قال له الثعبان: امضِ إلى هناك فتنوب عن الجماعة في المناظرة مع الإنس، قال: نَعَم، سمعًا وطاعةً للملك ونصيحة للإخوان، قالتِ الحية عند ذلك: لا تذكر عندهم أنك رسول الثعبان والحيات، قال الصرصر: ولِمَ ذلك؟ قالت: لأن بين بني آدم وبين الحيات عداوة قديمة وحقد كامن، لا يُقدَر قدْره، حتى إن كثيرًا من الإنس يعترضون على ربهم فيقولون: لِمَ خَلَقَها؟! فإنه ليس في خلقها منفعة ولا فائدة ولا حكمة، بل ضرر كله، قال الصرصر: ولِمَ يقولون ذلك؟ قالت: مِن أجْل السمِّ الذي بين فكَّيْها، فإنه ليس فيه منفعة إلا هلاك الحيوانات وموتها، كل ذلك جهل منهم بمعرفة حقائق الأشياء ومنافعها ومضارِّها، ثم قالت: لا جرم؛ فإن الله — جلَّ ثناؤه — أبلاهم بها وعاقبهم على ذلك حتى أحوج ملوكهم إلى اقتناء سمومها تحت فصوص الخواتم لوقت الحاجة إليها، فلو أنهم فكَّروا واعتبروا أحوال الحيوانات وتصاريف أمورها لتبيَّن لهم ذلك، وعرفوا عظيم منفعة السموم في فكوك الأفاعي لِمَ خَلَقَها الباري — تعالى — وما الفائدة فيها، ولو عرفوها لما قالوا ذلك ولا اعترضوا على ربهم في أحكام مصنوعاته؛ لأن الباري — تعالى — لو خلق سبب هلاك الحيوانات في بصاقنا لجعل لحومنا سببًا لدفع تلك السموم؛ وذلك أن الأطباء الأقدمين قد وجدوا في لحومنا قوة تُقاوِم سمومَنا، فأدخَلوا لحومنا في الترياق لتُقاوِم السم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

قال الصرصر: أفِدْنا أيها الحكيم فائدة أخرى، وعرِّفنا لنكون على علم منها، قالت الحية: نَعَم، أيها الخطيب الفاضل، اعلم بأن الباري الحكيم لما خلق هذه الحيوانات التي ذكرتَها في خطبتك وقلتَ إنه أعطَى كل جنس منها أدوات وآلات لتجرَّ المنفعة أو لتدفع المضرَّة، فأعطى بعضها مَعِدةً حارَّة أو كرشًا أو قانصة، فينضج الكيموس فيها بعد المضغ الشديد ويصير غذاءً لها، ولم يُعطِ الحيات معدة حارة ولا قانصة ولا كرشًا ولا

أضراسًا تمضغ اللحوم، فإنه جعل في فكَّيْها عوضًا منها سمًّا حارًّا منضجًا لما تأكل من اللحمان، وذلك أنها إذا قبضتْ على جثة الحيوانات وحصلت بين فكَّيْها قلَّبتْ من ذلك السم عليها لمضغها من ساعتها، وتبلعها وتزدردها وتستمرئها، فلو لم يكن هذا السم لما استمرأت الأكل ولا حصل لها غذاء، ولماتت جوعًا وضرًّا وهلكت عن آخرها، وما بقي أحد منها في ديار.

قال الصرصر: لعمري، قد تبيَّن لي منفعة السم، فما منفعة الحيات للحيوان؟ وما الحكمة والفائدة في خِلْقتها وكونها في الأرض بين الهوام؟

قالت: كمنفعة السباع وكونها بين الوحوش والأنعام والبهائم، وكمنفعة كون التنين في البحر والكواسج والتماسيح، وكمنفعة النسور والعقبان والجوارح في الطيور.

قال الصرصر: زيديني بيانًا، قالت: نَعَم، إن الله — جلَّ ثناؤه — أبدع الخلق واخترعه بقدْرته، ودبَّر الأمور بمشيئته، فجعل قوام الخلائق بعضها ببعض، وجعل لها عللًا وأسبابًا لما رأى فيها من إتقان الحكمة وصلاح الكل، ونفع العموم، ولكن ربما يعرض من جهة العلل والأسباب آفات وفساد لبعض، لا بقصد من الخالق تعمُّدًا، ولكن بعلمه السابق بما يكون قبل أن يكون، ولم يمنع علمه بما يكون منها من الفساد والآفات أن يخلقها؛ إذ كان النفع فيه أعمَّ والصلاح أكثر من الفساد.

بيان ذلك أن الله — عزَّ وجلَّ — لما خلق الشمس والقمر وسائر الكواكب جعل الشمس سراجًا للعالَم، وحياة وسببًا للكائنات بحرارتها، ومحلها من العالم محل القلب من البدن تنبثُّ منه الحرارة الغريزية إلى سائر أطراف البدن التي هي سبب الحياة وصلاح الجملة.

وهكذا حكم الشمس حياة وصلاح للكل والنفع للعموم، ولكن ربما يعرض منها تلف وفساد لبعض الحيوانات والنبات فيكون ذلك مغفورًا في جنب نفع العموم وصلاح الكل.

وهكذا حكم زُحَل والمِرِّيخ وسائر كواكب الفلك، خلقها لصلاح العالم ونفع العموم، وإن كان يعرض لها في بعض الأحيان المناحس من إفراط حر أو برد.

وهكذا حكم الأمطار يرسلها الله لحياة البلاد، وصلاح العباد من الحيوان والنبات والمعادن، وإن كان ربما يكون منها فساد وهلاك لبعض الحيوانات والنبات.

وهكذا حكم الحيات والسباع والتنين والتماسيح والهوام والحشرات والجراد، كل ذلك خلقه الله من المواد الفاسدات والعفونات الكائنة ليصفو الجو والهوام، ولئلا يعرض

لها الفساد من البخارات المتصاعدة فيتعفن الهواء ويكون من ذلك أسباب للوباء وهلاك الحيوانات كلها دفعة واحدة.

بيان ذلك أن الديدان والذباب والبق والخنافس لا تكون في دكان البزاز والحداد والنجار، بل في دكان القصاب أو السمان أو اللبان أو الدباس أو في السماد والسرقين، فإذا خلقها الله — تعالى — من تلك العفونات امتصت ما فيها وتغذَّت بها وصَفَا الهوا منها وسَلِم من الوباء، ثم تكون تلك الحيوانات الصغار مأكولة وأغذية لما هو أكبر منها، وذلك من حكمة الخالق — جلَّ جلالُه — أنه لا يصنع شيئًا بلا نفع ولا فائدة، فمَن لا يعرف هذه النِّعَم فربما يعترض على ربه فيقول: لِمَ خلقها؟ وما النفع فيها؟ كل ذلك جهلًا منه واعتراضًا على ربه في أحكام صنعته وتدبيره في ربوبيته، وقد سمعنا بأن جَهَلَة الإنس يزعمون بأن عناية الباري لم تتجاوز فلك القمر، فلو أنهم فكروا واعتبروا أحوال الموجودات لعلموا وتبيَّن لهم أن العناية شاملة لصغير الخلقة وكبيرها بالسوية.

ولَمَّا قالوا الزور والبهتان في حق الله تعالى، تعالى الله عما يقول الظالمون علا علوًّا كبيرًا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. فبهذا انقضى الكلام من الرسل.

فصل

ولما كان الغد وردت زعماء الحيوانات من الآفاق، وقعد الملك لفصل القضاء، ونادى المنادي: ألا مَن له مظلمة؟ ألا مَن له حكومة فليحضر؛ فإن الحاجات تُقضى؛ لأن الملك قد جلس لفصل القضاء، وحضرتْ قضاة الجن وفقهاؤها وعدولها وحكَّامها وحُكَماؤها، وحضرت الطوائف الواردة من الآفاق من الجن والإنس والحيوانات، فاصطفَّت يَمنة ويَسرة أمام الملك، ودعت له بالتحية والسلام.

ثم نظر الملك يمنة ويسرة فرأى من أجناس الحيوانات واختلاف الصور وفنون الأشكال والألوان والأصوات والنغمات، وبقي متعجِّبًا منه ساعة.

ثم قال: سبحان الذي خلق الأشياء برحمته! وأوجد الحيوانات بقدرته! وجعل بعضها شريفًا وبعضها خسيسًا وبعضها كبير الجثة وبعضها صغير الجثة، وبعضها ذو نطق وبعضها أخرس، وجعل مقرَّ بعضها في الهواء، ومقر بعضها في الماء، وبعضها في البراري والقفار والجبال والكهوف والمغارات، ربنا ما خلقتَ هذا باطلًا، سبحانك! ما أعظم شأنك!

ثم التفت الملك إلى حكيم من فلاسفة الجن فقال له: ألا ترى هذه الخلائق العجيبة الشان من خلق الرحمن؟!

قال: نَعَم أيها الملك، أراها بعين رأسي، وأشاهد صانعها بعين قلبي، والملك متعجب منها، وأنا متعجب من حكمة الصانع الحكيم الذي خلقها وأنشأها وبرأها ويربِّيها ويرزقها ويحفظها ويعلم مستقرها ومستودعها، كل ذلك في كتاب مبين عنده، ولا لغلط ولا لنسيان؛ بل لتحقيق وبيان؛ لأنه لما احتجب عن رؤية الأبصار بحُجُب الأنوار، وجلَّ وعلا عن تصوُّر الأوهام والأفكار أظهر مصنوعاته إلى مشاهدة الأبصار وأخرج ما في مكنون غيبه إلى الكشف والإظهار والبيان ليدركه العيان ويستغني عن الدليل والبرهان.

ثم اعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والأشكال والهياكل والصفات التي تراها في عالم الأجسام وجواهر الأجرام هي مثالات وأشباه وأصباغ لتلك الصور التي في عالم الأرواح، غير أن تلك نورانية شفافة، وهذه ظلمانية كاسفة، ومناسبة هذه إلى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التي على وجوه الألواح وسطوح الحيطان إلى هذه الصور والأشكال التي عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود؛ لأن تلك الصور التي في عالم الأرواح محرِّكات، وهذه متحركات والتي دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات فاسدات، وتلك ناطقات معقولات روحانيات غير مرئيات باقيات.

ثم قام حكيم الجن فخطب وحمد الله، وأثنى عليه فقال: الحمد لله خالقِ المخلوقات وبارئ المبروآت ومبدع المُبدَعات ومخترع المصنوعات، ومقلب الأزمان والدهور والأوقات، ومنشئ الأماكن والجهات، مدبِّر الأفلاك وموكل الأملاك، ورافع السبع السموات وباسط الأرضين المدحوات من تحت طباق السموات، ومصور الخلائق ذوي الأوصاف المختلفات والألوان واللغات، هو المنعم بأنواع العطايا وفنون الروايات، خلق فسوَّى وقدَّر فهدى وأمات وأحيا، وهو بالنظر الأعلى، وهو القريب البعيد؛ بعيد من إدراك الحواس المدركات قريب في الخلوات من ذوي المناجاة، فسبحان الذي جعل الطيبين للطيبات، وجعل الخبيثين للخبيثات، وسبحان الذي خلق المؤمنين والمؤمنات، وأوجد المسلمات، وأظهر العابدين والعابدات، وألْهَم القائمين والقائمات، وأعان الصائمين والصائمات، وهدى التائبين والتائبات، وأنطق الذاكرين والذاكرات، لا تدركه الأبصار، ولا تمثِّله الأخبار، كلَّتْ ألسُن الواصفين له بكُنْه الصفات، وتحيَّرتْ عقول ذوي الألباب بالفكرة في جلال عظمته

وعز سلطانه ووضوح آياته وبرهانه، فلا القوة العقلية تدركه، ولا القوة النطقية تَصِفه، وهو الله الواحد القهار العزيز الغفار، الذي خلق الجان قبل آدم من نار السموم أرواحًا خفية وأشباحًا لطيفة، صورًا عجيبة وحركات سريعة، تسبح في الجو كيف تشاء بلا كدر ولا عناء، وذلك من فضل الله علينا، وهو الذي خلق أصناف الخلائق من الجن والإنس والملائكة والحيوانات البرية والبحرية أصنافًا مختلفة الأشكال والصور، ورتبها أصنافًا كما شاء.

فمنها ما هي مراتبها في أعلى عليين، وهم الملائكة المقربون وعباده المصطَفَوْن، خلقهم من نور عرشه فهم حملته.

ومنها ما هي في أسفل السافلين وهم مَرَدة الشياطين وإخوانهم من الكافرين والمنافقين والحاسدين والمنكرين لمصنوعاته من الجن والإنس أجمعين.

ومنها ما بين ذلك وهم عباده الصالحون من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، فالحمد لله الذي أكرمنا بالإيمان وهدانا إلى الإسلام، وجعلنا خلفاء في الأرض، كما قال تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، والحمد لله الذي خص مَلِكنا بالعلم والحلم والإحسان والعدل والإنصاف، وذلك من فضل الله علينا، فاسمعوا وأطيعوا إن كنتم تعقلون، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فلما فرغ الحكيم من كلامه نظر الملك إلى جماعة من الإنس وهو وقوف نحو سبعين رجلًا مختلفي الهيئات واللباس واللغات والأشكال والألوان، فقال: سبحان الذي خلق الإنسان من ماءٍ مهين! سبحان الذي خلق الإنسان من نطفة في قرار مكين! سبحان الذي خلق الإنسان من صلصال كالفخار! سبحان الذي جعل النطفة علقة ثم جعل العلقة مضغة ثم جعل المضغة عظامًا، ثم كسا العظام لحمًا وجلدًا، ثم نفخ فيه من روحه، فتبارك الله أحسن الخالقين، سبحان الذي قدَّر وهدى! وأمات وأحيا! سبحان الذي جعل الإنسان أكرم الحيوانات وأفضل الموجودات! سبحان الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم! سبحان الله رب العرش العظيم.

ثم نظر الملك فرأى فيهم رجلًا معتدل القامة مستوي البنية حسن الصورة مليح البزة لطيف الجملة صافي البنية حلو المنظر خفيف الروح، فقال للوزير: مَن هو ذاك؟ ومِن أين هو؟ فقال رجل من بلاد إيرانشهي، يعني به العراق، قال الملك: قل له يتكلم، فأشار إليه الوزير، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

فقال: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلَّى الله على محمد وآله الطيبين، والحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الحنان المنان ذي الجلال والإكرام ذي الفضل والإنعام، الذي كان قبل الأماكن والأزمان والجواهر والأكوان ذوات الكيان، ثم بدأ واخترع وأخرج من مكنون غيبه نورًا ساطعًا، ومن النور نارًا أجاجًا وبحرًا من الماء رجراجًا، وجمع بين الماء والنار، وكان دخانًا موردًا وزَبَدًا ملبدًا، فخلق من الزَّبَد السموات المسموكات، ومن الزبد الأرضين المدحوات، وثقَّلها بالجبال الراسيات، وحفر البحار الزاخرات، فأرسل الرياح الذاريات بتصاريفها في الجهات، وأثار من البحار والبخارات المتصاعدات، ومن الأرضين الدخانات المعتكرات، وألَّف منها الغيوم والسحائب المنشآت، وساقها بالرياح إلى البراري والقفار والفلوات، وأنزل منها القطر والبركات، وأنبت العشب والنبات متاعًا لنا ولأنعامنا.

والحمد لله الذي خلق من الماء بشرًا وخلق منها زوجها ليسكن إليها، وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وبارك في ذريتهما وسخر لهما في البر والبحر متاعًا إلى حين، ثم إنهم بعد ذلك لميتون ثم إنهم يوم القيامة يبعثون.

والحمد لله الذي خصنا بأوسط البلاد مسكنًا وأطيبها هواءً ونسيمًا وتربة، وأكثرها أنهارًا وأشجارًا وثمارًا، وفضلنا على كثير من عباده تفضيلًا، فله الحمد والمن والثناء؛ إذ خصنا بذكاء النفس وصفاء الأذهان ورجحان العقول، فنحن بهدايته استنبطنا العلوم الغامضة، وبرحمته استخرجنا الصنائع البديعة وعمرنا البلاد، وحفرنا الأنهار، وغرسنا الأشجار، وبنينا البنيان، ودبرنا المُلْك والسياسة، وأوتينا النبوة والرسالة.

فمنَّا نوح النبي عليه السلام، وإدريس الرفيع، وإبراهيم خليل الرحمن، وموسى الكليم، وعيسى المسيح، ومحمد المصطفى عليهم صلوات الله وتحياته، ومنَّا كانت الملوك الفاضلة مثل: أفريدون النبطي وسليمان بن داود الإسرائيلي، ومنوجهر الحريري، ودارا التميمي، وتُبَّع الحِمْيَري، وأزدشير بن بابكان الفارسي، وبَهْرام، وأنو شروان، وبُزُرْجُمِهْر بن تختان، وملوك الطوائف من آل ساسان، وبني سامان الذين شقُّوا الأنهار وأمروا بغرس الأشجار وبنيان المدن والقرى، ودبروا المُلْك والسياسة والجنود والرعية، فنحن لبُّ الناس، والناس لبُّ الحيوان، والحيوان لبُّ النبات، والنبات لبُّ المعادن، والمعادن لبُّ الأركان، فنحن لب أولي الألباب، فلله الحمد والمنة، وله الشكر والثناء، وإليه المصير بعد الهرم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ثم قال الملك لَمَن كان حاضرًا من حكماء الجن: ما تقولون فيما قال الإنسي من الأقاويل فيما ذكر من فضائلهم وافتخر به؟ قالوا: صدق فيما قال وتكلم، غير واحد من حكماء الجن كان يُقال له صاحب العزيمة والصرامة، فإنه ما كان يُحابِي أحدًا، وإذا تكلم واحد وكان على خطئه وزلته ردَّه عن غيِّه وضلالته.

فقال: يا معشر الحكماء، اعلموا أن هذا الإنسي قد ترك شيئًا لم يذكره في خطبته وهو ملاك الأمر وعمدته، فقال الملك: وما هو؟ قال: لم يقل: ومِن عندنا خرج الطوفان فغَرِق ما على وجه الأرض من النبات والحيوان، وفي بلادنا اختلفت الألسن وتبلبلت العقول وتحيرت الألباب.

ومنَّا كان نمرود الجبار، ونحن طرحنا إبراهيم في النار، ومنَّا كان بخت نصر مخرِّب إيليا ومحرِّق التوراة، وقاتل أولاد سليمان — عليه السلام — وآل إسرائيل، وهو الذي طرد آل عدنان من شط الفرات إلى بلاد الحجاز المتمرِّد الجبار الفتاك السفاك للدماء.

فقال الملك: كيف يقول هذا ويذكره، وكله عليه لا له؟ فقال صاحب العزيمة: ليس من الإنصاف في الحكومة والعدل في القضية أن يذكر أحد فضائله ويفتخر بها، ولا يذكر مساويَه ويتوب ويعتذر منها.

ثم إن الملك نظر إلى الجماعة، فرأى رجلًا أسمر نحيف الجسم طويل اللحية، موفور الشعر متوشحًا بإزار أحمر على وسطه، فقال: مَن هو؟ فقال: رجل من بلاد الهند من جزيرة سرنديب، قال الملك للوزير: مره، فأمر له أن يتكلم.

فصل

قال الهندي: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد القديم السرمد، الذي كان قبل الدهور والأزمان والجواهر والأكوان، ثم أنشأ بحرًا من النور عجاجًا، فركب فيه الأفلاك وأدارها، وصوَّر الكواكب فسيَّرها، وقسم البروج فأطلعها، وبسط الأرض فأسكنها، وخط الأقاليم وحفر البحار وأجرى الأنهار وأرسى الجبال وفسح الفلوات وأخرج النبات وكوَّن الحيوان، وخصنا بأوسط البلاد مكانًا وأعدلها زمانًا حيث يكون الليل والنهار متساويين، والشتاء والصيف معتدلين، والحر والبرد غير مفرطين، وجعل تربة بلادنا أكثر معادنًا وأشجارها طيبًا ونباتها أدوية وحيوانها فيلة ودوحها ساجًا، وقصبها قَنًا، وعكرشها خيزرانًا، وحصاها ياقوتًا، وزبرجدًا وجعل مبدأ كون آدم — عليه السلام — هناك.

وهكذا حكم سائر الحيوانات بدأ كونها تحت خط الاستواء.

ثم إن الله — تبارك وتعالى — خصنا، فبعث في بلادنا الأنبياء، وجعل أكثر أهلها الحكماء.

فمنهم البدو والبرهميين وبوداسف وبلوهر، وخصنا بألطف العلوم سحرًا وعزائم وكهانة، وجعل أهل بلادنا أسرع الناس حركة، وأخفَّهم وثبًا، وأجسرهم على أسباب المنايا إقدامًا، وبالموت تهاونًا. أقول قولي هذا، وأستغفر الله — تعالى — لي ولكم.

قال صاحب العزيمة: لو أتممتَ الخطبة وقلتَ: ثم بُلينا بحرق الأجساد وعبادة البدور والأصنام والقرود، وكثرة أولاد الزنا واسوداد الوجوه وأكل التُّبُول والفلافل.

ثم نظر الملك فرأى رجلًا آخَرَ، فتأمَّل فإذا هو طويل مرتدٍ برداءٍ أصفر بيده مدرجة ينظر فيها ويزمزم ويترجح قدامًا وخلفًا.

فقال الملك للوزير: مَن هو ذاك؟ فقال رجل من أهل الشام عبراني من آل إسرائيل، فقال الملك: فمر له أن يتكلم، فأمر الوزير للعبراني، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال العبراني: الحمد لله الواحد القديم الباري الحكيم القهار الحي القيوم الذي كان فيما مضى من الدهر والأزمان، ولم يكن سواه.

ثم بدأ الخلق نورًا ساطعًا، ومن النور نارًا وقادًا وبحرًا من الماء رجراجًا، وجمع بينهما وخلق منهما دخانًا وزبدًا فقال للدخان: كن سماءها هنا، وقال للزبد: كن أرضها ها هنا، فخلق السموات فسوَّى خلقها في يومين، وبسط الأرض في يومين وخلق بين أطباقها أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس والطير والسباع والوحوش والبهائم والأنعام وغير ذلك في يومين، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، واصطفى من خلقه آدم أبا البشر، ومن أولاده وذريته نوحًا، ومن ذريته إبراهيم خليل الرحمن، ومن ذريته إسرائيل، ومن ذريته موسى بن عمران عليهم السلام، وكلَّمه وناجاه وأعطاه آية اليد والعصا والتوراة، وكتب الأنبياء عليهم السلام.

وفلق البحر وأغرق فرعون عدوه، وأنزل على بني إسرائيل المن والسلوى، وجعلهم ملوكًا وأعطاهم ما لم يُعطِ أحدًا من العالمين، فله الحمد والثناء والشكر والنعماء، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فقال صاحب العزيمة: نسيتَ ولم تقل: وجعل منَّا القِرَدة والخنازير وعَبَدَةَ الطاغوت، أولئك شرٌّ مكانًا وأضل عن سواء السبيل، وضُربت علينا الذِّلَّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ على غضب، ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم، جزاءً بما كانوا يعملون.

ثم نظر الملك فرأى رجلًا طويلًا عليه ثياب من الصوف، وعلى وسطه منطقة من السيور وبيده بيرم عود يطرحه ويبخر فيه النار رافعًا صوته يقرأ كلماته ويلحنها.

فقال الملك للوزير: مَن هو ذلك؟ قال: رجل سرياني من آل المسيح عليه السلام، قال الملك للوزير: فمر له أن يتكلم، فأمره الوزير قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال السرياني: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، وكان في بدئه بلا كفؤ ولا أحد ولا عدد ولا مدد.

ثم فلق الإصباح ونوَّر الأنوار وأظهر الأرواح وخلق صور الأشباح وبرأ الأجسام وركب الأجرام ودوَّر الأفلاك ووكل الأملاك، وسوَّى خلق السموات والأرضين المدحوَّات، وأرسى الجبال الراسيات وجعل البحار الزاخرات والبراري والفلوات مسكنًا للحيوان والنبات.

الحمد لله اتخذ من العذراء البَتول جسد الناسوت، وقرن به جوهر اللاهوت، وأيَّده برُوح القدس، وأظهر على يده العجائب، وأحيا به آل إسرائيل من موت الخطية، وجعلنا من أشياعه وأنصاره، وجعل منَّا القِسِّيسين والرهبان، فنحن لا نستكبر في الأرض، وجعل في قلوبنا رأفة ورحمة ورهبانية، فله الحمد والشكر والثناء، ولنا فضائل تركنا ذكرها، وأستغفر الله لي ولكم إنه الغفور الرحيم.

قال صاحب العزيمة: قل أيضًا: فما رعَيْناها حقَّ رعايتها وكفرنا، وقلنا: ثالث ثلاثة، وعبدْنا الصُّلْبان وأكَلْنا لحمَ الخنزير في القربان، وقلنا على الله الزور والبهتان.

ثم نظر الملك إلى رجل واقف، فتأمله فإذا هو أسمر شديد السمرة نحيف الجسم، وعليه ثوبان إزار ورداء شبه المحرم راكعًا ساجدًا يتلو القرآن، ويناجي الرحمن، فقال: مَن هو ذاك؟ قال الوزير: رجل من تهامة قرشي، قال الملك: فمر له أن يتكلم، فأمر له الوزير، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال القرشي: الحمد لله الواحد الصمد الفرد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، الأول بلا ابتداء، والآخِر بلا انتهاء، الظاهر على كل شيء قُدْرة وسلطانًا، والباطن في كل شيء علمًا ومشيئة ونفاذًا وإرادة، وهو العظيم الشأن الواضح البرهان الذي كان قبل الأماكن والأزمان والجواهر ذوات الكيان.

ثم قال له: كن، فيكون، فسوَّى، وقدَّر فهدى، وهو بالمنظر الأعلى، الذي رفع السماء بغير عَمَد وبناها ورفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعًا لكم، ولأنعامكم، وما كان معه من إله؛ إذن لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون، كذب العادلون بالله، وضلوا ضلالًا بعيدًا، وخسروا خسرانًا مبينًا.

هو الذي أرسل رسوله محمدًا بالهدى ودين الحق ليُظهِرَه على الدين كله ولو كره المشركون، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وعلى ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين، وعلى عباده الصالحين من أهل السموات وأهل الأرضين والمسلمين، وجعلنا وإياكم منهم برحمته، إنه أرحم الراحمين.

والحمد لله الذي خصنا بخير الأديان، وجعلنا من أمة صاحب الفرقان، وأكرمنا بتلاوة القرآن، وصوم شهر رمضان، والطواف حول بيته الحرام والركن والمقام، وأكرمنا بليلة القَدْر والعرفات والزكاة والطهارات والصلوات والجماعات والأعياد والمنابر والخطب وفِقْه الدِّين وعلم سنن النبيين وسيرة الربانيين.

وعرَّفنا أخبار وأحوال الأولين والآخرين وحساب يوم الدين، ووعدنا ثواب النبيين والشهداء والصالحين في دار النعيم أبد الآبدين، ودهر الداهرين، والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، ولنا فضائل أخرى يطول شرحها تركنا ذكرها مخافة التطويل، وأستغفر الله لي ولكم.

قال صاحب العزيمة: قل أيضًا: ثم إنا تركنا ورجعنا مرتدين بعد وفاة نبينا شاكِّين منافقين وقتلْنا الأئمة الخيِّرين الفاضلين طلبا للدنيا بالدين.

ثم نظر الملك فرأى رجلًا على رأسه مشدة قائمًا في الملعب بين يديه آلات الرصد فقال للوزير: مَن هو ذلك؟ قال: رجل من أهل الروم من بلاد يونان، فقال الملك: مره، فأمر له أن يتكلم، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال اليوناني: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كان قبل الهَيُولَى ذات الصورة، والأبعاد كالواحد قبل الأعداد، والأزواج والأفراد، والمتعالي عن الأنداد والأضداد.

والحمد لله الذي تفضَّل وتكرَّم وأفاض من جوده العقل الفعال ذا العلوم والأسرار، وهو نور الأنوار، وعنصر الأرواح.

والحمد لله الذي أنتج من نوره العقل والبحث من جوهر النفس الكلية الفلكية ذات الحركات وعين الحياة والبركات.

والحمد لله الذي أظهر من قوة النفس عنصر الأكوان ذوات الهَيُولَى والكيان.

والحمد لله خالق الأجسام ذوات المقادير والأبعاد والأماكن والأزمان.

والحمد لله مركب الأفلاك والكواكب السيارات الموكل بدورانها النفوس والأرواح والملائكة ذات الصور والأشباح ذوي النطق والفكر والحركات الدورية وجعلها مصابيح الدُّجَى ومشرق الأنوار في الآفاق والأقطار.

والحمد لله مركب الأركان ذوات الكيان وجعلها مسكنًا للنبات والحيوان والإنس والجان، وأخرج النبات، وجعل ذلك مادة للأبدان وغذاء الحيوان، وهو المخرج من قعار البحار وصم الجبال، الجواهر المعدنية الكثيفة ذوات المنافع.

والحمد لله الذي فضَّلَنا على كثير من عباده تفضيلًا؛ إذ خص بلادنا بكثرة البُقُول والنِّعَم، وجعلنا ملوكًا بالخصال الفاضلة والسِّيَر العادلة ورجحان العقول ودقة التمييز وجودة الفهم وكثرة العلوم والصنائع العجيبة، والطب والهندسة والنجوم، وعلم تركيب الأفلاك، ومعرفة منافع الحيوان والنبات والمعادن والحركات وآلات الرصد والطلسمات، وعلم الرياضات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات، فله الحمد والثناء والشكر على جزيل العطاء، ولنا فضائل أُخَر يطول شرحها، وأستغفر الله لي ولكم.

فقال صاحب العزيمة: مِن أين لكم هذه العلوم والحكمة التي ذكرتَها وافتخرتَ بها، لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس، وبعضها من علماء أهل مصر أيام مسيطوس، فنقلتموها إلى بلادكم ونسبتموها إلى أنفسكم.

فقال الملك لليوناني: ماذا تقول فيما ذكر؟ قال: صدق الحكيم فيما قال، فإذا أخذناها منهم فإن علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من بعض، ولو لم يكن كذلك من أين للفُرْس علم النجوم وتركيب الأفلاك وآلات الرصد، لولا أنهم أخذوها من أهل الهند، ومِن أين كان لبني إسرائيل علم الحِيَل والسِّحْر والعزائم، ونصب الطلسمات واستخراج

المقادير لولا أن سليمان — عليه السلام — أخذها من خزائن ملوك سائر الأمم حينما غلب عليهم ونقلها إلى لغة العبرانيين، وإلى بلاد الشام، وكانت مملكته في بلاد فلسطين وبعضها ورثها بنو إسرائيل من كتب أنبيائهم التي ألقتْها إليهم الملائكة بالوحي والإنباء من الملأ الأعلى الذين هم سُكَّان السموات وملوك الأفلاك وجنود رب العالمين.

قال الملك للحكيم: ما تقول فيما ذكر؟ قال: صدق، إنما تكثر العلوم في أمة دون أمة، وفي وقت دون وقت من الزمان، فإذا صار المُلْك والنبوة فيها، فتغلب سائر الأمم وتأخذ فضلها وفضائلها وعلومها وكتبها فتنقلها إلى بلادهم وينسبونها إلى أنفسهم.

ثم نظر الملك إلى رجل عظيم الجثة قوي البنية حسن البزة ناظرًا نحو السماء يُدير بصرَه مع الشمس كيفما دارت، فقال: مَن هو ذلك؟ قال الوزير: رجل من أهل خراسان من بلاد مرو والشاها، فقال الملك: فمر له ليتكلم، فأمر له الوزير، فقال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال الخراساني: الحمد لله الواحد الأحد الكبير المتعال العزيز الجبار القوي القهار العظيم الغفار ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، الذي تقصر عن كيفية صفاته ألسُن الناطقين، ولا تبلغ كُنْه أوصافه أفهام المتفكِّرين تحيَّرت في عظيم جلالته عقول ذوي الألباب والأبصار من المستبصرين، علا فدنا، وظهر فتجلَّى، وهو بالمنظر الأعلى، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، احتجب بالأنوار قبل خلق الليل والنهار، وركب الأفلاك الدائرات، ورفع سموك السموات ذوات الأقطار المتباعدات، فلله الحمد خالق الخلائق أجناسًا من الملائكة والجن والإنس من الشياطين، ومن الخليقة أصنافًا ذوي أجنحة مثنى وثلاث ورباع وذوات رجلين وأربع، وما ينساب على بطنه وما يغوص في الماء، ويسبح فيه، ثم جعلها أنواعًا وأشخاصًا ومن بني آدم شعوبًا وقبائل مختلفة ألوانها وألسنتها ودثارها وأماكنها وأزمانها، ثم قسم عليهم أنعامه وأفضاله ومواهبه وإحسانه.

والحمد لله على ما أعطى ووهب من آلائه، وعلى ما وعد من أنعامه.

والحمد لله خصنا وتفضَّل علينا إذ جعل بلادنا أكثر البلدان مدنًا وأسواقًا ومنازل وقلاعًا وحصونًا وأنهارًا وأشجارًا وجبالًا ومعادن وحيوانًا ونباتًا ورجالًا ونساءً، فنساؤنا في قوة الرجال، ورجالنا في قوة الجمال، وجمالنا في قوة عظم الجبال.

والحمد لله على ما خصنا ومدحنا على ألسُن النبيين بالبأس الشديد، والقوة المتين، ومحبة الدِّين، واتباع المرسلين، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، وقال — عزَّ وجلَّ — للمُخلَّفين من الأعراب: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لو كان الإيمان معلَّقًا بالثُّريَّا لتناوله رجل من أبناء فارس.» وقال ﷺ: «طوبى لإخواني من رجال فارس يجيئون في آخِرِ الزمان يجدونه سوادًا على بياض ويؤمنون بي ويصدقونني.»

والحمد لله على ما خصنا باليقين والإيمان والعمل للآخرة والتزوُّد للمعاد، وإنَّ منَّا مَن يقرأ الإنجيل ولا يدري منه شيئًا، ويؤمن بالمسيح ويصدِّقه، ومنَّا مَن يقرأ القرآن ويلحنه، ولا يعرف معناه، ويؤمن بمحمد ويصدِّقه وينصره، ونحن لَبِسْنا السواد وطلبْنَا بثأر الحُسَيْن وطردْنَا البُغاة من بني مروان طغَوْا وعصَوْا وتعدَّوْا حدود الله والدِّين، ونحن نرجو أن يَظهَر من بلادنا الإمام المهدي — عليه السلام — المُنتظَر من آل محمد ﷺ، فإن عندنا له خبرًا وأثرًا، والحمد لله على ما أعطى ووهب وأنعم وأكرم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فلما فرغ الفارسي من كلامه نظر الملك إلى مَن حوله من الحكماء، وقال: ماذا تَرَوْن فيما ذكر؟ قال رئيس الفلاسفة: صدق فيما ذكر، لولا أن فيهم جفاء الطبع وفحش اللسان ونكاح الغلمان وتزويج الأمهات وعبادة النيران ويسجدون للشمس من دون الرحمن.

(١٤) فصل في بيان صفات الأسد وأخلاقه ومناقبه من الخصال المحمودة والمذمومة من بين السباع والوحوش

ولما كان في اليوم الثالث حضر زعماء الطوائف على الرسم، فوقفتْ في مواضعها كالأمس في المجلس، ونظر الملك يمنة ويسرة فرأى ابن آوى واقفًا إلى جنب الحمار وهو ينظر شزرًا ويلتفت يمنة ويسرة شبه المريب الخائف الوَجِل من الكلاب.

فقال الملك على لسان الترجمان: مَن أنت؟ قال: أنا زعيم السباع، قال: ومَن أرسلك؟ قال: مَلِكُنا، قال: مَن هو؟ قال: الأسد أبو الحارث.

قال الملك: أين يأوي من البلاد؟ قال: في الآجام والغياض والدحال، قال: ومَن رعيته؟ قال: حيوان البر من الوحوش والأنعام والبهائم.

قال: ومَن جنوده وأعوانه؟ قال: النمورة والفهود والذئاب وبنو آوى والثعالب وسنانير البر وكل ذي مخلب وناب من السباع، قال: صِفْ لي صورتَه وأخلاقَه وسيرتَه في رعيته وجنوده؟

قال: نَعَم أيها الملك، هو أكبر السباع جثة، وأعظمها خلقة، وأقواها وأشدها قوة وبطشًا، وأعظمها هيبة وجلالًا، عريض الصدر دقيق الخصر لطيف المؤخر، كبير الرأس مدور الوجه وضَّاح الجبين، واسع الشدقين منفرج المنخرين، متين الزندين حاد الأنياب والمخالب، برَّاق العينين، جهير الصوت، شديد الزئير، عَبْل الساقين، شجاع القلب، هائل المنظر، لا يهاب أحدًا، ولا يَرهَب لشدة بطشه الجواميس، ولا الفيلة ولا التماسيح، ولا الرجال ذوي البأس الشديد، ولا الفرسان ذوي السلاح الشاكي المدرَّعة، وهو شديد العزيمة، حازم الرأي إذا همَّ بأمر قام إليه بنفسه، لا يستعين بأحد من جنوده وأعوانه، سخي النفس إذا اصطاد فريسة أكل منها وتصدَّق بباقيها على جنوده وخدمه، عفيف النفس عن الأمور الدنية، لا يتعرَّض للنساء ولا للصبيان ولا للنِّيام، كريم الطبع إذا رأى ضوءًا بعيدًا ذهب نحوه في ظلم الليل ووقف بالبعد منه وسكنتْ ثورة غضبه ولانت صولته، وإذا سمع نغمة طيبة قرب منها وسكن إليها لا يفزع من شيء ولا يتأذَّى إلا من النمل الصغير، فإنها مسلطة عليه وعلى أشباله كما سُلِّط البقُّ على الفيلة والجواميس، وتَسلَّط الذباب على الملوك الجبابرة من بني آدم، قال: كيف سيرته في رعيته؟ قال: أحسنها وأعدلها، وأنا أذكر بعد هذه.

(١٥) فصل في بيان صفة العنقاء وصفة الجزيرة التي تأوي إليها وما فيها من النبات والحيوان

ثم نظر الملك إلى الطوائف الحضور هناك، فرأى الببغاء قاعدة على غصن شجرة بالقرب، وهي تنظر وتتأمل كل مَن يتكلم من الجماعة الحضور وينطق بحكاية في كلامه وأقاويله.

فقال له الملك: مَن أنت؟ قال: أنا زعيم الجوارح من الطير، قال: مَن أرسلك؟ قال: مَلِكُنا، قال: مَن هو؟ قال: عنقاء مغرب، قال: أين يأوي من البلاد؟ قال: إلى أطواد الجبال الشامخة في جزيرة البحر الأخضر، التي قلَّ ما بلغ إليها مراكب البحر، ولا أحد من البشر.

قال: صِفْ لنا تلك الجزيرة؟ قال: نَعَم، طيِّبة التربة معتدلة الهواء، تحت خط الاستواء، عذبة المياه من العيون والأنهار، كثيرة الأشجار من دوح الساج العالية في جو

الهواء قصب آجامها القنا، وعكرشها الخيزران، وحيوانها الفيل والجواميس والخنازير وأصناف أُخَر، لا يعلمها إلا الله، قال: صِف لنا صورة العنقاء وأخلاقها وسيرتها؟ قال: نَعَم، هي أكبر الطير جثة، وأعظمها خِلْقة، وأشدها طيرانًا، كبيرة الرأس عظيمة المنقار، كأنه معول من الحديد، عظيمة الجناحين، إذا نشرتْهما كأنهما شراعان من شراعات مراكب البحر، وذنب مناسب لهما كأنه فازة نمرود الجبار، وإذا انقضَّتْ من الجو في طيرانها تهتز الجبال من شدة تموج الهواء من خفقان جناحيها وهي تخطف الجواميس والفيلة من وجه الأرض في طيرانها كما يخطف الحِدَأة الفأرة في طيرانه من وجه الأرض في طيرانها، قال: ما سيرتها؟ قال: أحسنها وأعدلها، وأنا أذكر بعد هذا.

(١٦) فصل في بيان صفة الثعابين والتنين وعجيب خلقهما وهائل منظرهما

ثم إن الملك سمع نغمة وطنينًا من شِقٍّ حائط كان بالقرب من هناك هي تترنَّم وتتذمَّر، ولا تهدأ ساعة ولا تسكن، فتأمَّله فإذا هو صرصر واقف يحرك جناحيه له حركة خفيفة سريعة يُسمع لها نغمة وطنين كما يُسمع لوتر الزبير.

فقال له الملك: مِن أين أنت؟ قال: أنا زعيم الهوامِّ والحشرات، قال: مَن أرسلك؟ قال: مَلِكُنا، قال: مَن؟ قال: الثعبان.

قال: أين يأوي من البلاد؟ قال: الجبال الشامخة المرتفعة إلى كرة النسيم عند كرة الزمهرير، حتى لا يرتفع إلى هناك سحاب، ولا غيوم، ولا يقع أمطار، ولا ينبت نبات، ولا يعيش حيوان من شدة برد الزمهرير.

قال: فمَن جنوده وأعوانه؟ قال: الحيَّات والجرادات والحشرات أجمع، قال: فأين تأوِي جنوده؟ قال: في الأرض بكل مكان، فهم أُمَّة وخلائق لا يُحصِي عددَها إلا الله الذي خلقها وصوَّرها وبَرَأَها، ويعلم مستقرَّها ومستودعها.

قال الملك: ولِمَ ارتفع الثعبان إلى هناك مع جنوده وأبناء جنسه؟ قال: ليستريح ببرد الزمهرير من شدة وهج حرارة السم الذي بين فكَّيْه وتلهُّبها في جسمه.

قال: صِف لنا صورته وأخلاقه وسيرته؟ قال: صورته كصورة التنين، وأخلاقه كأخلاقه، قال: فمَن لنا بوَصْف التنين؟ قال: زعيم حيوان الماء، قال: مَن هو؟ قال: ذلك الراكب الخشبة.

فنظر المَلِك فإذا الضفدع راكب خشبة على ساحل البحر بالقرب من هناك وهو يَنِقُّ بأصوات تسبيحات لله وتكبيرات وتحميدًا وتهليلًا لا يعلمها إلا الله والملائكة الكرام البررة.

قال الملك: مَن أنت؟ قال: أنا زعيم حيوان الماء، قال: ومَن أرسلك؟ قال: مَلِكُنا، قال: ومَن هو؟ قال: التنين، قال: أين يأوي من البلاد؟ قال: في قعر البحار؛ حيث الأمواج المتلاطمة ومنشأ السحاب والغيوم المؤلَّفة، قال: مَن جنوده وأعوانه؟

قال: التماسيح والدلافين والسرطانات، وأصناف من الحيوانات البحرية التي لا يُحصي عددها إلا الله الواحد القهار.

قال: صِف لنا صورة التنين وأخلاقه وسيرته؟ قال: نَعَم، أيها الملك، هو حيوان عظيم الخِلْقة، عجيب الصورة، طويل القامة، عريض الجثة، هائل المنظر، مهول المَخْبَر، تخافه وتهابه حيوانات البحر أجمع؛ لشدة قوته، وعظم صولته، إذا تحرك تحرك موج البحر من سرعة سباحته، كبير الرأس، براق العينين، واسع الفم، كثير الأسنان، يبلع من حيوانات البحر عددًا كثيرًا لا يُحصى، وإذا امتلأ جوفه منها وأُتخِم تقوَّس والْتَوَى، واعتمد على رأسه وذنبه، ورفع وسطه خارجًا من الماء مرتفعًا في الهواء مثل قوس قزح، يُشرق في عين الشمس ويستروح بحرها؛ ليستمرئ ما في جوفه، وربما عرض له وهو على هذه الحالة غشية، وينشأ سحابة من تحته ترفعه فترمي به إلى البر فيموت، وتأكل من جثته السباع أيامًا، وترمي به إلى أُمَّة يأجوج ومأجوج الساكنين من وراء السد، وهما أمتان صورتهما آدمية ونفوسهما سبعية، لا يعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع ولا الشراء ولا الحِرْفة ولا الحَرْث ولا الزَّرْع، بل الصيد من السباع والوحوش والسمك والنهب والغارات بعضها على بعض، ويأكل بعضها بعضًا.

واعلم أيها الملك بأن كل حيوانات البحر تفزع من التنين وتهابه، وهو لا يفزع من شيء إلا من دابة صغيرة تُشبِه الكرور والجرجيس، فتلسعه وهو لا يقدر عليها بطشًا، ولا منها احترازًا، فإذا لسعتْه دبَّ سمُّها في جسمه فمات، واجتمعت عليه الحيوانات البحرية تأكله، فيكون لها عيشًا رغدًا أيامًا من جثته، فهي تأكلها مدة من الزمان كما تأكل السباع كبارَها صغارُها مدة من الزمان، وهكذا حكم الجوارح من الطير.

وذلك أن العصافير والقنابير والخطاطيف وغيرها تأكل الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها، ثم إن البواشق والشواهين وما شاكلها تصطاد العصافير والقنابر وتأكلها، ثم إن البُزاة والصُّقُور والنسور والعقبان تصطادها وتأكلها، ثم إنها إذا ماتتْ أكلها صغارُها من النمل والذباب والديدان.

وهكذا سيرة بني آدم، فإنهم يأكلون لحوم الجَدْي والحملان والغنم والبقر والطير وغيرها، ثم إذا ماتوا أكلتْهم في قبورهم الديدان والنمل والذباب.

وهكذا يأكل صغارُ الحيوانات كبارَها وتارةً تأكل كبارُها صغارَها، ومن أجل هذا قال الحكماء المنطقيون من الإنس: إن مِن فساد شيء آخر يكون صلاح شيء آخر، قال الله سبحانه: وتلك الأيام نُداوِلها بين الناس وما يَعقِلها إلا العالمون.

وقد سمعنا أيها الملك أن هؤلاء الإنس يزعمون أنهم أربابنا، وأن سائر الحيوانات عبيد لهم، فهلَّا يفقهون فيما وصفتُ من تصاريف أحوال سائر الحيوانات، هل بينها فرق فيما ذكرتُ، فإنهم تارةً آكلون وتارةً هم مأكولون فبماذا يفتخر بنو آدم على الحيوانات وعاقبة أمرهم مثل أمرها؟! وقد قيل: «الأعمال بخواتيمها.» وكلهم من التراب خلقوا وإليه مصيرهم.

ثم قال الضفدع: اعلم أيها الملك الحكيم بأنه لما سمع التنين قول الإنس وادِّعاءهم على الحيوانات أنها عبيدهم وأنهم أرباب لها تعجَّب من قولهم الزور والبهتان، وقال: ما أجهلَ هؤلاء الإنسَ وأشدَّ طغيانَهم وإعجابَهم بأنفسهم ومكابرتَهم لأحكام العقول! كيف يُجوِّزون أن تكون السباع والوحوش والجوارح والثعابين والتنانين والتماسيح والكواسيج عبيدًا لهم، وخُلقت من أجْلهم؟! أفلا يتفكرون ويعتبرون بأنه لو خرجتْ عليهم السباع من الآجام وانقضَّتْ عليهم الجوارح من الجو، ونزلتْ عليهم الثعابين من رءوس الجبال، وخرجت إليهم التماسيح والتنانين من البحر، فحملت على الإنس حملة واحدة هل يبقى منهم أحد، وأنها لو خالطتْهم في ديارهم ومنازلهم هل كان يَطِيب لها عيش أو حياة معهم؟ أفلا يتفكرون في نِعَم الله — تعالى — عليهم حين صَرَفَها وأبْعَدَها من ديارهم لدَفْع ضَرَرِها عنهم، وإنما غرَّهم كون هذه الحيوانات السليمة الأسيرة في أيديهم التي لا شوكة لها ولا صولة ولا حيلة، وهم يسومونها سوء العذاب ليلًا ونهارًا، فأخرجهم ذلك إلى هذا القول من غير حق ولا برهان.

فصل

ثم إن الملك نظر إلى جماعة الإنس وهم وقوف نحو اثنين وسبعين رجلًا مختلفي الألوان والصفات والزي واللباس، فقال لهم: قد سمعتم ما قال، فاعتبروا وتفكروا فيه، ثم قال لهم: مَن مَلِكُكُم؟» قالوا: لنا عِدَّة ملوك، قال: فأين ديارهم؟ قالوا: في بلدان شتَّى، كل

واحد في مدينة له جنوده ورعيته، قال الملك: لأي علة وأي سبب صارت هذه الطوائف من الحيوانات لكل جنس منها ملك واحد مع كثرتها، وللإنس ملوك عدة مع قلتهم؟

قال زعيم الإنس العراقي: نَعَم أيها الملك، أنا أُخبِرك ما العلة وما السبب في كثرة ملوك الإنس وقلة ملوك سائر الحيوانات مع كثرتها، قال الملك: وما هي؟

قال: لكثرة مآرب الإنس وفنون تصاريف أمورهم واختلاف أحوالها، فاحتاجوا إلى كثرة الملوك وليس حكم سائر الحيوانات كذلك.

وخصلة أخرى أن ملوكهم إنما هم بالاسم من جهة كبر الجثة وعظيم الخلقة وشدة القوة حسب.

وإن حكم ملوك الإنس ربما يكون بخلافه، وذلك أنه ربما يكون الملك أصغرهم جثة وألْطَفَهم بِنْية وأضعفهم قوة، وإنما المراد من الملوك حسن السياسة والعدل في الحكومة ومراعاة أمر الرعية وتفقُّد أحوال الجنود والأعوان وترتيبهم مراتبهم والاستعانة بهم في الأمور المشاكِلة لهم.

وذلك أن رعية ملوك الإنس وجنودها وأعوانها أصناف وصفات شتَّى، فمنهم حَمَلَة السلاح الذين بهم يبطش الملك بأعدائه ومَن خَالَف أمرَه من الثوَّار والخوارج واللصوص وقُطَّاع الطرق والغوغاء والعيارين ومَن يريد الفِتَن ويُثِيرها، ويُريد الفساد في البلاد.

ومنهم الوُزراء والكُتَّاب والعُمَّال وأصحاب الدواوين وجُباة الخَرَاج، وبهم يجمع الملك الأموال والذخائر وأرزاق الجند وما يحتاج إليه من الأمتعة والثياب والأثاث.

ومنهم البنَّاءون والدهَّانون والمزارعون وأرباب الحرث والنسل وبهم عمارة البلاد وقوام أمر المعاش للكل.

ومنهم القضاة والعلماء والفقهاء الذين هم قوام الدِّين وحكَّام الشريعة التي لا بد للمَلِك من دِين وحكم وشريعة يحفظ بها الرعية والأمة ويسوسهم ويدبِّر أمورَهم على أحكمه وأحسنه.

ومنهم التجار والصناع وأصحاب الحرف والمتعاونون في المعاملات والتجارات والصناع في المدن والقرى الذين لا يتم أمر المعاش وطيب الحياة إلا بهم، ومعاونة بعضهم بعضًا.

ومنهم الخَدَم والغِلْمان والجواري والحُجَّاب والوكلاء أصحاب الخزائن والفيوج والرسل وأصحاب الأخبار والندماء المختصون ومَن شَاكَلَهم ممَّن لا بد للملوك منهم في تمام السيرة.

وكل هؤلاء الطوائف الذين ذكرتُهم لا بد للملك من النظر في أمورهم وتفقُّد أحوالهم والحكومة بينهم.

فمِن أجْل هذه الخصال احتاجتِ الإنس إلى كثرة الملوك في كل بلد أو في كل مدينة ملك واحد يدبِّر أمرَ أهلِها كلها كما ذكرتُ، ولم يمكن أن يقوم بها كلها واحد؛ لأن أقاليم الأرض سبعة أقاليم، وفي كل إقليم عدة بلدان، وفي كل بلدة عدة مدن، وفي كل مدينة عدة خلائق، لا يُحصِي عددَها إلا الله، وهم مختلفو الألسُن والأخلاق والآراء والمذاهب والأعمال والأحوال والمآرب.

ولهذه الخصال واجب في الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن تكون ملوك الإنس كثيرة، وكل ملوك بني آدم خُلَفاء الله في أرضه ملَّكهم بلادَه وولَّاهم عبادَه ليسوسوهم ويدبِّروا أمورَهم ويحفظوا نظامَهم ويتفقَّدوا أحوالهم ويقمعوا الظلم وينصروا المظلوم ويقضوا بالحق وبه يعدلون ويأمرون بأوامره، وينهَوْن عن نواهيه ويتشبَّهون به في تدبيرهم وسياستهم؛ إذ كان الله — تعالى — هو سائس الكل، ومدبر الخلائق من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، وحافظهم وخالقهم ورازقهم ومُبدئهم ومعيدهم كما شاء وكيف شاء، لا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

(١٧) فصل في بيان فضيلة النحل، وعجائب أموره وتصاريف أحواله وما خُصَّ به من الكرامات والمواهب دون غيره من الحشرات

فلما فرغ زعيم الإنس من كلامه نظر الملك إلى أصناف الحيوانات، فسمع دويًّا وطنينًا، فإذا هو باليعسوب أمير النحل وزعيمها واقف في الهواء يحرك جناحيه حركة خفيفة يسمع لها دوي وطنين مثل نغمة الزير من أوتار العود، وهو يسبح الله ويقدسه ويُهلِّله.

فقال له الملك: مَن أنت؟ قال: أنا زعيم الحشرات وأميرها، قال: كيف جِئتَ بنفسك، ولم ترسل رسولًا من رعيتك وجنودك كما أرسلتْ سائر طوائف الحيوانات؟ قال: إشفاقًا عليهم، ورحمة لهم، وتحنُّنًا عليهم أن ينال أحدًا منهم سوء أو مكروه أو أذية، قال له الملك: وكيف خُصصتَ بهذه الخصال دون غيرك من ملوك سائر الحيوانات؟ قال: إنما اختصني ربي من جزيل مواهبه ولطيف إنعامه وعظيم إحسانه بما لا أحصيه.

قال الملك: اذكر منها طرفًا لأسمعه وبيِّنْه لأفهمه؟!

قال: نَعَم أيها الملك، ممَّا خصَّني الله به وأنعم به عليَّ وعلى آبائي وأجدادي أنْ أَتَانَا المُلْك والنبوَّة التي لم تكن من بعدنا لحيوانات أُخَر، وجعلها وراثة من آبائنا وأجدادنا

وذخيرة لأولادنا وذرياتنا يتوارثونها خَلَفًا عن سَلَف إلى يوم القيامة، وهما نعمتان عظيمتان جزيلتان مغبون فيهما أكثر الخلائق من الجن والإنس وسائر الحيوانات، ومما خصَّنا ربنا وأنعم به علينا أن أَلْهَمَنا وعلَّمنا دقة الصنائع الهندسية ومعرفة الأشكال الفلكية من اتخاذ المنازل وبناء البيوت وجمع الذخائر فيها، وما خصنا به أيضًا وأنعم به علينا سبيل الرشاد، ومما خصنا أيضًا وأنعم به علينا أن حلَّل لنا الأكل من كل الثمرات ومن جميع أزهار النبات.

ومما خصَّنا وأنعم به علينا أنْ جعل الله في مكاسبنا وذخائرنا وما يخرج من بطوننا شرابًا حلوًا لذيذًا فيه شفاء للناس وتصديق مما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

ومما خصنا به ربنا أيضًا وأنعم به علينا أنْ جعل خِلْقة صورتنا وهياكلنا وجميل أخلاقنا وحسن أفعالنا وأعمالنا وتصاريف أمورنا وحسن سياستنا وتدبير رعيَّتنا عبرةً لأولي الألباب، وآية لأولي الأبصار، وذلك أن الله — تعالى — بحكمته جعل خلقتنا خلقة لطيفة، وبِنْيتنا بِنْية ظريفة، وصورتنا صورة عجيبة، وذلك أنه — تعالى — جعل بِنْية جسدنا ثلاثة مفاصل مخروزة، فوسط جسدنا مربع مكعب، ومؤخَّر جسدنا معوج مدبَّج مخروط، ورأسنا مدوَّر مبسوط، وركَّب في وسط أبداننا أربع أرجل ويدين متناسبات المقادير كأضلاع الشكل المسدس في الدائرة لنستعين بها على القيام والقعود، والوقوع والنهوض، ونقدر على أساس بناء منازلنا، وبيوتنا مسدَّسات مكتنفات، ففي بنيان بيوتنا وأشكال منازلنا إلْهَامات ربانية ومعقولات روحانية، إذ عجز الرياضيون عن موضوعات أشكالنا، وتسديسات منازلنا.

والغرض من المتساوية الأضلاع والزوايا المكشوفات، كيلا يدخلها الهواء، فيضر بأولادنا ويفسد شرابنا الذي هو قوتنا وذخائرنا.

وبهذه الأربع الأرجل واليدين نجمع من ورق الأشجار وزهر الأثمار الرطوبات الدهنية التي نبني بها منازلنا وبيوتنا، وجعل الله على كتفي أربعة أجنحة حريرية النسج آلة لي في الطيران في جوِّ الهواء مستقلًّا بها، وجعل مؤخَّر بدننا مخروط الشكل مجوفًا مدرَّجًا مملوءًا بالهواء، ليكون موازنًا في ثقل رأسنا في الطيران، وجعل لي حُمَة حادَّة كأنها شوكة، وجعلها سلاحًا لي أخوِّف به أعدائي وأزجُر به مَن يتعرَّض ليؤذِيَني، وجعل رقبتي خفيفة ليسهل بها عليَّ تحريك رأسي يَمنة ويَسرة، وجعل رأسي مدوَّرًا عريضًا

وجعل في جنبي عينين براقتين كأنهما مرآتان مجلوَّتان، وجعلها آلة لنا لإدراك المرئيات المبصرات من الألوان والأشكال والأنوار والظلمات، وأثبت على رأسنا شبه قرنين لطيفين ليِّنين، وجعلهما آلة لنا لإحساس الملموسات واللَّيِّن من الخشونات والصلابة والرخاوة، وفتح لنا منخرين وجعلهما لإحساس المشمومات الطيبة والروائح الجيدة، وجعل لنا فمًا مفتوحًا فيه قوة ذائقة نتعرَّف بها قوة الطعام والطيبات من المأكولات والمشروبات، وخلق لنا مشفرين حادَّيْن نجمع بهما من ثمرة الأشجار رطوبات لطيفة.

وعجز الطبيعيون والأطباء من اليونانيين من معرفتنا على طبائع النبات والاطِّلاع على خصائص منافعها، وخلق في جوفنا قوة جاذبة وماسكة وهاضمة وطابخة منضجة، تُصيِّر تلك الرطوبات عسلًا حلوًا لذيذًا شرابًا صافيًا غذاءً لنا ولأولادنا وذخائر للشتاء، كما جعل في ضروع الأنعام قوة هاضمة تُصيِّر الدمَ لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، وجعل فضالتنا وفضالة أولادنا سببًا وشفاءً لأخص خلْق الله — تعالى — إذ في تشكيلنا وتخطيطنا المسدسات وترتيب الزوايا المتساويات جعل شفاء للأرواح الإنسانية، وفي فضالتنا وبصاقنا ولعابنا جعل شفاءً للجسد الإنساني، وجعل فضالة فضالتنا وهو الشمع سببًا للضياء في ظلم الليالي، عوضًا عن الضياء النوراني الحاصل من الشمس.

فمن أجْل هذه النِّعَم والمواهب التي خصَّنا الله — تعالى — بها صِرْنا مجتهِدين في كثرة الذكر لها وأداء شكرها بالتسبيح لربنا والتهليل والتكبير والتمجيد والتحميد آناء الليل وأطراف النهار، والشفق على رعيتنا وتفقُّد أحوال جندنا وأعواننا وتربية أولادنا؛ لأنَّا لهم كالرأس من الجسد، وهم لنا كالأعضاء من البدن، لا قوام لأحدهما إلا بالآخَر، ولا صلاح لهما إلا بصلاح الآخَر، فلهذا جعلتُ نفسي فداءً لهم في أشياء كثيرة من الأمور الخطيرة إشفاقًا عليهم، ومن هذا السبب الذي ذكرتُ اخترتُ مجيئي بنفسي رسولًا ونائبًا وزعيمًا من رعيتنا وجنودنا.

فلما فرغ النحل من كلامه، قال الملك: بارك الله فيك من خطيب! ما أفصحك! وحكيم ما أعلمك! ومن رئيس ما أحسن سياستك! ومن ملك ما أفضل رعايتك! ومن عبد ما أعرفك بإنعام ربك ومواهب مولاك!

ثم قال الملك: أين تأوون من البلاد؟ قال: في رءوس الجبال والتلال، وبين الأشجار والدحال، ومنَّا مَن يُجاور بني آدم في منازلهم وديارهم.

قال الملك: كيف عشرتهم؟ وكيف تَسلَمون منهم؟ قال: أما مَن بعُد منَّا من ديارهم فيسلم على الأمر الأكثر، ولكن ربما يجيئون إلينا في طلبنا، ويتعرضون لنا بالأذية، فإذا

ظفروا بنا خربوا منازلنا، وأحفوا بيوتنا ولم يُبالوا بأَنْ يقتلوا أولادنا ويأخذوا مساكننا وذخائرنا ويتقاسموها ويستأثروا بها دوننا.

قال الملك: وكيف صبركم عليهم وعلى ذلك منهم؟ قال: صبر المضطر تارةً كرهًا، وتارةً رضًا وتسليمًا، إنْ غضِبْنا وهربْنا وتباعدْنا من ديارهم جاءوا خلفنا يطلبوننا ويترضَّوْننا بالهدايا من العِطْر وأنواع الحِيَل من أصوات الدفوف والطبول والمزامير والهدايا المزدوجة المزخرفة من الدبس والتَّمْر وعملهم مثل عمل الطرَّارين الذين يمشون في المحالِّ ويعطون الزبيب والجوز إلى الصبيان، ويأخذون منهم أثوابهم ودراهمهم، ويسخرون على الصبيان.

فهؤلاء أيضًا يعملون مثل السخرية بحيث إنهم يبعثون إلينا الهدايا من التمر والدبس؛ إذ كلاهما يضر بأبدانهم ويأخذون منَّا عسلًا صافيًا لذيذًا جعله الله — تعالى — سببًا لشفاء أبدانهم وزوال أمراضهم، فنحن مِن حُسن أخلاقنا لا نُضايِقهم فنُصالِحهم؛ إذ الصلح خير لنا ولهم؛ لأن العداوة والخصومة تؤدِّي إلى هلاك الحيوان، وتؤدِّي إلى خراب البلاد، فنحن نُراجِعهم ونُصالِحهم لِمَا في طبائعنا من الخيرة، ولما في صدورنا من السلامة وقلَّة الحِقْد والحسد وحسن المراجعة، وقلبُنا صار موضع إلْهام من الله — تعالى — لا يجوز أن يكون موضع الحقد والحسد؛ إذ هما ضدان لا يجتمعان، وذلك أن الله — تعالى — جعلنا من المقرَّبين والصالحين، وألْقَى الوحْي علينا، لا يَلِيق بنا أن نكون فاسقين طاغين.

ومع هذا كله لا يَرضَوْن منَّا هؤلاء الإنس حتى يدَّعون علينا بأننا عبيد لهم، وهم موالٍ وأرباب لنا بغير حجة ولا بيان ولا برهان غير الزور والبهتان؛ إذ نحن غير محتاجين إليهم حسب ما يكون العبيد محتاجين إلى الموالي في تصاريف أمورهم، بل هم محتاجون إلينا مثلما يحتاج الخدم إلى السيد، والله المستعان، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

(١٨) فصل في بيان حسن طاعة الجن لرؤسائها وملوكها

ثم قال اليعسوب لملك الجن: كيف حسن طاعة الجن لرؤسائها وملوكها؟ قال: أحسن طاعة وأطوع انقياد لأمرها ونهيها، قال: يتفضل الملك ويذكر منها شيئًا؟ قال: نَعَم.

فاعلم أن الجن أخيار وأشرار، ومسلمون وكُفَّار، وأبرار وفُجَّار، كما يكون في الناس من بني آدم، فأمَّا حُسْن طاعة الأخيار منها لرؤسائها وملوكها ففوق الوَصْف ممَّا لا

يعرفه البشر من بني آدم؛ لأن طاعتها لملوكها كطاعة الكواكب في الفلك للنيِّر الأعظم الذي هو الشمس.

وذلك أن الشمس في الفلك كالملك وسائر الكواكب لها كالجنود والأعوان والرعية ونسبة المِرِّيخ من الشمس كنسبة صاحب الجيش من الملك والمُشتَرِي كالقاضي، وزُحَل كالخازن، وعُطَارد كالوزير، والزُّهَرة كالحرم، والقمر كوليٍّ العهد، وسائر الكواكب كالجنود والأعوان والرعية؛ وذلك أنها كلها مربوطة بفلك الشمس، تسير بسيرها في استقامتها ورجوعها ووقوفها واتصالاتها وانصرافاتها، كل ذلك بحسبان لا تتجاوز رسومها ولا تتعدَّى حدودَها وجريان عاداتها في طلوعها وغروبها، وتشريقها وتغريبها، وجميع أحوالها ومتصرفاتها لا يُرى منها معصية ولا خلافه.

قال النحل لملك الجن: مِن أين للكواكب حسن هذه الطاعة والانقياد والنظام والترتيب لملكها؟ قال: من الملائكة الذين هم جنود رب العالمين.

قال: كيف حسن طاعة الملائكة لرب العالمين؟ قال: كطاعة الحواس الخمس للنفس الناطقة.

قال: زِدْني بيانًا. قال: نَعَم، ألا ترى أيها الحكيم أن الحواس الخمسة في إدراكها محسوساتها وإيرادها أخبار مدركاتها إلى النفس الناطقة لا تحتاج إلى أمر ولا نهي ولا وَعْد ولا وعيد، بل كلَّما همَّتِ النفس الناطقة بأمرٍ محسوس امتثلت الحاسة لما همَّتْ به النفس، وأدركتْها وأوردتْها إليها بلا زمان ولا تأخير ولا إبطاء.

وهكذا طاعة الملائكة لرب العالمين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون، الذي هو رئيس الرؤساء، وملك الملوك ورب الأرباب ومدبر الكل وخالق الجميع وأحكم الحاكمين، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العالمين.

وأما الأشرار والكُفَّار والفُسَّاق من الجن، فإنها أحسن طاعة لرؤسائها، وأطْوَع انقيادًا لملوكها من أشرار الإنس وفُجَّارهم وفُسَّاقهم.

والدليل على ذلك حسن طاعة مَرَدة الجن لسليمان — عليه السلام — لمَّا سُخِّرتْ له فيما كان يكلِّفها من الأعمال الشاقَّة والصنائع المُتعِبة، فيجعلون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجوابِ، وقدورٍ راسيات.

ومن الدليل أيضًا على حسن طاعة الجن لرؤسائها ما قد عرَفَه بعض الإنس الذين يسافرون في المفاوز والفلوات أن أحدهم إذا نزل بوادٍ يخاف فيه من لمم الجن، ويسمع دويَّهم وزجلاتهم فيستعيذ برؤسائها وملوكها، ويقرأ آية من القرآن والإنجيل والتوراة، ويستجير بها عنهم وعن تعرُّضهم وأذيَّتهم، فإنهم لا يتعرَّضون له ما دام في مكانه.

ومن حسن طاعة الجن لرؤسائها أنه إذا تعرَّض أحد من المردة وشياطين الجن لأحد من بني آدم بتخيل أو فزعة أو تخبُّط أو لم، فيستعين المعزم برئيس قبيلة أو ملك أو جنوده، فإنهم يعزمون عليها ويحشرون إليها ويمتثلون ما يأمرهم وينهاهم في صاحبهم.

ومن الدليل أيضًا على حسن طاعة الجن وسهولة الانقياد وسرعة إجابتها للداعي لها إجابة نفر من الجن لمحمد — عليه السلام — في ساعة اجتازوا به ووجدوه يقرأ القرآن ووقفوا عليه، فاستمعوه واستجابوه وولَّوْا إلى قومهم منذرين، كما هو مذكور في القرآن من نعتهم في نحو عشرين آية فهذه الآيات والدلالات والعلامات دالات على حسن الطاعة للجن وسهولتها وسرعة انقيادها وإجابتها لَمن يَدْعوها أو يستعين بها خيرًا كان أو شرًّا.

فأمَّا طِبَاع الإنس وجِبِلَّتهم فبالضدِّ ممَّا ذكرتُ؛ وذلك أن طاعتهم لرؤسائهم وملوكهم أكثرها خِدَاع ومكْر ونفاق وغرور وطلب للعِوَض والأرزاق والمكافآت والخِلَع والمآرب والكرامات، فإنْ لم يَرَوْا ما يطلبون أظهروا العصية والخلاف وخلعوا الطاعة والخروج من الجماعة والعداوة والحرب والقتال والفساد في الأرض.

فهكذا حكمهم مع أنبيائهم ورسل ربهم؛ تارةً ينكرون دعوتهم بالجحود، ودفع العيان وحجة الضرورات، ويطلبون منهم المعجزات بالعناد، وتارةً الإجابة بالنفاق والشك والارتياب والمكر والدغل والغش والخيانة في السر والجهر، كل ذلك لغلظ طباعهم ورداءة جِبِلَّتهم وسوء عاداتهم وسيئات أعمالهم وتراكم جهالاتهم وعَمَى قلوبهم، ثم لا يَرضَوْن حتى يزعمون أنهم أرباب وغيرهم عبيد لهم بلا حجة ولا برهان.

فلما رأتْ جماعة الإنس طول مخاطبة ملك الجن لليعسوب زعيم الحشرات تعجَّبتْ وأنكرتْ وقالت: لقد خص الملك زعيم الحشرات اليعسوب بكرامة ومنزلة لم يخص بها أحدًا من زعماء الطوائف الحضور في هذا المجلس.

فقال لهم حكيم من حكماء الجن: لا تُنكِروا ذلك ولا تتعجبوا منه، فإن اليعسوب وإن كان صغير الجثة لطيف المنظر ضعيف البنية، فإنه عظيم المخبر جيد الجوهر ذكي النفس كثير النفع مبارك الناصية حكيم الصنعة، وهو رئيس من رؤساء الحشرات وخطيبها وملكها ونبيُّها والملوك يخاطبون مَن كان من أبناء جنسهم في الملك والرياسة، وإن كان مخالفًا لهم في الصورة، وكانوا متباينين في الملك، ولا تظنوا بأن الملك العادل الحكيم يميل في الحكومة إلى واحدة من الطوائف دون غيرها لهوًى غالب أو طبعٍ مشاكِل أو ميلٍ لسبب من الأسباب وعلة من العلل.

فلما فرغ حكيم الجن من كلامه نظر الملك إلى الجماعة فقال: سمعتم يا معشر الإنس أمر شكاية هذه البهائم من جوركم وظلمكم، ونحن قد سمعنا ادِّعاءكم عليها الرِّقَّ والعبودية وهي تأبَى ذلك وتجحده، وطالبتُكم بالدليل والحجة على دعواكم، فأوردتم ما ذكرتُم وسمعنا ما أجابوكم، فهل عندكم شيء آخَر غير ما ذكرتم بالأمس، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ليكون لكم حجة عليها.

فصل

فلما سمع الإنس جميع ما قال ملك الجن في حقِّهم قام زعيم من رؤساء الروم فقال: الحمد لله الحنان المنان ذي الجود والإحسان والعفو والغفران، الذي خلق الإنسان وألْهَمَه العلوم والبيان، وبيَّن له الدليل والبرهان، وأعطاه العز والسلطان، وعرَّفه تصاريف الدهور وتقلُّب الأزمان، وسخَّر له النبات والحيوان، وعرَّفه منافع المعادن والأركان.

نَعَم أيها الملك، لنا خصال محمودة ومناقب جمَّة تدلُّ على ما قلنا وذكرنا.

قال الملك: وما هي؟ قال الرومي: كثرة علومنا وفنون معارفنا ودقة تمييزنا وجودة فكرنا ورويتنا وسياستنا وتدبيرنا وعجيب متصرفاتنا وصلاح معائشنا ومعاونتنا في الصنائع والتجارات والحِرَف في أمور دنيانا وآخرتنا، كل ذلك دليل على ما قلنا إنا أرباب لهم وهم عبيد لنا.

قال الملك للجماعة الحضور من الحيوانات: ما تقولون فيما ذكروا واستدلوا على ما ادَّعَوْا عليكم من الربوبية والتملُّك؟

فأطرقتِ الجماعة ساعة متفكِّرة فيما ذكر الإنسي من فضائل بني آدم، وما أعطاهم الله من جزيل المواهب التي خُصُّوا بها من بين سائر الحيوان.

ثم تكلم النحل وقام خطيبًا مذكِّرًا مسبِّحًا، وقال: الحمد لله الواحد فاطر السموات، وخالق المخلوقات ومدبِّر الأوقات ومنزل القطرات والبركات، ومنبت العشب في الفلوات، ومخرج الزهر من النبات وقاسم الأرزاق والأقوات، نسبِّحه في صباحنا بالغدوات، ونحمده في رواحنا بالعشيَّات بما عملنا من الصلوات والتحيات كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

أما بعدُ؛ أيها الملك العادل، يزعم هذا الإنسي بأن لهم علومًا ومعارف وفكرًا وروية وتدبيرًا وسياسة تدل على أنهم أرباب لنا، ونحن عبيدهم، فلو أنهم فكَّروا في أمرنا واعتدُّوا أيضًا أحوالنا لبَانَ لهم من أمرنا وعرفوا من تصاريف أحوالنا وتعاوننا في إصلاح شأننا

أن لنا أيضًا علمًا وفهمًا ومعرفة وتمييزًا وفكرًا وروية وسياسة وتدبيرًا أدقَّ وألطفَ وأحكم وأتْقَنَ ممَّا لهم.

فمِن ذلك اجتماع جماعة النحل في قراها وتمليكها عليها رئيسًا واحدًا واتخاذ ذلك الرئيس أعوانًا وجنودًا ورعية، وكيفية مراعاتها وسياساتها وكيفية اتخاذها المنازل والبيوت المسدسات المتجاورات المكتفات من غير بركار ومعرفة هندسة، كأنها أنابيب مجوفة مسدسة، ثم كيفية ترتيبها البوَّابين والحُجَّاب والحُرَّاس والمحتسبين، وكيف تذهب إلى المَرْعَى أيام الربيع وليالِيَ القمر في الصيف، وكيف تجمع الشمع بأرجلها من ورق الأشجار والعسل بمشافيرها من زهر النبات، ثم كيف تخزنها في بعض البيوت، وكيف تشد رأسها كأنها رءوس البراقي مشدودة بالقراطيس، وكيف تبيض في بعض البيوت وتحضن وتفرخ، وكيف تأوي في بعض البيوت وتنام فيها أيام الشتاء والصيف والبرد والرياح والأمطار، وكيف يقتاتون من ذلك العسل المخزون هي وأولادها يومًا بيوم لا إسرافًا ولا تقتيرًا إلى أن تنقضي أيام الشتاء، وتجيء أيام الربيع وينبت العشب ويطيب الزمان ويخرج النبات والزهر والنَّوْر، وكيف ترعى كما كانت عام الأول؟ وذلك دأبها من غير تعليم من الأُستَاذِينَ ولا تأديب من المعلِّمِين ولا تَلْقِين من الآباء والأمهات بل تعليمًا من الله — تعالى — ووحيًا إلهامًا وإنعامًا وتكرُّمًا وتفضُّلًا علينا، وأنتم يا معشر الإنس تدَّعون علينا بالرِّقِّ وأنتم موالينا، فلِمَ ترغبوا في فضائلنا وتفرحوا عند وجداننا وتستشفوا عند تناوُلنا، فمَن كان مَلِكًا كيف يحرص ويرغب في فضالة الخَدَم والخَوَل؟ ونحن مستغنون عنكم، فليس لكم سُبُل إلى هذه الدعوات إذ الدعوى زور وبهتان.

وأيضًا أيها الملك، لو علم الإنسي من حال النمل وكيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل وبيوتًا وأزِقَّة ودهاليز وغُرَفًا وطبقات منعطفات، وكيف تملأ بعضها حبوبًا وذخائر وقوتًا للشتاء، وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضًا مصونًا كي لا تجري إليها المياه وبعضها مرتفعًا، تخبِّئ الحب والقوت في بيوت منعطفات إلى فوق حذرًا عليها من المطر، وإذا ابتلَّ منها شيء كيف تنشُرُه أيام الصحو، وكيف تقطع حب الحنطة نصفَيْن وكيف تقشر الشعير والباقلا والعدس لعلمها بأنه لا ينبت مع التقشير، وتراها كيف تعمل أيام الصيف ليلًا ونهارًا باتخاذ البيوت وجمع الذخائر، وكيف تنصرف في الطلب يومًا يمنة ويومًا يسرة في القرية، كأنها قوافل ذاهبين وجائين وأنها إذا ذهبتْ واحدة منها فوجدتْ شيئًا لا تَقدِر على حَمْله أخذتْ منه قدْرًا ما، وذهبتْ راجعة مُخبِرة للباقين، وكلما استقبلتْها واحدة شامَمَتْها ممَّا فِي فِيها لتدلَّها على ذلك الشيء.

ثم ترى كيف تدلُّ كل واحدة منها على هذا الطريق الذي جاءتْه من هناك، ثم كيف تجتمع على ذلك الشيء جماعة منها، وكيف يحملونه ويحترزونه بجَهْد وعناء في المعاونة.

وإذا علمت أن واحدة منها توانتْ في العمل أو تكاسلتْ في التعاون اجتمعتْ على قتْلِها ورمَتْ بها عِبْرةً لغَيْرها، فلو تفكَّر الإنسي في أمرها واعتبر أحوالها لعلم أن لها علمًا وفهمًا وتمييزًا ومعرفة ودراية وتدبيرًا وسياسة مثل ما لهم ولما افتخر علينا بما ذكر.

وأيضًا أيها الملك لو تفكَّر الإنسي في أمر الجراد أنها إذا سمنتْ أيام الربيع من الرَّعْي كيف تطلب أرضًا طيبة التربة رخوة الحفرة، وكيف تنزل هنالك وتحفر بأرجلها ومخاليبها، وتُدخِل أذنابَها في تلك الحفرة وتطرح بيضها فيها وتدفنه، ثم طارت وتعيش أيامًا ثم تأكلها الطيور ويموت مَن بَقِي ويهلك مِن حرٍّ وبردٍ وتطير.

ثم إذا دارت عليها الحول وجاءت أيام الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء، فكيف ينشر من ذلك البيض المدفون مثل الدبيب الصغار على وجه الأرض وأكلت من ورق الشجر وسمنت وباضَتْ مثل عام أول، وهذا دأبها، وذلك تقدير العزيز العليم.

فليعلم هذا الإنسي أن لنا علمًا ومعرفة.

وهكذا أيضًا أيها الملك دود القز التي تكون على رءوس الأشجار والجبال، فإنها إذا شبعتْ من الرعي في أيام الربيع، وسمنتْ أخذتْ تنسج على نفسها من لعابها في رءوس الجبال شبه العش والكِنِّ ثم تنام أيامًا معلومة، فإذا انتبهتْ طرحتْ بَيْضَها في داخل ذلك الكن الذي نسجتْه على أنفسها، ثم ثقبتْها وخرجت منها وسدَّتْ ذلك الثقب، وخرجتْ لها أجنحة، وطارتْ فيأكلها الطير أو ماتتْ من الحرِّ والبرد والريح والمطر، وبقي ذلك البيض في تلك الجوزات محروزًا أيام الصيف والخريف والشتاء من الحر والبرد والرياح والأمطار إلى أن يحول الحول، وتجيء أيام الربيع، ويحضن ذلك البيض في الجوازات، ويخرج في ذلك الثقب مثل الدبيب الصغار، وتدبُّ على ورق الشجر أيامًا معلومة، فإذا شبعتْ وسمنتْ أخذتْ ونسجتْ على نفسها من لعابها مثل العام الأول، وذلك دأبها أبدًا، وذلك تقدير العزيز العليم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى إلى أمور مصالحها ومنافعها.

وكذلك أيضًا أيها الملك حال الزنانير الصُّفْر والحُمْر والسُّود، فإنها تَبنِي أيضًا منازل في السقوف والحيطان، ومن بين أغصان الأشجار مثلما يفعل النحل، وتبيض وتفرخ ولكنها لا تجمع القوت للشتاء، ولا تدخر للغد شيئًا، ولكن تتقوَّت يومًا بيوم ما طاب لها الوقت، فإذا أحسَّتْ بتغيير الزمان ومجيء الشتاء ذهبتْ إلى الأغوار والمواضع الكنينة الدفئة.

ومنها ما يدخل في ثقب الحيطان والمواضع الكنينة الحصينة، وينام فيها أيامًا طول الشتاء، وإذا جاء الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء نفخ الله — تعالى — فيما سَلِم من تلك الجثة رُوحَ الحياة، فعاشتْ وبَنَتِ البيوت وباضتْ وحضنتْ أولادَها مثل العام الأول، فهذا دأبها، تقدير العزيز العليم.

وكل هذه الأنواع من الحشرات والهوامِّ تَبِيض وتحضن وتربي أولادها بعلم ومعرفة ودراية وشفقة ورحمة ورأفة وتحنن ولطف ورفق، ولا تطلب من أولادها البر والمكافأة والجزاء.

فأما أكثر الإنس فيريدون من أولادهم برًّا وصلة وجزاءً ومكافأة ويمنون عليها في تربيتهم إياهم، وأين هذا من المروءة والفضل والكرم والجود والسخاء الذي هو مِن شِيَم الأحرار الكرام من أرباب الفضل، وبماذا يفتخر الإنس علينا؛ إذ ألذُّ مأكولاتهم فضالتنا، وأحسن ملبوساتهم فضالة دود القز، فهم في مأكولاتهم وملبوساتهم تحتَ مَنِّنَا، ولنا أبدًا النعمة عليهم، فكيف يدَّعون أنهم أرباب لنا، ونحن عبيد لهم؟!

ثم قال النحل: أما البراغيث والبقُّ والديدان وما شاكلها من أبناء جنسها، فإنها لا تبيض ولا تحضن ولا تلد ولا ترضع ولا تربِّي أولادها، ولا تبني البيوت ولا تدَّخِر العشب ولا تتخذ الكِنَّ، بل تقطع أيام حياتها مرفَّهة ومستريحة مما يقاسي غيرها من برد الشتاء والرياح والأمطار وحوادث الزمان.

وإذا تغيَّر عليها الزمان واضطرب الكيان، وتغالبت طبائع الأركان أسلمتْ نفسها للنوائب والحدثان وانقادتْ للممات لعلمها يقينًا بالمعاد، وتعلم أن الله — تعالى — منشئها ومُعِيدها في العام القابل للكون كما أنشأها أول مرة، ولا تقول ولا تنكر كما أنكر الإنس وقالت: ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

فلو اعتبر هذا الإنسي أيها الملك فيما ذكرتُ من هذه الأشياء من تصاريف أمور هذه الحشرات والهوامِّ لعَلِمَ وتبيَّن له بأن لها علمًا وفهمًا ومعرفةً وتمييزًا ودراية وفكرًا وروية وسياسة وتدبيرًا، كل ذلك عناية من الباري — تعالى — ولما افتخر علينا فيما ذكر أنهم أرباب ونحن عبيد لهم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

فلما فرغ النحل من كلامه قال له الملك: بارك الله فيك من حكيم، ما أعلمك! ومن خطيب، ما أفصحك! ومن مُبِين، ما أبلغك!

فصل

ثم قال الملك: يا معشر الإنس، قد علمتم وسمعتم ما قال، وفهمتم ما أجاب، فهل عندكم شيء آخر؟

فقام إنسيٌّ آخَر أعرابي وقال: نَعَم أيها الملك، لنا خصال ومناقب تدل على أننا أرباب وهم عبيد لنا، قال الملك: هاتِ واذكر منها شيئًا، قال: نَعَم، ومَا هي؟

قال: طيب حياتنا ولذيذ عيشنا وطيبات مأكولاتنا من ألوان الطعام والشراب والملاذِّ ممَّا لا يُحصي عددَها إلا الله — تعالى — وما لهؤلاء معنا شركة فيها، بل هي بمعزل عنها، وذلك أن طعامنا لبُّ الثمار ولها قشورها ونواها وحطبها، ولنا لباب الحبوب ولها تبنها وورقها، ولنا شيرجها ودبسها ولها كنسها وخشبها، ولنا بعد ذلك ألوان الخبز والرغفان والأقراص والجرادق من السميد والملتون والكعك وغيرها، ولنا ألوان الطبيخ من السكباج والأسفيداج والفطائر والهرائس والجواديت وألوان الكواسيج وغيرها من الرواصين وألوان الأشربة وألوان الشويِّ والحلوى والخبيص والقطائف واللَّوْزِيَنْج.

ولنا ألوان الأشربة من الخمر والنبيذ الخالص الجيد والقارص والسكنجبين والجلاب والفقاع، وألوان الألبان من الحليب والرائب والماست والدوغ والسمن والزبد والكشك والمصل، وما يعمل منها من ألوان الطبيخ والملاذِّ والطيبات والمشتهيات، ولا يُحصي كثرة ذلك إلا الله — تعالى — وكل ذلك عنهم بمعزل، وخشونة طعامهم وغلظها وجفافها وقلة الرائحة الطيبة منها وقلة دسومتها وحلاوتها دليل على قلة لذتهم منها، وهذه الخصال للعبيد، وتلك حال أرباب النعم الأحرار الكرام، وكل هذا دليل على أننا أرباب لهم، وهم عبيد وخَوَل لنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فصل

فنطق عند ذلك زعيم الطيور وهو الهزار داستان، وكان قاعدًا على غصن شجرة يترنم فقام وقال: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد القديم الأبد الدائم السرمد بلا شريك ولا ولد، بل هو مبدع المبدعات وخالق المخلوقات وعلة الموجودات ومسبب الكائنات من الجمادات والنباتات وبارئ المبروآت مركِّب السموات ومولِّد المولَّدات كيف شاء وأراد.

واعلم أيها الملك الكريم أن هذا الإنسي افتخر بطيب مأكولاتهم ولذيذ مشروباتهم، ولا يدري أن ذلك كله عقوبات لهم وأسباب الشقاوة وعذاب أليم؛ إذ في حرامها عذاب وفي حلالها حساب، وهم فيما بينهما من الخوف والرجاء.

قال الملك: وكيف ذلك؟ بيِّن لنا.

قال: نَعَم، وذلك أنهم يجمعون ذلك ويحصِّلونه بكدِّ أبدانهم وتَعَب نفوسهم وجهد أرواحهم، وعرق جبينهم وما يلقون في ذلك من الشقاوة والهوان مما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى من كدِّ الحرث والزرع وإثارة الأرض وحفر الأنهار وسد الشق وعمل البريدات ونصب الدواليب وجذب الغروب والسقي والحفظ والنظافة والحصاد والحمل والجمع والدراس والتذرية والكيل والقسمة والوزن والطحن والعجن والخبز وبناء التنور ونصب القدور وجمع الحطب والشوك والسرقين ووقود النيران ومقاسات الدخان وبناء الديكدان ومعاكسة القصاب ومحاسبة البقال والجهد والعناء في اكتساب الأموال والدراهم، وتعلُّم الصنائع والمكاسب المُتعِبة للأبدان والأعمال الشاقَّة على النفوس والمحاسبات والتجارات والذهاب والمجيء في الأسفار البعيدة في طلب الأمتعة والحوائج والجمع والادخار والاحتكار والإنفاق بالتقدير مع مقاساة البخل والشح.

فإن كان جمعها من حلال وأنفقها في وجه الله فلا بد من الحساب، وإن كان من غير حلٍّ وإنفاقه في غير وجه الله، فالويل والحساب والعذاب؛ إذ لا بد من القوت والثياب مثلما لا بد من الموت والحساب.

ونحن بمعزل من هذه كلها، وذلك أن طعامنا وغذاءنا هو مما يخرج لنا من الأرض من أمطار سمائها من ألوان البقول الرطبة والخضرة النضرة اللينة والحشائف والعشب ومثل ألوان الحبوب اللطيفة المكنونة في غلفها وسنبلها وقشرها، ومن ألوان الثمار المختلفة الأشكال وأنواع الطعوم والروائح الزكية والأوراق الخضرة النضرة والأزهار والرياحين في الرياض، وتخرجها لنا الأرض حالًا بعد حال وسنة بعد سنة بلا كدٍّ ولا تَعَب أبداننا ولا عناء من نفوسنا ولا نَصَب من أرواحنا، ولا نحتاج إلى كدِّ حراث ولا عناء ولا سقي مُتعِب لأرواحنا، ولا نحتاج إلى بذر ولا حصاد ولا دراس ولا طحن ولا خبز ولا طبخ ولا شواء، وهذه كلها علامات الكرام الأحرار.

وأيضًا إذا أكلْنا قوتنا يومًا بيوم تركنا ما يفضل عنَّا بمكانه لا نحتاج إلى حفظه، ولا نحتاج إلى خازن ولا ناطور ولا حارس ولا احتكار إلى وقت آخر، بلا خوف لص ولا قاطع طريق، ننام في أماكننا وأوطاننا، أوكارنا بلا باب ولا غلق ولا حصن آمنين مطمئنين مودعين مستريحين، وهذه علامات الأحرار وأنتم عنها بمعزل.

وأيضًا فإن لكم بكل لذة ذكرتم من فنون مأكولاتكم وألوان مشروباتكم فنونًا من العقوبات، وألوانًا من العذاب مما نحن بمعزل عنه من الأمراض المختلفة والأعلال المزمنة

والأسقام المُهلِكة والحُمَّيَات المحرقة من الغب والربع والثانية والثالثة والرابعة والتُّخَم والجشأ الحامض والهيضة والقولنج والنقرس والبرسام والسرسام والطاعون واليرقان والدبيلان والسلّ والجُذَام وذات الجَنْب والبَرَص والسكتة والصداع والسكرة والرمل وعسر البول والجَرَب والجُدَري والثواليل والدماميل والخنازير والحصبة والجراحات وأصناف الأورام مما تحتاجون فيها إلى أنواع عذاب المعالجات من الكي والبتر والحقنة والسعوطات والحجامة والفصد وشرب الأدوية المسهلة الكريهة الرائحة ومقاساة الحَمِيَّة وترك الشهوات المركوزة في الجِبِلَّة وما شاكل هذه من ألوان العذاب والعقوبات المؤلمات للأنفس والأرواح والأجساد.

كل ذلك أصابكم لَمَّا عصيتم ربكم وتركتم طاعته ونسيتم وصيته، فإن أول الناس آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. «إِنَّ الْإِنْسَانَ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»، ونحن بمعزل عن هذه كلها، فمِن أين زعمتم أنكم أرباب ونحن عبيد؟ لولا الوقاحة والمكابرة وقلة الحياء، وأنتم ما دمتم في الحياة صحيحي البدن ففي تَعَب وكدٍّ لتحصيل الالْتماسات والمشتهيات، وما دمتم مرضى ففي عقوبة وحسرة وبعد الموت في العقاب والعذاب والخطاب ووقوف الحساب، ونحن فارغون من هذه الجملة، فمَن الموالي ومَن العبيد منَّا ومنكم؟!

قال الإنسي: قد يُصيبكم يا معشر الحيوان من الأمراض مثلُ ما يُصيبنا، ليس يخصنا دونكم، قال زعيم الطيور: إنما يصيب ذلك مَن يُخالطكم منَّا من الحَمَام والدِّيك والدجاج والبهائم والأنعام، أو مَن هو أسيرٌ في أيديكم ممنوع عن التصرف برأيه في أمر مصالحه، فأمَّا مَن كان منَّا مخلَّيًا برأيه وتدبيره لمصالحه وسياسته ورياضته لنفسه فقلَّ ما تَعرِض له الأمراض والأوجاع؛ وذلك أنها لا تأكل ولا تشرب إلا وقت الحاجة بقدْر ما ينبغي من أجْل ما ينبغي من لون واحد قدْر ما يسكن ألَم الجوع ثم تستريح وتنام وتروض وتمنع من الإفراط في الحركة والسكون في الشمس الحارة أو في الظلال الباردة أو السكون في البلدان الغير الموافقة لطِبَاعها أو أكْل المأكولات غير الملائمة لمزاجها.

فأمَّا الذي يُخالطونكم من الكلاب والسنانير ومَن هو أسير في أيديكم من البهائم والأنعام ممنوع من التصرُّف برأيه في مصالحه في أوقاتِ ما تدعوها طباعها المركوزة في جِبِلَّتها، وتُطعَم وتُسقى في غير وقته أو غير ما تشتهي أو من شدة الجوع والعطش تأكل أكثر من مقدار الحاجة، ولا تُترَك أن تروض نفسها كما يجب، بل تُستخدَم وتتعب أبدانها فتَعرِض لها بعض الأمراض من نحو ما يعرض لكم، وهكذا حكم أمراض أطفالكم وأوجاعهم؛ وذلك أن الحوامل من نسائكم وجواريكم المرضعات يأكلن ويشربن

بشَرَهِهِن وحِرْصهن أكثر ما ينبغي من ألوان الطعام والشراب التي ذكرتَ وافتخرتَ بها، فتتولَّد في أبدانهن من ذلك أخلاط غليظة متضادة الطباع، فيؤثر ذلك في أبدان الأجِنَّة التي في بطونهن، وفي أبدان أطفالهن من ذلك اللبن الرديء، ويصير سببًا للأمراض والعِلَل والأوجاع من الفالج واللقوة والزمانة واضطراب البنية وتشويه الخلق وسماجة الصورة.

وما ذكرت من اختلاف الأوجاع والأمراض مما أنتم مرتهنون بها معرضون لها، وما يعقبها من موت الفجأة وشدة النزع وما يعرض لكم من ذلك من الغم والحزن والنوح والبكاء والصراخ والمصائب، وكل ذلك عقوبة لكم وعذاب لأنفسكم من سوء أعمالكم ورداءة اختياراتكم، ونحن بمعزل من هذه كلها.

وشيء آخر ذهب عليكم أيها الإنسي التائه النظر فيه، قال: ما هو؟ قال: إن أطيب ما تأكلون وألذَّ ما تشربون وأنفع ما تتداوون به هو العسل وهو لعاب النحل، وليس منكم بل من الحشرات، فبأي شيء تفتخرون به علينا؟ وقد كان آباؤنا مشاركين فيه لآبائكم بالسوية أيضًا أيام كانوا في ذلك البستان الذي بالمشرق على رأس ذلك الجبل، فكانوا يأكلون من تلك الثمار والحب بلا كدٍّ ولا تعب ولا عناء ولا عداوة بينهم ولا حسد ولا استئثار ولا جَنْي ولا ادِّخار ولا حِرْص ولا بُخْل ولا خوف ولا همٍّ ولا غمٍّ ولا حزن حتى تَرَكَا وصيةَ ربهما واغترَّا بقول عدوِّهما وعَصَيا ربهما وأُخرِجا من هنالك عريانَيْن مطرودَيْن، ورُمِيَا مِن رأس ذلك الجبل إلى أسفله، فوقعا في برية قفر، لا ماء فيها ولا شجر، ولا كِنٌّ، فبَقَيَا فيها جائعَيْن عريانَيْن يبكيان على ما فاتهما من النِّعَم التي كانا فيها هناك.

ثم إن رحمة الله تداركتْهما، فتاب عليهما، وأرسل إليهما مِن هناك مَلَكًا يُعلِّمهما الحرث والزرع والحصاد والدراس والطحن والخبز واتخاذ اللباس من حشيش الأرض والقطن والكتان والقصب بعناء وتعب وجهد وشقاء لا يُحصِي عددَها إلا الله مما قد ذكرنا طرفًا منها من قبل.

فلما توالدت وكثرت أولادهما وانتشروا في الأرض برًّا وبحرًا، وسهلًا وجبلًا، وضيَّقوا على سكان الأرض من أصناف هذه الحيوانات أماكنها وغلبوها على أوطانها وأخذوا منها ما أخذوا وأسروا منها ما أسروا، وهرب منها ما هرب وطلبوها أشد الطلب وبغيتم عليها وطغيتم، حتى بلغ الأمر إلى هذه الغاية التي أنتم عليها الآن من الافتخار والمناظرة والمنازعة والمخاصمة.

وأما الذي ذكرتَ بأن لكم مجالس اللهو واللعب والفرح والسرور وما ليس لنا من الأعراس والولائم والرقص والحكايات المضحكات والتحيات والتهنئات والمدح والثناء

والحلي والتيجان والأسورة والخلاخل وما شاكلها مما نحن بمعزل عنه، فإن لكم أيضًا بكل خصلة منها ضروبًا من العقوبات وفنونًا من المصائب وعذابًا أليمًا مما نحن بمعزل عنه.

فمِن ذلك أن لكم بإزاء الأعراس المآتم، وبدل التهنئة التعزية، وبدل الألحان والغناء النوح والصراخ، وبدل الضحك البكاء، وبدل الفرح والسرور الغم والحزن، وبدل المجالس والإيوانات العالية المضيقة من القبور المظلمة والتوابيت الضيقة المظلمة، وبدل الحصون الواسعة الحبوس والمطامير الضيقة المظلمة، وبدل الرقص الدسبندان والسياط والعذاب والضرب والعقاب، وبدل الحلي والتيجان والخلاخيل والأسورة القيود والأغلال والسوامير والمقاطير والنكال وما شاكل المدح والثناء الهجو والشتم وسوء الثناء، وبدل كل حسنة سيئة، وبدل كل لذة ألم، وبدل كل نعمة بؤس، وبدل كل فرح غم وهم وحزن ومصيبة مما نحن بمعزل عنه، وهذه كلها من علامات الأشقياء، وإن لنا بدلًا من مجالسكم وصحوناتكم وإيواناتكم ومنادمتكم هذا الفضاء الفسيح، وهذا الجو الواسع والرياض والخضرة على شطوط الأنهار وسواحل البحار والطيران على رءوس البساتين والأشجار والتحليق على رءوس الجبال نسرح ونروح حيث نشاء من بلاد الله الواسعة، ونأكل من رزق الله الحلال من غير تَعَب وكدٍّ ألوانَ الحبوب والثمار نجدها من غير أذية أحد، ونشرب من مياه الغدران والأنهار بلا مانع ولا دافع، ولا نحتاج إلى حَبْل ولا إلى دلْو ولا إلى كوز ولا قربة مما أنتم مبتلَوْن به من حملها وإصلاحها وبيعها وشرائها أو جمع أثمانها بكدٍّ ونَصَب وتَعَب ومشقة من الأبدان وعناء النفوس وهموم القلوب وهموم الأرواح، وكل ذلك من علامات العبيد الأشقياء، فمِن أين ثبت أنكم أرباب ونحن عبيد لكم؟!

ثم قال الملك لزعيم الإنس: قد سمعتم الجواب، فهل عندكم شيء آخر من البيان؟ قال: نَعَم، لنا فضائل ومناقب تدل على أن هؤلاء عبيد لنا، ونحن أرباب، قال الملك: ما هو؟ فهاتِ البيان والبرهان!

فصل

فقام رجل من أهل العراق عبراني وقال: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وهو الذي أكرمنا بالوحي والنبوات والكتب المنزلات والآيات المحكمات، وما فيها من ألوان الحلال والحرام والحدود والأحكام والأوامر

والنواهي والترغيب والترهيب من الوعد والوعيد والمدح والثناء والتذكار والأخبار والأمثال والاعتبار وقصص الأولين والآخرين وصفات يوم الدين، وما وعدنا من الجنان والنعيم، وما أكرمنا به أيضًا من الغُسل والطَّهارة والصوم والصدقة والزكاة والأعياد والجُمُعات والذهاب إلى بيت العبادات والمساجد والبيع والصلوات.

ولنا المنابر والخُطَب والأذان والمواقيت والإفاضات والإحرام والتلبيات والمناسك وما شاكلها.

وكل هذه الخصال كرامات لنا، وأنتم بمعزل عنها، وكل ذلك دليل على أننا أرباب وأنتم لنا عبيد.

قال زعيم الطيور: لو تذكرتَ أيها الإنسي ونظرتَ واعتبرتَ لعلمتَ وتبيَّن لك أن هذه كلها عليكم لا لكم.

قال الملك: كيف ذلك؟ بيِّنْه لنا! قال: لأنها كلها عذاب وعقوبات وغفران للذنوب ومحو للسيئات ونهي عن الفحشاء والمنكر، كما ذكر الله — تعالى — بقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾، وقال النبي عليه السلام: «صوموا تصحوا.» ونحن بُرَآء من الذنوب والسيئات والفحشاء والمنكر، فلم نَحْتَجْ إلى شيء مما ذكرتَ وافتخرتَ.

واعلم أيها الإنسي أن الله — تعالى — لم يبعث رُسُلَه ولا أنبياءه إلا إلى الأُمَم الكافرة الجاهلة وعامةِ المشركين معَه غيرَه والمنكِرين ربوبيَّتَه والجاحدين وحدانيته والمدَّعِين معه إلهًا آخَر؛ إذ قَوْلُكم: إن الله ثالث ثلاثة، وقولكم: عُزَيْر ابن الله، وقولكم: مسيح ابن الله، وقولكم: إن الله — تعالى — على صورة شاب أمرد له جعد قطط.

فمِن هذه الخرافات والمجازات التي تجيء منكم وأنتم المغيِّرون أحكامَه والعاصون أوامِرَه، والهاربون من طاعته، والجاهلون إحسانه، والغافلون عن ذكره، والناسون عهده وميثاقه، والضالون المضلون الغاوون العادلون عن الصراط المستقيم.

فلهذا بعث الأنبياء والرسل إليكم ليعرفوكم طريق الهدى وسبيل الرشاد إما طوعًا أو جبرًا أو جهرًا، بل قتلًا وصلبًا، ونحن بُرَآء من هؤلاء؛ لأننا عارفون بربنا مسلمون مؤمنون به موحدون به غير شاكين ولا ممترين ولا ضالين.

ثم اعلم أيها الإنسي أن الأنبياء — عليهم السلام — هم أطباء النفوس ومنجموها، ولا يحتاج إلى الطبيب إلا المرضى وصاحب العلة المزمنة، ولا يحتاج إلى المنجم إلا المنحوسون الأشقياء والضالون عن نجم الهدى، كما قال عليه السلام: «إن مثل أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.»

ثم اعلم أيها الإنسي أن الغُسل والطهارة إنما فُرضت عليكم من أجْل ما يَعرِض لكم عند النكاح من الجماع وشدة الشَّبَق وشهوة الزنا واللواط والجلق والبِغَا والسحق، ومن نتن الصبيان والبخر ورائحة العرق، لاستكنارها واستعمالها ليلًا ونهارًا وغدوًّا ورواحًا ضحوة وبكرة، ونحن بمعزل عنها، لا نَهِيج ولا نسفد إلا في السنة مرة، لا لشهوة غالبة ولا لذَّة داعية ولكن لبقاء النسل.

وأما الصوم والصلاة فإنما هي فُرضتْ عليكم ليُكفَّر عنكم سيئاتكم من الغيبة والنميمة والقبيح من الكلام واللعب واللهو والهذيان، فالأنبياء — عليهم السلام — يعالجونكم بهذه المداواة؛ إذ أنتم مرضى من المعاصي، ونفوسُكم قدِ امتلأتْ من مأكولات الذَّنْب ومشروبات النميمة والغِيبة، وهي تناوُل لحوم الإخوان، فأمر الشريعة بالحمية عن المأكولات الرديئة المُضِرَّة والحمية هو الصوم؛ لأن الحمية رأس الدواء والبطن رأس الداء.

ثم لما نظر الأنبياء في أحوالكم وعصيانكم في الليل والنهار وتناول طعام الذنوب والشكوك ومشروبات الظنون الكاذبة بالله، فأمروكم بالحركات المختلفة الأشكال لتستمري عنكم تلك المتناولات والحركات المختلفة الأشكال هي: الصلاة الخمس؛ لأن الطبيب يأمر بحركات وخطوات من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، وعلى وجه الأرض بعد ثقل الطعام على المعدة وتناول الأشياء الثقيلة في الليالي ونحن بُرَآء من جميع ذلك، وبمعزلٍ عنه، فلم يَجِب الصوم ولا الصلاة ولا فنون العبادات علينا.

وأما الصدقات والزكوات إنما فُرضت عليكم من أجل أنكم تجمعون من فصول الأموال من الحلال والحرام والغصب والسرقة واللصوصية من البخس في الكيل والموازين وكثرة الجمع والذخائر والإمساك عن النفقة في الواجبات، فضلًا عن المسنونات والبخل والشح والاحتكار ومنع الحقوق، وتجمعون ما لا تأكلون، وتكنزون ما لا تحتاجون إليه، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فلو أنكم كنتم تُنفقون ما فضل عنكم على فقرائكم وضعفائكم لما وجبتْ عليكم الزكوات والصدقات، ونحن بمعزل عنها؛ إذ كنَّا مشفقين على أبناء جنسنا، ولا نبخل بشيء مما وجدنا من الأرزاق، ولا ندَّخر من الذخائر مما فضل علينا، بل نطير جائعين متَّكلين على الله — تعالى — ونرجع بحمد الله مشبعين.

وأما الذي ذكرتَ بأن لكم في الكتب آيات محكمات بينات للحلال والحرام والحدود والأحكام، فكل ذلك تعليم لكم وتأديب لجهلكم وعماكم وقلة معرفتكم بالمنافع والمضار،

وإن الإنسان كان ظلومًا جهولًا، تحتاجون إلى المعلمين والأستاذين والمذكِّرين والواعظين لكثرة غفلاتكم وسهوكم ونسيانكم.

وإنما مبيَّن لكم الحلال والحرام لأن الحرام مثل طعام حار جدًّا يَتضرَّر بتناوله مَن غلبتْ عليه الحرارة، وهو شاب ابن ثلاثين سنة، ويسكن في البلدان الحارة جدًّا في أكثر الأوقات أن يوقعه في هاوية البِلَى أو في البلى أو في جهنم الدق والذبول، ويصير مثل ما سُقوا ماءًا حميمًا فقطَّع أمعاءهم.

والحلال مثل طعام خفيف الجرم كثير الفائدة صالح الكيموس كثير الغذاء ينتفع بتناوله مَن كان مزاجه معتدلًا، وهو صحيح البنية ويسكن في البلدان الشريفة عند خط الاستواء الصراط المستقيم، ففي أكثر الأمر أن مَن هذا شأنه ودأبه يبقى مدة مديدة في جنة الصحة ودار السلام من اعتدال البنيان ودار النعيم وقلة الأمراض، فانتبه أيها الإنسي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

واعلم أن هذه الإحكامات والموضوعات قيودٌ وأغلال وسلاسل عليكم؛ إذ الحكمة الإلهية اقتضتْ هذه الأسرار الواجبة وجعل الموضوعات الشرعية والحكمية أستاذًا ومؤدِّبًا لكم، ونحن بمعزل عن جميع ذلك؛ إذ قد ألْهَمنا الله — تعالى — إلى جميع ما نحتاج إليه من أول الأمر إلْهامًا ووحْيًا بلا واسطة من الرسل، ولا نداء من وراء حجاب كما أوحى إلى النحل بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، وكما قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، وعلَّم سليمان منطق الطير.

فافهم أيها الغافل الإنسي، وقال: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. مِن عَمَى قلبِه لا نادمًا على ذنبه وخطيئته.

وأما الذي ذكرتَ بأن لكم أعيادًا وجُمُعات وذهابًا إلى بيوت العبادات، وليس لنا شيء من ذلك.

فاعلم أنكم لو كنتم مهذَّبي الأخلاق معاوني الإخوان عند المضائق والشدائد وكنتم كنفس واحدة في مصالح أموركم لما وجب عليكم الأعياد واجتماع الجمعات؛ لأن صاحب النواميس اقتضى هذا لتجتمع الناس بعد غيبتهم بعضهم إلى بعض، حتى يحصل من اجتماعهم الصداقة؛ إذ الصداقة أُسُّ الأخوة، والأخوة أُسُّ المحبة، والمحبة أُسُّ إصلاح الأمور، وإصلاح الأمور صلاح البلاد، وصلاح البلاد بقاء العالَم وبقاء النسل.

فلهذا أمرتِ الشريعة أن يجتمع الخلائق في السنة مرتين إلى موضع مخصوص، وفي كل أسبوع مرة إلى مواضع مخصوصة، وفي كل يوم خمس مرات في مساجد المحال والسوق ليحصل الغرض المطلوب.

فلهذه الأسرار قال سيد المرسلين: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد.» وليس لنا شيء من ذلك؛ لأننا لا نحتاج إلى ذلك؛ لأن الأماكن كلها لنا مساجد والجهات كلها قبلة أينما توجهنا، فثم وجه الله، والأيام كلها لنا جمعات وعيد، والحركات كلها صلوات وتسبيح، فلم نحتج إلى شيء مما ذكرتَ؛ إذ الصلاة عبارة عن طهارة القلوب من خبث الحقد ونجاسة الشك والتقرب إلى الله — تعالى — بخالص النية وصحة الاعتقاد والتوجُّه إلى قِبْلة الأمر بالمعروف والقيام بمصالح المؤمنين والقعود عن العداوة والبغضاء والركوع والسجود بالتواضع والحلم والتشهد مع الإخوان الأبرار، والتسليم من الجهل.

فإذا حصلت هذه الأفعال المخصوصة تُسمى صلاة، ونحن مشتغلون بهذه أينما تولُّوا، فثم وجه الله، ونكون مجتمعين في جميع أوقاتنا، ولا نشتغل بأذية أبناء جنسنا، ونكون قائمين بمصالح الإخوان، وقاعدين عن الشتم والمفسدة، وراكعين بالخضوع مع الإنسان وساجدين بالتواضع لهم عند لقط الحبوب، فهذه خصائلنا.

فلهذا ما وُقِّت علينا الجمعات والأعياد، والأيام كلها لنا أعياد وجمعات، والحركات كلها لنا صلاة وتسبيح، فلم نحتج؛ إذ لسنا محتاجين إلى شيء مما ذكرتم وافتخرتم بذلك علينا.

فلما فرغ زعيم الطيور من كلامه نظر الملك إلى جماعة الإنس الحاضرين قال: قد سمعتم ما قال الطير وفهمتم ما ذكر، فهل عندكم شيء آخر؟ فاذكروه وبيِّنوه إن كنتم صادقين!

فصل

وقام عند ذلك العراقي، وقال: الحمد لله خالق الخلق وباسط الرزق وسابغ النِّعَم الذي أكرَمَنَا وأنعَمَ علينا في البر والبحر، وفضَّلنا على كثير ممن خلق تفضيلًا، نعم أيها الملك، لنا خصال أُخَر ومناقب ومواهب وكرامات تدل على أننا أرباب لهم وهم عبيد لنا، فمِن ذلك: حُسْن لباسنا، ولِين ثيابنا، وسَتْر عوراتنا، ووطاء فُرُشنا، ونعومة دثارنا، ودفء غطائنا، ومحاسن زينتنا من الحرير والديباج والخز والقز والقطن والكتان والسمور والسجاب وألوان الفراء والأكسية من البسط والأنطاع والمخاد والفرش واللبود والبربولي،

وما شاكلها مما لا يُعَدُّ كثرته، وكل هذه المواهب دليل على ما قلنا بأننا أرباب لهم، وهم عبيد لنا، وخشونة لباسها وغلظ جلودها وسماجة دثارها، وكشف عوراتها دليل على أنها عبيد لنا ونحن أربابها وملاكها، ولنا أن نحتكم فيها بحكم الأرباب ونتصرف فيها تصرف المُلَّاك.

فلما فرغ الإنسي العراقي من كلامه نظر الملك إلى طوائف الحيوان الحضور وقال: ماذا تقولون فيما ذكره وافتخر به عليكم؟ إن كان لكم جواب فهاتوا به، قالوا: لنا جواب أجود وأحكم من ذلك.

فصل

وقام بعد ذلك زعيم السباع وهو كليلة أخو دمنة فقال: الحمد لله القوي العلام خالق الجبال والآكام ومنشئ النبات والأشجار في الغياض والآجام، وجاعلها أقواتًا للوحوش والأنعام، وهو العلي الأعلى خالق السباع ذوات البأس والشجاعة والإقدام، ذوات الزنود المتينة والمخالب الحداد والأنياب الصلاب والأفواه الواسعة والقفزات السريعة والوثبات البعيدة، المنتشرات في الليالي المظلمات للمطالب والأقوات، وهو الذي جعل أقواتها من جِيَف الأنام ولحوم الأنعام متاعًا إلى حين، ثم قضى على جميعها الموت والفناء والمصير إلى البِلَى، فله الحمد على ما وهب وأعطى وعلى ما حكم به الصبر والرضا.

ثم الْتَفت زعيم السباع إلى الكافة هناك من حكماء الجن وزعماء الحيوانات فقال: هل رأيتم يا معشر الحكماء أو سمعتم معشر الخطباء أكثر سهوًا وغفلةً من هذا الإنسي؟! قال الجماعة: وكيف ذلك؟ قال: لأنه ذكر من فضائلهم كيت وكيت من حسن اللباس ولين الثياب والدثار.

ثم قال: أيها الإنسي، خبِّرْني هل كان لكم هذا الذي ذكرتموه وافتخرتم به إلا بعد ما أخذتم عن غيركم من سائر الحيوانات واستعرتموها من سواكم من السباع وغلبتموها عليها؟ قال الإنسي: ومتى كان ذلك؟ قال: أليس ألْيَن ما تلبسون وأحسن ما تزينون به من اللباس والحرير والديباج الإبريسم؟ قال: بَلَى، قال: أليس ذلك من ألعاب أضعف الحيوان الذي هي ليس من بني آدم، بل هي من جنس الهوام، وقد نسجتْها على أنفسها ليكون كِنًّا لها ولبَيْضها، ولتنام فيها وتكون لها غطاءً ووطاءً وحرزًا من الآفات والحر والبرد والرياح والأمطار وحوادث الأيام ونوائب الزمان، فجئتم أنتم وأخذتموها قهرًا وغلبتموها عليها جبرًا وجورًا فعاقبكم الله بها وابتلاكم بشلِّها وفتْلِها وغزْلِها ونسْجِها

وخياطتها وقصارتها وقطعها وتطريزها وما شاكل ذلك من العناء والتعب والشقاء الذي أنتم مبتلَوْن به ومعاقبون من إصلاحها وبيعها وشرائها وحفظها بشغل القلوب وتعب الأبدان وشقاء النفوس لا راحة لكم ولا قرار ولا سكون ولا هدوء في دائم الأوقات!

وهكذا حكمكم في أخذكم أصواف الأنعام وجلود البهائم وأوبار السباع وشعورها وريش الطيور كل ذلك أخذتموه قهرًا ونزعتموه غصبًا وغلبتموها عليها ظلمًا وجورًا، ونسبتموها إلى أنفسكم بغير حق، ثم جئتم تفتخرون به علينا، ولا تستحون ولا تذكرون ولا تعتبرون، ولو كان في ذلك فخرٌ وتباهٍ لكنَّا بذلك الفخر أولى منكم؛ إذ قد أنبت الله — تعالى — ذلك على ظهورنا، وأنشأها من جلودنا وجعلها لباسًا لنا ودثارًا وغطاءً ووطاءً وسترًا وزينة لنا، كل ذلك تفضُّلًا منه علينا ورفقًا بنا ورحمة علينا وشفقة وتحنُّنًا على أولادنا وصغار نتاجنا؛ وذلك أنه إذا وُلد واحد منَّا فعليه جلده انصلح له، وعلى جلده الشعر والصوف والوبر والريش والفلوس، كل ذلك لباس ودثار وستر على حسب كبر جثته وعظم خلقته، ولا نحتاج في اتخاذها إلى عمل، ولا نحتاج إلى حلج أو غزل أو فتل أو نسج أو قطع أو خياطة مثل ما أنتم به مبتلَوْن ومعاقبون عليه لا راحة لكم إلى الموت، كل ذلك عقوبة لكم لذنب أبيكم لَمَّا عصى وترك وصية ربه فغوى.

قال ملك الجن لزعيم السباع: كيف كان مبتدأ آدم في خلقه، وأول ابتدائه؟ أخبرنا عنه!

قال: نَعَم أيها الملك، إن الله — تعالى — لَمَّا خلَق آدم وزوجته — عليهما السلام — أزاح عِلَلَهما فيما يحتاجان إليه في قيام وجودهما وبقاء أشخاصهما من المواد والغذاء والدثار واللباس مثل ما فعل بسائر الحيوان التي كانت في تلك الجنة التي على رأس جبل الياقوت الذي بالمشرق تحت خط الاستواء، وذلك أنه لما خلق آدم وحواء — عليهما السلام — عريانين أنبت على رأس كل واحد منهما شعرًا طويلًا مدلًّى على جسد كل واحد منهما في جميع الجوانب سبطًا جعدًا، وأسود لينًا، أحسن ما يكون على رأس الجواري الأبكار، وأنشأهما شابَّيْن أَمْرَدَيْن تَرِفَيْن في أحسن صورة من صور تلك الحيوانات التي هناك.

وكان ذلك الشعر لباسًا لهما وسترًا لعورتيهما ودثارًا لهما ووطاءً وغطاءً ومانعًا عنهما البرد والحر، فكانا يمشيان في ذلك البستان ويجتنيان من ألوان تلك الثمار فيأكلان منها ويتقوَّتان بها ويتنزَّهان في تلك الأرض والرياض والروح والريحان والزهر والنَّوْر مستريحَيْن متلذِّذَيْن منعَّمَيْن فرحين غير خائفين بلا تعب من البدن، ولا عناء من النفس،

وكانا منهِيَّيْن عن تجاوز طورهما وتناول ما ليس لهما قبل وقتها، فتَرَكَا وصية ربهما واغترَّا بقول عدوِّهما، فتناولا ما كانا منهيين عنه، فسقطت مرتبتهما، وتناثرت شعورهما، وانكشفتْ عورَاتُهما، وأُخرِجا من هناك عريانين مطرودين مهانين معاقبين فيما يتكلَّفان من إصلاح المعاش وما يحتاجان إليه من قوام الحياة الدنيا كما زعم الطيور في الفصل الأول، وكما ذكر حكيم الجن في فصله مثل ذلك.

فلما بلغ زعيم السباع إلى هذا الموضع من الكلام قال له زعيم الإنس: أمَّا أنتم يا معشر السباع؛ فسبيلكم أن تسكتوا وتستحوا ولا تتكلموا.

قال له كليلة: ولِمَ ذلك؟ قال: لأنه ليس من الطوائف الحضور ها هنا جنس أشرُّ منكم معشر السباع، ولا أقسَى قلوبًا ولا أقلَّ نفعًا ولا أكثر ضررًا ولا أشد حرصًا على أكل الجِيَف وطلب المعاش.

قال: كيف ذلك؟ قال: لأنكم تفترسون — معشر السباع — هذه البهائم والأنعام بمخالب حِدَاد فتخرقون جلودها وتكسرون عظامها وتشربون دماءها وتنهشون لحومها بلا رحمة عليها ولا فكرة فيها ولا رفق بها.

قال زعيم السباع: منكم تعلَّمْنا، وبكم اقتدينا فيما تعملون في هذه البهائم، قال الإنسي: كيف كان ذلك؟

قال: لأنه قبل خلق أبيكم آدم وأولاده ما كانت السباع تفعل من ذلك شيئًا ولا تصطاد الأحياء منها؛ لأن جِيَفَها كانت كثيرة، وما يموت منها كل يوم بآجالها كفاية لها تتقوَّت به، وما تحتاج إلى صيد الأحياء منها، وحمل المخاطرة على أنفسها في الطلب والانتهاك والمحاربة والتعرض لأسباب المنايا، وذلك أن الأسود والنمور والفهود والذئاب وغيرها من أصناف السباع الآكلة اللحوم لا تتعرض للفيلة والجواميس والخنازير ما دامت تجد من جِيَفها ما يقوتها ويكفيها إلا عند الاضطرار وشدة الحاجة؛ لأن لها أيضًا إشفاقًا على أنفسها كما يكون لغيرها من سائر الحيوانات.

فلما جئتم أنتم يا معشر الإنس وانتزعتم منها قطعان الغنم والبقر والجمال والخيل والبغال والحمير، وأحرزتموها ولم تتركوا منها في البراري والقفار والآجام واحدًا منها عدمت السباع جِيَفها، فاضطرت إلى صيد الأحياء منها وحلَّ لها ذلك كما حلَّتْ لكم المَيْتة والدم ولحم الخنزير عند الاضطرار.

وأما الذي ذكرتَه من قلة رحمتنا عليها وقساوة قلوبنا، فلسنا نرى ما تشكو منَّا هذه البهائم كما تشكو منكم ومن جوركم ومن ظلمكم وتعديكم عليها، وأن الذي ذكرتَ

بأنَّا نقبض عليها بمخالب حداد وأنياب صلاب ونخرق جلودها ونشق أجوافها ونكسر عظامها ونشرب دماءها ونأكل لحومها، فكذا أنتم تفعلون بها وتذبحونها بسكاكين حداد وتسلخون جلودها وتشقون أجوافها وتكسرون عظامها بالسواطير والكيان ونار الطبخ وحر الشوي زيادة على ما نفعل نحن بها.

وأما الذي ذكرتَ من ضررنا على الحيوانات، فالقول كما قلت ولكن لو فكرتَ واعتبرتَ لعلمتَ وتبيَّن لك بأن ككل ذلك صغير حقير في جنب ما تفعلون أنتم بها من الضرر والجور والظلم كما ذكر زعيم البهائم في الفصل الأول.

وأما ضرر بعضكم لبعض وضرب بعضكم لبعض بالسيوف والسياط والسكاكين والطعن بالرماح والزوبينيات والضرب بالدبائس والكِلَل وقطع الأيدي والأرجل والحبس في المطامير والسرقة واللصوصية والغش والخيانة في المعاملة، والغمز والسعاية والمكر والحيل في أسباب العداوة، وما شاكل هذه الخصال ممَّا لا تفعله السباع من ذلك بالحيوانات، ولا بعضها ببعض، ولا تعرفه فيزيد على ذلك كله.

وأما ما ذكرتَ من قلة منافعها لغيرها فلو فكرتَ واعتبرتَ لعلمتَ وتبيَّن لك بأن النفع منَّا لكم بيِّن ظاهر مما تنتفعون به من جلودنا وشعورنا ووبرنا وأصوافنا، ومما تنتفعون به من صيد الجوارح منَّا، وقد سخَّرتموها، ولكن أخبِرْنا أيها الإنسي أيُّ منفعة منكم لغيركم من الحيوانات، فأمَّا الضرر فهو ظاهر بيِّن؛ إذ قد شاركتمونا في ذبح هذه الحيوانات وأكل لحمانها والانتفاع بجلودها وشعورها، وبخلتم عليها بالانتفاع بجِيَفكم وقد دفنتموها تحت التراب حتى لا تنتفع بكم أحياءً ولا أمواتًا.

وأما الذي ذكرتَ من غارات السباع على الحيوانات وقبضها عليها وقتلها، فإن ذلك كله إنما فعلتْه السباع بعدما رأتْ أن بني آدم يفعلون بعضهم ببعض منذ عهد قابيل وهابيل، وإلى يومنا هذا نرى كل يوم من القتلى والجرحى والصرعى في الحروب والقتال مثل ما شوهد في أيام رستم وإسفنديار، وأيام جمشيد وتُبَّع، وأيام الضحاك وأفريدون، وأيام سيواس ومنوجهر، وأيام دارا والإسكندر، وأيام بخت نصر وآل داود وآل بهرام وآل عدنان وأيام قسطنطين وأهل بلاد اليونان وأيام عثمان ويزدجر وأيام بني العباس وبني مروان، وهلم جرًّا إلى يومنا هذا، نرى في كل سنة وشهر ويوم وقعة من بني آدم بعضهم على بعض ومع بعض، وما يحدث فيها من أسباب الشرور والبلايا والقتل والجراح والمُثْلة والنهب والسبْي ما لا يُقدَّر ولا يُعَدُّ، ثم الآن جئتم تفتخرون علينا وتعيرون السباع أنها شر خلقة في الأرض، أما تستحون من هذا القول الزور والبهتان

علينا؟ ومتى رأى الإنس أن السباع قد فعلتْ بعضها ببعض مثل ما تعملون أنتم بعضكم ببعض في كل يوم؟

ثم قال زعيم السباع لزعيم الإنس: لو تفكرتم يا معشر الإنس في أحوال السباع واعتبرتم تصاريف أمورها لعلمتم وتبيَّن لكم أنها خير منكم، وأفضل.

قال زعيم الإنس: كيف ذلك؟ دلَّنا عليه! قال: نَعَم، أليس خياركم الزُّهَّاد والعُبَّاد والرُّهْبان والأَحْبار والسُّيَّاح؟ قال: نَعَم، قال: أليس إذا تناهَى واحد منكم في الخيرية والصلاح خرج من بين أظهُرِكم وهرب منكم وذهب يأوي إلى رءوس الجبال والتلال وبطون الأودية والسواحل والآجام مأوى السباع، ويخالطها في أماكنها في الكهوف والمغارات، ويعاشرها في أوطانها ويجاورها في أكنافها ولا تتعرض له السباع؟ قال: بَلَى، كما قلتَ كذا نقول، قال: فلو لم تكن السباع أخيارًا لما جاورها أخياركم وعاشرها الصالحون منكم؛ لأن الأخيار لا يعاشرون الأشرار، بل يفرون منهم وينفرون عنهم، فهذا دليل على أن السباع صالحة، لا كما زعمتم أنها شرُّ خلْقِ الله، فهذا القول الذي ذكرتم زورًا وبهتانًا عليها، ودليل آخَر أن السباع صالحة لا كما زعمتَ هو أن مِن سُنَّة ملوككم الجبابرة إذا شكُّوا في الصالحين منكم والأخيار من أبناء جنسكم يطرحونهم بين السباع، فإن لم تأكله علموا بأنه من الأخيار؛ لأنه لا يعرف الأخيار إلا الأخيار، كما قال الشاعر:

يعرفه الباحث عن جنسه وسائر الناس له منكِرٌ

واعلم أيها الإنسي أن في السباع أخيارًا وأشرارًا، وأن الأشرار منها لا تأكل الأشرار، كما يأكل الأشرار الأشرار من الإنس، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

فلما فرغ زعيم السباع من كلامه قال حكيم من الجن: صدق هذا القائل، إن الأخيار يهربون من الأشرار، ويأنسون بالأخيار، وإن كانوا من غير جنسهم، وإن الأشرار أيضًا يبغضون الأخيار ويهربون منهم ويلجئون إلى أبناء جنسهم من الأشرار، فلو لم يكن بنو آدم أكثرهم أشرارًا لما هرب أخيارهم من بين ظهرانَيْهِم إلى رءوس الجبال والآجام ومأوى السباع، وهي من غير جنسهم ولا تُشبِهم في الصورة، ولا في الخِلْقة إلا في أخلاق النفوس من الخيرية والصلاح والسلامة، قالت الجماعة كلها: صدق الحكيم فيما قال، وذكر وأخبر، فخَجِلتْ جماعة الإنس عند ذلك، ونكست رءوسها حياءً وخجلًا مما سمعتْ

من التوبيخ والتعريض، وانقضى المجلس ونادى منادٍ: انصرفوا مكرمين لتعودوا غدًا آمنين مطمئنين.

فصل

ولما كان من الغد جلس الملك مجلسه وحضرتِ الطوائف كلها على الرسم واصطفَّتْ، فنظر الملك إلى جماعة الإنس وقال: قد سمعتم ما جرى أمس، وما ذكرتم وسمعتم الجواب عما قلتم، فهل عندكم شيء آخر غير ما ذكرتم بالأمس؟ فقام عند ذلك الزعيم الفارسي وقال: نَعَم أيها الملك العادل، إن لنَّا مناقب أُخَر وفضائل جمَّة وخصالًا عدة تدل على صحة ما نقول وندَّعي، قال الملك: هاتِ واذكر منها شيئًا! قال: نَعَم، ثم قال: الحمد لله الذي اختلفتِ الحكماء في أسمائه واتفقتْ في وجوده وقِدَمِه، الذي أوجد الخلائق بقدرته، وخص من بينهم آدم وأولاده برحمته وشرَّفهم تشريفًا بخلعة الإيمان ولباس الكرامة من بين سائر الحيوانات، وألْهمهم طريق الهدى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، والصلاة على خير خَلْقِه وصفوة أنبيائه محمد وآله.

أما بعد، فاعلم أيها الملك أن منَّا الملوك والأمراء والخلفاء والسلاطين، وأن منَّا الرؤساء والوزراء والكُتَّاب والعمال وأصحاب الدواوين والحُجَّاب والقُوَّاد والنُّقَباء والخواص وخدم الملوك وأعوانهم من الجنود، ومنَّا أيضًا التجار والصناع وأصحاب الزروع والنسل، ومنَّا أيضًا الدهاقين والأشراف والأغنياء وأرباب النِّعَم وأصحاب المروءات، ومنَّا أيضًا الأُدَباء وأهل العلم والوَرَع وأهل الفَضْل، ومنَّا أيضًا الخُطَباء والشُّعَراء والفُصَحاء والمتكلِّمون والنَّحْوِيون وأصحاب الأخبار ورواة الحديث والقُرَّاء والعُلَماء والفُقَهاء والقُضاة والحُكَّام والعُدُول والمُزكَّوْن والمذكرون والحكماء والمهندسون والمنجِّمون والطبيعيون والأطباء والعرافون والمعزِّمون والكَهَنة والمعبِّرون والكيميائيون وأصحاب الطلسمات وأصحاب الأرصاد وأصناف أُخَر يطول شرحها، وكل هذه الطوائف والطبقات لهم أخلاق وسجايا وطبائع وشمائل ومناقب وخصال حسنة ومذاهب حميدة وعلوم وصنائع حسان مختلفة متفننة، وكل هذه لنا وغيرنا من الحيوان بمعزل عنها، فهذا دليل بأننا أرباب لها وهي عبيد لنا، وفي الجملة قوام العالَم بنا وبوجودنا؛ إذ هذه الجملة التي ذكرتُ من الصنائع واختلاف الأشخاص صار سببًا لقوام العالم وبقائه من غير شك.

فصل

فلما فرغ زعيم الإنس من كلامه نطق البَبْغاء وقال: الحمد لله خالق السموات المسموكات والأرضين المدحوَّات والجبال الراسيات والبحار الزاخرات والبراري والقفار والرياح الذاريات والسحب المنشآت والقطر الهاطلات والشجر والنبات والطير الصافات، كلٌّ قد علم صلواته وتسبيحه.

ثم قال: اعلموا — رحمكم الله — أن هذا الإنسي قد ذكر أصناف بني آدم وعدَّ طبقاتهم، فلو أنه تفكَّر أيها الملك فعادل واعتبر كثرة أجناس الطيور وأنواعها، لعلم وتبيَّن له من كثرتها ما يصغر ويقِلُّ عنده أصناف بني آدم وعدد طبقاتهم في جنب ذلك، كما قد تقدم ذكره في فصلٍ مِن هذا الكتاب، كما قال شاه مرغ للطاووس من خُطَباء الطيور وفصحائها.

ولكن خذ الآن أيها الإنسي إزاء كل ما ذكرتَ وافتخرتَ به بقولك قولًا آخَر معكوسًا، وبدل كل حسن نسبتَ أصنافًا أُخَر قبيحة، ونحن بمعزل منها، وذلك أن عندكم الفراعنة والنماردة والجبابرة والفَسَقة والمشركين والمنافقين والملحدين والمارقين والناكثين والخوارج وقُطَّاع الطريق واللصوص والعيارين والطرَّارين، ومنكم أيضًا الدجالون والباغون والطاغون والمرتابون.

ومنكم أيضًا القَوَّادون والمخانيث والمؤاجرون واللواطة والسحاقات والبَغَايا، ومنكم أيضًا الغمَّازون والكذَّابون والنبَّاشون، ومنكم أيضًا السُّفَهاء والجُهَّال والأغبياء والناقصون، وما شاكل هذه الأوصاف والأصناف والطبقات المذمومة أخلاقُ أهلِها، الردية طباعُهم، القبيحةُ سيرتُهم وأفعالُهم، السيِّئةُ سِيَرُهم وأعمالُهم المذمومة الجائرة، ونحن بمعزل عنها كلها، ونشاركهم في أكثر الخصال المحمودة والسِّيَر العادلة؛ وذلك أن أول كل شيء مما ذكرتَ وافتخرتَ به أن منكم الملوك والرؤساء ولهم أعوان وجنود ورعية.

أما علمتَ بأن لجماعة النحل ولجماعة النمل ولجماعة الطيور ولجماعة السباع رؤساء وأعوانًا وجنودًا ورعيةً، وأن رؤساءها وملوكها أحسن سياسةً وأشد رعايةً من ملوك بني آدم بها، وأشد تحننًا عليها ورأفةً بها وشفقةً عليها.

بيان ذلك أن أكثر ملوك الإنس ورؤساءها لا ينظرون في أمر الرعية وجنودهم وأعوانهم إلا لجرِّ منفعة منها أو دفع مضرة عنها أو إلى نفس مَن يهواه لشهواته كائنًا من كان قريبًا أو بعيدًا، ولا يفكِّر بعد ذلك في واحد، ولا يهمُّه أمرُه كائنًا مَن كان مِن قريب أو بعيد.

وليس هذا من فعل الملوك والفضلاء، ولا عمل الرؤساء ذوي السياسة الرحماء، بل من سياسة الملك وشرائطه وخصال الرياسة أن يكون الملك والرئيس رحيمًا رءوفًا برعيته مشفقًا متحننًا على جنوده وأعوانه اقتداءً بسنة الله — تعالى — الجواد الكريم الرءوف الرحيم لخلقه وعباده، كائنًا مَن كان الذي هو رئيس الرؤساء وملك الملوك، وملوك أجناس الحيوانات ورؤساؤهم هم بسُنَّة الله — تعالى — أحسن اقتداءً من ملوك الإنس ورؤسائهم.

وذلك أن ملك النحل ينظر في أمر رعيته، ويتفقد أحوالهم وأحوال جنوده وأعوانه لا لهوًى في نفسه وشهواتها وجر المنفعة إليها ودفع المضرة عنها أو إلى نفس مَن يهواه لشهواته، بل يفعل ذلك رأفة ورحمة لرعيته وشفقة وتحننًا لهم، وعلى جنوده وأعوانه.

وهكذا يفعل ملك النمل وملك الكُرْكِي في حراسته وطيرانه وملك القطا في وروده وصدوره.

وهكذا حكم سائر الحيوانات التي لها رؤساؤها ومديروها لا يطلبون من رعاياهم عوضًا ولا جزاءً فيما يسوسونهم كما لا يطلبون من أولادهم برًّا ولا صلةً ولا مكافأة لهم، كما يطلب بنو آدم من أولادهم البر والمكافأة في تربيتهم لهم، بل نجد كل جنس من الحيوانات التي تنزو وتسفد وتحمل وترضع وتربِّي أولادها، والتي تسفد وتبيض وتحضن وتزق الفراخ والأولاد وتربِّي أولادها لا تطلب من أولادها برًّا ولا صلةً ولا مكافأة، ولكنها تربِّي أولادها تحننًا عليها وشفقة ورحمة بها ورأفة لها، كل ذلك اقتداءً بسنة الله تعالى؛ إذ خلق عبيده وأنشأهم وربَّاهم وأنْعَم عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم من غير سؤال منهم، ولا يطلب منهم جزاءً ولا شكورًا، ولو لم يكن من لؤم طباع الإنس وسوء أخلاقهم وسيرتهم الجائرة وعاداتهم الرديئة وأعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ومذاهبهم الضالة وكفرهم بالنعم لما أمرهم الله — تعالى — بقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. كما لم يأمر أولادنا؛ إذ لا يكون منهم العقوق والكفران، وإنما توجَّه الأمر والنهي والوعد والوعيد إليكم يا معشر الإنس دوننا؛ لأنكم عبيد سوء يقع منكم الخلاف والمكر والعصيان فأنتم بالعبودية أولى منَّا، ونحن بالحرية أولى منكم، فمِن أين زعمتم أنكم أرباب لنا، ونحن عبيد لكم، لولا الوقاحة والمكابرة وقول الزور والبهتان؟!

ثم لَمَّا فرغ الببغاء من كلامه قالت الجماعة: صدق هذا القائل في جميع ما ذكر وأخبر به، فخجلت جماعة الإنس عند ذلك، ونكسوا رءوسهم من الحياء والخجل لما توجَّه عليهم من الحكم، ولم يمكن الإنس أن ينطقوا بعد ذلك.

ولما بلغ الببغاء من كلامه إلى هذا الموضع قال الملك لرئيس الحكماء من الجن: مَن هؤلاء الملوك الذين ذكرهم هذا القائل وأثنى عليهم ووصف شدة رحمتهم وإشفاقهم على رعيتهم وتحننهم ورأفتهم لجنودهم وأعوانهم وحسن سيرتهم، أنا أظن أن في ذلك رمزًا من الرموز وسرًّا من الأسرار، عرِّفْني ما حقيقة هذه الأقاويل وإشارة هذه المرامي، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال حكيم الجن: اعلم أيها الملك أن اسم الملوك مشتق من اسم الملك، واسم الملك من أسماء الملائكة، وذلك أنه ما من جنس من هذه الحيوانات ولا نوع منها ولا شخص ولا كبير ولا صغير إلا وقد وكَّل الله — تعالى — به ملائكة تربِّيه وتحفظه وتراعيه في جميع تصرفاته، وهي أشد رحمة ورأفة وتحننًا وشفقة من الوالدات لأولادها الصغار ونتاجها الضعيفة.

قال الملك الحكيم: ومِن أين للملائكة هذه الرحمة والرأفة والتحنن والشفقة التي ذكرتَ؟

قال: من رحمة الله — تعالى — ورأفته بخلقه وشفقته وتحننه على بريته، وكل رحمة ورأفة من الملائكة ومن الوالدات والآباء والأمهات ورحمة الخلق بعضهم على بعض فهي جزء من ألْف ألْف جزء من رحمة الله — تعالى — ورأفته بخلقه وشفقته وتحننه على عباده.

ومن الدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا أن ربهم لما أبداهم وأبدعهم وخلقهم وسوَّاهم وتمَّمهم وربَّاهم وكَّل بحفظهم الملائكة الذين هم صفوته من خلقه، وجعلهم رحماء كرماء بَرَرة، وخلق لهم المنافع والمرافق في طريق الهياكل العجيبة والصور والأشكال الطريفة والحواس الدرَّاكة اللطيفة وألْهمهم دفع المضارِّ وجرَّ المنافع، وسخَّر لهم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر؟ ويدبِّرهم في الشتاء والصيف في البر والبحر والسهل والجبل، وخلق الأقوات من الشجر والنبات متاعًا لهم إلى حين وأسبغ عليهم نعمته ظاهرة وباطنة، ولو عددت لما أحصيت، وكل هذه دلالة وبراهين على شدة رحمة الله ورأفته وتحننه وشفقته على خلقه.

قال الملك: فمَن رئيس الملائكة المقرَّبين الموكَّلين ببني آدم وحفظهم ومراعاة أمرهم، قال الحكيم: هي النفس الناطقة الإنسانية الكلية التي هي خليفة الله في أرضه، وهي التي

قُرنَتْ بجسد آدم لما خُلق من التراب وسجدت له الملائكة كلهم أجمعون، وهي النفوس الحيوانية المنقادة لطاعة النفس الناطقة الباقية إلى يومنا هذا في ذرية آدم، كما أن صورة الجسد الجسمانية باقية في ذريته إلى يومنا هذا، وبها ينشئون، وبها ينمون، وبها يفوزون، وبها يُجازَوْن، وبها يؤاخذون، وإليها يُرجَعون، وبها يُعرَفون يوم القيامة، وبها يُبعثون، وبها يدخلون الجنة، وبها يصعدون إلى عالم الأفلاك — أعني صعود النفس الناطقة التي هي خليفة الله في أرضه — وأبى إبليس عن سجدة لآدم، وهي القوة الغضبية والشهوانية والنفس الأمَّارة بالسوء.

ليعلم المَلِك جميع ذلك؛ لأن أكثر كلام الله — تعالى — وكلام أنبيائه وأقاويل الحكماء رموز لسِرٍّ من الأسرار مخفيًّا عن الأشرار، وما يعلمها إلا الله — تعالى — والراسخون في العلم، وذلك أن القلوب والخواطر ما كانت تحمل فهْم معاني ذلك؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «كلِّموا الناس على قدْر عقولهم.» وإفشاء سرِّ الربوبية كفر.

وأما الخواص من الحكماء الذين هم الراسخون في العلم فهم لا يحتاجون إلى زيادة بيان؛ إذ هم مطَّلِعون على حقائق جميع الأسرار والمرموزات؛ من ذلك قول الله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، وقوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، وقوله: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، وقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقوله: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى﴾، وقوله: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ﴾، وقوله: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، وقوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، وقوله: ﴿كهيعص﴾، وقوله: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وقوله: ﴿عسق﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقول النبي عليه السلام: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.» وقوله: «صوموا تصحوا، وسافروا تغنموا.» وقوله عليه الصلاة والسلام: «شاوروهن وخالفوهن.» وقوله عليه الصلاة والسلام: «الجنة تحت أقدام الأمهات.»

ونظائر ذلك من الآيات والأخبار تحت ذلك سرٌّ من الأسرار التي لا يجوز أن تُكشف على العوام والجُهَّال، سيما في آخر الزمان، فلهذا الغرض ألبسوا حقائق الأشياء بلباس غير ما يليق بذلك حسب فهم عامة البشر، لكن الخواص والحكماء يعلمون الغرض والحقيقة في ذلك، ويخفون عن الأشرار والأجلاف.

فمَن مَنَح الجُهَّال علمًا أضاعه ومَن مَنَع المستوجِبِين فقد ظَلَم

ثم قال الملك: بارك الله فيك من حكيمٍ، ما أعلمك! ومن عالم، ما أفهَمَك! وجزاك الله خيرًا، زدني بيانًا آخَر، فقال: نَعَم.

ثم قال الملك للحكيم: لِمَ لا تُدرك الأبصار الملائكة والنفوس؟ قال: لأنها جواهر شفَّافة نورانية، ليس لها لون ولا جسم، ولا تدركها الحواس الجسمانية مثل الشم واللمس والذوق، وقُلْ تَرَاها الأبصارُ القوية اللطيفة مثل أبصار الأنبياء والرسل وأسماعهم، فإنهم بصفاء نفوسهم وانتباههم من نوم الغفلة واستيقاظهم من رقدة الجهالة وخروجهم من ظلمات الخطايا قد انتعشت نفوسهم، فصارت مشاكلة لنفوس الملائكة تراها وتسمع كلامها وتأخذ منها الوحي والأنباء وتؤدِّي إلى أبناء جنسهم من البشر بلغات مختلفة لمشاكلتهم إياهم بأجسادهم، قال الملك: جزاك الله خيرًا، تمِّم كلامَك يا ببغاء.

فصل

ثم قال الببغاء: أيها الإنسي، أمَّا الذي ذكرتَ بأَنَّ منكم صناعًا وأصحاب حرف، فليس ذلك بفضيلة لكم دون غيركم، ولكن قد شارككم فيها بعض أصناف الطيور والهوام وغير ذلك من الحيوانات.

وبيان ذلك أن النحل هي من الحشرات وهي في اتخاذها البيوت وبناء منازل الأولاد أحذق وأعلم وأحكم من صُنَّاعكم وأجود وأحسن من بناء المهندسين والبنَّائين منكم، وذلك أنها تبني منازلها طبقات مستديرات كالتراس بعضها فوق بعض من غير خشب ولا لبن ولا آجُرٍّ ولا جصٍّ، كأنها غُرَف من فوقها غُرَف، وتجعل تقدير بيوتها مسدسات متساويات الأضلاع والزوايا لما فيها من إتقان الصنعة وإحكام البنية، ولا تحتاج في عمل ذلك إلى قراءة كتب الهندسة ولا إلى آلة البركار والمسطرة كما تحتاجون إلى بركار

تُديرون بها، وإلى مسطرة تخطون بها، وإلى شاقول تدلون بها، وإلى كونيا تقدرون بها، كما يحتاج البنَّاء إليها من بني آدم.

ثم إنها تذهب في الرعي وتجمع الشمع من ورق الأشجار والنبات بأرجلها والعسل من زهر النبات ونَوْر الأشجار ووردها تجمعه بمشافيرها ولا تحتاج في ذلك إلى زنبيل ولا إلى سلة ولا ملقطة ولا مكتل تجمعه فيها أو آلة أو أدوات تغرفه بها كما يحتاج البناءون منكم إلى آلات وأدوات مثل الفأس والمسحاة والراقود والمسائح وما شاكلها.

وهكذا أيضًا العنكبوت وهي من الهوام في نسج شبكتها أولًا وتقريرها هندامها هي أعلم وأحذق من الحاكة والنساجين منكم، وذلك أنها تمد عند نسجها شبكتها أولًا خطًّا من حائط إلى حائط أو من شجرة إلى شجرة أو من غصن إلى غصن، أو من جانب نهر إلى جانب آخَر من غير أن تمشي على الماء أو تطير في الهواء، ثم تمشي على ذلك الذي تمده أولًا، وتمد من شبكتها أولًا خطوطًا مستقيمة كأنها أطناب الخيم المضروبة، ثم تنسج لحمتها على الاستدارة وتترك وسطها دائرة مفتوحة حتى تتمكن فيها لصيد الذباب، وكل ذلك تفعل من غير مغزل لها ولا مفتل ولا كاركاة ولا مشط ولا أدوات مثل ما يفعل الحائك والنساج منكم فيما يحتاجون إليه من الآلات والأدوات المعروفة المشهورة في صناعتهم.

وهكذا أيضًا دودة القز وهي من الهوام وهي أحذق في صنعتها وأحكم من صُنَّاعكم، فمِن ذلك أنها إذا شبعتْ من الرعي طلبت مواضعها بين الأشجار والشوك ومدَّت من لعابها خيوطًا دقاقًا ملسًا لزجة متينة، ونسجتْ هناك على أنفسها كِنًّا كشبه كيس ليكون لها حرزًا من الحر والبرد والرياح والأمطار ونامت إلى وقت معلوم.

كل ذلك تفعله من غير تعليم من الأستاذين ولا تعليم من الآباء والأمهات بل إلهامًا من الله — تعالى — وتعليمًا منه، وكل ذلك يفعل من غير حاجة إلى مغزل ومفتل أو مخيط أو مقص كما يحتاج الخياطون والرفاءون والنساجون.

وهكذا الخطاف وهو من الطير يبني لنفسه منزلًا ولأولاده مهدًا معلقًا في الهواء تحت السقوف من الطين من غير حاجة إلى سلم يرتقي عليه أو راقود يحمل الطين عليه أو عمود يسند بيته إليه، ولا يحتاج إلى آلة من الآلات أو الأدوات.

وإذا عَمِيتْ أولادُها تحمل من الطين حشيشة تُسمى الماميراف تحكُّ بها عين الأولاد فيُضيء بصرُها، كل ذلك تعليم من الله — تعالى — لا مِن البشر، وأنتم محتاجون إلى

الأستاذين والمعلِّمين في أدنَى صنعة وأخس عمل، وأنتم من تلقاء أنفسكم لا تقدرون على عمل من غير تعلُّم مدة من الزمان.

وهكذا أيضًا الأرضة، وهي من الهوام تبني على أنفسها بيوتًا من الطين الصرف شبه الأزج والأزقة من غير أن تجمع الترب أو تبلَّ الطين أو تستسقي الماء، فقولوا أيها الحكماء مِن أين لها ذلك الطين، ومِن أين تجمعه، وكيف تحمله إن كنتم تعلمون؟

وعلى هذا المثال حكم أجناس الطيور والحيوانات في اتخاذها المنازل والأوكار والأعشاش وتربية أولادها تجدها أحذق وأعلم وأحكم من عمل الإنس، فمن ذلك تربية النعامة — وهي مركَّبة من طائر وبهيمة — لفراريخها؛ وذلك أنها إذا جمعتْ لها بيضًا عشرين أو ثلاثين أو أربعين قسمتْها ثلاثة أقسام؛ منها ما تدفنه في التراب وثلثًا تتركه في الشمس وثلثًا تحضنه، فإذا خرجتْ فراريخها كسرت ما كان في الشمس وسقتْها ما كان فيها من تلك الرطوبات التي فيها ممَّا ذوَّبتْها الشمس ورقَّقتْها، فإذا اشتدَّتْ فراريخها وقويتْ أخرجتِ المدفونَ منها وفتحت لها ثقبًا كي يجتمع فيه الذباب والبق والهوام والنمل والحشرات، ثم تطعمها فراريخها، حتى إذا قويت عَدَتْ ولعبتْ ورَعَتْ.

فقل أيها الإنسي أي نسائكم تحسن مثل هذا في تربية أولادها إن لم تكن القابلة تشيلها وتقمطها وداية تعلِّمها كيف تقطع سرَّة ولدها وتقمطه وتدهنه وتكحله وتسقيه وتنومه ولا تعلم شيئًا ولا تعرفه.

وكذلك أيضًا حكم أولادكم في الجهالة وقلة المؤنة يوم يولدون ولا يعلمون من مصالح أمورهم ولا يعقلون شيئًا من جر منفعة ولا دفع مضرة إلا بعد أربع سنين أو سبع أو عشر يحتاجون أن يعلموا كل يوم علمًا جديدًا وأدبًا مستأنفًا إلى آخر العمر يوم الممات.

ونجد أولادنا إذا خرج أحدهم من الرحم أو من البيض يكون معلَّمًا أو مُلهَمًا كل ما يحتاج إليه من أمر مصالحه ومضارِّه ومنافعه، لا يحتاج إلى تعليم الآباء والأمهات.

فمِن ذلك فراريخ الدجاج والدراج والقياج والطيهوج وما شاكلها، فإنك تجدها تنقشر عنها البيضة وتخرج وتعدو من ساعتها أو تلتقط الحب وتهرب من المُطالب لها حتى ربما لا تُلحَق.

كل ذلك من غير تعليم من الآباء والأمهات بل وحيًا وإلهامًا من الله — تعالى — كل ذلك رحمة منه لخلقه وشفقة ورأفة وتحننًا.

وذلك أن هذا الجنس من الطيور لَمَّا لم يكن الذكر يُعاوِن الأنثى في الحضانة وتربية الأولاد كما يُعاون باقي الطيور كالحمام والعصافير وغيرهما أكثر الله عدد فراريخها وأخرجها مكتفية مستغنية من تربية الآباء والأمهات من شرب اللبن أو زق الحبوب والغذاء مما يحتاج إليه غير هذا الجنس من الحيوان والطيور، وكل ذلك عناية من الله — تعالى وتقدَّس — وحسن نظر منه لهذه الحيوانات التي تقدَّم ذكرُها.

فقل لنا أيها الإنسي أيُّهما أكرم عند الله الذي عنايته به أكثر ورعايته به أتم، فسبحان الله الخالق الرءوف الرحيم بخلقه الودود الشفيق الرفيق بعباده، ونحمده ونسبحه في غُدُوِّنا ورَوَاحِنا ونقدِّسه في ليلنا ونهارنا، فله الحمد والمنُّ والشكر والفضل والثناء والآلاء والنعماء، وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأحسن الخالقين.

وأما الذي ذكرتَ بأن منكم الشعراء والخطباء والمتكلمين والمذكِّرين وما شاكلهم، فلو أنكم فهمتم منطق الطير وتسبيح الحشرات والهوام وتهليلات البهائم وتذكار الصرصر ودعاء الضفدع ومواعظ البلابل وخطب القنابير وتسبيح وتكبير الكراكيِّ وأذان الديك وما يقول الحمام في لحنه وقراءة القماري ونعيب الغراب الكاهن من الزجر وما تصف الخطاطيف من الأمور وما يُخبِر الهدهد وما يقول النمل وما يزعم النحل ووعيد الذباب وتحذير البق وغيرها من الحيوانات ذوي الأصوات والطنين والزمير لعلمتم معشر الإنس وتبيَّن لكم أن في هذه الطوائف خطباء وفصحاء ومتكلمين وواعظين ومذكرين ومسبحين مثلما في بني آدم، فلماذا افتخرتم علينا بخطبائكم وشعرائكم ومَن شاكلهم؟!

وكفى دلالة وبرهانًا على ما قلتُ وذكرتُ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، فنَسَبَكم إلى الجهل وقلة العلم والفهم بقوله: ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾، ونَسَبَنا إلى العلم والفهم والمعرفة بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قالها على سبيل التعجُّب؛ لأنه يعلم كل عاقل أن الجهل لا يستوي مع العلم لا عند الله ولا عند الناس، فبأي شيء تفتخرون علينا يا معشر الإنس وتدَّعون أنكم أرباب ونحن عبيد لكم مع هذه الخصال التي فيكم كما بيَّنَّا قبلُ غير قول الزور والبهتان؟

فأما الذي ذكرتَ من أمر المنجِّمين والرَّاقِين منكم، فاعلموا أن لهم تمويهات وتوهيمات وتلبيسات ورزقًا رقيقًا ينفق على الجهلاء من العوام والخواص والنساء والصبيان والحَمقَى، ويخفى عليكم أيضًا، وعلى كثير من العقلاء والأدباء، وذلك أن أحدهم يخبر بالكائنات قبل كونها ويرجم بالغيب ويرجف به من غير معرفة صحيحة

ودلائل عقلية واضحة وبراهين مثبتة، فيقول بعد كذا وكذا شهرًا وكذا وكذا سنة في بلد كذا وكذا يكون كيت وكيت، وهو جاهل لا يدري أي شيء يكون في بلده وقومه وجيرانه، وأي شيء يكون ويحدث عليه في نفسه أو في ماله أو في أولاده أو غلمانه أو مَن يهمُّه أمرُهم، وإنما يرجم بالغيب في مكان بعيد أو في زمان طويل لئلا يقع عليه الاعتبار ويتبيَّن صِدْقه وكذبه وتمويهه ومخرقته.

ثم اعلم أيها الإنسي أنه لا يغتر بقول المنجِّم إلا الطغاة والبُغاة من الملوك والجبابرة منكم والفراعنة والنماردة والمغرور بعاجل شهواتها المنكرون أمر الآخرة ودار المعاد الجاهلون بالعلم السابق والقَدَر المحتوم مثل نمرود الجبار وفرعون ذي الأوتاد وثمود وعاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد من قتل الأطفال، يقول المنجمون الذين لا يعرفون خالق النجوم ومدبرها، بل يظنون ويتوهمون أن أمور الدنيا تدبِّرها الكواكب السبعة والبروج الاثنا عشر، ولا يعرفون المدبِّر الذي فوق الكل الذي هو رب الأرباب ومسبب الأسباب، ومالك يوم الدين، وقد أراهم الله قدرتَه مرة بعد أخرى ونفاذ أوامره ومشيئته في دفعات، وذلك أن نمرود الجبار أخبره المنجمون بمولود في مملكته في سنة من السنين بدلائل القرانات وأنه يتربَّى ويكون له شأن عظيم، ويخالف دين عبدة الأصنام.

فقال لهم: في أي بيت يكون؟ وفي أي موضع يتربَّى؟ وفي أي يوم يولد؟ فلم يدروا، ولكن أشار وزراؤه وجلساؤه بأن يقتل كل مولود يولد في تلك السنة ليكون هو في جملة مَن قد قُتل، وظنوا أن ذلك يمكن، وذلك لجهلهم بالعلم السابق والقضاء المحتم والمقدور الواقع الذي لا بد أن يكون، ففعل ما أشاروا به عليه فيما وقع، وخلَّص الله — تعالى — إبراهيم خليلَه من كيدهم، ونجَّاه من حيلتهم وما دبَّروا من مكرهم.

وهكذا فعل فرعون بأولاد بني إسرائيل لَمَّا أخبره المنجم بمولد موسى — عليه السلام — فنجَّى الله كليمَه من كيدهم ومكرهم لما أراد من بلوغ أمره، ورأى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون، وعلى هذا المثال والقياس تجري أحكام النجوم، لم ينفعهم ذلك من قضاء الله وقدره.

ثم أنتم يا معشر الإنس لا تزدادون إلا غرورًا بقول المنجمين وطغيانًا، ولا تعتبرون ولا تتفكرون ولا تتنبَّهون من جهالاتكم.

ثم جئتم الآن تفتخرون علينا بأن منكم منجمين وأطباء ومهندسين وحكماء متفلسفين؟ فلما بلغ الببغاء إلى هذا الموضع من كلامه قال الملك: أحسَنَ الله جزاك، نِعْمَ ما قلتَ وبيَّنتَ!

فصل

ثم قال الملك لزعيم الجوارح: أخبِرْنا ما الفائدة والعائدة في معرفة الكائنات قبل كونها بالدلائل، وما يخبر عنه أهلها بفنون الاستدلالات الزجرية والكهانية والنجومية والفأل والقرعة وضرب الحصى والنظر في الكفِّ وما شاكل هذه الاستدلالات إذا كان لا يمكن دفعُها ولا المنْع لها ولا التحرُّز منها مما يُخاف ويُحذر من المناحس وحوادث الأيام ونوائب الحدثان في السنين والأزمان؟

قال الزعيم: نَعَم، يمكن دفْع ذلك والتحرُّز منه أيها الملك، ولكن لا على الوجه الذي يَطلب ويَلتمس أهل صناعة النجوم وغيرهم من الناس، قال: كيف ذلك؟ وعلى أي وجه ينبغي أن يُلتمس ويُدفع ويحترز منه؟

قال الزعيم: بالاستغاثة برب النجوم وخالقها ومدبِّرها، قال: كيف تكون الاستغاثة به؟ قال: باستعمال سُنَن النواميس الإلهية وأحكام الشرائع النبوية من الدعاء والبُكاء والتضرُّع والصوم والصلاة والصدقات والقرابين في بيوت الصلوات، والعبادات وصدق النيات وإخلاص القلوب، والسؤال لله — تبارك وتعالى — بدفعها وبصرفها عنهم كيف شاء، أو يجعل لهم في ذلك خيرة وصلاحًا؛ لأن الدلائل النجومية والزجرية إنما تُخبِر عن الكائنات قبل كونها مما سيفعله رب النجوم وخالقها ومدبرها ومصوِّرها والاستغاثة برب النجوم، والقوة التي فوق الفلك وفوق النجوم أولى وأحرى وأوجب من الاستغاثة بالاختبارات النجومية الجزوية على دفع موجبات الأحكام الكائنات مما أوجبها بأحكام القرانات والأدوار وطوالع السنين والشهور وغير ذلك في المواليد.

قال الملك: فإذا استعملت سُنَن النواميس على شرائط ما ذكرتُ ودعوا الله يرفع عن أهلها ما هو في المعلوم أنه لا بد كائن، قال: لا بد من كون ما هو في المعلوم، ولكن ربما يَدفَع الله عن أهلها شرَّ ما هو كائن، ويجعل لهم فيها خيرة وصلاحًا، ويجعلهم في حيِّز السلامة.

قال الملك: كيف يكون ذلك؟ بيِّن لي! قال: أيها الملك، أليس النمرود الجبار لما أخبره منجِّموه بالقران يدل على أنه سيولد في الأرض مولود يُخالِف دينُه دينَ عَبَدَة الأصنام، وكانوا يعنون به إبراهيم خليل الرحمن؟

قال: نَعَم، قال: أليس النمرود خافَ على دِينِه ومملكته ورعيته وجنوده فسادًا ومناحس؟

قال: نَعَم، قال: أَلَيْس لو أنه سأل رب النجوم وخالقها أن يجعل له ولرعيته ولجنوده فيه خيرة وصلاحًا كان الله — تعالى — يوفِّقه للدخول في دين إبراهيم هو وجنوده ورعيته، وكان في ذلك خيرة لهم وصلاح؟ قال: نَعَم، قال: وهكذا أيضًا فرعون، لَمَّا أَخبَرَه منجِّموه بمولد موسى — عليه السلام — لو أنه سأل ربه أن يجعله مباركًا عليه وقرَّة عين له، وكان يدخل في دينه، أليس كان صلاحًا له ولقومه وجنوده كما فعل بامرأته وأحب الناس إليه وأخصهم به، وهو الرجل الذي ذكره الله تعالى في القرآن ومَدَحَه وأثنى عليه: فقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، إلى قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾، أَوَليس قومُ يُونُس — عليه السلام — لَمَّا خَافُوا ما أظلَّهم من العذاب دَعَوْا ربهم الذي هو رب النجوم وخالقها ومدبرها، فكشف عنهم العذاب، فإذا قد تبيَّنت فائدة علم النجوم والأخبار بالكائنات قبل كونها وكيفية التحرز منها أو دفعها أو الخيرة والصلاح فيها، ومن أجل هذا أوصى موسى — عليه السلام — بني إسرائيل، فقال لهم: متى خِفْتم من حوادث الأيام ونوائب الحدثان من الغلاء والقحط والفتن والجدب أو غلبة الأعداء ودولة الأشرار ومصائب الأخيار، فارجعوا عند ذلك بالتضرع والدعاء وإقامة سنة التوراة من الصلاة والزكاة والصدقات والقرابين والندم والتوبة والبكاء والتضرع إلى الله تعالى، فإنه إذا علم صِدْق قلوبكم ونياتكم صرف عنكم ما تحذرون وكشف عنكم ما تخافون وما أنتم عليه وبه مبتلون.

وعلى هذا المثال جَرَتْ سُنَّة الأنبياء والرسل — عليهم السلام — من لدُنْ آدم أبو البشر إلى محمد، عليهما الصلاة السلام والتحية والرضوان.

فعلى مثل هذا ينبغي أن تُستعمَل أحكام النجوم والأخبار بالكائنات قبل وجودها وما يدل عليها من حوادث الأيام ونوائب الزمان، لا على ما يستعمله المنجمون ومَن يغترُّ بقولهم بأن يختاروا طالعًا جزويًّا ويتحرزوا إليها من موجبات أحكام الكل بالجزء، وكيف لا يجوز أن يستعمل بقوة رب الفلك على الفلك، كما فعل قوم يونس — عليه السلام — والمؤمنون من قوم صالح وقوم شعيب.

وعلى هذا المثال ينبغي أن تكون مداواة المرضى والأعلال بالرجوع إلى الله — تعالى — أولًا بالدعاء والسؤال له والرجاء منه أن يفعل بهم مثل ما ذكرت في أحكام النجوم من الكشف والدفع والصلاح في ذلك، كما بيَّن الله — تعالى — عن إبراهيم حيث يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾،

ولا ينبغي أن يكون الرجوع إلى أحكام الأطباء الناقصة في الصناعة الجاهلة بأحكام الطبيعيات الغافلة عن معرفة رب الطبيعة ولطفه في صنعته.

وذلك أنك ترى أكثر الناس يفزعون عند ابتداء مرضهم إلى الطبيب، فإذا طال بهم العلاج والمداواة ولم ينفعهم ذلك وأيسوا منهم ومن مداواتهم رجعوا عند ذلك إلى الله — تعالى — ودَعَوْا دعوة المضطرين، وربما يكتبون الرقاع ويلصقونها في حيطان المساجد والبِيَع وأساطينها ويدعون على أنفسهم وينادون بالشهرة والنكال، وقولهم: رحم الله مَن دعا للمُبتَلَى كما يفعل بالمشهورين، هذا جزاء من سرق أو قطع أو عمل ما يشبهه، ولو أنهم رجعوا إلى الله — تعالى — في أول الأمر ودَعَوْه في السر والإعلان لكان خيرًا لهم وأصلح من الشهرة والنكال.

فعلى مثل هذا يجب أن تُستعمَل أحكام النجوم في دفع مضار النكبات والتحرز من موجبات أحكامها، وما يدل عليها من الحوادث لا على مثل ما يستعمله المنجمون من الاختبارات بطوالع جزئيات ليتحرزوا بها من موجبات أحكامها الكائنات التي توجبها طوالع السنين والشهور والاجتماعات والاستقبالات والاختيارات للأوقات الجيدة لاستجابة الدعاء وطلب الغفران والمسألة إلى الله — تعالى — بالكشف لما يخافون ويحذرون بأن يصرف عنهم كيف شاء بما شاء، كما ذكروا أن مَلِكًا أخبره منجِّموه بحادث كائن في وقت من الزمان يُخاف منه هلاكًا على بعض أهل المدينة، فقال لهم: مِن أي وجه يكون، وبأي سبب؟ فلم يدروا تفصيلًا، ولكن قالوا: من سلطان لا يُطاق، فقال لهم: متى يكون ذلك؟ فقالوا: في هذه السنة في شهر كذا، فشاور الملك أهل الرأي كيف التحرز منه، فأشار عليه أهل الدِّين والوَرَع والمتألِّهون بأن يخرج وأهل المدينة كلهم إلى خارج المدينة فيدعون الله أن يصرف عنهم ما أخبرهم به المنجمون مما يخافون ويحذرون، فقَبِل الملك مشورتهم وخرج في ذلك الشهر الذي يخافون كون الحوادث فيه، وخرج معه أكثر أهل المدينة، فدعوا الله أن يَصرِف عنهم ما يخافون، وباتوا تلك الليلة على حالهم، وبقي قوم في المدينة لم يكترثوا لما أخبرهم به المنجمون، وما خافوا وما حذروا منه جاء بالليل مطر عظيم وسيل العرم، وكان بناء المدينة في مصبِّ الوادي، فهلك مَن كان في المدينة بائتًا، ونجا من كان قد خرج وكان بائتًا في الصحراء، فمثل هذا يندفع من قوم ويصيب قومًا، وأما الذي لا يندفع وما لا بد منه، ولكن يجعل الله لأهل الدعاء والصدقة والصلاة والصيام في ذلك خيرية وصلاحًا كما فعل بقوم نوح، فمَن آمَن منهم نجا وجعل لهم خيرية في ذلك، كما ذكر الله — تعالى — بقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، وأما متفلسفوكم الطبيعيون والمنطقيون والجدليون فإنهم عليكم لا لكم، قال الإنسي: وكيف ذلك؟ قال: لأنهم هم الذين يضلون بني آدم عن المنهاج المستقيم وصواب الطريق والدِّين وأحكام الشرائع بكثرة اختلافهم وفنون آرائهم ومذاهبهم ومقالاتهم، وذلك أن منهم من يقول بقِدَم العالَم، ومنهم مَن يقول بقِدَم الهَيُولَى، ومنهم مَن يقول بقِدَم الصورة، ومنهم مَن يقول بعِلَّتَيْن اثنتين، ومنهم مَن يقول بثلاث، ومنهم مَن يقول بأربع، ومنهم من قال بخَمْس، ومنهم مَن قال بسِتٍّ، ومنهم مَن قال بسَبْع، ومنهم مَن قال بالصانع والمصنوع معًا، ومنهم مَن قال بلا نهاية، ومنهم مَن قال بالتناهي، ومنهم مَن قال بالمَعَاد، ومنهم مَن قال بالإنكار، ومنهم من أقرَّ بالرسل والوحي، ومنهم مَن أنكر، ومنهم مَن شك وارتاب وتحيَّر، ومنهم مَن قال بالعقل والبرهان، ومنهم مَن قال بالتقليد من الأقاويل المختلفة والآراء المتناقضة التي بنو آدم بها مبتَلَوْن، وفيها متحيِّرون متبلبِلون شاكُّون، وفيها مختلفون، ونحن كلنا مذهبنا واحد وطريقتنا واحدة، وربنا واحد، ولا نشرك به شيئًا نسبِّحه في غُدُوِّنا ونقدِّسه في رَوَاحنا، لا نريد لأحد منَّا سوءًا، ولا نُضمِر له شرًّا ولا نفتخر على أحد من خلق الله — تعالى — راضون بما قسمه الله — تعالى — إنا خاضعون تحت أحكامه لا نقول: لَمَ وكَيفَ ولماذا فَعَل ودبَّر، كما يقول المعترضون على ربهم في أحكامه وتدبيره وصنعه.

فأما الذي ذكرتَ من أَمْرِ المهندسين والمُسَّاح منكم وافتخرتَ به، فلعمري إن لهم التعاطي في البراهين التي تدقُّ عن الفهْم، وتبعد عن التصوُّر لما يدَّعون فيها، ولكن أكثرهم لا يعقلون لتركهم تعلُّم العلوم الواجب تعلُّمها ولا يَسَعُهم الجهل بها، يربون على ما يدَّعون من الفضولات التي لا يحتاج إليها؛ وذلك أن أحدهم يتعاطى مساحة الآجام والأوتاد ومعرفة ارتفاع رءوس الجبال وعمق قعر البحر وتكسير البراري والقفار وتركيب الأفلاك ومراكز الأثقال وما شاكل ذلك، وهو مع ذلك كله جاهل بكيفية تركيب جسده ومساحة جثته ومعرفة طول مصارينه وأمعائه وسعة تجويف صدره وقلبه ورئته ودماغه وكيفية خلقة معدته وأشكال عظامه وتركيب هندام مفاصل بدنه وما شاكل هذه الأشكال التي معرفته بها أسهل، وفهمه لها أقرب وعلمها بها أوجب والتفكر فيها أنفع والاعتبار بها أهدى وأرشد إلى معرفة ربه وخالقه ومصوره، كما قال النبي ﷺ: «مَن عَرَف نفسَه فقد عَرَف ربَّه.»

ومع جهله بهذه الأشياء أيضًا ربما يكون تاركًا للعلم بكتاب الله وفهْم أحكام شريعته ودينه ومفروضات سُنَن مذهبه، ولا يَسَعُه تركُها ولا الجهل بها.

وأما افتخاركم بأطبائكم والمُداوِين لكم، فلعمري إنكم محتاجون إليهم ما دامتْ لكم البطون الرحبة والشهوات المؤذية والنفوس الشَّرِهة والمأكولات المختلفة وما يتولد منها من الأمراض المزمنة والأسقام المُؤلِمة والأوجاع المهلكة تلجئكم إلى باب الأطباء، ولنِعْمَ مَا قيل في الشعر:

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع مكروه أتى

فزادكم الله أطباء؛ لأنه لا يُرى على باب دكان الطبيب إلا كل عليل مريض سقيم، كما لا يُرى على باب دكان المنجم إلا كل منحوس أو منكوب أو خائف، لا يزيده المنجم إلا نحسًا على نحس، يأخذ قطعة ولا يقدر على تعجيل سعادة ولا تأخير منحسة إلا زخرف القول غرورًا تخمينًا وحزرًا بلا يقين ولا برهان.

وهكذا حكم المتطببين منكم يزيدون العليل سقمًا والمريض عذابًا بالحمية مِن تناول أشياء ربما يكون شفاء العليل في تناولها، وهو ينهاه ويمنعه منها لجهله، ولو تركه مع حكم الطبيعة لعله كان أسرع لبرئه وأنجح لشفائه، فافتخارك أيها الإنسي بأطبائكم ومنجميكم هو عليكم لا لكم.

فأما نحن فغير محتاجين إلى الأطباء والمنجمين؛ لأنا لا نأكل إلا قوت يوم وبُلْغة يوم من لون واحد وطعام واحد، فلا تعرض لنا الأمراض المختلفة والأعلال المتفننة، ولا نحتاج إلى الأطباء ولا إلى الشراب والدرياقات وفنون المداوات مما تحتاجون أنتم إليه، فهذه الأحوال كلها التي هي بالأحرار والأخيار أشبه والكرام أولى، وتلك بالعبيد والأشقياء أولى، وبهم ألْيَق، فمِن أين زعمتم أنكم أرباب لنا ونحن لكم عبيد بلا حجة ولا برهان إلا قول الزور والبهتان.

وأما تُجَّاركم ورؤساؤكم ودهاقينكم الذين ذكرتم وافتخرتم بهم، فلا فخر لكم ولا لهم؛ إذ كانوا هم أسوأ حالًا من العبيد الأشقياء والفقراء الضعفاء؛ وذلك أنك تراهم طول نهارهم مشغولي القلب متعوبي الأبدان مغمومي النفوس مُعذَّبي الأرواح فيما يبنون ما لا يسكنون ويغرسون ما لا يجنون، ويجمعون ما لا يأكلون، ويعمرون الدور ويخربون القبور، أكياس في أمور الدنيا بُلْهٌ في أمور الآخرة، يجمع أحدُهم الدينارَ والمتاع، ويبخل أن يُنفِق على نفسه ويتركه لزوج امرأته أو لزوج ابنته أو لزوجة ابنه ولوارثه كادُّون لغَيْرِهم، مُصلِحون أمورَ سواهم، لا راحة لهم إلى الممات.

وأما تُجَّاركم فيجمعون من حرام وحلال ويبنون الدكاكين والخانات ويملئونها من الأمتعة ويحتكرونها ويضِنُّون بها على أنفسهم وجيرانهم وأحبابهم، ويمنعون الفقراء والمساكين حقوقهم، ولا ينفقون حتى تذهب جملة واحدة إما في حرق أو غرق أو سرقة أو مصادرة سلطان جائر أو قطع طريق وما شاكل ذلك، ويبقى هو بحزنه ومصيبته معاقبًا بما كسبتْ يداه، فلا زكاة أخرج، ولا صدقة أعطى، ولا يتيمًا برَّ، ولا معروفًا لضعيف أسدى، ولا صلة لذي رحم، ولا إحسانًا إلى صديق، ولا تزوَّد للمعاد، ولا قدَّم للآخرة.

والذين ذكرتَهم من أرباب النعم وأهل المروءات فلو كانت لهم مروءة كما ذكرتَ لكان لا يَهنِيهم العيشُ إذا رَأَوْا فقراءهم وجيرانهم واليتامى من أولاد إخوانهم والضعاف من أبناء جنسهم جياعًا عراة مرضى زَمْنَى مفاليج مطروحين على الطريق يطلبون منهم كسرة ويسألونهم خِرْقة وهم لا يلتفتون إليهم ولا يرحمونهم ولا يفكرون فيهم، فأي مروءة لهم وأي فتوة فيهم؟ وكيف تَهنِيهم لذَّاتُهم، إلا أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا؟!

وأما الذين ذكرتَهم من الكُتَّاب والعُمَّال وأصحاب الدواوين وافتخرتَ بهم فهكذا يليق بكم الافتخار بالأشرار الذين يهتدون إلى أسباب الشرور ما لا يهتدي غيرهم ويصلون إلى ما لا يصل إليه سواهم لدقة أفهامهم وجودة تمييزهم ولُطْف مَكَايِدهم وطول ألسنتهم ونفاذ خطابهم في كتبهم يكتب أحدهم إلى أخيه وصديقه زخرفًا من القول غرورًا بألفاظ مسجعة وكلام حلو وخطاب فصيح يُغرِيه وهو من ورائه في قَطْع دابِره والحيلة في إزالة نعمته والوصول إلى أسباب نكايته وتدوين الأعمال في مصادراته وتأويلات الأخذ لماله.

وأما قُرَّاؤكم وعُبَّادكم الذين تظنون أنهم أخياركم وترجون استجابة دعائهم وشفاعتهم لكم عند ربهم فهم الذين غرُّوكم بإظهارهم الورع والخشوع والتقشُّف والنسك من حذْف الأسْبِلة وتقصير الأكمام وتشمير الإزار والسراويل ولبس الخشن من الصوف والشعر والمرقَّعات وطول الصمت وكثرة التنسك وترك التفقُّه في الدِّين وتعلُّم أحكام الشرائع وسنن الدين وترك تهذيب النفس وإصلاح الخلق، واشتغلوا بكثرة السجود والركوع بلا علم حتى ظهر أثر السجود على جباههم والنفثات على رُكَبهم، وتركوا الأكل والشرب حتى جفَّتْ أدمغتهم ونَحَلَتْ شفاهُهُم وأنْحَلَتْ أبدانُهم وتغيَّرتْ ألوانُهم وانْحَنَتْ ظهورُهم، وقلوبُهم مملوءة بغضًا وحقدًا وجفاءً لِمَن ليس مثلهم، ونفوسُهُم مملوءة وساوس وخصومة مع ربهم بضمائرهم لِمَ خلق إبليس والشياطين والكفار والفراعنة والفُسَّاق والفُجَّار والأشرار ولِمَ ربَّاهم ورزقهم ويُمكِّنهم ويُمهِلهم ولا

يُهلِكهم، ولماذا فعل هذا، وما شاكل هذه المحاولات والخرافات والوساوس التي قلوبهم مملوءة منها، ونفوسُهم شاكَّة متحيِّرة، فهم عند الله أشرار، وإن كانوا عندكم أخيار، فهؤلاء وإن كانوا بالصورة الظاهرة إنسان ففي الصورة المعنوية ليسوا كذلك، فأي افتخار لكم بهم؟! وإنما هم عارٌ لكم.

وأما فقهاؤكم وعلماؤكم فهم الذين يتفقهون في الدِّين طَلَبًا للدنيا وابتغاءً للرياسة والولاية والقضاء والفتاوى بآرائهم وقياساتهم، فيحللون تارةً ويحرمون تارةً بتأويلاتهم ويتبعون ما تشابه ويتركون حقيقة ما أنزل الله من الآيات المحكمات، فنبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ويتبعون ما تتلو الشياطين على قلوبهم من الخيالات.

كل هذا طلبًا للدنيا وتكسُّبًا للرياسة من غير ورع ولا تقوى من الله تعالى، فأولئك هم وَقود النار في الآخِرة أو يتوبون إلى الله ويستغفرونه، فأي فخر لكم؟!

وأما قضاتكم وعُدُولكم والمزكُّون لكم فأدهى وأظلم وأبطر، وهم أشرُّ سِيرةً من الفراعنة والجبابرة؛ وذلك أنك تَجِد الواحِدَ منهم قبلَ الولاية قاعدًا بالغداة في مسجده حافظًا لصلاته مقبلًا على شأنه يمشي بين جيرانه على الأرض هونًا حتى إذا وَلِي الحكمَ والقضاء تراه راكبًا بغلة فارهة، وحمارًا مصريًّا بسرج ومركب وغاشية يحملها السودان وخفاقين تنجر في الأرض، قد ضمن القضاء من السلطان الجائر بشيء يؤدِّيه إليه من أموال اليتامى ومال الوقوف، وصَالَحَ عدوًّا له بشيء من السحت والبراطيل، فقَبِل منهم الرشوة، ويرخص لهم في الجنايات وشهادات الزور وترك أداء الأمانات والودائع، فأولئك هم الذين وُبِّخوا في التوراة والإنجيل والفرقان، أبالله تغترُّون وعليه تجرءون؟

وأما خلفاؤكم الذين تزعمون أنهم ورثة الأنبياء — عليهم السلام — فكفَى في وصْفِهم ما قال الله — تعالى — وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِن نبوَّة إلا ونَسَخَتْها الجبروتية، ويُسمَّوْن باسم الخلافة، ويَسِيرون بسيرة الجبابرة، وينهَوْن عن منكرات الأمور، ويرتكبون هم منها كل محظور، ويقتلون أولياء الله وأولاد الأنبياء — عليهم السلام — ويَسبُونَهم ويَغصِبونهم على حقوقهم، ويشربون الخمر ويبادرون إلى الفجور، واتخذوا عباد الله خولًا وأيامهم دولًا وأموالهم مغنمًا، فبدَّلوا نعمة الله كفرًا، واستطالوا على الناس افتخارًا، ونسُوا أمرَ المعاد، وباعوا الدِّين بالدنيا والآخرة بالأولى، فويلٌ لهم مما كسبت أيديهم، وويلٌ لهم مما يكسبون؛ وذلك أنه إذا وَلِي أحد منهم ابتدأ أولًا بالقبض على مَن تقدَّمتْ له حرمة لآبائه وأسلافه وأزال نعمته، وربما قتل أعمامَه وإخوانَه وأبناء عمِّه وأقرباءه، وربما كحلهم أو حبسهم ونفاهم أو تبرَّأ منهم، كل ذلك يفعلون بسوء

ظنهم وقلة يقينهم؛ مخافة أن يفوتهم المقدور أو رجاء أن ينالوا ما ليس في المقدر، كل ذلك حرصًا على طلب الدنيا وشدة الرغبة فيها وشحًّا عليها وقلة الرغبة في الآخرة، وقلة اليقين بجزاء الأعمال في المعاد، وليست هذه الخصال مِن شيم الأحرار ولا فعل الكرام، فافتخارك أيها الإنسي على الحيوان بذكر ملوككم وأمرائكم وسلاطينكم عليكم لا لكم، وادعاؤكم علينا العبودية ولأنفسكم الربوبية صار باطلًا وزورًا وبهتانًا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

فصل

فلما فرغ الببغاء من كلامه قال الملك لَمَن حوله من حكماء الجن والإنس: أخبروني مَن الذي يحمل إلى الأَرَضة ذلك الطين الذي تبني به على نفسها تلك الآزَاجُ والعُقُود شبه الرواق والدهاليز، وهي دابة ليس لها رجلان تعدو بهما ولا جناحان تطير بهما؟

فقال الحكيم الخبير من العبرانيين: نَعَم أيها المَلِك، سمعنا أن الجن تحمل إليها ذلك الطين مكافأة لها على ما أَسْدَتْ إلَيْها من الإحسان في اليوم الذي أَكَلَتْ منسأةَ سليمان بن داود — عليه السلام — فخرَّ وعلِمَتِ الجن بموته، فهَرَبَتْ ونَجَتْ مِن العذاب الأليم.

فقال الملك لَمَن حوله من علماء الجن: ماذا تقولون فيما ذكر الإنسي؟

فقالوا: لسنا نَعرف هذا الفعل من الجن؛ لأنه لو كانت الجن تحمل إليها التراب والطين والماء فهي بعدُ إذن في العذاب المُهين؛ لأن سليمان لم يكن يسومها شيئًا غير حَمْل الماء والتراب في اتخاذ البنيان.

فقال الحكيم اليوناني: عندنا أيها الملك من ذلك علم هو غير ما ذكر هذا العبراني، فقال الملك: أخبرني ما هو؟ قال: نَعَم، اعلم أيها الملك أن هذه الدابة دابة ظريفة الخِلْقة عجيبة الطبيعة، من ذلك أن طبيعتها باردة جدًّا وبدنها متخلخل منتفخ المسام يتداخلها الهواء ويتجمد من شدة برد كبيعتها ويصير ماء ويرشح على ظاهر بدنها ويَقَع عليها غبار الهواء دائمًا فيبتلُّ ويجتمع شبه الوسخ، فهي تجمع ذلك من بدنها وتبني على نفسها تلك الآزاج كِنًّا لها من الآفات ولها مشفران حادَّان شبه المشراطين تَقرِض بهما الحَبَّ والخشب والثَّمَر والنبات وتنقب الآجُرَّ والحجارة.

فقال الملك للصرصر: هذه الدابة من الهوام، وأنت زعيمها، فماذا ترى فيما قال اليوناني؟ فقال الصرصر: صدق فيما قال، ولكن لم يتمم ولم يفرغ من الوصف، فقال الملك: تمِّمْه أنت، فقال: نعم.

إن الخالق — تعالى — لما قدَّر أجناس الخلائق وقسم بينها المواهب والعطايا عدل في ذلك بينها بحكمته ليتكافئوا ويتساوَوْا عدلًا منه وإلْهَامًا وإنصافًا بها، سبحانه وبحمده، فمِن الخلْق ما قد وَهَبَ له جثة عظيمة وبنية قوية ونفسًا ذليلة مهينة مثل الجمل والفيل، ومنها ما قد وهب له نفسًا قوية عزيزة عليمة حكيمة وبنية صغيرة ليتكافأ في المواهب والعطايا عدلًا من الخالق الوهاب وحكمة.

فقال الملك للصرصر: زِدْني في البيان، قال: نعم، ألا ترى أيها الملك إلى الفيل مع كِبَر جثته وعظيم خلقته كيف هو ذليل النفس منقاد للصبي الراكب على كتفه يُصرِّفه كيف شاء؟ ألم تَرَ إلى الجمل مع عظم جثته وطول رقبته كيف ينقاد لَمَن جَذَب خطامه ولو كانت فأرة أو خنفساء؟ ألم تَرَ إلى الجرادة في الحشرات الصغار التي هي أصغر منها إذا ضَرَبَتِ الفيل بحُمَتِها كيف تَقتُلُه وتُهلِكه؟ وكذلك الأرضة وإن كانت لها جثة صغيرة وبنية ضعيفة فإن لها نفسًا قوية، وهكذا حكم سائر الحيوانات الصغار الجثة مثل دودة القز ودودة الدرة وزنابير النحل، فإن لها أنفسًا علَّامة حكيمة وإن كانت أجسادها صغارًا وبنيتها ضعيفة.

قال الملك: ما وجْه الحِكْمة في ذلك؟ قال: لأن الخالق — تعالى — علم بأن البنية القوية والجثة العظيمة لا تصلح إلا للكَدِّ والعمل الشاقِّ وحمل الأثقال، ولو قَرَن بها أنفسًا كبارًا لما انقادَتْ للكَدِّ والعمل الشاقِّ، ولأَبَتْ وأنِفَتْ ولجَّتْ وشَمَسَتْ وامتنعت، فسبحان الخالق العالم بمصالح خلقه. وأما الجثث الصغار والأنفس الكبار العلَّامة فإنها لا تصلح إلا للحذْق في الصنائع مثل أنفُس النَّحْل ودودة القز ودودة الدرة وأمثالها.

قال الملك: زِدْني في البيان، قال: نَعَم، إن الحذق في الصناعة هو أن لا يدري كيف عملها الصانع، ومِن أي شيء عملها، وبأي شيء يعمل، مثل صناعة النحل؛ لأنه لا يدري كيف تبني منازلها وبيوتها مسدسات من غير بركار ولا مسطرة ولا أدوات أُخَر، ولا يُدرى من أين تجمع العسل والشمع، وكيف تعمله، وكيف تميِّزه، فلو كانت لها جثة كبيرة لبان ذلك وشوهد ورُئِي وأُدْرك، وهكذا حكم دودة القز لو كانت لها جثة عظيمة لرُئِيَ كيف تمدُّ ذلك الخيط الدقيق وتغزله وتفتله، وهكذا بناء الأرضة لو كانت لها جثة عظيمة لرئي كيف تبلُّ ذلك الطين وكيف تبني، وأُخبِرك أيها الملك أن الخالق — تعالى — قد أرى الدلالة على قدرته للحكماء من بني آدم المنكِرة إيجاد العالم لا من هَيُولَى موجودة، من صناعة النحل باتخاذها البيوت من الشمع وجمعها العسل من غير هَيُولَى موجودة.

قال الملك: زعمتِ الإنس بأنها تجمع من زهر النبات وورق الشجر، قال: فلِمَ لا يَجمَعون هم منها شيئًا مع زعمهم بأن لهم العِلْم والقُدْرة والحكمة والفلسفة؟ وإن كانت تجمع ذلك من وجه الأرض أو مِن الماء أو مِن وجْه الهواء، فلِمَ لا يَرَوْن منها شيئًا؟ ولا يدرون كيف تجمع ذلك وتحمله وتميِّزه وتبني وتخزن؟ وهكذا أرى الخالقُ قدرتَه لجبابرتهم الذين طَغَوْا وبَغَوْا لما كثرت نِعَم الله — تعالى — لديهم مثل نمرود الجبار قتله أصغر جثة من الحشرات، وهكذا فرعون لما طغى وبغى على موسى أرسل عليه جنود الجراد وأصغر من الجراد القُمَّل وقهره، فلم يَعتَبِر ولم ينزجر، وهكذا لما جمع الله لسليمان — عليه السلام — المُلْك والنبوَّة وشيَّد مُلْكه وسخَّر له الجن والإنس وقهر ملوك الأرض وغلَبَهم شكَّتِ الجن والإنس في أمرِه، وظنَّت أن ذلك بحيلة منه وقوة وحول له، مع أنه قد نفى هو ذلك عن نفسه بقوله: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فلم ينفعهم قولُه ولم يَزَلِ الشك من قلوبهم في أمره حتى بعث الله هذه الأرضة فأكَلَتْ منسأَتَه وخرَّ على وجهه في محرابه، فلم يَجسُر على ذلك أحد من الجن والإنس هيبة منه وإجلالًا، وبيَّن الله قدرته ليكون عِظَة لملوكهم الجبابرة الذين يفتخرون بكبر أجسادهم وعظم جثتهم وشدة صولتهم، ومع هذه كلها لا يتعظون ولا ينتبهون ولا يُزجرون، بل يلحُّون ويتمرَّدون ويفتخرون علينا بملوكهم الذين هم صَرْعَى بأيدي صغارنا والضعفاء من أبناء جنسنا!

وأما دودة الدرة فهي أصغر حيوان البحر بنية وأضعفها قوة وألْطَفها جثة وأكبرها نفسًا وأكثرها علمًا ومعرفة، وذلك أنها تكون في قعر البحر مُقبِلة على شأنها في طلب قُوتِها، حتى إذا حان وقت من الزمان صعدت من قعر البحار إلى سطح الماء في يوم المطر فتفتح أُذُنَيْن لها شبه شفتين فيقطر فيهما من ماء المطر حبات، فإذا علمت بذلك ضمَّتْ تلك الشفتين ضمًّا شديدًا إشفاقًا أن يرشح فيها من ماء البحر المالح، ثم تنزل برفق إلى قعر البحار كما كانت بدءًا وتمكث هناك منضمة على الصدفتين إلى أن ينضج ذلك الماء فينعقد منه الدر، فأي علماء الإنس يعمل مثل هذا خبِّروني إن كنتم صادقين!

وقد جعل الله — تعالى — في جِبِلَّة نفوس الإنس محبة لبس الحرير والديباج والإبريسم وما يُتَّخذ منها من اللباس الحَسَن الذي هو كله من لعاب هذه الدودة الصغيرة الجثة الضعيفة البنية الشريفة النفس، وجعل في ذوقهم ألذَّ ما يأكلون العسل الذي هو بصاق أضعف الحيوانات الصغيرة الجثة الضعيفة البنية الشريفة النفس الحاذقة في الصنعة، وأحسن ما يُوقِدون في مجالسهم الشمع الذي هو فضلة من فضالة

النحل، وجعل أيضًا أفخر ما يتزيَّنون به الدر الذي يخرج من جوف هذه الدودة الصغيرة الجثة الشريفة النفس ليكون دلالة على حكمة الصانع الخالق الحكيم ليزدادوا به معرفة ولنعمائه شكرًا وفي مصنوعاته فكرةً واعتبارًا، ثم هم مع هذه كلها معرضون غافلون ساهون لاهون طاغون باغون، وفي طغيانهم يتردَّدون، لأنعامه كافرون، ولآلائه جاحدون، ولصنعته منكرون، وعلى ضُعَفاء الخلق مفتخرون متعدُّون جائرون ظالمون.

فلما فرغ الصرصر وهو زعيم الهوام من كلامه قال الملك: بارك الله فيك من حكيم، ما أبلغك! ومن متقن، ما أحكمك! ومن خطيب، ما أفصحك! ومن موحِّد، ما أعرَفَك بربك! ومن ذاكر شاكر لأنعامه، ما أفضلك!

فصل

ثم قال الملك للإنسي: قد سمعتم ما قال وفهمتم ما أجاب، فهل عندكم شيء آخر؟ قالوا: نَعَم، خصال ومناقب تدل على أنهم عبيدنا ونحن أرباب، قال: وما هي؟ اذكرها! قال: وحدانية صورتنا وكثرة صُوَرِها واختلاف أشكالها، فإن الرياسة والربوبية بالوحدة أشبه والعبودية بالكثرة أشبه، فقال الملك للجماعة: ماذا تَرَوْن فيما قال وذكر؟ فأطرقتِ الجماعة ساعة مفكِّرة فيما قال.

ثم تكلَّم زعيم الطيور وهو الهزار داستان، قال: صدق أيها الملك فيما قال، ولكن نحن وإن كانت صُوَرنا مختلفة كثيرة فنفوسنا واحدة، وهؤلاء الإنس وإن كانتْ صورتهم واحدة فإن نفوسهم كثيرة مختلفة، قال الملك: وما الدليل على أن نفوسهم كثيرة مختلفة؟ قال: كثرة آرائهم واختلاف مذاهبهم وفنون دياناتهم، وذلك أنك تجد فيهم اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ومَن عَبَدَ الأصنام والنيران والشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها، وتجد أيضًا أهل الدِّين الواحد مختلفي المذاهب والآراء مثل سامري وغيابي وحالوتي ونسطوري ويعقوبي ومَلْكاني وشنوي ومانوي وخُرَّمي ومَزْدكي ويصاني وبهرمي وشمسي وخارجي ورافضي وناصبي وقدري وجهمي ومعتزلي وسُنِّي وجَبْري وما شَاكَلَ كل هذه المذاهب التي يُكفِّر أهلُها بعضُهم بعضًا، ويَلعَن بعضُهم بعضًا، ويَقتُل بعضُهم بعضًا، ونحن من هذه كلها برآء؛ مذهبُنا واحدٌ واعتقادُنا واحدٌ وكلُّنا موحِّدون مؤمنون مسلمون غير مشركين ولا منافقين ولا فاسقين ولا مرتابين ولا شاكِّين ولا متحيِّرين ولا ضالِّين ولا مضلِّين، نعرف ربَّنا وخالِقَنا ورازِقَنا ومُحيِينا ومميتنا فنسبِّحه ونُهلِّله ونُقدِّسه ونُكبِّره بكرة وعشيًّا، ولكن هؤلاء الأناس لا يفقهون تسبيحهم.

فقال الإنسي الفارسي: نحن أيضًا كذلك، إن ربنا واحد، وإلهنا وخالقنا ورازقنا واحد، ومحيينا ومميتنا واحد لا شريك له، فقال الملك: فلم تختلفون في الآراء والمذاهب والديانات والرب واحد؟ قال: لأن الديانات والآراء والمذاهب إنما هي طرق ومسالك ومحاريب ووسائل والمقصود واحد من أي الجهات توجَّهنا فثَمَّ وجه الله، قال: فلِمَ يَقتُلُ بعضُكم بعضًا إذ كانت الديانات كلها قصدها واحد، وهو التوجُّه إلى الله؟

فقال المستبصر الفارسي: نَعَم أيها الملك، ليس ذلك من جهة الدين؛ لأن الدين لا إكراه فيه، ولكن من جهة سُنَّة الدين الذي هو المُلْك، قال: وكيف ذلك؟ بيِّنْه لي. قال: إن الدين والمُلْك أَخَوَان تَوْأَمان لا يفترقان، ولا قوام لأحدهما إلا بأخيه، غير أن الدين هو الأخ المقدَّم، والمُلك هو الأخ المؤخَّر المُعقِب له، فلا بدَّ للمُلْك من دِين يَدِين به الناس، ولا بد للدِّين من مُلْك يأمر الناس بإقامة سنته طوعًا أو كرهًا، فلهذه العلة يَقتُل أهلُ الديانات بعضُهم بعضًا طلبًا للملك والرياسة، كل واحد يُريد انقيادَ الناس أجمع لسنة دينه وأحكام شريعته، وأنا أُخبِر الملك — وفَّقَه الله — لفهْم الحقائق وأذكره بشيء يقين لا شك فيه.

قال الملك: وما هو؟ قال: إن قتْل الأنفس سُنَّة في جميع الديانات والمِلَل والدُّوَل كلها، غير أن قتل النفس في سُنَّة الدين، وهو أن يقتل طالب الدين نفسه، وفي سنة الملك أن يقتل طالب الملك غيره.

فقال الملك: أما قتل الملوك غيرَها في طلب الملك فبَيِّن ظاهر، وأما قتل طالب الدين نفسَه في سائر الديانات فكيف هو؟

قال: نَعَم، ألا ترى أيها الملك أن ذلك سُنَّة دين الإسلام كيف هو بيِّن ظاهر، وذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾، وقال: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾، وقال في سنة التوراة: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾، وقال المسيح — عليه السلام — في الإنجيل: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾.

فقال: «استعدُّوا للقَتْل والصَّلْب إن كنتم تريدون أن تنصروني وتكونوا معي في ملكوت السموات عند أبي وأبيكم، وإلا فلستم في شيء منِّي، فقَبِلوا وقُتِلوا ولم يرتدُّوا عن دِين المسيح.

وهكذا يفعل البراهمة من أهل الهند، يَقتُلون أنفسَهم ويَحرِقون أجسادَهم طلبًا للدِّين ويَرَوْن ويعتقدون بأن أقرب قربان إلى الله — تعالى — أن يَقتُل التائبُ جسدَه ويحرق بدنَه ليكفِّر عن ذنوبه يقينًا منه بالمعاد.

وهكذا يفعل المانية والمثنوية، تمنع أنفسها من الشهوات وتحمل عليها كَدَّ العبادات حتى تقتلها وتخلِّصها من دار البلاء والهوان.

وعلى هذا القياس يوجد حكم سنن أهل الديانات في جعل قتل النفوس من فنون العبادات وأحكام الشرائع كلها وضعت لطب النفوس وطلب النجاة من نار جهنم والفوز بالوصول إلى نعيم الآخرة دار المعاد والقرار، وأُخبِر المَلِكَ وأذكِّره أن في أهل الديانات والمذاهب أخيارًا وأشرارًا، ولكن أشر الأشرار مَن لا يؤمن بيوم الحساب ولا يرجو ثواب الإحسان، ولا يخاف مكافأة السيئات ولا يقر بوحدانية الصانع الباري الحكيم الخالق الرازق المحيي المميت المعيد الذي يرجع إليه المرجع وإليه المصير.

فصل

ثم قال زعيم الهند: نحن بنو آدم أكثر من الحيوانات عددًا وأممًا وأجناسًا وأنواعًا وأشخاصًا، وأعرف بفنون تصاريف أحوال الزمان ومآربه وعجائبه.

قال المَلِك: وما يُدريك؟ قال: لأن الربع المسكون من الأرض يحوي على نحو سبعة عشر ألف مدينة مختلفة الأمم الكثيرة العدد التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، فمِن تلك الأمم التي لا تعد ولا تحصى أهل الهند وأهل الصين وأهل السند وأهل الزنج وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل الحبشة وأهل نجد وأهل بلاد النوبة وأهل مصر وأهل بلاد الصعيد وبلاد الإسكندرية وأهل برقة وأهل قيروان، وأهل البربر وأهل البوادي، وأهل طنجة وأهل بلاد الخالدات وأهل بلاد مردمانه وأهل كيوان وأهل بلاد كله وأهل بلاد الأندلس وبلاد الرومية وبلاد قسطنطينية، وبلاد دجلة وبلاد مقدونية وبلاد برجان وبلاد الصقالبة وبلاد أملاج وبلاد الأبواب، وبلاد أَذْرَبِيجَان وبلاد أرمينية وبلاد أهل الإسلام، وبلاد أهل الشام وبلاد أهل يونان وبلاد الديارات وبلاد العراق وبلاد خراسان وبلاد خوزستان وبلاد الجبال وبلاد جيلان وديلمان وطبرستان وبلاد جرجان وبلاد نيسابور وأهل كرمان وبلاد فارس وبلاد مُكران وبلاد كابُلستان ومولتان وبلاد سجستان وبلاد ما وراء النهر وبلاد غور وأستادان وباميان وصخارستان وكيلان وبلاد خوارزم وبلاد يأجوج ومأجوج وفرغانة وبلاد صعانيات وبلاد كيماك وبلاد خاقان وسيستان وبلاد جوجير وبلاد تبت وأهل

بلاد جاج وماجين وأهل بلاد الجزائر والسوادات والجبال والفلوات والسواحل هذه سوى القُرى والأعراب والأكراد وأهل البراري والبوادي والجزائر والغياض والآجام، وأهل هذه البلاد كلها أمم من الإنس من بني آدم مختلفة ألوانهم وألسنتهم وأخلاقهم وطباعهم وآراؤهم ومذاهبهم وصنائعهم وسيرتهم في دياناتهم لا يُحصِي عددَها إلا الله — تعالى — الذي خلقهم وأنبأهم ورزقهم ويعلم سرَّهم ونجواهم، ويعلم مستقرهم ومستودعهم، كلٌّ في كتاب مبين، فكثرة عدَدِهم واختلاف أحوالهم وفنون تصاريف أمورهم وعجائب مآربهم يدل على أنهم أفضل من غيرهم وأكرم من سواهم من أجناس الخلائق التي في الأرض من الحيوانات جميعًا، وأنهم أرباب والحيوانات عبيد لهم وخَوَل ومماليك، ولنا فضائل جمَّة أُخَر ومناقب شتَّى يطول شرحها، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فصل

فلما فرغ الإنسي من كلامه نطق عند ذلك الضفدع وقال: الحمد لله الكبير المتعال العلي الجبار العزيز الغفار الرحيم القهار، خالق الأنهار الجارية والبحار الزاخرة المرة المالحة البعيدة القرار الواسعة الأقطار ذوات الأمواج والهيجان، معدن الدر والمرجان، وهو الذي خلق في أعماق قرارها الظلمة وأمواجها المتلاطمة أصناف الخلائق ذوات الفنون والطوائف، فمنها ذوات الجثة العظام والهياكل الجسام قد أَلْبَس بعضَها الجلود الثخان والفلوس المنضدة الصلاب والأصداف المجعدة ومنها كثيرة الأرجل الدبابة.

ومنها ذوات الأجنحة الطيارة، ومنها ذوات البطون الخميصة المناسبة، ومنها ذوات الرءوس الكبار والأفواه المفتحة، والعيون البراقة والأشداق الواسعة، والأسنان القاطعة والمخالب الحِدَاد، والأجواف الرحبة والجلود المرصعة، والأذناب الطويلة، والحركات الخفيفة والسباحة السريعة.

ومنها صغار الجثة، مُلْس القُدُود بلا آلة ولا أدوات، ومنها قليلة الحركات والحس، كل ذلك لأسباب وعلل لا يعلم ولا يعرف كُنْهَ معرفتها إلا الله الذي خلقها وصوَّرَها ويُنشِئُها ويرزقها ويتمِّمها ويُكملها ويبلغها إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها ويعلم مستقرَّها ومستودعها، كلٌّ في كتاب مبين لا لمخافة غلط ولا احتراز من النسيان، لكن لوضوح وبيان.

ثم قال الضفدع: ذكر هذا الإنسي أيها الملك العادل أصناف بني آدم وعدَّد طبقاتهم ومراتبهم وافتخر بها على الحيوانات، فلو أنه رأى أجناس الحيوانات من حيوان الماء

وشاهد صور أنواعها وعجائب أشكال أشخاصها وطوائف فنون هياكلها، لعَايَنَ عجائب، ولصَغُر في عينه ما ذكر من كثرة أصناف بني آدم والأمم الكثيرة التي ذكر أنها في المدن والقرى والبراري والبلدان، وذلك أن في الرَّبع المسكون نحوًا من أربعة عشر بحرًا كبارًا؛ منها بحر الروم وبحر جرجان وبحر جيلان وبحر القُلزم وبحر فارس وبحر هند وبحر سند وبحر الصين، وبحر يأجوج ومأجوج وبحر الأخضر وبحر الغربي وبحر الشمال، وبحر الجنوب، وبحر الشرقي، وبحر الحبشة، وفي هذا الربع المسكون نحو من خمسمائة بحر صغار ونحو من مائتي نهر طوال مثل جيحون ودجلة وفرات ونيل مصر ونهر الكر والرس بأَذْرَبِيجَان وهارمند وسدسكتان وما شاكل هذه الأنهار، طُولُ كلٍّ واحد من مائة فرسخ إلى ألف فرسخ.

وأما الآجام والبطائح والغدران والأنهار الصغار والسواقي ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، وفي كل هذه من أجناس السموك والسراطانات والكرازنك والسلاحف والكواسج والتماسيح والدلافين وأنواع أُخَر لا تعد ولا تُحصَى ولا يعلمها إلا الله، وقد قيل إنها تسعمائة صورة جنسية سواء أنواعها وأشخاصها، وإن في البر نحو خمسمائة صورة جنسية ونوعية من أجناس الوحوش والسباع والبهائم والأنعام والحشرات والهوام والطيور والجوارح وغيرها من الطيور الإنسية، وكل هذه الخلائق عبيد الله — تعالى — مماليك له خَلَقَهم بقدْرته وصوَّرهم برحمته وأنشأهم وربَّاهم ورَزَقَهم وحفِظَهم ورَعَاهم لا تَخفَى عليه خافية من أمرهم يعلم مستقرَّهم ومستودعهم، ثم قال الضفدع: فلو تأمَّلتَ واعتبرتَ فيما كان ذلك أيها الإنسي لعلمتَ وتبيَّن لك بأن افتخارك بكثرة بني آدم وعدد أصنافهم وطبقاتهم لا يدل على أنهم أرباب وغيرهم عبيد لهم بتة.

فلما فرغ الضفدع من كلامه، قال حكيم من الجن: ذهب عليكم يا معشر الإنس من بني آدم ويا معشر الحيوانات الأرضية وذوي الأجسام الثقيلة والجثة العظيمة الغليظة والأجرام ذوي الأبعاد الثلاثة من ساكني البحر والبر والجو وخَفَتْ عنكم معرفة كثرة الخلائق الروحانية والصور النورانية والأرواح الخفية والأشباح اللطيفة والنفوس البسيطة والصور المفارقة التي مسكنها في فسحة أطباق السموات وسريانها في فضاء سعة عالم الأفلاك من أصناف الملائكة الروحانيين الكرويين وحَمَلة العرش أجمعين وما في سعة كرة الاثنين من الأرواح النارية وما في سعة كثرة الزمهرير من قبائل الجن وإخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين، فلو أنكم يا معشر الإنس ويا معشر الحيوانات عرفتم كثرة أجناس هذه الخلائق التي ليست بأجسام ذوات أركان ولا أجرام ذوات

أبعاد، وعلمتم كثرة أنواعها وكثرة صورها وعدد أشخاصها وأشخاص أشكالها، لصغرت في أعينكم كثرة أجناس الحيوانات أجمع من الجسمانية والأنواع الجرمانية والأشخاص الجزوية؛ وذلك لأن مساحة كرة الزمهرير تزيد على مساحة سعة البر والبحر أكثر من عشرة أضعاف.

وهكذا سعة كرة الأثير تزيد على سعة كرة الزمهرير أكثر من عشرة أضعاف.

وهكذا سعة كرة فلك القمر تزيد على سعة كرة الجميع أضعافًا.

وهكذا نسبة فلك عُطَارد إلى فلك القمر، وعلى هذا المثال حكم سائر الأفلاك السبعة المحيطات بعضها ببعض إلى أعلى فلك المحيط، وكلها ممتلئ فضاؤها وفسحات سعتها من الخلائق الروحانية حتى إنه ليس فيها موضع شبر إلا وهناك جنس من الخلائق كما أخبر النبي — عليه السلام — فإنه سُئل عن قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ قال عليه السلام: «ما في السموات السبع موضع شبر إلا وهناك مَلَك مقرَّب قائم أو راكع أو ساجد لله تعالى.»

ثم قال الحكيم: لو تفكَّرتم واعتبرتم يا معشر الحيوان والإنس فيما ذكرتُ لعلمتم أنكم أقلُّ الخلائق عددًا وأدونهم مرتبة ومنزلة.

فالافتخار بالكثرة أيها الإنسي لا يدل على أنكم أرباب وغيركم عبيد لكم، بل كلنا عبيد الله وجنوده ورعيته مسخَّر بعضنا لبعض كما اقتضتْ حكمتُه وأوجبتْ ربوبيتُه، فله الحمد على ذلك وعلى سابغ نعمته حمدًا كثيرًا.

فلما فرغ حكيم الجن من كلامه، قال الملك: سمعنا يا معشر الإنس ما ذكرتم وما افتخرتم به، وقد سمعتم منَّا الجواب، فهل عندكم بيان آخَر غير ما ذكرتموه، فأوردوه وبيِّنوه لنسمع إن كنتم صادقين.

فصل

فقام عند ذلك الخطيب الحجازي المكي المدني وقال: نَعَم أيها الملك، لنا فضائل أخرى ومناقب حِسَان تدل على أننا أرباب وهذه الحيوانات عبيد لنا، ونحن مُلَّاكها ومواليها.

قال الملك: ما هي؟ قال: مواعيد ربنا لنا بالبعث والنشور والخروج من القبور وحساب يوم الدين والجواز على الصراط ودخول الجنان من بين سائر الحيوانات، وهي جنة الفردوس وجنة النعيم وجنة عدن وجنة الخلد وجنة المأوى ودار السلام ودار المقام، ودار المتقين وشجرة طوبى وعين السلسبيل وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من

عسل مصفًّى وأنهار من لبن وماء غير آسِنٍ وبالدرجات في القصور وتزويج الحور ومجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام والتنسُّم من ذلك الرَّوْح والريحان المذكور في القرآن في نحو من سبعمائة آية.

كل ذلك بمعزل عن هذه الحيوانات فهذا دليل على أنَّا أرباب، وهي عبيد لنا، ولنا مناقب أُخَر غير ما ذكرنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فقام عند ذلك زعيم الطيور وهو الهزار داستان فقال: نَعَم، لعمري إن الأمر كما قلت أيها الإنسي، ولكن اذكر أيضًا ما وُعدتم به معشر الإنس من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير وأحوال يوم القيامة وشدة الحساب والوعيد بدخول النيران وعذاب جهنم والجحيم والسعير ولظى وسَقَر والحُطَمة والهَاوية وسَرَابيل من قَطِران، وشرب الصديد وأكل شجرة الزَّقُّزم ومجاورة مالك الغضبان وجوار الشياطين مع جنود إبليس أجمعين.

وما هو مذكور في القرآن بجنب كل آية من الوعد آية من الوعيد، كل ذلك لكم دوننا ونحن بمعزل عن جميع ذلك، وكما لم نُوعَد بالثواب لم نُوعَد بالعقاب، وقد رضينا بحكم ربنا، لا لنا ولا علينا، كما رفع عنَّا حُسْن الوَعْد صَرَفَ عنَّا خوفَ الوَعِيد، فتكافَأَتِ الأدلة بيننا وبينكم، وتساوتِ الأقدار، فما لكم والافتخار؟

قال الحجازي: وكيف تساوتِ الأقدار بيننا وبينكم؟ فإنَّا على أي حالة كانت باقون أبد الآبدين ودهرَ الدَّاهِرين إنْ كنا مُطِيعين، فمَعَ الأنبياء والأولياء والأئمة والأوصياء والحُكَماء والأخيار والفضلاء والأبدال والزهاد والصالحين والعباد العارفين المستبصرين وأولي الألباب وأولي الأبصار وأولي النهى والمصطفَيْنَ الأخيار والذين هم بملائكة الله الكرام يتشبهون وإلى الخيرات يتسابقون وإلى لقاء ربهم يشتاقون، وفي جميع أوقاتهم عليه مقبلون، ومنه يسمعون وإليه ينظرون، وفي عظمته وجلالته يتفكرون، وفي جميع الأمور عليه يتوكلون، وإياه يسألون ومنه يطلبون وإياه يرجون ومن خشيته مشفقون.

ولو كنَّا مردودين إذن نتخلص بشفاعة نبينا محمد — عليه السلام — ونكون باقين في الجنة مع الحُور والغِلْمان والرَّوْح والريحان ولقاء الرحمن ونداء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة في حقنا. قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

وأنتم يا معشر الحيوانات بمعزل عن جميع ذلك؛ لأنكم بعد المفارقة تفسدون وتَبْلَوْن وتفنَوْنَ ولا تبقَوْنَ، فهذا دليل على أننا أرباب وأنتم عبيد وخول لنا.

فقالت حينئذٍ زعماء الحيوانات وحكماء الجن بأجمعهم: الآن جئتم بالحق، ونطقتم بالصواب وقلتم الصدق؛ لأن بأمثال ما ذكرتم يفتخر به المفتخرون ومثل أعمالهم فليعمل العاملون.

وفي مثل سيرهم وأخلاقهم وآدابهم وآرائهم وعلومهم فليرغب الراغبون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ولكن خبِّرونا يا معشر الإنس عن أوصافهم، وبيِّنوا لنا سيرهم، وعرفونا طريق معارفهم ومحاسن أخلاقهم وصالح أعمالهم إن كنتم صادقين، ثم اذكروها إن كنتم بها عارفين.

فسكتتِ الجماعة حينئذٍ يتفكَّرون فلم يكن عند أحد منهم جواب، فقال واحد منهم: إن الجنة أُعِدَّتْ للمتقين.

فقام عند ذلك العالِم الخبير الفاضل الذكي المستبصِر الفارسي النسبة، العربي الدِّين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العِبْراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النُّسُك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السير، الملكي الأخلاق، الربَّاني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني، فقال: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلوات الله على خاتم الأنبياء وخلاصة الأصفياء محمد وآله أجمعين.

ثم قال: أيها الملك العادل، وأنتم معشر الجماعة الحضور، اعلموا أن لهؤلاء الذين هم أولياء الله وصفوته من خلقه وخيرته من عباده وبريته أوصافًا حميدة وأعمالًا زكية وعلومًا مفننة وصفات جميلة وأعمالًا زكية ومعارف ربانية وأخلاقًا ملكية وسيرة عادلة قدسية وأحوالًا عجيبة قد كلَّتِ الألسُنُ عن ذكرها، وقصرت أوصاف الواصفين عن كُنْهِ صفاتها وأكثر الذاكرون في وصْفِهم لهم، وأطَالَ الواعظون الخُطَب في مجالس الذكر عن بيان طريقتها ومحاسن أخلاقها طول الأزمان والدهور ولم يبلغوا كنه معرفتها، فكيف يأمر الملك العادل في حق هؤلاء الغرباء، وما جوابهم؟

فأمر الملك أن تكون الحيوانات بأجمعهم تحت أوامرهم ونواهيهم ويكونون مأمورين للإنس حتى يستأنف الدور.

ثم بعد ذلك حَكَم حُكْمًا آخَر، ثم بعد ذلك قام واحد من خُدَماء الملك ونَادَى منادٍ: ألَا قد سمعتم معشر الحيوانات بيان هؤلاء الإنس وقبلتم مقالاتهم ورضيتم بذلك، فانصرفوا آمنين في حفظ الله وأمانه.

ثم اعلم أيها الأخ أنَّا قد بيَّنَّا في هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب، ولا تظن بنا ظن السوء، ولا تَعْدُ هذه الرسالة من ملاعبة الصبيان ومخارفة الإخوان؛ إذ عادتنا جارية على أن نكسو الحقائق ألفاظًا وعبارات وإشارات، كيلا يخرج بنا عما نحن فيه، وفَّقكم الله لقراءتها واستماعها وفهم معانيها، وفتح قلوبَكم وشَرَح صدورَكم ونوَّر بصائِرَكم بمعرفة أسرارها، ويسَّر لكم العمل بها كمَا فَعَل بأوليائه وأصفيائه وأهل طاعته، إنه على ما يشاء قدير.

(وبمَنِّه وجُودِه ولُطْفِه وكرمه وفضله ورحمته تمَّتْ رسالة الحيوانات بعون خالق المخلوقات، وبمحمد وآله الأئمة الهُدَاة عليهم من الله أفضل السلام والصلاة، ويتلوها رسالة تركيب الجسد.)

الرسالة التاسعة

من الجسمانيات الطبيعيات في تركيب الجسد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكَفى، وسَلامٌ على عِباده الذين اصطفى، آلله خيرٌ أمَّا يُشرِكون.

اعلم أيها الأخ — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — أنَّا قد فرغنا من ذكر رسالة الحيوانات وبيان عجائب هياكلها، وغرائب أحوالها، والغرض منها هو البيان عن أجناس الحيوانات وكمية أنواعها واختلاف صورها وطبائعها وكان لنا أيضًا غرض آخَر من ذلك؛ أنَّا أردنا أن نبيِّن حقائقها بتلك الإشارات والعبارات، فلا يخفى على الحكماء غرضنا في ذلك حسب ما بيَّنَّا في الفصل المعين عند ذكرنا الملك والملائكة، وحان لنا أن نذكر في هذه الرسالة تركيب جسد الإنسان؛ إذ آخِر مرتبة الحيوانية متصل بأول مرتبة الإنسانية، وغرضنا من هذه الرسالة أن نبيِّن كَوْن الإنسان هو عالم صغير، فنقول: اعلم — وفَّقك الله — أن الإنسان إذا ادَّعَى معرفة الأشياء وهو لا يعرف نفسه، فمَثَله كمَثَل مَن يُطعِم الناس وهو جائع، وكمَثَل مَن يُداوي غيرَه وهو مريض سقيم عليل، أو كمَن يَكسُو الناس وهو عريان وعورته للناس بادية، ما إنْ يواريها، أو كمَثَل مَن يَهدِي الناس إلى الطريق وهو ضالٌّ لا يعرف طريقَ بَيْتِه، وقد علمتم أن في هذه الأشياء ينبغي للإنسان أن يبتدئ أولًا بنفسه ثم بغيره.

واعلموا أن اسم الإنسان إنما هو واقع على هذا الجسد الذي هو كالبيت المبني، وعلى هذه النفس التي تسكن هذا الجسد وهما جميعًا جزآن له، وهو جملتهما والمجموع

منهما، ولكن أحد الجزأَيْن الذي هو النفس أشرف وهو كاللبِّ والجزء الآخَر الذي هو الجسد كالقِشْر، والإنسان هو الذي جملتها والمجموع منهما، ولكن أحد الجزأين الذي هو النفس كالشجرة والآخَر كالثَّمَر، ومِن وجْه آخَر أحدهما كالراكب وهي النفس، والآخر كالمركوب وهو الجسد، والإنسان هو جملتها كالفارس، فمِن أجْل هذا يحتاج كل إنسان أن يعرف نفسه بالحقيقة ويحتاج في معرفة ذلك إلى أن ينظر فيه من ثلاثة أوجه:

أحدها: النظر في حالات الجسد ما هو، وكيف هو من تركيب أجزائه وتأليف أعضائه، وما الصفات المخصوصة به خِلْوًا من النفس؟

والجهة الثانية: النظر في أمر النفس مجردة من الجسد وقواها، وما هي، وكيف هي، وما الصفات المخصوصة بها؟

والجهة الثالثة: النظر في مجموعهما وما يَظهَر من جملتهما من الأخلاق والأفعال والحركات والصنائع والأعمال والأصوات وما شاكل ذلك، وتبتدئ أولًا بذكر حالات الجسد وصفاته بكلام مختصر كيما يكون دليلًا على أمر النفس وحالاتها؛ لأن حالات الجسد ظاهرة مكشوفة متخيَّلة مُدْرَكة بالحواس، وأما أمر النفس وحالاتها فغائب عن إدراك الحواس وباطن في عمق الجسد مستور خفي، وإنما يدرَك بالعقل.

فاعلموا أيها الإخوان أن الشاهد من حالات الجسد يدل على الغائب من حالات النفس، والظاهر يدل على الباطن والمكشوف على المستور، والجلي على الخفي، والمحسوس على المعقول، وقد قلنا في الرسالة الأولى: إن الجسد مؤلَّف من اللحم والدم والعظام والعروق والعصب والجلد وما شاكلها، وهذه كلها أجسام أرضية ميتة مظلمة ثقيلة متجزئة متغيِّرة فاسدة، وأما النفس فإن جواهرها سماوية روحانية ناطقة نورانية غير ثقيلة ولا متجزئة وغير فاسدة، بل متحركة باقية علَّامة درَّاكة لصور الأشياء وحقائقها.

(١) فصل في كيفية تركيب الجسد وكيفية أخلاط البدن ومزاج الطبائع

فنقول: اعلم — وفَّقك الله — أن الباري — تعالى — لما خلق الجسد وسوَّاه ونَفَخَ فيه من روحه وأحياه ثم أسكن فيه النفس وأولاه، وكان مثل أساس بنية الجسد وتركيب أجزائه وتأليف أعضائه كمثل أساس بناء مدينة بُنيتْ من أشياء مختلفة كالحجارة والطين والآجُرِّ والنورة والرمال والخشب والأجذاع والحديد وما شاكلها، فأُحكم بنيتها وشُيِّد بنيانها وحُصِّن سورها وخُطِّطت شوارعها وقُسمت محالُّها وزُيِّنت مجالسُها ورُتبت

منازلها ومُلِئت خزائنها وأُسكنت دُورُها وسُلِكت طرقاتها وأُجريت أنهارها وفُتحت أسواقها واستُعمل صُنَّاعُها وأُقعِد فيها تُجَّارها ودَبَّرَها مَلِكُها وخَدَمة أهلها.

وذلك أن الله — تعالى — لما أراد تركيب الجسد ابتداءً أولًا، فاخترع أربع طبائع منفردات متعاديات القوى بسلطانها بعضها على بعض، ثم ألَّف بين كل اثنين منها، وأربعة أركان مزدوجات مؤتلفات الطبائع متناسبات القوى من أركانها، ثم أسَّس بنية هذا الجسد من هذه الأربعة الأركان التي هي أساس لبنيانها ثم ابتدأ بنيانها من أربعة أخلاط متعاديات طباعها متناسبات قواها التي هي مجموعات من أصل أركانها.

ثم جمع هذه الأربعة الأخلاط، فخَلَق منها تسعة جواهر مختلفة أشكالها هي ملاك بنيانها، ثم ألَّفها وركَّب بعضَها فوق بعض عشر طبقات متصلات بهندامها، ثم أسندها وأقامها بمائتين وثمانية وأربعين عمودًا مستويات القد أقرانًا، ثم سمَّرها ومدَّ حِبَالَها وشدَّ أوْصَالَها بسبعمائة وخمسين رباطًا ممدودات محتويات ملتفَّات عليها كالحبال، وفصلها حذرًا من نقضها ونقصانها، ثم قدَّر بيوتها وقسم خزائنها وأودع إحدى عشرة خزانة معمورة مملوءة من الجواهر مختلفة أنواعها وألوانها وخط شوارعها وأنفذ طرقاتها وفتح أبوابها وجعل لها ثلاثمائة وستين مسلكًا لسكانها واستخرج منها عيونًا، وشقَّ فيها أنهارًا هي ثلاثمائة وتسعون جدولًا مختلفات في الجهات لجريانها وفتح على سورها اثني عشر روزنًا مزدوجات المسالك لجريانها.

وأحكم بناء هذه المدينة على أيدي سبعة صُنَّاع متعاونين هم خُدَّامها، ووكل بحفظها خمسة حُرَّاس حُرَّاسًا على حفظ أركانها.

ثم رفع هذه المدينة في الهواء على رأس عمودين وحركها على ست جهات بجناحين، ثم أسكن فيها ثلاث قبائل من الإنس والجن والملائكة وجعلهم سكانها، ثم رأَّس عليهم مَلِكًا واحدًا، وعلَّمه أسماء مَن فيها وأمره بحفظها، وأوصاه بسياستهم، فقال: ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وأمرهم بطاعته له فقال تعالى: «اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ.»

فأمَّا تفصيل تلك الطبائع المفردات الأربع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والأركان الأربعة المزدوجات الطباع المتناسبات القوى هي النار والهواء والماء والأرض، والأخلاط الأربعة المتعاديات الطباع هي الصفراء والدم والبلغم والسوداء، والجواهر التسعة هي العظام والمخ والعصب والعروق والدم واللحم والجلد والظفر والشعر.

والطبقات العشرة هي الرأس والرقبة والصدر والبطن والجوف والحقو والوَرِكان والفَخِذان والساقان والقدمان.

وأما الأعمدة فهي العظام والرباطات هي الأعصاب.

وأما الخزائن الإحدى عشرة فهي الدماغ والنخاع والرئة والقلب والكبد والطحال والمرارة والمعدة والأمعاء والكليتان والأنثيان والشوارع والطرقات هي العروق الضوارب والأنهار هي الأوردة.

وأما الأبواب الاثنا عشر فهي العينان والأذنان والمنخران والسبيلان والثديان والفم والسرة.

وأما الصُّنَّاع السبعة فهي القوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغاذية والمصوِّرة.

وأما الحواس الخمس فهي السمع والبصر والشمُّ والذَّوْق واللمس.

وأما العَمُودان فهما الرِّجْلان، وأما الجناحان فهما اليدان.

وأما الجهات الست فهي قُدَّام وخلف ويَمْنة ويَسْرة وفَوْق وتَحْت.

وأما القبائل الثلاث فهي النفوس الثلاثة وقواهن وأفعالهن؛ فالنفس الشهوانية وأخلاقها وأفعالها، فهي كالجن، والنفس الحيوانية وأخلاقها وحواسُّها كالإنس، والنفس الناطِقَة وتمييزُها ومعارفها هي كالملائكة، والرئيس الواحد هو العقل.

(٢) فصل في أن الجسد كالدار، وأن النفس كالساكن في الدار

اعلم أن النظر في ماهية النفس مجردة من الجسد والتصور بذاتها خِلْو منه عَسِرٌ جدًّا على المرتاضين بالرياضات الحكمية، فكيف على غيرهم؟ ولكنه إذا نظر إلى ما يَظهَر من أفعالها من الجسد واعتبر تصرُّف أحوالها مع الجسد يسهل عليه ذلك ويقرب من فهْم المتعلِّمين والتصوُّر في أفكار المتفكِّرين وجودها وتبيَّن شرَفُ جوهرها، ونريد أن نبيِّن من ذلك طرفًا، ونضرب أمثالًا كيما يكون أوضح للبيان وأقرب من فهم المبتدئين وأبلغ للتصوُّر في أفكار المفكِّرين.

فنقول: اعلم أن هذا الجسد لهذه النفس هو بمنزلة دار لساكنها بُنيت، وأُحكِم بناؤها، وقُسمت بيوتها ومُلئت خزائنها، وسُقفت سطوحها وفُتحت أبوابها، وعُلقت ستورها وأُعِدَّ فيها كلُّ ما يحتاج إليه صاحب المنزل في منزله من الفُرُش والأواني والأثاث والمتاع على أتمِّ ما يكون وأكمله وأتْقَنَه؛ فرِجلاه وقيام الجسد عليهما كأساس الدار

ورأسه في أعلى بدنه كالغرفة في أعلى الدار، وظهره من خلفه كظهر الدار، ووجهه أمامه كصدر الدار، ورقبته وطولها كرواق الدار، وفتح حلقومه وجريان الصوت فيه كدهليز الدار، وصدره في وسط بدنه كصحن الدار، والأوعية التي في صدره كالبيوت والخزائن في الدار، ورئته وبردها كالبيت الصيفي، والخيشوم وجريان النفس في الحلقوم كالباداهج، وقلبه مع الحرارة الغريزية كالبيت الشتوي، ومعدته ونضج الغذاء فيها كالمطبخ، وكبده وحصول الدم فيه كبيت الشراب، ومجاري عروقه وجريان الدم والنبض إلى سائر أطراف البدن كمسالك الدار، وطحاله وحصول عكر على الدم فيه كخزانة الأثاث، ومرارته وحِدَّة الصفراء فيها كبيت السلاح، وجوفه والحُجُب التي فيه كبيت الحرم، وأمعاؤه وثقل الطعام فيها كبيت الخلاء، ومثانته وحصول البول فيها كبيت البول، وسبيلاه في أسفل البدن كمجاري الدار، وعظامه وقوام الجسد عليها كالحيطان في الدار، والعصب الممدودة على المفاصل كالأجذاع والعوارض على الحيطان، ولحمه في خلل العظام والعصب كالملاط، وأضلاعه كالأساطين في الدار، والتجويفات التي في جوف العظام كالصناديق والأدراج، والمخ فيها كالجواهر والمتاع في الأدراج والثقب التي في رءوسها كرواشن في غرف الدار، وتنفُّسه كالدخان، ووسط دماغه كالإيوان وحدقتاه كبيت العرض، والغشاوات التي بينهما كالستور، وفمه كباب الدار وأنفه كطابق باب الدار، وشفتاه كمصراعي الباب، وأسنانه كالدرابزين، ولسانه كالحاجب، وعقله في وسط دماغه كالمَلِك القاعد في وسط العرصة، وصدر الدار والمجلس، وحواسه الباطنة كالنُّدَماء، وحواسه الظاهرة كالجُنْد والجواسيس، وعيناه كالديدبان، وأذناه كأصحاب الأخبار، ويداه كالخُدَّام، وأصابعه كالصُّنَّاع، وبالجملة ما من عضو في الجسد إلا وله مثال من فعل رب المنزل.

ثم إن هذا الجسد لهذه النفس من جهة أخرى بمنزلة دكان الصانع، وإن جميع أعضاء الجسد للنفس بمنزلة أداة الصانع في دكانه، وإن النفس بكل عضو من أعضاء الجسد تُظهِر ضروبًا من الأفعال، وفنونًا من الأعمال، كما أن الصانع بكل أداة يعمل ضروبًا من الأعمال وفنونًا من الحركات، كالنجار؛ فإنه ينحت بالفأس وينشر بالمنشار ويثقب بالمثقب، ويبرد بالمبرد، وينقر بالمنقار.

وهكذا الحداد فإنه ينفخ بالمنفاخ، ويأخذ بالكليتبر ويطرق بالمطرقة.

وعلى هذا القياس سائر الصُّنَّاع كل واحد منهم يعمل بأدوات مختلفة أعمالًا مختلفة وحركات متباينة.

فهكذا حال النفس تبصر بالعينين وتسمع بالأذنين وتشم بالمنخرين وتذوق باللسان، وتتكلم بالشفتين واللسان وتمس باليدين وتعمل الصنائع بالأصابع، وتمشي بالرجلين

وتبرك على الركبتين وتقعد على الأليتين وتنام على الجنبين، وتستند بالظهر وتحمل الأثقال على الكتفين، وتتفكر بوسط الدماغ الأشياء وتتخيل بمقدم الدماغ المحسوسات وتحفظ بمؤخر الدماغ المعلومات، وتصوت بالحلقوم وتستنشق الهواء بالخياشيم وتقطع الطعام بالأسنان وتزدرد بالمريء وما شاكل ذلك.

وبالجملة ما من عضو في الجسد إلا وللنفس فيه ضرب من الأفعال وفنون من الأعمال.

ثم اعلم أن هذا الجسد لهذه النفس الساكنة فيه يشبه مدينة عامرة بأهلها مأنوسة بسكانها وحالات الجسد تشبه حالات المدينة، وتصرُّف النفس يشبه تصرُّفات أهل المدينة فيها.

وذلك أن لهذا الجسد أعضاء ومفاصل تشبه المحالَّ في المدينة، وفي تلك الأعضاء والمفاصل أوعية ومجارٍ تشبه المنازل في المحال، وفي تلك الأوعية والمجاري حُجُب وأغشية تُشبِه البيوت في منازل الأسواق في المحال والدكاكين في الأسواق.

بيان ذلك أن الأعضاء والمفاصل تشبه المحال في المدينة، فالرأس وما حوى والصدر وما وَعَى والبطن وما ملى والرجلان والبدن.

وأما الأوعية والمجاري التي تشبه المنازل في المحال فالدماغ والقلب والرئة والطحال والمرارة والمعدة والمصارين والأمعاء والكليتان والعروق، وأما الحجب والأغشية التي تشبه البيوت في المنازل والدكاكين في الأسواق، فالتجويفات التي في الدماغ والرئة والتي في القلب والتي في العظام وغير ذلك.

فصل في أن في النفس الساكنة في الجسد قوى طبيعية وأخلاقًا غريزية

ثم اعلم أن في هذه النفس الساكنة في هذا الجسد قوًى طبيعية وأخلاقًا غريزية منبثَّة في أعضاء هذا الجسد تشبه قبائل أهل تلك المدينة وشعوبها النازلين في المحالِّ بتلك المدينة، وأن لتلك القوى وتلك الأخلاق أفعالًا وحركات منبثَّة في أوعية هذا الجسد ومجاري مفاصله تشبه أفعال أهل تلك المدينة في منازلهم وحركاتهم في طرقاتها وأعمالهم في أسواقهم.

فأما القوى الطبيعية والأخلاق الغريزية التي تشبه القبائل والشعوب فهي ثلاثة أجناس.

فمنها قوى النفس النباتية ونزعاتها وشهواتها وفضائلها ورذائلها ومسكنها القلب، وأفعالها تجري مجرى الأوراد إلى سائر أطراف الجسد.

ومنها قوى النفس الحيوانية وحركاتها وأخلاقها وحواسها وفضائلها ورذائلها ومسكنها القلب وأفعالها تجري مجرى العروق الضوارب إلى سائر أطراف الجسد.

ومنها قوى النفس الناطقة وتمييزاتها ومعارفها وفضائلها ورذائلها ومسكنها الدماغ وأفعالها تجري مجرى الأعصاب إلى سائر أطراف الجسد.

ثم اعلم أن هذه النفوس الثلاث ليست متفرقات متباينات بعضها من بعض، ولكنها كلها كالفروع من أصل واحد متصلات بذات واحدة كاتصال ثلاثة أغصان من شجرة واحدة تتفرع من كل غصن عدة قضبان، ومن كل قضيب عدة أوراق وثمار أو كعين واحدة ينشق منها ثلاثة أنهار كل نهر ينقسم عدة أعمدة، كل عمود عدة جداول أو كقبيلة واحدة يتشعب منها ثلاثة شعوب من كل شعب يتفرع عدة بطون، من كل بطن عدة أفخاذ وعشائر أو كرجل يعمل ثلاث صنائع تُسمَّى بثلاثة أسماء، فيُقال: حدَّاد نجَّار بنَّاء إذا كان يُحسِن الثلاثة أو كرجل يَقرأ ويَكتب ويعلم فيقال: قارئ كاتب معلم؛ لأن هذه الأسماء تقع على الفاعل بحسب ما يظهر منه من الأفعال والحركات والصنائع والأعمال.

فهكذا أمر النفس فإنها واحدة بالذات، وإنما تقع عليها هذه الأسماء بحسب ما يَظهَر منها من الأفعال، وذلك إذا فعلت في الجسم الغذاء والنمو فتسمَّى النفس النامية، وإذا فعلت في الجسم الحس والحركة والنقلة فتسمَّى النفس الحيوانية، وإذا فعلت الفِكْر والتمييز فتسمَّى النفس الناطقة.

ثم اعلم أن لكل عضو من أعضاء الجسد قوة من قوى النفس مختصة بها، وهي تدبر ذلك العضو وتفعل به أفعالًا خلاف ما تفعل قوة أخرى من عضو آخَر، وأن تلك القوة تُسمَّى نفسًا لذلك العضو المختصة به.

مثال ذلك: القوة الباصرة؛ فإنها تُسمَّى نفس العين، والقوة السامعة تُسمى نفس الأذن، والقوة الذائقة تسمى نفس اللسان، والقوة الشامَّة تسمى نفس الأنف، وعلى هذا القياس سائر الأعضاء للقوى التي تدبرها وتفعل بها.

ثم اعلم أن هذه النفوس الثلاث الأجناس وقواها كالأنواع وأفعال تلك القوى الأشخاص.

فأما القوى التي هي كالأنواع فهي خمسة وعشرون نوعًا؛ أربعة منها مفردات كالرؤساء وسبعة منها متعاونات كالصناع والأعوان، وخمسة كالجلايين وثلاثة مناولات كالخَدَم، وثلاثة هن كالأرباب، وثلاثة هن كالأمراء.

وأما أفعالها — أعني أفعال هذه القوى — التي هي كالأشخاص، فكثيرة لا يُحصي عددَها إلا الله، ولكن نذكر من ذلك طرفًا ليكون دليلًا على الباقي، وذلك أن هذه القوى بعضها يشبه أفعال الأشراف والرؤساء في المدينة، وبعضها يشبه أفعال التجار والباعة وجلَّابي الأمتعة إلى المدينة، وبعضها يشبه أفعال العيارين والمفسدين في المدينة، وبعضها يشبه أفعال السلطان والجند المقاتلين في المدينة، وبعضها يشبه أفعال القضاة والعدول والمصلحين في المدينة، وبعضها يشبه أفعال الصبيان والعبيد والنساء والحمقاء، وبعضها يشبه أفعال الشياطين والفتيان والجهال، وبعضها يشبه أفعال العلماء والفقهاء وأهل الدين.

وأما تفصيل ذلك فنقول: إن القوى الأربعة المفردات التي هي كالرؤساء فهي قوى النفس النباتية، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وعليها تدور حالات الجسد من الصلاح والفساد، وذلك أن أفعال هذه القوى في أعضاء الجسد إذا هي اعتدلت وتساوت استقام أمر البدن على الصحة والسلامة تشبه أفعال الأمراء والأشراف والرؤساء الذين هم ملاك المدينة وأربابها، وبهم قوام أمر المدينة وصلاحها واستدامة أحوالها وأفعال هذه القوى عند ورود الطعام والشراب إلى الجسد وتناول كل واحدة من هذه القوى وما شاكلها من الغذاء على ما ينبغي تشبه أفعال أهل تلك المدينة في أخذهم وعطائهم وبيعهم وشرائهم وإنصافهم في معاملاتهم فيما بينهم، وأفعالها إذا كانت على غير ما ينبغي تشبه أفعال أهل تلك المدينة إذا تنازعوا فيما بينهم وتخاصموا في مطالباتهم، وتظالموا في معاملاتهم، وأفعال هذه القوى المميزة التي تقسم بين كل عضو ما يشاكله من الغذاء لتسوي القوى وتعتدل الأخلاط في بنية الجسد تشبه أفعال القضاة والعدول والمصلحين في المدينة بين الناس.

وأما أفعال هذه القوى إذا هِجْنَ وتعَادَيْنَ وأدخلن السقم والمرض على الجسد، فتشبه أفعال العيارين وأصحاب العصبية إذا هاجوا وأثاروا الفِتَن وتقاتلوا وأحرقوا الأسواق وخربوا المنازل ونهبوا الأموال وأفسدوا في المدينة.

وأما أفعال هذه القوى عند ورود الدواء والأشربة وإخراج فضول الأخلاط من الجسد فتشبه أفعال السلطان والجند إذا قاتلوا العيارين وسكَّنوا الفتنة وأخذوا الذعار وقطعوا أيديهم وأخرجوهم من المدينة.

وأما أفعال هذه القوى عند خروج فضول الأخلاط من الجسد وذهاب الأمراض وإصلاح حال الجسد بعد السقم، فيشبه أفعال رؤساء أهل تلك المدينة إذا تصالحوا فيما بينهم وتهادنوا وأصلحوا ما أفسد العيارون من حالات المدينة وعمروا ما خربوا منها.

وأما القوى التي هي كالأرباب فهي القوة الشهوانية والقوة الغضبية والقوة الناطقة، فأفعال القوة الشهوانية في أعضاء الجسد إذا لم ترأسها وتلزمها القوة الغضبية تشبه أفعال النساء والصبيان والحمقى إذا لم يرأسهن أزواجهن ولم يؤدِّبهم آباؤهم ومواليهم.

وأما القوة الغضبية إذا لم ترأسها وتلزمها القوة الناطقة، فتشبه أفعال الشياطين والشبان والجهال والسفهاء إذا لم يرأسهم عقلاؤهم ويلزمهم مشايخهم ولم يأمر ويَنْهَ عليهم مشايخهم.

وأما أفعال القوة الناطقة إذا لم يرأسها ويلزمها العقل فتشبه أفعال العلماء والقراء إذا تنازعوا في أحكام الدين واختلفوا فيها وصاروا ذوي مذاهب كثيرة ومقالات إذا لم يرأسهم ويلزمهم إمام عادل من خلفاء الأنبياء عليهم السلام.

وأما القوى الخمس التي هي كالحشار والجلَّابين فهي الحواس الخمس، فمنها القوة السامعة الداركة للأصوات ومجراها الأذنان، ومنها القوة الباصرة المدركة للأنوار والألوان والأشكال ومجراها الحدقتان، ومنها القوة الذائقة ومجراها اللسان، ومنها القوة الشامَّة المدركة للروائح ومجراها في المنخرين، ومنها القوة اللامسة المدركة للخشونة واللين والصلابة والرخاوة والبرودة والرطوبة واليبوسة ومجراها في الأعصاب وفي جميع الجسد وأفعال هذه القوى في إدراكها صور المحسوسات من خارج الجسد وحملها إلى القوة المتخيلة التي في مقدم الدماغ تشبه أفعال الحشار والجلابين الذين يحملون الأمتعة من النواحي والحوائج ويجلبونها إلى المدينة ويعرضونها على التجار.

وأما القوى الثلاث المتناولات التي هي كالتجار والباعة فهي القوة المتخيلة ومسكنها مقدم الدماغ، والقوة المفكِّرة ومسكنها وسط الدماغ، والقوة الحافظة ومسكنها مؤخر الدماغ.

فأما أفعال القوة المتخيلة وتناولها رسوم المحسوسات من الحواس ودفعها إلى القوة المفكرة فتشبه أفعال السماسرة والباعة الذين يكونون في عرصات المدينة والأسواق.

وأما أفعال القوة المفكرة وتناولها رسوم المحسوسات وتمييزها وتفصيل بعضها من بعض ودفعها إلى القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ، فتشبه أفعال التجار والذين يشترون الأمتعة ويحملونها إلى البيوت والدكاكين والخانات.

وأما أفعال القوة الحافظة وتناولها رسوم الأشياء من القوة المفكرة وحفظها وإمساكها إلى وقت التذكار فتشبه أفعال الخُزَّان والوكلاء والمحتكرين ومَن شاكلهم.

وأما القوى الثلاث اللواتي كالأمراء فالقوة الغضبية والقوة والشهوانية والقوة الناطقة، وقد بيَّنَّاها.

وأما القوى السبع المتعاونة وهي التي أفعالها في أعضاء الجسد فتشبه أفعال الصناع في أسواق المدينة، وهي القوة الجاذبة والقوة الماسكة والقوة الهاضمة والقوة الدافعة والقوة الغاذية والقوة المصورة والقوة النامية، وذلك أن هذه القوى بعضها يخدم بعضًا كما يخدم التلامذة الأستاذين والأُجَراء المستأجرين، وبعضها يعاون بعضًا كما يعاون الصناع بعضهم بعضًا في الأسواق كتعاون الحدادين للنجارين، والنجارين للبنائين، وكتعاون الحلاج للنداف، والنداف للغزالين، والغزالين للنُّسَّاج، والنُّسَّاج للخياطة، وما شاكل ذلك.

فإن كل واحد من هؤلاء يُهيِّئ صناعة صاحبه ويعطيها له فكذا أفعال هذه في أعضاء هذا الجسد، وتعاون بعضها بعضًا فيما يفعلون.

وذلك أن القوة الجاذبة من شأنها جذب الطعام والشراب إلى المعدة وجذب الكيموس من المعدة إلى الكبد، وجذب الدم من الكبد إلى العروق، ومن العروق إلى سائر أطراف الجسد.

ومن شأن القوة الماسكة إمساك ما يرد على العضو من الأخلاط.

ومن شأن القوة الهاضمة أن تنضج ذلك الخلط وتُهيِّئة للقوة الغاذية.

ومن شأن القوة الدافعة أن تدفع من العضو ما لا يصلح له من الأخلاط إلى عضو آخَر.

ومن شأن القوة النامية الغاذية أن تلصق بكل عضو ما يشاكله من مادة الغذاء.

ومن شأن القوة النامية أن تناول المادة وتزيد في أقطار ذلك العضو.

ومن شأن القوة المصورة أن تأخذ من كل عضو ما يفضل من تلك المادة وتصور مثل ذلك، وهذه القوة مختصة بالرحم.

وهذه القوى السبعة أفعالها كثيرة في أعضاء الجسد في كل عضو ضروب من الصنائع، بخلاف ما في أي عضو آخَر، وتشبه أفعال الصناع في أسواق المدينة، ونذكر منها طرفًا ليكون دليلًا على الباقي.

من ذلك أن أفعالها في المعدة من جذب الطعام والشراب إليها وإمساكها وهضمها ونضجها بالحرارة الغريزية تشبه أفعال الخبازين والطباخين وما شاكلهم في أسواق

المدينة، وأفعالها بعد نضج الكيموس في المعدة وتصفيتها واستخراج لطيفها من الطعم واللون والرائحة الحلاوة والدسومة وتمييزها ودفعها إلى الكبد ودفع عكرها إلى الأمعاء تشبه أفعال العطَّارين الذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار والأدهان من حبوب النبات والزبدة والسمن من لبن الحيوان في أسواق المدينة، وأفعالها في الكبد وطبخها صفو الكيموس مرة ثانية ونضجها حتى يكون دمًا قرمزيًّا، ثم تصفيته بعد ذلك وتمييزه ودفعها عكر الدم إلى الطحال والمحترق اللطيف إلى المرارة والرقيق المائي إلى المثانة والمعتدل الصافي إلى القلب تشبه أفعال الحلَّاقين والدباسين، والذين يعملون الجلاب والسكنجبين وما شاكل ذلك في أسواق المدينة.

وأفعالها في القلب في تلطيف الدم مرة ثالثة وتصفيتها وإجرائها في العروق تشبه أفعال الذين يعملون الماورد ويصعدون الخل، ويقطرون الرطوبات اللطيفة وما شاكلها في أسواق المدينة.

وأفعالها في الدماغ وتلطيفها الدم الذي يصعد إليها حتى يصير رطوبة لطيفة روحانية، كالذي يجري في عصارة الأذنين والعينين والمنخرين واللسان والبخارات الذي يكون منها التحليل.

وانفعالات الحواس تشبه أفعال الذين يعملون الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج ودهن النيلوفر والزيتون وما شاكلها في أسواق المدينة.

وأفعالها في دفع ثقل الكيموس من المعدة إلى الأمعاء والمصارين وإخراجها من الجسد تشبه أفعال الكناسين والزبالين والسمادين، وأفعالها في إجرائها الدم في الأوراد إلى سائر أطراف الجسد تشبه أفعال الذين يحفرون الأنهار والآبار والأقنية لتجري فيها المياه خلل المنازل في المدينة.

وأفعالها في تعقيد الدم وتجفيف المادة حتى تصير لحمًا وشحمًا وعظمًا وما شاكله تشبه أفعال الذين يعقدون المائعات من الناطفين والحلوانيين والعجَّانين وما شاكلهم.

وأفعالها في تجفيف المادة وتصلبها حتى تصير عظامًا تشبه أفعال الذين يطبخون الآجُرَّ والخزف والزجاج وما شاكلها.

وأفعالها في تسوية عظام الساقين والفخذين والذراعين وما شابه ذلك تشبه أفعال النجَّارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأَسِرَّة وما شاكل ذلك.

وأفعالها في تركيب مفاصل الركبتين والفخذين والذراعين والأصابع يشبه تركيب نومادجات المفاتيح والصناديق وما شاكله.

وأفعالها في تركيب خرزات الظهر والرقبة والأضلاع تشبه أفعال الذين يبنون السماريات والسفن وما شاكل ذلك، وأفعال ذلك في تركيب عظام القحف وهندامها تشبه أفعال الصفارين والذين يعملون القماقم والأباريق في تركيبها، وأفعالها في خِلْقة الأسنان وتركيبها وترصيعها تشبه أفعال النحاتين الذين يعملون خرزة الدواليب والأرحية وندانجاتها.

وأفعالها في خلقة الأعصاب وتمديدها وفتلها ولفها على الأعضاء تشبه أفعال الغزالين والحبالين والمفتلين ومَن شاكلهم.

وأفعالها في خلقة الجلود والغشاوات تشبه أفعال الحاكة والنساجين ومَن شاكلهم.

وأفعالها في إلحام الجراحات والقروح تشبه الرفائين والجرازين والخياطين.

وأفعالها في نبت الشعر على الجلد تشبه أفعال الزراعين والغراسين ومَن شاكلهم.

وأفعالها في خلقة الأظفار تشبه أفعال الذين يعملون المساحي والمجاوف والرفائش، وما شاكل ذلك.

وأفعالها في خلقة الكروش والأمعاء والمصارين تشبه أفعال الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب، وأفعالها في خلقة الحجب والأمعاء تشبه أفعال الذين ينسجون ثياب القطن والكتان وما شاكل ذلك.

وأفعالها في خلقة الغشاوات التي في العينين تشبه أفعال الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب.

وأفعالها في تبييض العظام وتحمير اللحم وتضمير الشحم وتسويد الشعر تشبه أفعال الصباغين والمزوقين والدهانين.

وأفعالها في الرحم وتصوير الجنين وخلقة الفراخ في البيض تشبه أفعال المصورين والنقاشين وأصحاب اللعب وما شاكل ذلك.

فإن قال قائل من الأطباء والطبيعيين: إن هذه كلها أفعال الطبيعة، فليعلم أن القدماء قد قالت: إن الطبيعة فعل النفس، وإن قال قائل من الشرعيين: إن هذه كلها للخالق البارئ يفعل ما يشاء، ويصوِّر كما يريد، فليعلم أيضًا أن النفس مِن فعل الباري — تبارك وتعالى — وإنما ذكرنا هذه الأفعال ونسبناها إلى النفس؛ لأن البارئ — تعالى — لا يباشر الأفعال بذاته، بل يصدر منه على سبيل الأمر، ولكيما ينتبه الإنسان من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، ويفكر في نفسه، ويشاهد هذه العجائب في الأسرار، ويعلم بأن الصانع عليم حكيم، وأن المصنوع مُبدَع لهذا الحكيم؛ لأن بالمصنوع المحكم المتقن

تتبين للصانع الحكيم حكمته، ويستدل عليها كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وإن من الموجودات كلها موضوع الله؛ لأن حكمته — تعالى — وصنعه تبيَّن بالمصنوعات المحكَمة والموجودات المرتبة ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات الله وأسراره ومصنوعاته وعجائبه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أيها الغافلون، وأفلا تنظرون أيها الجاهلون؟

وبالجملة إن هذا الجسد مع النفس وانبثاث قواها في جميع أعضائه الباطنة والظاهرة وإظهار أفعالها وفنون حركاتها في مجاري مفاصله وحواسها في مجاري ثقب رأسه في حال اليقظة تشبه مدينة عامرة مأنوسة لساكنها قد فُتحت أبوابها وسُلكت طرقاتها، وقَعَد تُجَّارها واشتغل صناعها وسعى متعيشوها وتحركت حيوانها وسُمع منها دويُّ حيواناتها.

وإنَّ حال هذا الجسد في وقت النوم وهدوء الحواس وسكون الحركات تشبه حال تلك المدينة بالليل إذا أُغلقت أسواقها وتعطل صناعها وخَلَتْ طرقاتها ونام أهلها وسكنتْ حركاتهم وهدأتْ أصواتهم.

وأيضًا حال الجسد عند مفارقة النفس له تشبه حال تلك المدينة إذا رحل عنها أهلها وخَلَتْ من ساكنيها وبَادَ جيرانها وبقيتْ خرابًا وصارتْ مأوًى للسباع والبُوم ثم تساقطَتْ حيطانها وخرَّتْ سقوفها وصارت تلالًا وروابي، لا تبين فيها إلا الحجارة والآجُرُّ والطين والتراب، كذلك حال الجسد عند الموت الذي هو فراق النفس إياه، وهو فراق لا يكون الوصل بعده، ولنِعْمَ ما قيل: ما من صباح يصبح العباد فيه إلا ومَلَك يُنادي كل يوم لِدُوا للموت وابْنُوا للخَرَاب، ثم إن الجسد يتغير وينتفخ ويصير مأوى الديدان والذباب والنمل، ثم يَبلَى ويَصير ترابًا لا يتبين إلا العظام والعصب تلوح كما تلوح الحجارة في تلك المدينة وآجرِّها: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وفَّقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسداد، وهداك وإيانا سبيل الرشاد، إنه رءوف رحيم بالعباد.

(تمَّتْ رسالة تركيب الجسد ويتلوها رسالة الحاس والمحسوس.)

الرسالة العاشرة

من الجسمانيات الطبيعيات في الحاسِّ والمحسوس
في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — أنه لما فرغنا من تركيب جسد الإنسان وبيان أن الإنسان عالم صغير وأن بنية هيكله تُشبِه مدينة فاضلة وأن نَفْسَه تُشبِه مَلِكًا في تلك المدينة فنريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة طرفًا من المعلومات فنقول: إن علم الإنسان بالمعلومات يكون من ثلاث طرق:

أحدها: طريق الحواسِّ الخمس الذي هو أول الطُّرُق، ويكون جمهور علم الإنسان ويكون معرفته بها من أول الصبا، ويشترك الناس كلهم فيها وتشاركهم الحيوانات.

والثاني: طريق العقل الذي ينفصل به الإنسان دون سائر الحيوانات ومعرفته به تكون بعد الصبا عند البلوغ.

والثالث: طريق البرهان الذي يتفرَّد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس وتكون معرفتهم بها بعد النظر في الرياضيات الهندسية والمنطقية.

وقد بيَّنَّا لِمَ صارت طرق العلوم ثلاثة في آخِر هذه الرسالة، ونريد أن نذكر الآن طرق الحواس الخمس، ونَصِف كيفية إدراك القوى الحساسة لمحسوساتها، ولكن قبل ذلك ينبغي أن نذكر الأمور المحسوسة التي هي كلها أعراض جسمانية، وبها يكون الجسم محسوسًا، ونضبط أيضًا كيفياتها؛ لأنها أبْيَن وأوضح وأقرب من فهم المبتدئين المتعلمين، ثم نذكر بعد ذلك النفس وقواها الحساسة التي هي كلها أمور روحانية لطيفة غامضة بعيدة عن فهم المبتدئين بالنظر في العلوم والمعارف الحقيقية، فنقول: اعلم — وفَّقك الله — أنه لما كانت الأمور المحسوسة كلها أعراض جسمانية داخلة عليه بعد كونه جسمًا احتَجْنا أن نذكر الجسم المُطلَق ونَصِفه بما هو جسم حسب، ثم نذكر بعد ذلك الأعراض الداخلة التي هي كلها صفات زائدة على كونه جسمًا فنقول: إن الجسم جوهر مركَّب من الهَيُولَى والصورة حسب، والدليل على ذلك قول العلماء في حدِّ الجسم: هو الشيء الطويل العريض العميق، والشيء هو الجَوْهر، وهو الهَيُولَى، والطول والعرض والعمق هي الصُّوَر، والجسم بهذه الصفات يكون جسمًا لا بأنه جوهر؛ لأن النفس والعقل أيضًا هما جوهران لا يوصفان بالطول والعرض والعمق، فهذا أحد الفروق بين الجواهر الجسمانية والجواهر الروحانية.

ثم اعلم أن كل صفة يوصف بها الجسم بعد الطول والعرض والعمق هي صفات زائدة داخلة عليه بعد كونه جسمًا، وتسمى الصورة المتمِّمة.

مثال ذلك: قول الحكماء إن الجسم لا ينفك عن الحركة والسكون، والاجتماع والافتراق، وأن يكون مظلمًا أو مضيئًا، وأن يكون مشفًّا أو غير مشفٍّ، وأن يكون حارًّا أو باردًا، أو أن يكون رطبًا أو يابسًا، وأن يكون خفيفًا أو ثقيلًا، وأن يكون صلبًا أو رخوًا، وأن يكون خشنًا أو ليِّنًا، وأن يكون ذا طعم ولون ورائحة وما شاكلها من الصفات التي كلها أعراض داخلة في الجسم زائدة بعد كونه جسمًا متمِّمة له، فنحتاج أن نذكر ونَصِف هذه الأعراض والصفات واحدة واحدة.

فنقول: إن هذه الأعراض والصفات كلها صورة متمِّمة للجسم مبلغة إلى أفضل غاياته، وإن بعضها بالجسم أَوْلى من بعض، وذلك أن السكون أولى بالجسم من الحركة، والاجتماع أولى به من الافتراق، والظلمة أولى من النور، والمكان أولى من الزمان.

بيان ذلك أن الجسم بالسكون أولى من الحركة، هو أن الجسم ذو جهات ستة، ولا يمكنه أن يتحرَّك إلى جميع الجهات دفعة واحدة، وليست حركته إلى جهة أولى من جهة، فإذن السكون أولى به من الحركة.

فأما كون بعض الأجسام متحرك دائمًا مثل الأفلاك والنار، فهو أمر آخَر على كونه جسمًا.

وقد بيَّنَّا في رسالة الهَيُولَى أن الحركة هي صورة روحانية داخلة على الجسم متمِّمة له، وأما السكون فهو عدم تلك الصورة.

وأما الاجتماع والافتراق الذي يُقال إن الجسم لا ينفك من أحدهما، فليس ذلك من حيث هو جسم، ولكن من حيث تشخُّص بعض الأجسام.

وذلك أن جسم العالَم بأسْرِه لا يفترق بعضه عن بعض، ولا يجتمع مع غيره؛ لأنه ليس إلا عالَم واحد، وإنما الاجتماع والافتراق لأشخاص الحيوانات والنبات والمعادن ولبعض أجزاء الأمهات التي تحت فلك القمر.

فأما ما يقال في الكواكب إنها تجتمع أو تفترق، فليس لذلك حقيقة؛ لأن كل كوكب هو مُلازِم لفلكه أو درجته الذي هو فيها، وأن معنى اجتماعها هو أن يَصِير بعضُها موازيًا لبعض على خط واحد، وهو الخط الذي يخرج من أبصارنا إلى الفلك المحيط.

وأما ما يقال إن الجسم لا ينفكُّ من المكان، فليس ذلك إلا من أجل أن الكواكب والأفلاك لما كان بعضها محيطًا ببعض، قيل للمحيط إنه مكان للمحاط به، وقد بيَّنَّا اختلاف العلماء في ماهية الزمان والمكان في رسالة الهَيُولَى.

وأما ما قيل من أن الجسم لا ينفك من الزمان، فليس ذلك من حدِّ الجسم، ولكن من أجل الحركة، وذلك أن الزمان ليس شيئًا سوى حركة الفلك بالتكرار في دورانه، كما بيَّنَّا في رسالة الهَيُولَى.

فأما ما قيل إن الجسم لا ينفك من أن يكون مظلمًا أو نَيِّرًا، فليس هذه قسمة صحيحة ولكن يُقال إن بعض الأجسام مُظلِم، وبعضها نَيِّر وبعضها لا مضيء ولا مظلم، ولكن مشفٌّ، وذلك أن المظلم من الأجسام ما يكون له ظِلٌّ، والنَّيِّر الذي لا ظِلَّ له، والمشفُّ هو الذي يَقبَل الضوء تارةً والظلمة تارة.

ثم اعلم أنه ليس في العالَم من الأجسام ما له ظل غير الأرض والقمر حسب، ولكنَّ وجْه القمر صَقِيل يَرُدُّ النُّورَ ويَقبَلُه، ووجْه الأرض غير صقيل يعرف حقيقة ما قلنا أهل الصناعة الناظرون في علم الْمَجَسْطي.

وأما الأجسام النَّيِّرة فليس في العالَم إلا جنسان: الكواكب والنار التي عندنا.

وأما النار التي تحت فلك القمر التي تُسمَّى الأثير فليست بنَيِّرة؛ لأنها لو كانت نيرة لَمَنَعَتْ عنَّا ضوء الكواكب كما يمنع ضوء أحد سراجين عن أبصارنا ضوء الآخَر إذا كانا على خط واحد وأحدهما خلْف الآخَر.

وأما الأجسام المشفَّة فهي الأفلاك والنار والهواء والماء، وبعض الأجسام الأرضية مثل: البلور والياقوت والزجاج وما شاكل ذلك.

والجسم المشفُّ الذي ليس له لون طبيعي، واللون الطبيعي: هو ما كان ملازمًا للجسم كسواد العين وبياض الثلج وصفرة الزعفران وحمرة العصفر وخضرة النبات.

وأما اللون العَرَضي فهو كالزُّرْقة التي تُرَى في الجوِّ، وفي عمق الماء القعير، وقد جعل الله — عزَّ اسمُه — زرقة الجوِّ وخُضْرة النبات صلاحًا لأبصار الحيوان؛ لأن هذين اللونين مقوِّيان للأبصار، وكل الحيوان محتاج في دائم الأوقات بالنظر إلى الجو في مسالكه وإلى النبات في طلب معائشه.

وأما الحرارة في بعض الأجسام فهي من أجل غليان أجزاء الهَيُولَى وفورانها بالحركة الخفيفة.

وأما البرودة في بعضها فهي من أجل سكون تلك الأجزاء أو جمود ذلك الغليان.

وأما الرطوبة في بعض الأجسام فهي من أجل اختلاط الأجزاء المتحركة مع الأجزاء الساكنة.

وأما اليبوسة في بعضها فهي من أجل حركة تلك الأجزاء كلها أو سكونها كلها، ومن أجل هذا صارت النار حارَّة يابسة من أجْل أن أجزاء الهَيُولَى فيها كلها متحركة، وصارت الأرض باردة يابسة من أجل أن أجزاء الهَيُولَى كلها ساكنة، وصار الماء والهواء رطبين؛ لأن أجزاء الهَيُولَى فيهما بعضها متحرك وبعضها ساكن، ولكن الأجزاء الساكنة في الماء أكثر والأجزاء المتحركة في الهواء أكثر، فصار الهواء من أجل هذا حارًّا رطبًا وصار الماء باردًا رطبًا.

وأما الثقل والخِفَّة في بعض الأجسام فهو من أجل أن الأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص، ويكون واقفًا فيه لا يخرج إلا بقَسْر قاسر، وإذا خُلِّي رجع إلى مكانه الخاص به، فإن مَنَعَه مانع وقع التنازُع بينهما، فإن كان النزوع نحو مركز العالم يُسمَّى ثقلًا، وإن كان نحو المحيط يُسمَّى خفيفًا، وقد بينَّا في رسالة السماء والعالم كيفية ذلك.

وأما الصلابة في بعض الأجسام، فمن أجل غلبة البرد واليبس عليه، وقد بيَّنَّا ماهية البرد واليبس في رسالة الكون والفساد.

وأما الرخاوة في بعضها فمن أجل غلبة الأجزاء المائية على الأجزاء الأرضية، وأما الخُشونة في بعض الأجسام فمن أجل أن وضع الأجزاء الذي في ظاهر سطحه متفاوت، بعضها مرتفع وبعضها منخفض كالمبرد وما شابهه.

وأما كون بعضها أملس، فمن أجل وضع تلك الأجزاء في سطح واحد كوجه المرآة وما شاكله.

وإذ قد فرغنا من ذكر الأجسام وأعراضها المحسوسة الحالة فيها بقول وجيز، فلنذكر الآن آلات الحواس الخمس ومواضع مجاري القُوَى الحساسة فيها الروحانية.

(٢) فصل في ما هي الحواس الخمس؟ وما هي القوى الحساسة؟

فنقول أولًا: ما الحواس الخمس؟ وما القوى الحساسة؟ وما الحس؟ وما الإحساس؟ وما المحسوسات؟ جواب ذلك: فاعلم أن الحواس هي آلات جسدانية، وهي خمس: العين والأذن واللسان والأنف واليد، وذلك أن كل واحد منها عضو من الجسد.

وأما القوى الحساسة فهي قوى روحانية نفسانية يختص كل منها بعضو من أعضاء الجسد كما بيَّنَّا بعد هذا الفصل.

وأما المحسوسات فالأشياء الْمُدرَكة بالحواس، والْمُدركة بالحواس هي أعراض حالَّة في الأجسام الطبيعية مؤثِّرة في الحواس مُغيِّرة لكيفية مزاجها.

والحس هو تغيير مزاج الحواس عن مباشرة المحسوس لها، والإحساس هو شعور القُوَى الحساسة لتغييرات كيفية أمزجة الحواس.

بيان ذلك: أن القُوَى الباصرة مجراها في العينين، وهي مستبطنة الحدقتين في الرطوبة الجلدية، والقوة السامعة مجراها في الأذنين، وهي مستبطنة الصماخين مما يلي البطن المؤخَّر من الدماغ، والقوة الشامَّة مجراها في المنخرين، وهي مستبطنة الخياشيم مما يلي البطن المقدَّم من الدماغ والقوة الذائقة مجراها الفم، وهي مستبطنة في رطوبة اللسان، والقوة اللامسة مجراها في عامة سطح بدن الحيوان الرقيق الجلد، ولكنها في الإنسان أظهر، وخاصة في الأنملة كما قيل: الأنامل حاكمة البدن، وهي مستبطنة في الجلدين اللذين أحدهما ظاهر البدن والآخَر مما يلي.

واعلم أن المحسوسات كلها خمسة أجناس منها: المدركات بطريق اللمس وهي عشرة أنواع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والخشونة واللين والصلابة والرخاوة والخِفَّة والثقل.

والجنس الثاني: المدركات بطريق الذَّوْق التي هي الطعوم، وهي تسعة أنواع: الحلاوة، والمرارة، والملوحة، والدسومة، والحموضة، والحرافة، والعفوصة، والعذوبة، والقبوضة.

والجنس الثالث: هي الروائح المدركة بطريق الشم، وهي نوعان الطيب والنتن.

والجنس الرابع: هي الأصوات المدركة بطريق السمع وهي نوعان: حيوانية، وغير حيوانية وهذه نوعان: طبيعية وآلية، والحيوانية نوعان: منطقية وغير منطقية، والمنطقية نوعان: دالَّة وغير دالة.

والجنس الخامس: هي المبصَرات المدركات بطريق البصر وهي عشرة أنواع: الأنوار، والظلم، والألوان، والسطوح، والأجسام؛ نفسها، وأشكالها، وأوضاعها، وأبعادها، وحركاتها.

وإذ قد فرغنا من تعديد أجناس المحسوسات بقول وجيز، فلنذكر الآن كيفية إدراك القوى الحساسة لمحسوساتها واحدًا واحدًا، ونبتدئ أولًا بالقوة اللامسة ووصفها لأن إدراكها للمحسوسات كان إدراكًا جسمانيًّا، ثم نختم بوصف القوة الباصرة؛ لأن إدراكها لمحسوساتها كان إدراكًا روحانيًّا.

(٣) فصل في كيفية إدراك القوة اللامسة للحرارة والبرودة

أولًا: هو أن مزاج بدن الحيوان في دائم الأوقات يكون على قدر ما من الحرارات والبرودات، فإذا لاقاه جسم آخَر فلا يخلو أن يكون ذلك الجسم أشد حرارة من البدن وأشد برودة منه أو مساويًا له في ذلك، فإن كان أشد حرارة منه زاد سخونة ما عند ملاقاته إياه، وإن كان أبرد منه زاد برودة ما، فتحس القوة اللامسة بذلك التغيير والاستحالة فتؤدِّي خبرَها إلى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ، وإن كان ذلك مساويًا لمزاج البدن في الحرارة والبرودة جميعًا، فلا يغير منه شيئًا ولا يؤثر فيه، ولا تحس القوى بشيء، ولكن لا يخلو ذلك الجسم من أن يكون أخشن من البدن أو ألْيَن منه فتحس القوة بذلك التغيير والاستحالة، وإن كان مساويًا أيضًا في هاتين الصفتين فلا يؤثر فيه شيئًا ولا يقع الحس فيه، ولكن لا يخلو ذلك الجسم من أن يكون أشد صلابة من البدن وأشد رخاوة منه، فيؤثر فيه فتحس القوة بذلك التغيير، وقلَّ ما يوجد جسمان يكونان متساوِيَيْن في هذه الصفات الستة من الحرارة والبرودة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة.

وأما كيفية إدراك هذه القوة والصلابة والرخاوة فهو أن بدن الحيوان متى صدمه جسم آخَر فلا يخلو من أن يُقعِّر أحدُهما في الآخر، فإن وقع التقعير في ذلك الجسم مثل ما يغمر الإصبع في العجين، فتحس القوة بذلك اللين فتؤدي خبره إلى القوة المتخيلة، فإن وقع التقعير في البدن مثل ما يغمر الإصبع على الحديد فتحس القوة بالصلابة فتؤدي خبرَها إلى القوة المتخيلة.

وأما كيفية إدراك هذه القوة الخشنة والملاسة فهو كما قلنا: إن الأجزاء التي في ظاهر سطوح الأجسام إذا كان وضعها متفاوتًا بعضها مرتفع وبعضها منخفض يكون ذلك جسمًا خشنًا إذا كان صلبًا.

وإذا كان وضعها كلها في سطح واحد فإذا تلاقيا جسمان أملسان انطبق السطحان المتماسَّان أحدُهما على الآخَر بلا خلل بينهما، وإذا كانا غير أملسين أو أحدهما فلا ينطبقان؛ لأنه يَبقَى بينهما خلل.

وأما بدن الحيوان فإذا لاقاه جسم صلب ردَّت الأجزاء الناتئة منه بعض أجزاء البدن إلى داخله، فيصير سطح البدن خشنًا فتحس القوة بذلك التغيير، فتؤدي خبرَه إلى القوة المتخيلة، وإذا لاقاه جسم أملس ردَّ ما كان من أجزاء البدن ثانيًا إلى داخله فيصير سطح البدن أملس فتحس القوة بذلك التغيير.

فهذا الباب يختلف بحسب اختلاف مزاج أعضاء البدن وذلك أن الإنسان إذا وضع يده على ثوب فوجده لينًا ثم مسحه على خدِّه وجَدَه خشنًا؛ لأن خد الإنسان أبدًا ألْيَن لمسًا من يده في أكثر الأوقات.

وكذلك لو مسح يده على مسح، فوجده خشنًا ثم مسحه برجله لوجده لينًا؛ لأن الرجل أخشن من اليد.

وكذلك إذا دخل الإنسان الحمام وهو مقرور وجد البيت الأول حارًّا وإذا خرج من البيت الحارِّ وجدَه باردًا؛ لأن المزاج قد تغيَّر به، أفلا ترى أن وجدان القوة اللامسة محسوساتها بحسب اختلاف مزاج البدن من الحر والبرد والخشونة واللين والصلابة والرخاوة، وبحسب اختلاف أحوال المحسوس؛ لأن القوة مختلفة في ذاتها وجوهرها.

وأما كيفية إدراك هذه القوة: الرطوبة واليبوسة فهو أن البدن إذا لاقاه جسم يابس تنشف رطوبة البدن ونداوته، فتحس القوة بذلك التغيير، وإذا لاقاه جسم رطب زاده رطوبة ونداوة.

وأما كيفية إدراك هذه القوة للثقل والخِفَّة فهو عند الدفْع والجذْب والحَمْل تُحِسُّ بها، وقد يختلف الثقيل والخفيف بحسب قوة البدن، فإن من الحيوان ما يحمل مثل وزن بدنه أضعافًا كالنمل.

ومن الحيوان ما لا يقدر أن يحمل غير وزن بدنه، وقد بيَّنَّا في الرسالة التي ذكرنا فيها خواص الحيوانات الغرض والعلة في ذلك.

(٤) فصل في كيفية إدراك الذائقة لمحسوساتها

وأما كيفية إدراك الذائقة لمحسوساتها التي هي الطعوم حسب، وهي تسعة أنواع؛ أولها: الحلاوة الملائمة لمزاج اللسان، والثاني: المرارة المنافرة لمزاج اللسان، والثالث: الملوحة، والرابع: الدسومة، والخامس: الحموضة، والسادس: الحرافة، والسابع: العفوصة، والثامن: العذوبة، والتاسع: القبوضة.

فإدراكها هو أن تتصل رطوبة هذه الطعوم برطوبة اللسان، فتمتزجان فيعتبر مزاج اللسان بحسب ذلك الطعم إن كان حلوًا فحلوًا، وإن كان مرًّا فمرًّا، وإن كان حامضًا فحامضًا، وغيرها من الطعوم، فيحس بذلك، وليس الحس شيء أكثر من أن يصير مزاج الحاس مثل المحسوس بالكيفية حسب، والإحساس ليس شيئًا أكثر من شعور النفس بتغيير تلك الأمزجة.

وأما كيفية إدراك القوة الشامَّة لمحسوساتها التي هي الروائح وهي نوعان: طيب، ومنتن، فهو أن الأجسام ذوات الروائح يتحلَّل منها في دائم الأوقات بخارات لطيفة تمتزج مع الهواء مزاجًا روحانيًّا، ويصير الهواء مثلها في الكيفية إن كان طيبًا فطيبًا وإن منتنًا فمنتنًا.

فالحيوان الذي له رئة يستنشق الهواء دائمًا لترويح الحرارة الغريزية التي في القلب، فيدخل ذلك الهواء في منخريه ويبلغ إلى خياشيمه فيصير ذلك الهواء الذي هناك أيضًا مثلها في الكيفية، فتحس القوة الشامة بذلك التغيير، فتؤدِّي خبرَها إلى القوة المتخيلة، فإن كانت الرائحة طيبة استلذَّتْها الطبيعة، وإن كانت منتنة كرِهَتْها ونَفرَتْ منها.

وقد تختلف في مشامِّ الحيوانات الروائح في اللذَّة والكراهية اختلاف التضادُد.

وذلك أن من الحيوانات ما يستلذُّ رائحة السماد والجِيَف مثل الخنازير وبنات وردان والذباب وما شاكلها، ومنها ما يكره الرائحة الطيبة.

وذلك أن الخنفساء إذا دُفِنتْ في الورد غُشِيَ عليها حتى لا تتحرك، فإذا أراد المُرِيد أن تَعِيش رُدَّتْ إلى السماد فعاشتْ وتحرَّكت.

ومن الناس أيضًا مَن بهذا الوَصْف مثل السمَّادِين والكنَّاسِين، فإنه يُحكَى أن كناسًا جاز في سوق العطَّارين، فغُشِيَ عليه حتى ظنُّوا أنه قد مات، فمرَّ عليه طبيب فرآه وعَرَف حالَه وسبب غشيته، فأمر بإتيان رجيع يابس، فأمر بدقِّه وسعط فعطس من ساعته وأفاق.

ومن المرضى مَن هو أيضًا بهذا الوصف مثل ما يغلب الصفراء عليه، فإنه يتأذَّى برائحة المسك ويستلذُّ رائحة الطين، وهذا الاختلاف يكون بحسب مزاج الأبدان، وبحسب الخلط الغالب عليه.

وهذه الثلاث القوى التي تقدَّم وصفُها تُدرِك محسوساتِها إدراكًا جسمانيًّا بالمماسة.

وأما القوة السامعة والقوة الباصرة، فإنهما يدركان محسوساتهما إدراكًا روحانيًّا قطعًا.

(٥) فصل في إدراك القوة السامعة

أما إدراك القوة السامعة لمحسوساتها التي هي الأصوات، فاعلم أن الأصوات نوعان: حيوانية وغير حيوانية، وهي نوعان: طبيعية وآلية، فالطبيعية الحَجَر والحَدِيد والخشب والرَّعد والرِّيح وسائر الأجسام التي لا روح فيها من الجامدات، والآلية كصوت الطَّبْل والبُوق والزَّمْر والأوتار وما شاكلها، وهو هواء يتقلَّب بين جسمين متصادِمَيْن بعُنْف، فيصكُّ الهواء الراكد في آلة السمع، وتحته أنواع كثيرة.

والحيوانية نوعان: منطقية وغير منطقية، فغير المنطقية هي أصوات سائر الحيوانات الغير الناطقة، والمنطقية هي أصوات الناس وهي نوعان: دالة وغير دالة، فغير الدالة: كالضحك والبكاء، وبالجملة كل صوت لا هجاء له، والدالة هي كالكلام والأقاويل التي لها هجاء، وهي تقطيع الصياح بانضمام أجزاء الفم، فتحدث منه حروف كما تضم الشفتين بنوع ما فتحدث الباء، وتضم بنوع آخَر فتحدث الميم، وكل هذه الأصوات إنما هي قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام، وذلك أن الهواء لشدة لطافته وخِفَّة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها، فإذا صادم جسم جسمًا انسلَّ ذلك الهواء من بينهما بحمية وتدافع، وتموج إلى جميع الجهات، فحدث من حركته شكل كروي، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها، أو الماء الساكن إذا أُلقي فيه

حجر فيتزاحم الماء حتى يبلغ إلى أطراف الغدير، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل، فمَن كان حاضرًا من الناس وسائر الحيوانات التي لها أذن بالقرب من ذلك المكان تموج ذلك الهواء الذي هناك، فحسَّتْ عند ذلك القوة السامعة بتلك الحركة والتغيير.

واعلم أن كل صوت له نغمة وصيغة وهيئة روحانية خلاف صوت الآخر، وأن الهواء من شرف جوهره ولطافة عنصره يحمل كل الصوت بهيئة وصيغة، ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض فتفسد هيئاتها إلى أن يبلغها مدى غاياتها عند القوة السامعة، لتؤدِّيَها إلى القوة المتخيلة، ذلك تقدير العزيز العليم الذي جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون.

(٦) فصل في إدراك القوة الباصرة

أما كيفية إدراك القوة الباصرة لمحسوساتها التي هي عشرة أنواع: أولها الأنوار والظلمة والألوان والسطوح والأجسام أنفسها وأشكالها وأبعادها وحركاتها وسكونها وأوضاعها، فالْمُدرَك من هذه الأنواع بالحقيقة والذات النور والظلمة حسب، إلا أن الظلمة شيء يُرَى ولا يُرَى بها شيء آخَر، والنور هو الذي يُرى ويُرى به شيء آخَر.

أولها الألوان: ولما كانت الألوان لا توجد إلا في سطوح الأجسام صارت السطوح مرئية بها، ولما كانت السطوح أيضًا لا توجد إلا في الأجسام صارت مرئية بتوسط سطوحها، ولما كانت الأجسام أيضًا لا تخلو من الأشكال والأوضاع والأبعاد والحركات صارت هذه كلها مرتبة بالعَرَض لا بالذات.

ثم اعلم أن النور والظلمة لونان روحانيان، وأن السواد والبياض لونان جسمانيان، وأن النور مُشاكِل للبياض، وأن الظلمة مشاكلة للسواد، وذلك أن البياض يلوح على سائر الألوان كما أن في النور تُرَى سائر المرئيات، وعلى السواد لا تتبين الألوان، وفي الظلمة لا يُرى شيء.

ثم اعلم أن النور والظلمة يسريان في الأجسام المشفَّة كسَرَيَان الرُّوح في الجسد، وينسلَّان منها بلا زمان، ولكن الضوء إذا سَرَى في الأجسام المشفَّة حَمَل معه ألوان الأجسام وأوصافَها التي تقدَّم ذكرُها حملًا روحانيًّا، وحفظها بهيئاتها حتى لا يختلط بعضها ببعض فيفسد هيئاتها، كما حمل الهواء الأصوات بهيئاتها كما وصفنا قبل، حتى

يبلغها إلى أقصى مدى غاياتها عند القوة الباصرة المستبطنة في الرطوبة الجليدية التي في الحدقتين.

ثم اعلم أن الحدقتين هما من أحد الأجسام المشفَّة، وهما مرآتا الجسد، وذلك أنهما رطوبتان مغطاتان بغشائين شفافين، وهما غشاء القرنية ويَعرِف هذا الأصل مَن كان خبيرًا بصناعة الطب، فإذا سَرَى الضوءُ في الأجسام المشفَّة وحمل معه ألوان الأجسام الحاضرة واتصل بحدقتي الحيوان الحاضرة هناك، وسرى فيهما كسريانه في سائر الأجسام المشفة انطبعت الجليدية بتلك الألوان كما ينطبع الهواء بالضياء، فعند ذلك تحس القوة الباصرة بذلك التغيير، فتؤدِّي خبرَه إلى القوة المتخيلة، كما تؤدِّي سائر القوى الحساسة أخبار محسوساتها، ومَن يتعجَّب مِن وصْفِنا كيفية حمل الألوان أشكال الأجسام حملًا روحانيًّا، وكيفية حمل الهواء الأصوات أيضًا مثل ذلك، فلا ينبغي أن يُنكِرها من أجْل أنه لا يتصوَّرها، فإن حمل القوى الحساسة صور المحسوسات أعجب وأشد روحانية، وقد بيَّنَّا ذلك في رسالة العقل والمعقول وكيفيتها.

وقد ظن كثير من أهل العلم أن إدراك البصر المبصَرات إنما يكون بشعاعين يخرجان من العينين وينفذان في الهواء وفي الأجسام المشفَّة ويُدرِكان هذه المبصرات، وهذا ظن مَن لا رياضة له بالأمور الروحانية ولا بالأمور الطبيعية، ولو ارتاض فيها لَبَانَ له صحة ما قلنا ووصفنا.

فصل في أن القوة الحساسة ليست هي من أجزاء النفس

ثم اعلم أن هذه القوة الحساسة ليست هي من أجزاء النفس كما أن الحواس كل واحد منها عضو من الجسد وجزء منه، ولكن كل واحد منها هي النفس بعينها، وإنما وقعت عليها هذه الأسماء المختلفة من أجل اختلاف أفعالها، وذلك أنها إذا فعلتِ الإبصارَ سُمِّيَتِ الباصرة، وإذا فعلتِ الإسماعَ سُمِّيَتِ السامعة، وإذا فعلتِ الذَّوْق سُمِّيَتِ الذائقة.

وهكذا إذا فعلت في الجسم النموَّ سُميت النامية، وإذا فعلتْ في الجسم الحِسَّ والحَرَكَةَ سُميت حيوانية، وإذا فعلتِ الفِكْرَ والتمييز سُميت ناطقة.

وعلى هذا القياس سائر الأسماء التي يقع عليها بحسب اختلاف أفعالها، واختلاف أفعالها بحسب اختلاف أعضاء الجسد، كما أن اختلاف أفعال الصُّنَّاع يكون بحسب اختلاف أدواتهم، فإن النَّجَّار يَنحَت بالفأس وينشر بالمنشار، وكذلك الحَدَّاد يطرق

بالمطرقة ويبرد بالمبرد، وعلى هذا المثال سائر الصناع؛ تَختَلِف أفعالُهم في صنائعهم بحسب اختلاف أدواتهم.

فهكذا تختلف أفعال النفس في الجسد بحسب اختلاف أعضائه؛ لأن أعضاء الجسد للنفس بمنزلة أدوات الصانع.

(٧) فصل في كيفية وصول آثار المحسوسات إلى القوة المتخيِّلة التي مجراها مقدَّم الدماغ حسب ما تبيَّن ها هنا

فنقول: إنه ينتشر من مقدَّم الدماغ عصبات لطيفة ليِّنة تتصل بأصول الحواس، وتتفرَّق هناك وتنسج في أجزاء جرم الدماغ كنسج العنكبوت، فإذا باشَرَتْ كيفية المحسوسات من أجزاء الحواس وتغيَّر مزاج الحواس عندها وغيرتها عن كيفياتها وصل ذلك التغيير في تلك الأعصاب التي في مقدَّم الدماغ، والتي منشؤها من هناك كلها، فتجتمع آثار المحسوسات كلها عند القوة المتخيِّلة، كما تجتمع رسائل أصحاب الأخبار عند صاحب الخريطة، فيُوصل تلك الرسائل كلَّها إلى حضرة المَلِك، ثم إن الملك يَقرَؤها ويَفهَم معانيَها ثم يُسلِّمها إلى خازِنِه ليحفَظَها فيحفَظُها إلى وقت الحاجة إليها.

فهكذا حكم القوة المتخيِّلة إذا اجتمعتْ عندها آثار هذه المحسوسات التي أدَّتْ إليها القوة الحساسة، دفعتْها إلى القوة المفكِّرة التي مسكنها وسط الدماغ لتنظر فيها وترى في معانيها وتعرف حقائقها ومضارَّها ومنافعَها ثم تؤدِّيها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت التذكار.

(٨) فصل في بيان المحسوسات بعضها بالذات وبعضها بالعرض

فنقول: اعلم أن الإنسان إذا رأى ثمرة من بعيد يعلم مِن وقته أنها حلوة أو مرة، أو طيبة الرائحة أو منتنة، أو أنها خشنة أو لينة، أو صلبة أو رخوة، أو حارَّة أو باردة، أو رطبة أو يابسة، وليس عِلْمه بهذه الصفات كلها بطريق البصر، ولكن بالقوة المفكِّرة وبرؤيتها وتجاربها وما جَرَتْ لها به العادة.

وكذلك إذا أخطأ في حكم شيء من هذه فليس الخطأ من قِبَل الباصرة، ولكن من قِبَل المفكِّرة إذا حَكَمَتْ من غير رَوِيَّة ولا اعتبار.

مثال ذلك: إذا رأى إنسان السَّرَاب فظن أنه الماء فليستِ الباصرة هي المخطئة، ولكن المفكِّرة حَكَمَتْ بأن ذلك المتلوِّن يناله اللمس والذَّوْق وهو جسم سيَّال رطب، فلما جاءه

لم يَجِدْه بهذا الوصف، فبَانَ خطَؤُها، فسبيل المفكِّرة إذا أدَّت إليها المتخيِّلة أثَرَ حاسَّة واحدة ألَّا تحكم أو تستخبر حاسَّة أخرى، فإنْ شهدَتْ لها حَكَمَتْ عند ذلك بأنها كيت وكيت.

مثال ذلك: إذا رأتِ الباصرة تفاحة معمولة من الكافور مصبوغة كلون التفاح فأوردتْ خبرَها إلى المتخيِّلة فأوردتْها هي إلى المفكِّرة، فليس سبيلها أن تحكم أن طعمها ورائحتها وملمسها مثل التفاحة التي هي الثمرة أو تستخبر قوة الذائقة والشامَّة واللامسة.

فإذا أَخبَرَتْ كل واحدة منها بما لها أن تُخبِر به حكمتْ عند ذلك المفكِّرة بأنها كيت وكيت، حتى يكون حكمها صوابًا لا خطأ فيه.

ثم اعلم أن من أجل هذه العلة منعت القوة الناطقة بأن تعبِّر على أَلْسِنَة الأطفال حكم شيء من معاني المحسوسات؛ لأن المفكِّرة بعدُ لم تُحكِم معانيها ولم تُميِّزها تمييزًا صحيحًا، فإذا مَضَتْ سِنُون التربية ودفع القمر التدبير إلى عُطَارد صاحب المنطق والتمييز أطلق لسان المولود بالعبارة والبيان عن معاني المحسوسات التي أدَّتِ الحاسة إلى المفكرة.

(٩) فصل في ماهية اللَّذَّة والأَلَم والتَّعَب والراحة وكيفية إدراك الحواس

فنقول: اعلم أن الحيوانات في دائم الأوقات لا تخلو من اللذة والألم والتعب والراحة؛ لأن أبدان الحيوانات مركبة من مزاج الأمهات الأربعة، وهي الأخلاط الأربعة وهي متضادات الطباع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وهي كلها في التغيير والاستحالة بين الزيادة والنقصان، وهما يُخرِجان المزاج تارةً من الاعتدال إلى الزيادة في أحَدِ الأخلاط والطِّبَاع، أو إلى النقصان في واحد منها، واللذة هي رجوع المزاج إلى الاعتدال بعدما كانت خارجة عنه.

فمِن أجل هذا لا يحس الحيوان باللذة إلا بعدما يتقدَّمَها أَلَمٌ.

واعلم أن كل محسوس يُخرِج المزاج من الاعتدال فإن الحاسة تَكرَهُه وتتألَّم منه، وكل محسوس يَرُدُّ المزاجَ إلى الاعتدال فإن الحاسة تُحِبُّه وتَلْتَذُّ به.

ثم اعلم أن الراحة هي الثبات على الصحة والاعتدال، وأن التعب هو التردُّد بينَ الأَلَم واللذة.

ثم اعلم أن مَن نَظَر في هذه الرسالة وتفكَّر فيما وصَفْنا من كيفية أحوال هذه الحواس والمحسوسات تبيَّن له بأن المحسوسات كلها أعراض جسمانية، وهي صور في الهَيُولَى، وأن إدراك النفس لها بقواها الخمس الحساسة بطريق الحواس، وأن الحواس هي آلات جسدانية، وأن الحس إنما هو تغيير مزاج تلك الحواس عن مباشرة المحسوسات لها، وأن الإحساس إنما هو شعور القُوَى الحساسة بتغييرات تلك الأمزجة.

(١٠) فصل في ذكر القوى الخمس الروحانية

فنقول: اعلم — وفَّقك الله — أن للنفس الإنسانية خمس قُوًى أُخَر روحانية، سيرتها غير سيرة الخمس الحساسة الجسمانية، وهي: القوة المتخيِّلة والمفكِّرة والحافظة والناطقة والصانعة، وذلك بإدراكها رسوم المعلومات إدراكًا روحانيًّا من غير هيولاها.

فأما الحسَّاسة فلا تُدرِك محسوساتها إلا في الهَيُولَى كما بيَّنَّا قبلُ.

وأيضًا فإن هذه القوى الروحانية تتناول رسوم المعلومات بعضها من بعض على غير سيرة الحساسة، وذلك أن القوى الحساسة كل واحدة منها مختصة بإدراك جنس من المحسوسات، كما بيَّنَّا، وذلك أن الباصرة لا تُدرِك الأصواتَ ولا الطعومَ ولا الروائح ولا الملموساتِ إلا الألوانَ.

وكذلك السامعة لا تدرك الألوان ولا الطعوم ولا الروائح ولا الملموسات ولا الأصوات، وهكذا الشامَّة والذائقة واللامسة كل واحدة لا تشارك غيرها في محسوساتها.

وأما القوى الخمس الروحانية فإنها كالمتعاونات في إدراكها رسوم المعلومات، وذلك أن القوة المتخيِّلة إذا تناولت رسوم المحسوسات كلها، وقَبِلَتْها في ذاتها كما يَقبَل الشمع نقش الفص، فإن من شأنها أن تُناوِلها كلها إلى القوة المفكِّرة من ساعتها، فإذا غابتِ المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بَقِيَتْ تلك الرسوم مصوَّرة صورة روحانية في ذاتها كما يَبقَى نقش الفص في الشمع المختوم مصورًا بصور روحانية مجردة عن هيولاها، فيكون عند ذلك لها كالهَيُولَى وهي فيها كالصورة.

ثم إن من شأن القوة المفكِّرة أن تنظر إلى ذاتها وتراها مُعايَنة وتتروَّى فيها وتميِّزها، وتبحث عن خواصِّها ومنافعها ومضارِّها، ثم تؤدِّيها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت التذكار.

ثم إن من شأن القوة الناطقة التي مجراها على اللسان إذا أرادت الإخبار عنها والإنباء عن معانيها والجواب للسائلين عن معلوماتها أَلْقَت لها ألفاظًا من حروف المعجم، وجعلتْها كالسِّمات لتِلْك المعاني التي في ذاتها وعبَّرتْ عنها للقُوَّة السامعة من الحاضرين.

ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظَّها، ثم تضمحل، احتالتِ الحكمة الإلهية بأن قيَّدت معاني تلك الألفاظ بصناعة الكتابة.

ثم إن من شأن القوة الصانعة أن تصوغ لها من الخطوط الأشكال بالأقلام وتُودِعها وجوه الألواح وبطون الطوامير ليَبقَى العِلْم مفيدًا فائدة من الماضين للغابرين وأثرًا من الأوَّلين للآخِرين وخطابًا من الحاضرين للغائبين، وهذه من جسيم نِعَم الله — عزَّ وجلَّ — على الإنسان كما ذكر — جلَّ ثناؤه — فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

(١١) فصل في العلة التي من أجلها صار علم الإنسان بالمعلومات من ثلاثة طرق

فنقول إنه لما كان الإنسان من جملة مجموعة بدن جسماني ونفس روحانية صار بنفسه الروحانية يُدرِك العلم، كما أنه بجسده الجسماني يعمل الصانع.

ولما كانت النفس في الرتبة الوسطى من الموجودات كما بيَّنَّا في رسالة المبادئ؛ وذلك أن من الأشياء ما هو أعلى وأشرف من جوهر النفس كالباري — تعالى — والعقل والصور المجردة من الهَيُولَى الذين هم ملائكة الله المقرَّبون.

ومنها ما هو أدْوَن من جوهر النفس كالهَيُولَى والطبيعة والأجسام أجمع، فصارت معرفة النفس بالأشياء التي دونها في الشرف بطريق الحواس التي هي المباشرة والمتماسة والمخالطة والإحاطة.

وأما ما كان أشرف منها وأعلى فصارت معرفتها لها بطريق البرهان الذي يضطر العقول إلى الإقرار به من غير إحاطة ولا مباشرة، وصارت معرفتها بذاتها وجوهرها بطريق العقل؛ لأن نسبة العقل إلى النفس كنسبة الضوء من البصر وكنسبة المرآة إلى الناظر فيها، فكما أن البصر لا يَرَى شيئًا من الأشياء إلا بالضوء كالإنسان لا يَرَى وجهَه إلا بالمرآة والنظر فيها، كذلك النفس لا تنظر ذاتها إلا بنور العقل ولا تعرف حقائق الموجودات إلا بالنظر إلى العقل.

وإنما يتسنَّى للنفس النظر إلى العقل بعين البصيرة إذا هي انفتحت، وإنما تنفتح لها عين البصيرة، إذا هي انتبهت من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ونظرت بعين الرأس إلى هذه المحسوسات، وفكَّرت في معانيها واعتبرت أحوالَها حتى تعرفها حق معرفتها.

فمن أجل هذا قدَّمنا رسالة الحاس والمحسوس على رسالة العقل والمعقول، فاعتَبِرْ يا أخي هذه الأمور التي وصفنا، وتفكَّرْ في معانيها وحقائقها تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وتنفتح عين البصيرة فتُعاين في ذاتها صور الأشياء، وتبين في جوهرها معاني الموجودات؛ لأنها معادن العلوم كلها ومأوى الحكمة، كما قال الحكيم الفاضل: إن العلوم كلها في النفس بالقوة، فإذا فكرت في ذاتها وعرفتها صارت العلوم كلها فيها بالفعل.

(تمَّتْ رسالة الحاس والمحسوس، ويتلوها رسالة مسقط النطفة، والحمد لله على جزيل عطائه، وصلواته على خير أنبيائه محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين والعترة الطاهرة من أبنائه وسلَّم تسليمًا.)

الرسالة الحادية عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات في مسقط النطفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكَفى، وسَلامٌ على عِباده الذين اصطفى، آلله خيرٌ أمَّا يُشرِكون.

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الحكمة الإلهية دبرت والعناية الربانية قدَّرت مكْث كل واحد وكل حادث في الكون زمانًا معلومًا، وهو مقدار ما تفيض الأشكال الفلكية قواها كل واحدة بحسب قبول أشخاص ذلك النوع من الكائنات التي تحت فلك القمر لا يعلم تفصيلها إلا الله — عزَّ وجلَّ، ولكن نذكر منها طرفًا ليكون دليلًا على الباقي.

من ذلك مكث الإنسان في الرحم من يوم مسقط النطفة إلى يوم خروج الجنين يوم الولادة ثمانية أشهر ٢٤٠ يومًا الذي هو المكث الطبيعي، وأما الذي يزيد على هذا المقدار وينقص عنه، فلعللٍ وأسباب يطول شرحها، ونريد أن نذكر تأثيرات الكواكب السبعة في النطفة وفي الجنين واحدًا واحدًا وشهرًا شهرًا ليكون قياسًا على سائر المواليد من الحيوانات والحوادث والكائنات، وقبل ذلك نحتاج أن نذكر أحوال الكواكب السبعة ذكرًا مجملًا، إذ كانت هي العلل الموجبة لاختلاف أحوال الكائنات.

واعلم يا أخي بأن كل كوكب فله في فلكه، أعني فلك تدويره، أربعة أحوال، ومن الشمس أربعة أحوال، ولفلك تدويره في فلك الحامل أربعة أحوال، وفي فلك البروج أربعة أحوال، فتلك ستة عشر حالًا جنسية، فإذا ضُربت في مِثْلِها كانت مائتين وستة وخمسين حالًا نوعية، فإذا ضربت ذلك في ثلاثمائة وستين درجة كانت اثنين وتسعين ألفًا ومائة وستين حالًا شخصية.

فأما تفصيل أحوال الكواكب في أفلاك تداويرها فهي أن تكون صاعدة إلى ذرواتها أو هابطة من هناك أو راجعة أو مستقيمة، وأما أحوالها من الشمس فهي أن تكون مقارنة لها أو مقابلة لها أو مشرقة منها أو مغربة.

وأما أحوال أفلاك التداوير في الأفلاك الحاملة فهي أن تكون مراكزها في الأوج أو في الحضيض أو صاعدة من الحضيض إلى الأوج أو هابطة من الأوج إلى الحضيض.

وأما فلك البروج فهي أن تكون ذاهبة من الهبوط إلى الشرف أو من الشرف إلى الهبوط أو تكون في البروج الشمالية أو الجنوبية أو في المعوجة أو في المستقيمة أو يكون عرضها وميلها في الجنوب أو في الشمال أو يكون عرضها في الجنوب وميلها في الشمال أو عكس ذلك، وكل هذه الأحوال تختلف تأثيراتها في الكائنات بحسب الأزمان والأماكن والأجناس والأنواع اختلافًا كثيرًا لا يُحصِي عددَه إلا الله — عزَّ وجلَّ — ولكن نذكر طرفًا منه.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن جميع الكائنات التي تحت فلك القمر ثلاثة أجناس، وهي الحيوانات والنبات والمعادن، وهي الأصول المحفوظة في الهَيُولَى صورتها.

وأما الأنواع فهي أقسامها المتفرِّعة منها، وأما الأشخاص فهي أعيانها التي هي دائمة في الكون والفساد والسيلان، وأما هيولاها فهي الأركان الأربعة التي هي: النار والهواء والماء والأرض، وأما الصانع الفاعل لها فهي النفس الكلية الفلكية السارية في محيط الأفلاك بإذن خالِقها وباريها ومصوِّرها، وأما الكواكب فهي كالأدوات للصانع، ذلك تقدير العزيز العليم.

(٢) فصل في كيفية اعتبار أفعال الطبيعة في الأركان الأربعة وتأثيرات النفوس وفي المولدات الكائنات تحت فلك القمر

اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأنك إذا دخلت أسواق المُدُن ونظرتَ بعينَيْ رأسك إلى الصناع البشريين ورأيتَهم كيف يعملون صنائعهم في الهَيُولَى الموضوعة لهم كما بيَّنَّا في رسالة الصنائع العملية، فينبغي أن تنظر عند ذلك إلى القوى الطبيعية التي هي نفوس جزئية منبثَّة من النفس الكلية الفلكية السارية في الأركان التي هي لها كالهَيُولَى الموضوعة، وإلى أشخاص الحيوان والنبات والمعادن التي هي مصنوعاتها، وإلى الكواكب التي هي كالأدوات لها، فلعلك تُبصِر بنور عقلك وترى بصفاء جوهر نفسك القوى الروحانية السارية في هذه الأجسام، وتُعايِن كيفية أفعالها فيها وبها ومنها فتعرف عند ذلك نفسك؛ لأنها واحدة منها.

واعلم بأن مثل الأركان الأربعة التي هي الأمهات في جوف الفلك كاللَّبَن في الوعاء وحركات الكواكب من محيط الأفلاك كالمخض به، والكائنات عنها كالزبدة المجتمعة من لطائفها.

ثم اعلم أنه إذا تمخَّضت الأركان من تحريك الأشخاص الفلكية لها، واجتمع من لطائف زبدتها شيء وشَخَص وامتَازَ عن البسائط ربطت به في الوقت والساعة قوة من قوى النفس الكلية الفلكية في أي مكان كان ذلك الشيء من البر والبحر والهواء والنار في أي وقت كان من الزمان وتشخص تلك القوة وتمتاز عن سائر القوى لتعلُّقها بتلك الزبدة واختصاصها بتلك الجملة، فعند ذلك تُسمى تلك القوة نفسًا جزئية، وعند ذلك تقع الإشارة إلى تلك الجملة؛ لأنها حادث كائن حيوانًا كان أو نباتًا أو معدنًا.

واعلم يا أخي أنه لا بد من أن يكون ذلك الوقت وتلك الساعة درجة طالعة من أفق المشرق من الفلك على أفق تلك البقعة التي حدثت تلك الزبدة هناك، ويكون شكل الفلك ومواضع الكواكب على هيئة ما يصور من أصحاب الأحكام في زائجات المواليد والتحاويل والمسائل، فعند ذلك يُضاف إلى تلك القوة قوى روحيات سائر الكواكب، وتجذب معها تلك الزبدة المواد المشاكِلة لها، ويكون قبولها بحسب ما في طباع أشخاص أنواع ذلك الجنس من الأفعال والأخلاق والخواص حيوانًا كان أو نباتًا أو معدنًا.

أمثال ذلك: أنه إذا جرت نطفة الإنسان التي هي زبدة دم الرجال واجتمعت في الإحليل عند حركة الجماع بعدما كانت منبثَّة في أجزاء الدم متفرقة في خلل البدن وخرجت من الإحليل وانصبَّتْ في الرحم واستقرَّت هناك ربطت بها في الوقت والساعة قوى من

قوى النفس النباتية السارية في جميع الأجسام النامية التي هي أيضًا قوًى من قوى النفس الطبيعية السارية في جميع الأركان الأربعة والتي هي أيضًا قوة منبثة من النفس الكلية الفلكية السارية في جميع الأجسام الموجودة في العالم، كما بيَّنَّا في رسالة معنى قول الحكماء: إن الإنسان عالَم صغير والعالَم إنسان كبير.

فصل في أن للنفس النباتية سبع قوًى

ثم اعلم يا أخي أن للنفس النباتية سبع قوًى فعالة وهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصوِّرة، وأن أول فعلها عند استقرار النطفة في الرحم هو جذبها دم الطمث إلى الرحم وإمساكها لها هناك وهضمها.

ثم اعلم يا أخي بأنه إذا جذبت هذه القوة الدم إلى هناك أخفته حول النطفة وأدارته عليها كما يدور بياض البيض حول محِّها، فيكون عند ذلك حول النطفة كالمحة ودم الطمث حولها كالبياض، ثم إن حرارة النطفة تسخن رطوبة الدم فتنضجها، فتسخن وتنعقد تلك الرطوبة، فتصير علقة كما ينعقد اللبن الحليب من الأنفحة، وتستولي عند ذلك على تلك الجملة قوى روحانيات زُحَل، وتَبقَى في تدبيراتها بمشاركة قوى روحانيات سائر الكواكب شهرًا واحدًا ثلاثين يومًا سبعمائة وعشرين ساعة كما ذكر ذلك في كتب أحكام النجوم بشرح طويل، ونريد أن نذكر من ذلك طرفًا ليكون دستورًا لما أن نتكلم فيما بعد.

واعلم يا أخي بأن ابتداء تدبير النطفة إنما صار لزُحَل من أجل أنه أعلى الكواكب السيارة فلكًا مما يلي فلك الكواكب الذي هو مكان الجواهر الشريفة ومنصبُّ القوى الروحانية ومعدن النفس القدسية ومستقر الأرواح الخَيِّرة ومبدأ القوى العقلية والملائكة العلامة المفكِّرة والأجرام النيِّرة الشفَّافة، ومن هناك تنزل الملائكة بالوحي والتأييد والأنباء والخير والبركات، وإلى هناك يُصعَد بالأعمال الصالحة وإليه يُعرَج بأرواح المؤمنين وأنفس الأخيار من عباده الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، كما بيَّنَّا في رسالة البعث والقيامة.

فانتبه يا أخي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، واستعدَّ للرحلة من هذه الدار، وتزوَّد فإن خير الزاد التقوى، فلعل نفسك توفَّق إلى الصعود إلى هناك فتُجازَى بأحسن الجزاء؛ لأن مِن هناك وُرُودها إلى هذا العالم وإلى هناك يكون مرجعها ومستقرُّها، كما بيَّنَّا في رسالة الأدوار والأكوان.

ثم اعلم يا أخي بأنه ما دام التدبير لزحل إلى تمام شهر ثلاثين يومًا، فإن تلك العلقة تكون باقية بحالها غير مختلطة ولا ممتزجة، بل جامدة متمسكة جارية إليها المواد لغلبة برد زحل وسكونه وثقل طبيعته إلى أن يدخل الشهر الثاني ويصير التدبير للمشتري الذي فلكه يتلو فلك زحل، وتستولي عليها قوى روحانيته، فيولد عند ذلك في تلك العلقة حرارة، وتسخن ويعتدل مزاجها، ويختلط الماءان ويمتزج الخلطان ويعرض لتلك الجملة حركة مثل الاختلاج والارتعاش والهضم والنضج، فلا تزال هذا حالها ما دامت في تدبير المُشتَرِي إلى تمام شهرين، ثم يدخل الشهر الثالث ويَصير التدبير للمِرِّيخ الذي يلي المُشتَرِي في الفلك، وتستولي على تلك العلقة قوى روحانيته ويشتد اختلاجها وارتعاشها ويتولد فيها فضل حرارة وسخونة وتصير تلك العلقة مضغة حمراء، فلا تزال تتقلب حالًا بعد حال من النضج والاستحكام بمشاركة قوى روحانيات سائر الكواكب للمِرِّيخ إلى تمام ثلاثة أشهر، ثم يدخل الشهر الرابع ويصير التدبير للشمس رئيسة الكواكب وملكة الفلك وقلب العالم بإذن الباري — جلَّ ثناؤه.

(٣) فصل في كيفية حال الجنين في الشهر الرابع

واعلم يا أخي بأنه إذا دخل الشهر الرابع من مسقط النطفة وصار التدبير للشمس، واستولت على المضغة قوى روحانياتها نفخت فيها روح الحياة وسرت فيها النفس الحيوانية؛ وذلك لأن الشمس هي رئيسة الكواكب في الفلك ونفسها هي روح العالم بأسره وهي المستولية على الكائنات التي دون فلك القمر وخاصة على مواليد الحيوانات ذوي الرحم وأشد اختصاصًا بمواليد الإنس، وذلك أن جرمها في العالم بمنزلة جرم القلب في البدن وسائر أجرام الكواكب والأفلاك بمنزلة أعضاء البدن ومفاصل الجسد، وسريان قوى روحانياتها في العالم كسريان الحرارة الغريزة المنبثَّة من القلب السارية في أعضاء البدن.

وأما سائر قوى روحانيات الكواكب فهي لها كالجنود والأعوان والخدم، كل ذلك بإذن الباري — جلَّ ثناؤه — وذلك تقدير العزيز العليم فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم اعلم يا أخي أنها بمسيرها في حدود الكواكب في البروج وشدة إشراق نورها وسريان قوى روحانياتها تحطُّ من الفلك إلى عالَم الكون والفساد الذي تحت فلك القمر من قوى روحانيات الكواكب والأفلاك والبروج في كل يوم ساعة في درجة ودقيقة ألوانًا من التدبير والتأثير غير ما في يوم آخَر وساعة أخرى لا يبلغ فهم البشر كنه معرفته،

ولكن نذكر من ذلك طرفًا ليكون قياسًا على ما قلناه ودليلًا على ما أوضحناه ووصفناه، وذلك أنه إذا سقطت نطفة في الرحم، فلا بد أن تكون الشمس في درجة من برج من الأبراج فإذا بلغت بمسيرها أربعة أشهر من مسقط النطفة إلى آخر البرج الرابع، وقد قطعت من الفلك ثلث الدور، وهو من المسافة بمقدار ما بين شرفها إلى بيتها تكون قد استوفت طبائع البروج النارية والترابية والهوائية والمائية.

وعند ذلك تكون قد اختلطت الطبائع من الأركان الأربعة في تركيب بنية الجنين، واعتدل المزاج، وانتقشت الصورة، وأنشئت الخلقة، وظهرت أشكال العظام، وركبت المفاصل، وتهندم التركيب، والتفَّتِ الأعصاب على المفاصل، وامتدَّت العروق في خلل اللحم، وظهرت البنية مخلَّقة وغير مخلَّقة.

(٤) فصل في كيفية الجنين في الشهر الخامس

اعلم يا أخي بأنه إذا دخل الشهر الخامس وسارت الشمس إلى البرج الخامس المسمَّى بيت الولد الموافق طبيعته للبرج الذي كان فيه يوم مسقط النطفة، وصار التدبير للزهرة الساعد الأصغر وصاحبة النقش والتصاوير، واستولى على المخلَّقة قوى روحانياتها استتمت الخِلْقة، واستكملت البنية، وظهرت صورة الأعضاء، واستبان رسم العينين، وانشق المنخران، وانفتح الفم وثقب الأذنين ومجرى السبيلين، وتميزت المفاصل، ولكن الجنين يكون مجموعًا منضمًّا منقبضًا كأنه مصرور في صرة ركبتاه مجموعتان إلى صدره ومرفقاه منضمَّان إلى حقويه، وهو منكس رأسه على ذقنه وعلى ركبتيه، وكفَّاه على خدَّيْه، وهو شبه نائم محزون.

فلو رأيتَه يا أخي لرحمتَه لضِيق مكانِه وضعف أحواله، ولكنه لا يحس بما هو فيه رفقًا من الله — تعالى — بخلقه ولطفًا بهم، وتكون سُرَّته متصلة بسُرَّة أمِّه تمتص الغذاء منها إلى يوم الولادة، ويكون وجهه إن كان ذكرًا مما يلي ظهر أمه، وإن كان أنثى فعكس ذلك.

فانظر يا أخي في هذا الفعل وتفكَّر فيما ذكرنا، فلعل نفسك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، فترى بعين قلبك هذا الصانع الحكيم كما رأيتَ بعينَيْ رأسِك مصنوعاته، ولا تتبع سبيل الذين لا يعلمون.

واعلم يا أخي بأن كثيرًا من الحيوانات تتوالد في هذه المدة المذكورة مثل الغنم والظباء وبعض السباع وكل حيوان لا يحتمل الحمل والكَدَّ.

ومنها ما يتأخَّر ولادتها إلى تمام ستة أشهر وتسعة أو عشرة أو اثني عشر لأغراض أخرى قد بيَّنَّاها في رسالة الحيوان، ونحن نذكر في فصل آخَر من هذه الرسالة ما الغرض في تأخير ولادة الإنسان إلى تمام ثمانية أشهر ومكث الجنين في الرحم إلى الشهر التاسع.

(٥) فصل في كيفية حال الجنين في الشهر السادس

ثم اعلم أنه عند دخول الشهر السادس يصير التدبير لعُطَارد، وتستولي عليه قوى روحانياته، فيتحرك عند ذلك الجنين في الرحم ويركض برجليه ويمد يديه ويبسط جوارحه ويضطرب ويحس بمكانه ويفتح فاه ويحرك شفتيه ويتنفس من منخريه ويدير لسانه في فيه، فيكون تارةً متحركًا وتارةً يسكن وتارةً ينام وتارةً يستيقظ، فلا يزال ذلك دأبه إلى أن يتم الشهر السادس ويدخل الشهر السابع، ويصير التدبير للقمر، وتستولي عليه قوى روحانياته فيربو لحم الجنين حينئذٍ وتسمن جثته وتنتصب قامته وتشتد أعضاؤه وتصلب مفاصله وتقوى حركته ويحس بضيق مكانه، ويطلب التنقل والخروج، فإن قُدِّر له ذلك بما يوجب أحكام النجوم بأسباب يطول شرحها وخروجها على المجرى الطبيعي، وكان الجنين كاملًا عاش وتربَّى وعُمِّر، وإن بقي هناك إلى أن يدخل الشهر الثامن وتدخل الشمس بيت الموت ويرجع التدبير إلى زُحَل من الرأس فتستولي عليه قوى روحانياته عرض للجنين ثقل وسكون وغلب عليه البرد والنوم وقلة الحركة، فإن ولد في هذا الشهر كان بَطِيء النشوء ثقيل الحركة قليل العمر، وربما كان ميتًا، وإذا دخل الشهر التاسع وانتقلت الشمس إلى البرج التاسع بيت النقلة والأسفار ورجع التدبير إلى المُشتَرِي السعد الأكبر واستولت عليه قوى روحانياته واعتدل المزاج وقويت روح الحياة ظهرت أفعال النفس الحيوانية في الجسد؛ لأن الشمس تكون قد استوفت طبائع البروج المثلثات النارية والمائية والهوائية والترابية مرتين في الثمانية الأشهر.

وقد سارت الشمس في فلك البروج مائتين وأربعين درجة، وهذه المسافة مقدار ما بين بيتها إلى شرفها التاسع من بيتها المتفقين في طبيعة واحدة، وتكون أيضًا في هذه المدة قد قَبِلَتْ طبيعة الجنين قوى روحانيات الكواكب المنحطة من الفلك مرتين بمسير الشمس في البروج المثلثات مرة إلى البرج الخامس ومرة إلى البرج التاسع، كما تقدم ذكرها، ويبقى مرة أخرى كما نبين بعد هذا الفصل، ويكون الذي يبقى للشمس إلى أن

تعود إلى الدرجة التي كانت فيها وقت مسقط النطفة أربعة أبراج ومائة وعشرين درجة إلى تمام الدور.

فإذا خرج الجنين بعد ثمانية أشهر استأنف العمر في الدنيا لكل درجة سنة الذي هو العمر الطبيعي وهو المقدار الذي بقي للشمس إلى أن تعود إلى الدرجة التي كانت فيها يوم مسقط النطفة ليستوفي الإنسان طبائع البروج مرة ثالثة حتى يتم ويكمل.

وأما الذي يزيد وينقص عن هذا المقدار فلأسباب وعلل يطول شرحها، وهي مذكورة في كتاب أحكام النجوم ومكث الأجنة وأعمار المواليد، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في رسالة العلل والمعلولات، ولكن نذكر من ذلك طرفًا ليكون دليلًا على ما وصفنا.

واعلم يا أخي بأن الكائنات التي تحت فلك القمر تبتدئ من أنقص الحالات وأدْوَنها مترقِّية إلى أتمِّها وأفضلها، ويكون ذلك في مر الزمان والأوقات؛ لأن طبيعتها لا تقبل فَيْض أشخاص فلكية دفعة واحدة، ولكن شيئًا بعد شيء على التدريج كما يقبل المتعلم الذكي من الأستاذ الحاذق.

واعلم بأن فيضات الكواكب من محيط الأفلاك متصلة نحو مركز الأرض في دائم الأوقات، ولكنها مفننة الألوان متغايرة الأشكال، وذلك بحسب مواضعها من أفلاكها وموازاتها من فلك البروج وحدودها كما نبين بعد هذا الفصل.

واعلم يا أخي بأن الحكمة الإلهية والعناية الربانية قد جعلت لكل كائن من الموجودات تحت فلك القمر مقدارًا من الوجود والبقاء معلومًا مقدرًا أو يكون ذلك بمقدار دور شخص من الأشخاص الفلكية، كما بينَّا طرفًا منه في رسالة ماهية الطبيعة، ولكن نذكر من ذلك أيضًا ها هنا مثالًا واحدًا من الأشخاص الإنسانية، وذلك أن نطفة الإنسان إذا سقطت في الرحم فإن مكثها الطبيعي إلى أن تقبل صورة الإنسانية أربعة أشهر بمقدار ما تسير الشمس أربعة أبراج مائة وعشرين درجة، وتستوفي بمسيرها طبائع البروج والمثلثات مرة واحدة، فعند ذلك يبقى الجنين إلى يوم الولادة أربعة أشهر أُخَر، وهو مقدار ما تسير الشمس أربعة أبراج مائة وعشرين درجة، وتستوفي بمسيرها طبائع البروج المثلثات مرة أخرى، وبذلك يبقى لها أن تعود إلى الدرجة التي كانت فيها يوم مسقط النطفة مائة وعشرين درجة، فيستوفي المولود العمر الطبيعي في الدنيا مائة وعشرون سنة لكل درجة بقيت للشمس سنة.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن أفعال الكواكب وتأثيرات قوى روحانياتها في الأربعة الأشهر الأول تكون مصروفة إلى تأسيس بنية الجسد وتكوين

أعضائه المختلفة وسريان قوى النفس النباتية، وذلك أن لكل عضو من الجسد مثل القلب والكبد والدماغ والمعدة والرئة والطحال والأمعاء والعروق والأعصاب والعظام والعضلات والمخ والجلد وما شاكلها خلقة خلاف ما لعضو آخر، ولكل خلقة تركيب ولتركيبه أخلاط ولتلك الأخلاط أمزجة، ولتلك الأمزجة طبائع مختلفة في الكمية، وفي الكيفية من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة خلاف ما للآخر كما ذكر ذلك في كتاب التشريح بتطويل، وكما ذكرنا ذلك في كتاب طبائع الأغذية ودرجات قواها، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في رسالة النبات، وللنفس النباتية في كل عضو فعل طبيعي خلاف ما في عضو آخر كما بيَّنَّا في رسالة نشوء الأنفس الجزئية.

(٦) فصل في أن بنية الجسد وتركيب أعضائه يتم في أربعة أشهر

اعلم يا أخي أن بنية الجسد وتركيب أعضائه يتم في هذه الأربعة الأشهر؛ لأن الشمس التي هي رُوح العالَم في هذه المدة بمسيرها في أربعة أبراج المثلثات تكون قد حطَّتْ طبائع تلك الأبراج من محيط الأفلاك إلى عالم الكون والفساد الذي دون فلك القمر، وتكون قد سَرَتْ قوى روحانيات الكواكب التي فوق الأرض في بنية الجسد، وركزت في مراكزها، كما بيَّنَّا في رسالة أفعال الروحانيات، وعلة أخرى أيضًا أن في هذه الأربعة الأشهر تكون قد اجتمعت من مادة بنية الجسد ما تحتاج إليه الطبيعة الفاعلة، وذلك يوم مسقط النطفة؛ إذ تكون تلك المادة هناك مجتمعة؛ لأن الطبيعة كانت تدفعها إلى خارج البدن في أيام الحيض، فإذا استقرَّتِ النطفة في الرحم جذبت عند ذلك تلك المادة إلى نفسها كما تجذب نار السراج الدهن بالفتيلة إلى نفسها، وكما يجذب حجر المغناطيس الحديد إلى نفسه، فإذا حصل ذلك الدم حفَّ حول النطفة كما يحفُّ بياض البيضة حول محِّها، ثم إن حرارة النطفة تسخن ذلك الدم وتجمده كما تفعل الأنفحة باللبن الحليب، وهو أول فعل يكون من قوى روحانيات زُحَل في النطفة؛ لأن مِن خاصَّة أفعاله إمساك الصورة في الهَيُولَى والسكون والثبات.

وأما تأثيرات الكواكب من البروج في الأربعة الأشهر الثانية فتكون مصروفة إلى تتميم بنية الجسد وإحكام خِلْقة الأعضاء لكيما تسري فيها قوى النفس الحيوانية، ويُمكِنها إظهار أفعالها.

وذلك أن الشمس في هذه المدة بمسيرها في الأبراج المثلثات الأُخَر تحطُّ تلك القوى مرة أُخرَى، فإذا تمَّتِ البنية واستحكمت الخلقة سرت فيها قوى النفس الحيوانية، ونقلت

تلك الجملة من الرحم إلى فسحة هذا العالم، واستوفت به تدبيرًا آخَر أربع سنين لكيما تكمل البنية، وتستحكم الصورة، ويمكن أن تسري فيها القوى الناطقة وتَظهَر أفعالها فيها، وذلك أن تلك القوات الروحانية تصرف تأثيراتها وأفعالها إلى تربية المولود وأحكام إدراك الحواس محسوساتها ثم ترد النفس الناطقة وينطلق لسان المولود بالعبارة عن معاني تلك المحسوسات وتمييزها.

(٧) فصل في أن الكواكب لا يمكن أن تفعل تأثيراتها في شهرين ولا ثلاثة

واعلم يا أخي أنه لا يمكن أن تفعل هذه الكواكب هذه الأفعال والتأثيرات في شهرين ولا ثلاثة إلى ما هي عليه الآن كما بيَّنَّا، ونضرب لذلك مثلًا محسوسًا من مصنوعات البشر كيما يُتصوَّر مصنوعات الطبيعة.

ذلك أن البناء إذا أراد بناء دار، فإنه يصرف أولًا همَّتَه وأفعالَه مدة ما في تأسيس البناء ورفع الحيطان وإقامة الأعمدة وعقد الأبراج وتسقيف البيوت ليتبيَّن أولًا رسم الدار ويتمم البيوت والممرات والمجالس، وهذه مدة تكوين الدار وإيجادها، ثم يصرف عنايته وتدبيره بعد ذلك في تتميمها من تعليق الأبواب والشبابيك ونصب البازير وتزيين السطوح وتجصيص الحيطان، وتزويق السقوف والنقوش، وما شاكلها من التتميم، ثم يبقى بعد ذلك كمال الدار، وهو أن تُفرَش وتُعلَّق الستور وتُملأ الخزائن من الأموال والأثاث، ويسكنها رب الدار ويتمتع إلى حين.

فهكذا يجري يا أخي أمر تركيب جسد الإنسان واقتران النفس معه من يوم مسقط النطفة وتعلق النفس بها إلى يوم يموت الجسد، وهو أن تفارق النفس الجسد ويدفن في التراب، وهذه المدة هي بمقدار دَوْر واحد من أدوار تلك الأشخاص الفلكية كما بيَّنَّا في رسالة الأدوار والأكوان.

فلا ينبغي لك يا أخي أن تتوهم أو تظن أن هذه الكواكب والأفلاك والبروج التي ذكرنا أفعالها وتأثيراتها في تركيب الجسد الإنساني هي آلات وأدوات للباري — جلَّ ثناؤه — يخلق بها الإنسان، بل إنما هي آلات وأدوات للنفس الكلية الفلكية، وهذه النفس هي عبدٌ مُطيع للباري — تعالى — فقد أيَّدها بالعقل الكلي الذي هو مَلَك من ملائكته المقرَّبين: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ»، كما ذكر في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وآله، وستعلم يا أخي حقيقة هذه الأسرار والمرامي إذا انتبهتَ لنفسك من نوم الغفلة، واستيقظتَ من رقدة

الجهالة، وارتفعتَ في المعارف الربانية، وارتَضْتَ في العلوم الإلهية إذا بعثتَ يوم القيامة، وشاهدتَ ملكوت رب العالمين، ووقفتَ على جبل الأعراف مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وإذ قد فرغنا من ذكر تأثير الكواكب في النطفة مجملًا فنزيد أن نذكر طرفًا من تأثيراتها في كل شهر وترددها في أفعالها إذا كان بعضها في بيوت بعض وحدودها.

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن للأشخاص الفلكية الموجودات التي تحت فلك القمر من الحيوان والنبات والمعادن، وفي كل جنس منها تأثيرات مختلفة بحسب قبول كل نوع منها، ولكل نوع من تلك الأجناس تأثيرات مفننة بحسب أماكنها المختلفة، ولها في كل شخص من أشخاص تلك الأنواع تأثيرات متباينة بحسب قبولها في أزمان مختلفة في طول أعمارها لا يُشبِه بعضها بعضًا، ولا يبلغ فهم البشر كُنْهَ معرفتها، ولا يعلمها إلا الله — تعالى — ولكن نذكر منها مثالًا واحدًا ليكون قياسًا على الباقية، ونجعل المثال من شخص إنسان واحد، ونذكر فنون تأثيراتها فيه من يوم تسقط النطفة إلى يوم الولادة مدة تسعة أشهر ذكرًا مجملًا؛ إذ كان شرحها يطول، ثم نذكر فصلًا آخَر في فنون تأثيراتها فيه من يوم الولادة إلى يوم يموت، وهو آخِر العمر الطبيعي سنة سنة بقول وجيز؛ ليكون قياسًا على سائر المواليد من الكائنات تحت فلك القمر، فنقول: اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن تأثيرات الكواكب تختلف في الكائنات من جهات شتَّى تارةً منها من جهة اختلاف أحوالها في أفلاكها من الصعود إلى أوجاتها، أو من جهة النزول من هناك إلى الحضيض، وتارةً من جهة العرض والميل في الجنوب والشمال، وتارةً من جهة نسبتها إلى الشمس من التشريق والتغريب والرجوع والاستقامة والوقوف، وتارةً من جهة كونها في موازنة بعضها ببعض، وتارةً من جهة اختلاف مسامتها لبقاع الأرض وانحرافاتها منها في الأوتاد وما يليها أو ما يزول عنها، وتارةً من جهة اختلاف الشتاء والصيف والربيع والخريف والليل والنهار، وساعاتهما وأوائل الشهور وأواخرها وما شاكل ذلك، يعرف اختلاف هذه الأحوال أهل المَجَسْطي.

وأما اختلاف تأثيراتها في هذه الأحوال فيعرفها أصحاب الأحكام الذين يتكلمون على أحكام المواليد.

وأما معرفة كيفية وصول قوى الأشخاص الفلكية إلى هذه الأشخاص السفلية، فيعلمها الربانيون الناظرون في علم النفس، وقد بيَّنَّا طرفًا منها في رسالة أفعال الروحانيات.

(٨) فصل في كيفية تأثيرات الكواكب

واعلم يا أخي أن هذه الأشخاص الفلكية لما كانت موضوعة بعضها من بعض على النسبة الموسيقية من ثلاثة أنواع أحدها نسبة أعظام بعضها عند بعض، والآخَر نسبة أبعاد مراكزها بعضها من بعض، ومن الأركان الأربعة، وكذلك الثالث نسبة حركاتها في سرعة وإبطاء، فمِن أجْل ذلك إذا عرضَتْ لها تلك الحالات المختلفة التي تقدَّم ذكرها في الفصل الأول اختلفتْ مناسباتها، فعند ذلك تختلف تأثيراتها في الكائنات بحسب اختلاف النسبة كما تختلف أصوات الموسيقى ونغماتها عند طول الأوتار وقصرها ودقتها وغلظها وسرعة حركات المضراب وإبطائها، فتختلف عند ذلك تأثيراتها في نفوس المستمعين بحسب اختلاف طبائعهم وآرائهم وأخلاقهم كما بيَّنَّا طرفًا من ذلك في رسالة الموسيقى.

فصل في أن الموجودات التي دون فلك القمر

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الموجودات التي دون فلك القمر كلها موضوعة لقبول تأثيرات الكواكب، ولكن لما كانت جواهرها مختلفة اختلف قبول تأثيراتها، وهي كثيرة الأنواع لا يُحصِي عددَها إلا الله — جلَّ ثناؤه — ولكن يجمعها كلَّها جنسان: جواهر جسمانية وجواهر روحانية، فالجسمانية هي أجسام الأركان الأربعة ومولداتها الكائنات منها من المعادن والنبات والحيوان، والجواهر الحيوانية هي نفوس الحيوانات أجمع.

فصل في فنون تأثيرات الكواكب

واعلم يا أخي بأن فنون تأثيرات الكواكب في هذه الأجسام كثيرة لا يحصي عددها إلا الله — عزَّ وجلَّ — وقد ذكرنا طرفًا منها في رسالة الطبيعة، وطرفًا في رسالة الآثار العلوية، وطرفًا في رسالة الحيوانات، وطرفًا في رسالة الأكوان والأدوار، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفًا من تأثيراتها مما يخص الإنسان، أما في مزاج بنية جسده أو في طبع أخلاق نفسه كيف تكون تلك التأثيرات، ولأي علة تختلف أخلاق النفوس وطباعها، فإنها من أعجب تأثيرات الكواكب، وأشرف أفعالها، وأدق أسرارها، وألطف دلالاتها، ونريد أن نشرح طرفًا منها ليتضح ما قلنا، ويُفهَم ما وصفنا، ولكن نحتاج أولًا أن نذكر خواصَّ طِبَاعها وأعراض وحداتها، ثم نذكر كيفية تأثيراتها وعجائب دلالاتها فنقول: اعلم يا أخي

— أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن كل كوكب في الفلك فإن الباري قد جعله لأمر ولغرض أقصى، فزُحَل هو كوكب الثبات والوقوف، خلقه الله — جلَّ ثناؤه — لتنبثَّ من جرمه القوى الروحانية، فتَسرِي في الموجودات لإمساك الصور في الهَيُولَى وثباتها وبقائها ودوامها، ولولا وجود زُحَل وكونه في الفلك لما تماسكت صورة في الهَيُولَى، وثبتت خِلْقة في مادة طرفة عين إلا سالتْ وذابتْ واضمحلَّتْ، يَعرِف صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا العلماء الراسخون في علم الهيئات العارفون بحقائق الموجودات وكيفية نظام العالم، وماهية أسرار الخلقة.

واعلم يا أخي بأن زحل دليل الشهر الأول من مسقط النطفة كما وصفنا قبل، فإذا كان سليم المناحس والأحوال المذمومة سلمت تلك النطفة من الآفات العارضة بإذن الله تعالى، وهكذا حكم الحامل لتلك النطفة، فإذا كان بخلاف ذلك كان بالعكس.

مثال ذلك: أنه متى كان زحل صاعدًا في فلكه مستقيمًا في سيره في حدِّ نفسه من البرج والدرجة، فإن تلك النطفة تكون مرتفعة إلى أعلى بطنها، خفيف عليها حملُها، سليمة من الأوجاع والأعلال.

وإن كان في حدِّ المُشتَرِي كانت فرحانة بحملها حسنة الظن بربها مستقيمة السلامة والتمام.

وإن كان في حد المِرِّيخ تكون نشيطة في أعمالها مستعجلة في أمورها، وإن كان في حد الزُّهَرة تكون المرأة مسرورة بحملها مستبشرة بولادتها، وإن كان في حد عُطَارد فإنها تكون عارفة بوقت حملها حاسبة لأيام شهورها.

وإن كان زحل هابطًا في فلكه راجعًا في مسيره مذمومًا في أحواله كان الأمر بخلاف ما وصفنا، ثم يدخل الشهر الثاني فيصير التدبير للمشتري بإذن الله — عزَّ وجلَّ — وهو كوكب الاعتدال، وعلة صحة المزاج في الكائنات، وسبب النظام والترتيب في الموجودات، وهو دليل العقل في الإنسان والفهم والتمييز والعلم والروية والفقه والدين والورع والتُّقَى والعدل والإنصاف والعفَّة والزهد، وما شاكل هذه من الخصال المحمودة في الدين.

وبالجملة كل خصلة يحتاج إليها صاحب الناموس في وضعه الشريعة وإجرائه السنة في الملة، وما يحتاج إليه أتباعه وأنصاره من الخلفاء والأئمة والعلماء والفقهاء والقضاة والعُبَّاد والزُّهَّاد، وبالجملة كل مَن يخدم في الناموس ويعاون فيه من ولاة الأمور وحكام الدين والشريعة.

فإذا كان المُشتَرِي صاعدًا في فلكه مستقيمًا في سيره محمودًا في أحواله انعجن في تلك المادة المجتمعة في الرحم، وانطبع في ذلك المزاج، وانغرس في تلك الجملة قبول هذه الخصال المقدَّم ذكرُها، إن قدَّر الله لها التمام والكمال.

فإن كان المُشتَرِي في حدِّ نفسِه من البروج والدرجة تكون تلك الخصال كلها وأحوالها مصروفة بِهِمَّة نفسِه إلى أمور الدين والشريعة وأحكام الناموس، وتكون نفسه ملهمة من ربِّها أو بمَلَك من الملائكة، فيتكلم بالحكمة شبه النبوة، ويدعو الناس إلى الله، وإلى الدار الآخرة.

وإن كان المُشتَرِي في حدِّ زُحَل يكون المولود بعيد الغور غائص العلم يأتي بالعلامة والمعجزات.

وإن كان في حد المِرِّيخ يكون ذلك بالقهر والقوة والغلبة والجلادة.

وإن كان في حد الزُّهَرة يكون دعاؤه للناس بالرفق واللين والموعظة الحسنة.

وإن كان في حد عُطَارد يكون ذلك الكلام والحجاج والخصومة والجدال، وتكون هذه الخصال كلها أو أكثرها حقًّا وصوابًا ومقبولة جارية على السداد متى كان المُشتَرِي مقبولًا من رب بيته ومثلثته، وَمَن يُشاركه من الكواكب في تقاسيم أوقاته.

فإن كان المُشتَرِي غير مقبول في موضعه من أرباب حظوظه يكون ذلك وأكثره بحِيَل وعكس وتمويه ومخاريق، ويعرف صدق ما قلنا وصحة ما ذكرنا أصحاب أحكام النجوم والراسخون في العلم منهم.

وإن كان المُشتَرِي في الشهر الثاني هابطًا في فلكه أو راجعًا في مسيره مذمومًا في أحواله، فإن المولود يكون بَطِيء الذهن قليل الفهم بليدًا لا يفكر في شيء من الأمور إلا ما يَرَى ويسمع، أو يباشره بحواسه، مثل البهيمة لا تعرف إلا الأكل والشرب والنكاح، أو يتعلَّق بأمر المعاش في الحياة الدنيا، ويكون عن أمر الآخرة من الغافلين، إلا ما يُعلَّم ويُلقَّن تقليدًا وإيمانًا وتسليمًا.

ثم يدخل الشهر الثالث ويصير التدبير للمِرِّيخ، وهو ينبوع الحرارة والإسخان والنضج في الكائنات، وهو دليل الشجاعة والجسارة والصلابة والبسالة والتشمير والأنفة والحمية وما شاكلها من الخصال والأخلاق والطباع مما يحتاج إليه قادة الجيوش وأصحاب الحروب ومَن يتبعهم ويخدمهم ويعاشرهم.

فإن كان المِرِّيخ صاعدًا في فلكه مستقيمًا في سيره محمودًا في أحواله انعجن في تلك المادة، وانطبع في ذلك المزاج، وانغرس في تلك الجملة التهيؤ والقبول لهذه الخصال، إنْ قدَّر الله لها التمام والكمال.

فإن كان المِرِّيخ في حدِّ نفسه من البرج والدرجة تكون تلك الخصال والأخلاق مصروفة أو أكثرها بهِمَّة نفسه إلى القتال والحروب والمبارزة ومباشرة الأقران وطلب الغلبة بالقهر والأنفة من الانقياد للغير والإذعان له.

وإن كان المِرِّيخ في حدِّ زُحَل اختلط مزاجهما واتحدت قوتاهما، وظهرت تلك الخصال المِرِّيخية من صاحبها بالتثبُّت والأناة والصبر والتوقف وقلة العجلة مع الحقد والغضب والمكر والحيلة والأنفة من العار والفرار.

وإن كان المِرِّيخ في حدِّ المُشتَرِي اختلط مزاجهما، واتحدت قوتاهما، وظهرت أفعال تلك القوى والأخلاق والخصال بعقل وروية ومعرفة بمواقع الإقدام وطلب العدل والإنصاف والكفِّ عن الغدر والظلم.

وإن كان المِرِّيخ في حد الزُّهَرة اختلط مزاجهما، واتحدت قوتاهما، ويكون ذلك الأمر سبب الشهوات وعشرة النساء والحرم والحمية والافتخار والخيلاء والمباهاة والتعرُّض للتلف.

وإن كان المِرِّيخ في حدِّ عُطَارد اختلط مزاجهما، واتحدت قوتاهما، وظهرت تلك الخصال بدهاء وأدب وفطنة ومراوغة وحقد وسرعة حركة وإصابة لحيلة.

وإن كان المِرِّيخ هابطًا في فلكه أو راجعًا في سيره أو منحوسًا في أحواله كان ذلك المولود جبانًا مهانًا ذليل النفس صغير الهمة محتملًا للذل والهوان كالنساء والصبيان.

ثم يدخل الشهر الرابع ويصير التدبير للشمس بإذن الله — تعالى — التي هي النَّيِّر الأعظم قلب الفلك وينبوع النور وفائض الضياء والإشراق ومقر روح العالم المنبثَّة من جرمها قوى النفس الكلية الفلكية السارية في الموجودات وهي أجمع دليل للمُلْك والرياسة في الإنسان، وكبر النفس وعلو الهمة والعز والسلطان والعظمة والجلال والقوة والشدة والتدبير والسياسة.

وبالجملة كل خصلة وخُلُق يحتاج إليها الملوك والرؤساء وأتباعهم في تدبيرهم وسياستهم، فإذا كانت صاعدة في فلكها أو كانت في بيتها أو شرفها أو أَوْجِها بريَّة من المناحس والأحوال المذمومة انعجن في تلك المادة، وانطبع في ذلك المزاج، وانغرس في طبع تلك الجملة، إنْ قدَّر الله لها بالتمام والكمال محبة الرياسة وكبر النفس وعلو الهمة.

وإن كان في حدِّ زُحَل من البرج والدرجة، وامتزجت طبيعتهما، واتحدت قوتهما كان المولود كبير النفس، قويَّ البنية، عالِيَ الهِمَّة، رابط الجأش، شديد العزيمة، صابرًا في الأعمال، بعيدَ الغَوْر، متمسِّكًا بما يَملِك، حافظًا لما يعلم، ثابت الرأي، حازمًا في الأمور، وما شاكل ذلك من الأخلاق والطباع والخصال.

وإن كانت في حدِّ المُشتَرِي، وامتزجت طبيعتهما، واتحدت قوتهما كان المولود إنْ قدَّر الله له التمام والكمال متهيِّئ النفس لقبول خصال المُلْك والنبوة جميعًا، وهي فضائل الإنسانية والأخلاق الملكية والمعارف الربانية والعلوم الإلهية.

وإن انفكَّ مولوده لبرج القران أو بطابع القران أو بأحد أوتاد لها عند استئناف أحد الأدوار كان ذلك المولود النبي المبعوث في ذلك الدور والإمام للناس في ذلك الزمان.

فأما كيفية مبعثه وآياته ومعجزاته وكتابه بأي لغة يكون وإلى أي أمة يبعث من الناس، وكيف أحكام شريعته ومفروضات سنته وسيرة أمته وتصرف أحوالهم، فيحتاج إلى شرح طويل، وهو مذكور أو أكثره في كتب القرانات وأدوار الألوف.

فإن كانت الشمس في حدِّ المِرِّيخ امتزجت طبيعتاهما، واتحدت قوتاهما، وصار طبع المولود وأخلاق نفسه ممتزجة من طبيعتهما متهيئة لقبول تأثيراتهما في أيام حياته وطول عمره.

وعلى هذا القياس إذا كانت في حد الزُّهَرة وعُطَارد امتزجت طباعهما واتحدت قواهما، وصارت نفس المولود متهيئة لقبول تأثيراتهما وأخلاقه مركبة وممتزجة من طباعهما وتأثيراتهما مما يطول شرحه.

وبعضها مذكور في كتب أحكام التحاويل، ويَعرِف صحة ما قلنا وحقيقة ما ذكرنا الناظرون في تلك الكتب والباحثون عن هذا العلم.

وإن كانت الشمس على خلاف ما وصفنا من صلاح أحوالها في الفلك أو كانت على النسبة الأدون كان المولود صغير النفس والهمة قليل القبول للفضائل الإنسانية والأخلاق الملكية والمعارف الربانية والعلوم الإلهية والهمم الربوبية.

ثم يدخل الشهر الخامس ويصير التدبير للزهرة دليل النقش والتصاوير والشكل، والدلِّ، والغنج، والتِّيه، والحُسْن، والزينة، والجمال، والبهجة، والعيش، والطبيعة، والشهوات، واللذَّة، والسرور، والغبطة.

وبالجملة كل خصلة وفضيلة تريد الحياة والبقاء وطول العمر، ومن أجلها في الدنيا والآخرة جميعًا.

فإن كانت الزُّهَرة صاعدة في فلكها مستقيمة في مسيرها محمودة في أحوالها انعجن في تلك المادة بإذن الله، وانطبع في ذلك المزاج، وانغرس في تلك الجملة مَحَبَّة هذه الخصال وشهوتها في غاية ونهاية.

فإن كانت في وجهها من البرج كانت صورة الجسد بيضاء درية اللون، مشوبة بحمرة أو صفرة، فيه جعدة الشعر وغنجه، جميل المنظر حسن العينين، حلو المنظر

صحيح الوجه والعين، سوادها أكثر من البياض، مكلثم الوجه، صغير الحاجبين، مدور الرأس، حسن العنق، دقيق الشفتين، كثير لحم الخدين، قصير الأصابع، غليظ الساقين، ربع القامة، دقيق البشرة، أكحل وأشهل.

وإن كانت في حدها أيضًا كان المولود مقبول الجملة خفيف الروح حسن الأخلاق جيد الطبع حسن العشرة جيد المعاملة.

وإن كانت في وجه زحل من البرج والدرجة كانت صورة الجسد غليظ الشفتين ضخم العينين جعد الشعر مختلف الأسنان مشقق الرجلين قوي البنية هيوب المنظر إحدى عينيه خلاف الأخرى بالصغر أو بالكبر أو اللون أو الحركة أو الشكل، وإن تكن الزُّهَرة أيضًا في حد زحل من البرج، والدرجة يكون المولود شديد العشق والمحبة ثابت المودة، ذا وفاء وعهد وأمانة، قليل الغدر والخيانة، ضابطًا لنفسه صبورًا.

وإن كان في وجه المُشتَرِي من البرج والدرجة، فإن بنية الجسد تكون معتدلة المزاج متناسبة الأعضاء، ويكون حلو الشمائل أبيض اللون إلى السمرة عظيم العينين الحدقة أدكن الشعر كثَّ اللحية حسن الهيئة ناتئ الوجنتين غليظ الأرنبة معتدل اللحم والقد والقامة نظيف البشرة متهلل الوجه.

وإن كانت أيضًا في حد المُشتَرِي من البرج والدرجة وامتزجت طبيعتهما واتحدت قوتهما كان المولود خيِّرًا بالطبع حسن الأخلاق محمود الخصال عادل السيرة حسن العشرة متصفًا في المعاملة صادقًا في المودة، وربما أديبًا صحيح الاعتقاد مستقيم المذهب مثل أخلاق الملائكة.

فإن كانت الزُّهَرة هابطة في فلكها أو راجعة في مسيرها أو مختلفة أحوالها نقصت سعادته لأسباب يطول شرحها مذكورة في كتب الأحكام والمواليد والتحاويل.

ثم يدخل الشهر السادس ويصير التدبير لعُطَارد صاحب العلوم والمعارف والحسِّ والشعور والآداب والحِكَم والحركات والصنائع والنطق والبيان والكلام والفصاحة والتمييز والفطنة والقراءة والنغمة والرياضات والحكمة، وهو أخو المُشتَرِي الصغير، كما أن الزُّهَرة أخت المِرِّيخ، والقمر أخو زُحَل، والشمس أبوهم.

فإن كان عُطَارد صاعدًا في فلكه، مستقيمًا في مسيره، صالحًا في أحواله، انعجن في تلك المادة، وانطبع في ذلك المزاج، وانغرس في تلك الجملة قبول العلوم والمعارف والنظر والبيان.

فإن كان عُطَارد في حدِّه من البرج والدرجة تصير نفس ذلك المولود بإذن الله — سبحانه — ذكية وقلبه حيًّا وذهنه صافيًا وفهمه حادًّا وخاطره سريعًا ومعارفه دقيقة وعلومه بديعة وبيانه فصيحًا.

فإن كان في حدِّ زُحَل امتزجت طبيعتهما، واتحدت قوتهما، وكان المولود إنْ قدَّر الله له بالتمام والكمال دقيق النظر في العلوم بعيد الغور في البحث غائص الفكر في المعارف ثقيل اللسان في البيان عسر العبارة عما في نفسه من المعاني.

وإن كان عُطَارد في حدِّ المُشتَرِي صارت همة نفس المولود بإذن الله — سبحانه — في علم الدين وكلامه وأقاويله أكثرها في أمر الورع وأحكام الشرع ومواعظ الناموس ووصف العدل وبيان الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر المعاد ووصف أحوال الآخرة والمنقلب بعد الموت عند فراق النفس الجسد الذي هو الغرض الأقصى في رباط الأنفس الجزئية بالأجساد البشرية، كما بيَّنَّا في رسالة البعث والقيامة.

وإن كان عُطَارد في حدِّ المِرِّيخ امتزجت طبيعتهما واتحدت قوتهما، وصارت نفس المولود متهيِّئة لقبول تأثيراته، وتكون همة نفسه أكثرها في الكلام في الخصومات والجدل، ووصف الحروب، ويكون لَسِنًا متكلِّمًا عجولًا في خطابه سريعًا في جوابه، كثير الزلل والخطأ سريع المراجعة، وربما كان شاعرًا أو خطيبًا أو قاضيًا أو مناظرًا أو مجادلًا.

وإن كان عُطَارد في حدِّ الزُّهَرة امتزجت طبيعتهما، واتحدت قوتهما، وصارت نفس المولود متهيئة لقبول تأثيراتهما، وتكون أكثر همة نفسه الكلام في وصف محاسن أمور الدنيا ونعت شهواتها ووصف لذاتها بالأشعار والغناء والألحان والنغمات والإيقاعات الموزونة والحركات المنتظمة.

وإن كان عُطَارد هابطًا في فلكه راجعًا في مسيره أو مذمومًا في أحواله كان المولود سِكِّيتًا أو أخرس أو بليدًا أو معتوهًا.

ثم يدخل الشهر السابع، وينتهي مسير الشمس إلى البرج السابع المقابل لموضعها الذي كان عند مسقط النطفة، ويصير التدبير للقمر النَّيِّر الأصغر نظير الشمس في المنظر، المخالِف في المخبر، المتوسط بين العالَمَيْن، الآخِذ من طبايع الكواكب فيضَها من العالَم العلوي، الفائض المؤدِّي تلك الفيضات والخيرات إلى العالَم السفلي.

فإن كان القمر عند ذلك صاعدًا في فلكه زائدًا في نوره سريعًا في مسيره بريًّا من المناحس انعجن في تلك المادة، وانطبع في ذلك المزاج، وانغرس في تلك الجملة، ذلك

الفيضان الذي يؤدِّيه القمر من هناك إلى هذا العالم، وصارت نفس المولود متهيئة لقبول سائر تأثيرات الكواكب بحسب الحال التي عليها القمر من الخمسة والعشرين حالًا المذكورة في كتاب مدخل النجوم.

وإن كان القمر في منزلته أو شرفه أو في أوْجِه أو في ميله أو وجهه كان المولود إن قدَّر الله — عزَّ وجلَّ — بالتمام والكمال مسعودًا في أكثر أحواله محمودًا في أكثر أموره في الدنيا والآخرة جميعًا.

وإن كان القمر في حد عُطَارد امتزجت طبيعتهما، واتحدت قوتاهما، وكان المولود ممزوج الطبائع مختلفها متفنن الشمائل متلون الأخلاق متنقلًا في الآراء والمذاهب متداخلًا في الأمور المشاكِلة، متشابكًا في الأمور الدنيوية قليل الثبات فيها، سريع التغير عنها، كثير التنقل فيها، سهل الانقياد، سريع البلوى، مواتيًا لهوى نفسه، متباعدًا عن إخوانه.

وإن كان القمر في حدِّ زُحَل كانت الأمور التي وصفنا بالضد مما ذكرنا، وكان المولود في أكثر أحواله ثابتًا قليل التغير والتنقل إلا بعد عسر وشدة.

وإن كان القمر في حد الزُّهَرة وكان المولود ذكرًا امتزجت طبيعتهما، واتحدت قوتهما، وكان الظاهر على المولود شمائل الذكور، والباطن شمائل الإناث.

وإن كان المولود أنثى كان ظاهرًا على شمائله طبائع الأنوثة وباطنه طبائع الذكور، وإن يكن القمر في حد المِرِّيخ امتزجت طبيعتهما، واتحدت قوتهما، وكان ظاهر المولود عليه شمائل العامية وأخلاق نفسه مِرِّيخية، وظاهر أحواله عامية ومذاهبه مذاهب صيدية.

وإن كان القمر في المُشتَرِي امتزجت طبيعتهما، واتحدت قوتاهما، وكان المولود في أكثر أحواله معتدلًا بين الطرفين، متوسطًا في الأمور الدنيوية والأخروية جميعًا.

وإن قدر الله — سبحانه — أن يولد في هذا الشهر عاش وتربَّى وكان له عمر، وإن بقي إلى أن يدخل الشهر الثامن رجع التدبير إلى زحل من الرأس، ويكون زحل رديء الحال.

وتدخل الشمس البرج الثامن بيت الموت، ويغلب على الجنين برد طبيعة زُحَل وسكونه، فإن وُلد في هذا الشهر كان قليل العمر، أو ربما لا يتربَّى ولا يعيش.

ثم يدخل التاسع بيت الأسفار والنقلة، ويصير التدبير للمشتري من الرأس كما سنبين بعد.

فصل في أن مكث الجنين في الرحم إنما هو لكي تتم البنية

قد تبيَّن مما ذكرنا أن مكث الجنين في الرحم تسعة أشهر، إنما هو لكيما تتم البنية وتستكمل الصورة وتفيض عليها قوى الأشخاص الفلكية، ولو أمكن تتميمها وتكميلها في يوم واحد لما تُركتْ هناك يومَيْن، ولو أمكن في شهرين.

وقد يَعرِف كل عاقل أن مَن يولد غير تامِّ البنية ولا كامل الصورة لا ينتفع في هذه الدنيا ونعيمها، ولا يتلذذ ولا يتمتع بلذاتها على التمام والكمال، ولم يَزَلْ شقيًّا منغَّص العيش مبتلًى كالزَّمْنَي والمفاليج والناقصي الخلقة الغير تامِّي الصورة.

فهكذا الحكم والقياس في الدار الآخرة بعد الموت، وذلك أن الإنسان إنما يترك في هذه الدنيا مقدار ما يمكنه تتميم أحوال نفسه مع الجسد كما ذكر ذلك في كتب الطبيعة والحكمة وتكمل فضائلها بالكون في الدنيا، كما ذكر في كتب النبوة.

فإذا فارقتِ النفس الجسد عند الموت الذي هو ولادة ثانية انتفعت بالحياة في الدار الآخرة، ويمكنها الصعود إلى ملكوت السموات كما قال المسيح عليه السلام: «مَن لم يولد ولادتين لا يَلِج في ملكوت السماء.»

وقد أوصى الأطباء بالوالدين وأمروا الحوامل من النساء بالرفق بأنفسهن في حركاتهن وتصرفاتهن باعتدال وبوسائط بلا إفراط ولا تقصير، كيما يسلم الجنين من الآفات العارضة هناك، ويخرج الطفل سالمًا إلى هذه الدنيا، ويتربَّى ويَعِيش وينتفع بالحياة، وهكذا وصية الأنبياء — عليهم السلام — وواضعي الناموس الذين هم أطباء النفوس للأمم المبعوثين إليها فيما فرضوا في أحكام الدين والشرائع والسنن للناس من اجتناب المحارم والمحرمات والشبهات الممرضة للنفوس المهلكة لها بالانهماك وتجاوز الحد والمقدار في تناولها من غير وجوهها المحلِّلة لها، كل ذلك لكيما تَسلَم نفوسهم من آفات هذه الدنيا الغدَّارة المكَّارة المُهلِكة لأولادها بعد تربيتها لهم، وكما أن الأشخاص لو ساعدوا الطبيب فيما أمر وبيَّن من جهة مأكولاتهم ومشروباتهم في حالة الصحة والمرض يستفيدون وبمخالفتهم ذلك ينحرف مزاجهم، أما الصحيح فإلى المرض، وأما المريض فإلى طول المرض وإلى الهلاك، كذلك ها هنا الأنبياء هم أطباء النفوس وسبب الهدى وطريق المعاش، فمَن مال عمَّا أَمَروا به وانحرف عما وضعوا وبيَّنوا، فقد ضل وأضل عن سواء السبيل.

(٩) فصل في أن الاستغراق في الشهوات يُنسِي الآخرة

ثم اعلم أن الاستغراق في الشهوات في هذه الدنيا يُنسي الإنسان أمر الآخرة ويشككه وييئسه منها، كما قال قائلهم في هذا المعنى:

هي الدنيا وقد وعدوا بأُخرى وتسويف الظنون من السوام

وقيل أيضًا في هذا المعنى شعرًا:

خذوا بنصيب من نعيم ولذة وكلٌّ وإنْ طال المدى يتصرَّم

وقال آخَر وقد كان ساهيًا من أمر الآخرة:

ما جاءنا أحد يُخبِّر أنه في جنة مَن مات أو في نار

وأشعارهم كثيرة في مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التي وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم، ونصيحة أنبيائهم، واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم إليه، ويُرغِّبون فيه من نعيم الآخرة، ويأمرونهم به من الزهد في الدنيا، وينهَوْنهم عنه من الغرور بشهواتها وعاجل حلاوتها.

(١٠) فصل في أن كل مولود لا بد أن تكون درجة طالعه من المشرق

واعلم أن كل مولود تحت فلك القمر في البَرِّ كان أو في البحر أو في الهواء أو في التراب أو في الماء في وقت ولادته لا بد من أن تكون درجة طالعة من المشرق على أفق تلك البقعة، ولا بد أيضًا من أن يكون كوكب من السبعة السيارة متوليًا على تلك الدرجة الطالعة يُسمى النير، وهما دليل المولود وما تنصرف به الأحوال وتجري به الأمور في مستقبل عمره إلى تمام سنة، ثم إن السنة الثانية يصير التدبير فيها لدرجة أخرى مما يتلوها بالطلوع والمستولي عليه، ثم السنة الثالثة للدرجة الثالثة والمستولي عليها، وعلى هذا القياس يجري الأمر إلى آخر العمر الطبيعي، ويتصرف المولود في الأحوال، وتجري

به الأمور بحسب حالات تلك الدرجات والمستولي عليها من الكواكب مذكور، ذلك كله في كتب أحكام المواليد بشرح طويل.

(١١) فصل في أن لكل نوع من الحيوانات عمرًا طبيعيًّا

واعلم يا أخي بأن الله — جلَّ ثناؤه — قد جعل بواجب حكمته لكل نوع من الحيوانات عمرًا طبيعيًّا معلومًا، ولأجَله وقتًا معلومًا، ولعمره أجلًا مقدرًا لا يتجاوزه ولا يقصر عنه إذا جرى على الأمر الطبيعي لا يعلم تفصيل ذلك إلا الله عز وجل.

وأما العمر الطبيعي الذي جعله الله للإنسان فمائة وعشرون سنة كما بيَّنَّا علته قبل هذا الفصل.

وأما الأعمار لبعض الناس الزائدة عن هذا المقدار والناقصة عنه، فلأسباب شتى وعلل عدة يطول شرحها، ولا يعلم تفصيلها إلا الله — عزَّ وجلَّ — فنريد أن نتكلم عن أحوال الإنسان في طول عمره الطبيعي وَنَصِف كيفية مجاري أموره وتصاريف أيامه إذا جرت على الأمر الطبيعي مذ يوم ولادته إلى تمام خمس وسبعين سنة وما يزيد على ذلك إلى تمام مائة وعشرين سنة.

(١٢) فصل في أن لكل مولود من الحيوان أبوَيْن من الفلك

واعلم يا أخي بأن لكل مولود من الحيوان أبوين في الفلك كما أن له والِدَيْن في الأرض أحدهما دليل عمره يُسمى كدخداي أي رب البيت، والآخر يُسمى هيلاج أي ربة البيت، فإن كانا مسعودين عند ولادته عاش المولود بخير عمرًا طويلًا، وإن كانا منحوسين فبالعكس من ذلك، وإن كان الكدخداي مسعودًا والهيلاج منحوسًا كان المولود طويل العمر فقيرًا سيئ الحال، وإن كان الهيلاج مسعودًا والكدخداي منحوسًا كان المولود حسن الحال غنيًّا قصير العمر.

فأما علة قصر العمر عن المقدار الطبيعي فهو أن تكون عطية الكدخداي يسيرة، فإذا فَنِيَت وبلغت درجة المسير إلى مركز النحوس وساعاتها مات المولود فجأة أو بأعلال وأمراض وأسباب شتى لا يعلم ذلك إلا الله — عزَّ وجلَّ — الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

(١٣) فصل في المتفق عليه بين أهل صناعة التنجيم

ثم اعلم يا أخي بأنه متفق بين أهل صناعة التنجيم في أحكام المواليد أنه من يوم الولادة إلى تمام أربع سنين شمسية يكون الطفل في تدبير القمر صاحب النمو والزيادة والنشوء، وتُشاركه سائر الكواكب في التدبير، كل واحد سبع تلك المدة التي تُسمى سِنِي التربية فتتصرف الأحوال بالطفل من التربية والنمو والزيادة والصحة والسلامة والعز والكرامة والأعلال والأمراض والبؤس والهوان واللذة والألم بحسب ما توجب تلك المدبرات في هذه السنين، مذكور شرح ذلك في كتب تحاويل سِنِي المواليد.

ثم يصير في تدبير عُطَارد ثلاث عشرة سنة وهو صاحب النطق والحركة والتعاليم والآداب والتمييز والفهم، وتشاركه في التدبير سائر الكواكب كل واحد سبع هذه المدة.

وكل ما انتهى التدبير إلى واحد منها ظهرت في المولود الأخلاق والأفعال المشاكلة لتلك القوى التي انعجنت وامتزجت وانغرست في جبلته في الرحم، وهو جنين كما يظهر زهر النبات وحبوبها ونَوْر الشجر وثمارها وروائحها وألوانها وطعومها عند بلوغها وتمامها وكمالها ونضجها بحسب ما في طباعها وأشباحها.

ثم يصير المولود في تدبير الزُّهَرة ثماني سنوات وهي صاحبة الحُسن والزينة والشهوات واللذة والرغبة في النكاح والحرص على السفاح، وتشاركها في التدبير سائر الكواكب كل واحد منها سبع هذه المدة.

فيَظهَر من المولود في هذه المدة الرغبة في التزوج والنكاح وطلب الشهوات والتمتع باللذات ومحبة الزينة والحسن والجمال والحرص على جمع الأموال واتخاذ المنازل والدار والدكان والضيعة والبستان والمباهاة والمفاخرة مع الأتراب والأقران باتخاذ الجواري والغلمان والانهماك في الشهوات إلى مدة ما.

ثم يَصِير في تدبير الشمس صاحبة العز والرياسة والتدبير والسياسة عشر سنوات.

ويَظهَر من المولود الكدخدائية في المنزل وتربية الأولاد، وتأديب الأهل والجيران، ومراعاة أمر الأقرباء والإخوان، وطلب العز والسلطان والرفعة والعلو والشرف في المنزلة وما شاكل ذلك.

وهذه الخصال والأخلاق والأفعال التي يحتاج إليها الملوك والرؤساء ودهاقنة القرى وساسة الجماعات، وتشاركها في التدبير سائر الكواكب كل واحد سبع هذه المدة.

ثم يَصِير في تدبير المِرِّيخ سبع سنوات وهو صاحب الحزم والعزم والشجاعة والمواهب والطلب والعطاء والإقدام والحمية والإنصاف والعزة.

وبالجملة كل خصلة وخُلُق وسجية لا بد منها لساسة الأمور وقادة الجيوش ورعاة الجماعات ومدبِّري المُلْك والناموس جميعًا وتشاركه سائر الكواكب في التدبير كل واحد سبع هذه المدة، فتمتزج طبائعها وتتحد قواها وتظهر أفعالها مشاركة لسائر الكواكب، لا يعلم تفصيل ذلك إلا الله والراسخون في علم النجوم، وقليل ما هم.

ثم يَصِير المولود في تدبير المُشتَرِي اثنتي عشرة سنة، وهو صاحب الدِّين والوَرَع والتوبة والندامة والزهد والعبادة والرجوع إلى الله — جلَّ ثناؤه — بالصوم والصلاة والصدقة والاستغفار وطلب الآخرة والرغبة فيها والتزود للرحلة من هذه الدار الفانية إلى دار القرار الباقية، ويشاركه سائر الكواكب كل واحد سبع هذه المدة، فتمتزج طبائعها وتتحد قواها، وربما ظهرت أفعالها متناقضة من أجل القوى المتضادة.

وذلك أن الإنسان العاقل ربما حصل في هذه المدة متجاذبًا بين أمرين اثنين متضادين، وذلك أن الزُّهَرة إذا استوتْ بدلالتها بشركة المِرِّيخ على أحوال المولود دلت له على الرغبة في الدنيا والحرص على شهواتها ولذاتها، فيزيد المِرِّيخ قوة ونشاطًا وعُطَارد لطفًا ورفقًا وحيلة وزحل ثباتًا ووقوفًا وصبرًا، والقمر زيادةً ونموًّا، والشمس عزًّا ورفعةً وبالضد من هذه كلها، أما المُشتَرِي وطباعه إذا استولى على الإنسان العاقل بدلالته بشركة زُحَل على أحوال المولود، دلَّ له على الزهد في الدنيا وقلة الرغبة في شهواتها ولذاتها وشدة الرغبة في الآخرة والحرص على طلبها، ويزيد المِرِّيخ قوة ونشاطًا في الطلب، ويزيده عُطَارد لطفًا ورفقًا وحيلة، وتزيده الزُّهَرة رغبة وشهوة واستحسانًا وتزيينًا، ويزيده زحل صبرًا في العبادة وثباتًا على التوبة، وتزيده الشمس نورًا وهداية وكبر نفس وتسلية وتلطفًا عن الدنيا الدنية، ويزيده القمر أتباعًا وأعوانًا على ما هو عليه.

فإن اجتهد الإنسان وفعل ما رُسم في الشريعة من لزوم أحكامها ومفروضاتها، وعمل بما وُصف في الفلسفة، وصبر عليه مدة ما، فعمَّا قليل يخفُّ عليه كلُّ ما هو فيه من تجاذب الطبيعتين المتضادتين، إلى أن يَصِير التدبير إلى زُحَل بعد إحدى عشرة سنة وهو صاحب السكون والهدوء والكسل وجمود نيران الشهوات الجسمانية وذهاب القوى الحيوانية واسترخاء الأعصاب وذبول الآلات الجسدانية ووقوف الحواس عن مباشرة المحسوسات.

ثم لا يمكن للنفس إظهار الأفعال، ولا تناول اللذات، فعند ذلك تقلُّ رغبته في هذه الدنيا وينقطع طمعه في المقام في عالم الكون والفساد.

ثم يجيئه الموت الطبيعي على التدريج إذا انطفأت الحرارة الغريزية من البدن وانسلَّتِ الروح الحيوانية من الجسد كما ينطفئ السراج ويذهب الضوء إذا فَنِيَ الدهن واحترقت الفتيلة.

فإن كان الإنسان قد ارتاض فيما مضى من عمره، وتعلَّم علمًا من العلوم وأدبًا من الآداب، أو صناعة من الصنائع، أو تديَّن بمذهب من الآراء، أو عمل عملًا من الأعمال يهدي به إلى طريق الآخرة وأمر المعاد، فإنه يُرجَى لتلك النفس أن تهتدي إلى الرجوع إلى عالَمِها النفساني ومحلِّها الروحاني واللحوق بأبناء جنسها الذين مَضَوْا قبلَها ووصلوا إلى هناك وتخلَّصوا من دركات عالَم الكون والفساد، وحريق نيران الآلام والأسقام والأمراض والجوع والعطش والبرد والحر والتعب والكد والعناء والفقر ومشقة الأعمال المتعِبة، والأفعال السمجة القبيحة، وحرارة الحرص، والرغبة، والشهوات المردية، والعادات الرديئة، والأخلاق الوحشية، والجهالات المتراكمة، والأعمال السيئة، وما يلحق أهلها من العبادات والمباغضات فيما بينهم، ومن حسد الجيران، وعداوة الأقران، وجور السلطان، ووساوس الشيطان، ونكبات الزمان، ونوائب الحدثان.

فإن قال قائل من المنكِرين لأفعال الكواكب وتأثيراتها في هذه الكائنات، أو فكَّر متعجِّب في كيفية انطباع تلك القوى في مزاج الجنين، وانغراس تلك الطباع في جبلته، وكيف يكون ظهور أفعالها بعد الولادة، فليعتبر أفعال الدرياقات والمراهم والشربات، وكيف تَظهَر أفعال تلك العقاقير والأدوية مفردة ومركبة بعد جمعها واختلاطها وعجنها وطبخها واتخاذ أجزائها، وتأليف قواها، وكيف يقصد كل قوة ودواء إلى عضو مخصوص ومرض معروف وعلة بعينها فيُزيلها، ويؤثِّر فيها بإذن الله.

أو فليعتبر أصوات الموسيقار ونغمات الألحان كيف تتألَّف وتتحد ويحملها الهواء إلى مسامع الآذان ويبلغها إلى صميم الدماغ، ويوصل معانيها إلى ما في طباع النفوس.

ثم كيف يظهر من كل حيوان أو إنسان تأثيرات مختلفة من الفرح والسرور والضحك والحزن والبكاء والغم والهم والشجاعة والجبن والسخاء والبخل، أو النشاط والحركة، أو النوم أو الهدوء والسكون، أو تذكار شيء قد أنساه الدهر والتسلي عن مصيبة قريبة العهد، وما شاكل هذه التأثيرات في النفوس من استماع أصوات الموسيقار ونغمات الألحان مما لا خفاء فيه على كل عاقل معتبر، فإذا خَفِيَتْ على المتفكِّر كيفية هذه التأثيرات في النفوس ولم يَفهَمْها، فلا ينبغي أن يُنكِر تأثيرات الكواكب في النفوس من أجْل أنه لا يفهم معانِيَها، ولا يتصور كيفيتها؛ لأنها أَخْفَى وأدقُّ وألْطَف من هذه.

(١٤) فصل في أن لكل قاصد غرضًا

واعلم يا أخي أن الله — جلَّ ثناؤه — قد جعل لكل قاصد غرضًا ما، ولغرض كل قاصد نهاية ما، وقدَّر لصاحب كل غرض في قصده طريقة وُسْطَى بين الزيادة والنقصان، فكون الجنين في الرحم زمانًا لغرض ما ومكثه ثمانية أشهر طريقة وسطى بين الزيادة والنقصان.

وهكذا أيضًا كونه في الدنيا زمانًا ما لغرض ما، وعمره الطبيعي الذي جعل للإنسان هو مائة وعشرون سنة طريقة وسطى بين الزيادة والنقصان، فأما الذي يزيد على هذين المقدارين وينقص عنهما، فلِعِلَل وأسباب شتَّى يطول شرحها.

ولكن إن كنتَ تريد أن تعلم أنه إذا زاد مكث الجنين على ثمانية أشهر نقص من عمره الطبيعي الذي هو مائة وعشرون سنة، فاعرف الأصل والْزَم القانون الذي ذكرناه، وهو أن كل كائن وحادث في هذا العالم الذي تحت فلك القمر من وقت حدوثه وكونه إلى وقت فنائه وبواره هو من المدة التي هي مقدار دورة واحدة من أدوار الأشخاص الفلكية العالية كما بيَّنَّا في رسالة الأكوان والأدوار.

وقد ذكرنا قبل هذا الفصل بأن من مسقط النطفة إلى يوم الموت من المدة إذا جرى مكثه وعمره على الأمر الطبيعي هو مقدار دورة واحدة من أدوار الشمس.

وذلك أنه إذا مكث الجنين في الرحم ثمانية أشهر ثم ولد، فإن الذي يبقى للشمس من المسير إلى أن تعود إلى الدرجة التي كانت فيها يوم مسقط النطفة أربعة أبراج مائة وعشرين درجة، فيستأنف المولود العمر في الدنيا لكل درجة سنة، فإن مكث تسعة أشهر فالذي يبقى له ثلاثة أبراج تسعون درجة، ويستأنف المولود العمر تسعين سنة، فإن مكث عشرة أشهر فالذي يبقى له برجان ستون درجة، فيستأنف المولود العمر ستين سنة، فقد تبيَّن بهذا المثال، وعلى هذا القياس أن كل ما زاد في المكث نقص في العمر.

فأما الذي يوجد بالتجربة أن جنينًا مكث عشرة أشهر، وعاش مائة وعشرين سنة أو مكث تسعة أشهر أو مات لأقل من ستين سنة، فلعِلَل وأسباب خارجة عن الأمر الطبيعي يطول شرحها.

وعلى هذا المثال يجري حكم سعادة المواليد، وذلك أن الله — عزَّ وجلَّ — قد جعل لكل مولود قَدْرًا من السعادة في الدنيا، وقسَّمها قسمين: قسمًا جعل منه لطول العمر، وقسمًا لرغد العيش وربما يزيد لأحد المواليد في عمره، وينقص من رغد عيشه، وربما يزيد لآخر في رغد عيشه وينقص من عمره، فمِن أجْل هذ ترى كثيرًا من سعداء أبناء

الدنيا الرغدي العيش يكونون قصيري الأعمار، وترى كثيرًا طويلي الأعمار ناقصي رغد العيش.

ومما يُحكَى أن مَلِكًا رأى شيخًا في داره كبيرًا سقَّاء، فقال له: كم تعدُّ من الخلفاء؟ فقال له: كثير، فقال له شبهَ المتعجِّب: ما بالكم تطول أعماركم وتنقص أعمارنا؟! فقال له السقاء: لأن أرزاقكم تجيئكم مثل أفواه القِرَب، وأن أرزاقنا تجيء مثل قَطْر المطر.

فاستحسن الملك قوله، وضحك وأمر له بجائزة حسنة أغناه بها، ثم فقده بعد قليل، فسأل عنه فعرف بموته، فقال: صدق، لما جاء الرزق مثل أفواه القرب قصر عمره.

وهكذا أيضًا الحكم والقياس قد جعل الله لكل إنسان حظًّا من السعادة وقسطًا من النعيم، وقسمها قسمين، فجعل قسطًا في الدنيا وقسطًا في الآخرة كما ذكر، فقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾، وقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، فمقدار ما يدخل الإنسان حظه من النعيم، والتلذذ في الدنيا، فبذلك المقدار ينقص حظه من نعيم الآخرة، وإلى هذا المعنى أشار بقوله — تعالى — في عتابه للمسرفين: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.

وحُكِيَ أيضًا قول الربانيين العارفين حقيقة ما نقول حين قالوا لقارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾؛ وذلك لأنهم عَلِموا بأن نصيبه من الدنيا هو مقدار ما يقدمه لآخرته، ولا يتمتع به كله في الدنيا، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾، وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى الذي ذكرنا، فلا تغترَّ يا أخي بما تَرَى مِن حال المُتْرَفين في الدنيا، وما يتنعَّمون من النِّعَم والتلذذ مع عصيان الله وإعراضهم عن الآخرة وتركهم ذكر المعاد، فعما قليل سيَفنَى ما هم من نعيم الدنيا، ويُحضَرون للآخرة فيكونون من فقرائها وأشقيائها كما ذكر الله — تعالى — فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، وذلك أنهم ظلموا أنفسهم باستعجالهم راحة الدنيا، وإعراضهم عن الآخرة وعصيانهم عنها، وتركهم الاستعداد لها، ولم يسعَوْا في خلاص نفوسهم وفكاك رقابهم منها، ولا جرم أنهم سيعلمون أي منقلب ينقلبون، وكفى بهذا وعيدًا وتهديدًا! وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو أَلْقَى السمع وهو شهيد، وقد تبيَّن بما ذكرنا أن مكث الجنين في الرحم مدة ما إنما هو لكي يتم الجسد وتستكمل صورة البدن والغرض من ذلك أن المولود ينتفع بالحياة الدنيا بعد الولادة.

وكذلك أيضًا قد قال الحكيم: إن مكث الإنسان العاقل الذي هو تحت الأمر والنهي إما بموجب العقل أو بطريق السمع بأوامر الناموس ونواهيه، وفي طول عمره الطبيعي مدة ما إنما هو لأن تتم فضائل النفس، وتستكمل أخلاقها المختلفة ومعارفها الربانية بالتأمل والبحث في النظر والسعي والاجتهاد في العمل، كما ذُكر في حدِّ الفلسفة أنها التشبه بالإله، بحسب طاقة الإنسانية، أو بما رُسم في الناموس من الوصايا والأوامر والنواهي، كل ذلك لكيما تستكمل النفس فضائل الملائكة فيها.

والغرض من هذا كله هو أن يمكنها ويتهيأ لها الصعود إلى عالَم الأفلاك والدخول في سَعَة السموات والكون هناك مع أبناء جنسها وأهل ملتها من القرون الخالية الذين مَضَوْا على سُنَن الديانات النبوية والمناجاة الفلسفية الحكمية والآداب الملكوتية، واللحوق بهم في درجاتهم والمكث هناك متنعمة متلذذة فرحة مسرورة أبد الآبدين ودهر الداهرين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وإليهم أشار بقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

(١٥) فصل في أن أكثر الناس لا يعيشون أعمارًا طبيعية

اعلم يا أخي أن الله — جلَّ ثناؤه — لما علم بأن أكثر الناس لا يعيشون أعمارًا طبيعية على التمام، ولا يُترَكون في الدنيا زمانًا طويلًا تُهذَّب فيه نفوسُهم وتُستكمَل فضائلهم، لَطَفَ بهم من أجل ذلك، وبعث إليهم الأنبياء والرسل واضعي النواميس بالوصايا والأوامر والنواهي والسنن الزكية والشرائع المَرْضِيَّة إذا استعملوها على نحو ما رُسم لهم من السيرة العادلة استتمَّتْ فضائل نفوسهم، وتهذَّبتْ أخلاقهم، وإن كانوا قصيري الأعمار، كما ذكر الله — تعالى — فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «مَن أخلص العبادة لله — تعالى — أربعين صباحًا شَرَحَ الله صدره بنوره، وفتح قلبه للإيمان، وأطلق لسانه بالحكمة، ولو كان أعجميًّا أغلقًا»، فهذا هو حكم نفوس البالِغين الذين تحت الأمر والنهي.

وأما حكم نفوس الأطفال والمجانين فهي تنجو بشفاعة الآباء والأمهات والأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

وإذ قد تبيَّن لك يا أخي ما الغرض من المكث في الرحم مدة ما، وما الغرض من المكث في الدنيا مدة ما أيضًا، فبادِرِ الآن وتشمَّر وتزوَّد فإن خيرَ الزاد التقوى، وشدَّ

وسطك للرحيل من الدنيا الفانية إلى دار القرار الباقية قبل فناء العمر وتقارُب الأَجَل، فقد أعذر مَن أنذر كما قال الله تعالى: فبَعَث لله النبيِّين مُبشِّرين ومُنذِرين وأنزَلَ معهم الكتابَ والميزان، يعني العدل ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أن يقولوا يوم القيامة ما جاءنا من رسول، ولا كتاب، وكانت أعمارنا ناقصة قصيرة وآجالنا قريبة، فارجعنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل.

الناس نيام، وإذا ماتوا انتبهوا، فانتبه أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة قبل أن تُفارِق الأوطان، وتدخل في النيران، وقبلَ أن يُنادِيَ المنادي قد شَقِيَ فلان وسَعِدَ فلان، وفَّقك الله وإيانا للسداد، إنه رءوف بالعباد.

(تمَّت رسالة مسقط النطفة ويتلوها رسالة قول الحكماء.)

الرسالة الثانية عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات في قول الحكماء «إن الإنسان عالم صغير»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، بأنَّا قد فرغنا مِن ذِكر مسقط النطفة وبيان ما يتعلق بذلك من رباط النفس بها وتقلُّب الحالات التي تَظهر شهرًا بعد شهر وتأثيرات أفعال الكواكب في أحكام بنية الجسد. وقد بيَّنَّا بعد ذلك الغرض الأقصى من وجود الإنسان ومكثه في العالم زمانًا، فنريد أن نذكر في هذه الرسالة معنَى قول الحكماء إن الإنسان عالم صغير، فنقول: اعلم أن الحكماء الأولين لما نظروا إلى هذا العالم الجسماني بأبصار عيونهم، وشاهدوا ظواهر أموره بحواسهم، وتفكروا عند ذلك في أحواله بعقولهم، وتصفحوا تصرُّف أشخاص كلياته ببصائرهم، واعتبروا فنون جزئياته برويتهم؛ فلم يجدوا جزءًا من جميع أجزائه أتمَّ بنية ولا أكمل صورة ولا بجملته أشد تشبيهًا من الإنسان.

وذلك أنه لما كان الإنسان هو جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية، وجدوا في هيئة بنية جسده مثالات لجميع الموجودات التي في العالم الجسماني من عجائب

تركيب أفلاكه وأقسام أبراجه وحركات كواكبه وتركيب أركانه وأمهاته، واختلاف جواهر معادنه وفنون أشكال نباته وغرائب هياكل حيواناته.

ووجدوا أيضًا لأصناف الخلائق الروحانيين من الملائكة والجن والإنس والشياطين ونفوس سائر الحيوانات، وتصرف أحوالها في العالم؛ تشبيهًا من النفس الإنسانية وسريان قواها في بنية الجسد.

فلما تبيَّنتْ لهم هذه الأمور عن صور الإنسان سمَّوه من أجل ذلك عالمًا صغيرًا، ونريد أن نذكر من تلك المثالات وتلك التشبيهات طرفًا لكيما يكون دليلًا على صحة ما قالوه وبيانًا لما وصفوه، وليقرب أيضًا على المتعلمين فهمها ويسهل على الباحثين تأملها.

(٢) فصل في اعتبار أحوال الإنسان بأحوال الموجودات حسب ما نبين ها هنا

فنقول: إن الموجودات لما كانت كلها جواهر وأعراضًا مجموعًا منهما هيولى وصور ومركَّبًا منهما، كما بيَّنا في رسالة الهيولى، وكانت الأعراض كلها جسمانية أو روحانية، كما بيَّنا في رسالة العقل والمعقول.

وكان الإنسان إنما هو جملة مجموعة من جوهرين مقرونين؛ أحدهما هذا الجسد الجسماني الطويل العريض العميق المدرك بطريق الحواس، والآخر هذه النفس الروحانية العلامة المدركة بطريق العقل.

فلما كان الجسد بنية مؤلفة من أعضاء مختلفة الأشكال كاليدين والرجلين والرأس والرقبة والظهر والوركين والركبتين والساقين والقدمين، وكانت كل واحدة منها أيضًا مركبة من أعضاء مختلفة الصور متشابهة الأجزاء كالعظم والعصب والعروق واللحم والجلد وما شاكلها، كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد، وكانت هي أيضًا مكونة من الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم والمرتان.

وهي أيضًا متولدة من الكيموس، والكيموس من الغذاء، والغذاء من النبات، والنبات من الأركان الأربعة، كما بيَّنا في رسالة النبات، وكل واحدة مقومة من طبيعتين من الطباع الأربع المعلومة، كما بيَّنا في رسالة الكون والفساد، وكل واحدة منها صور متممة للجسم وصور مقومة لشيء آخر من الأجسام الطبيعية كما بيَّنا في رسالة الهيولى والصورة.

ولما كان الهيولى والصورة أيضًا جوهرين بسيطين روحانيين معقولين مخترعين مبدعين كما شاء باريها جل جلاله للفعل والانفعال قابلين بلا كيف ولا زمان ولا مكان، بل بقوله «كن» فكان كما بيَّنا في رسالة المبادئ العقلية.

ولما كان الإنسان حاله ما ترى، وهو كما أخبرنا أنه جملة مجموعة من جسد ظلماني ونفس روحانية صار إذا اعتبر حال جسده وما فيه من غرائب تركيب أعضائه وفنون تأليف مفاصله يشبه دارًا لساكنها.

وإذا اعتبر حال نفسه وعجائب تصرفاتها في بناء هيكل جسده وسريان قواه في مفاصل بدنه يشبه كأنها ساكنًا في منزله مع خدمه وأهله وولده.

ومن وجه آخر إذا اعتبر وجد بنية جسده مع اختلاف أشكال أعضائه وافتنان تأليف مفاصله يشبه دكانًا للصانع.

فهكذا نفسه من أجل سريان قواها في بنية هيكل جسده وعجائب أفعالها من أعضاء بدنه وفنون حركاتها في مفاصل جسده يشبه صانعًا في الدكان مع تلامذته وغلمانه، كما بيَّنا في رسالة الصنائع العملية.

ومن وجه آخر إذا اعتبر بنية جسده مع كثرة تأليفات طبقات بناء هيكله وغرائب تركيب مفاصل بدنه، وكثرة اختلاف أعضائه وتشعب فروع عروقه وامتدادها إلى أطراف أعضائه، وتباين أوعيته التي في عمق جسده وتصرف قوى النفس؛ يشبه مدينة مملوءة أسواقها من الصنائع، كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد.

ومن وجه آخر إذا اعتبر من أجل تحكم النفس على أحوال الجسد وحسن سياستها وسريان قواها وتصرفاتها في بنية هذا الجسد، يشبه ملكًا في تلك المدينة بجنوده وخدمه وحاشيته، كما بيَّنا في رسالة العقل والمعقول.

ومن وجه آخر إذا اعتبر حال الجسد وتكوينه وحال النفس ونشوءها مع الجسد يشبه الجسد الرحم والنفس كالجنين، كما بيَّنا في رسالة نشوء النفس الجزوية وخروجها من القوة والفعل.

ومن وجه آخر إذا اعتبر وجد مثل الجسد كالسفينة والنفس كالملاح والأعمال كالأمتعة للتجار والدنيا كالبحار والموت كالساحل والآخرة كمدينة التجار، والله تعالى الملك المُجازي هناك.

ومن وجه آخر إذا اعتبر وجد الجسد كالدابة والنفس كالراكب والدنيا كالميدان والعمال كالسباق.

ومن وجه آخر إذا اعتبر وجد النفس كالحراث والجسد كالمزرعة والأعمال كالحب والثمر والموت كالحصاد والدار الآخرة كالبيدر، كما بيَّنا في رسالة حكمة الموت.

ومن وجه آخر إذا اعتبر وجد عجيب بنية الجسد، كما ذكرنا في كتب التشريح، وكثرة ما تستفيد النفس العلوم بمقارنتها الجسد؛ يشبه مكتبًا للعلوم والنفس كالصبي في المكتب، كما بيَّنا في رسالة الحاس والمحسوس.

ومن وجه آخر إذا اعتبر تركيب الجسد وسريان قوى النفس فيه وتصرف أحوال الإنسان كأنه دفتر مملوء من العلوم، ويقال إنه مختصر من اللوح المحفوظ. وقد ضَربت الحكماء لذلك أمثالًا كثيرة، ونريد أن نذكر من ذلك طرفًا مرموزًا مختصرًا حسب ما يليق بنا.

(٣) فصل في أن الإنسان مختصر من اللوح المحفوظ

ذكر أنه كان ملك من الملوك، حكيم من الحكماء، سيد من السادات، وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه، فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم؛ ليقومهم قبل إيصالهم إلى مجلسه؛ لأنه لا يليق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والمرتاضون في العلوم المتخلِّقون بالأخلاق الجميلة المبرَّءون من العيوب. فرأى من الرأي الرصين والحكمة أن يبني لهم قصرًا على أحكم ما يكون من البنيان، فأفرد لكل واحد منهم مجلسًا وكتب كل عِلم أراد أن يعلمهم إياه في جوانب ذلك المجلس، وصور فيه كل شيء أراد أن يهذبهم به، ثم أجلسهم في ذلك القصر وأجلس كل واحد منهم في حصته المعدة له، ووكل بهم الخدم والجوار والغلمان، وقال لأولئك الأولاد: انظروا إلى ما صورتُ لكم بين أيديكم، واقرءوا ما كتبت فيه من أجلكم، وتأملوا ما بيَّنتُه لكم وتفكروا فيها؛ لتعرفوا معانيها وتصيروا من ذلك حكماء أخيارًا فضلاء أبرارًا، فأوصلكم إلى مجلسي فتكونوا من ندماي مكرمين سعداء منعمين أبدًا ما بقيتُ وبقيتم معي. وكان مما كتب لهم في ذلك المجلس من العلوم أنْ صوَّر في أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبيَّن كيفية دورانها وأبراج طلوعاتها، وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلائلها وأحكامها.

وصوَّر في صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم وخطط الجبال والبحار والبراري والأنهار، وبيَّن حدود البلدان والمدن والمسالك والممالك، وكَتب في صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها، وبيَّن خاصيتها ومنافعها ومضارها.

وكتب في الجانب الآخر علم الصنائع والحِرَف، وبيَّن كيفية الحرث والنسل، وصوَّر المدن والأسواق، وبيَّن أحكام البيع والشراء والربح والتجارات.

وكتب في الجانب الآخر علم الدين والمِلل والشرائع والسنن، وبيَّن الحلال والحرام والحدود والأحكام.

وكَتب في الجانب الآخر السياسة وتدبير المملكة، وبين كيفية جباية الخراج، والكتاب والدواوين وبين أرزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيوش والأعوان.

فهذه ستة أجناس من العلوم يراض بها أولاد الملوك، وهذا مثل ضربته الحكماء؛ وذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى، والأولاد الصغار هي الإنسانية، والقصر المبني هو الفلك بأسره، والمجالس المتقنة هي صورة الإنسان، والآداب المصورة هي عجيب تركيب جسده، والعلوم المكتوبة فيه هي قوى النفس ومعارفها، ونحن نبين هذا فصلًا فصلًا فيما بعد بأوجز الوجوه.

(٤) فصل في فضيلة جوهر النفس

فنقول: اعلم أن لجواهر النفوس عند الله منزلة وكرامة ليست لجواهر الأجسام؛ وذلك لقرب نسبتها منه وبعد نسبة الأجسام؛ وذلك أن جواهر النفوس حية بذاتها علامة وفعالة وجواهر الأجسام ميتة منفعلة لأمثال لها.

وقد بيَّنا في رسالة المبادئ العقلية أن نسبة الموجودات من الباري تعالى كنسبة العدد من الواحد، والعقل كالاثنين، والنفس كالثلاثة، والهيولى الأولى كالأربعة، والطبيعة كالخمسة، والجسم كالستة، والفلك كالسبعة، والأركان كالثمانية، والمولودات كالتسعة.

ومن وجه آخر نسبة النفس من العقل كنسبة ضوء القمر من نور الشمس، ونسبة العقل من الباري كنسبة نور الشمس من الشمس، وكما أن القمر إذا امتلأ من نور الشمس حاكى نوره نورها، كذلك النفس إذا قبلت فيض العقل فاستتمت فضائلها حاكت أفعالها أفعال العقل، وإنما تستتم فضائلها إذا هي عرفت ذاتها وحقيقة جوهرها، وإنما تستبين لها فضائل جوهرها إذ هي عرفت أحوال عالمها الذي هو صورة الإنسانية؛ لأن البارئ تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وصوره أكمل صورة وجعل صورته مرآة لنفسه ليتراءى فيها صورة العالم الكبير.

وذلك أن الباري جل جلاله لما أراد أن يُطلع النفس الإنسانية على خزائن علومه ويشهدها العالم بأسره، علم أن العالم واسع كبير وليس في طاقة الإنسان أن يدور في العالَ حتى يشاهده كله لقصر عمره وطول عمران العالم، فرأى من الحكمة أن يخلق لها عالمًا صغيرًا مختصرًا من العالم الكبير، وصور في العالم الصغير جميع ما في العالم

الكبير، ومثله بين يديها وأشهدها إياه، فقال عز من قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا بأجمعهم: بلى. فمن كان منهم شاهدًا عالمًا عارفًا حقيقته كانت شهادته عليه حقًّا، ومن كان جاهلًا كانت شهادته مردودة؛ لأنه قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ألا ترى أنه لا يقبل إلا شهادة أهل العلم.

ثم اعلم أن افتتاح جميع العلوم هو في معرفة الإنسان نفسه، ومعرفة الإنسان تكون من ثلاث جهات؛ إحداها أن يعتبر أحوال جسده وتركيب بِنيته وما يتعلق عليه من الصفات خلوًا من النفس، والآخر اعتبار أحوال نفسه وما يوصف من الصفات خلوًا من الجسد، والآخر اعتبار أحوالهما مقترنين جميعًا وما يتعلق على الجملة من الصفات. وقد بيَّنا في رسالة تركيب الجسد طرفًا من هذه الاعتبارات، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفًا آخر فنقول …

(٥) فصل في اعتبار أحوال الإنسان بأحوال الفلك

اعلم أن الباري تعالى جعل في تركيب جسد الإنسان أمثلة وإشارات إلى تركيب الأفلاك وأبراجها والسموات وأطباقها، وجعل سريان قوى النفس في مفاصل جسده واختلاف أعضائه كسريان قوى أجناس الملائكة وقبائل الجن والإنس والشياطين في أطباق السموات والأرض في أعلى عليين إلى أسفل السافلين.

وأما مماثلة تركيب جسد الإنسان بتركيب الأفلاك، وذلك أنه لما كانت الأفلاك تسع طبقات مركبة بعضها جوف بعض، كما بيَّنا في الرسالة التي في مدخل النجوم، كذلك وجد في تركيب جسد الإنسان تسع جواهر بعضها جوف بعض ملتفَّات عليها مماثلة لها؛ وهي العظام والمخ واللحم والعروق والدم والعصب والجلد والشعر والظفر. فجعل المخ في جوف العظام مخزونًا لوقت الحاجة إليه، ولف العصب على مفاصله كيما يمسكها فلا ينفصل، وَحَشَى خلل ذلك باللحم صيانةً لها، ومد في خلل اللحم العروقَ والأوردة الضاربة لحفظها وصلاحها، وكسا الكل بالجلد سترًا لها وجمالًا لها، وأنبت الشعر والظفر من فضل تلك المادة لمأربها؛ فصار مماثلًا لتركيب الأفلاك بالكمية والكيفية جميعًا؛ لأنها تسع طباقات وهذه تسع جواهر، وتلك بعضها جوف بعض وهذه مثال ذلك.

ولما كان الفلك مقسومًا اثني عشر برجًا، وجد في بنية الجسد اثني عشر ثقبًا مماثلًا له؛ وهي العينان والأذنان والمنخران والثديان والفم والسرة والسبيلين.

ولما كانت الأبراج ستة منها جنوبية وستة منها شمالية، كذلك وجدت ستة الثُّقَب التي في الجسد في الجانب اليمين، وستة في الجانب الشمال مماثلة لها بالكمية والكيفية جميعًا.

ولما كان في الفلك سبعة كواكب سيارة بها تجري أحكام الفلك والكائنات، كذلك وجد سبع قُوًى في الجسد فعالة بها يكون صلاح الجسد.

ولما كانت هذه الكواكب ذوات نفوس وأجسام لها أفعال جسمانية في الأجسام وأفعال روحانية في النفوس، كذلك وجدت في الجسد سبع قُوًى جسمانية؛ وهي القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة، وسبع قُوًى أخرى روحانية؛ وهي القوى الحساسة — أعني الباصرة والسامعة والذائقة والشامَّة واللامسة — والقوة الناطقة العاقلة، والقوة الحساسة مناسبة للخمسة المتحيرة، والقوة الناطقة مناسبة للقمر، والقوة العاقلة مناسبة للشمس؛ وذلك أن لكل واحد من الكواكب الخمسة بيتين في الفلك؛ أحدهما في حيز الشمس والثاني في حيز القمر، والنيران لكل واحد منهما بيت، كما بيَّنا في رسالة النجوم.

كذلك وجد في بنية الجسد لكل واحد من القوى الحساسة مجريان؛ أحدهما في الجانب الأيمن والآخر في الجانب الأيسر؛ فالقوة الباصرة مجراها في العينين، والقوة السامعة مجراها في الأذنين، والقوة الشامَّة مجراها في المنخرين، والقوة اللامسة مجراها في اليدين، والقوة الذائقة الشهوانية مجراها في الفم بالجانب الأيمن أشبه والفرج بالجانب الأيسر أشبه.

وأما القوى الناطقة فمجراها الحلقوم إلى اللسان، والقوة العاقلة فمجراها وسط الدماغ، ونسبة القوة الناطقة إلى القوة العاقلة كنسبة القمر إلى الشمس.

وذلك أن القمر يأخذ نوره من الشمس في جريانه من منازل القمر الثمانية والعشرين، وذلك أن القوة الناطقة من العقل تأخذ معاني ألفاظه بجريانه في الحلقوم فيعبر عنها بثمانية وعشرين حرفًا، ونسبة ثمانية وعشرين حرفًا للقوة الناطقة كنسبة ثمانية وعشرين منزلًا للقمر.

ولما كان في الفلك عقدتان، وهما الراقص والذنب، وهما خفيًّا الذات ظاهرَا الأفعال، بهما سعادات الكواكب ونحوساتها، كذلك وجد في الجسد أمران خفيان للذات ظاهرا الأفعال، بهما صلاح بنية الجسد وصحة الأفعال للنفس؛ وهما صحة المزاج وسوء المزاج؛ وذلك أنه إذا صح مزاج أخلاط الجسد صحت أعضاؤه واستقامت أفعال النفس وجرت على الأمر الطبيعي.

وإذا فسد المزاج اضطربت البنية وعيقت أفعال النفس عن جريها على السداد، وأضر ما يكون نحوسة العقدتين على النيرين؛ لأنها أَوْكد الأسباب في كسوفهما، وكذلك أضر ما يكون سوء المزاج على القوة الناطقة والقوة العاقلة؛ لأنه يعوقهما من أفعالهما أكثر وأشد.

والعينان في الجسد مناسبتان لبيتَي المشتري في الفلك، والأذنان في الجسد مناسبتان لبيتَي عطارد في الفلك، والمنخران في الجسد والثديان مناسبان في الجسد لبيتَي الزهرة، والسبيلان لبيتي زحل، والفم لبيت الشمس، والسرة لبيت القمر.

والسرة كانت باب الغذاء في الرحم قبل الولادة، والفم باب الغذاء في الدنيا، والسبيلان مقابلان لهما كتقابل بيتَي زحل لبيتَي النيرين.

وكما أن في الفلك بروجًا فيها حدود ووجوه ودرجات لها أوصاف مختلفة، كذلك للجسد أعضاء ومفاصل وعروق وأعصاب وعظام مختلفة يطول شرحها ومناسبتها بحدود الفلك، وقد تركنا ذكر ذلك.

(٦) فصل في مشابهة تركيب جسد الإنسان بالأركان الأربعة

فنقول: اعلم أنه لما كان تحت فلك القمر أربعة أركان؛ وهي الأمهات التي بها قوام الأشياء المولدات؛ والتي هي الحيوان والنبات والمعادن.

وكذلك وجد في بنية الجسد أربعة أعضاء هي تمام جملة الجسد؛ وأولها الرأس ثم الصدر ثم البطن ثم الجوف إلى آخر قدميه. فهذه الأربعة موازية لتلك؛ وذلك أن رأسه مواز لركن النار من جهة شعاعات بصره وحركات حواسه، وصدره مواز لركن الهواء من جهة نَفَسه واستنشاقه الهواء، وبطنه مواز لركن الماء من جهة الرطوبات التي فيه، وجوفه إلى آخر قدميه مواز لركن الأرض مِن قِبَل أنه مستقر عليه كاستقرار الثلاثة الباقية فوق الأرض وحولها.

وكما أن من هذه الأركان الأربعة تتحلل البخارات، فمنها تتكون الرياح والسحب والأمطار والحيوانات والنبات والمعادن.

وكذلك بهذه الأعضاء الأربعة تحلل البخارات في بدن الإنسان مثلما يخرج المخاط من المنخرين والدموع من العينين والبصاق من الفم والرياح التي تتولد في الجوف والرطوبات التي تخرج مثل البول والغائط وغيرهما.

فبنية جسده كالأرض، وعظامه كالجبال، والمخ فيه كالمعادن، وجوفه كالبحر، وأمعاؤه كالأنهار، وعروقه كالجداول، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ومنبته كالبرية

الطيبة، وحيث لا ينبت الشعر كالأرض السبخة، ووجهه إلى القدم كالعمران، وظهره كالخراب، وقدام وجهه كالمشرق، وخلف ظهره كالمغرب، ويمينه كالجنوب، ويساره كالشمال، وتنفُّسه كالرياح، وكلامه كالرعد، وأصواته كالصواعق، وضحكه كضوء النهار، وبكاؤه كالمطر، وبؤسه وحزنه كظلمة الليل، ونومه كالموت، ويقظته كالحياة، وأيام صباه كأيام الربيع، وأيام شبابه كأيام الصيف، وأيام كهولته كأيام الخريف، وأيام شيخوخته كأيام الشتاء، وحركاته وأفعاله كحركات الكواكب ودورانها، وولادته وحضوره كالطوالع، وموته وغيبوبته كالغوارب، واستقامة أموره وأحواله كاستقامة الكواكب، وتخلفه وإدباره كرجوعاتها، وأمراضه وأعلاله كاحتراقاتها، وتوقفه وتحيره في الأمور كتوقفها، وارتفاعه في المنزل والشرف كارتفاعها في أوجاتها وإشراقها، وانحطاطه في المنزل والسقوط كهبوطها وسقوطها في حضيضها، واجتماعه مع امرأته كاجتماعها، ومواصلته كاتصالاتها، وانفصاله كانصرافاتها، وإشارته كمناظرتها.

وكما أن الشمس رأس الكواكب في الفلك كذلك في الناس ملوك ورؤساء، وكاتصالات الكواكب بالشمس وبعضها ببعض كذلك اتصالات الناس بالملوك وبعضهم ببعض، وكانصراف الكواكب من الشمس بالقوة وزيادة النور كذلك انصرافات الناس من الملوك بالولايات والخلع والمراتب، وكنسبة المريخ من الشمس كذلك نسبة صاحب الجيش من الملك، وكنسبة عطارد من الشمس كذلك نسبة الكتَّاب والوزراء من الملوك، وكنسبة المشتري من الشمس كنسبة القضاة والعلماء من الملوك، وكنسبة زحل من الشمس كذلك نسبة الخُزَّان والوكلاء من الملوك، وكنسبة الزهرة من الشمس كذلك نسبة الجواري والمغنيات من الملوك، وكنسبة القمر من الشمس كذلك نسبة الخوارج من الملوك؛ وذلك أن القمر من الشمس يأخذ النور من أول الشهر إلى أن يقابلها فيحاكيها في نورها ويصير كالمماثل لها في هيئاتها، وكذلك حكم الخوارج من الملوك يتبعون أمرهم ثم يخلعون الطاعة وينازعونهم في الملك.

وأيضًا إن أحوال القمر تشبه أحوال أمور الدنيا من الحيوان والنبات وغيرهما؛ وذلك أن القمر يبتدئ من أول الشهر بالزيادة في النور والكمال إلى أن يتم في نصف الشهر، ثم يأخذ في النقصان والاضمحلال والمحاق إلى آخر الشهر.

وهكذا حالات أهل الدنيا تبتدئ من أول الأمر بالزيادة فلا تزال تنمو وتنشأ إلى أن تتم وتستكمل ثم تأخذ في الانحطاط والنقصان إلى أن تضمحل وتتلاشى.

(٧) فصل في تعداد قوى النفس

فنقول: إن هذا الجسد من كثرة عجائبه وترتيب أعضائه وطرائق تأليف مفاصله يشبه مدينة، والنفس كملك تلك المدينة، وفنون قواها كالجنود والأعوان، وأفعالها في هذا الجسد وحركاتها فيها كالرعية والخدم؛ وذلك أن للنفس الإنسانية قُوًى كثيرة لا يحصي عددَها إلا الله تعالى، ولكل قوة منها مجرًى في عضو من أعضاء الجسد غير مجرى القوى الآخر، ولكل قوة منها إلى النفس نسبة خلاف نسبة الأخرى.

ونريد أن نذكر منها طرفًا ليكون دليلًا على الباقية منها، وذلك أن لها خمس قُوًى حساسة كأنها أصحاب الأخبار، وأن النفس قد ولَّت كلٌّ واحدة منها ناحيةً مِن مملكتها لتأتيها بالأخبار من تلك الناحية من غير أن تشترك معها قوة أخرى. بيان ذلك أن القوة السامعة التي مجراها في الأذنين فإن النفس قد ولتها إدراك المسموعات فحسب؛ وهي الأصوات. والأصوات نوعان حيوانية وغير حيوانية؛ فغير الحيوانية كصوت الطبل والرعد والحجر والشجر والزمر والأوتاد، وما شاكل ذلك. والحيوانية نوعان منطقية وغير منطقية؛ كصهيل الخيل ونهيق الحمار وخوار الثور.

وبالجملة فإن أصوات الحيوانات غير الناطقة والمنطقية نوعان؛ دالة وغير دالة؛ فغير دالة كالألحان والنغمات والضحك والبكاء والصراخ والأنين وغير ذلك، والدالة هي التي تلفظ بالحروف المعجمة وهي التي تدل على المعاني في أفكار النفوس، كما بيَّنا في رسالة المنطق.

ولكل نوع من هذه الأنواع نوع آخر، وتحت تلك الأنواع أشخاص لا يعلم عددها إلا الله الواحد القهار. وإن القوة هي المتولية إدراكها، المتصرفة فيها بإتيان الأخبار عنها إلى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ. وهذه القوة في إدراكها هذه الأصواتَ وإتيانها بأخبارها تشبه صاحب خبر ملك يأتي بالأخبار إليه من ناحية من نواحي مملكته.

وأما القوة الباصرة التي مجراها في العينين، فإن النفس قد ولتها إدراك المبصرات. وهي تنقسم أنواعًا؛ فمنها الأنوار والظلمة، ومنها الألوان وهي السواد والبياض والحمرة والصفرة وما يتولد عند التركيب من سائر الألوان. ومن المبصرات أيضًا المقادير ذوات الأبعاد والأشكال والصور والحركات والسكون، وكل نوع من هذه تحته أنواع، وتحت تلك الأنواع أشخاص؛ وهي كلها تحت إدراك القوة الباصرة، وهي المتصرفة فيها والمميزة لها تأتي بالأخبار عنها إلى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ، ونسبة هذه القوة

من النفس كنسبة الديدان، وصاحب البريد إلى الملك يأتي بالأخبار إليه من ناحية من كل نواحي مملكته.

وأما القوة الشامَّة التي مجراها في المنخرين، فإن النفس قد ولتها إدراك الروائح والتصرف فيها والتمييز لها، وهي نوعان لذيذة وكريهة؛ فاللذيذة تسمى الطيب، والكريهة تسمى النتن. وتحت كل نوع من هذه الأنواع أنواعٌ ليس لها أسماء مفردة كأسماء سائر المحسوسات، ولكن القوة الناطقة نسبت كلَّ رائحة منها إلى حاملها الذي يفوح منه، فيقال رائحة المسك ورائحة الكافور ورائحة العود ورائحة النرجس وغير ذلك؛ فنسبتها إلى الذي تفوح منه، وهي كثيرة لا يحصي عددها إلا الله تعالى. وإن القوة الشامَّة هي المتولية لإدراكها والتصرف فيها بإتيان أخبارها إلى القوة المتخيلة، ونسبتها إلى النفس كنسبة أحد أصحاب الأخبار إلى الملك، مثلما قلنا في أمر القوة الباصرة والسامعة.

وأما القوة الذائقة التي مجراها في اللسان، فإن النفس قد ولتها أمر الطعوم والإدراك لها والتصرف فيها وتمييز بعضها من بعض، وهي تنقسم تسعة أنواع: أولها الحلاوة الملائمة لطبع الإنسان، والثانية المرارة المنافرة لطبع الإنسان، ومنها وسائط وهي الحموضة والملوحة والدسومة والعفوصة والحرافة والقبوصة والعذوبة، وكل نوع من هذه تحته أنواع، وتحت كل نوع منها أشخاص لا يعلم عددها إلا الله الواحد القهار. وإن القوة الذائقة التي هي متولية أمر هذه الطعوم بالإدراك لها والتصرف فيها وتمييز بعضها عن بعض وإتيان أخبارها إلى القوة المتخيلة، ونسبتها إلى النفس كنسبة أصحاب الأخبار إلى الملك، مثل أمر السامعة والباصرة والشامَّة.

وأما القوة اللامسة التي مجراها باليدين، فإن النفس قد ولتها أمر الملموسات، وهي عشرة أنواع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة. ولكل واحد من هذه تحتها أنواع، وتحت تلك الأنواع أشخاص لا يعلمها إلا الله الملك الجبار العزيز القهار. وإن القوة اللامسة التي باليدين هي المتولية أمر الملموسات بالإدراك والتصرف فيها وتمييز بعضها عن بعض وبإتيان أخبارها إلى القوة المتخيلة، ونسبتها إلى الشمس كنسبة إحدى أخواتها التي تقدم ذكرها.

وما مثل النفس مع قواها هذه الخمس الحساسة واختلاف محسوساتها، وما تحت كل جنس منها من الأنواع والأشخاص المختلفة الصور المفننة الأشكال المتباينة الهيئات؛ إلا كخمسة من الأنبياء أولي العزم من الرسل؛ مرسلهم واحد وشرائعهم مختلفة، وتحت كل شريعة مفروضات مفننة وأحكام متباينة وسنن متغايرة، تحت أحكامها أمم

كثيرة لا يحصي عددها إلا الواجب الوجود الواحد من جميع الوجوه. وكما أن تلك الأمم كلهم يرجعون إلى الله ليفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فهكذا حكْم المحسوسات كلها مرجعها إلى النفس الناطقة لتمييز بعضها عن بعض وتَعرف واحدًا واحدًا منها بحقائقها، وتَحكم عليها وتنزلها منازلها.

فصل

واعلم يا أخي أن للنفس الإنسانية خمس قُوًى أُخر تنسب نسبتها إلى النفس غير نسبة هذه الخمسة التي تَقدم ذكرها، وسريانها في أعضاء الجسد خلاف سريان أولئك، وأفعالها لا تشبه أفعالها.

وذلك أن هذه القوى الخمس هن كالشركاء المتعاونات في تناولها صورَ المعلومات بعضها من بعض، وثلاثة منها نسبتها إلى النفس كنسبة النُّدَماء من الملك، الحاضرين مجلسه دائمًا، المطلعين على أسراره، المُعِينين له في خاصة أفعاله، وهي القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ، والثانية القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ، والثالثة القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ، وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الحاجب والترجمان عن الملك، وهي القوة الناطقة المخبرة عنها معاني ما في فكرها من العلوم والحاجات، ومجراها في الحلقوم إلى اللسان.

وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الوزير إلى الملك المعين له في تدبير مملكته وسياسة رعيته، وهي القوة التي بها تظهر النفس الكتابة والصنائع أجمع ومجراها في اليدين والأصابع، فهذه القوى الخمس هي كالمتعاونات فيما يتناولن من صور المعلومات.

بيان ذلك أن القوة المتخيلة إذا تناولت رسوم المحسوسات من القوى الحاسَّة أدركت وأدت إليها، فتجمعها كلها وتؤديها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ حتى تميز بعضها من بعض، وتعرف الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والضار من النافع، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ لتحفظها إلى وقت الحاجة والتذكار.

ثم إن القوة الناطقة تناول تلك الرسوم المحفوظة وتعبر عنها عند البيان للقوة السامعة من الحاضرين في الوقت.

ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ الأسماع حظها ثم تضمحل، اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية واحتالت الطبيعة بأنْ قيَّدت تلك الألفاظ بصناعة الكتابة.

وذلك أن القوة الصناعية إذا أرادت تقييدها صاغت لها صورًا من الخطوط بالقلم وأودعتها وجوه الألوان وبطون الطوامير ليبقى العلم مفيدًا فائدة من الماضين للغابرين، وأثرًا من الأولين للآخرين، وخطابًا من الغائبين للحاضرين، وهذا من جسيم نعم الله تعالى على الإنسان، كما ذكر في كتابه فقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فصل

اعلم يا أخي أنه إذا تفكر الإنسان العاقل الفهيم في هذه القوة التي تَقدم ذكرها، وكيفية سريانها في أعضاء الجسم، وتصرفها في إدراك هذه المحسوسات، وتصورها رسوم المعلومات، واطلاع النفس عليها كلها في جميع حالاتها؛ تكون هذه شاهدة له من نفسه لنفسه، ودليلًا من ذاته على أن للنفس الكلية قُوًى كثيرة منبثة في فضاء الأفلاك وأطباق السموات وأركان الأمهات، وفي الحيوانات والنبات موكلة بحفظ الخليقة ومرتبة لصلاح البرية، وهم ملائكة الله — جل اسمه — وخالص عباده وصفوته من بريِّته، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون من غير خطاب ولا كلام، فهكذا هذه القوى تتصرف في حوائج النفس من غير كلام منها لهن ولا خطاب.

ويتبين له أيضًا بأن الله جل ثناؤه مطَّلع على أسرار جميع العالمين وأحوالهم، لا يعزب عنه من أمورهم مثقال ذرة، كما أن نفسه مطلعة على جميع محسوسات حواسها ومعلومات قواها وهن منقادة لأمرها فيما يأتين به إليها من أخبار محسوساتها من غير كلام لهن منها ولا خطاب.

(٨) فصل في اعتبار أحوال الإنسان بالموجودات التي دون فلك القمر

فأما اعتبار الإنسان بالموجودات التي دون فلك القمر، فاعلم أن الموجودات التي تحت فلك القمر نوعان؛ بسيطة ومركبة، فالبسائط هي الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، والمركبات هي المولدات الكائنات الفاسدات؛ أعني الحيوان والنبات والمعادن.

فالمعادن أسبق في الكون ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان، ولكل نوع من هذه خاصية قد سبق إليها، فخاصية الأركان الأربعة الطبائع الأربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، واستحالة بعضها إلى بعض، وخاصية النبات الغذاء والنمو، وخاصية الحيوان الحس والحركة، وخاصية الإنسان النطق والفكر واستخراج البراهين، وخاصية الملائكة ألا تموت أبدًا. فإن الإنسان قد يشارك هذه الأنواع كلها في خواصها، وذلك أن له طبائع أربع تقبل الاستحالة والتغيير مثل الأركان الأربعة؛ وله كون وفساد مثل المعادن، ويتغذى وينمو كالنبات، ويحس ويتحرك كالحيوان، ويمكنه ألا يموت كالملائكة، كما بيَّنا في رسالة البعث.

فصل

ثم اعلم يا أخي بأن الحيوانات أنواع كثيرة، ولكل نوع منها خاصية دون غيره، والإنسان يشاركها كلها في خواصها، ولكن لها خاصيتين تعمها كلها وهي طلبها المنافع وفرارها من المضار، ولكن منها ما يطلب المنافع بالقهر والغلبة كالسباع، ومنها ما يطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور، ومنها ما يطلبها بالحيلة كالعنكبوت؛ وكل ذلك يوجد في الإنسان.

وذلك أن الملوك والسلاطين يطلبون المنافع بالغلبة، والمكديون بالسؤال والتواضع، والصناع والتجار بالحيلة والرفق، وكلها تهرب من المضار والعدو، ولكن بعضها يدفع العدو عن نفسه بالقتال والقهر والغلبة كالسباع، وبعضها بالفرار كالأرانب والظباء وبعضها يدفع بالسلاح والجواشن كالقنفد والسلحفاة، وبعضها بالتحصن في الأرض كالفأر والهوام والحيات.

وهذه كلها توجد في الإنسان، وذلك أنه يدفع عن نفسه العدو بالقهر والغلبة، فإن خاف على نفسه لبس السلاح، وإن لم يُطقه نفر منه، فإن لم يقدر على الفرار تحصن بالحصون. وربما يدفع الإنسان عدوه بالحيلة كما احتال الغراب على البوم في كتاب كليلة ودمنة. وأما مشاركة الإنسان للكائنات في خواصها، فاعلم يا أخي — أيدك الله وإيانا بروح منه — أن لكل نوع من أنواع الحيوانات خاصية هي مطبوعة عليها، وكلها توجد في الإنسان؛ وذلك أنه يكون شجاعًا كالأسد، وجبانًا كالأرنب، وسخيًّا كالديك، وبخيلًا كالكلب، وعفيفًا كالسمك، وفخورًا كالغراب، ووحشيًّا كالنمر، وأنسيًّا كالحمام، ومحتالًا كالثعلب، ومسالمًا كالغنم، وسريعًا كالغزال، وبطيئًا كالدب، وعزيزًا

كالفيل، وذليلًا كالجمل، ولصًّا كالعقعق، وتائهًا كالطاووس، وهاديًا كالقطاة، وضالًا كالنعامة، وماهرًا كالنحل، وشديدًا كالتنين، ومهيبًا كالعنكبوت، وحليمًا كالجمل، وحقودًا كالحمار، وكدودًا كالثور، وشموسًا كالبغل، وأخرس كالحوت، ومنطقيًّا كالهزار داستان والببغاء، ومستحلًّا كالذئب، ومباركًا كالطيطوي، ومضرًّا كالفأر، وجهولًا كالخنزير، ومشومًا كالبوم، ونفاعًا كالنحل.

وبالجملة ما من حيوان ولا معادن ولا نبات ولا ركن ولا فلك ولا كوكب ولا برج ولا موجود من الموجودات له خاصية إلا وهي توجد في الإنسان أو مثالاتها كما بيَّنا قبلُ مِن كل شيء طرفًا، وهذه الأشياء التي ذكرنا في أمر الإنسان لا توجد في شيء من أنواع الموجودات التي في هذا العالم إلا في الإنسان.

فمن أجل ذلك قالت الحكماء إن الإنسان وحده بعد كل كثرة، كما أن الباري جل ثناؤه وحده قبل كل كثرة، ومن أجل ما عددنا من عجائب تركيب جسد الإنسان وغرائب تصاريف نفسه وما يظهر من جملة بنيته من الصنائع والعلوم والأخلاق والآراء والطرائق والمذاهب والأعمال والأفعال والأقاويل والتأثيرات الجسمانية والروحانية؛ سموه عالمًا صغيرًا.

فصل

فانظر يا أخي إلى هذا الهيكل المبني بالحكمة، وتأمل هذا الكتاب المملوء من العلوم، وتفكر في هذا الصراط المستقيم الممدود بين الجنة والنار، فلعلك أن توفق للخيرات عليه والمر على الصراط المستقيم، وتأمل هذا الميزان الموضوع بالقسط فلعلك تعرف وزن حسناتك وسيئاتك، واحسب حسابك به قبل فوت رأس مالك فإن الجنة من وراء هذا كله.

واذكر ما قد نبهك الله له وذكرك إياه بقوله: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾.

فإن كنت لا تحسن كيف تقرأ هذا الكتاب وكيف تحسب هذا الحساب وكيف تزن هذا الميزان وكيف تجوز هذا الصراط، فهلمَّ مجلس إخوان لك نصحاء أو أصدقاء لك كرماء فضلاء أخيار علماء محبين لك متوددين إليك، فيعرفوك ما لا تنكره ويعلموك ما تتيقنه، ولا تشك فيه بشواهد من نفسك وبراهين من ذاتك ودلائل من جوهرك، إذا

انتبهت نفسك من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، ونظرت بعين البصيرة كما نظروا، وسرت بسيرتهم العادلة كما ساروا، وعملت بسنتهم الحسنة وتفقهت في شريعتهم العقلية، ودخلت مدينتهم الروحانية، وتخلقت بأخلاقهم الملكية وعرفت آراءهم الصحيحة، وتعلمت معلوماتهم الحقيقية؛ فحينئذ تؤيد بروح الحياة الأبدية وتعيش عيش السعداء منعمًا مخلدًا أبدًا بنفسك الباقية الزكية لا بجسدك البالي المستحيل.

فصل

ثم اعلم أنه قد جعلتِ الحكمة الإلهية والعناية الربانية أعضاء كل شخص من الحيوان مناسبًا لجملة جسده، كما بيَّنا في رسالة فضيلة النسب، فنريد أن نذكر منها في هذه الرسالة طرفًا ليتبين تقابل العالم الصغير والكبير.

وذلك أن الإنسان لما كان أكمل الموجودات وأتم الكائنات التي تحت فلك القمر، وكان جسمه جزءًا من أجزاء العالم بأسره، وكان هذا الجزء أشبه الأشياء بجملته؛ صارت نفس الإنسان أيضًا أشبه النفوس الجزئية بالنفس الكلية التي هي نفس العالم بأسره، وصار حكم سريان قوى نفسه وأفعالها في بنية جسده مماثلة لسريان قوى النفس الكلية في جميع العالم.

وبيان ذلك أن لبنية جسدها — أعني النفس الكلية التي هي جملة العالم — سبعة أشخاص فاضلة متحركة مدبرة بإذن الملك الجبار عز وجل، ولكل واحد منها جرم فيه روح تسمى النفس، ولكل واحد منها أفعال في العالم مخصوصة غير ما للآخر، مذكور ذلك في كتب أحكام النجوم.

فهكذا أيضًا جعل الله تعالى في بنية جسد الإنسان أعضاء بنيتها مناسبة لجملة بدنه بعضها لبعض، وجعل لكل عضو منها قوة تختص بها ليظهر بها أفعاله في بنية الجسد وفي سائر أطرافه، وجعل أفعالها مناسبة لأفعال قوى روحانيات الكواكب السبعة.

بيانه أن نسبة جرم الجسد كنسبة جرم الشمس من العالم بأسره؛ وذلك أنه لما كان مركز جرمها في وسط الأفلاك كما بيَّنا في رسالة السماء والعالم هكذا جعل الباري تعالى جرم القلب في وسط الجسد، وكما أن من جرم الشمس ينبث النور والشعاع في جميع العالم بأسره، ومنها تسري قوى روحانياتها في جميع أجزاء العالم، وبها حياة العالم وصلاحه، كذلك ينبث من جرم القلب الحرارة وتسير في العروق الضوارب إلى سائر أطراف البدن، وبها تكون حياة الجسد وصلاحه.

وأيضًا إن نسبة جرم الطحال من الجسد كنسبة زحل من العالم؛ وذلك أن جرم زحل تنبث مع شعاعه قُوًى روحانياته وتسري في جميع أجزاء العالم، وبها تماسك الصور في الهيولى وبقاؤها بإذن الله.

فهكذا ينبث من جرم الطحال قوة الخلط السوداوي البارد اليابس وتجري مع الدم في العروق الواردة إلى سائر أطراف الجسد، وبها يكون جمود رطوبة الدم وتماسك أجزائه. ويَعرف حقيقةَ ما قلنا وصحة ما وصفنا جماعةٌ من الحذقة في صناعة الطب والراسخون في العلوم الحكمية.

وأيضًا إن نسبة جرم الكبد من الجسد كنسبة جرم المشتري من العالم؛ وذلك أنه ينبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته وتسري في أجزاء العالم، وبها يكون ترتيب أجزائه واعتدال أركانه ومناسبة موجوداتها التي في العالم على أفضل الحالات وأكمل الصفات. ويعرف حقيقة ما قلنا الحكماء والأنبياء وخلفاؤهم الأئمة الذين هم خزائن علم الله والأمناء على أسراره.

وأيضًا فإن نسبة جرم المرارة من الجسد كنسبة جرم المريخ من العالم؛ وذلك أنه تنبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته وتسري في جميع أجزاء العالم وبها تكون عزمات الموجودات وبلوغ النهايات، فهكذا ينبث من جرم المرارة قوى الخلط الصفراوي، وتجري مع الدم إلى سائر أطراف الجسد، وهي الملطفة للأخلاط المعيدة لها إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهايتها.

وأيضًا إن نسبة جرم المعدة إلى الجسد كجرم الزهرة في العالم؛ وذلك أنه ينبث من جرمها مع شعاعها قوى روحانياتها وتسري في جميع أجزاء العالم، وهي المفرحة الملذذة المسرة جميع الخلائق الجسمانية والروحانية التي في العالم، وبها زينة الموجودات ومحاسن الكائنات في العالم؛ أعني عالم الأفلاك والأمهات جميعًا، فهكذا ينبت من جرم المعدة القوة الشهوانية الطالبة للغذاء الذي هو مادة الجسد وهيولى الأخلاط، وبها تكون حياة الجسد ولذة العيش وقوام البدن في الأجسام البشرية والأجسام الطبيعية.

وأيضًا إن نسبة جرم الدماغ كنسبة جرم عطارد من العالم؛ وذلك أنه ينبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته التي تسري في جميع أجزاء العالم، وبها يكون الحس والشعور والعرفان في جميع الخلائق من العالمين جميعًا من الملائكة والناس أجمعين والجن والشياطين والحيوانات أجمع، فهكذا ينبث من وسط الدماغ قوة بها يكون الحس والشعور والذهن والفكر والروية والمعارف أجمع.

وأيضًا إن نسبة جرم الرئة كنسبة جرم القمر من العالم؛ وذلك أنه ينبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته التي تسري في عالم الأركان تارة وفي عالم الأفلاك تارة كما هو بيِّن ظاهر، وذلك أن جرم القمر نصفه أبدًا ممتلئ نورًا ونصفه الآخر مظلمٌ، وهو تارة يقبل بوجهه الممتلئ من النور نحو عالم الأركان من أول الشهر وتارة نحو عالم الأفلاك من آخر الشهر. ويعرف حقيقة ما قلناه وصحة ما بيناه الباحثون في علم المجسطي والهيئة، فهكذا ينبث من جرم الرئة قوة تجذب الهواء تارة من خارج الجسد وترسله إلى القلب ومن القلب تنفذه في العروق الضوارب إلى سائر أطراف الجسد، وهو الذي يسمى النبض، وبها تكون حياة الجسد، وتارة ترد من ذلك الهواء من داخل وبها يكون التنفس والأصوات والكلام أجمع.

فانتبه أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسداد، وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيل الرشاد إنه رءوف بالعباد.

(تمَّت رسالة قول الحكماء ويتلوها رسالة نشوء الأنفس.)

الرسالة الثالثة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات في كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنه لما فرغنا من بيان قول الحكماء «إن الإنسان عالم صغير»، نريد أن نذكر في هذه الرسالة كيفية نشوء الأنفس الجزئية فنقول: اعلم أن هذا الجسد لهذه الأنفس في المثال بمنزلة الرحم للجنين؛ وذلك أن الجنين إذا استتمَّتْ في الرحم بِنْيته وتكملت هناك صورته خرج إلى هذه الدار تام الخلقة سالم الحواس، وانتفع بالحياة فيها وتمتع بنعيمها إلى وقت معلوم، فهكذا يكون حال الأنفس في الدار الآخرة، وذلك أن الأنفس الجزئية إذا استتمت ذواتها بالخروج من القوة إلى حيز الفعل بما تستفيده من العلوم والمعارف بطريق الحواس، واستكملت صورتها بما تكتسب من الفضائل بطريق المعقولات والتجارب والرياضات وما يدبر في هذه الدار من السياسات من إصلاح أمر المعاش على الطريقة الوسطى، وتمهيد أمر المعاد على سنن الهدى، وتهذيب النفس بالأخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الصالحة، كل ذلك بتوسط هذا الجسد المؤلف من الدم واللحم.

ثم إن فارقته على بصيرة منها ومن أمرها، وقد عرفت جوهرها وتصورت ذاتها وتبينت أمر عالمها ومبدئها ومعادها كارهة للكون مع الجسد، بقيت عند ذلك مفارقة للهيولى، واستقلت بذاتها واستغنت بجوهرها عن التعلق بالأجسام، فعند ذلك ترتقي إلى الملأ الأعلى وتدخل في زمرة الملائكة، وتشاهد تلك الأمور الروحانية وتعاين تلك الصور النورانية التي لا تدركها بالحواس الخمس، ولا تتصور في الأوهام البشرية، كما ذكر هذا في الرموزات النبوية أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم واللذة والسرور والفرح والروح والريحان، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فأما إذا لم تستتمَّ خلقة الجنين في الرحم ولا استكملت هناك صورته أو عرض له عارض من النفس والاعوجاج في عضو من الأعضاء، فإنه لا ينتفع بالحياة في هذه الدار على التمام، ولا يكمل له نعيمها كالعميان والخرس والطرشان والزَّمنى والمفاليج وأشباههم، فهكذا تكون حال النفوس الجزئية عند مفارقة الأجساد البشرية.

وذلك أن الجزئية إذا لم تستتم بالعلوم والمعارف فإنها ما دامت مرتبطة بالأجساد البشرية متهيئ لها إدراك المحسوسات، فلا تستكمل صورها بمعرفة حقائق الأشياء ما دام لها العقل والتمييز والرؤية، ولا هي تهذبت بالأخلاق الجميلة ما دام يمكنها الاجتهاد والعزيمة، ولا هي قومت اعوجاجها من الآراء الفاسدة وقد أرهقتها أعمالها السيئة وأثقلتها أفعالها القبيحة، فإنها عند مفارقة الأجساد لا تنتفع بجوهرها، ولا تستقل بذاتها، ولا يمكنها النهوض إلى الملأ الأعلى من ثقل أوزارها، ولا يعرج بها إلى ملكوت السماء، ولا تستأهل للدخول في زمر الملائكة، وتغلق دونها أبواب السماء، ويفوتها ذلك الروح والريحان، كما ذكر الله عز وجل: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾؛ لأنه لا يليق بها ذلك المكان الشريف ما دامت النفس مذمومة بهذه الصفات غير مهذبة بالأخلاق الجميلة، مقيدة بأخلاق دنية وسيرة جائرة وعادات رديئة واعتقادات فاسدة وجهالات متراكمة وأعمال سيئة تبقى مربوطة محبوسة؛ لأنه لا يليق بها ذلك المنزل النوراني والعالَم الروحاني، كما لا يليق بالعميان والزمنى والجهال والبُكْماء مجالس الملوك ومنادمتهم لنقصانهم. فإذا فاتها ذلك المكان الشريف بقيت مقيدة في الهواء تهوى دون السماء، وتجرها شياطينها التي تتعلق عليها من الشهوات الجسمانية والآراء الفاسدة والاهتمام بالأمور الهيولانية، راجعة إلى قعر

الأجسام المدلهمَّة، وأسر الطبيعة الجسدانية، وتدفعها أمواج الشهوات المحرقة المؤدية إلى أودية الهاوية حيث لا أنيس لها، وتجرها الشياطين كما تجر العميان والزمنى متجنبين طرقات الناس، كما ذكر الله تعالى (عز وجل): ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، وقال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، فيصيبها عند ذلك وهج الأثير تارة وبرد الزمهرير تارة ووحشة الظلام والألم والعذاب إلى أن تقوم القيامة.

يكون ذلك حالها كما ذكر الله عز وجل: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وقال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ كل ذلك لشدة شوقها إلى الجسمانية التي قد اعتادتها وقد فارقتها ولم تحصل لها اللذات الروحانيات وقد خسرت الدنيا والآخرة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

(٢) فصل

اعلم أيها الأخ الكريم البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنَّ العلم والحكمة للنفس كتناول الطعام والشراب للجسد.

وذلك أن الأجساد ترضع أولًا ثم تتناول الطعام والشراب اللذين هما غذاء الأجساد لينشأ صغيرها وينمو ناقصها ويسمن مهزولها ويقوى ضعيفها ويكتسي رونقها وكمالها، ويبلغ إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها ومحاسنها باللبن ثم بالطعام والشراب اللذين هما غذاؤها ومادتها.

فهكذا أيضًا حالات الأنفس مماثلة لحالات الأجساد بالطعام والشراب الذي هو غذاؤها ومادتها في تصاريفها لاقتران ما بينهما في كون الحياة.

وذلك أن الأنفس الجزئية تتصور بالعلوم جواهرها، وتنمو بالحكمة ذواتها، وتضيء بالمعارف صورها، وتقوى بالرياضيات فكرها، وتنير بالآداب خواطرها، وتتسع لقبول الصور المجردة الروحانية عقولها، وتعلو إلى اشتياق الأمور الخالدة همتها، ويشتد على البلوغ إلى أقصى مد غاياتها عزماتها من الترقي في المراتب العالية بالنظر في العلوم الإلهية، والسلوك في المذاهب الروحانية الربانية، والتعبد في الأمور الشريفة من الحكمة على المذهب السقراطي، والتصوف والتزهد والترهب على المنهج المسيحي، والتعلق بالدين الحنيفي، وهو التشبه بجوهرها الكلي ولحوقها بعالمها العلوي والتوصل إلى علتها الأولى والاعتصام بحبل عصمته وابتغاء مرضاته وطلب الزلفى لديه بالاتحاد بأبناء جنسها في

عالمها الروحاني، ومحلها النوراني في دارها الحيواني كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

فإذا كانت الدار هي الحيوان فما ظنك يا أخي بأهل الدار كيف تكون صفتهم ونعيمهم إلا كما قال الله تعالى وتقدَّس: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾، فافهم هذه الإشارات والمرامي والمرموزات.

ثم اعلم أن النفس إذا انتبهت من نوم الغفلة واستيقظت من رقدة الجهالة واجتهدت وألقت من ذاتها القشور الجسمانية والغشاوة الجرمانية والعادات الطبيعية والأخلاق السبعية والآراء الجاهلية وصَفَتْ من درن الشهوات الهيولانية؛ تخلصت وانبعثت وقامت فاستنارت عند ذلك ذاتها وأضاء جوهرها وأشرقت أنوارها واحتد بصرها.

فعند ذلك ترى تلك الصورة الروحانية وتعاين تلك الجواهر النورانية، وتشاهد تلك الأمور الخفية والأسرار المكنونة التي لا يمكن إدراكها بالحواس الجسمانية والمشاعر الجرمانية، ولا يشاهدها إلا من تخلصت نفسه بتهذيب خلقه إذا لم تكن مربوطة بإرادة طبيعية ومقيدة بشهوات جسمانية يلوح فيها فيعاينها.

فإذا عاينت تلك الأمور، تعلقت بها تعلق العاشق بالمعشوق، والتزمتها التزام الحبيب المحبوب، واتحدت بها اتحاد النور بالنور، فتبقى معها ببقائها، وتدوم مع دوامها، وتفرح بروحها وريحانها، وتشم بنفحتها وتلذ بلذاتها التي عجزت الألسن الإنسانية عن التعبير عنها وقصرت أوهام المتفكرين عن أن نتصورها بكُنه صفاتها كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٣) فصل

ثم اعلم أنه إذا خرج الجنين من الرحم سالمًا من الآفات العارضة صحيح الحواس قوي البدن، واشتدت أركانه وانبسطت قوى النفس في الجسد؛ باشرت القوى الحساسة ذوات المحسوسات وإدراكها على هيئاتها.

ثم أدت رسومها إلى القوة المتخيلة التي في مقدم الدماغ ودفعتها المتخيلة إلى المفكرة.

ثم غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس وبقيت آثار تلك الرسوم مصورة في فكرة النفس، فاستقلَّت بذاتها واستغنت بجوهرها عن حواسها، وتصرفت فيها من غير أن يشاركها شيء خارج من ذاتها ويتأملها من غير أن يحتاج إلى غير نفسها.

فإذا تأملتها النفس وميزتها بعقلها لا تجد شيئًا سوى صور تلك المحسوسات منتزعة من هيولاتها، ومصورة في جوهر النفس، فيكون جوهر النفس لتلك المصورة في ذاتها كالهيولى، وتلك الرسوم فيها كالصورة.

وهكذا أيضًا حكم صور المعقولات في النفس؛ وذلك أنها ليست شيئًا سوى صور الأجناس والأنواع، انتزعتها النفس بقوتها المتفكرة وصورتها في ذاتها، وحملتها كما حمل الهواء صوت المسموعات؛ وذلك أن الهواء يحمل الأصوات والنغمات المختلفة ويؤديها إلى المسامع.

ويحمل أيضًا الروائح ويؤديها إلى المشامِّ بهيئاتها لا يغير منها شيئًا إلا بعارض يعرض لها؛ لأن الهواء جسم لطيف روحاني حافظ للصورة.

وهكذا الضياء أيضًا يحمل الأشكال والألوان ويؤديها إلى الأبصار ولا يخلط بعضها ببعض.

فهكذا أيضًا النفس تقبل صور المعلومات من المحسوسات والمعقولات في ذاتها وتصورها بفكرها وتحفظها بالقوة الحافظة من غير أن تخلط بعضها ببعض؛ لأن جوهر النفس أشد روحانية من جوهر الهواء، وجوهر الضياء جميعًا، فاستغنت بنفسها واستقلت بذاتها وفرحت بنجاتها واستبشرت بخلاصها وساحت في الملكوت وتبوأت من الجنة حيث شاءت، فنعم أجر العاملين.

ثم اعلم أنه كما يعرض للأجسام أمراض وأعلال تخرجها من الاعتدال وتميل بها عن صحة مزاجها حتى تسقمها فلا تنتفع بالحياة في هذه الدار ولا تنتفع بنعيمها على التمام ولا يهنيها عيشها على الكمال.

فهكذا يعرض للنفوس الجزئية الحيوانية أمراض تخرجها عن الاعتدال والطريقة الوسطى والصحة والحق والصراط السوي والهدى، وتميل بالإنسان عن قصد سنن الهدى حتى لا تنتفع بالحياة في الأولى ولا تنال السعادة في الأخرى.

وإن أمراضها أربعة أنواع؛ وهي الجهالات المتراكمة والأخلاق الردية والآراء الفاسدة والأعمال السيئة.

ثم تتفرع هذه كلها للنفوس الجزئية البشرية لشدة ميلها إلى الشهوات الجسمانية التي هي نيران واقدة تتوقد على الأفئدة بأنواع الغموم المقلقة والهموم المحرقة لشدة غرورها باللذات الجرمانية التي هي استراحات عن الآلام الطبيعية والمؤذيات الهيولانية.

(٤) فصل

ثم اعلم أن لمرض النفوس علاجات وطبًّا تداوى بها، كما أن لمرض الأجساد طبًّا يعالج به وعقاقير يداوى بها، ولها كتب وضعتها الحكماء موصوف فيها علاجاتها.

فهكذا أيضًا لمرض النفوس كتب وقوانين علمية جاءت بها الأنبياء والحكماء مذكور فيها علاجات الأمراض النفسية؛ وهو الاقتداء بسنة الناموس، واجتناب المحارم والانتهاء عن المناهي، والأخذ بسنته الحسنة والسير بسيرته العادلة، ولزوم طلب المعارف والتخلق بالأخلاق الجميلة، ولزوم سنة الهدى على الطريقة الوسطى في طلب معيشة الحياة الدنيا، والسعي بالأعمال الصالحة في طلب نعيم الآخرة، ومداواة النفوس المريضة بتذكيرها أمر مبدئها وما قد نسيته من أمر معادها بضروب الأمثال بالوعد والترغيب في جزيل الثواب والمدح والثناء لمن تاب وأناب لعلهم يذكرون.

ثم اعلم أنه ذكر في كتب الطب أصل تركيب الجسد ومزاج الأخلاق وأسباب الأمراض وكيفية المداواة من مفردات الأدوية ومركباتها، التي تختلف شرباتها بحسب اختلاف الأمزجة والأهوية والعادات.

فهكذا ذكر وتبين في كتب الأنبياء المنزَّلة عليهم السلام الذين هم أطباء النفوس وبيان ماهية النفس وبدء كون العالم وسبب كون عصيان النفوس التي هي مرضها وسقطها عن مراتبها الذي هو موتها الأول وسبب صحتها وسبب تغيرها وفسادها وأنواع أمراضها.

ووصف كيفية مداواة النفوس المريضة بالندم والتوبة وحسن الأخلاق والأفعال الحسنة، والاجتناب عما نهى الله تعالى ورسوله، وبالتذكار لأمر المعاد والأفعال الحسنة، والتوكل على الله في جميع الأمور كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، وقال: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

ثم اعلم أن طائفة من العقلاء قد مالوا وأعرضوا عن الحق والديانات النبوية إلى الآراء الحكمية؛ وذلك لقصور فهمهم عن صور تلك الأمور التي أشارت إليها الأنبياء

عليهم السلام في إشاراتهم ورموزهم، فعجزوا عن إدراك حقائق تلك المعاني التي ألقتها إليهم الملائكة من الوحي والإلهام والتأييد والإشارات.

وإنما قبلت الأنبياء الوحي من الملائكة بصفاء جوهر نفوسها ومجانسة أرواحها لأرواحهم، لا لقياسات منطقية ولا برياضات حكمية، مثل الأدوية الشافية والعقاقير النافعة يدرون سبب شفائها وخاصية منفعتها.

ثم اعلم أن من سنة الناموس والآداب الحسنة تناول الطعام، الذي هو غذاء الجسد، بثلاثة أصابع، فهذه السنة كأنها إشارة من واضع الناموس للنفوس والتنبيه لها، والحث على أنه واجب طلب العلوم من ثلاث طرقات؛ لأن العلم غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسد، وأحوال النفس مماثلة لأحوال الجسد لشدة اقتران ما بينهما؛ فأحد الطرق التي تنال بها النفسُ العلومَ قوةُ الفكرة الذي تدرك به النفس الموجودات المعقولات.

ومن هذه الطريق أخذت الأنبياء عليهم السلام الوحي من الملائكة.

والطريق الآخر السمع الذي تقبل به النفس معاني اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة، والآخر طريق النظر الذي به تشاهد النفوس الموجودات الحاضرة، فهذه الثلاث الطرقات يجب أن تتناول العلوم بها، كما بيَّنا وكما نبَّهَنا الله عز وجل وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وذم من لا ينتفع بالنعم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، وقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾؛ فهم صم عن الحقائق، بكم عن الدقائق، عمي عن المبصرات المعنوية العقلية بعين القلب، وليس يريد بهذا الذم بحيث إنهم لا يسمعون الأصوات ولا يبصرون الألوان ولا يعرفون ولا يفقهون أمر المعاش، بل إنما ذمهم بحيث إنهم لا يعقلون أمر المعاد كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

واعلم أن العلم قنية للنفس كما أن المال قنية للجسد؛ لأن المال يراد لصلاح أمر الجسد والعلم يراد لصلاح أمر النفس، فمتى لم تنل النفس العلم من هذه الطرقات الثلاث، وذلك تناوله بثلاثة أصابع إلا من طريقة واحدة — أي بإصبع واحد — فمثله كمثل المريض الذي ليس له حظ من ماله إلا الثلث؛ لأن المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات، وهذا مثل أهل التقليد الذين لا يعرفون أمر الدين إلا من طريق السمع، فهم موقوفون بين الشك واليقين، والشك مرض النفوس واليقين صحتها، فهؤلاء ليس لهم من العلم إلا الشك من أجل مرض نفوسهم.

ثم اعلم أن السائلين اثنان؛ سائل سأل حاجة من عرض الدنيا لصلاح الجسد المستحيل الفاني، وسائل سأل مسألة من العلم يكون فيه خلاص النفس من ظلم الجهل وإصلاح الدين وأمر المعاد وطلب نعيم الآخرة الباقي.

وهكذا المجالس اثنان؛ مجلس للأكل والشرب والغناء واللذات الجسمانية من نبات الأرض ولحوم الحيوان لصلاح هذا الجسد المستحيل المتغير الفاني، ومجلس للعلم والحكمة والسماع واللذات من نعيم الآخرة الباقية للنفوس الخالدة التي لا يبيد جوهرها ولا تفنى لذتها ولا ينقطع سرورها.

ثم إن كل ما يؤكل من الطعام والشراب يتبين النقصان في مال صاحبه، وإذا أكل وشرب قدر ما بلغ الشبع والري وزاد على ذلك صارت اللذة ألمًا، وإذا مكثتْ تلك المأكولات المشتهيات في المعدة ساعة واستمرأت وأخذت الأعضاء كل واحد قسطًا منها تَغَيَّر ما بقي واستحال واحتيج إلى إخراجها، وإلا صارت اللذة ألمًا ومشقة ومرضًا وإعلالًا.

وأما مجالس العلم والحكمة والاستماع منها فليست تمل النفس منها؛ لأنها لذات روحانية من نعيم الآخرة وأنموذجها ولا ينقص من علم العالم المرشد وإن كثر المعلمون والسامعون لأنها من كنوز رموز الآخرة.

(٥) فصل

ثم اعلم أنه ليس في كثرة الأكل افتخار، ولا يحتاج من الأكل والشرب إلا إلى ما يسكن الجوع والعطش، فإذا سكن ذلك كان سكونه بألوان من المأكولات أو بكسرة من خبز الشعير أو بشرب الماء القراح، كما قال عيسى عليه السلام للحواريين إنَّ أكل خبز الشعير وشرب الماء القراح اليوم في الدنيا لكثير لمن يريد أن يدخل الفردوس غدًا.

ثم إن الافتخار والثناء ينبغي أن يكون في اقتناء الفضائل الحكمية، وفي الاستضاءة بنور العلم والاستبصار بالآيات والدلالات على معرفة حقائق الأشياء، والحكمة والتألُّه والزهد والتصوف، ولزوم مذاهب الربانيين، والتهاون بأمر الجسد، والاهتمام بأمر النفس، والحرص على خلاصها من ظلمة الجهالة، واستنقاذها من بحر الهيولى، وعتقها من أسر الطبيعة، والخروج من قعر الأجسام والصعود إلى عالم الأرواح والدخول في زمر الملائكة كما ذكر الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾؛ يعني به روح المؤمنين، وقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؛ يعني به أنفس الأبرار، وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ

لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، وقال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن الجسد إذا خرج من الرحم سالمًا من الآفات العارضة صحيح الحواس وقوي بدن الطفل، استتبت وانبسطت قوى النفس في الجسد، وباشرت القوى الحساسة ذوات المحسوسات وأدركتها على هيئتها، ثم أدت رسومها إلى القوى المتخيلة التي في مقدم الدماغ، وأدتها المتخيلة إلى القوة المتفكرة، ثم إذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصورة في فكر النفس، فإذا تأملتها النفس وميَّزتها بعقلها فليست تجد شيئًا سوى صورة تلك المحسوسات منتزعة إلى هيولاها ومصورة في جوهر النفس، فيكون جوهر النفس لتلك الصورة فيها كالهيولى، وتلك الرسوم فيها كالصورة.

وهكذا أيضًا حال الصور المعقولة في النفس، فإنها ليست شيئًا سوى صور الأجناس والأنواع، انتزعتها النفس بقوتها المفكرة وصورتها في ذاتها وحملتها كحمل الهواء صور المحسوسات.

وذلك أن الهواء يحمل الأصوات المختلفة ويؤديها إلى المسامع، ويحمل الروائح ويؤديها إلى المشامِّ بهيئتها لا يغير منها شيئًا إلا أن يعرض عارض لها؛ لأن الهواء جسم لطيف روحاني حافظ للصورة.

وهكذا الضياء يحمل الألوان ويؤديها إلى الأبصار بأصباغها ولا يخلط بعضها ببعض؛ لأن جوهر النفس أشد روحانية من جوهر الهواء والضياء جميعًا.

ثم اعلم يا أخي أن النفوس الجزئية يفضل بعضها على بعض بإحدى هذه الخصال الأربع.

إحداها معارفها التي استفادتها بكونها مع الجسد، والثانية أخلاقها التي عددناها، والثالثة آراؤها التي اعتقدتها، والرابعة أعمالها التي اكتسبتها.

فإذا كانت النفس كثيرة المعارف في العلوم وحسنة الأخلاق صحيحة الآراء صالحة الأعمال، صورتها هذه الخصال صورة حسنة صحيحة بهية بهجة روحانية. فإذا فارقت الجسد واستقلَّت بذاتها، واستغنت بجوهرها عن التعلق بالأجسام، وانجلت عنها أصداء الطبيعة؛ أبصرت ورأت عند ذلك ذاتها، وتراءت لها صورتها فعاينت جمالها ورونقها، فرأت كل ما عملت من خير محضرًا، وكلما لاحظت ذاتها ازدادت فرحًا وسرورًا ولذة، وذلك هو جزاؤها ونعيمها وجنتها لا نقلة لها أبدًا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾.

وإذا كانت أعمالها سيئة وسيرتها جائرة، وآراؤها فاسدة وأخلاقها ردية، ومعارفها باطلة؛ أكسبتها هذه الخصال صورة قبيحة سمجة وحشة وهي لا تحس بها ما دامت مربوطة بالجسد مشغولة بالمحسوسات مستروحة إلى بهجة الطبيعة وزينة الهيولى، فإذا جاءت سكرة الموت وحسرة الفوت بالحق التي لا بُدَّ لكل شخص من ذلك، ولكل أجل مسمًّى، وهي مفارقة النفس الجسد فارقته على رغم منها جبرًا وقهرًا وبطلت آلات الحواس التي تنال بها اللذات الجسمانية وبقيت فارغة، نظرت عند ذلك إلى ذاتها فرأت ما عملت من سوء محضرًا وتحيرت وهي صورة قبيحة سمجة وحشة واغتمت وحزنت واستوحشت ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾، وودت أن لو كان بينها وبينه أمدًا بعيدًا وتبقى على تلك الحالة متألمة معذبة في ذاتها، فذلك هو جزاؤها وأليم عذابها وجحيمها وعقابهما، كما قال النبي ﷺ: «إنما هي أعمالكم التي ترد إليكم»، وكما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾، فأما أصحاب اليمين ففي سدر مخضود، وأما أصحاب الشمال ففي سموم وحميم. وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسداد، وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيل الرشاد وصلى الله على النبي محمد وآله الأمجاد.

(تمَّت رسالة نشوء النفس ويتلوها رسالة طاقة الإنسان في المعارف.)

الرسالة الرابعة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات في بيان طاقة الإنسان في المعارف، وإلى أي حد هو ومبلغه من العلوم، وإلى أي غاية ينتهي، وأي شرف يرتقي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأنَّا قد فرغنا من بيان كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية، فنريد أن نذكر في هذه الرسالة طاقة الإنسان في المعارف، وإلى أي حد ينتهي فنقول:

اعلم أن الله تعالى لما خلق جسد آدم عليه السلام، أبي البشر، من التراب وصوَّره في أحسن تقويم، وأحسن صورته وأحكم بنيته، ثم نفخ فيه من روحه؛ صار ذلك الجسد الترابي بتلك الروح الشريف حيًّا عالمًا قادرًا، ثم فضله بما علمه من الأسماء على بعض الملائكة، لا عليهم كلهم، وأمرهم بالسجود له؛ من أجل تلك الروح الشريفة التي نفخ فيه لا من أجل الجسد الترابي. وإبليس اللعين لما نظر إلى الجسد الترابي، وعرف ورأى تلك الروح الشريفة الفاضلة العالمة قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾؛ إذ النار خير من التراب؛ لأن النار جسم مضيء متحرك يطلب العلو، والتراب جسم مظلم

ساكن يطلب السفل. وكان هذا منه قياسًا خطأً؛ لأن السجود لم يكن للجسد الترابي بل لتلك الروح الشريفة؛ لأن الإنسان إنما يأكل ويشرب وينام من أجل الجسد، ويتحرك ويحس ويتكلم ويعلم بالنفس الشريفة التي من أمر الله.

ثم اعلم أن العلم غذاء للنفس وحياة لها، كما أن الطعام وجميع المتنولات غذاء وشراب للجسد وحياة له.

ثم اعلم أن العلم بالأشياء بعضه طبيعي غريزي مثل ما يدرك بالحواس ومثل ما في أوائل العقول، وبعضه تعليمي مكتسب مثل الرياضات والآداب وما يأتي به الناموس.

فمن الناس من لا يرغب في التعليم والتأدب، بل يتكل على ما تدركه الحواس أو ما في قرائح العقول.

ومنهم من يرغب في التعلم والتأدب، لكن من الناس من لا يقبل من العلم إلا ما يتصور في نفسه أو يقوم عليه برهان هندسي أو منطقي.

ومنهم طائفة لا تقبل إلا ما يدل عليه قول الشاعر، وطائفة لا تقبل إلا برواية وخبر، ومنهم طائفة لا تقبل إلا بالاحتجاج والجدل، ومنهم من يرضى بالتقليد ويقنع بذلك.

وينبغي لنا أن نبين مبلغ قوة الإنسان في إدراك المعلومات والمحسوسات إلى أي نهاية، وهي جهده وطاقته في معرفة حقائق الأشياء وإلى أي حد ينتهي؛ لأن في الناس طائفة من العقلاء لما تفكروا في حدوث العالم وبحثوا عن العلة الموجبة لكونه بعد أن لم يكن لم يعرفوها ولم يتصوروا في عقولهم بدء كون العالم، فدعاهم جهلهم عند ذلك إلى القول بقدم العالم، ومنهم من لاح له شيء غير ما لاح للآخر، فاختلفت أقاويلهم في حدوث العالم والعلة الموجبة لكونه بحسب ما لاح لواحد واحد، ونحن قد بيَّنا في رسالة لنا في المبادئ ما تلك العلة، فاعرفْها من هناك.

(٢) فصل

ثم اعلم أن من تَفكَّر في كيفية حدوث العالم وعلة حدوثه بعد أن لم يكن، ويريد أن يعرفها أو يتصور كيف كان ذلك وهو جاهل لا يعرف كيفية تركيب جسده، ولا يتفكر في بنية هيكله، ولا يدري كيف كان بدء كون ذاته، ولا يعلم ماهية جوهر نفسه، ولا كيفية ارتباطها بجسده، ولا لأي علة ربطت به بعد أن لم تكن مربوطة، ولا لأي علة تفارق الجسد في آخر العمر عند انقضاء الأجل، ولا تدري أين تذهب إذا فارقت الجسد، ولا من أين جاءت قبل ذلك؛ هو يريد أن يعرف بدء كون العالم وكيفية حدوثه وما تلك

العلة الموجبة لكونه مع جهله بما ذكرنا من هذه الأشياء التي هي أقرب إلى فهمه وأسهل لتعليمه وأمكن لتصوره؛ فمثله كمثل رجل لا يطيق حمل مائة رطل فهو يتكلف حمل ألف رطل، أو كمثل مَن لا يقدر على المشي وهو يريد أن يعدو، أو من لا يبصر يده إذا أخرجها وهو يريد أن يرى ما وراء الحجب.

ثم اعلم أنه إذا اعتبر أحوال الإنسان ومجاري أموره من ذلك وحال جثته، فإنه متوسط بين الصغر والكبر؛ فلا صغير جدًّا ولا كبير مفرط، فهكذا حال بقائه فهو لا طويل العمر في الدنيا ولا قصير المدة فيها.

وهكذا حال وجوده فلا هو متقدم الوجود على الأشياء ولا متأخر عنها؛ لأن من الموجودات ما هو أقدم وجودًا منه كالأركان والأفلاك، ومنها ما هو متأخر الوجود عنه كالموجودات الصناعية.

وهكذا حال مكانه متوسط؛ لا هو من الطرف الأقصى من العالم، ولا هو في المركز سواء.

وهكذا حال رتبته في الشرف والدماثة متوسط؛ لأن من الموجودات ما هو أشرف منه كالملائكة المقربين، ومنها ما هو أدون منه كالبهائم.

وهكذا حاله في القوة والضعف متوسط فلا هو قوي متين ولا ضعيف مهين؛ لأن من الحيوانات ما هو أقوى منه كالأسد، ومنها ما هو أضعف منه كالحيوانات الصغار.

وهكذا حاله في الجهل والعلم متوسط فلا هو راسخ في العلم كالملائكة ولا هو جاهل مهمل كالبهائم.

وهكذا حال معلوماته متوسط المقدار بين الطرفين؛ وذلك أن الإنسان غير محيط بالأشياء المفرطة الكثيرة كتضاعف العدد الكثير، وهو مدرك للأشياء القليلة كالجزء الذي لا يتجزأ الذي هو في جذر العشرة وما شاكله.

وهكذا حال قدرته على الموزونات، فإنه لا يمكنه وزنها إلا المتوسط منها بين الثقيل المفرط الثقل كالجبال، وبين الخفيف النذر الخفة كالذرة.

وهكذا حال قدرته على مساحة الأبعاد والمقادير لا يقدر على مساحة إلا المتوسط منها بين الواسع المفرط السعة كالبراري والبحار، وبين الضيق اللطيف كجرم الإبرة وجرم الخردلة.

وهكذا حال قوة حواسه على إدراك المحسوسات؛ فلا يحس منها إلا المتوسطات بين الطرفين.

وذلك أن القوة الباصرة لا تقوى على إدراك الألوان في الظلمة الظلماء، ولا على إدراكها في النور الباهر كالنظر إلى عين الشمس في نصف النهار في يوم الصيف.

وهكذا قوة السمع لا تطيق استماع الصاعقة لشدتها وجلالتها، ولا تقوى أيضًا على إدراك دبيب النملة لخفائها وخمولها.

وهكذا القوة الذائقة والقوة الشامَّة والقوة اللامسة، لا تقوى على إدراك محسوساتها إلا المتوسطات منها؛ وذلك أن الحر المفرط والبرد المفرط يفسدان المزاج ويخرجانه عن الاعتدال.

وهكذا الطعم المفرط وهكذا الرائحة المفرطة يفسدان آلات الحواس ويغيران المزاج والإحساس، وهذا يكون من اعتدال المزاج. وقد بيَّنا في رسالة لنا كيفية إدراك الحواس لمحسوساتها واحدًا واحدًا، فاعرفه من هناك.

وهكذا قوة علم الإنسان ومعرفته بالأمور الماضية وأخبار الماضين مع الزمان البعيد لا يمكنه علمها إلا ما قرب كونه من زمانه؛ مثل معرفتنا بآبائنا وأجدادنا القريبين منا، ومثل علمنا بأخبار بني إسرائيل وما كان بعد الطوفان أو قبل ذلك إلى آدم عليه السلام.

فأما ما كان قبل آدم عليه السلام من أخبار الملائكة وقصة الجان الذين كانوا يفسدون في الأرض قبل خلق آدم عليه السلام فليس للبشر علم بها، ولا لهم ميل إلى معرفتها إلا من طريق الوحي عن الملائكة تسليمًا.

وهكذا علْم الإنسان بالأمور الآتية في الزمان المستقبل لا يمكنه معرفتها والاستدلال على كونها بدلائل النجوم إلا ما يكون قريب الكون؛ مثل استدلال المنجمين بالقرانات التي تكون في كل عشرين سنة مرة، وفي كل مائتين وأربعين سنة مرة، وفي كل تسعمائة وستين سنة مرة.

وأما القرانات التي تكون في كل ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعين سنة مرة وفي كل سبعة آلاف سنة، فليس على معرفة الاستدلال بها على الكائنات سبيل؛ لبعدها من الزمان المستقبل.

وهكذا قوة عقل الإنسان متوسطة لا يقوى على تصور الأشياء المعقولة إلا لما كان متوسطًا بين الطرفين من الجلالة والخفاء؛ وذلك أن من الأشياء المعقولة ما لا يمكن عقل الإنسان إدراكه وإحاطة العلم به لجلالته وشدة ظهوره وبيانه ووضوحه؛ مثل جلالة الباري عز وجل، فإنه لا يقوى عقل الإنسان على إدراكه وإحاطة العلم بماهية ذات جلالته وشدة ظهوره ووضوح بيانه لا لخفاء ذاته وشدة كتمانه.

ومثل عجز الإنسان عن تصور صورة العالم بكليته لشدة كبره وظهوره لا لصغره وخفائه، ومثل عجزه أيضًا عن إدراك الصور المجردة عن الهيولى لشدة صفائها ولطافتها ونفوذها في الأشياء.

ومن الأشياء ما لا يمكن إدراكها وتصورها لخفائها ودقتها وصغرها مثل الجزء الذي لا يتجزأ، ومثل الهيولى الأولى المجردة من الصور والكيفيات، ومثل عجزه أيضًا عن معرفة كيفية تصوير الجنين في الرحم وخلقة الفرخ في جوف البيضة والحب في الغلف والثمر في الأكمام.

ثم اعلم أن هذه الأشياء التي تدرك حسًّا مفروغ من صنعتها، فأما في وقت تكوينها فالحس لا يدركها والوهم لا يتصورها، فمن يريد أن يعلم كيفية حدوث العالم وعلة كونه فينبغي أن يتفكر أولًا في هذه الأشياء، فيعلمها ويتصور كيفية حدوثها، ثم بعد ذلك يتفكر في كيفية حدوث العالم وعلة كونه، فمن ادعى أنه يعرف ذلك فليخبرنا عن صورة العالم كيف هي على ما هي عليه الآن؛ لأن حواسه هي تباشرها وتشاهدها، ودع ما كان مضى مع الزمان الماضي لنسيانه عن ذلك أو الذي يكون في الزمان المستقبل كيف يكون؛ أو فليخبرنا عن علة كثرة الكواكب وعلة أبعادها ومقاديرها وأعظامها وحركاتها وما هي عليه الآن، وما العلة في ذلك؛ أو فليخبرنا عن المجرة وما هي، فإنَّا لم نجد إلى وقتنا هذا أحدًا من الحكماء قد قال فيها قولًا مُرضيًا؛ أو فليخبرنا عن شيء واحد وهو الأثر الذي نراه في وجه القمر ما هو، والناس يشاهدونه دائمًا، ودع ما لا يشاهدونه من كون العالم؛ أو فليخبرنا عن علة اختلاف أجناس المعادن وأشكال الناس وهياكل الحيوان بما هي عليه الآن، وما العلة في ذلك.

(٣) فصل

ثم اعلم أنه ليس إلى معرفة علل هذه الأشياء وصول، إلا أن تؤخذ من الأنبياء عليهم السلام تقليدًا كما أخذوها عن الملائكة تسليمًا.

ثم اعلم أن نسبة علم البشر إلى علم الملائكة ومعرفتهم كنسبة علم حيوان البحر إلى حيوان البر ومعرفتها بأمورها، وكعلم حيوان البر إلى علم البشر ومعرفته بأمورها؛ وذلك أن حيوان الماء لها حس وحركة وتمييز تتصرف فيها من طلب غذائها ومصالحها ومنافعها والهرب من عدوها وعرفانها ذكرانها وإناثها وأبناء جنسها.

فأما إحساسها بأحوال حيوان البر ومعرفتها بأمورها فليس لها إلى معرفة ذلك إلا شيء يسير.

وهكذا حيوان البر بأحوال البشر ومعرفتها بأمور الناس فليس لها إلا شيء يسير.

وهكذا علم البشر بأحوال الملائكة ومعرفتهم بأمور الذين في فضاء الأفلاك وطبقات السموات فليس لهم بها علم إلا شيء يسير.

وهكذا أحوال الملائكة في مراتبها ومقاماتها متفاوتة متباينة، الأول فالأول والأشرف فالأشرف، وفوق كل ذي علم عليم، وإلى ربك المنتهى، كما أخبر عز وجل عن أحوال الملائكة في مراتبها ومقاماتها فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وقال في حكاية عن الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾، وقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾؛ يعني أجناس الملائكة وقبائل الجن والإنس والحيوانات أجمع.

ثم اعلم أن علم جميع الخلائق بالنسبة إلى علم الله تعالى ليست إلا كالجزء اليسير كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾؛ يعني علم الله، قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. ونحن قد جعلنا هذه الرسالة تنبيهًا لإخواننا على نهاية مبلغ طاقة الإنسان في العلوم والمعارف، وتوبيخًا لأقوام جهال يعارضون العلماء بالكلام والجدال ويسألونهم عن علل أشياء ليس في طاقة الإنسان معرفتها، وهم قد تركوا البحث عن أشياء واجب عليهم تعلمها والبحث عنها ثم لا يسألون عنها ولا يتفكرون فيها لجهلهم.

(٤) فصل

اعلم أنه ليس من علم ولا عمل ولا تجارة إلا وبين أهلها فيها منازعة وخلف، فمن ذلك الخلف الذي بين العلماء في حدوث العلم وقدمه، وهما طائفتان الفلسفية والشريعة؛ فالأنبياء عليهم السلام كلهم يرون ويعتقدون أن عالم الأجسام محدث لا شك فيه.

وهكذا يرى بعض الفلاسفة الفضلاء الراسخون في العلم، فأما المتفلسفة الناقصون فمشككون فيما يقولون متحيرون فيما يزعمون من قدم العالم.

وهكذا حكم كثير من أتباع الأنبياء عليهم السلام والمقربون بما خبرت به، فإنهم شاكون أيضًا فيما يقلدون ومتحيرون فيما يعتقدون. وأعيذك أيها الأخ الفاضل بالله أن تكون منهم؛ لأن ما مَثَّلْهم في هذه الرسالة وما يختلفون فيها إلا كمثل أولئك الصبيان الأغبياء البُلْه الجهلاء.

وذلك أنه كان رجل حكيم له أولاد صغار، وكان فيهم جماعة أذكياء فُهَماء نجباء، وكان فيهم جماعة أغبياء بله جهلاء، فنظر أولئك الإخوة يومًا في بعض خزائن أبيهم فوجدوها مملوءة بالحلاوة، مختلفة الطعام والألوان والروائح والأشكال، فتأملوها وفكروا فيها، فوقع في أفكارهم أن قالوا ألَا ترى مَن عمل هذه العجائب وصوَّر هذه الأشكال ومَن صنع هذه الألوان.

فمن كان منهم ذكيًّا فهيمًا مدركًا نجيبًا عَلِمَ أنه عملُ صانعٍ حكيم، ومَن كان منهم غبيًّا أبله ساهيًا خفيَ عليه ذلك وانغلق.

ثم تَفكَّر الذين علموا أنه صنعة الحكيم أترى من أي شيء عَمِلَها وبأي شيء صوَّرها. فمَن كان منهم أذكى وأفهم علم أنه من شيء آخر عملها، ومَن كان دونهم في الفهم والذكاء خفي عليه ذلك.

ثم تفكر الذين علموا أنه من أي شيء عملها ترى كيف عملها ولم صورها بهذه الأشكال. فمن كان منهم أذكى وأفهم وأنجب عَقَلَ ذلك وتصوَّرها وتحقق واستغنى عن سؤالِ لِمَ وكيف. ومن كان منهم دون ذلك في المرتبة خفي عليه وقصر فهمه عنه وتوقف يتفكر ويتروى في ذلك.

ثم عند ذلك سألوا إخوة لهم بالغين عاقلين عن هذه الحلاوة، فأجابوا أنها عَمِلَها الحلواني، فقالوا: مَن الحلواني؟ فقالوا: صانع حكيم. فمنهم مَن فَهِمَ وعَقَلَ وصدقهم، ومنهم من خفي عليه لغباوته فكذب وأنكر؛ إذ لم يرَ الحلواني قبل ذلك ولا سمع بذكره.

ثم سأل أولئك الإخوة الصغار إخوانهم الكبار البالغين العقلاء أترى من أي شيء عمل الحلواني هذه العجائب، فأجابوهم أنه عملها من السكر والدهن والنشاء. فمنهم من صدقهم إذ كان موفقًا هادئًا مؤيدًا رشيدًا، ومنهم من كذب وأنكر إذ لم يروا هذه الأشياء عيانًا ولم يعرفوها عقلًا.

ثم قالوا: أرونا منها شيئًا. فقالوا لهم: لم يبقَ للصانع منها شيء، بل استعملها كلها. فمنهم من كان موفقًا فصدقهم، ومنهم من كذب وأنكر ولم يرشد.

ثم إنهم سألوهم كيف عمل الحلواني هذه، قالوا بنى الدبكدان وأوقد النار ونصب الطنجير وصب فيه الدهن، وطرح فيه السكر وحركها بإسطام وعقدها بالنشاء. فمن كان منهم أذكى فهمًا تصوره بجودة ذكائه وحسن رويته وقريحة قلبه وصفاء جوهر نفسه وضياء نور عقله، ومنهم من عميت عليه الأنباء إذ لم يكن له ذكاء ولا لقلبه صفاء ولا لنور عقله ضياء.

ثم إن أولئك الإخوة اختلفوا فيما بينهم، وصاروا فرقًا يتجادلون فيما بينهم في هذه المسألة ويتنازعون ويتخاصمون، وأنشبت بينهم نيران الفتنة والبغضاء.

ثم إن والدهم الشفيق رثى لهم ورحمهم لما رأى ما وقعوا فيه من المحنة والبلوى، وأمر بعض إخوانهم العقلاء المستبصرين أن يكونوا قضاة وعدولًا بينهم ويقضوا الحكم بأرفق ما يقدرون عليه.

فقال لهم: إذا سألكم إخوتكم وتحاكموا إليكم فيم يختلفون فيه، فأرشدوهم ودلُّوهم على ذلك. فكان من جواب أولئك الإخوة القضاة إذا سئلوا عن عمل هذه الحلاوات، أجابوا إخوتهم بأنها مِن عمل أبيهم، فسكنت نفوس أولئك الإخوة الصغار إلى قولهم؛ لأن معرفتهم بأبيهم أقرب إلى فهمهم من معرفتهم بالحلواني.

وإذا سألوهم من أي شيء عمل، قالوا لا من شيء تعرفونه، فسكنت نفوسهم إلى قولهم أكثر من سكونهم إلى قول مَن أجاب أنه عمل من السكر والشيرج والنشاء؛ لأن الصبيان قد تبين لهم بأن أشياء كثيرة ما رأوها بعدُ ولا عرفوها.

وإذا سألوهم كيف عملها وكيف صورها، قالوا كما شاء وكيف شاء.

وكانت هذه الجوابات أسكن لنفوسهم مِن قول مَن يطول فيه الخطب، وقال كيت وكيت وفعل وصنع.

فهذا مثل اختلاف العلماء في حدوث العالم وقدمه والسائلين لهم وإخوتهم المجيبين عنه، فمَثل العالم بما فيه من العجائب وطرق أجناس الموجودات وغرائبه وصنوف صنائع المصنوعات، كمثل تلك الخزانة المملوءة من الحلاوة.

ومَثل السائلين عن حدوث العالم وكيفية صنعته وعن هيولاه وصنايعها، كمثل سؤال أولئك الإخوة الصغار الضعفاء العقول القليلي الفهم.

ومَثل ذلك الإخوة العقلاء الذين سئلوا فأجابوا بشرح طويل فأوقعوا الخلف بين الإخوة، كمثل الفلاسفة في أجوبتهم عن كيفية حدوث العالم والهيولى والصورة والعنصر والطبيعة وما شاكلها من الألفاظ الغريبة المعاني البعيدة التصور.

ومَثل أولئك الإخوة القضاة والعدول في أجوبتهم كمثل الأنبياء عليهم السلام وخلفائهم.

ومَثل ذلك الأب الشفوق الرحيم هو الباري تعالى باعث الأنبياء عليهم السلام؛ ليكونوا قضاة بين خلقه فيما يختلفون فيه من هذه المسائل، ويجيبونهم بحسب ما يليق بعقولهم ومبلغ فهمهم.

(٥) فصل

ثم اعلم أنَّا قد أخبرنا عن علة حدوث العالم وبينا كيفية صنعته وماهية هيولاه وصورته في المبادئ العقلية مثل ما ذكر القدماء الفضلاء الموحدون منهم القائلون بحدوث العالم.

ولكن يحتاج الناظر فيها والسائل عن هذه المسائل أن تكون له نفس زكية وفهم دقيق وقوة روية وجودة تصور روحانية كما يفهمها، فمن لم يفهم ما وصفنا فينبغي له أن يقنع بما قالت الفلاسفة؛ إن العالم معلول وعلته الباري. وربما قالت الأنبياء بأجمعها عليهم السلام إن العالم بأسره مخلوق وإن الله عز وجل هو خالقه ومبدعه ومخترعه.

فإن لم يعقل ما قالت الفلاسفة وما أخبرت عنه الأنبياء عليهم السلام، ولم يثق بقولهم ولم تسكن نفسه إلى حكمهم، ولم يطمئنَّ إلى قولهم ويتكل على ما تخيله القوة الوهمية؛ فلا ينبغي له أيضًا أن يثق بحكمها ولا أن يسكن إلى تخيلها؛ لأنه تخيل ما له حقيقة وما لا حقيقة له، فلا يوثق به ولا يحكم بصحته كما لا يثق ولا يحكم بصحة القوة الباصرة إذا أَرَتْكَ لون شيء من الطعام بأن تحكم على حقيقته إلا بعد أن تستعين بالقوة الشامَّة، فإن عرفت حقيقته وإلا استعنت بالقوة الذائقة.

فهكذا ينبغي لك يا أخي إذا شككت في مسألة مشكِلة ألا تثق بنفسك دون أن تستشير فيها إخوانك الكرام الفضلاء، كما تستعين في أمور الدنيا إذا لم تنهض بشيء منها بإخوانك وجيرانك وأصدقائك الفضلاء الكرام.

فهكذا يجب أن تكون سيرتك في أمر الدين وطلب الآخرة. وفقك الله أيها الأخ للسداد، وهداك إلى سبيل الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد.

(٦) فصل

ثم اعلم أن الحكماء الأولين قد تكلمت في فنون من العلوم وضروب من الآداب وغرائب من الحِكَم كثيرة لا يحصي عددها إلا الله الواحد القهار.

فمنها من تكلم في تركيب الأفلاك وأحكام النجوم.

وتكلموا أيضًا في الطب والطبائع والكائنات التي تحت فلك القمر، وقوم من العلماء الشرعيين ينكرون أكثره.

إما لقصور فهمهم عما وصف القوم أو لتركهم النظر فيها واشتغالهم بعلم الشرع وأحكامه أو لعناد بينهما.

وكذلك أيضًا إن أكثر من ينظر في العلوم الحكيمة، من المبتدئين فيها والمتوسطين من بينهم، يتهاونون بأمر الناموس وأحكام الشريعة ويزرون بأهله ويأنفون من الدخول تحت أحكامه إلا خوفًا وكرهًا من قوة الملك الذي هو أخ النبوة.

كل ذلك لقصور فهم الفريقين جميعًا عن معرفة حقائق هذه الأشياء المذكورة ولقلة علمهم أيضًا بماهيات الكائنات.

ولما كان مذهب إخواننا الفضلاء الكرام النظر فيها جميعًا والكشف عن حقائق أشيائها، أعني العلوم الحكمية والنبوية جميعًا، وكان هذا العلم بحرًا واسعًا وميدانًا طويلًا؛ احتجنا أن نتكلم فيما دعت الضرورة إلى عمل هذه الرسائل التي هي إحدى عشرة وخمسون رسالة، والكلام فيها بأوجز ما يمكن وإيراد النكت التي هي اللب، ولا يفهم ذلك إلا بأمثال تضرب ليقرب من فهم المبتدي النظر في العلوم، وتسهل تصور الحقائق للمتأملين.

ثم اعلم أن العلوم الحكمية والشريعة النبوية كلاهما أمران إلهيان يتفقان في الغرض المقصود منهما الذي هو الأصل ويختلفان في الفروع.

وذلك أن الغرض الأقصى من الفلسفة هو ما قيل إنها التشبه بالإله بحسب طاقة البشر كما بيَّنا في رسائلنا أجمع، وعمدتها أربع خصال؛ أولها معرفة حقائق الموجودات، والثانية اعتقاد الآراء الصحيحة، والثالثة التخلق بالأخلاق الجميلة والسجايا الحميدة، والرابعة الزكية والأفعال الحسنة.

والغرض من هذه الخصال هو تهذيب النفس والترقي من حال النقص إلى التمام، والخروج من حد القوة إلى الفعل بالظهور لتنال بذلك البقاء والدوام والخلود في النعم مع أبناء جنسها مع الملائكة.

وهكذا الغرض من النبوة والناموس هو تهذيب النفس الإنسانية، وإصلاحها وتخليصها من جهنم، عالم الكون والفساد، وإيصالها إلى الجنة ونعيم أهلها في فسحة عالم الأفلاك وسعة السموات والتنسم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن، فهذا هو المقصود من العلوم الحكيمة والشريعة النبوية جميعًا.

وأما اختلافهما في الطرق المؤدية إليها فمن أجل الطبائع المختلفة والأعراض المتغايرة التي عرضت للنفوس، وبذلك اختلفت موضوعات النواميس وسنن الديانات ومفروضات الشرائع، كما اختلفت عقاقير الأطباء وعلاجاتها بحسب اختلاف الأمراض العارضة للأجساد من الآلام والأوجاع وبحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ومثال آخر في اختلاف سنن الديانات النبوية والفلسفية جميعًا وفنون مفروضات النواميس والمقصد واحد، كاختلاف طرقات القاصدين نحو بيت الله الحرام وتوجههم شطره بحسب مواضع بلدانهم ومراحلهم ومرافقهم من البيت شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا كما بيَّنا في رسالة جغرافيا.

(٧) فصل

ثم اعلم أن الموجودات كلها نوعان: كلية وجزئية.

فالموجودات الكلية الدائمة الوجود والبقاء؛ لأنها ابتدأت في الترتيب من أشرفها وأتمها إلى أدونها وأنقصها كما بيَّنا في رسالة المبادئ العقلية.

والموجودات الجزويات دائمة في الكون متوجهة نحو التمام؛ لأنها تبتدئ بالكون من أنقص الوجود متوجهة إلى أتم الوجود، ومن أدون الأحوال مترقية إلى أشرفها وأتمها.

ثم اعلم أن الإنسان هو من الأمور الجزوية، وهو مجموع من جوهرين: أحدهما هذا الجسد الجسماني، والآخر هو النفس الروحانية؛ فأنقص حالات جسده ابتداؤه من النطفة متوجهًا إلى أن يصير رجلًا جلدًا، وأنقص حالات نفسه وأدونها أن تكون ساذجة لا تعلم شيئًا كما قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وأتم حالاتها أن تخرج كل ما في قوتها من الفضائل إلى الفعل، وهو أن يصير الإنسان مؤمنًا حقًّا عالمًا ربانيًّا حكيمًا فيلسوفًا محققًا، كما قال تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾، وقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وقال: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

ثم اعلم أن كل عمل متقَن فمِن صانعٍ حكيم في أولية العقل، وكل فاعل حكيم فله في فعله غرض ما، والغرض هو غاية يسبق إليها وهم النفس، وإذا بلغ الفاعل إلى الغاية قطع الفعل.

ثم اعلم أن دوران الأفلاك فعل متقن؛ ففاعله إذَنْ حكيم، فله إذَنْ في إدارة الأفلاك غرض ما، فإن كان قد بلغ إلى غرضه فسبيله أن يقطع الفعل ليقف الفلك عن الدوران.

فأما الأجسام، فإن أفضلها ما كان يظهر عنه أفضل فعل، وأجلَّ النفوس ما بدا منها العلم وزال عنها الجهل.

ثم اعلم أن ألذَّ ما يأكل الإنسانُ هو العسل، وأنعم ما يلبس هو الإبريسم، فإن كان الفاعل لهما هي الدودة والزنابير، فإذَنْ أصغر الأجسام أكرمها فعلًا، وقد قام البرهان بأن الجسم لا فعل له البتة.

ولا يخفى عليك بأن الزرع والشجر في إخراج الحب والثمر، وغايتهما الحصاد، وتمام الغرض منهما بعد ذلك تمام الحيوان في الإدراك، وغايته النتاج، وحصاده وصرامه الموت.

فالغرض من الحيوان إذَنْ بعد الموت، كذلك الحَبُّ إذا لم يتم ولم يستحكم قبل حصاد الزرع لا ينتفع به بعد الحصاد، كذلك الثمر إذا لم ينضج وينعقد قبل إخراجه لم ينتفع فيما يراد منه.

وهكذا حكم النفس الإنسانية إذا هي لم تتم بالمعارف الحقيقية صورتها، ولم تستتم بالأخلاق الجميلة جوهرها، ولا بالآراء الصحيحة عقلها، ولا بالأعمال الزكية ذاتها في الدنيا؛ لا تنتفع بعد مفارقة الجسد بحياتها، ولا تستقل بذاتها، ولا تلتذ بالنعيم في الآخرة على التمام والكمال. كما أن الجنين إذا لم تستتم في الرحم خلقته ولم تستكمل هناك صورته، لا ينتفع بالحياة في الدنيا.

فهكذا حكم النفس؛ لأن موت الجسد ولادة النفس كما أن الطلق ولادة الجنين. فانتبه أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة؛ فإن الغرض في ذلك أن تصير ملكًا بالفعل؛ فاجتهد غاية الجهد، وقوِّ ظهرك بالحبل المتين واعتصم بحبل الله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ واجتهد أن تتوجه نحو الصراط المستقيم؛ إذ ذلك أقرب طرق من الخط المعوج إلى الغرض الأقصى لتنال بذلك السعادة وبقاء الأبد، وتتلذذ بلذات النعيم من الروح والريحان والحور والغلمان. وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسداد، إنه رءوف بالعباد، وبحق محمد وآله الأمجاد، صلوات الله عليهم إلى يوم التناد.

(تمَّت الرسالة في بيان طاقة الإنسان، ويتلوها رسالة حكمة الموت والحياة.)

الرسالة الخامسة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات في حكمة الموت والحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، إنه لما فرغنا من بيان طاقة الإنسان في المعارف إلى أي حد تنتهي، وبيَّنا الغرض من النواميس الشرعية النبوية والعلوم الحكمية الحقيقية، وهو تهذيب النفس فحسب واستدعاء الخلق إلى الله تعالى، فنريد أن نذكر في هذه الرسالة ماهية حكمة الموت والحياة وما الحكمة في وجودهما.

فنقول: اعلم أن افتتاح جميع العلوم الحقيقية هو في معرفة الإنسان نفسه، ولما كان الإنسان هو جملة مجموعة من جوهرين متباينين وأعراض تحلهما، أحدهما هذا الجسد الجسماني والآخر هو النفس الروحانية، كما بيَّنا في الرسالة التي ذكرنا فيها أن الإنسان عالم صغير، وكان جوهر النفس أشرف من جوهر الجسد صار علم الإنسان بجوهر النفس وأحوالها أشرف من علمه بجوهر الجسد وأحواله.

وقد بيَّنا ماهية الجسم وصفاته المخصوصة به في رسالة الهيولى ورسالة الحاس والمحسوس، ونريد أن نتكلم ها هنا في علم النفس وأحوالها، فنقول:

لما كان علم الإنسان ومباحثه بالمعلومات من تسعة أوجه — كما بيَّنا في رسالة الصنائع العلمية — وهي: هل هو، وما هو، وكيف هو، وكم هو، وأين هو، ومتى هو، ولمَ هو، ومن هو، كما بيَّنا ذلك في رسالة قاطيغورياس.

ثم نريد أن نذكر من هذه المباحث في أمر النفس الجزئية الإنسانية طرفًا، فنقول: ما هي، وكيف هي، وكم هي، مع هذا الجسد وأين كانت قبل رباطها، وكيف تكون حالها إذا فارقته، ولم ربطت بالجسم، وما الغرض في ذلك؟

واعلم أنه قد بيَّنا ماهيتها في رسالة العقل والمعقولات، وكميتها في رسالة العالم إنسان كبير، وأين كانت النفس الجزئية قبل رباطها بالأجساد في رسالة مسقط النطفة، وأين تكون إذا فارقت الجسد في رسالة البعث والقيامة، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقبة بحكمة الموت كيف كونها مع الجسد ولم ربطت بالجسم ولم تفارقه.

ولما كانت الأنفس الجزئية قُوًى منبثة من النفس الكلية في الأجسام الجزئية التي تحت فلك القمر، احتجنا أن نذكر أولًا النفس الكلية التي هي نفس العالم بأسره، ولم ربطت بالجسم الكلي الذي هو جملة العالم من أقصى فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض بعون الله تعالى.

(٢) فصل في غرض رباط النفس الكلية بالجسم الكلي حسب ما تبين ها هنا

فنقول: إنه لما كانت الموجودات كلها مرتبة، بعضها تحت بعض، متعلقة في الوجود بالعلة الأولى، الذي هو الباري تعالى، كتعلق العدد وترتيبه عن الواحد الذي قبل الاثنين، كما بيَّنا في رسالة المبادئ العقلية، وكانت النفس أحد الموجودات، وكانت مرتبتها دون العقل وفوق الجسم المطلق، وكان الجسم فارغًا من الأشكال والصور والنقوش والحياة قابلًا لها بالطبع، وكانت النفس حية بالذات علامة بالقوة فعالة بالطبع، ولم يكن من الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن تترك النفس فارغة غير مشغولة بضرب من الحكمة، وأن يكون الجسم مع قبوله للتمام عاطلًا ناقص الحال، ولم يكن للنفس أن تتحكم على

الموجودات التي فوق رتبتها الذي هو العقل الفعال عطفت النفس بواجب الحكمة على الجسم المطلق، إذ كان دونها في الرتبة، فتحكمت فيه بالتحريك له والشكل والتصاوير والنقوش والأصباغ، ليتم الجسم بذلك وتكمل النفس أيضًا بإخراج ما في قوتها من الحكمة والصنائع إلى الفعل والظهور والإظهار تشبهًا بحكمة الباري تعالى؛ إذ لم يقتصر على علمه بالكائنات قبل كونها حتى أخرجها إلى الوجود بعد العدم؛ ليظهر الكل للجزء ويشاهد الجزءُ الكلَّ ويخرج ما في القوة من الحكمة والصنائع إلى الفعل والظهور.

فمن أجل هذا ربطت النفس الكلية بالجسم الكلي المطلق الذي هو جملة العالم من أعلى فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، وهي سارية في جميع أفلاكه وأركانه ومولداته، ومدبرة لها ومحركة بإذن الله تعالى وتَقدَّس.

(٣) فصل في سريان النفس الكلية في الجسم الكلي

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنه إذا فاضت قوى النفس الكلية الفلكية في الجسم الكلي — الذي هو جملة العالم الجسماني — ابتدأت من أعلى فلك المحيط متوجهة نحو مركز العالم، وسرت في الأفلاك والكواكب والأركان الأربعة والأوقات الزمانية أولًا فأولًا، حتى إذا بلغت إلى منتهى مركز العالم اجتمعت كلها هناك، ويكون ذلك سببًا لكون الأجسام الجزئية الكائنة الفاسدة التي دون فلك القمر، وهي الحيوانات والنبات والمعادن؛ لأنها إذا علت إلى أقصى مدى غاياتها، الذي هو الغرض الأقصى بطول الزمان، وعطفت عند ذلك راجعة — أعني تلك القوى نحو المحيط — فيكون سبب بعث الأنفس الجزئية الإنسانية الكلية من الأجسام الفاضلة، وهذا قول مجمل يحتاج أن نشرحه ونبين أيضًا أن الموت حكمة.

واعلم أن الحيوانات كلها تكره الموت وتحب الحياة، ولكن من أجل أن كثيرًا من العقلاء يقولون إن الموت حق، وفي ذلك حكمة، ولا يدرون ما تلك الحكمة، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يدرون معنى قوله تعالى وما المراد في ذلك، ثم إنهم مع إقرارهم بذلك، كلهم يحبون الحياة ويكرهون الموت، ثم يذمون الحياة عند تنغيص العيش ويتمنون الموت عند الشدائد، احتجنا أن نبين ما الموت وما الحياة، ولم يُكره الموت وتُحب الحياة، وما الحكمة في خلقتهما.

(٤) فصل في اعتبار الموت والحياة

فاعلم أنه إذا فكر العاقل العالم في تركيب هذا الجسد وما هو عليه من إتقان البنية وإحكام الصنعة — كما ذُكر في كتاب التشريح، وكتاب منافع الأعضاء بشرح طويل — من عجائب تأليف أعضائه وغرائب تركيبه وحسن هندام مفاصله، وكيفية تشعب الأعصاب الممتدة على أعضائه وعظامه المؤتلفة عليها المتمكنة بمفاصلها المنتشرة إلى أطراف بدنه المنشأة منها الأوتاد اللينة الرقيقة للحس وللشعور، وكيفية تشعب العروق الواردة التي منشؤها من عمق الكبد المنتشرة في خلل اللحم الموردة للدم إلى أطراف البدن، وكيفية تشعب العروق الضاربة التي منشؤها من القلب المنتشرة في عمق البدن الموصلة للنبض إلى أطراف الجسد، وكيفية طبقات بنية بدنه بعضها فوق بعض، كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد والأوعية المعدة للأغراض المختلفة لجر المنفعة أو لدفع المضرة، وكيفية ابتدائه من النطفة وتتميمه في الرحم ونشئه في أيام الصبى وتكميله في أيام الشباب وتنضيجه في أيام الكهولة؛ فيرى أنه غاية الكمال والحكمة والصواب والإتقان.

ثم إذا تفكر في أيام الشيخوخة وفي ذهاب قوته وتغييرات رونقه وإدباره ونقصانه، ثم هدمه بالموت وتغيره بعد ذلك بالانتفاخ والنتن وفساده، ثم كيف يبلى في التراب ويضمحل ولا يعرف ما وجه الحكمة فيه، فيتحير ويتشكك ويضل عن الصواب؛ فمن أجل هذا احتجنا أن نذكر في هذه الرسالة الموت والحياة ونبين ما الحكمة في خلقهما وكونهما.

واعلم أنه إذا فكر العاقل اللبيب في خلقة الرحم وحال المشيمة وكون الجنين من النطفة، وكيفية ذلك المكان وما قد أعد هناك من المرافق والمرافل لتتميم الخلقة وتكميل الصورة، فيراها في غاية الحكمة وإتقان الصنعة من الصواب وما يتعجب منه أولو الألباب.

ثم إذا فكر في حال الولادة وكيف ينقلب في الرحم وتنخرق المشيمة وتنقطع تلك الأوتار وتسترخي تلك الرباطات التي كانت تمسك الجنين هناك، وكيف يسيل الدم والرطوبات المعدَّة التي كانت هناك لمرافقه، وما تلقاه الوالدة من الجهد والشدة، فإنه يرى شيئًا يدهش العقل ويحير أولي الأبصار والألباب.

ولكن لما كان من حال ما ينقل إليه الجنين من فسحة هذا العالم وطِيب نسيمه وإشراق أنواره، وما يستأنف الطفل من العمل في مستقبل العمر من لذة العيش والتمتع

بنعيم الدنيا، وإذا قدر ونجاه الله من ذلك المكان الضيق المظلم الناقص الحال بالإضافة إلى أحوال هذه الدار من التصرف والتقلب، فيرى أن الحكمة والصواب كان في الخروج من هناك.

فهكذا ينبغي لك يا أخي أن تعتبر لتعلم أن حال النفس مع الجسد كحال الجنين في الرحم، وأن حالها بعد الموت كحال الطفل بعد الولادة؛ لأن موت الجسد ولادة النفس.

وكذلك ولادة الطفل ليست شيئًا سوى خروجه من الرحم.

وكذلك ولادة النفس ليست هي شيئًا سوى مفارقة النفس إياه.

(٥) فصل في ماهية الحياة

فنقول: اعلم أن الموت والحياة نوعان: جسداني ونفساني، والحياة الجسدانية ليست شيئًا سوى استعمال النفس الجسد، والموت الجسداني ليس شيئًا سوى تركها استعماله، كما أن اليقظة ليست شيئًا سوى استعمال النفس الحواس، وليس النوم شيئًا سوى تركه استعمالها.

فأما النفس فحياتها ذاتية لها؛ وذلك أنها بجوهرها حية بالفعل علامة بالقوة فعالة في الأجسام والأشكال والنقوش والصور طبعًا وأن موتها هو جهالتها بجوهرها وغفلتها عن معرفة ذاتها، وأن ذلك عارض لها من شدة استغراقها في بحر الهيولى ولبعد ذهابها في هاوية الأجسام ولشدة غرورها في الشهوات الجسمانية، والناس أكثرهم لجهالاتهم بجوهر نفوسهم وغفلتهم عن حياتها الأبدية لا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا الجسدانية الدنية المتقطعة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، فصاروا يريدون البقاء في الدنيا ويتمنون الخلود فيها كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، وقال يريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، وقال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ... وآيات كثيرة في ذم الذين يريدون الحياة الدنيا هي حياة الجسد، ويغفلون عن الحياة الآخرة التي هي حياة النفس بالحقيقة، وتلك حياة أبدًا دائمًا، فأما ماهية حياة الجسم فنقول:

اعلم أن الجسد ميت بجوهره، وأن حياته عرضية لمجاورة النفس إياه، كما أن الهواء مظلم بجوهره، وإنما ضياؤه بإشراق نور الشمس عليه والقمر والكواكب.

والدليل على أن الجسد ميت بجوهره ما يُرى من حاله بعد مفارقة النفس له؛ كيف يتغير ويفسد ويتلاشى ويرجع إلى التراب كما كان بديئًا ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾.

(٦) فصل في غرض رباط النفس الجزئية بالجسد الجزئي

فنقول: اعلم أنما ربطت الأنفس الجزئية كيما تكمل بالرياضة وتخرج ما في جوهرها من الحكمة والصنائع والفضائل من حد القوة إلى حد الفعل لتتم الهيولى الجزئية.

وتكمل هي أيضًا ويتشبه ذلك الجزء بالكل، وهو أن تتعلم النفس الجزئية السياسة والتدبير والتهذيب بالأخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الزكية والمعارف الحقيقية.

وهكذا تشبه الجزء بالكل كما قيل في حد الحكمة إنها التشبه بالإله بحسب الطاقة الإنسانية.

وإذا بلغت النفس الإنسانية إلى أقصى مدى غاياتها، وكملت بما أظهرت من الفضائل وهدم الجسد، نقلت هذه الأنفس بعد مفارقة الجسد إلى حالة أخرى ونشوء آخر أعلى وأشرف من هذا الجسد المؤلف من اللحم والدم والأخلاط الأربعة القابلة للكون والفساد، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم إن الله ينشئ النشأة الآخرة، فتكون نسبة تلك الحال التي تنقل إليها النفس بعد مفارقة الجسد بالإضافة إلى هذه الحال، كنسبة حال الجسد في الرحم إلى الحال التي نقل إليها بعد الولادة؛ من فسحة هذا العالم وطيب نسيمه وإشراق نوره، بالإضافة إلى ظلمة الأحشاء والمشيمة والرحم التي هي ثلاث ظلمات.

ثم اعلم أن النفس لا تحس تلك الحال التي تنقل إليها إلا بعد مفارقة الجسد، كما أن الجنين لا يحس بأحوال هذه الدنيا إلا بعد الولادة.

فمن أجل هذا قال النبي — صلى الله عليه وآله: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.» وإنما نومهم غفلتهم عما بعد الموت.

فإذا جاءت سكرة الموت بالحق التي هي مفارقة النفس الجسد، وعاينت الحقيقة التي كانوا بها يوعدون، كما قال الله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

وقال لنبيه عليه السلام: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾؛ يعني الموت بعد مفارقة الجسد، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

فإذَن الموت حكمة؛ إذ لا رجوع لها إلى ربها الرحمن الرحيم إلا بعد الموت، ولا وصول للنفس إلى ما وعد الله ورسوله إلا بعد مفارقتها الجسد ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾، فإذَن الموت حكمة ومنَّة مِن الله تعالى على عباده، بل بالموت سبب بقاء الحياة الجسدانية وسبب فناء الجسد.

(٧) فصل في حكمة الموت

اعلم بأن لكل كون نشوءًا أولًا وابتداءً، وله غاية ونهاية، إليها يرتقي، ولغايتها ثمرة تجتنى، فمسقط النطفة كون قد ابتدئ، وغايته الولادة التي إليها المنتهى.

والولادة أيضًا كون قد ابتدئ، والموت غايته التي إليها المنتهى، وكما أن ثمرة مسقط النطفة لا تكون إلا بعد الولادة، لأن الطفل لا يتمتع إلا بعد الولادة، فهكذا النفس لا تتمتع إلا بعد مفارقة الجسد؛ لأن موت الجسد ولادة النفس؛ وهي الروح.

وذلك أن موت الجسد ليس شيئًا سوى مفارقة النفس له، كما أن ولادة الجنين ليست شيئًا سوى مفارقة الرحم؛ فإذَن الموت حكمة كما أن الولادة حكمة.

وكما أن الجنين إذا تمت في الرحم صورته، وكملت هناك خلقته، لم ينتفع في الرحم بل ينتفع بعد الولادة في الحياة الدنيا.

كذلك النفس إذا كملت صورتها وتمت فضائلها بكونها مع الجسد، انتفعت بعد مفارقتها الجسد في الحياة الآخرة.

فإذَن الموت حكمة؛ إذ البقاء الأبدي لا يتيسر إلا بعد حصول الموت؛ فالموت سبب لحياة الأبد، والحياة الدنيا سبب للموت في الحقيقة؛ إذ الإنسان ما لم يدخل في هذا العالم لا يمكن له أن يموت، فإذا وجد الإنسان فتكون حياته سببًا لموته وموته سببًا لحياته الباقية أبد الآبدين.

واعلم يا أخي أن مثل النفس مع الجسد كمثل الصبي في المكتب ليتعلم ويتأدب ويرتاض، فإذا تعلم وأحكم ذلك فليس حال أخرى إلا الخروج من المكتب والانتفاع بما حصل في المكتب؛ لأنه قد تم ما يراد منه وبقي الإكرام والمجازات.

فهكذا حكم النفس مع الجسد إذا أحكمت ما يُراد منها بكونها معه، فليس من طريقة إلا المفارقة.

وكما أن الصبي إذا أحكم ما يراد منه في المكتب، استغنى عن حمل اللوح والدواة والمداد والقلم وسواده؛ لأنه كان يكتسب به ويقرأ منه ويمحو ليحصل العلم في نفسه

محفوظًا من القرآن والأخبار والأشعار والنحو واللغة وما شاكلها مما يحفظ الصبيان في المكتب؛ فهكذا حكم النفس مع الجسد إذا هي أحكمت أمر المحسوسات بطريق الحواس، وأمر المعقولات بطريق الفكر والروية، وعرفت حقائق أمور هذا العالم من الكون والفساد، وارتقت بعد ذلك بطريق الرياضيات التي هي البراهين إلى معرفة الغائبة عن الحواس، وارتاضت فيها وعرفتها حق معرفتها، واستبان لها أمر عالمها ومبدئها ومعادها، وعاينت بعين البصيرة أحوال أبناء جنسها من السابقين الذين مضوا على سنن الهدى، وارتقوا إلى ملكوت السماء وفسحة الأفلاك وسعتها، اشتاقت هي عند ذلك الصعود إلى هناك واللحاق بأبناء جنسها، ولا يمكنها ذلك بهذا الجسد الثقيل إلا بتركها ومفارقتها إياه؛ وهو الموت. فلو لم يكن الموت لكانت ممنوعة من الوصول إلى هناك؛ فإذَن الموت حكمة ونعمة ورحمة وفضل ورضوان من الله عز وجل للنفوس المخيرة المستبصرة.

فصل حكمة أخرى من حكمة الموت

واعلم يا أخي بأن الجسد كالسفينة، والنفس كالملاح، والأعمال الصالحة كالبضاعة والأمتعة للتاجر، والدنيا كالبحر، وأيام الحياة كالمعبر، والموت كالساحل المتوجه إليه، والدار الآخرة كمدينة التاجر، والجنة هي الربح، والله تعالى هو الملك المجازي، كما أن التاجر إذا عبر البحر وسَلِمَت أمتعته وبضاعته ولما لم يخرج من السفينة لا يمكنه الدخول إلى مدينة للتجارة ويفوته ربح بضاعته، فهكذا حكم النفس مع الجسد أيضًا؛ وذلك أنها إذا قطعت أيام الحياة الدنيا بالأعمال الصالحة، وسارت سيرة عادلة وتخلقت بالأخلاق الجميلة، واعتقدت آراء صحيحة، ونظرت في أمور المحسوسات، فعرفتها معرفة صحيحة، وبحثت عن حقائق المعقولات وأحكمتها، وبلغت آخر العمر، وهدم الجسد؛ فليس التدبير والحيلة إلا الفراق الذي هو موت الجسد. فلو لم يكن الموت لما أمكنها الصعود إلى ملكوت السماء، ولا الدخول في زمرة الملائكة، ولا الوصول إلى الجنة، وكان يفوتها لقاء الله تعالى ونعيم الدار الآخرة، كما يفوت الجنين مشاهدة هذا العالم على حقيقته لو لبث في المشيمة ولم يظهر منها؛ فإذَن الموت حكمة ورحمة ونعمة، إذ لا وصول لنا إلى ربنا إلا بعد خروجنا من هذا الهيكل ومفارقة أجسادنا ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

فصل في حكمة الموت

اعلم أن الدنيا كالميدان، والأجساد خيل عتاق، والنفوس السابقة إلى الخيرات فرسان، والله تعالى الملك الجواد المُجازي. وكما أن الفارس السابق إذا بلغ باب الملك إن لم ينزل عن فرسه لا يمكنه الدخول إلى حضرة الملك فتفوته جائزته والخلع والكرامة، فهكذا حكم نفوس السابقين في الخيرات والأعمال الصالحة إذا قطعوا أيام الحياة الدنيا سبقًا إلى الخيرات، كما مدحهم الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

فإذا فَنِيَ العمر وهدم الجسد وشاخ ونبت النفس وكملت إن لم تفارقه، لا يمكنه الصعود إلى ملكوت السماء؛ لأن هذا الجسد الثقيل المتغير الفاسد لا يليق بذلك المكان العالي الشريف، بل النفس هي التي يمكنها الصعود إلى هناك لتجازى بما عملت من خير؛ فإذَن الموت حكمة ورحمة.

وأيضًا إن الدنيا مزرعة وأرحام النساء كالحرث، كما قال الله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾، والنطفة كالبذر، والولادة كالنبت، وأيام الشباب كالنشوء، وأيام الكهولة كالنضج، وأيام الشيخوخة كاليبس والجفاف.

فبعد هذه الحالات لا بُدَّ من الحصاد والصرام وهو الموت والصراط والآخرة كالبيدر، فكما أن البيدر يجمع الغلات من كل جنس ويدرس وينقى ويرمى القشور والورق والتين والحَب والثمر ويجعل علفًا للدواب وحطبًا للنيران.

فهكذا تجتمع في الآخرة أمم الأولين والآخرين من كل دين، وتنكشف الأسرار، ويميز الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون.

وهذا كله بعد الموت هو حكمة ورحمة ونعمة من الله تعالى لأوليائه، فلأجل هذا يتمنى أولياؤه الموت، كما عاتب من ظن أنه منهم بغير حق: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فدل بهذه الآيات علامة أولياء الله تعالى أنهم يتمنون الموت إذا علموا أنهم إلى ربهم راجعون بعد الموت؛ فإذَنْ الموت حكمة ونعمة.

فصل في حكمة الموت أيضًا

واعلم يا أخي أن النفوس كالصناع، والأجساد كالدكاكين، وأعضاء الجسد كالأدوات؛ كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد.

ثم اعلم أن الصناع يجتهدون في الصنائع ويحملون مشقة العمل لكسب المال وطلب الغناء، فإذا استغنى واحد منهم ترك الدكان والأدوات واستراح من العمل.

فهكذا حكم النفوس إذا هي أحكمت ما يراد منها بكونها مع الجسد من الزاد للآخرة استغنت عن الجسد فاستقلت بذاتها. فلو لم يؤخذ منها الجسد، لكان وبالًا عليها، ومانعًا لها من الصعود إلى ملكوت السماء والدخول في زمرة الملائكة والسيحان في عالم الأفلاك والسريان في فسحة فضاء السموات والتنسم من الروح والريحان؛ فإذَن الموت حكمة ونعمة من الله تعالى لعباده الصالحين.

وقال يوسف الصديق: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، أما ترى أنه عليه السلام تمنى بقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ لَمَّا علم أن اللحاق بالصالحين لا يكون إلا بعد الموت؛ فإذَن الموت حكمة ونعمة.

وقال خليل الرحمن عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؛ فإذَن الموت حكمة إذا كانت وراثة الجنة لا تتيسر إلا بعد الموت.

ثم اعلم أن الكرامة للنفس من الله واردة للنفس خاصة لا للجسد؛ لأن الجسد قد بَلِيَ في التراب، وإنما ألحقت بالصالحين نفسه.

(٨) فصل في كيفية خروج النفس من القوة إلى الفعل

فنقول: اعلم — أنار الله برهانك — بأن نفوس الصبيان عاقلة بالقوة، ونفوس البالغين عاقلة بالفعل، ونفوس العقلاء علامة بالقوة، ونفوس العلماء علامة بالفعل، والعلماء نفوسهم فلسفية بالقوة، والفلاسفة نفوسهم حكماء بالفعل، والحكماء الأخيار ملائكة بالقوة، فإذا فارقتْ نفوسها أجسادها كانت ملائكة بالفعل؛ فإذَن الموت حكمة ورحمة.

واعلم يا أخي أن المعادن تستحيل إلى أجسام النبات، وأجسام النبات تستحيل إلى أجسام الحيوان، وأشرف الحيوان الإنسان، فصورة النبات صراط منكوس إلى العمق وقد جازتها النفس الحيوانية ونجت منها، وصورة الحيوان صراط ممدود على السطح وقد جازتها النفس الإنسانية ونجت منها، وصورة الإنسان صراط مستقيم كالخط قائمًا منتصبًا بين الجنة والنار وهي أخريات جهنم؛ فأي نفس جازتها نجت من جهنم ودخلت الجنة التي هي صورة الملائكة، وإلا رُدَّت إلى أسفل السافلين، كما ذكر الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

فانظر يا أخي في هذا الباب وتَفكَّر فيه فإنك على خطر عظيم، وقد بلغتَ قريبًا من باب الجنة، فإن بادرتَ قبل مفارقة الجسد للنفس واستعديت وتزودت بالأعمال الصالحة والآراء الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم الحقيقية، رجوت لك أن تنجو من نيران الهاوية التي هي عالم الكون والفساد، وتصل إلى الجنة بالصعود إلى عالم الأفلاك وفسحة السموات، عالم الدوام والبقاء والخلود في النعيم والسرور مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، ذلك الفضل من الله.

(٩) فصل في غرض السياسات

اعلم أن الجسد مَسُوس والنفس سائس، فأي نفس ارتاضت في سياسة جسدها كما يجب أمكنها سياسة الأهل والخدام والغلمان، ومن ساس أهله بسيرة عادلة أمكنه أن يسوس قبيلة، أمكنه أن يسوس أهل المدينة كلهم، ومن ساس أهل المدينة كما يجب أمكنه أن يسوس الناموس الإلهي، ومن ساس الناموس الإلهي أمكنه الصعود إلى عالم الأفلاك وسعة السموات، عالم الدوام، ليجازى هناك بما عمل من خير؛ فإذَن الموت حكمة.

فإن لم يستوِ لك يا أخي سياسة الناموس الإلهي، فكن حاذقًا فيه؛ فلعلك تنجو من جهنم بشفاعة أهلها، وتصعد إلى ملكوت السماء بمعاونتهم، وتدخل الجنة برحمة الله وفضله وسعة رحمته. وفقك الله يا أخي للصواب، وهداك الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد أنه رحيم جواد.

(١٠) فصل في عيوب الجسد ومثالبه

فاعلم يا أخي أنَّا قد بيَّنا في رسالة تركيب الجسد ورسالة الإنسانُ عالمٌ صغيرٌ ورسالة الحاس والمحسوس؛ ما تستفيد النفس بكونها معه من الحكمة والعلوم والفوائد، وما ترتاض من اتخاذ الصنائع والسياسات والتدبير والربوبية والتشبه بالإله بحسب الطاقة الإنسانية، إذا أخذَت النفس طريق ذات اليمين؛ لأن هذا الجسد لهذه النفس صراط ممدود بين الدنيا والآخرة، فإذا عبرت النفس على هذا الصراط وسَلِمت من آفاته، سهل عليها سائر ما بعد ذلك.

فمن عيوب هذا الجسد كون النفس كمحبوس في كنيف؛ لأن الكنيف بالحقيقة هو هذا الجسد، فهو ينبوع لكل قاذورات من وسخ وبول وغائط ومخاط وبصاق ودم وصديد ولعاب وعرق نتن وبخر وصنان، وأن كل ما يكون في الكنيف من القاذورات، فمنه يخرج وفيه يتكون؛ فأوله نطفة قذرة وآخره جيفة منتنة، وما بين الحالتين مملوء عذرة، والنفس على دوام الأوقات في تنظيفه وغسله وتنقيته ومداواته وستر عوراته، وحفظه من آفات الحر والبرد والجوع والعطش والصدمة والضربة والآفات العارضة التي لا يحصى عددها.

وبالجملة فليس في العالم نتن ولا نجاسة ولا قاذورة ولا جيفة إلا منه. ومِن وجه آخر، فنقول: مَثل النفس مع الجسد كعابد صنم يعبده بالليل والنهار؛ وذلك أن النفس إذا تركت تعلُّم العلم وعبادة الله عز وجل والنظر في أمور معادها بعد فراق الجسد والاستعداد له والتزود للرحلة من الدنيا إلى الآخرة، واشتغلت بما يكون فيه صلاح الجسد من الأكل والشرب واللباس والمسكن والمركب، وما شاكلها من أنواع زينة الدنيا؛ فتكون كأنها هودي يعبد صنمًا كما ذكر الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومن وجه آخر فنقول: «الجسد كأنه كافر محجوب عن الله تعالى، لا يعرفه ولا يدري مَن خلقه ورزقه.»

ومن وجه آخر كأنه صاحب بدعة يدعي إلى هواه، ويريد أن تكون الأمور بمراده.

ومن وجه آخر كأنه جاهل عجول لا ينظر في العواقب، وأيضًا كأنه عدو للنفس يُظهر الصداقة ويكتم العداوة.

وأيضًا كأنه شيطان من كثرة الوساوس، وأيضًا كأنه إبليس يدعو إلى العداوة، وأيضًا كأنه ميت على جنازة حملتها النفس على كتفها لا تستريح منه، يا ويلتها، حتى إذا دفنته في التراب. وأيضًا كأنه غيم بين أبصار الناظرين ونور الشمس؛ لأن ظلمات أخلاط الجسد تمنع عن النظر إلى نور العقل وهو يمطر الآمال وينسي الآجال.

وأيضًا مَثل هذه النفس الجزئية مع شرفها وشرف جوهرها، وما هي عليه من غربتها في هذا العالم الذي تحت الكون والفساد، وما ابتليت به من آفات هذا الجسد وفساد هيولاه؛ كمَثل رجل حكيم خبير في غربة، قد ابتلي بعشق امرأة رعناء فاجرة جاهلة سيئة الخلق رديئة الطبع، فهي دائم الأوقات تطالبه المأكولات الطيبة والمشروبات اللذيذة واللباس الفاخر والمسكن المزخرف والشهوات الرديئة، وإن ذلك الحكيم من شدة محنته بمحبتها وعظم بلائه بصحبتها قد صرف كل همته إلى إصلاح أمرها، وأكثرَ عنايتَه بتدبير شأنها، حتى نسي أمر نفسه وصلاح شأنه، وبلدته التي خرج منها، وأقربائه الذين نشأ معهم، ونعمته التي كان فيها بدءًا؛ فكأنه قد قرن بشيطان مريد وعدو مبين، فهذا الشيطان هو الذي قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾؛ فهو إذَنْ إبليس الذي أخرج آدم من الجنة.

ثم اعلم أن جوهر النفس جوهر سماوي وعالمها عالم روحاني، وهي حية بذاتها غير محتاجة إلى الأكل والشرب واللباس والمسكن، وما شاكل ذلك مما يحتاج إليه الجسد في قوام وجوده ومادة بقائه، وأن كل ما يحتاج إليه الإنسان من أعراض هذه الدنيا فإنما هو من أجل هذا الجسد المستحيل الفاسد ولإصلاح شأنه وقوام وجوده وجر المنفعة إلهي ودفع المضرة عنه وهو لا يثبت على حالة واحدة طرفة عين.

ثم اعلم أن النفس ما دامت مع هذا الجسد إلى الوقت المعلوم، فإنها متعوبة بكثرة غمومها لإصلاح أمر هذا الجسد، شقية بشدة عنايتها فيما تتكلف من الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة لاكتساب المال والمتاع والأثاث، وما يحتاج إليه الإنسان في طول حياته الدنيا.

ثم اعلم أن النفس ما دامت مربوطة بالجسد لا راحة لها دون مفارقتها هذا الجسد، كما أن ذلك الرجل الحكيم المبتلى بعشق تلك المرأة الفاجرة الرعناء لا راحة له مما قد ابتلي به إلا بمفارقتها والتسلي عن حبها وعشقها؛ فإذَن الموت حكمة ورحمة ونعمة

لنفوس الأخيار بعد بوار الأجساد، فما الموت إلا نعمة وسرور، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور. وفقك الله وإيانا وجميع إخوانا للسداد، إنه رحيم رءوف بالعباد.

(تمَّت الرسالة الخامسة عشرة في ماهية الحياة والموت، ويتلوها رسالة اللذات.)

الرسالة السادسة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات في خاصية اللذات، وفي حكمة الحياة والموت وماهيتهما

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنَّا قد فرغنا من بيان حكمة الموت والحياة، وبيان ماهيتهما، وقلنا ما الحكمة من وجودهما في عالم الكون والفساد، وما العلة في كراهية نفوس الحيوانات الموتَ ومحبتها الحياةَ، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة ماهية اللذة والألم والغم والفرح والسرور والحزن والراحة والتعب، ونبين أنها كلها أخوات متضادات أو متشاكلات.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن اللذة والألم نوعان: جسمانية وروحانية، وهكذا حكم أخواتها.

فأما اللذات الجسمانية فهي الراحة التي تحس بها النفوس الحيوانية عند زوال الآلام. وأما الآلام التي تحس بها النفوس الحيوانية عند خروج المزج عن الاعتدال من الأمر الطبيعي إلى أحد الطرفين من الزيادة والنقصان بسبب من الأسباب، فهي كثيرة

لا يحصي عددها إلا الله تعالى، ولكن نذكر منها طرفًا لتعلم ماهية الآلام واللذة وكيفية حدوثهما.

فمن ذلك ماهية لذة الأكل والشرب، أقول: إن حرارة معدة الحيوانات ذوات المعدة والقوانص فيها بمنزلة نار السراج المشتعلة بالفتيلة، فإذا فَنِيَ الغذاء اشتعلت في رطوبات جرم المعدة، فأفنتها واحترقت تلك العصبات المنسوجة هناك، كما يشتعل نار السراج في الفتيلة إذا فَنِيَ الدهن، فعند ذلك تحس تلك النفوس بالألم فتنهض أجسادها في طلب الغذاء لتخلف على المعدة بدلًا مما قد فَنِيَ وعوضًا عنه، فإذا أوردت تلك المواد إلى المعدة واشتعلت فيها تلك الحرارة للنضج، فيسكن ذلك اللهيب من جرم المعدة، ويجد الحيوان عند ذلك راحة ولذة، وبحسب شدة لهيب تلك الحرارة وسكونها تكون لذة الأكل.

وهكذا أيضًا حكم العطش من لهب حرارة الكبد، فلا يزال الحيوان يجد لذة الأكل والشرب إلى أن تستوفي الطبيعة حاجتها، فعند ذلك تزول تلك اللذة وتسكن، حتى إنه إن زيد على مقدار الحاجة صارت اللذة ألمًا، فيمسك عند ذلك الحيوان عن الأكل والشرب إلى أن يستمرئ ما أكل ويهضم، وتمر إلى أطراف الجسد تلك المواد لتخلف ما تحلل من هناك؛ لأن الحيوان في دائم الأوقات في الذوبان والسيلان لا يقف لحظة ولا طرفة عين. يعلم حقيقة ما قلنا وصحة ما وصفْنا أهلُ البصائر من الأطباء والطبيعيين.

وأما اللذة التي يجدها الحيوان من الجماع، فإن تلك المادة التي تسمى المني، وهي زبدة الدم، إذا كثرت في بدن الحيوان واجتمعت في المواضع المعدَّة لها، وجدت الطبيعة عند ذلك ثقلًا وتمددًا كما تجد عند اجتماع البول في المثانة، والغائط في المعي، فتطلقها الإرادة عند ذلك للبروز، فهكذا حكم المني. وقد جعلت الحكمة الإلهية والعناية الربانية شهوة مركوزة في جبلة الذكران للاجتماع مع الإناث من أبناء جنسها، وكذلك في طباع الإناث الاجتماع مع الذكران ليكون منهما التناسل والنتاج؛ ليبقى النسل في بقاء الأشخاص والصورة في الهيولى إذا كانت الأشخاص لا بقاء لها دائمًا في عالم الكون والفساد لعلل يطول شرحها. وقد ذكرنا طرفًا منها في رسالة البعث والقيامة وطرفًا في رسالة العلل والمعلولات، فإذا خرجت تلك النطفة من بدن الحيوان الفحل، خف عن الطبيعة ما كان يجده من الثقل، ووجد الحيوان عند ذلك راحة ولذة.

وأما اللذة والراحة التي يجدها الحيوان عند السكون والهدوء والنوم، فهي من أجل أن الحركة التي تسخن مزاج أبدانها وتجفف رطوبات العضلات والأعصاب المحركة

للأعضاء، فتضعف عند ذلك عليها الحركة، فإذا سكنت وتمددت وهدأت، بردت أبدانها وتولدت من السكون برودة، ومن البرودة رطوبة، فلانت الأعصاب والأوتار المحركة لتلك الأعصاب والعضلات، وسهلت الحركة، وهكذا أيضًا حكمها عند وضع أحمالها وأثقالها تجد راحة؛ لأن الحركة المفرطة والثقل يسخنان المزاج ويخرجانه من الاعتدال.

وأما اللذة والراحة التي يجدها الحيوان عند الحر والبرد، فهو من أجل أن الحرَّ إذا دام عليها سخن مزاج أبدانها وأخرجها من الاعتدال فيؤلمها ذلك، فعند ذلك يطلب ما يضادها من برد الظلال والأفياء والمواضع الباردة، فإذا دامت هناك زمانًا طويلًا أفرطت البرودة في أبدانها وخرجت من الاعتدال إلى الجانب الآخر، فعند ذلك تطلب الدفء والشمس والنيران وما يضاد البرودة.

فقد تَبيَّن بما ذكرنا أن الحيوانات في دائم الأوقات تتفرج وتستريح تارة من ألم الحرارة إلى ضده وتارة من ضده إليه، وتَبيَّن أيضًا أن اللذات الجسمانية إنما هي من خروج الألم، فهو خروج من الاعتدال إلى أحد الطرفين؛ إما إلى زيادة أو إلى نقصان، أو من حر إلى برد، أو من برد إلى حر، أو من حركة إلى سكون، أو من سكون إلى حركة، أو من جوع وعطش إلى شبع وري، أو من شبع وري إلى جوع وعطش. وعلى هذا المثال والقياس يوجد حكم سائر اللذات والآلام الجسمانية.

وذلك أن الذي تجده النفس من اللذة بالنظر إلى محاسن الموجودات أو بالاستماع للنغمات والشم للروائح الطيبات واللمس للملموسات، فهي كلها تكون بحسب مشاكلات المزاج الموافقات، وألمها بحسب المخالفات المتضادات، وذلك أن كل محسوس يُخرج مزاج الحاس من الاعتدال، فإن الحاسَّة تتألم منه وتكرهه وكل محسوس يرد الحاس إلى الاعتدال والمزاج الطبيعي، فإن الحاسَّة تلتذ به وتحبه وتحن إليه.

فإذا تأملت يا أخي ما ذكرنا علمتَ وتَبيَّن لك بأن هذه الآلام واللذات الجسمانية إنما جعلت لنفوس الحيوانات عند خروج مزاج أجسادها من الاعتدال، ورجوعها إلى الاعتدال لكيما تدعوها تلك الآلام إلى حفظ أجسادها وصيانة هياكلها من الآفات العارضة لها، وتحثها تلك اللذات على طلب جر المنفعة إليها أو دفْع المضرة عنها إذا كانت الأجساد أجسادًا أمواتًا لا تقدر على دفع مضرة عنها ولا جر منفعة إليها، ولا تحترز من الأشياء المهلكة لها أو المحرجة لمزاجها من الاعتدال.

والدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا، أن الأجساد لا تقدر على دفع مضرة ولا جر منفعة ما نرى من حالها عند مفارقة نفوسها مستسلمة إلى المهلكات مما لا خفاء به من حال جثة الموتى.

فأما اللذات والفرح والسرور التي تجده عند وجدانها ومنافعها ومحبوباتها، وما تجده من الشفقة والتحنن على صغار نتاجها، وما يعرض من الغم والهم عند فقدانها أو ضرر ينالها؛ فكل ذلك حَث للنفوس على صيانة الأجساد إلى وقت معلوم.

وأما الشهوات المركوزات في جبلة الحيوانات فقد ذكرنا طرفًا من عللها في رسالة الأخلاق، ولكن نذكر ها هنا ما لا بُدَّ من ذكره؛ وذلك أن كل ما في كل طبيعة جسد وجبلة كل مزاج من الشهوات المركوزة هي ما يوافق طباعها ويصلح مزاجها؛ وذلك أن الحيوانات الآكلة للحمان لا تشتهي الحشائش إلا عند الضرورة وفقدان اللحم، وكالطيور والحيوان الآكل للعشب والحَب لا يشتهي اللحم ولا يلتذ به، وهكذا الإنسان لا يشتهي ولا يأكل إلا ما يوافق طبعه ومزاجه أو ما قد اعتاد أكله على ممر الأيام والأوقات، وأما شهوة العليل لما يضره فلأسباب أُخر يطول شرحها.

فقد تبين أن الجوع والعطش بحسب الحاجة إلى الطعام والشراب، وأن اللذة بحسب الكفاية، والشهوة بحسب الموافقة للمزاج والطبع. ونريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقبة باللذة والآلام كون العلة في كراهية نفوس الحيوانات الموت ومحبتها للحياة، فنقول:

اعلم أن لمحبة الحيوانات الحياةَ وكراهيتها الموتَ علتين؛ إحداهما: ما يلحق نفوسها من الأوجاع والآلام. والثانية: ما في طباع الموجودات من المحبة والبقاء وكراهيتها للفناء هو من أجل أن الباري تعالى لَمَّا كان هو علة الموجودات وسبب الكائنات، كما بيَّنا في رسالة المبادئ، وهو أبدي الوجود دائم البقاء؛ صارت من أجل ذلك في جبلة الخليقة محبة البقاء وكراهية الفناء الذي هو ضد البقاء.

ثم اعلم أن الموجودات نوعان: كليات وجزئيات؛ فالكليات تبتدئ من أتمها ثم الأَدْون فالأدون إلى آخرها، وهي تسعة مراتب؛ أولها وأَولاها البارئ تعالى الذي هو علتها كلها، ثم العقل، ثم النفس، ثم الطبيعة، ثم الهيولى الأولى، ثم الجسم المطلق، ثم الفلك ثم الأركان الأربعة، ثم المولدات الثلاثة، وهي آخرها كما بيَّنا في رسالة المبادئ.

والأمور الجزئية تبتدئ من أنقص الحالات، ثم ترتقي أولًا فأولًا إلى أن تنتهي إلى أفضل الحالات، كما بيَّنا في رسالة مسقط النطفة ورسالة نشوء الأنفس الجزئية ورسالة البعث والقيامة ورسالة الكون والفساد، فمن أراد علم ذلك، فليرجع إلى هناك ليعلم صحة ما قلناه وحقيقة ما بيَّناه.

(٢) فصل في ما العلة في وصول الآلام والأوجاع إلى النفوس الحيوانية دون سائر النفوس التي في العالم

فنقول: اعلم أنَّا قد بيَّنا ماهية اللذة والآلام وكيفية إحساس النفوس بهما، ونريد أن نذكر في هذا الفصل ما العلة والحكمة في رباط النفوس الجزئية بالأجساد الحيوانية ووصول الآلام والأوجاع إلى النفوس الحيوانية دون سائر النفوس النباتية والموجودات التي في العالم.

فاعلم أنه لما كانت النفوس الحيوانية من الأمور الجزئية، ولم يكن للنفوس الجزئية أن تبلغ إلى أتم الحالات وأكمل المراتب إلا بأن تقترن بالأجسام الجزئية التي هي أجساد الحيوان، وكانت الأجساد تعرض لها الآفات المفسدة قبل تمامها وكمال نفوسها، ولم يكن للأجساد مَقدرة على دفع تلك الأشياء المفسدة لها؛ لأن جواهر الأجسام عاجزة جاهلة ميتة ناقصة الحال منفعلة حسب، فبواجب الحكمة الإلهية جعل لنفوسها أن تلحقها الآلام والأوجاع من الأشياء المفسدة لأجسادها كيما تدعوها تلك الآلام وتحثها تلك الأوجاع على دفع تلك الأشياء المفسدة لأجسادها، وتحفظها من الآفات المهلكة وتصونها عن عوارض التلف، إلى أن تتم تلك الأجساد وتكمل أيضًا تلك النفوس، ثم يجيئها الموت الطبيعي إن شاءت النفوس أو أبت، كما يجيء الطلق للولادة إن شاء الجنين أو أبى؛ لأن موت الجسد ولادة النفس كما بيَّنا في رسالة حكمة الموت. ولو لم تعرض للنفوس الآلام من الأشياء المفسدة لأجسادها، لتهاونت بها وتركتها متعرضة للآفات، وكانت تفسد أكثرها قبل تمامها وكمال نفوسها.

وذلك أن النفس الإنسانية لم يكن نشوءُها ولا تتميمها ولا تكميلها إلا بتوسط هذا الجسد المملوء من آثار الحكمة، كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد ورسالة الحاس والمحسوس، وقد بيَّنا ذلك في رسالة الإنسان عالم صغير، فبواجب الحكمة الإلهية ربطت بالأجساد البشرية؛ وذلك أن النفس الإنسانية لا تعرف حقائق المحسوسات، ولا تتصور معاني المعقولات، ولا تقدر على عمل الصنائع ولا تتخلق بالأخلاق والأعمال الحميدة إلا بتوسط هذا الجسد طول حياته إلى آخر العمر كما قال تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فلو لم يعرض للنفس الألم من الأشياء المفسدة للجسد، لكان الإنسان، مثلًا، إذا نام فاستغرق في نومه ثم مد يده ورجله فدخلتا في نار إلى جنبه فاحترقتا، ولم يكن يحس به حتى ينتبه من نومه، فإذا هو بلا يدين ولا رجلين، وكان يبقى طول عمره بلا آلة للمشي ولا

أداة لاتخاذ الصنائع؛ وعلى هذا القياس حكم نفوس سائر الحيوانات، لو لم يكن يعرض لنفوسها الألم من الأشياء المفسدة لأجسادها، لتهاونت بها وتركتها متعرضة للآفات والهلاك، كما أنه لو لم يكن يجعل لها شفقة على صغار أولادها وتحنُّنًا عليها، لتركتها وتهاونت بها ولم تحتمل المشقة في تربيتها، وكانت تهلك كلها قبل التمام، وكان مصير ذلك سببًا لانقطاع النسل ودثور الصورة من المادة. وقيل لبعض الحكماء: أي أولادك أحب إليك؟ فقال: صغيرهم حتى يكبر، وعليلهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يرجع. فإذَنْ بواجب الحكمة جعلت تحس ما يلحقها من الآلام لحفظ أجسادها من التلف، وتحثها على صيانتها من عوارض الآفات والآلام.

(٣) فصل في ماهية الألم واللذة وكيفيتها

فنقول: إن اللذات والآلام التي تحفظ أجسادها من التلف وتحثها على صيانتها نوعان: جسماني وروحاني؛ فاللذات الجسمانية هي التي تجدها النفس عند الخروج من الألم، والآلام التي تحسها النفس عند خروج مزاج الأجساد عن الاعتدال الطبيعي إلى حد الطرفين من الزيادة والنقصان بسبب من الأسباب هي كثيرة لا يحصى عددها؛ مثال ذلك الجوع، أحد الآلام تحس به النفس عند خلو المعدة من الطعام، وذلك أن الحرارة الغريزية التي تنضج الطعام في المعدة إذا لم تجد هناك طعامًا تكون مشتغلة، فإذا اشتغلت في جرم المعدة فنيَت رطوباتها المعدة هناك لمصالحها، فإذا فنيت تلك الرطوبات انفسد جرم المعدة، فإذا أحست النفس بالآلام انتهض الجسد في طلب القوت ليزيل عنه الفساد وعن ذاتها الألم، فإذا وصل ذلك إلى المعدة رجعت تلك النار عن جرم الجسد، واشتغلت عن ذلك الطعام، وسكن الالتهاب عن جرم المعدة، فتجد النفس لذلك راحة، فتسمى تلك الراحة لذة. وهكذا العطش فإنه حرارة تلتهب في جرم الكبد، ولا تسكن إلا بشرب الماء، فتحس النفس عند التهاب تلك الحرارة ألمًا وعند سكونها راحة، فهاتان الخلتان تحثان النفس الحيوانية على طلب مادة أجسادها لتخلف عليها بدل ما يتحلل منها إذا كانت ذات الجسد دائمًا في الذوبان والسيلان من أسباب خارجة وأسباب داخلة، ولو لم تعرض لنفوسها الآلام والأوجاع عند الجوع والعطش لما نهضت أجسادها في طلب غذائها وفي مادة بقائها، وكان يبطل أجسادها الذوبان قبل تمامها وكمالها؛ فإذَنْ قد بان من الألم واللذة إنما هي حث النفوس على ما يصلح الأجساد؛ لأن في صلاح

الأجساد صلاح النفوس، كما بيَّنا قبل، وهذه اللذة التي تجدها النفوس الحيوانية عند تناول الغذاء هي أيضًا تجدها النفوس النباتية، وهي التي تحثها على جذب الرطوبات إلى أصول النبات وإلى أعلى فروعها، فإذا لم تجد ذلك جفَّت أجسامها، وهو موتها، ولكن لا يعرض لنفوسها الألم عند فقدان الغذاء كما يعرض للنفوس الحيوانية، فمن أجل هذا لم تجعل لها حيلة التنقل من مكان إلى مكان في طلب الغذاء كما للحيوان ولا فرارًا من المؤذيات؛ لأنه لا يليق بالحكمة الإلهية أن تجعل لها ألَمًا وتمنعها حيلة الدفع.

وأما النفوس الحيوانية لَمَّا جعلت لها حيلة الدفع عن أجسادها الأشياء المفسدة لها، جعل لها ألم يحثها على ذلك؛ إما بالطلب وإما بالهرب وإما بالتحرز، كما بيَّنا في رسالة الحيوان.

وأما لذة الانتقام فهي أيضًا خروج من الألم، وذلك أن الغضب نار وحرارة تشتعل في جرم القلب، وهو شهوة الانتقام من المؤذي الذي أثار الغضب، فإن وصل إلى الانتقام سكنت تلك الحرارة وخمدت نارها، وإن لم يقدر على ذلك ولم يصل إليه صار الغضب حزنًا ومصيبة؛ مثال ذلك إذا قُتل لأحد قتيلٌ أَوقدت نارُ غضبه على القاتل شهوةَ القوة، فإن قَتَلَ القاتلَ سكنت تلك الحرارة، وإن قلته الموتُ صار حزنًا ومصيبة؛ لأنه لا يمكن أن يؤخذ من الميت القوة. وعلى هذا القياس سائر الشهوات، نيران تشتعل في الأجساد وتحس النفوس آلامها.

ثم اعلم أن الأجساد كلها نيران بالقوة جامدة، فإذا أصابتها نار بالفعل صارت نيرانًا بالفعل، والدليل على ذلك أنها كلها يمكن أن تحرق بالنار، فلو لم تكن من النار لما أمكن إحراقها بها، وهكذا حكم مأكولاتها وملبوساتها كأنها نيران جامدة كُوِّنت من النار والهواء والماء والأرض، وإليها تستحيل بعد مفارقة النفوس لها، ومن أجل هذا قال رسول الله ﷺ: «أهل النار خلقوا ومن النار يأكلون وعلى النار يتقلبون.» وهذه حال الأجساد ومرافقها ومادتها كلها نيران جامدة إذا اشتعلت التهبت على الأفئدة، كما قال الله عز وجل: ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾، وهي آمال طوال وآجال قصار ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ إشارة إلى ما ذكرنا كلما نضجت جلودهم، يعني أجسادهم بالبلى، بدلنا لهم جلودًا غيرها، بدلوا بالكون ثانيًا.

فصل

اعلم يا أخي بأن الله عز وجل قد أكثر في القرآن مدح المؤمنين وذم الكافرين؛ لأنهما خلتان بينهما بعد بعيد؛ إحداهما مجمع الخير كله وفضيلة الإنسانية فيها كلها وهي الإيمان، والأخرى ضدها وهي الكفر وهو مجمع الشرور كلها.

وقد بيَّنا في رسالة الناموس ورسالة المؤمنين معنى قولنا ما الإيمان ومَن المؤمن، ونذكر في هذا الفصل ما الكفر؛ ليعلم من الكافرون بالحقيقة، فنقول:

اعلم أن الكفر في لغة العرب الغطاء، وهو شيء يعرض للنفس من جهة الجسد، وذلك أنه إذا استقرت النفس في الجهالة، تغطى عليها أمر ذاتها وذهب عليها معرفة جوهرها وتنسى مبدأها، ولا تذكر من أمر معادها حتى تبلغ من جهالتها، ألا تعلم بأن لها وجودًا خلوًا من الجسد حتى تظن أنها جسم كما يظن ويقول كثير ممن يتعاطى النظر في العلوم، وهو قولهم إن الإنسان هو هذا الجسد الطويل العريض العميق المؤلف من اللحم والدم، ولا يدرون أن مع هذا الجسد جوهرًا آخر، وهو المحرك له؛ وهي النفس المطهرة به ومنه أفعالها.

فمن لا يعرف جوهر النفس فهو لا يعرف شيئًا من الأمور الروحانية ولا يتصورها، وإذا سمع ذكرها أنكرها لشدة استغراقه في بحر الهيولى وظلمات الجهالات، فهؤلاء إذا سمعوا بذكر جهنم لا يتصورونها إلا أمرًا صناعيًّا، وهو أنهم يظنون أن جهنم هي خندق محفور كبير واسع مملوء من نيران تشتعل وتلتهب، وأن الله تعالى يأمر الملائكة قصدًا منه وغيظًا على الكفار أن يأخذوهم ويرموا بهم في ذلك الخندق.

ثم إنه كلما أحرقت أجسادهم وصارت فحمًا ورمادًا أعاد فيها الرطوبة والدم حتى يشتعل من الرأس ثانيًا كما اشتعل أول مرة.

وهكذا يكون دأبهم أبدًا، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ولا يدرون معنى قوله تعالى ولا تأويل كتابه أنهم إذا سمعوا أن الله غفور رحيم حنَّان منَّان رءوف ودود، وما شاكل ذلك من أسمائه الحسنى، وتفكروا فيها؛ أنكرت عليهم عقولهم ما اعتقدوا فيه من الحقد وقلة الرحمة لخلقه، فعند ذلك يتحيرون ويتشككون فيما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام؛ إذ لا يعرفون شيئًا عن صفة جهنم وعذاب أهلها، ولا يعرفون تأويل كتبهم ولا معاني إشاراتهم ورموزاتهم ودقائق أسرارهم.

فهكذا إذا سمعوا ذكر الجنة ونعيمها وسرور أهلها ولذاتهم، فلا يتصورونها إلا أمورًا جسمانية شبه بساتين فيها أشجار وعليها ثمار وقصور بينها أنهار، وفي تلك

القصور حور وغلمان وولدان مردان على أمثال أبناء الدنيا ونعيم أهلها، وإذا سمعوا بأن أهل الجنة في جوار الرحمن حيث قال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾، وإنهم يزورون رب العالمين فيرونه وينظرون إليه كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وأن الملائكة يزورونهم بالهدايا والتحف كما قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ وما شاكل هذا من وصف أهل الجنة من شرب الشراب أو مباشرة مع الأبكار، وأنهم أحياء لا يموتون، وشبان لا يهرمون، وأصحاء لا يمرضون، ولا يجوعون ولا يعطشون، ويأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون، وما شاكل هذه من الصفات التي لا تليق بأجسام الطبيعة الكائنة الفاسدة فضلًا بالأشياء الروحانية.

فإذا فكروا فيها تحيروا أيضًا فيما يعتقدون من أمر الجنة ونعيمها وحالات أهلها، فيشكُّون أيضًا في الجنة وما خبرت به الأنبياء عليهم السلام من وصف الجنان ونعيم أهلها وحالاتهم، وما يقصر الوصف عنها، فإذا ذهب عليهم معرفتها وتغطى عليهم علمها، أنكروها بقلوبهم، وإن كانوا لا يظهرونها بألسنتهم مخافة السيف والصَّلب كما قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

فهذا هو حقيقة الكفر والضلال والجهالة وعمى البصر؛ لأن هؤلاء لا يؤمنون بظواهر الآيات والأخبار، ولا يتفحصون عن حقائق أسرار كلام الله وأسرار الأخبار النبوية حين قالوا وبينوا، فجملة ذلك حق وصدق لا مرد عليه، حسب ما اقتضى العقل حقيقة ذلك، كما لا يفهم هؤلاء الظلمة الكفرة، أعاذنا الله وإياك أيها الأخ من الكفر والنفاق والفسق والعصيان، ورزقك وإيانا الإيمان والغفران إنه رءوف رحيم بالعباد.

فصل

ثم اعلم وتيقن ولا تشكَّ في أن جهنم هي عالم الكون والفساد الذي هي دون فلك القمر، وأن الجنة هي عالم الأرواح وسعة السموات، وأن أهل جهنم هي النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات التي في العالم.

وأن أهل الجنة هي النفوس الملكية التي في عالم الأفلاك وسعة السموات في روح وريحان، البريئة من الأوجاع والآلام، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ إشارة إلى النفوس المتحدة بالأجسام؛ ذي الطول والعرض والعمق، إلى دون فلك القمر.

وذلك أن تلك النفوس لما جَنَتْ هناك الجناية التي ذكرت في قصة آدم عليه السلام، وقيل اهْبِطُوا منها جميعًا بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين، وقال: فيها تحيون، يعني في الأرض، وفيها تموتون ومنها تخرجون عند النفخ في الصور.

وإنما قيل إن جهنم هي سبع طبقات؛ لأن الأجسام التي دون فلك القمر سبعة أنواع؛ أربع منها هي الأمهات المستحيلات، التي هي الأركان الأربعة؛ وهي: النار والهواء والماء والأرض، وثلاث هي المولدات الكائنات الفاسدات التي هي: المعادن والنبات والحيوان.

ثم اعلم أن تلك النفوس لما أخرجت من الجنة — عالم الأفلاك — أهبطت إلى الأرض، عالم الكون والفساد الذي دون فلك القمر، وهي ساكنة في عمق هذه الأجساد وغريقة في بحر الهيولى القابل للكون والفساد، وغائصة في هياكل هذه المتولدات، منقطعة فيها كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾، وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

وإنما قال لها سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم؛ لأن كل ما يجري في عالم الكون والفساد فبدلائل هذه السبعة السيارة، وإنما قال عليها تسعة عشر؛ لأن دلائلها لا تظهر في عالم الكون والفساد إلا بمسيرها في هذه البروج الاثنا عشر، فجملتها تكون تسعة عشر، وهي التي بها يكون تقلُّب أحوال الدنيا، وما تقتضيه موجبات أحكامها في مواليد هذه الأجساد، وما يدل عليها مما يصيبهم من الآلام والأوجاع والأسقام والأمراض والأحزان، من الجوع والعطش والحر والبرد، والفقر والغنى والذل والعبودية، والغموم والهموم، ونوائب الحدثان وعداوة الأقران، وحسد الجيران وجور السلطان ووساوس الشيطان، ونكبات الزمان ومصائب الإخوان، وخوف الموت ووعيد ما بعد الموت المذكور في القرآن، وما شاكل هذه المصائب التي لا يحصى عددها التي هي النفوس المرهونة بها ما دامت مع هذه الأجساد.

فإذا فكر العاقل اللبيب في حال النفوس المتجسدة وما يلحقها من المحن والمصائب بتوسط هذه الأجساد وما يعرض لها من الآلام والأوجاع والمناحس، كما بيَّنا قبل، وتَفكَّر أيضًا في حالات النفوس التي هي أهل الجنة، وعالم الأفلاك الذين هم سكان السموات، إذا سمع بأنهم أحياء لا يموتون، وشبان لا يهرمون، وأغنياء لا يفتقرون، وجيران لا يتحاسدون، وإخوان على سرر متقابلين متنعمين ملتذين، خالدون فيها آمنون لا يخافون ولا يحزنون، فهم في روح وريحان ورضوان؛ رغبت نفسه إلى ما هناك وزهدت في الكون ها هنا.

فكلما نظر بعين رأسه إلى جسده في عالم الكون والفساد معذبًا من أبناء جنسه، استعاذ بالله وسأله الخلاص والنجاة مما هو فيه من مشاركة أبناء الدنيا. وكلما نظر بعين عقله إلى نفسه وأبناء جنسه في عالم الأفلاك وما هم فيه من الروح والريحان، تمنى الوصول إلى هناك وسأل ربه اللحاق بهم، كما سأل يوسف الصديق عليه السلام، وكذلك إبراهيم عليه السلام، وعند ذلك تصير الدنيا عليه سجنًا؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، ويكون عند ذلك من أصحاب الأعراف الذين هم أهل المعارف كما وصفهم الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ — يعني أهل الدنيا التي في عالم الكون والفساد — ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهؤلاء الرجال الذين على الأعراف هم الذين مدحهم الله تعالى بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾، وقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، فهؤلاء هم أولياء الله الذين هم يتمنون الموت لِمَا قد تبين لهم ما بعد الموت من الوجود المحض والبقاء الدائم والروح والريحان والنجاة من الآلام والأوجاع والأسقام التي كلها جهنم ونيران.

وأما من لا يعرف ما وصفنا له لا يعقل ما بيَّن الله تعالى في كتابه على ألسنة أنبيائه إلا هذه الدنيا التي كلها آلام جسدانية من الشهوات الجسمانية واللذات الحيوانية، فهو لا يرغب إلا فيها ولا يتمنى إلا الخلود معها، كما وصفهم الله تعالى فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، فهؤلاء هم الكفار الذين تغطى عليهم الصفات الحقيقية والأسرار الخفية، التي كلها رموز أخروية ثابتة للنفوس الناجية من نيران الهاوية، نجانا الله وإياك أيها الأخ، ورزقنا وإياك الدخول في زمر الملائكة.

(٤) فصل في كيفية وجدان اللذة والآلام معًا في وقت واحد

فنقول: اعلم أن الإنسان في دائم الأوقات لا يخلو من ألم ولذة جسمانية وروحانية من عدة وجوه؛ مثال ذلك العاشق يرى معشوقه وهو على خيانة، فتسره رؤيته له ويلتذ بها، وتغمه خيانته له وتؤلمه، كما قال:

قايست بين جماله وفعاله　　فإذا الملاحة بالقباحة لا تفي

وكمثل من يأكل طعامًا يشتهيه وله رائحة منكرة تؤذيه مثل الصحنا والماميامه لساكن السواحل، فهو يلتذ بأكله وتؤلمه رائحته؛ ومثل من يسمع لحنًا طيبًا ونغمة لذيذة كغناء أبيات من الشعر فيها هجو له، فإنه يلتذ باستماع اللحن اللطيف ويغمه هجوه في وقت واحد؛ ومثل من يسمع بموت مورث له تركته، فيغتم لخبر موته ويسره ما ورث؛ ومثل من به جرب مؤذٍ يحكه فيجد له لذة وغمًّا في وقت واحد وألمين متضادين وراحة بينهما؛ وكمن هو يعمل عملًا متعبًا أو صناعة شاقة يرجو عليها ثوابًا جزيلًا وأجرة وافرة، فهو يجد ألمًا من عمله المتعب ولذة وفرحًا لما يرجو من ثوابه.

وعلى هذا القياس حكْم سائر الآلام واللذات الجسمانية كما قال القائل:

ومِن نَكدِ الأيام أن صروفها إذا سَرَّ منها جانبٌ ساء جانبُ

أو كمن سكن عنه وجع العين وضرب ضرسه، فإنه يجد ألمًا وراحة في وقت واحد؛ وكمن له خلقٌ حسن وخلق سيئ، فإنه يجد من أحدهما راحة ومن الآخر ألمًا في وقت واحد؛ ومثل من يرى صديقًا قد غاب دهرًا وأخبر بسوء حاله، فيسره رؤيته ويغمه سوء حاله؛ أو كمثل من يضع إحدى رجليه في ماء بارد والأخرى في ماء مغلي، وإحدى يديه في ماء فاتر، فإنه يجد لذة وألمًا في حالة واحدة؛ ومثل من عمل عملًا حسنًا يرجو جزاءً عليه وعملًا سيئًا يخاف عقوبة عليه، فيكون متألمًا ملتذًّا في وقت واحد. وعلى هذا المثال إذا اعتبر أحوال الناس فلا يخلو من ألم يؤذيه وراحة من ألم قد زال عنه، فيكون الإنسان الواحد في وقت واحد ملتذًّا متألمًا معاقَبًا مثابًا.

وإنما ذكرنا هذه الإشارات وأوردنا هذه الأمثلة من أجل أن كثيرًا ممن يتكلم في علم النفس ويبحث عن ماهية جوهرها وكيفية تشخيصها يرى ويعتقد أنها أشخاص متباينة كثيرة، فأكثر ما يُقوي رأي مَن ظنَّ أن النفس أشخاص كثيرة، ما يظهر من اختلاف أحوالها وأفعالها وأخلاقها وآرائها وأعمالها، وأن بعضها ملتذة وبعضها متألمة، فحَكَمَ بهذا الاعتبار أنها أشخاص كثيرة منفصلة متباينة كتباين الأشخاص الجسمانية المركبة، ثم ناقَض رأيه بقوله بأنها جواهر بسيطة، كأنه لا يدري ما معنى البسيطة، ونحن قد أخبرنا بأنها نفس واحدة تجنست أجناسها وتنوعت أنواعها، وقد تشخصت بحسب اختصاصها بالأجناس الجسمانية وأنواعها وأشخاصها؛ لأنها في ذاتها متكثرة منفصلة متباينة؛ لأن اختلاف أفعالها بحسب استعمالها الأجساد المختلفة الأجناس والأنواع والأشخاص، كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد.

إن اختلاف أفعال نفس إنسان واحد هو من أجل اختلاف أشكال أعضائه وفنون مفاصله، وإن نفس الإنسان نفس واحدة، وقد ظن كثير من أهل العلم أن للإنسان الواحد ثلاث نفوس: شهوانية وغضبية وناطقة، ونحن قد بيَّنا بأن هذه الأسماء تقع على نفس واحدة بحسب أفعالها المختلفة؛ وذلك أنها إذا فعلت في الجسم الغذاء والنمو سميت نباتية وشهوانية، وإذا فعلت الحس والحركة سميت حيوانية غضبية، وإذا فعلت النطق والتمييز والروية والفكر سميت ناطقة، كما أن الرجل الواحد حداد نجار بنَّاء، إذا كان يحسنها كلها ويعقلها.

فصل

فنقول: لما فرغنا من ذكر الآلام واللذات الجسمانية، وبيَّنا أنها كلها هي راحة تجدها النفس عند رجوع الأمزجة إلى الاعتدال بعد خروجها من الاعتدال، وأن الآلام هي إحساس النفس بتغيير مزاج الجسد وخروجه عن الاعتدال الطبيعي أو عضو من أعضائه عند ملاقاة الأشياء المفسدة لها، كما بيَّنا في رسالة الحاس والمحسوس، وقد بيَّنا أيضًا علة كراهية الحيوان للموت، وما العلة في وصول الآلام والأوجاع إلى النفس الحيوانية دون سائر النفوس الجزئية التي في العالم بأسرها؛ نريد أن نذكر في هذا الفصل ما اللذات الروحانية التي تجدها النفس بمجردها، وما آلامها التي تنفرد بها دون الجسد التي عبرت عنها الشريعة النبوية بالثواب والعقاب فنقول:

اعلم — أرشدك الله تعالى — أن اللذات أربع أنواع: شهوانية طبيعية، وحيوانية، حسية، وإنسانية فكرية وملكية روحانية. فاللذات الشهوانية الطبيعية هي التي تجدها النفس عند تناول الغذاء من الطعام الشراب.

وأما اللذات الحيوانية أيضًا فهي نوعان؛ إحداهما ما تجدها النفس عند الالتئام وهي لذة الجماع، والأخرى ما تجدها عند الانتقام وهي شهوة تَهِيج عند الغضب، والفكرية ما تجدها النفس من اللذة عند تصورها معاني المعلومات ومعرفتها بحقائق الموجودات، والروحانية والملكية هي ما تجدها النفس من الراحة واللذة بعد مفارقتها الجسد التي هي الروح والريحان.

فاللذة الشهوانية مشتركة بين الإنسان والحيوان والنبات.

والحيوانية الحسية مشتركة بين الإنسان والحيوان دون النبات.

والفكرية مشتركة بين الإنسان والملائكة دون الحيوان.

والملكية الروحانية مختصة بالنفوس المفارقة للأجسام الناجية من بحر الهيولى.

فالنفوس النباتية لها لذَّات وليس لها ألم، كما قلنا قبل في رسالة كراهية الحيوان للموت.

والنفوس الملكية لها أيضًا لذة وليس لها ألم، كما قد تَقدَّم بيان ذلك، لكن لها الخوف والإشفاق، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾.

فالنفوس الحيوانية لها لذة وألم جميعًا، ولكن لذاتها كلها جسمانية.

فأما الأنفس الإنسانية فلها كل اللذات والآلام الجسمانية والروحانية جميعًا؛ لذلك نحتاج أن نبين ونشرحها واحدة بعد واحدة؛ لتتضح وتتصور بحقائقها، فنقول:

اعلم أن جميع اللذات التي تجدها النفس الإنسانية نوعان؛ منها ما تجدها بمجردها، ومنها ما تجدها بتوسط الجسد؛ وهي سبعة أنواع:

أحدها: المدركات بطريق النظر من محاسن الألوان والأشكال والنقوش والتصاوير والأصباغ الطبيعية منها والصناعية جميعًا.

والثاني: المدركات بطريق السمع من الأصوات والألحان والنغم والمدح والثناء وما شاكلها.

والثالث: المدركات بطريق الذوق من الطعوم الموافِقة لشهواتها.

والرابع: الملموسات المقوِّية لأخلاط جسدها.

والخامس: المشمومات الملايمة لمزاج أخلاطه.

والسادس: لذة الجماع.

والسابع: لذة الانتقام.

فهذه كلها لذات تجدها النفس بتوسط الجسد مرتين؛ إحداهما عند مباشرة الحواس لها، والأخرى عند ذكرها بعدها.

مثال ذلك إذا رأى المرء وجهًا حسنًا أو زينة من محاسن الدنيا، فإن النفس تجد عند رؤيتها لها سرورًا ولذة، ثم إذا غابت عن رؤية العين بقيت رسوم تلك المحاسن مصورة في فكر النفس، وكلما لمحت هي ذاتها ونظرت إلى جوهرها رأت تلك الرسوم المصورة في فكرها؛ فسُرَّت بها والْتذَّت وتذكرت تلك المحسوسات التي انطبعت فيها منها هذه الرسوم.

وهكذا سائر المحسوسات حكمها إذا تذكرتها النفس الْتذَّت وسرَّت بها من غير شركة الجسد.

وهكذا حكم أضدادها التي هي الآلام؛ وذلك أن الإنسان إذا رأى منظرًا وحشيًّا أو صورة قبيحة، أو سمع صوتًا هائلًا مفزعًا، فإنه يؤلمه رؤيته لها في وقته واستماعها، وبعد مغيبها إذا تذكرها وتفكر فيها. وليس التذكر والتفكر شيء سوى لمحات النفس ذاتها ونظرها إلى جوهرها ورؤيتها رسوم تلك المحسوسات مطبوعة في ذاتها، كما ينطبع نقش الفص في الشمع المختوم. فهذه الملاذ والآلام، وإن كانت لا تصل إلى النفس إلا بتوسط الجسد، فقد تجدها بعد غيبة المحسوسات عن مباشرة الحواس لها، فيدل هذا على أن النفس لها لذة تجدها بعد مفارقة الجسد أيضًا كما تجد لذة المحسوسات بعد مفارقتها وغيبتها.

(٥) فصل في اللذات الروحانية

فنقول: أما اللذات الروحانية التي تجدها النفس بمجردها، فهي نوعان؛ إحداهما ما تجدها وهي مفارقة للجسد، والثانية ما تجدها وهي مقارنة له. فالتي تجدها وهي مفارقة له نوعان؛ إحداهما ما يرد عليها من خارج، كما بيَّنا قبل هذا، والآخر من ذاتها، والتي تجدها وهي مقارنة له فهي أربعة أنواع:

فمنها: ما تجدها من اللذة والسرور والفرح عند تصورها حقائق الموجودات من المحسوسات والمأكولات جميعًا.

والثانية: ما تجدها عند اعتقادها الآراء الصحيحة ومذاهبها الحميدة.

والثالثة: ما تجدها عند عذوبة أخلاقها الكريمة وعاداتها الجميلة.

والرابعة: ما تجده من الفرح والسرور واللذة عند ذكر أعمالها الزكية وأفعالها الخيِّرة.

وهذه اللذات مشتركة بين الإنسان وبين الملائكة وأضدادها من الآلام، ومشتركة بين الإنسان والشياطين، كما سنبين بعد هذا الفصل.

وأما بيان ما يلحق النفوس من اللذة والألم في اعتقاداتها ومعارفها وجهالاتها وأخلاقها وأعمالها، فاعلم إن الإنسان إذا كانت أعماله سيئة وأفعاله قبيحة، فإن نفسه أبدًا تكون مرتابة مرعوبة مضطربة متألمة، كما ذكر الله تعالى في صفة المنافقين

فقال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ ... فإذا كانت أعمالهم صالحة وأفعالهم جميلة، فإن نفوسهم أبدًا تكون ساكنة هادئة مستريحة.

وهكذا إذا كانت أخلاق الإنسان جميلة وسجاياه سهلة ومعاملته طيبة ومخالطته عذبة، فإن نفسه تكون أبدًا في القلوب محبوبة ومن الغوائل آمنة. وإن كانت أخلاقه شرية وطباعه وحشية وهمته سبعية، يكون مَن يصحبه أبدًا في عناء وهو من نفسه في جهل وبلاء.

فهكذا حكْم الاعتقادات والآراء، وذلك أن بعضها مؤلم لنفوس معتقديها ومحير ومشكك كما قيل (شعرًا):

ألم تر أني مذ ثلاثين حجة　　أروح وأغدو دائم الحسرات

ومثل من يعتقد أن ربه قتلته اليهود، ومثل من يعتقد أن إمامه مختفٍ من خوف مخالفيه، ومثل من يعتقد أن رب العالمين خلق خلقًا وناصبهم العداوة وهو إبليس وجنوده، ومثل من يعتقد أن رب العالمين حقود حنق يغتاظ على الكفار والعصاة مِن خلْقه، ومثل من يرى ويعتقد أن أمر العالم غير منتظم وأن مدبره وصانعه قد أهمل أمر عالمه حتى يجري فيه أشياء على غير مراده ومشيئته، ومثل من يعتقد ويرى أن رب العالمين الغفور الرحيم الودود البار المحسن الحنَّان المنَّان الجواد الكريم الجميل يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكفار والعصاة ويرمون بهم في خندق من النار، وكلما احترقت جلودهم وصاروا فحمًا ورمادًا أعاد فيها الرطوبة والحياة ليذوقوا العذاب.

ومثل من يعتقد أنه يباشر في الجنة مع الأبكار ويلتذ منها ويزيل البكارة ثم تعود البكارة.

ومثل من يعتقد ويرى أنه يشرب الشراب في الجنة ويكون باريه ساقيه.

ومثل من يعتقد أنه يتمنى في الجنة الطيور المشوية الحاصلة عنده، فيتحصل بعد تمنيه في الحال، ثم يأكل منها حتى الشبع، ثم بعد ذلك تطير الطيور كما تطير في حال الحياة.

ومثل من يعتقد أن الإنسان إذا مات بطلت نفسه ووجودها.

ومثل من لا يرجو الجنة إلا بعد خراب السموات وطيها كطي السجل للكتب.

ومثل من يعتقد أن الكواكب تتناثر وتتساقط في القيامة.

ومثل من يعتقد أن أعمال الإنسان تجعل في كفتين من كفتي الميزان.

ومثل من يعتقد سؤال منكر ونكير في القبر من جسد الميت.

ومثل من يعتقد ويرى أن في الجحيم تنانين وثعابين وأفاعي يأكلون الفساق ويصيرون أحياء بعد ذلك؛ وما شاكل هذه من الاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها مع أن جميع ما نطق به الأنبياء عليهم السلام من صفة الجنة ونعيم أهلها وعذاب النار والعقاب وأحوال القيامة كلها حقٌّ وصدق لا مرية فيها، ولكن ليس الأمر كما يعتقد هؤلاء الظلمة الكفرة، بل أمر وراء ذلك لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم.

وأما من يرى ويعتقد ويعلم أن للعالم بارئًا حكيمًا قادرًا حليمًا جوادًا كريمًا غفورًا رحيمًا، وأنه قد أحكم أمر عالمه على أحسن نظام، ورتب تدبير الخليقة على أتقن حكمة، ولم يترك فيه خللًا، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يرى في خلق الرحمن من تفاوت؛ فإن نفسه أبدًا ساكنة هادئة مستريحة من الألم والآراء الفاسدة وأوجاع الاعتقادات الزائفة، ومن وحشة ظلمات الجهالات المتراكمة، وهو في راحة من نفسه، والخلق في راحة منه، ومن جهة في أمان لا يريد بأحد سوءًا، ولا يرى له عليهم فضلًا، ولا يطالبهم بحق، ولا يشكوهم من جفاء، ولا يصيبهم منه أذًى فهذه صفة إخوانك الكرام.

فهل لك يا أخي أن ترغب في صحبتهم وتتبع منهاجهم وتسير سيرتهم وتتخلق بأخلاقهم وتنظر في علومهم وسياستهم؛ لتعرف أسرارهم واعتقاداتهم، أو تحضر مجلسهم لتسمع كلامهم وأقاويلهم أو تقرأ رسائلنا هذه لعلك توفق لفهم معاني ما تضمَّنَتْه وتنتبه لنفسك من نوم الغفلة وتستيقظ من رقدة الجهالة وتنفتح لها عين البصيرة، فتحيا حياة العلماء وتعيش عيش السعداء وتصعد إلى ملكوت السماء.

فصل

ثم اعلم أن من الآراء والاعتقادات ما هو مؤلم لنفوس معتقديها ومؤذٍ لها، ومنها ما هو مفرح ومُسِرٌّ ومُلِذٌّ لها، كما بيَّنا قبل هذا، ولكن نضرب مثلًا لذلك كيما يتضح.

حكاية: ذكروا أنه كان رجل من أرباب النعم متدينًا، وكان له ابن متجاهر بالسكْر، وكان الرجل كارهًا لذلك منه.

فقال له يومًا: يا بني انتهِ عن السكر حتى أعطيك شطرًا من مالي وعقاري وأُفْرد لك دارًا وأزوِّجك بحسناء إحدى بنات أرباب النعم.

فقال ابنه: يا أبتِ ماذا يكون؟ فقال: تعيش فرحًا مسرورًا ملتذًّا ما بقيت.

فقال ابنه: إن كان الغرض هو هذا فهو حاصل لي. فقال له أبوه: كيف ذلك؟

قال: لأني إذا سكرت وجدت في نفسي من الفرح واللذة والسرور حتى أظن معه أنَّ مُلك كسرى كله لي، وأتخيل في نفسي من العظمة والجلال حتى أرى العصفور مثلًا قدر البعير.

فقال له أبوه: ولكن إذا صحوت لا ترى لذلك حقيقة. قال: أعود فأشرب ثانيًا حتى أسكر فأرى مثل ذلك.

فهكذا القياس في حكم المعتقدين ببقاء النفس بعد مفارقتها الجسد في وجدان لذاتهم؛ لأنه إن كان الغرض من الحياة في الدنيا ليس إلا لأجل اللذة والفرح والسرور والراحة بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ بعد الموت الذي ليس هو شيئًا سوى مفارقتها الجسد، كما بيَّنا قبل هذا، وقد بيَّنا أيضًا في رسالة حكمة الموت، ولا يُنقص هذا الاعتقاد من لذاتهم في الدنيا شيئًا.

أما معتقدو فنائها فإنهم لا يخلون؛ إما أن يكونوا من سعداء أبناء الدنيا، أو من أبناء أشقيائها، فلو كانوا من أبناء سعدائها فإن هذا الرأي والاعتقاد يؤلم نفوسهم ويؤذيها؛ وذلك أنهم كلما فكروا في الموت والفناء تَنَغَّص عليهم عيشهم، وأُدخل الحزن على نفوسهم، ونقص من لذاتهم في دنياهم؛ لأنهم قد أيقنوا بذهابها وفنائها، ولا يرجون غيرها ولا يؤملون سواها. وإن كان هؤلاء المعتقدين بفناء النفس من أبناء أشقياء الدنيا، فهم يعيشون في غم وحزن طول أعمارهم في الدنيا ويموتون آخره بحسرة ومصيبة.

ثم اعلم أن الاعتقادات الرديئة والآراء الفاسدة المؤلمة لنفوس معتقديها المؤذية لها كثيرة لا يمكن إحصاؤها وبيان صفاتها، ولكن نذكر المحمودة منها ونَصِفُها لتُعْرَفَ ويُتمسك بها وتُجتنب سواها، وقد بيَّنا في رسالة النواميس طرفًا من ذلك، وفي رسالة اعتقاد إخوان الصفا، ورسالة ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين الذين وعدهم الله الجنة، وشرَحْنا طريقتهم وأخلاقهم وآراءهم وعلومهم وأعمالهم في إحدى وخمسين رسالة، وبينا فيها صفاتهم وكيفية أحوالهم، لكن نذكر جملة ها هنا منها بقول وجيز مختصر.

وهو أن الإنسان العاقل يرى ويعتقد أن للعالم صانعًا بارئًا حكيمًا قديمًا حيًّا عالمًا، وأنه قد نظم أمرَ عالَمِه نظامًا محكمًا، ورتب الموجودات ترتيبًا متقنًا، ولا يخفى عليه من أمر عالمه صغيرة ولا كبيرة إلا وهو يعلمها ويدبرها تدبيرًا واحدًا بحسب

ما يليق بواحد واحد من الموجودات والكائنات، وبحسب الاستعدادات الحاصلة من الكائنات، وأن يجري حكم عالمه بجميع خلائقه من الأفلاك والبروج والكواكب والأركان والمولودات كمجرى حكم إنسان واحد وحيوان واحد، وأن سريان قُوى ملائكته في أطباق سمواته وفضاء أفلاكه كسريان قُوى نفس إنسان واحد في جميع بدنه ومفاصل جسده، وهذا قول مجمل قد شرحنا تفسيره وبيَّنَّاه في جميع رسائلنا أجمع، ولكن لا بُدَّ من أن يصادره المتعلمون في أول الأمر والمبتدئون بالنظر في هذا الشأن العظيم كما يصادرون سائر العلوم والصنائع، ثم في آخر الأمر يعرفون حقيقته وتتبيَّن لهم صحته.

فصل

ثم اعلم أن غرض إقرار المبتدئين واعتقاد المتعلمين في مبدأ كل صناعة على تحقيق أصولها قبل معرفتهم بها تقليدًا هو من أجْل أنه لا يبين ذلك إلا بعد التبحر فيها والبحث والكشف عنها.

واعلم أنه كما أن المتوسطين في كل علم وصناعة لا يرضون بالتقليد، إذ قد يمكنهم البحث والكشف عنه بالبراهين، فهكذا أيضًا ينبغي للمقرِّين بكتب الأنبياء عليهم السلام وما فيها من الأسرار والإشارات المكنونة والعلوم الشريفة، والمتوسطون في العلوم لا يرضون بالتقليد مثل الصبيان والنساء وضعفاء العقول، بل يجب عليهم البحث عنه والكشف عن الأسرار والإشارات.

ذلك بأن ليس غرض الأنبياء عليهم السلام فيما وصفوا من مجلس الجنان ولذات أهلها هو الإقرار باللسان حسب، بلا اعتقاد ولا الاعتقاد حسب، بلا تحقيق يظهر لهم، بل الغرض هو التصور لها بحقائقها كيما تقع الرغبة فيها والطلب لها؛ لأن الإنسان لا يطلب ما لا يرغب فيه ولا يرغب فيما لا يتحققه ولا يتحقق ما لا يتصوره ولا يتصور الشيء الخفي الغائب إلا بالوصف البليغ بالمحاسن، فمن أجل هذا أكثر في القرآن من وصف محاسن الجنان وسرور أهلها ولذات نعيمها؛ فتارة وصفها أوصافًا جسمانية على قدر طاقة القوم مثل قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ ... الآية، ذَكَرَ هذا وبيَّن على قدر قبول أفهامهم لا بمعنى أن هذه الأشياء ستوجد في الجنة على حالات جسمانية، بل ستوجد

أشياء روحانية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقال تعالى أيضًا: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ❁ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ❁ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ❁ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ وما شاكلها من أوصاف الأمور الجسمانية.

وتارة وصفها بأوصاف روحانية على قدر فهم المتوسطين مثل قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ❁ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وما شاكلها من الأوصاف الروحانية التي لا تليق بالأجسام الطبيعية. وتارة وصفها بأوصاف هي بين الروحانية والجسمانية مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

أمَا ترى يا أخي أنه قال مَثل الجنة على سبيل التشبيه والتمثيل ليقرب من الفهم تصورها؛ لأنه يقصر الوصف عنها بحقائقها، وإنما خاطب كل طائفة من الناس بحسب عقولهم ومراتبهم في المعارف والفهوم؛ لأن دعوة الأنبياء عليهم السلام عموم للخاص والعام جميعًا، ومن بينهما من طبقات الناس، وقد صرح المسيح عليه السلام في وصف الجنان ونعيم أهلها بأوصاف غير جسمانية، فقال للحواريين في وصية لهم: إذا فعلتم ما فعلت وما قلت لكم تكونون معي غدًا في ملكوت السماء عند أبي وأبيكم، وترون ملائكته حول عرشه يسبحون بحمده ويقدسونه، وأنتم هناك ملتذُّون بجميع اللذات بلا أكل ولا شرب. وإنما صرح المسيح عليه السلام ولم يرمز؛ لأن خطابه كان مع قوم قد هذبتهم التوراة وكُتُب الأنبياء — عليهم السلام — وكُتب الحكماء أيضًا وكانوا غير محتاجين إلى الإشارات والتنبيهات، بل كانوا متهيئين لصورها مستعدين لقبولها.

فأما سيد الأنبياء وخاتم المرسلين — صلى الله عليه وآله — اتفق مبعثه في قوم أميين من أهل البوادي، غير مرتاضين بالعلوم ولا مقرِّين بالبعث والنشور، ولا عارفين بنعيم ملكوت الدنيا، فضلًا عن معرفة نعيم أهل السموات الذين هم ملكوت الأفلاك والآخرة وأهل الجنان، فجعل أكثر صفة الجنان في كتابه جسمانية ليقرِّبها من فهم القوم ويسهِّل تصورها عليهم وترغب نفوسهم بها. ونحن قد جعلنا بحثنا عن أسرار الكتب الإلهية، وبيَّنا في أكثر رسائلنا معنى أسرار التنزيلات النبوية، وكشفنا عن أكثر الرموزات والإشارات وعن الموضوعات الناموسية.

وذلك لأن خطابنا لا يكون إلا مع أقوامٍ علماء فضلاء مارسوا إخوان الصفاء ورسخوا في العلم وارتاضوا بالرياضيات الحكمية المقرونة بأسرار الكتب الإلهية وإشارات الأنبياء عليهم السلام.

فإن كنت أيها الأخ واحدًا منهم فهلم إلى صحبة إخوان لك فضلاء وأصدقاء كرماء علومهم حكمية وآدابهم نبوية وسيرتهم ملكية ولذاتهم روحانية وهممهم إلهية، واترك صحبة إخوان الشياطين الذين لا يريدونك إلا لجرِّ منفعة الأجساد أو لدفع المضرة عنها. وكن يا أخي من المؤمنين الذين بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، حتى تكون من الذين أشار إليهم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وتكون من الذين مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

وإذ قد فرغنا من ذكر اللذات والآلام الجسمانية التي تجدها النفس بمفارقتها الجسد وما تجدها بمجردها وهي مع الجسد، فنريد أن نذكر ما تجده بعد المفارقة من اللذة والآلام التي هي جزاؤها وثوابها على ما عملت من شر وعرفان وإنكار، المعبَّر عنه في الشريعة النبوية بالثواب والجزاء والعذاب الأليم.

(٦) فصل في كيفية وصول الآلام إلى النفوس الشريرة بعد مفارقة أجسادها، وكيف تكون من جنود إبليس وحزب الشياطين

فنقول: اعلم أن الإنسان العاقل إذا سمع أوامر الناموس ونواهيه ووعيده وزواجره، ثم لم يأتمر بحدوده ولم ينقَدْ لأحكامه، أو سمع العلوم الحكمية فلم يقم بواجبها، ثم أهمل أمر نفسه وأعرض عن النظر في مصالحها بعد مفارقتها الجسد، بل جعل أكثر عنايته في إصلاح شأن هذا الجسد واهتمامه في تربيته، واشتغل الليل والنهار بما يُصلح الجسد من المأكولات والمشروبات واللبس والمركب والمسكن، وجمع المال والأثاث وزينة الدنيا، واستغرق في الشهوات الجسمانية وغاص في اللذات الجرمانية، لا يفكر في غيرها ولا يهمه سواها، وتمنى الخلود في الدنيا مع إنه يتيقن بأنه لا يُترك ها هنا، وأفنى عمره كله ساهيًا ولاهيًا إلى الممات.

ثم جاءته سكرة الموت بالحق التي هي مفارَقة النفس الجسد على كرْهٍ منها وإجبار منها، وتلك شربة لا بُدَّ من شربها لكل من دخل في عالم الأجساد والأجسام الطبيعية الهيولانية، وبقيت عند ذلك نفسه بلا جسد وقد سلبت آلات الحواس التي كانت تنال بها

اللذات الجسمانية، وقد اعتادتها بطول الدربة فيها، فانطبع في همتها النزول إليها، ولا وصول لها إلا بهذا الجسد وأعضائه، وقد منعت ذلك لكون مثلها عند ذلك كمثل من سلت عيناه وصمَّت أذناه، وشلت يداه وقطعت رجلاه وخرس لسانه وشدت منخراه، وعمي قلبه وفارقته أحبابه وجفاه أصدقاؤه وتركه إخوانه، وهجره جيرانه وظفر به أعداؤه وشمت به حساده، وما بقي معه إلا الروح في الجسد معذبًا، فلا هو حي يلذ بالعيش ولا ميت يستريح من العذاب كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾، فتبقى تلك النفوس عند ذلك تائهة هائمة بهمومها في طلب ما قد فاتها بما اعتادته من لذَّات هذه المحسوسات، وقد منعت الوصول إليها والعود، فعند ذلك تتمنى وتقول بهمتها: يا ليتنا نُرَدُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل، يا ليتني كنت ترابا، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا؛ ثم يقول الله سبحانه: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه؛ فعند ذلك تبقى بحسرتها وندامتها متألمة، بذاتها معذبة من سوء عاداتها، عمياء في جهالاتها دون فلك القمر، سائحة في قعر الأجسام المدلهمة، غريقة في بحر الهيولى، هائمة هاوية في عالم الكون والفساد مع أبناء جنسها من الأمم الخالية إخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين، كما ذكر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ ... إلى آخر الآية، وهم متعلقون بأبناء جنسها من النفوس المتجسدة بالوسوسة لها إلى ما في طباعها من شهوات هذه اللذات المحسوسات ضالين مضلين في جهنم خالدين، كما ذكر الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾، وذلك هو العقاب والعذاب الأليم والجزاء للنفوس الشريرة الجاهلة والغافلة عن الحقائق والعلوم الشرعية.

(٧) فصل ماهية الشياطين وجنود إبليس أجمعين

اعلم أن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل، كما بيَّنا في رسالة صفات المؤمنين المحققين ورسالة البعث، كذلك النفس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل.

فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل، كما قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة آنست بالأجساد، وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الإبصار، ومَثل وسوسة هذه النفوس المفارقة لهذه النفوس كمثل من قويت شهوته للطعام والشراب وضعفت حرارته

الهاضمة عن نضجها، فهو يشتهي ولا يستمرئ، فعند ذلك تكون همته أن يرى الطعام والآكلين لينظر إليهم، فيستريح عنها لضعف الآلة وبطلان فعل القوة، وكمثل من ضعفت آلة جماعه لا يقوم عليه، فهمَّته أن يرى الفاعلين لعله يقوي طبيعته وينهض آلته.

وهذه حكم النفوس المفارقة ليست لها آلة تنال بها اللذات المحسوسة، فهي تحب وتوسوس إلى أبناء جنسها ممن لها تلك الآلة على الفعل.

فهكذا وسوسة النفوس الشريرة المبغضة إذا فارقت أجسادها تعلقت بأبناء جنسها من النفوس المتجسدة المبغضة الشريرة بالوسوسة لها إلى القتال والخصومات والعداوات، وإلى هذه النفوس أشار بقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

فهكذا حكم أبناء الدنيا، يا أخي، الجاهلين بأمر المعاد، المشتغلين بالأجساد، الغافلين عما بعد الموت، المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ كما بيَّنا في رسالة البعث والقيامة، فاطلب من هناك.

وإذ قد فرغنا من ذكر الآلام الروحانية التي تصل إلى النفوس الشريرة بعد مفارقتها أجسادها التي كانت جنة لها، فنريد أن نذكر اللذات الروحانية التي تجدها النفوس الخيرة الفاضلة بعد مفارقتها أجسادها التي كانت كالسجن لها، كما بيَّنا في رسالة كراهية الحياة والموت.

ثم اعلم يا أخي أن اللذة والراحة والسرور والفرح والنعيم التي تجدها النفوس الخيرة الفاضلة الملكية بعد مفارقتها والجسد المعبر عنها في الشريعة بالثواب والجزاء؛ يقصر الوصف بحقائقها، ولا يبلغ البشر كنه معرفتها؛ لأنها روحانية أبدية سرمدية، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال عليه السلام: فيها من اللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الروح والريحان.

ولكن نذكر منها طرفًا ونشير إليها إشارة وهمية، حسب ما جرت عادة الإخوان الأصدقاء في ذلك، ونضرب لذلك مثلا شبه الرموز والإشارة والتنبيه؛ كيما يقرب من فهم المتفكرين، ويتصور في أفكار المريدين، فنقول:

اعلم أنه كان في الأزمان الماضية فتًى من أولاد الملوك شابًّا ظريفًا حسن الوجه، كامل البنية، تام الصورة، جميل الأخلاق، كريم الأفعال، عادل السيرة؛ عشق جارية حسناء من أقاربه من بنات الملوك، فتزوجها وزفها كما يليق بأولاد الملوك من الكرامات، وعاش معها

زمانًا طويلًا في عز سلطانه ونعيم مملكته ولذة شبابه وسرور نعمته، آمنين هادئين بلا تنغيص من عوارض الحدثان.

ثم فرق الدهر بينهما بموتها وزال الفتى عن ملكة بغلبة عدوٍ ظَهَرَ عليه واغترب عن بلاده وساح في الأرض على حالة الغرباء، وافتقر وأصابه الذل والهرم، وضعف بدنه، وذهبت قوته وكل بصره، وثقل سمعه وأصابه العري والجوع والعطش، وتمنى الموت مما هو فيه من المحنة والبلوى والجهد والشدة، فدخل خربة ونام فيها على مزبلة ورماد يستريح بلينِ وطائِها، فوجد راحة فنام فرأى في منامه كأنه شاب طري كهيئة ما كان عليه في صباه، وقد رجعت إليه قوة بدنه ونشاط نفسه وأيام شبابه، وكأنه على سرير في ملكه وعز سلطانه ونعيم أثاثه وسرور أيامه، إذ هو بتلك الجارية كهيئتها يوم عشقها وزمان تزوجها بحسنها وجمالها، فعانقها والْتزمها شهوة ونال منها شهوته كما كان يدرك بدءًا وهما على سرير الملك، يحملهما الريح حيث أرادا، فمن شدة ما وجد من اللذة والفرح اضطرب من نومه وتحرك وانتبه، فإذا هو في تلك الخربة وفي تلك المزبلة وكلاب حوله تنبح عليه.

فماذا ترى أيها الأخ؟ كم بين حال نفسه في ذلك المنام وما وجد من اللذة والسرور والفرح، وبين حالتها لما استيقظتْ من الغموم والأحزان والشدائد والبلوى والجهد؟

فهكذا القياس بين حال النفوس الخيرة وكونها مع الأجساد وبين كونها مفارقة للأجساد من اللذة والفرح والسرور، وبالإضافة إلى حالها مع الأجساد وما يلحقها من الهموم والغموم والأحزان والمصائب والشدائد، نجانا الله وإياك وجميع إخواننا من ألم نيران جهنم، عالم الكون والفساد، وأوصلك وإيانا إلى نعيم الجنان عالم الأرواح والأفلاك من ملكوت السماء وجوار الملائكة المقربين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

(تمَّت رسالة الآلام واللذات، ويتلوها رسالة في بيان علل اختلاف اللذات.)

الرسالة السابعة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات في علل اختلاف اللغات
ورسوم الخطوط والعبارات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنه لما فرغنا من ذكر اللذات والآلام الجسمانية والروحانية، وذكْر علة كراهية الحيوان للموت، نريد أن نذكر في هذه الرسالة التي في آخر الطبيعيات بيان اختلاف علل اللغات، فنقول:

إن معرفة علل اختلاف اللغات والكلام والأصوات ورسوم الخطوط والكتابات، وكيفية مبادئ المذاهب، واعتقادات الآراء والديانات، وأصل تكوينها ومبدئها وظهورها ومنشئها، وتزيينها ونموها وكثرتها واختلاف أهلها فيها وآرائهم ومنهاجهم، ودثور قوم وكون آخرين منهم قرنًا بعد قرن وأمة بعد أمة؛ لا تكون إلا بعد البيان والإيضاح عن الأصل الذي تفرعت عنه هذه الأمور التي ذكرناها، والإخبار عن كيفية تركيبها وتحليلها وحركتها في مبدئها وكونها بذاتها، وعن اختلاف مجاريها وينبوعاتها في سائر الأجسام، وشدة بيانها عن الحواس وسريانها في الأجناس وإنارتها للحواس وصفة حدوثها بسرعة وانتقال وخروجها بحركة وانفصال وذهابها بعدم واضمحلال وكيفية وجودها في عالم

الإنسان، وكيف كانت فيه في مبدئها، وكيفيتها فيما دونه من الحيوان وغير الحيوان، تؤديها إلى حاسَّة السمع من جملتها ومن يحملها، وكيفية حملها، وما السبب الموصل لها إلى الحاسَّة المتحققة بها ولم يدركها من الحواس غير هذه الحاسَّة، وما العلة في ذلك وكيف يعرف الإنسان بخاصة هذه الحاسَّة مفهومها وغير مفهومها بالبرهان.

وهذه أمور غامضة نحتاج فيها إلى بحث دقيق والإخبار بها من غايات الأسرار، ونريد أن نذكر منها في هذه الرسالة طرفًا بحسب التوفيق ليكون مدخلًا إلى علم ذلك ومقدمة بين يديه؛ ليسهل الباقي ويكون بأوجز قول يؤدي إلى الفهم، وأوضح دليل يسهل به العلم، من غير تطويل يشتبه على قارئه، ولا إسهاب يضجر راويَه، ونبدأ من ذلك في ذكر الأصل والعلم في مبادئه، فنقول:

اعلم أن هيولى الحكمة تتَّحد من إرادة الهيئة؛ لأنها هيولى قابلة لجميع الأشياء، وهي مادة سماوية وقوة فلكية وأسباب علوية وقوة عقلية متصلة بجواهر روحانية وأشخاص نفسانية، ترتبط بأفلاك دائرة وتتصل بكواكب سائرة، وتشرق على نجوم طالعة وتضيء بأنوار ساطعة، وترمي إلى ما دونها أنوارها وتودع المصطفين في الأشخاص الإنسانية أسرارها، وتجعل فيهم ودائع الخيرات وتجعلهم مفاتيح البركات، وذلك بما يتخالف إليها ويتعاقب عليها من اتصال وافتراق واختلاف واتفاق، من غير خلل في نظام الابتداء ولا تنقص عن تمام البلوغ والانتهاء، وأن تلك المادة الفاعلة لجميع المكونات لا تدرك إلا بلطائف الحواس، ولا يبلغ تناولها إلا بالالتماس، وكيف لا يكون ذلك كذلك، وهو السبب الذي لا تنقضي عجائب مادته ولا تفني مواد كميته؟! فنقول:

اعلم يا أخي أن المعرفة لها والعلم بها درجة صعبة الارتقاء ومسافة بعيدة الانتهاء؛ وهي درجة العارفين ومقام المستبصرين، الناظرين إلى آثارها العارفين بأخبارها، من طريق العناية عن الحواس الحيوانية والطريق الجرمانية؛ إذ كانت آثارها روحانية ومواردها نفسانية، وعنها صدرت القوة المتصلة بالحكماء وهي روح القدس النازلة على الأنبياء، عليهم السلام، بالوحي من السماء، وعليها معول العلماء، وربما وردت أشياء كثيرة الاختلاف بعيدة الائتلاف، متباينة القوانين مختلفة الموازين.

وذلك أن ما كان منها في هذا المكان الأرضي والمركز السفلي تضعف الحواس عن إدراك معرفتها، وتعجز المشاعر البشرية التي هي من أسباب الهيولى عن بلوغ إدراكها، فإذا كانت الأشياء على هذا المثال منشؤها، وبهذا الترتيب مبدؤها، وكانت القوة التي هي مادة المعرفة بالحس في العالم الإنسي، وسبب القبول في الجسم المجبول يعجزان عن

البلوغ ويضعفان عن الوصول، وكانت مدة الزمانية التي هي سبب الحياة الإنسانية تقصر عن الطلب وتفنى قبل بلوغ الأرب، وتضيق عن الإحاطة بمعرفة ذلك السبب.

وإذا كان الأمر على ما وصفنا، كان أول ما قصده العاقل، وتوخاه واعتمد عليه الفاضل، وتحراه معرفة ما طاوعه عليه حسه وساعده على قبوله جوهر نفسه، وتلقاه أيام مدته وأعمل فيه فكرته زادت فيه بصيرته؛ فمن لا حس فيه لا معرفة له، ومن لا معرفة له لا جوهر له، ومن لا جوهر له لا بلوغ له، ومن لا بلوغ له لا مقر له، ومن لا مقر له لا وجود له، ومن لا وجود له فهو العدم.

(٢) فصل

ثم اعلم أن الغرض من اتحاد المركبات كلها هو معرفة السبب الموجب لذاتها، المنشئ لمباديها، المؤلف لكيفياتها، وكيف كان منشأ الابتداء، وإلى أين تئول العاقبة في الانتهاء، وكيف كان التئام التأليف واتفاق اللطيف بالكثيف وازدواج التركيب، وكيف يكون افتراق المجتمع وانفراد المزدوج وانحلال المنعقد، واتحاد منفردها وعدم وجودها، ونفاد أجزائها بعد صحة وجودها، وسلامة معهودها ووثاقة معقودها، فإذا أنت علمته وتصورته وتبينته وتأملته، بان لك إذا ساعدك عليه حسك، وأوصلك إلى معرفة قبول جوهرة نفسك، وتأملته تأمل التحقيق، وبان لك كيفية التأليف والتركيب، واقتران اللطيف بالكثيف الذين بهما وبصحة معرفتهما، وجود مادتهما وإحداهما مادة أرضية وقوة جسمية، والأخرى صورة روحانية وشهوة ملكية، فيا لها من قصة عجيبة ظريفة من اجتماع ما علا مع ما دنا، وارتباط ما لطف بما كثف! جارت في ذلك عقول الحكماء، وتاهت فيه أذهان العقلاء، وانسدت الطرقات، وانطمست العلامات، وتعذرت الدلالات؛ إذ كان من المنكر في هذا العالم على من له حكمة ونظر، أن يقرن العالم بالجاهل، وأن يجمع بين الجوهر والحجر في مقر واحد، اللهم إلا يكون أراد تعذيب العالم بالجاهل؛ جزاءً له بذنب عمله وجرم قدمه، أو مقارنة الجوهر بالحجر وكونهما في مكان واحد ليكون الحجر سترًا على الجوهر وواقيًا له وغطاء عليه وحجابًا بين يديه، لا أن يكون العالم والجاهل عنده في مقام واحد.

وكذلك الحجر والجوهر إذا كانا في مقام من جهة الصورة الجسمانية والهيولى الجرمانية منعكسين في فيء الهيولى، فإنهما لا يعرفان ما اتحد بهما بفيء الظل والجوهر من المواد المضيئة والرتب العلوية، أعني العالم، والحجر عدم ذلك فليس يقال بأنه عالم.

ولما كان ذلك كذلك زالت الشبهة والإنكار لوجود معرفة ذلك السبب الموجب الاجتماع، ووجب للطالب إذا طلب معرفة ذلك السبب، ومن بعد وجود اجتماعها حصول افتراقهما ووجود أحدهما بجملة وعدم الآخر وتفرقته، وإذا عرفت ذلك بانَ لك الفرق بين الجسم والعرض، وأدركت المراد والغرض، وسأبين من ذلك طرفًا يعينك على ذلك، ويبلغك إلى معرفة ما وصفت لك؛ إذ قد فرغنا من ذلك رجعنا إلى الإبانة عن تركيب الأصوات، واختلاف اللغات، ومبادئ الخطوط والكتابات والألفاظ والعبارات، واستخراج الحروف والمؤلفات، ومن أين تخرجت، وعمن أحدثت، وفي أي مكان وجدت، والله ولي التوفيق.

(٣) فصل

ثم اعلم أنه لما سَرَت القوة النفسانية في الجسم، الذي هو العالم بأسره، بعد كونها لا سريان لها، ساكنة في حظيرة القدس في روضة الأنس، حيث سريان القوة العلوية فيها، وإشراقها عليها وكونها مرتبة بحيث رتبها باريها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾، وهي الكون في وقت الابتداء، فلما امتلأت من الفضائل والخيرات وما بلغ إليها من الإفاضة، وكانت ذات فكر وتخيُّل، فتفكرت ثم تخيلت ثم نظرت، فأرادت أن تكون ذا منة وتفضُّل، وأن تكون رياسة ونفاسة، وأن تكون مفيدة، فبدا لها في ذلك التخيل الذي تخيلته، والمثال الذي مثلته، وانبث السريان فيه والارتباط به من جسم العالم، ومكنها الله تعالى من ذلك، وجعله جسدًا لها وأراها خلاف ما ظنته، فلما دارت أفلاكه، وسارت أملاكه، وزهرت كواكبه، وبدت عجائبه؛ أقبلت تمثل فيه ما كان ممثلًا فيها، وتخرجه من القوة إلى الفعل، ومن المعقول إلى المحسوس، الشيء بعد الشيء، ثم إن جميع الموجودات وسائر المصنوعات لما بدت ووجدت في العالم، وقع الاختلاف فيها، والسؤال عنها من جهة ثلاثة أنواع يحصرها جنس واحد؛ فأول ذلك الترتيب الأول المرتب كان في النفس أولًا بالقوة والأمور العقلية المعقولة، وهي صورة أعياز بسائط المركبات والموجودات بالترتيب، والثاني هي الأمور المحسوسة ثم البرهان يقتضي علتها ويبين معانيها ويعرف الناظر فيها والسائل عنها معرفة كيفيتها معقولة في غاية التجرد النفساني وكونها بعدها محسوسة في العالم الجسماني.

فأما تفصيل ذلك فنقول: أما الصورة العقلية فهي آثار العقل الكلي في النفس الكلي لقبولها منه وكونها بالقرب منه، وهي أنوار مضيئة تخرج عن حد الوصف بالعبارة

الجسمانية من حيث التركيب إذ كانت في غاية البساطة والتجريد إلى الأمور المحسوسة، فهي صورة في الهيولى تدركها الحواس بالمباشرة لها، وتنفعل منها بخاصة القوة فيها.

وأما الأمور المبرهنة فهي أشياء لا تدرك إلا بمواد العلم وصحة العقل، وهي أمور يكون مبدؤها من أمور إلهية وأشخاص ملكية، تضطر العقول إلى الإقرار بها والإذعان لصحتها والتمسك بمعرفتها، كما بين في كتب الهندسة، وصحة الدليل على ما قد قال أهلها أن أشكال الأشياء لا يحاط بأطرافها، ولا تدرك أقدارها، ولا ترى أقطارها، ولا يمكن رؤيتها إلا مدورة بأي شكل شكلت، وأي مثال مثلت، كما قال إقليدس في كتابه إن مقدار ظل أي نهاية، جسمًا كان أو سطحًا أو خطًّا، فإنه يمكن أن يوجد منه دائمًا ولا يفنى أبدًا، فهذه حكمة لا تدركها الحواس ولا تتصورها الأوهام البتة من غير تعريف.

وقد تكلم إقليدس أيضًا في مقدمات كتابه عن البرهان وقال: إن البرهان مقدمات الحجة على تحقيق الخبر.

فأما التمام فهو العلم بالمعلوم بجميع ما ذكرنا، قال إقليدس: وإنما النقطة هي التي لا جزء لها، والخط هو طول بلا عرض، وطرفا الخط نقطتان، والخط المستقيم هو الموضوع في مقابلة كل واحدة من نقطتي طرفيه على سمت واحد، فهذا يدل على أن النقطة وهمية لا تتحقق إلا بالبرهان، ولا تعرف إلا بالخبرة، فقد تبين إذَنْ أن الأمور المبرهنة لا تدركها الحواس، ولا تتصورها الأوهام، ولكن البرهان الضروري والحجة القاطعة يضطران العقل إلى الإقرار بهما؛ لأن البرهان ميزان العقل، كما أن الكيل والوزن والذرع ميزان الحواس، فاعرف ما ذكرنا، وتحقق ما وصفنا، وأَدِمْ فيه فكرك، وأعمِل رويتك؛ فإنك بذلك تنال غرضك فتبلغ مرادك وطلبتك.

(٤) فصل في معرفة الأصوات الفلكية

فنقول: اعلم أن الأصوات هي الأعراض الحادثة من الجواهر؛ والجواهر جنسان؛ فما علا ولطف قيل جواهر علوية، وما دنا وكثف قيل جواهر سلفية وأصوات هي أعراض لا يكون حدوثها إلا عن الجواهر، وحدوثها لا يكون إلا من محرك يحركها، تارة يطن الصوت ويتصل بمسمع الحاضرين، وتارة يسكنها فيسكن الصوت.

ولما كان ذلك كذلك، وضح البرهان على أن أصل الحركة هو النفس، وأن الصوت منفعل من حركتها وسريان قواها في الأجسام.

ولما كانت الأفلاك دائرات والكواكب والنجوم متحركات، وجب أن يكون لها أصوات ونغمات.

ولما كانت مستوية في نظامها محفوظة عليها صورة تمامها وكمالها، وجب أن تكون حركاتها منفصلة وأصواتها متصلة، وأقسامها معتدلة، ونغماتها لذيذة، وألحانها بديعة، ومقالتها تسبيحًا وتقديسًا وتكبيرًا وتهليلًا، تفرح بها نفوس المستمعين لها والحافين بها من الملائكة، والنفوس التي تقدم عليها وتصعد إليها، وتلك الحركات والأصوات هي مكيال الدهور والأزمان، التي بها يحكم على عالمها بالبقاء من حيث هي كما أن الأصوات اللذيذة والألحان المطربة والنغمات الحسنة في عالم الأبدان تفرح بها نفوس السامعين لها، وتحن إلى استماع ما كان لذيذًا منها، وتسر بقربها وتسلى عنها الغموم وينجلي عنها الهموم، ويكون منها سكونات فاصلة بين تلك النغمات والحركات، فتصير عند ذلك مكيالًا للزمان وذرعًا له، ومحاكية لحركات الأشخاص الفلكية والأصوات الملكية ومناسبة لها، وتلك هي الأصل في جميعها وهذه فروعها وقد استمعتها النفوس، وهي في عالم الكون والفساد، فتذكرت بها عالم الأفلاك ولذات النفوس التي هناك من فسحة الجنان وروضة الريحان، وعلمت أنها في أحسن الأحوال وأطيب اللذات وأتم الأشكال وأدوم السرور؛ لأن تلك النغمات والأصوات هي أضعاف هذه الألحان، وهي أطيب؛ لأن تلك أحسن ترتيبًا وأصح تأليفًا، وأجود هندامًا وأقوم نظامًا، وأصفى جوهرًا، ومناسبات حركاتها أصح تأليفًا.

فإذا تخيلت النفوس الجزئية التي في عالم الكون والفساد ما في عالم الأفلاك وتيقنت حقيقة ما وصفنا، تشوقت عند ذلك إلى الصعود إلى هناك واللحاق بأبناء جنسها والوصول إلى حظيرة الفلك وروضة الأنس.

ولما بان لنا أن الفلك طبيعة خامسة، وأنها ليست بمخالفة لهذه الأجسام التي دون فلك القمر في كل الصفات؛ وذلك أن منها ما هو مضيء كالنار وهي الكواكب، ومنها صقيل الوجه كوجه المرآة وهو جرم القمر، ومنها ما يقبل النور والظلمة مثل الهواء وهو فلك القمر وفلك عطارد، وهذه كلها أوصاف الأجسام الطبيعية تشاركها الأجسام الفلكية، فقد بان بأن الفلك، وإن كان طبيعة خامسة، فليس بمخالف للأجسام الطبيعية في كل الصفات، بل في بعض دون بعض؛ وذلك أنه ليس بحارٍّ ولا بارد ولا رطب ولا يابس، بل هو صلب أشد صلابة من الياقوت وأشف من البلور وأصقل من المرآة، وأنه يماس بعضه بعضًا ويصطك ويحتك، ويطن كما يطن النحاس، ويكون لنغماته وأصواته مناسبات مؤتلفة وألحان موزونة، كما بيَّنا في رسالة الموسيقى بأكثر من هذا البيان، وأقمنا عليه البرهان من صناعة العود وضرب الأوتار وما يستعمله أهل هذه الصناعة من النسبة، وهي أصح نسبة تكون وأفضلها؛ لأنها نسبة روحانية.

فصل

ثم اعلم أنه لو لم يكن لحركات أشخاص الأفلاك أصوات ونغمات، ولا للملائكة كلام ولا تسبيح ولا تقديس، فليسوا هم إذَنْ أحياءً، فهم أموات؛ لأن الصمت بالموتى أولى، ولربما احتكَّ بعض الأحجار ببعض، فيَحدث من بينهما قرع في الهواء. ولو كان الفلك ومن فيه بغير كلام ولا صوت ولا نطق، لكان ما يكون تحته مشاكلًا له، وكان من يكون ساكنًا بغير حركة.

ولما كان هذا من الأصل في البداية وجب أن يكون ما تحته مناسبًا له، لكن هو الأعلى زيادة عليه؛ إذ كان هو الفاعل وهذا المنفعل، وأيهما الأولى بالنطق والحركة والكلام والتسبيح والتكبير والتقديس والتهليل؛ أهل السموات والأفلاك أم أهل الأرض من عالم الإنسان والحيوان والجمادات؟ وأيهما أولى بالسمع والأبصار والأذهان والأفكار والخواطر والأذكار والعلم والعقل؛ أهل السموات أم أهل الأرض؟ فأهل السموات هم المسبحون المستغفرون لمن في الأرض، لا يفترون عن التسبيح ولا يسكتون عن التقديس بألحان طيبة ونغمات لذيذة، ألذ من نغمات العيدان ونقر الأوتار والطنابير ومجاوبة المزامير في الميادين الفسيحة والأنبوبات القائمة. وإن تلك النغمات والألحان تذكر تلك النفوس البسيطة التي هناك سرور عالم الأرواح ومحل الأشباح التي فوق فلك الأفلاك، التي جواهرها أشرف وألطف من جواهر عالم الأفلاك، الذي هو عالم النفوس ودار الحيوان، الذي نعيمها كله روح وريحان في درجات الجنان؛ ولذلك صارت النفوس الجزئية التي في عالم الكون والفساد إذا سمعت الأصوات الطيبة والنغمات اللذيذة، مثل قراءة الإنجيل وتلاوة القرآن وألحان الداودية وألحان القراء في المجالس، تذكرت رسوم الأفلاك ومحل السموات، وتشوقت إلى ما هناك؛ ولذلك قالت الحكماء إن الموجودات والمعلومات هي التي تحاكي أحوال الموجودات الأولى التي هي علل لها، وقولهم إن الأشخاص الفلكية علل وآلات لهذه الأشخاص التي في عالم الكون والفساد، وإن حركات تلك علة لحركات هذه، وحركات هذه تحاكي حركات تلك؛ فواجب أن تكون أصوات هذه ونغماتها تحاكي ما هو علة لها كمحاكاة الصبيان أصوات آبائهم وأمهاتهم وحركاتهم في لعبهم، فإنهم يحاكون أفعال الآباء والأمهات.

وهكذا التلامذة يحاكون أفعال الأستاذين، وأكثر العقلاء والعلماء من الناس يعلمون أن الأشخاص الفلكية وحركاتها المنتظمة وأصواتها الموزونة على النسبة الفاضلة متقدمة الوجود على الحيوانات التي تحت فلك القمر، وحركاتها علة لحركات هذه، وأن عالم

النفوس متقدم الوجود على عالم الأجسام، كما بيَّنا في رسالة المبادئ العقلية، ولما وجد في عالم الكون والفساد حركات وأجسام ذوات أصوات وحيوانات ناطقة.

دل على ذلك أن في عالم السموات أشخاصًا ناطقة ولطائف متحركة، وأن لتلك الحركات نغمات متناسبات مفرحة لنفوسها ومشوقة لها إلى فوقها، كما يوجد في طباع الصبيان اشتياق إلى أحوال الآباء والأمهات، وفي طباع المتعلمين والتلامذة اشتياق إلى أحوال الأستاذين، وفي طباع الجنود والخدم اشتياق إلى أحوال الملوك والرؤساء، وفي طباع العقلاء والفضلاء اشتياق إلى أحوال الملائكة وتشبُّه بهم، كما قيل في حد الفلسفة أنها تشبُّه بالإله بحسب طاقة الإنسان.

وقد قيل إن فيثاغورس سمع، بصفاء جوهره وذكاء قلبه، نغمات حركات الأفلاك وأصوات حركات الكواكب، واستخرج بجودة فكره أصوات نغمات الموسيقى وأوضاع ألحانها المطربة، وهو أول من تكلم في هذا العلم وخبر عن هذا السر من الحكماء، ثم تيقوماخس وبطليموس وإقليدس وغيرهم من الحكماء تصرفوا في ذلك وأتقنوا كما ينبغي.

وقد ذكرنا في هذا المعنى واستقصينا البيان بإقامة الدلالة عليه في رسالة الموسيقى، فقد بان بما ذكرنا وتحقق بما وصفنا أن السموات عامرة بأهلها مسكونة، ولسكانها أصوات ونغمات، والأصوات والنغمات والحركات التي هي أعراض تحدث من حركات الأجسام الحيوانية وغير الحيوانية، إنما تظهر وتبرز بحسب بروز تلك الأصوات في ذلك العالم.

وهكذا أيضًا تتبع هذه الحركات الجزئية تلك الحركات الكلية، وهذه حركات ناقصة وتلك حركات كاملة، وهذه حركات فانية وتلك حركات باقية صالحة، وتلك الحركات والأصوات والنغمات كلها مفهومة وهذه غير مفهومة، وتلك مستوية وهذه غير مستوية.

والعلة في ذلك صفاء هيولى تلك وكدر هيولى هذه، وهيولى هذه فانية فاسدة وتلك باقية صالحة، وتلك الحركات مكائل الدهور النفسانية وهذه مكائل الأوقات الزمانية، وهذه مركبة وتلك بسيطة، وهذه فيها اختلاف وتغيير وتلك لا اختلاف فيها ولا تغيير، والنغمات اللذيذة والأصوات الطيبة في هذا العالم قليلة الوجود معدومة على الحال الأكثر يتخصص بها الملوك والكبار ويتنافسون فيها، ويكثر غير المخصوص بها لشرفها وجلالتها في النفوس.

ولذلك صارت النفوس الجزئية، إذا سمعت نغمة طيبة وصوتًا حسنًا، تنجذب إليه وتصبو نحوه وتنصت إليه أسماعها، لقلته وكثرة أضداده من الأصوات المنكرة.

وهكذا ميلها إلى الصورة الحسنة والأشخاص المليحة لقلتها وكثرة أضدادها؛ فلذلك صارت المستحسنات مرغوبًا فيها محبوبة لكثرة التنافس فيها ولقلة وجودها.

فأما ذلك العلوي فكله روح وريحان ونغمات لذيذة وألحان طيبة وصور حسَان، وهو مسكن الحور والولدان وسرور وخير معرًّى من الشوائب المنغِّصة والأخلاق الموحشة.

فلذلك قيل إنه لا يصل إلى هناك إلا مَن حسنت أفعاله وزكت أعماله، فيكون ذلك معينًا له على الارتقاء إلى هناك، واللحاق بذلك العالم الفاضل الشريف الكامل؛ ولذلك قيل حُسن الصوت زيادة في الرزق، وقيل سماحة الصوت نصف الزمانية.

فصل

ثم اعلم أن من لدن فلك المحيط إلى منتهى فلك القمر أصواتًا مرتفعة وألحانًا مطربة ونغمات لذيذة ولغات مختلفة وحركات مؤتلفة، ناطقة كلها بالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد؛ فقد بان لك بهذا الوصف معرفة الأصوات الفلكية والحركات السماوية، وسنذكر بعد ذلك الأصواتَ الأرضية والنغمات السفلية.

(٥) فصل في معرفة أصول الأصوات الأرضية

فنقول: اعلم أن أصل الأصوات هو ما حدث من تصادم الأجرام وحركات الأجسام، والصوت قرع يحدث من الهواء إذا صدمت الأجسام بعضُها بعضًا، فتحدث بين ذَيْنك الجسمين حركة عرضية تسمى صوتًا، بأي حركة تحركت ولأي جسم صدمت ومن أي شيء كانت، وهذه الأصوات تنقسم قسمين: حيوانية وغير حيوانية، والحيوانية تنقسم أقسامًا وتتفرق أجناسًا على حسب اختلاف الحيوان في أجناسها وتباينها في أصواتها، وسنأتي على بيان ذلك في موضعه إن شاء الله. والأصوات التي هي غير حيوانية أيضًا تنقسم قسمين وتوجد في نوعين، وذلك أنها طبيعية وآلية؛ فالطبيعية كصوت الرعد والريح والبرق وكصوت الأجسام التي لا أرواح فيها كالجمادات، ومثل صوت الحديد والحجر والخشب وما أشبه ذلك. والآلية هي الأجسام الصناعية كصوت الطبل والبوق والزمر والوتر والمناقر وجميع هذه طبيعية وآلية، لا يحدث فيها صوت ولا يسمع لها حركة إلا مِن تصادم بعضها ببعض وامتزاج بعضها ببعض، فإنه لولا أن الزامر ينفخ في الناي والمغني يحرك الوتر والناقر ينقر الحجر، لم يوجد لذلك صوت ولا يسمع له حس.

وأما أصوات الرعد فقد قالت الحشوية إنه للملك يزجر السحاب ويسوقه ويفرقه يمينًا وشمالًا، وإن الملائكة عن يمينه وشماله يسبحون بتسبيحه ويسكتون بسكوته، سبحانك هذا بهتان عظيم؛ فلم يكن عند علماء هذه الطائفة الحشوية أكثر من هذا العمى ببصيرتهم وقلة عقلهم وتمام جهالتهم.

وقال غيرهم ممن يدعي معرفة علم الهيئة إنه يحدث من تصادم السحاب واصطكاك الغيوم، وهذا خطأ؛ لأن السحاب جسم منعقد من البخار يتصاعد من الأرض لطيفًا ثم يتكاثف من التئام بعضه إلى بعض، وهو جسم لا صوت له.

وقال آخرون هو الريح يخرق السحاب، والريح إذا خرق السحاب فرقه وقطعه ولم يحدث من بينهما صوت.

بقي القول في الصواب وهو أن يطلع البخار بلطافته حتى يتعلق في عنان الهواء، وهو على ضربين: رطب ويابس، فإذا اجتمعا وتكاثفا امتزجا وتعاقدا، فعُقد البخار الرطب مع البخار اليابس بقوة كثافته وشدة رطوبته ولا يكون له منفذ إلا بشدة شديدة، فيجتمع بقوته ويخترق الهواء بلطافته، فيحدث منه ذلك الصوت على قدر كثرته وقلته، وربما طلب العلو فلم يكن له منفذ، فانعكس البخار اليابس فطلب السفل فقدح نارًا أو يحدث منه صوت هائل، وهو الذي يسمى الصاعقة، كما يحدث من الزق المنفوخ إذا وقع عليه حجر ثقيل من شاهق وشقه وخرج منه الهواء الذي كان فيد دفعة واحدة، وحدث منه صوت هائل، وهو الذي يسمى صاعقة يسمعه مَن بقرب تلك البقعة، وربما يتحول ذلك البخار فيصير ريحًا يدور في جوف السحاب ويطلب الخروج منه ويسمع له دوي وقرقرة كما يسمع من أجواف الحيوان والإنسان من الريح التي تحدث في الجوف من جهة المأكول الذي يحدث فيه.

(٦) فصل في أن منتهى كل حاسة إلى القلب

ثم اعلم أنه لولا العناية الإلهية والسياسة الربانية ورحمة الله تعالى بخلقه ورأفته بعباده بأن جعل كرة النسيم عالية عن كرة السحاب، مرتفعة بعيدة من الأرض بمقدار الحاجة، وجعل من شأن السحاب أنه إذا انخرق طلب الصعود إلى فوق، ومن شأن قرع الهواء إذا حدث أن تكون حركته إلى فوق، ولولا ذلك لكانت أصوات الرعد ولمعان البرق تضر بمسامع الحيوان وأبصارها، ولأهلكتها كما يكون ذلك في بعض الأحايين.

وذلك أن السحاب إذ تزاحم ودفع بعضه بعضًا حتى ينضغط، فينتقل من قرب الأرض وتحدث منه الرعود وتنخرق السحب من أسفل، فيحدث من ذلك قرع في الهواء

وتدافُع منحط في الأرض، فيكون من ذلك صوت هائل يسمى صاعقة، وتقتل كثيرًا من الحيوان الذي يقرب من ذلك المكان، وربما أحرقت بعض الأجسام الرخوة؛ لأنها نار لطيفة.

وأما الأجسام الصلبة فإنها قل ما تفعل فيها، وقد ذكرنا طرفًا من هذا في رسالة الآثار العلوية، ولولا خروجنا عما له قصدنا، لشرحنا ذلك شرحًا تامًّا كاملًا.

ثم اعلم أنه كما لا يجوز في العقل أن يكون حيوان إلا من مماسة أسباب أو نكاح أجسام كذلك لا توجد الأصوات إلا في الأجسام ولا تصوت الأجسام إلا بحركات.

ثم إن الأصوات أعراض حادثة والجواهر أجسام حاملة لها، فإن زعم زاعم أو اعترض معترض فقال إنه قد توجد أصوات في غير أجسام ومن غير حركات الأجسام؛ وذلك أنه إذا تكلم متكلم في سفح جبل أو صاح في قعر بئر أو نهر، أجابه مجيب بمثل كلامه يسمع المتكلم جوابه من غير جسم ولا حركة جسم.

وقد يُرى أيضًا حيوان يتكون من غير نتاج ولا نكاح مثل دود الخل وسوس التمر وما يتكون من العفونات ومن النداوات وما أشبه ذلك.

فليعلم هذا المعترض وهذا القائل أنه ليس القول كما زعم، فإنه جاهل بهذه الأشياء وبهذه الأسباب الموجبة لحدوثها منها وكونها عنها، فغلط فيما رأى من موجوداتها، وكان قليل المعرفة بمعلوماتها، وأنه لما سمع الصوت من الجبل والبئر ظن بأنه أجابه بجوابه وردَّ عليه بكلامه، إما من حيوان لا يراه وشيء لا يعاينه، أو أن الجبل نطق بجوابه وقعر البئر رد كلامه، فهذا تخيُّل مَن لا عقل له ولا معرفة عنده، فالصوت الذي يسمعه إنما هو صوته والحركة التي بدت منه في الهواء، وذلك إنه صاح في سفح الجبل وقعر البئر إلى جانب الحائط، فخرج من جوف المتكلم شكل كروي ونقش عرضي يأخذه الهواء إلى أن يؤديه إلى ذلك الموضع فيصادفه ما يمنعه من النفوذ والانتشار، فيرتد راجعًا فيسمع منه ذلك الصوت، وهو الصدى، وسنأتي على شرح ذلك كما ينبغي في موضعه.

(٧) فصل في أن الجواهر تحتلف في أنواعها

واعلم أن الأصول في أصوات ذوات الأصوات أن معرفتها تكون بمعرفة الطبائع الأربع؛ التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والأركان الأربعة المعلومة وكيفية استحالة بعضها إلى بعض، وامتزاج بعضها ببعض في الأزمان والأماكن، وما يحدث منها في البقاع

والمعادن. فمَن بحث عن ذلك بفكره ونافذ بصيرته وجودة تأمله وثاقب نظره، علم أن الأركان الأربعة لها جهات أربع من الشرق والغرب والشمال والجنوب.

ولهذه الجهات أوتاد أربعة؛ وهي الطالع والغارب ووتد تحت الأرض ووتد وسط السماء، وهذه الأسباب الأربعة ممثلة على حدود أربعة ترجع إلى سبب واحد. ولمعرفة هذه الحدود أقوام إذا سألتهم عنها عرفوك وإذا قصدتهم أرشدوك، فإن الكائنات التي هي من استحالة هذه الأركان أربعة أنواع:

فمنها حوادث الجو والتغيرات الهوائية والكائنات منها؛ مثل الرياح والأمطار والرعد والبرق والثلج والهالات والشهب وذوات الأذناب واحمرار الشفق والنيران الحادثة في الأفق.

ومنها الكائنات التي في باطن الأرض؛ كالبخار المحتقن هناك والهواء المنحصر وما يحدث من الزلازل والرجفات والخسف والهدأت، وما قد أحكمته الطبيعة في باطن الأرض وأسخنته ببخارها وطبخته بنارها من مائع وجامد وكاين وفاسد، مثل معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزيبق والكبريت والنفط والملح والشب والزاج، وسائر المعدنيات الذائبة والجامدة، وهذا علم معرفة كثيرة الفائدة.

وقد ذكرنا طرفًا في رسالة المعادن، ومنها الكائنات على وجه الأرض التي تسمى النامية، وهي على ضربين: نامٍ بالقوة وهي سائر النبات، ونامٍ بالحياة وهو جميع الحيوان، وكون جميع الحيوان على ضربين: «نتاج وتكوين»؛ فالنتاج من مُمَاسَّة الأجسام الحيوانية بعضها لبعض.

وقد ذكرنا في رسالة الحيوانات المتكون منها بغير مماسة ما هو من امتزاج الطبائع بعضها ببعض، وهو النكاح الأول، وهو الأصل، فإذا امتزجت الطبائع ونكحت بعضها بعضًا نكاحًا طبيعيًّا، أخذت القوة المنفعلة عن القوة الفاعلة بمقدار هيولى ذلك المكان وما في هيئات ذلك الزمان، مما يسهل قبوله فيحدث من بينهما حيوان، والدليل على ذلك أن ما فيه طبيعة واحدة لا يحدث منه حيوان، وسائر الأجسام الصلبة لا يوجد فيها حيوان؛ لامتناع الهواء أن يتخللها، وكل مكان لا يدخله الهواء لا يوجد فيه حيوان، وإنما الهواء يجمع بين قوى الطبائع ويؤلف بينها ويحركها حركة الاختلاط والامتزاج، ويكسبها النداوة والعفونة والتحليل والتركيب، ويكوِّن الحرارة فيلقح ذلك المكان ويقبل العفونة من الهواء، فتتحد الطبيعة بالطبيعة وتختلط القوتان، فيكون البخار الحار اليابس كالذكر، والبارد الرطب كالأنثى واجتماعهما كالنكاح، فيحدث من بينهما حيوان.

وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن إذ يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ الرياح ها هنا فاعلة، والأصل في هذه الكلمة موضوعها في اللغة العربية على ما أجمع عليه النحويون ملاقح، فيصير ها هنا على القلب والتبديل، والعرب تقلب الشيء إلى الشيء وتبدل وتقدم إذا كان المعنى مفهومًا وكان المخاطَب به يفهم مِن المخاطِب، والدليل على أنها ملاقح قولهم في اللغة: لقحت الأرض والنخلة، فهي لاقحة، والجمع لواقح؛ فجعل لفظة الفاعل ها هنا لفظة المفعول على القلب، كما قال تعالى: ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾ وإنما هو مدفوق؛ لأن الرباعي الذي اسم الفاعل منه مفعل والثلاثي الذي اسم المفعول منه فعيل، وقد يكون الفعيل مرة للفاعل ومرة للمفعول، والمعنى يدل عليه كقولك: قتيل وجريح وصريع، إذا أردت المفعول، وكريم ورحيم وعليم، إذا أردت الفاعل.

وكذلك تجدها في حكم الطبيعة أن الرياح هي الملقِّحة للشجرة وغيرها، فقد تَبين إذَنْ كيف يكون ذلك من الممازجة والاختلاط، وبطل أن يكون من غير ممازجة، وقولنا نكاحًا طبيعيًّا إنما هو على المجاز، يعني به امتزاج الطبائع بعضها ببعض، فقد أقمنا الدليل على أنه لا حيوان إلا من نكاح، ولا صوت عرضي إلا من جوهر، ثم نرجع إلى الأصل في الأصوات.

فصل

ثم اعلم أن الأصوات على ضربين؛ مفهومة وغير مفهومة؛ فالمفهومة هي الأصوات الحيوانية، وغير المفهومة أصوات سائر الأجسام، مثل الحجر والمدر وسائر المعدنيات. والحيوانات أيضًا على ضربين: منطقية وغير منطقية؛ فغير المنطقية هي أصوات الحيوانات غير الناطقة، وهي نغمات تسمى أصواتًا ولا تسمى منطقًا؛ لأن النطق لا يكون إلا في صوت يخرج من مخرج يمكن تقطيعه بالحروف التي إذا خرجت عن صفة الحروف أمكن اللسان الصحيح نظمها وترتيبها ووزنها، فتخرج مفهومة باللغة المتعارفة بين أهلها، فيكون بذلك النطق الأمرُ والنهي والأخذ والإعطاء والبيع والشراء والتوكيل، وما شاكل ذلك من الأمور المخصوصة بالإنسان دون الحيوان، فهذا فرق ما بين الصوت والنطق.

فأما مخارجها من سائر الحيوان فإنها من الرئة إلى الصدر، ثم إلى الحلق، ثم إلى الفم، ثم يخرج من الفم شكل على قدر عظم الحيوان وقوة رئته وسعة شدقه، وكلما

اتسع الحلقوم وانفرج الفكَّان وعظمت الرئة، زاد صوت ذلك الحيوان على قدر قوته وضعفه.

وأما الأصوات الحادثة من الحيوان الذي لا رئة له مثل الزنابير والجنادب والصرصر والجدجد، وما أشبه ذلك من الحيوانات، فإنه يستقبل الهواء ناشرًا جناحيه فاتحًا فاه ويصدم الهواء فيَحدث منه طنين ورنين يشبه صوتًا.

وأما الحيوان الأخرس كالحيات والديدان وما يجرى هذا المجرى، فإنه لا رئة له، وما لا رئة له لا صوت له.

وأما الحيوان الأنسي فأصواته على نوعين: دالة وغير دالة؛ فأما غير الدالة فهي صوت لا هجاء له ولا يتقطع بحروف متميزة يفهم منها شيء؛ مثل البكاء والضحك والسعال والأنين وما أشبه ذلك.

وأما الدالة فهي كالكلام والأقاويل التي لها هجاء في أي لغة كانت وبأي لفظ قيلت.

وكل هذه الأصوات — مفهومها وغير مفهومها، حيوانها وغير حيوانها — إنما هي قرع يَحدث في الهواء من تصادم الأجرام وعصر حلقوم الحيوان، وذلك أن الهواء لشدة لطافته وصفاء جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها، ويسري فيها ويصل إليها ويحرك بعضها إلى بعض، فإذا صدم جسم جسمًا انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات، وحدث من حركته شكل كروي يتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج.

وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت قوة ذلك الصوت إلى أن يسكن؛ ومثال ذلك إذا رَميت في الماء الهادئ الواقف في مكان واسع حجرًا، فيُحدث في ذلك الماء دائرة من موضع وقْع الحجر، فلا تزال تتسع فوق سطح الماء وتتموج إلى سائر الجهات، وكلما اتسعت ضعفت حركتها حتى تتلاشى وتذهب.

فمن كان حاضرًا في ذلك الموضع أو بالقرب منه من الحيوان، سمع ذلك الصوت فبلغ ذلك التموج الذي جرى في الهواء إلى مسامعه ودخل صماخه وتحرك الهواء المستقر في عمق الأذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموج والحركة التي تنتهي إلى مؤخر الدماغ.

ثم يقف فلا يكون له مخرج فيؤديه إلى الدماغ، ثم يؤديه الدماغ إلى القلب، فيفهم القلب من هذه الحاسَّة ما أدته إليه من ذلك الحادث، فإن كان صوتًا مفهومًا يدل على معنًى توجهت المعرفة بذلك، وإن كان غير مفهوم فإنه لا بُدَّ أن يستدل بصفاء جوهره

على ذلك الصوت، ومن أي جوهر حدث، وعن أي حركة عرض، وهو يستدل على ذلك من ماهية الصوت وكيفية التموج والقرع والحركة الواصلة إلى حاسَّة السمع.

ومثال ذلك طنين الطاس، فإنه إذا سمعه الإنسان قال هذا طنين الطاس حدث من قرع شيء آخر أصابه، أما من جهة حيوان أو حدوث شيء وقع عليه من غير قصد ولا تعمُّد.

وكذلك صوت الحديد والذهب والفضة وغير ذلك، فإن أصواتها إذا حدثت تكون مختلفة بحسب اختلاف جواهرها وتبايُن طباعها من الصلابة والرخاوة واللين واليبوسة، ومثالها في ذلك مثال أصوات الحيوانات، فكلما كان في نَفَسَه أَمْثَلَ ورئته أقوى، كان صوته أعظم وأبعد مسافة في الهواء لشدة حركته.

وكذلك ما كان من الجواهر المعدنية أشد صلابة وأكثر يبوسة، كان أرفع طنينًا وأشد تصويتًا، فإذا اتفق أن يكون مصنوعًا لذلك والقصد منه التصويت والطنين، مثل الجلاجل والطرجهارات للحصون التي تستعمل على الأسوار والثغور، فإن أصواتها وطنينها يمكث في الهواء على قدر اتساع تلك الأواني وضيقها. وصوت النحاس خفيف صافٍ ليبسه وصلابته وقوة الحرارة فيه، ولا يمكن أن تتخذ من الرصاص آلة الطنين والتصويت كما يتخذ من النحاس. والحديد إذا خالط النحاس كان له أيضًا تصويت وطنين. والذهب له صوت يختص به يشابه طبيعته، وله طنين يسير، وهو معتدل الحرارة لين الطبيعة، قد تساوت فيه أجزاء طبائعه. والفضة دون ذلك، وهي أشف من الذهب وأحسن صوتًا منه إذا نقرت. كذلك الرصاص لا صوت له كصوت النحاس والحديد؛ وذلك لغلبة الأجزاء الأرضية عليه وكثافة جسمه، وصوته يشاكل صوت الحجر وما بينهما، وعلى هذا المثال وجد منطق الإنسان على الاعتدال لا بالجهير الخارج عن الحد، كصوت الأسد وصهيل الفرس ونهيق الحمار وما شاكل ذلك، ولا صامت كصموت السمك، ولا خفيف كخفوت أصوات كثير من الحيوانات، لكنه متوسط بين ذلك.

ومن أراد أن يكون له صوت طويل يمكث في الهواء فليتعمد ذلك ويجتهد في جمع الهواء حتى يكون إرساله بحسب ما اجتمع فيه فيدرك بذلك ما يريد، وإن تأذى وتألم، وإنما كان صوته متوسطًا لتوسط طبائعه واعتدالها، مثل ما اعتدلت طبيعة الذهب وكان أشرف الجواهر الذائبة بالنار.

وكذلك الإنسان أشرف الحيوانات المتحركة بالحياة، وللنبات أصوات؛ منها ما كان أشد صلابة وأكثر اجتماعًا ولا طبيعة لها، كبقية الأصوات إذا قرع انقرع كالساج

والأبنوس وما شاكلها، وما كان يتخلل جسمًا ضعيف الحرارة، كخشب التين والجميز وما شاكل ذلك، يكون أضعف صوتًا إذا قرع وتحرك بجسم يحدث في الهواء من قوة حركة المحرك وكون ذلك الصوت عن المصوت وما هو مجبول عليه من طبيعته، وبحسب قوته يكون اتصال ذلك الحادث في الهواء بمسامع الحيوان من الإنسان وغيره. فالإنسان إذا سمع صوت الخشب والحديد والماء والريح أمكنه أن يخبر عن صوت كل واحد منها وينسبه إلى ما حدث عنه وخرج منه، والحيوان لا يعرف ذلك ولا يمكنه أن يعبِّر عنه ويفصل كما عبر الإنسان بقوة النطق والبيان عما سمع؛ وبهذا فضِّل الإنسان على غير من الحيوان. وكذلك يجري حاله في حاسَّة السمع فإنه من جهة الهواء يتصل به ذلك ويخبر عن كل رائحة بما هي به وينسبها إلى الذي فاحت منه. وكذلك يخبر عن حاسَّة اللمس إذا لمست الأجسام، وعرفت الحاسَّة ما كان رطبًا ويابسًا وحارًّا وباردًا ولينًا وخشنًا وما شاكل ذلك.

وأما حاسَّة البصر فإنما تحتاج في معرفة محسوساتها إلى حواس أُخَر؛ لأنها ربما كذبتها محسوساتها مثل ما ترى الكبير صغيرًا لبعد ما بينها وبينه من المسافة، والصغير كبيرًا في الأرض الواسعة، والمستوي معوجًّا كالمجذاف في الماء وما شاكل ذلك.

فصل

ثم اعلم أن منتهى كل حاسَّة إلى القلب مقرها، وعنده موئلها ولكل حاسَّة محسوسة مختصة بها، مجعولة لها، لا تتعداها ولا تتعرض لسواها؛ فالبصر مختص بالنظر، والأذن مختصة بالسمع، والفم مختص بالذوق، والأنف مختص بالشم، وكل حاسَّة من هذه الحواس تؤدي محسوساتها إلى القلب ويفهم منها حساسة القلب.

ثم إن قوة حاسَّة القلب إذا أدركت من الحواس شيئًا وقبلته منها، أدته إلى العقل ليدركه.

ولولا قوة حاسَّة القلب لَبطلتْ هذه الحواس، كما أن الأكمه الذي يولد كذلك لا يمكنه أن يتصور السماء ولا موضعها من الجهات؛ لأنه لم ير جهة فتؤديها الحاسَّة الناظرة إلى حاسَّة القلب المناسبة لها؛ لأن حاسَّة البصر تؤدي آثار محسوساتها إلى قوة عاقلة مناسبة لها حافظة لما يؤدى إليها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وقد بيَّنا في رسالة الحاس والمحسوس شيئًا من هذا بغير هذا الشرح.

ثم اعلم أن القلب في الجسد مصور على صورة الإنسان؛ ولذلك صار أفضل الأعضاء التي في أجسام الحيوان؛ وذلك أن له بصيرة يبصر بها ما غاب من حاسَّة النظر من خارج، وله مسامع يدرك بها الأصوات ويؤدي إلى حاسَّة السمع ما يدركه بها، وله حاسَّة اللمس فهو يتشوق إلى محسوساتها إذا فقدها مثل ما يشتاق العاشق عناق معشوقه والتزامه.

وكذلك الأكمه لا يتصور بقلبه صور الأشياء؛ لأن حاسَّة البصر لم تؤدِّ إلى الحاسَّة المختصة بالقلب شيئًا، فتبقى تلك الحاسَّة فارغة معطلة مغلقة الباب، لا يطرقها طارق فيكون لها به معرفة. ولكل حاسَّة من هذه الحواس مدركات بالذات ومدركات بالعرض، وهي لا تخطئ في المدركات بالعرض.

مثال ذلك البصر؛ فإن المبصرات له بالذات هي: الأنوار والضياء والظلم.

فأما إدراكها الألوان فإن ذلك بتوسُّط النور والضياء، وأما سائر الأجسام وسطوحها وأشكالها وأوضاعها وأبعادها وحركاتها فهي بتوسط الألوان؛ لأن كل جسم لا لون له لا يُرَى ولا يدرَك البتة، والمحسوسات التي له بالذات لا واسطة بينها وبينه في إدراكها؛ لأنه لا يحتاج البصر في إدراك الضياء والنور إلى شيء آخر، ولا في إدراك الظلمة أيضًا، وصار بينه وبين النظر إلى الألوان واسطة واحدة؛ وهي النور، وصار بينه وبين إدراكه كيفيةَ الأجسام وأسبابها النورُ والألوان، وكلما كثرت الوسائط بينه وبين النظر كان الخطأ فيه أكثر، واحتاجت الحاسَّة فيه إلى دليل آخر يحقق نظرها ويصدق خبرها.

من ذلك السراب فإنه آخذ من لون الماء بياضه ومن الضياء إشراقه، فحار فيه النظر وحال البعد فيما بين النظر وبينه عن الحكم عليه بما هو به فظنه ماء، فلما جاءه لم يجده شيئًا. وكالمجذاف الذي هو غائص في الماء فإن البصر لا يدركه إلا معوجًّا؛ لأنه قد زاد فيما بينه وبينه واسطة أخرى وهي الماء، وكذلك ما يكون في الماء من الأشياء فإن البصر لا يدركها على ما هي به.

وكذلك حال الشيء البعيد فإن الوسائط بينه وبين البصر كثيرة، وهي الضياء والهواء، وكلما بعد ازداد في الصغر والتلاشي في البصر إلى أن يغيب.

وأما حاسَّة السمع، فإنها لا تكذب وقلما تخطئ؛ وذلك لأنه ليس بينها وبين محسوساتها إلا واسطة واحدة وهي الهواء، وإنما يكون خطؤها بحسب غلظ الهواء ورقته؛ وذلك أنه ربما كانت الريح عاصفة والهواء متحركًا حركة شديدة، فيصوت المصوت في مكان قريب من المسامع فلا يسمع من شدة حركة الهواء وهيجانه، فتكون حركة ذلك الصوت يسيرة في شدة حركة الهواء وهيجانه، فيضعف عن الوصول إلى الحاسَّة السامعة.

وإذا كان الهواء ساكنًا وصل ذلك الصوت إلى الحاسَّة إذا كان في مكان يمكن أن يتصل به ذلك التموج والحركة الحادثة في الهواء.

فأما إذا كانت المسافة بعيدة فإنها لا تدركه وتتلاشى تلك الحركة وتنفذ قبل وصولها إليها.

وهكذا حاسَّة الشم، فإنها تدرك من ذلك بحسب غلظ الهواء ورقته وسكونه وحركته؛ وذلك أنه إذا كان الهواء غليظًا فإنه قلَّ ما تجد الروائح في الجهات وقلَّ ما تسري فيه، وإذا كان صافيًا رقيقًا والمسافة قريبة فإنها تتصل بمشام الحاضرين، وإذا بعدت تفرقت تلك الروائح في الجهات ولم يدرَك شيء منها، وأما قبول الهواء للأصوات والروائح فإني أشرحه لك بعون الله.

فصل

ثم اعلم أن جميع الجواهر تختلف في أنواعها، وتتباين في عناصرها وتركيبها، وكل جوهر هيولاني يكون ألطف جوهرًا وأشد روحانية وأعم خاصية، وأنه يكون لقبول الصورة وحمل الأعراض أسرع انفعالًا وأسهل قبولًا من غيره.

مثال ذلك الماء العذب لما كان ألطف جوهرًا من الماء المالح وأصفى، صار لِقبول الطعوم والأصباغ أكثر قبولًا، ولا بُدَّ أنه للحيوان أكثر امتزاجًا ومخالطة وأكثر نفعًا وصلاحًا، وبذلك صار حياة الأجسام ومادة الحيوان والنبات.

وهكذا لما كان الضياء ألطف من الهواء، صار قبوله الألوان والأشكال أسرع انفعالًا وأشد روحانية وبساطة وألطف سريانًا.

وكذلك جوهر النفس ألطف وأشد روحانية من جوهر النور والضياء، والدليل على ذلك قبوله رسوم سائر المحسوسات والمعقولات جميعها، فلِهاتين العلتين صار الإنسان يقدر بالقوة المتخيلة أن يتخيل ويتوهم ما لا يقدر عليه بالقوى الحاسَّة؛ لأن هذه روحانية وتلك جسمانية، ولأنها تدرِك سائر محسوساتها في الجواهر الجسمانية من خارج، والقوة المتخيلة إنما تتخيلها وتتصورها في ذاتها، والدليل على ما قلنا أفعال الصناع البشريين.

وذلك أن كل صانع يبتدئ ويفكر ويتخيل ويتصور في وهمه صورة مصنوعة بلا حاجة إلى شيء خارج عنه، فإذا أراد إظهار ما في نفسه إلى الفعل عمد إلى هيولى ما، في مكانٍ ما، في زمانٍ ما، فيتصور فيها ما كان متصورًا في ذاته بأدواتٍ ما وحركاتٍ ما.

وذلك أن كل حيوان لا يبصر فهو لا يتخيل الألوان العرضية والأجسام الجوهرية، وما لا سمع له لا يتصور ولا يتخيل الأصوات الكلامية ولا يتوهم الألفاظ المنطقية.

فأما الإنسان الصحيح التركيب، السالم الحواس، فإنه لما كان يفهم الكلام صار يمكنه أن يتخيل المعنى إذا وصفت. والغرض من الكلام تأدية المعنى، وكل كلام لا معنى له فلا فائدة للسامع منه والمتكلم به، وكل معنًى لا يمكن أن يعبر عنه بلفظٍ ما في لغةٍ ما فلا سبيل إلى معرفته، وكل حيوان ناطق لا يحسن أن يعبِّر عما في نفسه فهو كالعدم الزائل والجماد الصامت.

فصل

ثم اعلم أن المعاني في الكلام كالأرواح، وألفاظها أجساد لها، فلا سبيل إلى قيام الأرواح إلا بالأجساد، والكلام ضربان: مفيد وغير مفيد، والفائدة واقعة في الإخبار من جهة المجهول، والمجهول هو المخبَر عنه، والخبر دالٌّ وغير دالٍّ، والخبر هو كل قول جاز تصديق قائله فيه وتكذيبه لغيبته عن العيان أو لمضيِّه عن الزمان ووصفه أنه مسموع من قائله؛ مثل مخبر أن مدينة كذا عامرة بأهلها، وأن فلانًا الذي مات كان من أمره وصِفته كذا، فقد جاز لمن يسمعه أن يصدقه وأن يكذبه لغيبة ما ذكره من أمر المدينة عن العيان وغيبة المائت في الزمان.

وأيضًا فإن الإخبار على ثلاثة أقسام؛ إما عن ماضٍ من الزمان أو عن غائب عن العيان أو عن موجود في زمان ومكان، وامتحان ذلك بكان ويكون وكائن؛ فكان لزمان ماضٍ، ويكون لزمان آتٍ، وكائن لما هو موجود في الحال. وكل هذه الأقسام تدخلها الموجبة والسالبة والموضوع والمحمول، وهذه أقسام الخبر، وهو أيضًا غير خارج من معانٍ ثلاثة: واجب وجائز وممتنع؛ فالواجب والممتنع معروفان مستغنيان عن الدلالة على أحوالهما في الصحة والفساد.

مثال ذلك: إذا سَمع رجلٌ قائلًا يقول: «الأرض تحتي والسماء فوقي»، فإنه لا يشك في صدقه ولا يحتاج إلى إقامة دليل على ذلك.

وهذا وإن كان كلامًا مستقيمًا لا يستغنى عن الدليل على كذبه، فإنه ما لا يقع منه فائدة، ولا فائدة أيضًا في قوله ولا في سماع ذلك، ولا يعد هذا من المتكلِّم به فضيلة، بل ربما من هجو قوله.

وكذلك لو سمع قائلًا يقول: «إني قد حملت الجبل وخضت النار ورأيت شجرة على سطح البحر نابتة»، فإنه لا يشك في كذبِه وبطلانِ قوله، فهذا القسم الممتنع.

وأما الجائز أن يكون صدقًا وأن يكون كذبًا فهو الذي يجب أن يطلب الدليل عليه، والفائدةُ واقعة فيه، وبه يستفيد السامع، وعنه يسأل السائل، والمعنى الذي به يوصل إلى علم الحقيقة ما كان عند الإخبار ممكنًا أن يكون صدقًا وكذبًا، وهو أن يكون متيقنًا عند مَن بلغه عنه الكذب والصدق يقينًا، ويعلم أن ذلك ثابت بحيث يثبت عليه نظر أهل العقول، كمعرفة من أخبر بعمارة المدينة أو حال الميت بما وصف به المخبر عنه، فقد صار كذب المخبر منفيًّا وعند من تقدمت عنه صحته. وكذلك ما حكمت عليه العقول وقضت به البراهين عند العارفين، فإنهم يعرفون ما غاب كعلم ما حضر ويصير الدليل والبرهان كالمثال؛ لأن المثال صورة المخبر عنها المدلول بصفاتها على معنى الخبر فاعلم ذلك.

(٨) فصل في معرفة أصل الصوت وعن الأجسام التي في الابتداء دون فلك القمر قبل خلق الإنسان والحيوان

فنقول معولين على الله تعالى بأنه لما خلق الله السموات بمشيئة وأتقنها بصنعته ورتبها بحكمته، وجعل الأرض بساطًا تحتها، وخلق الهواء فسحة فيما بين السماء والأرض، ثم أرسله يمينًا وشمالًا على وجه الأرض، ويسري على البحار ويحركها ويموجها، كان كالأرواح السارية في الأجساد، فأقام الهواء على تلك الحال والسريان في الجهات الأربع، يخلط البحار بالتراب ويمزج الطبائع بعضها ببعض، كما ذكر أولًا في هذه الرسالة، فتحدث بحركته أنواع الأصوات والصفير والطنين ومجاوبة الجبال وأصوات أمواج البحار، وهبوب الرياح في الفلوات والقفار، فتكونت المعادن في البقاع المخصوصة بكونها فيها، وانعقد البخار وارتفعت الأنداء وتراكمت الغيوم، وارتفعت إلى آخر كرة النسيم، وتعلقت تحت كرة الزمهرير وعصرها وهيج الأثير، واستولت الكواكب المائية، فأرسلت الأمطار على وجه الأرض، ولحقها الهواء وسرى عليها، وأشرقت الكواكب بأنوارها ولحظتها الشمس وسرت فيها قوة النفس النامية.

وكان أول ما ابتدأ على وجه الأرض بالنمو والزيادة على سطحها صورة النبات، وقامت على تلك الحال والأرض ليس فيها إلا البحار والجبال والنبات والأشجار على ما ذكره بعض العلماء ثلاثة آلاف سنة، والرياح تهب عليها، والأصوات الهوائية تجيب

بعضها بعضًا، والنفس سارية في الهواء متصلة بقوة النور والضياء، تدبر الأمور الجسمانية، وتؤلف الطبائع الجرمانية، وروحانيات الكواكب متصلة بعالم الهواء، فهُم سكان الأرض قبل آدم عليه السلام. فلما تمت هذه المدة المقدرة بهذه الصفة وابتدأ الدور الجديد، وأراد الله إنشاء النشأة الثانية وإبراز الصورة الإنسانية؛ خَلَقَ آدم وحواء من الطين، وأسكنهما الجنة الموصوفة وهي الياقوت في ناحية المشرق، وكان من أمرهما ما كان، وقد ذَكر هذه القصة من أولها إلى آخرها رجلٌ من أهل فارس، عالم بحساب النجوم، بكتاب بيَّن فيه هذه الأمور، ولو كان هذا ما قصدنا وإياه ما أردنا لذكرنا منه طرفًا، ولكنا نشير إلى بعض ذلك، فلما فَطَرَ آدم وسوَّاه ونفخ فيه من روحه وأسجَدَ له ملائكته، وكان ظهور آدم وحواء بعد كون الحيوان وعمارة الأرض وظهور الأقوات فيها على تمام أجناسها واستيفاء أنواعها، وكان ظهور الحيوان بعد ظهور النبات وانبساطه على وجه الأرض وعلوِّه عليها، وكان أول بروز النبات بحذاء برج السنبلة، وكان في وسط السماء، والحيوان بحذاء الثور، وآدم وحواء بحذاء الجوزاء من أرض المشرق؛ ولذلك قيل للجوزاء ذات جسدين.

وكانت البداية من الحمل وقد حل فيه زحل وهو هابط، فصار المركز مهيأً من الطين، وكان أكثره مظلمًا وصار ثقيلًا رزينًا، وصارت الجبال راسيات مستقرة، وكان أول معدن انعقد في بطن الأرض الأسرب؛ ولذلك صارت الأرض مقر الثقل ومستقر الكثائف من أجل زحل وكونه في ذلك التقدير بمشيئة الله تعالى، فأقام آدم وحواء والحيوان مدة ما ذكر في الكتاب من غير مماسة ولا التئام، ثم أَلْهَمَ الله تعالى عطارد صاحب المنطق النطقَ ونطقت حواء، وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها، فصار يعرفها ويلقي على كل جنس وشكل ونوع وشخص مِن النبات والمعادن والحيوان وجميع المرئيات الأسماءَ والصفاتِ، ثم لم يزالا على ذلك حتى أكلا من الشجرة وأُهبطا من الجنة إلى الأرض مسخوطًا عليهما، فأقاما في الأرض مدة معلومة وكانا مع سائر الحيوانات يأكلان من ثمر الأشجار ويشربان من ماء العيون والأنهار، إلى أن سلم الحمل الدور إلى الثور؛ إذ هو أحد منافع الدنيا وسبب العمارة، وهو بيت الزهرة، وكانت حسنة الحال مستقيمة في مسيرها صاعدة في أوجِها، مشرقة أنوارها.

وكان في هذا الحد اجتماع آدم وحواء ومماسَّتهما فحملت منه، وكان ذلك ابتداء النسل، وجرى حال الحمل على ما ذكرنا في رسالة مسقط النطفة، فلما كثرت أولادهما تولَّى آدم تعليمه وتأديبهم وتهذيبهم، وعلمهم كيفية الحرث والزرع وازدواج الذكور

والإناث، وعمروا العالم وعاينوا الحيوانات وما تصنعه بعضها ببعض وما يطلب من منافعها، فاقتدوا بها في أفعالهم، وأيد الله تعالى آدم عليه السلام بوحيه وإلهامه لما تاب عليه بما يكون له به صلاح ولذريته فلاح، وأقام على ذلك مدة ما أراد الله تعالى، ثم نَقَلَه إلى رحمته وخلفه من خلفه في ذريته وأولاده، ولم يزل الأمر على ذلك وبنو آدم مع والدهم يتكلمون بالسريانية، وقال بعضهم بالنبطية، ويفهم بعض عن بعض المعاني وما قصدوا وأرادوا، ووصفوا كل شيء بصفته إلا أنها لم تكن الحروف مجتمعة بعضها إلى بعض ولا مؤلفة بالكتابة، وإنما كان آدم عليه السلام يعلمهم تلك الأسماء تلقينًا وتعريفًا كما يعلم الأشياء ويعرف من لا علم له بالكتابة والهجاء؛ ولذلك يقال لمن لا يكتب ولا يقرأ أميٌّ، وكان الخلق يحفظون تلك الأسماء والصفات عن السلف إلى أن سلم الدور الثور إلى الجوزاء، وظهرت الكتابة من أجل أنه بيت عطارد وشرف الرأس وهبوط الذنب، وصارت الحروف في ذلك أربعة وعشرين حرفًا، وهي الكتابة اليونانية؛ لأنها قسمت لكل برج حرفين، فصارت أربعة وعشرين حرفًا، فقيدت تلك الألفاظ وكتبت الأسماء بالحروف على لغة أهل ذلك العصر.

فانظر أيها الأخ إلى هذه الحكمة الصحيحة والصنعة المحكمة المتقنة كيف تأتي بكل شيء في وقته المقدر وزمانه الميسر.

وانظر كيف سرت هذه القوى التي هي الأصوات والنغمات أولًا في عالم السموات، ثم في حركات الهواء، ثم في حركات النبات، ثم في أجسام الحيوان، ثم في عالم الإنسان.

فالصوت في الحيوان يسمى بأسماء مختلفة، مثل قول القائل: صهيل الفرس، ونهيق الحمار، ونباح الكلب، وخوار الثور، وزئير الأسد، ونعيب الغراب … وغير ذلك.

وأما الصوت المخصوص به الإنسان، فإنه يقال له كلام ولفظ متكلَّم كقول القائل: فلان يتكلم بالعربية والفارسية والرومية وغير ذلك، وسنأتي على شرحه وبيانه ونفرق بين الصوت والكلام.

(٩) فصل في الفرق بين الصوت والكلام

اعلم يا أخي أن الكلام هو صوت بحروف مقطعة دالة على معاني مفهومة من مخارج مختلفة، وأبعد مخارج الحروف أقصى الحلق، وهو مما يلي أعلى الصدر. والصوت من الجسم في الرئة بيت الهواء، كما أن أصل الصوت في العالم الكبير، الذي هو بمنزلة إنسان كبير، الهواء فيما دون فلك القمر والنفس في عالم الأفلاك؛ ولذلك توجد في الإنسان الذي

هو عالم صغير في الرئة وفي قوة نفسه معاني ما يدل عليه الصوت، وكذلك الحركات والأصوات التي دون فلك القمر إنما هي مثالات ودلالات على تلك الأصوات الفاضلة والحركات المنتظمة، وتلك أرواح وهذه أجساد، وأصل الأصوات في الرئة هواء يصعد إلى أن يصير إلى الحلق فيديره اللسان على حسب مخارجه، فإن خرج على حروف مقطعة مؤلفة عرف معناه وعلم خبره، وإن خرج على غير حروف لم يفهم كان كالنهاق والرغاء والسعال وما أشبه ذلك، فإن رده اللسان إلى مخرجه المعلوم في حروف مفهومة يسمى كلامًا ونطقًا بأي لفظة كانت، على حسب الموافقة ومساعدة الطبيعة لكل قوم في اتساع حروفهم وسهولة تصرفهم في مخارج كلامهم وخفة لغاتهم بحسب مزاج طبائعهم وأهوية بلدانهم وأغذيتهم، وما أوجبت لهم دلائل مواليدهم وما تولاهم من الكواكب في وضع أصل تلك اللغة في الابتداء الوضعي والمنهاج الشرعي، وما تفرع من ذلك الأصل وما ينقسم من ذلك النوع.

ثم اعلم أن أصل الاختلاف في اللغات إنما هو لما كثرت أولاد بني آدم وانتشروا في جهات الأرض، ونزلت كل طائفة منهم إقليمًا من أقاليمها وقطرًا من أقطارها من الربع المسكون، تولى كل قوم في وقت نزولهم ذلك الإقليم كوكبًا من الكواكب السبعة المدبرات، فعقد لهم عقدًا نشأ عليه صغيرهم ومات عليه كبيرهم.

ثم اعلم أن الكلام الدال على المعاني مخصوص به عالم الإنسان، وهو النطق التام بأي حروف كتب، والحيوان لا يشرك الإنسان فيه من الجهات المنطقية والعبارات اللفظية، لكن من جهة الحركة الحيوانية والآلة الجسمانية والحاجة فيها إلى ذلك؛ لأنك تجد كثيرًا من الحيوانات تريد بأصواتها دفع المضار وجذب المنافع، تارة لأنفسها وتارة لأولادها؛ مثل صياح البهائم إذا احتاجت إلى الأكل ومنعت منه، وإلى شرب الماء وزيدت عنه، ومثل استدعاء أولادها وما غاب عنها وما شاكل ذلك من الطيور التي تحاكي الإنسان، ومحاكاة القرد للإنسان في جميع أفعاله وأكثر أعماله.

فهذه الأشياء لما يريد الحيوان التطريب والتصويت والصياح لها ومن أجلها، فإنه لا يقال لها معانٍ علمية، وإنما يقال لها إرادات طبيعية؛ فأجساد الحيوانات مجبولة عليها، وإنما استدعاؤها إياها بالتصويت في بعض الأوقات إذا عدمتها وحيل بينها وبين ما تريد، وقلَّ ما يكون دالًّا بأصواتها على الأمر الأعم ولا معنى لها، ولا يعرف المراد منها ولا القصد، كصياح الطيور في أكثر أوقاتها.

منها ما يصوت بالليل ومنها ما يصوت بالنهار، وكذلك الحيوانات أكثرها، ولكن المراد بها منها كلها اجتماع الجنس وقيام الشكل إلى الشكل، وبحسب ما في كل شخص

من أشخاصها من قوة الحرارة الغريزية وحركة النفس الحيوانية، فإن كل شخص أكثر حرارة وأقوى حركة وأحيى نفسًا، كان أكثر صوتًا وأدوم كلامًا في عموم الأوقات، وما كان دون ذلك كان بحسب ما فيه وما هو مجبول عليه.

وبالجملة إن الصوت الحادث بحركة نفسانية حيوانية فهو مخصوص به الحيوان، وأما ما يسمع من الأصوات من غير الحيوان، فإنما يقال له قرع ووقع وطنين وصفير وزمير ونقر ودق وقرقعة؛ كصوت البوق وضرب الدف والطبول والدبادب وما شاكل ذلك.

فهذه المثالات لهذه الأصوات مخصوصة بما يحدث من حركات الأجساد الصامتة التي لا يَحدث صوت وحس عنها إلا بمحرك من غير جنسها، يرفعها ويضعها وينقرها ويقرع بعضها ببعض. فالمحرك لها إما بعمد وقصد كالإنسان فيما يتخذه من هذه الآلات للتصويت بالحركة، أو كحيوان يُحدث ذلك بغير قصد كاحتكاك الدابة بالباب ودفعها للإناء وغيره، فيحدث من تلك الحركة وذلك الدفع صوت، أو من حركة الرياح والهواء للأجساد والنبات والأشجار وحفيف أوراقها واحتكاك قضبانها، وسلوك الهواء بينها وسريانه بين الحيطان والبنيان، وخرقه منافذ الجبال والغدران والكهوف، فيحدث منه أنواع الصفير والتصويت، وما يحدث من أصوات حوادث الجو ما قد ذكرناه، مثل ما يحدث من حركات المياه إذا انحدرت وتدافعت من أعلى الجبال إلى بطون الأودية، ومثل أصوات الدواليب والأرحية والطواحين والمجاذيف وجريان السفن في البحر وجري العجل في البر، وكل ماء إذا تحرك أو تصرف فيه المحرك ظهر منه الصوت وقرع الهواء.

فهذه كلها أصوات فما كان منها عن أجسام الحيوان قيل أصوات ونغمات، وما كان منها عن حركة الهواء قيل صفير وزمير، وما كان عن حركة الماء قيل دوي وخرير وأمواج، وما كان من المعدنيات والأحجار والخشب قيل وقع وطنين ونقرة وما شاكل ذلك، وما كان من جهة الإنسان قيل كلام ولفظ ومنطق بالجملة، وعند التفصيل والتقسيم فكثرة الألوان والفنون مثل كلام الخطيب وإنشاد العشر وقراءة القرآن وما شاكل ذلك، وينسب ذلك الكلام إلى المعنى المقصود إليه به.

فقد بان، بما ذكرنا، الفرقُ بين الصوت الحيواني والكلام الإنساني، وما يحدث من حركة الهواء وما يظهر من أجسام النبات والمعادن. وإذا تأملت ذلك وميزته بفكرتك وأعملت فيه رويتك، رأيت تلك الحركات وسمعت تلك الأصوات والنغمات والمجاوبات، وتبينت أن العبارات كلها تأدية عن النفوس الجزئية بما أمدتها النفس الكلية.

وكذلك الحركات الكلية العرضية أصلها الحركة الذاتية، وهذه أعراضها وتلك جواهرها، وهذه فانية وتلك الحركات باقية؛ لأن مركز هذه سفلي ومقر تلك علوي، وهذه منها فاضلة ومنها غير فاضلة وتلك فاضلة كلها، وبعض هذه حي وبعضها ميت وتلك كلها حية، وبعض هذه متكلمة ناطقة وبعضها مصوتة وتلك ناطقة كلها، وبعض هذه أصواتها مفهومة وبعضها أصواتها غير مفهومة وتلك أصواتها كلها مفهومة، وبعض هذه الأصوات دال وبعضها غير دال وتلك كلها دالة، ومعاني هذه الأصوات مضمنة في حروفها وتلك كلها معاني، وأهل هذه يحتاجون إلى من يكشف لهم معانيها ويدلهم على مراميها وأولئك لا يحتاجون إلى ذلك، وهؤلاء يضجرون من الكلام ويملون وأولئك لا يضجرون، وهؤلاء أكثرهم غير طيبي النغمة ولا لذيذي الصوت ولا حسني الكلام وأولئك كلهم طيبو النغمة ذوو ألحان لذيذة، وبعض هذه الأصوات معكوس يشبه أصوات أهل جهنم، وزفيرهم وشهيقهم كنعيق الكلاب ونهيق الحمار وزعقات البوم وصياح السباع، وما يحدث في القلوب من الوحشة والنفور والفزع والرعب، وما تضجر منه النفوس، وما شاكل هذه الأصوات والمصوتات.

ثم اعلم أن كل صوت يسمع فإنما يخرج عن هيئة الجسم الذي يصوته بحسب قوته وصفاء طبيعته وغلظها، ونحتاج ها هنا إلى بيانٍ ووضوحِ برهانٍ، ونحن نذكره بشرح مبين.

فصل

ثم اعلم أن اختلاف الناس في كلامهم ولغاتهم على حسب اختلافهم في أجسادهم وتركيباتهم، وأصل الاختلاف في اللغات هو اختلاف مخارج الحروف ونقصها عن تأدية ما يؤديه البليغ منها. وقد زعم بعضهم أن فساد الكلام من فساد التركيب وفساد المزاج، وليس هو كما زعم، وإنما هو من اختلاف مخارج الحروف في قوتها وضعفها، وهو فساد في اللسان يقلب ويعدل الحروف عن مخارجها. ولو كان من فساد المزاج لكانت اللغة كلها في حرف واحد من مخرج واحد، ولكانت ترجع إلى الاستواء عند صلاح المزاج كما يحدث بالفصيح الكلام، وضعف الصوت من فساد المزاج وغلبة بعض الطبائع، وإذا عاد إلى الأمر السالم عاد كلامه إلى المعهود منه أولًا، واللغة ليست كذلك، والناس فيها مختلفون وغير متفقين في الحروف التي يقع الخطأ فيها والعدول بها عن استوائها إلى

خلافها، وهي أعراض كثيرة تختص باللسان وتعرض فتفسد الكلام، وهي زمانة لازمة مثل الخلسة والفأفأة والتمتمة والعقلة والحلكة والرثة واللثغة وما أشبه ذلك.

وإذا كان الكلام يثقل على الرجل قيل في لسانه خلسة، وإذا أدخل بعض حروف العرب في بعض حروف العجم قيل في لسانه لكنة، وإذا عجز عن سرعة الكلام قيل في لسانه عقلة، والحلكة إنما هي نقصان آلة المنطق وعجزها عن أداء اللفظ حتى لا يعرف معناه إلا القليل وهو قريب من كلام البهائم والخرس ونحو ذلك.

(١٠) فصل في المعاني

فأما إفهام المعاني فإنها تفهم من الكل من اللكن والفصحاء، وإنما يتفاضل الناس في البلاغة وهو عند الحشوية والعوام والنساء والصبيان حُسن الصوت وحلاوة المنطق وصفاء الكلام.

وليس كلُّ مَن حَسُن صوته وصفا كلامه كان بليغًا في إبانة المعنى وإقامة الدليل والحجة في إزالة الشبهة عن النفس الساهية وانتباه الجاهل عن رقدته وإصحاء السكران من سكرته بالتذكرة والموعظة، فإنَّ صاحب النغمة الطيبة والكلام الصافي ربما استعمل ذلك في الأغاني والملاهي.

وسبب كل ذلك محبة اللذات الدنيَّة والشهوات الحسية وما يتضمن الكلام من السخف والمجون وأمثاله، فإن معانيها لا حقيقة لها، والكلام بها إنما هو تصويت وهذيان لاحِقٌ بأصوات الحيوان والمجانين والسكارى والصبيان والنسوان ومن لا عقل لهم.

وأصل المعاني إنها المقالات المدلول بصحتها في الإخبار بها عن معرفة حقائقها ومقاصد طرائقها، وحد المعنى أنه هو كل كلمة دلَّت على حقيقة وأرشدت إلى منفعة، ويكون وجودها في الإخبار بها صدقًا والقول عليها حقًّا، والإخبار على أربعة أقسام: خبر واستخبار وأمر ونهي.

وقد جعلها قومٌ ستةً، وآخرون عشرةً، وأصلها هذه الأربعة؛ فثلاثة منها ما لا يدخله الصدق والكذب، وواحد منها يدخله الصدق والكذب، وهو الخبر، ويوجد في ذلك السالبة والموجبة والممكن والممتنع.

فصل

ثم اعلم أن جميع هذه المعاني وما يتعاقبها من مدح أو ذم ويدخلها من صدق وكذب وبلاغة وحصر فلا بُدَّ من أن يقع على مسمًّى باسمٍ مِن مدح أو ذم، وكل مسمًّى باسم فيه مدح من سائر المعاني، فهو واقع بين اثنين متضادين؛ عدل بين حاسَّتَي جور؛ فالعلم واقع بين أمرين إما علمُ ما لا يجب أو جهل ما يجب، فصار العدل بين حاستين إفراط وتفريط.

وعلى هذا المثال الفهم عدل بين الاعتراف بما لا يمكن وإنكار ما يمكن.

واللب أيضًا عدل بين الحصر عن التفهيم والتراخي عن التوهم، والعزم عدل بين التهور والجبن، والجود عدل بين التقتير والتبذير، والشجاعة عدل بين الإقدام والإحجام.

وعلى هذا المثال يقع كل اسم من أسماء القصد والحزم وكل وصف يستحق به صاحبه المدح وبإزائه ما يستحق عليه الذم.

واعلم أن حقيقة مطالب معنى العدل بأن تصرف في فنون المسمَّيات، وتقسم في وجوه العبارات، وذلك أن القصد هو الذي لا يجزي ما دونه ولا ينفع ما فوقه فهو راجع إلى معنى العدل الذي ما نقص عنه كان ضعفًا وما زاد عليه كان إسرافًا.

وكذلك الحزم أيضًا ما لم يمِلْ إلى إحدى حاشيتيه اللتين إحداهما الفشل والأخرى التهور، وكذلك الحياء الذي طرفاه الفتور والقحة وكلٌّ يرجع من العدل إلى انقباض بين ازدياد على حدة وانتقاص ويئول إلى انبساط منه وتفريط وإفراط.

فمن طلب العدل في جميع الصفات وجده متوسطًا بين ضدين؛ أحدهما يتطرق دونه إلى بخس ونقصان، والآخر يتطرق فوقه إلى إفراط وعدوان، والعدل في الطلب هو ما لم يمِلْ إلى الإلحاح في المسألة ولا إلى الابتهال والخضوع، والحر لا يكون مَهينًا والكريم لا يكون لجوجًا.

ولهذا قيل القنوع خير من الخضوع، والعدل في السياسة ما لم يمل إلى عبوس موحش ولا ملق مدهش؛ فإن العبوس يشين المودة ويزيل ما في القلب من صفاء المحبة، والملق يذهب برونق المروءة.

ولهذا قيل من كثر ملقه لم يعرف وده، والعدل في البلاغة ما لم يقصر عن درك البغية، وإصابة المعنى وقصد الغرض، ألا ترى أن الهذار في المنطق بعد بلوغ الغاية لا يحتاج إليه، ولو كانت البلاغة هي البلوغ إلى غايات المعاني، لكان العالم كلهم بلغاء، خاصهم وعامهم؛ لأنه ما من أحد إلا وهو إذا عبَّر عما في نفسه بلغ غرضه في إفهام السامع عنه ما يريده منه، على حسب استطاعته وما تساعده عليه آلاته، وإنما البلاغة

هي التوصل إلى إفهام المعنى بأوجز مقال وأبلغ كلام؛ ليعرف به المراد بأسهل المسالك وأقرب الطرق بواضح البيان وصادق المقال، والإيجاز في ذلك ما بلغت غاياته بيسير اللفظ، والإطناب ما بلغت غاياته بالتطويل، فصارت البلاغة حينئذ التوسط بين الحالتين والتوصل إلى إدراك الغاية من أقرب الطرق. وقيل البلاغة معرفة مواضع المفاصل المطلوبة بألفاظ مفهومة، والبليغ هو الذي لا يؤتي سامعه من سوء إفهامه، والفهيم الذي لا يأتي بسوء فهمِ مَن يريد إفهامه بتقصير عن البلاغة في خطابه أو كتابه، فيخرق بفهمه وصفاء ذهنه تلك الحجب الحائلة بينه وبين المعنى الذي يقدر على الفهم؛ لأنه يجرده من تلك الشوائب المعوقة له عن البيان والإيضاح. والبلاغة في اللغة مِن بالغت في كذا وكذا، وهي مشتقة من المبالغة؛ يقال بلغت أبلغ بلوغًا، فالمصدر منه بلاغة، فأنا بالغ، وتقول: أبلغت الكلام، وبلغته إلى فلان؛ أيْ أديته إليه.

واعلم أن المعاني تنطق بها أفواه السوقة والعوام في الأسواق والطرق، ولكن قلَّ مَن يُحسن العبارة عنها، وربما أراد المعنى فعبر عن غيره وهو يظن أنه قد عبر عنه، والمعاني هي الأصول وهي الاعتقاد الذي أول ما يتصور في النفس والألفاظ هيولى لها، والمعاني كالنفوس، والألفاظ كالأجسام، والمعاني كالأرواح، والحروف كالأبدان.

فصل

ثم اعلم أن الهيولى إذا قبلت آثار النفس قبولًا تامًّا، ظهرت أفعال النفس في الغرض والمراد مضيئة بهيئتها، وإن عجزت عن القبول كانت دون ذلك، وكذلك الألفاظ إن قبلت التأدية عن المعاني ببلاغة فهمت المعاني ولاحت دلائلها بغير تطويل ولا إسهاب، وإن عجزت الألفاظ عن تلك التأدية احتاجت إلى التطويل؛ والتطويل ذهاب البلاغة، والتقصير هو ضعف الدلالة والحجة. وفي الناس من يجول في قلبه المعنى الصحيح فيعبر عنه باللفظ الركيك فيحيله عن معناه، وإن لم يُرِد الإحالة، ولكنه عجز في اللفظ فيصير اللفظ غير مؤدٍّ عن المعنى، لا لعجز المعنى ولكن لعجز اللفظ، كما أن الطبيعة تفعل أشياء فتعجز عنها الهيولى القابلة فتنقص عن الكمال، لا لعجز الطبيعة بل لعجز الهيولى، فتأمل هذا الكلام فإنه من الأسرار العجيبة والرموز الدقيقة والمعاني، وفيه غرض غامض.

وأنت أيها الأخ، ينبغي لك أن تراجع نفسك النائمة الساهية، فانتبه من نوم غفلتك وأنعِم النظر في جميع ما قلناه وافهم جميع ما بيناه من الإشارات والرموزات، ولا تظن بنا ظن السوء؛ لأن إفشاء سر الربوبية كفر.

(١١) فصل في كيفية إدراك القوة السامعة للأصوات

فنقول: اعلم أن الأصوات نوعان؛ حيوانية وغير حيوانية، وغير الحيوانية قسمان؛ طبيعية وآلية؛ فالطبيعية كالصوت من الحجر والحديد والصفر والخشب والرعد والريح وخرير الماء وسائر الأجسام التي لا روح فيها من الجمادات، والآلية كصوت البوق والطبل والدف والمزمار والأوتاد وما شاكلها. والحيوانية أيضًا نوعان؛ منطقية وغير منطقية؛ فغير المنطقية أصوات سائر الحيوان التي ليست بناطقة.

وأما المنطقية فهي أصوات الناس، منها دالة ومنها غير دالة، فغير الدالة الضحك والبكاء والأنين والأصوات التي لا هجاء لها.

وأما الدالة فهي الكلام والقول الذي له هجاء، وكل هذه الأصوات إنما هو قَرْعٌ يَحدث في الهوام عن تصادم الأجرام.

وذلك أن الهواء بشدة لطافته وخفة جوهره وصفاء طبعه وسرعة حركة أجزائه؛ يتخلل الأجسام كلها، فإذا صَدَمَ جسمٌ جسمًا آخر انسلَّ ذلك الهواء وتدافَع إلى جميع الجهات وحدث منه شكل، كما ذكرنا أولًا، فيَصِل بمسامع الحيوان.

فأما كيفية إدراك الحاسَّة السامعة للصوت الحيواني وغير الحيواني وتمييزها لكل واحد منها، كما تميِّز القوة الذائقة طعومَ الأشياء وتُخبرُ الناطقة عن كل شيء بما يخصه من طعمه، وكذلك القوة الشامَّة.

فأما الذائقة فهي أكثر تأثُّرًا من الشامَّة، وكذلك الحاسَّة السامعة، فإن قواها في تمييزها الأصوات بعضها من بعض ألطفَ وأشرف، والحاسَّة اللامسة أكثف من الجميع، واختلف العلماء في حاسَّة النظر وحاسَّة السمع أيهما ألطف وأشرف، فقال بعضهم حاسَّة السمع أشرف، وكان برهان مَن قال ذلك أن محسوسات السمع كلها روحانية، وأن النفس بطريق السمع تدرك مَن هو غائب بالمكان والزمان، وأن محسوسات البصر كلها جسمانية؛ لأنها لا تدرك إلا ما كان حاضرًا في ذلك الوقت، وقال إن السمع أدق تمييزًا من البصر؛ إذ يعرف جودة الذوق وجودة الحس والكلام الموزون والنغمات المختلفة، والفرق بين السقيم والصحيح، والمستوي والمنزحف، وصوت الطير من صوت الكلب، وصوت الحمار من صوت الجمل، وأصوات الأصدقاء من أصوات الأعداء، وما يحدث من أصوات الأجسام التي لا روح فيها وأصوات الناس على اختلافهم وأشكال كلامهم، فتخبر عن كل صوت بما هو دأبه وتنسبه إلى الذي بدا منه ولا يحتاج إلى البصر في ذلك وفي إدراكه، والبصر يخطئ في أكثر مدركاته؛ فإنه ربما يرى الصغير كبيرًا والكبير صغيرًا،

والبعيد قريبًا والقريب بعيدًا، والمتحرك ساكنًا والساكن متحركًا، فصح بهذا القول أن السمع ألطف وأشرف من البصر ولَنعم ما قيل:

الشمس تستصغر الأجسام جثتها فالذنب للعين لا للشمس في الصغر

فإذا كان كذلك كانت الحواس الخمس الموجودة في الإنسان المستوي البنية التام الخلقة مناسِبةً للطبائع الخمس في جسم العالَم الذي هو الإنسان الكبير. فحاسَّة اللمس مناسِبة لطبيعة الأرض؛ لأن الإنسان يحس بجسمه كله. وحاسَّة الذوق التي هي اللسان مناسبة لطبيعة الماء؛ إذ بالمائية والرطوبة التي في اللسان والفم تدرك طعوم الأشياء، وسنشرحها إذا انتهى بنا القول إلى تفصيل ذلك وبيانه. وحاسَّة الشم مناسبة لطبيعة الهواء؛ لأن القوة الكامنة هوائية، وهي المستنشقة للهواء، وبه تدرك روائح الأشياء. والحاسَّة الباصرة مناسبة لطبيعة النار؛ إذ بها وبالنور تدرك محسوساتها. والحاسَّة السامعة مناسبة لطبيعة الفلك الذي هو مسكن الملائكة، الذين شعارهم وشغلهم ليلهم ونهارهم وكلامهم كله تقديس وتسبيح وتهليل، ويلتذ بعضهم بسماع بعض، ويقوم لهم في ذلك العالم العلوي مقام الغذاء الجسماني في العالم السفلي.

وذلك أن حاسَّة السمع محسوساتها كلها روحانية؛ ولذلك قيل إن فيثاغورس الحكيم سَمِع بصفاء طبيعته وصفاء جوهره نغماتِ الأفلاك، وإنه استخرج الآلة التي تُسمَّى العود، وأنه أول من ألَّف الألحان، ومن بعده من الحكماء الذين اقتدوا به وبان لهم حقيقة ما وصفه، فصدَّ قومه وتابعوه واتسعوا في فعل ذلك كل بقدر ما اتسع له زمانه، وساعده عليه إمكانه.

فصل

ثم إن لكل صوت صفة روحانية تختص به خلاف صوت آخر؛ فإن الهواء مِن شرف جوهره ولطافة عنصره يحمل كل صوت بهيئته وصيغته ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض، فيفسد هيئاتها إلى أن يبلغها إلى أقصى غاياتها عند القوة السامعة لتؤديها إلى القوة المفكرة، ذلك تقدير العزيز العليم، الذي جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلًا ما تشكرون. فإن قال قائل: ما العلة التي أوجبت للهواء هذه الفضيلة الشريفة والحركة الخفيفة؟ فنقول: لقد سألتَ عن أمر يجب السؤال عنه؛ إذ كان من أكثر الفوائد، فيجب

أن تعلم أن جسم الهواء لطيف شريف، وهو متوسط بين الطرفين، فما هو فوقه ألطف منه وهو النور والضياء، وما دونه أكثف وهو الماء والتراب، ولما كان الهواء أصفى من الماء وألطف وأشرف جوهرًا وأخفَّ حركةً صار النور يَسري فيه ويصبغه بصبغته ويودعه روحانيته؛ لأنه قد قاربه وجانسه بما فيه من اللطافة، ولما كان النور والضياء أصلُه ومبدؤه من أشرف الجواهر الغالية صار له اتصال بالنفوس والأرواح وصارت سارية فيه، وهو المعراج الذي تعرج به الأرواح وتنزل به النفوس إلى عالم الكون والفساد ومجاوَرة الأجساد، ولما كان للهواء هذه الفضيلة صار يحفظ لكل شيء صورته تامة، ويحوطه حتى يُبلغه إلى الحال المقصود به بحسب ما جعله فيه باريه، جلت قدرته، بحكمته ليكون بذلك إتقان الصنعة وأحكام الخلقة؛ فلذلك صارت تدركها بما هي به إذا كانت الحاسَّة سالمة والأداة كاملة.

وهكذا حاسَّة الشم تقبل من الهواء ما يحمله من الروائح، فإنه يحفظها ويتبع الإحاطة بما يعرض من الروائح عن كثير من الأجناس، ثم تؤديها إلى حاسَّة الشم فتخبرها عن كل رائحة بما هي به وعما فاحت عنه؛ ولذلك قيل عالَم الأرواح روح وريحان ونغمات وألحان. وكذلك النور يحفظ الألوان على الأجسام ولا يخلط بعضها ببعض، وتدركها القوة بما هي به إذا كانت الحاسَّة سالمة، ثم إنه متى حدث ببعض الحواس حادثٌ أوجب تغيُّر إدراك الحاسَّة، فليس ذلك لفساد في الهواء والضياء، ولكن لفساد المزاج واضطراب البنية، فإذا كانت الحاسَّة سالمة وجاءتها الأشياء بخلاف ما تعْهَد فليس ذلك لفساد فيها، لكن للحادث الذي حدث في الهواء والضياء؛ وذلك أن الهواء يتغير ويتكدر، والضياء يظلم؛ ولذلك صار البصر لا يدرِك بعدَ مغيبِ الشمس ما كان يدركه وقت طلوعها، وكذلك السمع لا يدرك من الأصوات في وقت هيجان الريح وحركة الهواء ما كان يدرك من ذلك في وقت سكون الهواء وهدوء الرياح.

فصل

ثم إن ما دون فلك القمر لطيف وكثيف يجرى عليه التغير والاستحالة؛ وذلك أن النار تستحيل فتصير هواءً، والهواء يستحيل فيصير ترابًا، والتراب يستحيل فيصير ماءً، والماء يستحيل فيصير هواءً، والهواء يستحيل فيصير نورًا؛ فالنار صار أولها يتصل بالهواء وآخرها يتصل بالنور، وأول طرف الهواء متصل بالماء وآخره متصل بالنار، وأول الماء

متصل بالتراب وآخره متصل بالهواء؛ فمن جهة طرفه الأعلى يتصل بما فوقه، وبطرفه الأدنى يتصل بما دونه ويستحيل إليه.

فانظر يا أخي كيف أوجبت الحكمةُ التغييرَ والاستحالة والزوال والانتقال من حال إلى حال في الموجودات الطبيعية، والعلة في ذلك هو جزاء النفوس بما كسبت وعقوبتها بما جَنَت؛ لأن عالَم الأرواح لا تغيُّر فيه ولا تبديل ولا زوال ولا انتقال.

ثم اعلم أن كيفية إدراك الحاسَّة السامعة بجميع أصوات ما في العالم من الإنس وسائر الحيوان والنبات والرياح والأشجار، وما شاكل ذلك من كل شيء له صوت وحركة ينقسم عددها إلى ثلاثة أقسام؛ أحدها حي، والآخر ميت، والثالث لا حي ولا ميت؛ وكلام الإنسان وصوت الحيوان حي ذو حركات نفسانية، وصوت الحجر والخشب والحديد والنحاس وما شاكلها ميت، والقسم الثالث لا حي ولا ميت مثل صوت الهواء إذا تدافَع وصدم بعضه بعضًا وحدث منه الصفير والزمير، وصوت تدافُع الماء في التلاليع وأمواج البحار وجريان الأنهار وصوت زفير النار، فإن هذه لا يقال لها حية كما يقال للإنسان والحيوان إنه حي ذو حركة يَقصِد لغرض يناله بحركته، ولا يقال إنها ميتة كموت الحجر والخشب؛ لأنها متحركة بالاتفاق لا بالقصد، ولأنها تقوِّي مرة حركة الهواء ومرة تسكنها، وكذلك الماء والنار، ثم يجمع هذه الأصوات كلها شيء واحد وهو هيولاها ولولاها لما كانت.

فأما كيفية الأصوات التي تَعلَّم الإنسان أنها صدرت عن أجسام حية، فهو أن يكون وصولها إلى حاسَّة سمعه بسرعة وخفة، ويجد لنفسه التي تفهمها وتقبلها سرعة الإخبار عنها بما هي به، بخلاف تلك الأصوات الصادرة عن الأجسام المائية التي لا يوصَل إليها إلا بالفكرة والرويَّة.

وأيضًا فإن الإنسان يأنس بالأصوات الحية إذا كان في فلوات بعيدة في موضع منقطع عن العمران فيستوحش، فإذا سمع نباح كلب أو صوت إنسان استأنس وقَوِيَت نفسه وعلم أنه بقرب عمران، وبخلاف ذلك إذا سمع صوت الوحش يخاف منه على نفسه، وأيضًا صوت هبوب الرياح العواصف وجريان الأودية وأمواج البحار واهتزاز الأشجار ووقْع الأحجار، إذا سمعها الإنسان الفريد الوحيد في المواضع النائية عن الناس استوحش منها غاية الاستيحاش.

ولذلك قيل إن في الفلوات والقفار جبالًا تنقطع وتنكسر وتخر، فيُسمع منها أصوات مرتفعة، فإذا سمع الإنسان ذلك يستوحش ولا يأنس بها.

وقيل أيضًا أن النار والهواء والماء لا يُحكم عليها بموت ولا حياة، وهي وإن كانت مادة للحياة والحركة، فإن ذلك يكون باجتماعها بقوة طبيعية وحركة نفسانية بمشيئة

إلهية، وأما إذا تفرَّدت كلٌّ منها بذاته فلا يقال لها حية ولا ميتة، ولكنْ كلٌّ واحد منها ذات طرفين؛ طرف متصل بالحياة، وطرف متصل بالموت، وهو متوسط بين ذلك؛ فالتراب طرفه الأعلى وما لطف منه متصل بالماء، فهو ذو حياة بما يخرجه ويبرزه من النبات الذي به حياة الحيوان، وطرفه الآخر هو ما كثف منه مثل الجبال والصخور والسباخ، فإنها أموات لا تقبل الماء ولا تحس به، ولا يكون منها نبات ولا ينتفع بها حيوان، والطرف المتصل بالماء يقال له عمران، والذي بعُد مِن الماء يقال له خراب، وهو بالموت أشبه من طرفه العامر.

والماء أيضًا ذو طرفين؛ طرفه الأعلى متصل بالهواء وهو بالحياة أشبه، وطرفه الأدنى متصل بالتراب، والتراب لا حياة فيه ولا حركة له، فالطرف المتصل بالتراب بالموت أشبه، والطرف المتصل بالهواء بالحياة أشبه، والهواء طرفه الأدنى متصل بالماء والماء بالموت أشبه؛ لأن الماء ربما صار جامدًا ثقيلًا، وإذا جمد صار مواتًا، وكانت منه صخور وجماد، وهو بالموت أشبه، وطرفه الأعلى متصل بالنار، والنار بالحياة أشبه.

والنار أيضًا ذات طرفين؛ طرف منها متصل بالهواء، وطرف منها متصل بالنور والضياء؛ وذلك أن النار إذا قدحت خرجت من احتكاك الأجسام بحدوث ذلك القرع في الهواء، وإذا برزت مع الهواء اتصلت بالأجسام النباتية والحيوانية، فأكلتها وأحرقتها وزالت بزوالها واضمحلت باضمحلالها، فيقال خمدت النار وانطفأ السراج، فصار هذا الطرف أشبه بالموت، ولها طرف آخر يطلب العلوَّ أبدًا متصل بالإشراق والنور والضياء، وهذا الطرف لاتصاله بالنور ومشاكلته إياه بالحياة أشبه.

وكذلك آخر المعادن متصل بأول النبات، وآخر النبات متصل بأول الحيوان، وآخر الحيوان متصل بأول عالم الإنسان، وآخر الإنسان متصل بأول مرتبة الملائكة، وكذلك آخر التراب متصل بأول مرتبة الماء، وآخر الماء متصل بأول مرتبة الهواء، وآخر الهواء متصل بأول مرتبة النار، وآخر النار متصل بأول مرتبة الضياء.

كذلك ما حدث من الأصوات يجرى على هذا المثال؛ فصوت الأحجار يشبه أصوات النبات؛ لأن النحاس إذا خلط بالحديد وجمع بينهما كان له طنين كطنين العيدان؛ وذلك أن العود نبات صَنَعه الناس وحركوه، وصارت له نغمة ظاهرة ناطقة معبرة عما في أفكار النفوس.

وكذلك صوت نقرات الأجراس وطنين النحاس، وليس للحجر الغير المعدني مثل ذلك، فالطرف الأعلى من أصوات النبات نغمات العيدان وما شاكلها، وهي لاحقة بأصوات

الحيوان وكلام الإنسان، والطرف الآخر الأدنى المتصل بأصوات الحجارة الموات كصوت الدفِّ ودويِّ الأوتاد في الأرض وما شاكلها.

والطرف الأعلى من أصوات الأحجار المعدنية كما قلنا هو صوت النحاس وما كان له طنين وزمير، وهو اللاحق بأصوات النبات مثل العيدان والطنابير وما شاكل ذلك.

والطرف الأدنى من أصوات الحيوان لاحق بصوت النبات، مثل أصوات البهائم الخرس التي لا يتبين لها صوت يمكن تقطيعه ووزنه مثل النهيق، والحيوانات التي لا أصوات لها لاحقة بالجمادات والموات.

والطرف الأعلى لاحق بكلام الناس مثل كلام الفصحاء من الطيور والهزار داستان والبلبل، وما شاكل ذلك مما حسُن صوته من الحيوان.

والإنسان أيضًا كلامه ذو طرفين؛ طرفه الأدنى متصل بالحيوان مثل الفأفاء والتمتام والأخرس والألثغ وما شاكل ذلك.

والطرف الأعلى منه متصل بمنطق الملائكة، مثل كلمات الفصحاء والبُلَغاء وذوي النغمات والألحان المطربة، مثل نغمات داود عليه السلام والقرَّاء والملحنين في المساجد، وقراءة المزامير مثل أصوات قراءة التوراة في الكنائس والبِيَع، والقرآن في المساجد، والخطباء على المنابر، والرهبان في الصوامع، وما شاكل ذلك. ولكل صوت من هذه الأصوات عند الحاسَّة السامعة كيفية وماهية؛ فماهية صوت الإنسان أنه غرضٌ مفهومٌ دالٌّ على معنًى، فتحتاج القوة المفكرة إلى أن تفكر فيه وتفتش عن معناه. وأصوات الحيوانات غير مفهومة، لكن القوة المفكرة تقضي عليها أنها ما صوتت إلا لحاجة، وما أرادت به إلا سبب أكل وشرب ونكاح، فهذه الأقسام من الصوت مختصة بالأجسام الحية.

فأما صوت الحجارة والخشب، فإن القوة المفكرة لا تقضي عليها بأنها ما بدت لغرض ولا لقصد إلا أن تكون آلية لحركة الإنسان، مثل البوق والزمر والعود وما شاكل ذلك، وأنها تنسبها إلى الحركة التي كانت هي السبب في تصويتها مثل بوق ومزمار وعود وصفار وما شاكل ذلك، وكل هذه أصوات إنسانية أَوْدَعتها النفس الجزئية هذه الأشكال النباتية بالصناعة التي اتخذتها حيلة للمعاش والكسب.

وأما صوت هبوب الرياح والرعد وخرير الماء إذا انحدر من علو إلى أسفل واضطراب موج البحار واهتزاز الأشجار، فإن القوة المفكرة لا تعبأ بذلك ولا تفكر فيه، وإنما تمرُّ على الحاسَّة السامعة شبه الخوار ولا حاجة إليه، وربما ضَجِرَ الإنسان منه وتأذَّى من مداومة سماعه.

وإذ فرغنا من ذكر ماهية الأصوات وكيفية حدوثها وكيف تدركها القوة السامعة، فلنذكر ما بين هذه الحاسَّة وبين ما تدركه هذه الأصوات من المناسبة والمشاكلة والمجانسة والمطابقة.

فصل

فنقول: اعلم أن إدراك الحاسَّة السامعة لصوت الحجر والجواهر المعدنية والجمادات الغير النامية والحية كنمو النبات وخوار الحيوانات، فهذا لِمَا بينها وبين تلك من المناسبات والمجانسات من جهة الجسمية والطبيعة الأرضية؛ وذلك أن جسم الإنسان مائل إلى التراب.

وأما إدراكه أصوات الخشب وكل ما يصوِّت ويتحرك من النبات والأشجار، فلأجْلِ المناسبة بينه وبين ذلك؛ وذلك أن الإنسان يشارك النبات في النمو والزيادة والكبر بعد الصغر.

وأما إدراكه أصوات الحيوان ومعرفته بها وإخباره عنها، فلِمَا بينه وبين الحيوان من المناسبة؛ وذلك أن الإنسان مشارِك للحيوان في الحياة والحس، والنفس الحيوانية جارية بينهم، متصل بعضها ببعض أكثر اتصالًا من النفس النامية بين النبات والحيوان؛ وذلك أن الإنسان يشارك النبات من جهة واحدة وهي النمو فحسب، ويشارك الحيوان من جهات كثيرة؛ وهي النمو والشهوة والأكل والشرب والنكاح والحسِّ والألم واللذة والأمور الحيوانية، والإنسان إنما يتميز عن الحيوان بالنطق والتمييز والقوة العاقلة، وقيل إن لبعض الحيوانات فكرًا وتمييزًا، وهي النحل والنمل.

وأما إدراكه أصوات الهواء والنار فلِمَا بينه وبينها من المناسبة؛ لأنه مهيَّأ منها كما ذكرنا في رسالة الهيولى والصورة.

واعلم يا أخي أنه لولا المناسبة التي بين الحيوان الحي وبين الجمادات الميتة لَمَا كان يدرك من المعرفة بها والإحاطة بخبرها قليلًا ولا كثيرًا، فإن قال قائل: لِمَ لا يعرف الصبي الصغير هذه الأشياء على حقيقتها وبينه وبينها النسبة موجودة؟ قيل: إن ذلك لِعجْز في الهيولى عن القبول لا لغلط من الخالق تعالى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، يخلق ما يشاء كما يشاء بلا اعتراض عليه، ويحكم ما يريد بلا غرض جل جلاله.

(١٢) فصل في اختلاف الأصوات في الصغر والكبر

فنقول: اعلم أن حدوث الأصوات يكون من تصادم الأجسام بعضها ببعض، فنقول: إن كل جسمين تَصادَمَا برفق لا يُسمع لهما صوت؛ لأن الهواء ينسلُّ من بينهما قليلًا قليلًا، فلا يحدث صوتًا، وإنما يحدث الصوت مِن تصادُم الأجسام إذا كانت صدمتها بسرعة، فينضغط الهواء عند ذلك وتتدافع أمواجه وتتموج حركته إلى الجهات الست بسرعة، فيَحدث الصوت ويُسمع كما بيَّنا فيما تقدم، والأجسام الكبار العظام إذا تصادمت يكون اصطدامها أعظم من أصوات ما دونها؛ لأن تموُّج هوائها أكثر. وكل جسمين من جوهر واحد مقدارهما واحد وشكلهما واحد إذا تصادما معًا فإن صوتاهما يكونان متساويين، فإن كان أملس فإن صوتيهما يكونان أملس من السطوح المشتركة، والهواء المشترك بينهما أملس. والأجسام الصلبة المجوفة كالأواني وغيرها والطرجهارات إذا نُقِرَت طَنَّت زمانًا طويلًا؛ لأن الهواء يتردد في جوفها ويصدم في حافاتها ويتموج في أقطارها، وما كان منها أوسع كان صوته أعظم؛ لأن الهواء يتموج فيها ويصدم في مروره مسافة بعيدة. والحيوانات الكبيرة الرئة الطوال الحلاقيم الواسعة المناخر والأشداق، تكون جهيرة الأصوات لأنها تستنشق هواء كثيرًا وترسله بشدة. فقد تَبَيَّن بما ذكرنا أن علة عِظَم الصوت إنما هو بحسب عِظَم الجسم المصوِّت وشدة صدمة الهواء وكثرة تموُّجه في الجهات، وأن أعظم الأصوات صوت الرعد وقد بيَّنا على حدوثه فيما تَقدَّم في رسالة الآثار العلوية. وأما أصوات الرياح وشدة حدوثها فليست شيئًا سوى تموج الهواء شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا وفوقًا وتحتًا، فإذا صدم بحركته وبجريانه الجبال والحيطان والأشجار والنبات وتخللها، حدثت من ذلك فنون الأصوات والدوي والطنين مختلفة الأنواع، كل ذلك بحسب كبر الأجسام المصدومة وصغرها وتجويفها لعلل يطول شرحها.

فأما أصوات المياه في جريانها وحدوثها وتصادمها بالأجسام، فإن الهواء بلطافة جوهره وسريان عنصره يتخللها كلها، ويكون حدوث تلك الأصوات وفنون أنواعها بحسب تلك الأسباب التي ذكرنا في أمر الرياح.

وأما أصوات الحيوانات من ذوات الرئات واختلاف أنواعها وفنون أقسامها بحسب تلك الأقسام والأسباب التي ذكرناها من أمر الرياح، وبحسب طول أعناقها وقصرها، وسعة حلاقيمها وتركيب حناجرها، وشدة استنشاقها للهواء وقوة إرسال أنفاسها من أفواهها ومناخرها، وكل ذلك لأسباب وعلل يطول شرحها.

وأما أصوات الحيوانات التي لا رئة لها، كالزنابير والجراد والصراصر وأشباهها، فإنها تحرِّك الهواء بجناحين لها سرعة خفة، فتَحدث من ذلك أصوات مختلفة كما يحدث من تحريك الأوتار والعيدان، وتكون فنونها متباينة وأنواعها مختلفة وصغرها وكبرها بحسب لطافتها؛ أعني أجنحتها وغلظها وطولها وقصرها وكبرها وصغرها وسرعة تحريكها لها.

وأما الحيوانات الخرس كالسمك والسلاحف وما شاكلها فإنها صمت؛ لأنها ليست لها رئة ولا جناحان فلا يكون لها أصوات.

وأما أصوات الجواهر المعدنية، كالحديد والنحاس والزجاج والحجارة وما شاكلها، فإن اختلاف الأصوات يكون بحسب يبسها وصلابتها وكمية مقاديرها من الصغر والكبر والطول والقصر والسعة والضيق.

وأما أصوات النبات فبحسب صلابتها ورخاوتها وما يتخذ منها بالصناعة من الآلات المصنوعة كما قدمنا ذكره. وكذلك حال ما يتخذ منها لمثل ذلك من الجواهر المعدنية، واختلافها في الأصوات والطنين، وما يبدو عنها من أنواع النغمات والأصوات كصوت الطبل والبوق والدف والسرناي والزمر، فهو يختلف بحسب أشكالها، فإن كل صوت إنما يبدو مناسبًا للجسم الذي يكون منه، وبحسب صفاء جوهره، وكدره الذي يكون متخذًا منه، وكبر أجسامه وصغرها، وطولها وقصرها، وسعة أجوافها وضيق ثقبها، ودقة أوتارها وغلظها، وبحسب تحريك المحرك لها والمصوت بها.

ومنها وسائط بين الإنسان والهواء في التصويت، مثل البوق والزمر والصفارة وجميع ما يجعله الإنسان في فيه ويرسل فيه الهواء من جوفه بقوة أنفاسه.

ومنها الوسائط بين الآلة والصوت من حركة الإنسان كصوت الطبل ونقرة الدف وما أشبه ذلك؛ فما يكون من هذه الآلة مصوتًا بالفم، فإنه يكوم ممتدًا مستطيلًا مجتمع الأجزاء لا سكون فيه إلا أن يسكن الصوت مرة واحدة.

وأما الأصوات بحركة اليدين فإن بين أجزائها سكونات ودقة في أثر دقة، ونقرة تعقب نقرة، كما بيَّنا في رسالة الموسيقى. وهذه الأصوات — أعني صوت الزمر والبوق — تشبه أصوات الأحجار والمعادن، إذا نقره المحرك كان له دوي وطنين يمكث في الهواء ممتدًا لا ينقطع إلى أن يسكن، لا تقطيع فيه من أصوات الحيوانات مثل أصوات الزنابير وما شاكلها.

فأما أصوات ذوات الأوتار وما يستعمل منها في أنواع الأغاني بحركات اليدين موازية لحركة اللسان والإيقاع، مستوي اللحن، صحيح الوزن، وما كان بخلاف ذلك

كان مناسبًا لأصوات الطيور الثقال الطبع، كالإوز وما جانسها وككلام الثقيل الكلام من الناس؛ ويكون ذلك لفساد الحركة وبُعدها من النسبة الفاضلة، كما عجزت هيولى الإنسان عن قبول ما جعل فيها وعجزها بإظهارها إياه من القوة إلى الفعل، وكان ذلك عجزًا من المصنوع لا من الصانع؛ كما أن صانع العود إذا أحكم صنعته وشد أوتاره وأصلح مضاربه وأخذه مَن لا يعرف الصناعة ولا يُحسن العمل به فنقره، فإنه لا يأتي من تصويته مثل ما يأتي به العارف بعلمه وصنعته، ولا ينسب ذلك إلى فساد في الآلة وإلى فساد من الصانع، وإنما ينسب إلى عجز المحرك.

فإذا رأيت آلة العود مفردة، والأوتار مقطعة، وحركة الحاذق بالصناعة لم تساعده على ما يريد بإظهار صناعته؛ فليس ذلك منسوبًا إلى عجزه فيه، ولكن إلى عجز الآلة ونقصانها عن التمام، فمن كلا الوجهين الصانع بريء من العجز إذا كانت صنعة الأشياء على النسبة الفاضلة، وقصده في صنعته الإتقان والإحكام.

وإنما حدث النقص والفساد من جهة الهيولى، كما أن المعلم إنما غرضه أن يعلم تلميذه ما يحسنه حتى يكون حاذقًا فيه فيكون مثله وحافظًا لعلمه، فإذا لم يقبل المتعلم منه وأخذ ألفاظًا مستوية فأحالها عن وجهها، فليس ذلك منسوبًا إلى المعلِّم، لكنْ إلى عجز المتعلم عن البلوغ إلى ما لا يعلمه الأستاذ دفعة واحدة لا بالتدريج ليعرف الشيء بعد الشيء.

(١٣) فصل في السكون والحركة

فنقول: اعلم أن الحركة هي النقلة من مكان إلى مكان في زمان ثانٍ، وضدها السكون وهو الوقوف والثبات في مكان واحد بين زمانين، والحركة تكون سريعة وبطيئة؛ فالسريعة هي التي يقطع المتحرك بها مسافة طويلة في زمان قصير، والبطيئة هي التي يقطع المتحرك بها مسافة قصيرة في زمان طويل، وعلى هذا المثال تعتبر الحركات والمتحركات.

ثم اعلم أن الحركات تنقسم من جهة الكيفية إلى ثمانية أنواع، كل نوعين منها متقابلان من جنس المضاف؛ فمنها الكبير والصغير، والسريع والبطيء، والدقيق والغليظ، والثقيل والخفيف.

فأما الكبير والصغير من الأصوات فإن المثال فيها أصوات الطبول الكبار والصغار.

وذلك أن أصوات طبول المَواكب إذا أضيفت إلى أصوات اللهو كانت كبيرة، وإذا أضيفت إلى أصوات طبول الكوس كانت صغيرة، وإذا أضيف صوت طبول الكوس إلى صوت الرعد كان صغيرًا.

وعلى هذا المثال تعتبر الأصوات في الصغر والكبر بإضافة بعضها إلى بعض، وهي التي تكون أزمان السكونات ما بين نقراتها وحركاتها صغيرة بالإضافة إلى غيرها.

والمثال على ذلك أصوات مداق القصارين ومطارق الحدادين فإنها سريعة بالإضافة إلى أصوات مداق الرزازين والحصاصين، فهذه بطيئة بالإضافة إليها، وأما بالإضافة إلى أصوات مجاذيف الملاحين فهي سريعة.

وعلى هذا المثال تعتبر سرعة الأصوات وبطؤها بإضافة بعضها إلى بعض.

وأما الدقيق والغليظ من الأصوات فبإضافة بعضها إلى بعض كأصوات نغمة الزير بإضافتها إلى نغمة اليم، ونغمة المثنى إلى المثلث.

وأما بالعكس فإن صوت اليم بالإضافة إلى المثلث غليظ، وكذلك المثلث إلى المثنى، والمثنى إلى الزير.

ومن وجه آخر فإن صوت كل وتر على غليظ بالإضافة إلى ما دونه أي وتر كان، فعلى هذا القياس تعتبر حدة الصوت وغلظها بإضافة بعضها إلى بعض.

وأما الجهير الخفيف من الأصوات فبحسب قوة الحركة وضعفها.

والمثال في ذلك صوت العليل السقيم بالقياس إلى صوت الصحيح المعافى وصوت العليل إلى من هو أضعف منه وأسقم حتى يكون أجهر الأصوات من الناس ما كان في غاية الصحة وسلامة الحواس واستواء الآلة، وأخفاهن ما كان في الغاية بخلاف هذه الصفة لما به من ضعف القوة وقلة الحركة وفساد الجملة وغير ذلك.

(١٤) فصل في معرفة قسمة الأصوات من جهة الكمية

فنقول: الأصوات من جهة الكمية نوعان: متصلة ومنفصلة؛ فالمنفصلة هي التي بين أزمان حركاتها في النقرات زمان سكون محسوس، مثل نقرات الأوتار وإيقاع القضبان.

وأما المتصلة من الأصوات مثل أصوات المزامير والنايات والدواليب ونحو ذلك كما ذكرنا في فصل قبل هذا. والأصوات المنفصلة تنقسم نوعان: حادة وغليظة؛ فما كان من

النايات والمزامير أوسع تجويفًا وثقبًا كان صوته أغلظ، وما كان أضيق تجويفًا كان صوته أحدَّ.

ومن جهة أخرى أيضًا ما كان من الثقب إلى موضع النفخ أقرب كانت نغمته أحدَّ، وما كان أبعد كان أغلظ.

وهكذا تنقسم الأصوات المتصلة أيضًا على هذا المثال غليظة وحادة، وقد بيَّنا في رسالة الموسيقى ذلك.

وأما معرفة طبائع الأصوات وائتلافها واختلافها بحسب ما نبين ها هنا، فنقول: إن الأصوات الحادة والغليظة يتضادان، فإذا جمع بينهما على نسبة تأليفية ائتلفت وامتزجت واتَّحدت، وصارت كلامًا موزونًا ونظمًا مؤتلفًا، فعند ذلك يستلذه السامع وتُسرُّ به الأرواح وتأنس به النفوس.

وإذا كانت على غير هذه النسبة تنافرت وتباينت ولم تأتلف ولم يستلذها السامع، بل ينفر منها ويشمئز. والأصوات الغليظة باردة وهي رطبة، وتنقسم قسمين: ضارة ونافعة.

فأما الضار فهو الذي إذا وَرَدَ على السامع يعوقه، وهي الأصوات الخارجة عن الاعتدال.

وقد استعمل الحكماء اليونانيون آلةً لذلك كانوا يستعملونها عند ملاقاة الأعداء؛ وهي صوت بلا زعيق. والأصوات المعتدلة المناسبة تعدل مزاج الأخلاط الحارة والكيموسات اليابسة فهذه تابعة لها.

والأصوات الغليظة التي يحدث منها فساد المزاج باردة يابسة؛ لأنه ربما جاء منها ماء يُميت الحيوانات الصغار مثل فراخ الطيور والأطفال من الصبيان، والأصوات المناسبة باردة رطبة، والأصوات الحادة حارة، فما كان منها على غير النسبة المعتدلة أفسد المزاج وأحرق الطبيعة، وما كان منها على النسبة الفاضلة والاعتدال أصلح المزاج ولطَّف البرودة؛ فالقسم الأول حار يابس، والقسم الثاني حار ليِّن.

وقد اتخذ الحكماء لهذه الأصوات ميزانًا يعرفون به طبائعها على النسبة الفاضلة بحد الاعتدال، وهي الآلة التي تسمى العود، وقد ذكرنا كيفية بِنْيَته والعمل به في رسالة الموسيقى.

(١٥) فصل في معرفة الأصوات من جهة طبيعة الإنسان والحيوانات واختلافهم فيها

فنقول: اعلم أن أمزجة الأبدان كثيرة الفنون، وطبائع الحيوانات كثيرة الأنواع، ولكل مزاج وطبيعة نغمة مشاكلة ولحن ملائم لها، لا يحصي عددها إلا الله تعالى، والدليل على ذلك أنك إذا تأملتَ وجدتَ لكل أمة من الناس ألحانًا ونغماتٍ وأصواتًا يستلذونها ويفرحون بها، لا يستلذها غيرهم ولا يُسرُّ بها سواهم؛ وذلك لاختلاف لغاتهم وتباين أمزجتهم وطباعهم وما جرت به العادات والأخلاق، وهكذا يجري في أصحاب لغة واحدة؛ أقوام يستلذون ألحانًا ونغمات وأصواتًا لا يستلذها غيرهم من لغتهم، وهكذا ربما تجد إنسانًا واحدًا يستلذ وقتًا لحنًا ما ويعافُّه وقتًا آخر.

وهكذا تجد حكمهم في مأكولاتهم ومشروباتهم ومسموعاتهم وملبوساتهم وسائر الأنواع من الملاذِّ والزينة؛ كل ذلك بحسب تغيير أمزجتهم واختلاف طبائعهم وما جرت به عاداتهم وما تولاهم من الأسباب الفلكية والأحكام السماوية في أوقات مواليدهم ومساقط نُطَفهم.

وكذلك تجد الحيوانات ربما استلذَّت بعض الأصوات وأنست بها، وجاءت إلى المواضع التي تكون فيها، فإن بعض صيادي الطيور ومتخذي آلة الصفير يصفرون ويحاكون بها صوتًا لبعض أجناس الطيور، فتجتمع إليه وتدور حوله فربما تقع في شباكهم.

وكذلك ما يستعمله الجمَّالون من الحداء والنغمات التي إذا سمعتْها الجِمال في ظلمة الليل أنست بها ونشطت للسير والمشي وخفت عليها الأثقال، ويستعمل مثل ذلك رعاة الأغنام والمواشي والخيل عند ورودها الماء أنواع الصفير، ويستعملون غناءً آخر عند حلب ألبانها، وكل ذلك بحسب مناسبات تقع في الطباع واتفاقات في المواليد والأصوات الحسان المعتدلة، تستلذها مسامع الحيوان وتأنس بها الأرواح وتسكن إليها النفوس. والأصوات الخارجة عن الاعتدال عند الحيوانات كلها بالعكس من ذلك وكل جنس من أجناس الحيوان، فإنما يأنس ويُسرُّ بما كان من نغمات جنسه ويجتمع به ويَألفه بحسب ما جرت عادته وأَلِفت طباعه، وينفر من صوت آخر يكون من جنس غيره ولم تَجْرِ عادته سماعه ولا أَلِفتْه، وكذلك جميع الأمم من أصناف الناس.

وإذ قد فرغنا من ذكر اختلاف الأصوات وبيانها وصفاتها وحركاتها، والمنفصل منها والمتصل، والفرق بين أصوات الحيوان وكلام الإنسان وأصوات الأشجار والمعادن، وكيفية أصواتها ومصوتاتها، وما يكون منها بالقصد الأول وغير القصد، وأصوات النار والهواء

والماء، والحركات الصغار والكبار، الخفيف والجهير، وطبائعها ومضارِّها ومنافعها، وكيفية حمل الهواء لها وقبول الحاسَّة السامعة لها، وكيفية اختصاصها بها دون سائر المحسوسات، وما بين الإنسان والأصوات في إدراكه لها من الوسائط والمناسبات، وذكر علل هذه الأشياء ومعلولاتها وجواهرها وأعراضها وبدايتها في الأصوال، وكونها في شكل واحد فيما علا، ووجودها في أشكال كثيرة فيما دنا، واتفاقها في الأصوات، واختلافها في الفروع، وتشكُّلها بأشكال الأجسام البادية عنها، والآلة المتخذة لها والحاجة الداعية إليها، والمعاني الموضوعة عليها والحقائق المضمنة بها، وما منها مفهوم لا يحتاج سامعه إلى مَن يعرفه لوضوحه وتمامه، وما يحتاج السامع إلى مَن يُفهمه إياه لانغلاقه وكتمانه.

وإذ قد أتينا على كثير مما يحتاج إليه في هذا الباب، فلْنذكر الآن اختلاف اللغات من جهة الحروف والكتابات، وكيف كان مبدؤها، ومن أين كان منشؤها، والعلة في اختلافها وأوزانها، وانفراد كل أمة بشكلٍ منها عمَّن سواها، وبلغة عن غيرها، ونوضح ذلك إيضاحًا يكون لك به الاطلاع على ما أردتَ منه وسألتَ عنه.

(١٦) فصل في معرفة بداية الحروف

فنقول: اعلم أن الله تعالى لَمَّا خلق آدم عليه السلام — الذي هو أبو البشر ومَبدؤه — جعله ناطقًا متكلمًا فصيحًا مميَّزًا بالقوة الناطقة والروح الشريفة والقوة العاقلة القدسية، وجعل صورته أحسن الصور، وشكله أفضل الأشكال، وطبيعته أصفى الطبائع الأرضية، ومزاجه أعدل الأمزجة مما هو خارج عنه، وجعله سيد الحيوانات كلها ومليكًا عليها وأميرًا ورئيسًا فيها، وملَّكه إياها وألزمها طاعته والسجود له طوعًا وكرهًا كما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فلما جعله بهذا المثال فليس من الحكمة أن يكون صامتًا كالجماد ولا سكوتًا كالحيوان الذي لا ينطق، بل قائمًا ناطقًا متكلمًا معلمًا مفهمًا عاقلًا حكيمًا؛ لأنه سبحانه وتعالى نَفخ فيه من روح قدسه، وأيده بكلمته، وعلَّمه الأسماء كلها وصفات الأشياء كلها، وجعل له العقل العاقل لها والمحيط بمعرفتها، وأخرج سائر الموجودات من المعادن والنبات والحيوان إليه ليديرها ويسوق إليه منافعها، ويدلها على ما يكون به صلاحها وبقاؤها وتزايدها ونماؤها وسلامتها من الآفات، ويضع كل شيء منها في موضعه ويوفيه قسطه من حفظ النظام وبلوغ التمام، وجَمَعَ له هذه الأشياء كلها صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، في تسع علامات بأشكال مختلفة مسمَّاة بأسماء قد جمعت أسماء جميع الموجودات وانعقدت بها المعاني كلها،

كما اجتمعت أجزاء الحساب كلها والأعداد بأسرها في التسعة الأعداد التي مِن واحد إلى تسعة، وكذلك وجودها في العالم العلوي على هذه النسبة، وهذه الحروف هي التي علَّمها اللهُ سبحانه وتعالى آدمَ عليه السلام، وهي التي يستعملها أهل الهند على هذه الصفة «١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩».

وقد كان بهذه الحروف يَعرف أسماء الأشياء كلها وصفاتها على ما هي عليه وبه موجودة من أشكالها وهيئتها، ولم يَزَلْ كذلك إلى أن كثر أولاده وتكلم بالسريانية وتشكَّل الفلك بشكل أوجب التغير والاستحالة بعد مضي آدم عليه السلام. ولم يكن يكتب في زمانه كتابات أو يخط بقلم، وإنما كان تلقينٌ بألفاظ وكلام يحفظ لقلة العدد، ولأنه ما كان في الأرض من العالم الإنساني أكثر من بيت واحد والكلام بينهم فيما يحتاجون إليه فقط، ولم يكن لهم حديث فيما مضى ولا حاجة بهم إليه ولا بقية من آثار مَن كان قبلهم في كتاب ولا طومار. ولأن كلام الملائكة لا يُكتب في الأجسام الطبيعية، وإنما هيولاها الجواهر النفسانية، وكما أن الناس في هذا الوقت لا يحتاج الرجل منهم هو وأهل بيته أن يكتبوا جميع ما يحتاجون إليه، ولا أن يثبتوا جميع ما في بيوتهم من كتاب يذكرون فيه كل ما عندهم من مأكول ومشروب وما ينتفع به، وإنما حاجتهم إلى علم أسماء ذلك، فهم يعلِّمون ذلك أولادهم حتى يعرفوه ويَنشئوا عليه بأي لفظ كان.

ثم ذهب السلف وبقي الخلف، وافترقوا في الأقاليم وتقطعوا في الأرض وذهبوا في الأطراف، فأوجبت الحكمة الإلهية والعناية الربانية تقييد تلك الأسماء والألفاظ والحروف بصناعة الكتابة، ولولا ذلك لَبَعُد من الخلق ما كان يستعمل السلف التي كانت حاجتهم إليها، ولَمَا كان اللسان يُحيل بينهم وبين ما يحتاجون إليه من ذلك بالكذب. وكانوا لا يَعلمون أخبار من كان معهم في الأرض إذا غابوا عنهم بالمكان لأن الرسول لا يمكنه حفظ جميع ما في قلب مُرسِله.

فلما كان ذلك كذلك أظهر الله تعالى صناعة الكتابة، فزادوا فيها وعرفوها ومهروا فيها وأَلِفُوها واعتادوها، وبعث الله فيهم مِن الأنبياء عليهم السلام وأقام فيهم من الحكماء مَن أظهر فيهم الصنائع، وكثرت بينهم الصنَّاع والمتعلمون والعلماء والأستاذون، وعمرت الأرض وانتقلت أخبار بعضهم إلى بعض، ولم تزل الحروف تزيد ويظهر الشيء بعد الشيء وصناعة الكتابة تتسع وتتفرع، إلى أن كمل عدد الحروف ثمانية وعشرين حرفًا، ثم وقفت على هذا العدد ولم تَزِدْ على ذلك.

وذلك أن هذا العدد من الأعداد التامة، والأعداد التامة أفضل من الأعداد الزائدة والناقصة؛ وذلك أن هذا العدد عزيز الوجود، وأنه يوجد منها في كل مرتبة من مراتب

الأعداد عدد واحد لا غير؛ كالستة في الآحاد، وثمانية وعشرين في العشرات، وأربعمائة وستة وتسعين في المئات، وثمانية آلاف ومائة وثمانية وعشرين في الألوف، وأيضًا أن هذا العدد يمكن أن يقسم بالسوية مرة أو مرتين. وكانت صناعة الكتابة في اللغة العربية خاتمة الكتابات وتمام عدد الحروف، كما أن شريعة الإسلام آخر الشرائع كلها، ومحمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وأصحاب الشرائع، وعلى شريعته تقوم القيامة.

فصل

ثم اعلم أن الحكيم واضعَ الخط العربي انتفى فيما وضعه من ذلك آثار حكمة الله تعالى وكان حكيمًا فاضلًا، وقيل إن الحكمة هي التشبه بالإله بحسب طاقة البشر، ومعنى هذه الحكمة أن يكون الرجل حكيمًا في مصنوعاته، متحققًا في معلوماته، خبيرًا في أفعاله. فوضع ذلك على موجب الحكمة في العالم لتكون حروف «أ، ب، ت، ث» وهي حروف الجمل مشتملة على كل الأشياء مطابقة للأعداد الموجودات في الأصل وما تتفرع منه، ويحدث عنه مما لا يحصي ذلك إلا الله تعالى.

فمن الموجودات التي عِدتها ثمانية وعشرون في العالم الكبير منازل القمر، فإنها ثمانية وعشرون منزلًا، أربعة عشر فوق الأرض وأربعة عشر تحت الأرض، وهي في موضع اليمين واليسار، منها أربعة عشر في البروج الشمالية وأربعة عشر في الجنوبية من البروج.

وكذلك يوجد في جسم الإنسان أعضاء مشاكلة لهذه العدة؛ لأن اللغة التامة لغة العرب، والكلام الفصيح كلام العرب، وما سوى ذلك ناقص، فاللغة العربية في اللغات مثل صورة الإنسان في الحيوان.

ولما كان خروج صورة الإنسان آخِر صور الحيوانية، كذلك كانت اللغة العربية تمام اللغة الإنسانية، وختام صناعة الكتابة، ولم يحدث بعدها شيء ينسخها ولا يغيرها، ولا يزيد عليها ولا ينقصها، وفي كل أمة وبكل إقليم وجزيرة وموضعٍ أهلُ خط وحروف وكتابات وعلامات، يجمعها كلها هذه الثمانية والعشرون حرفًا، ولولا خوف الإطالة لأتينا على ذكر كثير من اللغات وكتابات أهلها وأعداد حروفهم، مثل ما يوجد في اللغة السريانية والعبرانية واليونانية والرومية، وما يتفرع منها ويتكون عنها في سائر الأجناس والأمم من بني آدم.

ثم اعلم أن أصل هذه الحروف كلها والخطط بأجمعها خطابان لا ثالث لهما، ومِن بينهما ومنهما وعنهما تركَّبت هذه الحروف حتى بلغت إلى نهاياتها؛ كحدوث الإنس كلهم من الشخصين اللذين هما آدم وحواء عليهما السلام.

وكذلك العالم بأسره، السموات ومن فيها، والأرض ومن عليها من جوهرين، وهما السابق والتالي أو البسيط والمركب، وهما العقل والنفس، والله تعالى مبدعهما وهو الواحد المنزَّه عن جميع ما حدث منهما، المتعالي بكبريائه عنهما، وذلك من الخط المستقيم الذي هو قطر الدائرة، والخط المقوس الذي هو محيطها، فأول الحروف هو الخط المستقيم الذي هو الألف والثاني الباء، وبإزائه في العالم العلوي السابق وهو العقل والتام هو النفس.

وذلك أن النفس مرتبة تحت العقل، ومن بينهما كان حدوث الأشياء كلها في العالم السفلي، مثل آدم وحواء، فهما الأبوان الذكر والأنثى، والأنثى مرتبة تحت الذكر، ومن بينهما كان العالم.

وكذلك الحيوانات كلها وأشكال النبات لا تخرج عن هذا الحد والشكل، وصورة الإنسان شبه الخط المستقيم، وصورة الحيوانات شبه الخط المقوس، والنبات والحيوان مرتبان تحت الإنسان.

وهكذا عالم الأفلاك وسكان السموات، أشكالها مستقيمة وصورهما كاملة، فهُم الخط المستقيم، وما دون فلك القمر بمنزلة الخط المعوج.

وهكذا يوجد في الأعداد الناشئة من الواحد والاثنين، فالواحد كالخط المستقيم، والاثنان كالمعوج، وهما أصل الأعداد وينبوعها، وعنهما يكون تزايدهما ونماؤها.

فصل

ثم اعلم أن لسان الإنسان إذا كان متحركًا إلى جهة كل حرف من هذه الحروف الثمانية والعشرين يخرجه من تلك الجهة ولا يعدل به إلى غيرها ولا يخلط بعضها ببعض ولا يحيلها عما هي به في اللفظ، فهو لسان صحيح وكلام فصيح من جهة بيان الحروف ووضعها على ما هي به في أي كتابة كانت وبأي لغة اتفقت كان الكلام بها.

وأصح الكتابات وأتمُّها وأحسنها ما كانت على النسبة الفاضلة في وضعها ومقادير حروفها بعضها من بعض.

وقد ذكرنا من هذا الفن طرفًا في رسالة الموسيقى، ويختص بهذا المكان شيء من ذلك بعينه، ليكون دلالة على ما قاله أهل صناعة الكتابة في لغة العرب إذ كانت تمام اللغات.

وليس بنا حاجة في وقتنا إلى كتابةٍ غيرها ولا إلى لغةٍ سواها، غير أنَّا نُحب الإحاطة بجميع العلوم ومعرفة سائر اللغات وتعلُّم سائر أنواع الكتابات.

ولذلك وضعْنا لهُم هذه الرسالة لتكون مهذِّبة لنفوسهم مؤدِّبة لأخلاقهم، وجعلناها مقدمات ومداخل وطرقات إلى سائر المعلومات والمصنوعات من المعقولات والمحسوسات.

ولَمَّا كانت اللغة العربية والكتابة بحروفها التامة يُحتاج إليها في قراءة كتاب الله تعالى، الذي ختم بنزوله كتب الأنبياء عليهم السلام، وذكر فيه ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم، فإنه لا يجب أن يُكتب إلا بأحسن الخطوط وأقومها وأتمها وأكملها، ولا يجب أن يُكتب بالخطوط الناقصة التي ليست بموزونة ولا معتدلة؛ لئلا يتصحف على قارئه ويكثر الخطأ واللحن والزلل فيه عند القراءة.

قال المحرر الحاذق المهندس المستبصر في تصحيح كتابة العربية: ينبغي لمن يريد أن يكون جيِّد الخط صحيح الكتابة أن يجعل له أصلًا يبني عليه خطوطه.

ومثال ذلك أن يبتدئ فيخطَّ الألِف بأي قدر شاء، ويجعل غلظه مناسبًا لطوله، وهو الثمن، ويجعل طوله قطر دائرة ما، ثم يبني سائر الحروف مناسبًا لطول الألف، ويلحظ تلك الدائرة التي الألِف مناسب لقطرها، فيجعل الباء وأختيها كل واحدة طولًا ما، ولطول الألف ورءوسها إلى فوق ثمن طولها، مثل هذا «أ، ب، ت، ث».

ويجعل الجيم وأختيها كل واحدة مدتها مِن فوق نصف الألف، وتقويسه إلى أسفل نصف محيط الدائرة التي الألف مناسب لقطرها، مثل هذا «ج، ح، خ».

ثم يجعل الدال والذال كل واحدة منها ربع محيط الدائرة مقوسًا، مثل هذا «د ذ».

ثم يجعل الراء والزاي كل واحدة ربع تقويس الدائرة، مثل هذا «ر ز».

ثم يجعل السين والشين رأس كل واحد إلى فوق ثمن الألِف، ومدتها إلى أسفل نصف محيط الدائرة المقدم ذكرها، مثل هذا «س ش».

ويجعل الصاد والضاد طول كل واحد إلى فوق ثمن الألف، ومدتها إلى أسفل نصف محيط الدائرة المقدم ذكرها، مثل هذا «ص ض».

ويجعل الطاء والظاء كل واحدة مدتها إلى فوق بطول الألف، وفتحتها مثل ثمن الألف، ورءوسهما إلى فوق بطول الألف، مثل هذا «ط ظ».

ويجعل العين والغين كل واحدة تقويسة ربع الدائرة المذكورة، ومدته إلى خلف نصف الدائرة، مثل هذا «ع غ».

وعلى هذا المثال باقي الحروف، فاجعل هذا دستورك في الكتابة.

(١٧) فصل في أن الكلام صنعة منطقية

فنقول: إن المصنوعات كلها محكمة متقنة بمقتضى الحكمة، ومنها صنعة الكلام والأقاويل.

وذلك أن أحكم الكلام ما كان أَبْينه وأَبْلغه، وأَتْقن البلاغة ما كان أَفْصحها، وأَحْسن الفصاحة ما كان موزونًا متَّفقًا، وأصح الموزونات من الأشعار ما كان غير منزحف، والمزحف من الأشعار هو الذي حروفه السواكن متحركة، والمتحركة ساكنة، والمستوي ما كان متفق التأليف.

والمثال في ذلك الطويل والمديد والبسيط، فإنها مركبة من ثمانية مقاطع كما ذكره العروضيون، فالطويل:

فعولن مفاعيلن　　فعولن مفاعيلن

وكهذا المصرعُ الثاني، وهذه الثمانية الأجزاء مركبة من اثني عشر سببًا وثمانية أوتاد، وجملتها ثمانية وأربعون حرفًا؛ عشرون منها سواكن وثمانية وعشرون متحركات.

والمصراع منه أربعة وعشرون حرفًا؛ عشرة سواكن وأربعة عشر متحركات، ونصف المصراع الذي هو ربع البيت اثنا عشر حرفًا؛ خمسة منها سواكن وسبعة متحركات، ونسبة سواكن حروف ربعها إلى متحركاتها كنسبة سواكن نصفها إلى متحركاتها، ونسبة سواكن نصفها إلى متحركاتها كنسبة سواكن حروفها كلها إلى متحركاتها كلها.

وهكذا تجد حكم الوافر والكامل؛ فإن كل واحد منها مركَّب من ستة مقاطع، وهي هذه:

مفاعلتن مفاعلتن

متفاعلن متفاعلن

ست مرات، فنسبة سواكن نصف حروفه إلى متحركاته كنسبة حروفه كلها السواكن إلى متحركاته كلها، وعلى هذا المثال يوجد كل بيت من الشعر إذا سلم من الزحف، منصفًا كان أو مربعًا أو مسدسًا، وكذلك حكم الأزمان التي بينها.

وقد وضعت لها دوائر وعلامات لِتُبين ذلك للناظرين فيها والمتأملين لها في كتب العروض، فأستدل بهذه المقدمة على ما وصفتُه لك فنقول:

اعلم أن الوقوف على ما تضمنتْه هذه الصناعة الكلامية والألفاظ المنطقية يكون بها انتباه للنفوس الساهية والأرواح اللاهية الغريقة في بحر الهيولى وأسْر الطبيعة وقيد الألف والعادة.

ومن أمثال ذلك أيضًا صناعة الكتابة التي هي أشْرَف الصناعات، وبها يفتخر الوزراء وأهل الأدب في مجالس الملوك والرؤساء، مع كثرة أنواعها وفنون فروعها، وما اختلف فيه الأمم من اللغات وأشكال الكتابات وفنون التأليفات مثل ما لأهل الهند، وهي الحروف التي أُخرجت مع آدم عليه السلام من الجنة، وبها يعرف أسماء جميع الموجودات.

وأما كون عدد حروفها تسعة، حسب ما بيَّنا ورسمنا قبل هذا، وذلك لمناسبة الأفلاك التسعة الحاوية لجميع الموجودات بأسرها، ثم تفرعت بعد ذلك واختص بها أهل الهند دون سواهم من الأمم؛ لأن آدم عليه السلام كان هناك لمَّا هبط من الجنة.

والسريانية لغة ولها حروف وكتابة وصناعة ونسبة تجتمع عليها الحروف، ولها أسماء تختص بها موافِقة للغتهم، وهكذا أيضًا للرومية لغةٌ وكتابة أخرى بشكل موافق لكلامهم ولسانهم، وهكذا لليونانيين ولأهل فارس وغيرهم من الأمم أجناسٌ من اللغات وفنون من العبارات، ولكن أصل الحروف كلها في أي لغة كانت وبأي نقش صوِّرت، وإن كثرت وتنوعت، هو الخط المستقيم الذي هو قطر الدائرة، والخط المقوس الذي هو محيط الدائرة، كما ذكرنا قبلًا.

وأما سائر الحروف، فمركَّبة منها، ولو تأملتَ عند انفكاك الحروف العربية وجدتَ بعضها خطًّا مستقيمًا كالألف، وبعضها مدوَّرًا كالقاف والميم، وبعضها مقوسًا كالحاء والخاء، وعلى هذا المثال توجد كتابات سائر الأمم الذين ذكرناهم وغيرهم ممن لم نذكرهم، وقد استغنينا بذكر الأصل والمشهور المعروف عند الجمهور عن ذكر مَن سواهم لطول الشرح.

فصل

ثم اعلم أن صناعة الكتابة ذات طرفين: طرف كأنه البداية وطرف كأنه النهاية؛ فالطرف الأول هو الكلام والنطق بالحروف التسعة التي يستعملها أهل الهند إلى وقتنا هذا، والطرف الآخر الذي هو النهاية، فهي الحروف الثمانية والعشرون التي هي حروف اللغة العربية، وما سوى ذلك فهو بين هذين الطرفين.

وإنما مَثل الحروف كمثل شجرة نبتت وتفرعت وتفرقت فروعها وكثرت أوراقها وثمارها وتقسمها الأقوام، فأخذ كل قوم بحسب ما اتفق لهم في أصول مواليدهم، وبحسب اجتهاد رئيسهم وما أعمل فيه فكرته وأنتجته قريحته وأوجبته رؤيته، بتأييد ربه تعالى وإلهامه، فيأخذ صور هذه الحروف فيلقي عليها أسماءً مِن ذاته، فإن كان حكيمًا فبتأييد الله له وإلهامه، وإن كان نبيًّا مرسلًا كان بوحي الله إليه وكلامِه من وراء حجابِ عظمتِه، أو بوحيه على ألسنة ملائكته، ويقيدها بصورة أخرى من الكتابة، وينطق بلغة أخرى غير اللغة الأولى، وينسخ الأسماء من اللغة الأولى إلى اللغة الثانية.

فإذا تم ذلك له ونطق به وأكمل الصناعة النطقية وقيدها بحروف الكتابة، وضم الأشكال إلى أشكالها والخطوط إلى أمثالها، ثم عرفها أقرب الناس إليه وأكرمهم لديه، فيصطلح عليها هو وأهل بيته وعشيرته، ثم أهل مدينته، وبعد ذلك أهل بقعته، ثم أهل إقليمه، ثم تنتشر في العالم وينشأ عليها الصغير ويأنس بها الكبير من تلك الأمة، وينقل الشريعة والملة من اللغة الأولى إلى الثانية، ويجدد الأحكام والأوامر والنواهي والصلاة وأحكام الشريعة إلى تلك اللغة التي نطق بها والأمة التي أرسل إليها.

وكل حكيم من الحكماء أو ملك من الملوك إذا أراد نقل علم أو حكمة أو دين أو شريعة من لغة إلى لغة أو من أمة إلى أمة، فإنه يتهيأ ذلك له بتوفيق الله تعالى وموجب مولده وسعادته، حتى يتمكن من ذلك ويَقْدر عليه، مثل ما فعل سليمان عليه السلام لما آتاه الله الملك وجعل له القوة والقدرة كيف نقل العلوم والحكمة من جميع اللغات، حين قهر ملوكها وذلل رؤساءها، إلى اللغة العبرانية.

وكذلك فعل ملك الروم، فإنه لما غلب اليونان وقهرهم نقل علومهم وحِكَمهم من اللغة اليونانية إلى اللغة الرومية.

وكذلك فعل ملوك يونان بمن غلبوا عليهم؛ فلذلك اختلفت اللغات وتباينت الآراء والديانات، وكان ذلك لعلل وأسباب يطول شرحها، وكل ذلك بأمور فلكية وأحكام سماوية ومشيئة إلهية، ذلك تقدير العزيز العليم.

فصل

ثم اعلم أن لكل أهل ملة وشريعة كتابًا بأمر ونهي وحلال وحرام، وقضايا وأحكام وصناعة من الكلام والكتابة والألحان والنغمات، وفيهم مَن هو عارف بكلية ذلك، ومنهم دونه في المعرفة، ومنهم مَن قد عدم صناعة الكتابة إلا أنه عارف بالأسماء والمسميات، وينطق بحروف الأسماء ولا يعرف صورها ولا يحسن أن يخطها بيده، ولا أن يؤلف بينها بنظره ويأخذ جميع ما يلقى إليه تلقينًا، وربما تجده جيد الخط قليل المعرفة ولا يُحسن سوى الخط المسطور من غير تصوُّر ويكون منفعة ذلك لغيره لا له.

ومنهم من يكون جيد المعرفة قليل النسيان، فغرضه أن يعرف الأشياء التي يحتاج إليها مخافة أن ينساها، ويستظهر منها ما تدعو حاجته إليه، وكذلك كان آدم عليه السلام في البداية بهذه الصفة؛ يحفظ أسماء الحروف ويتكلم باللفظ وينطق بالمعنى ويدل عليه، ولم يخطَّ بيده بقلم ما شاء الله، بقي على ذلك إلى أن أظهر الله تعالى صناعة الكتابة، في الوقت الذي قدَّره والزمان الذي يسَّره، والخلق لا تدري بصناعة الكتابة لطفًا منه بخلقه ورأفة بعباده.

واعلم بأن لهم من الحاجة إلى ذلك ما لا غنَى عنه ولا بُدَّ لهم منه، فصار يحدث في وقت كل قران وبموجب كل زمان نوع من أنواع الكتابات، وجنس من أجناس اللغات والخطوط والعبارات، ويحدث في ذلك من كل أمة وكل لغة أنواع الكلام والنظم والألحان والنغمات، وأشياء كثيرة لا يحصيها إلا الله عز وجل.

ثم اعلم أنه قيل إن أول من نطق باللغة العربية كان يعرب بن سام، ثم لم تزل تتسع مع الزمان وتتزايد على كثرة العرب وانتشارهم في الأرض، بحسب اتفاقات تقع لهم في مواليدهم وبقاعهم وأمزجتهم وطباعهم وأبدانهم وأهويتهم، حتى صارت أنواعًا كثيرة، وصار لكل قبيلة من قبائل العرب لغة يُعرفون بها وكلام يُنسب إليهم، ويتميزون به عن غيرهم، واختلفوا في أسماء الأشياء حتى صار الشيء الواحد من الموجودات له في لغة العرب أسماءٌ كثيرة يُعرف بها ويشار إليه بها كلها؛ ولذلك صار علم اللغة العربية من العلوم الكبار، وصار الناس من الحاجة إليه بحيث لا يسعهم ترْكه، بل يجب عليهم علمه ولا ينبغي الجهل بشيء منه، وذلك من حكمة البارئ تعالى أنه خلق الموجودات وألقى عليها الأسماء والصفات، وجعل لها في كل طائفة وفي كل لغة أسماءً تعرف بها ويشار بها إليها، خلاف ما في لغة أخرى.

ولو تأملتَ واعتبرتَ لغات العرب لَرأيتَها من العجائب الطريفة والحكمة الشريفة، فانظر كيف اختلفوا في كثير من كلامهم وما هم محتاجون إليه من أسماء مأكولهم

ومشروبهم، وقد جمعتهم لغة واحدة وشريعة واحدة، حتى إن القراء اختلفوا في قراءاتهم وتباينوا في رواياتهم.

وكذلك تجد في اللغات غير اللغة العربية أكثر، والأمر فيها أصعب، وعلى هذا المثال في الآراء والديانات أيضًا، حتى إن كثيرًا من العرب الذين يسكنون البراري البعيدة من العمران مَن يجري في لغته أسماء كثيرة لا يعرفها من باقي العرب أكثرهم، ولا يعرفها العرب الحاضرة إلا بعد البيان والإيضاح، ويحتاج فيه إلى معرفة اشتقاقاتها حتى تتصور له، ثم يسمَّى ذلك الشيء بذلك الاسم؛ كل ذلك لِعلل وأسباب يطول شرحها.

وكذلك اختلفت المذاهب والآراء والديانات والاعتقادات فيما بين أهل دين واحد؛ لافتراقهم في موضوعاتهم، واختلاف لغاتهم وأهوية بلادهم، وتبايُن مواليدهم وتصوُّر رؤسائهم وعلمائهم وأستاذيهم الذين يختلفون فيما بينهم طلبًا لرياسات الدنيا. وقد قيل في المَثَل «خالِفْ تُذْكَرْ»؛ لأنه لو لم يقع بين رؤساء علمائهم الاختلاف لم تكن لهم رياسة وكانوا شرعًا سواء؛ لأن أكثرهم متفقون في الأصول مختلفون في الفروع.

مثاله أنهم مُقرُّون كلهم بتوحيد الله ووصف الباري تعالى بما يليق به من الصفات، ومقرُّون بالنبي المبعوث إليهم متمسكون بالكتاب المنزل من جهة الرسول المرسل إليهم، مقرُّون بإيجاب الشريعة مختلفون في الروايات عنه والمعاني التي وسائطها رجال أخذوها منه، فرواها كلٌّ مَن أخذ بلسانه؛ لأن النبي — صلى الله عليه وآله — من معجزاته وفضله أنه كان يخاطِب كل قوم بما يفهمون به، بحسب ما هم عليه من حيث هم، وبحسب ما يتصورونه في نفوسهم وتدركه عقولهم؛ فلذلك اختلفت الروايات وكثرت مذاهب الديانات، واختلفوا في خليفة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك من أكبر أسباب الخلاف في الأمة إلى حيث انتهينا.

وأيضًا فإن أصحاب الجدل والمناظرات ومَن يطلب المنافسة في الرياسة اخترعوا من أنفسهم في الديانات والشرائع أشياء كثيرة لم يأتِ بها الرسول عليه السلام وما أمر بها، وابتدعوها وقالوا للعوام من الناس هذه سنة الرسول عليه السلام وسيرته، وحسَّنوا ذلك لأنفسهم حتى ظنوا أن ما قد ابتدعوه حقيقة، وأن النبي عليه السلام أَمَرَ به، وأحدثوا في الأحكام والقضايا أشياء كثيرة بآرائهم وقياسهم، وعدلوا بذلك عن كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه السلام، واستكبروا عن أهل الذكر الذين بيْنهم، وقد أمروا أن يسألوهم عما أشكل عليهم، وظنوا بسخافة عقولهم أن الله قد ترك أمر الشريعة وفرائض الديانة ناقصة حتى يحتاج هؤلاء إلى أن يبيِّنوه بآرائهم الفاسدة وقياساتهم الكاذبة واجتهادهم

الباطل، ويخترعوه ويبتدعوه من ذواتهم، وكيف يكون ذلك وهو يقول تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾؟! وإنما فعلوا ذلك طلبًا للرياسة كما بيَّنا آنفًا، وأوقعوا الخلاف والمنازعة في الأمة، فهُم يهدمون الشريعة ويوهمون مَن لا يعلم أنهم ينصرونها.

وبهذه الأسباب تفرقت الأمة وتحزبت ووقعت بينها العداوة والبغضاء أبدًا، وصاروا إلى الفتن والحروب، واستحل بعضهم دماء بعض، فإن اتعظ بعضُ مَن يعرف الحق من العلماء وخاطب رؤساءهم في ذلك وخوَّفهم وأرهبهم من عذابه، عدلوا إلى العوام وقالوا لهم هذا فلان، ويغرون به العوام وينسبون إليه من القول ما لم تأتِ به شريعة ولا قاله عاقل، ولا يتمكن ذلك العالم أن يبين للعوام كيف جرى الأمر في الشريعة، وينبههم على فساد ما هم عليه لما قد غلب عليهم من العصبية التي ألفوها ونشئوا عليها وأخذها خلف عن سلف.

ولما رأى رؤساؤهم ذلك وأن العلماء قد اشمئزوا من العوام، وجعلوا ذلك سوقًا لهم عندهم، وأوهموهم أن ذلك انقطاع منهم عن الحجة والقيام بإيرادها، وأن سكوتهم وتخفِّيهم إنما هو لبطلان ما معهم، وأن الحق ما هو إلا ما اجتمعنا عليه نحن الآن، فلا يزال ذلك دأبهم، والرؤساء الجهال فيهم يتزايدون في كل يوم، واختلافهم يزيد، واحتجاجاتهم ومناظراتهم تكثر، وجدالهم ينتشر، حتى ينسخوا أحكام الشريعة ويغيروا كتاب الله بتفسيرهم له بخلاف ما هو به كما قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، وفي أصل أمرهم قد حولوا الشريعة من حيث لا يشعرون وأوَّلوا أخبار النبي عليه السلام بتأويلات اخترعوها من تلقاء نفوسهم ما أنزل الله بها من سلطان، وقلبوا المعاني وتكلموا بها على ما يريدون مما يقوي رياستهم، ويقبح أهل العلم عند العوام، وذلك دأبهم يتوارثونه ابن عن أب وخلف عن سلف وكابر عن كابر، إلى أن يشاء الله إهلاكهم ويقضي بانقراضهم وفنائهم. ولم يزل هؤلاء الذين هم رؤساء العوام أعداءً للحق في كل بلد وقرية، فكم نبي قتلوه، ووصيٍّ جحدوه، وعالم شردوه! وهم بأفعالهم كانوا السبب في نسخ الشرائع وتجديدها في سالف الدهور، إلى أن يتم ما وعد الله تعالى بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾، و﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

فهذه العلة هي السبب في اختلاف الآراء والمذاهب، وإذا كان كذلك يجب على طالب الحق والراغب في النجاة أن يطلب ما يقرِّبه إلى ربه ويخلصه من بحر الاختلاف والخروج من سجون أهل الخلاف. وما الذي ينبغي له أن يعمل حتى يتخلص من هذه الورطة، وينتبه من هذه الرقدة، ويستيقظ من هذه الغفلة، وينظر في أيام حياته قبل دنو وفاته؟! فإن الأمل مدة ممدودة، وللأعمال أيام معدودة وآجال محدودة، وإنما خُلق الإنسان في الدنيا ليكون متوجهًا إلى ربه تعالى، مستعدًّا لمقابلته بعمله؛ لأنه ينفذ من غير أن يستأذن، فإن كان معه زاد وجده كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ فإنه الزاد، وإن لم يكن معه زاد كان ممَّن يقول: يا ليتنا نُرَدُّ فنعمل غيرَ الذي كُنَّا نعمل، والله تعالى يقول: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، ووبخ قومًا فقال لهم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي صفرًا من الزاد، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، وآيات كثيرة في القرآن تدل على أن الديانات والشرائع ووظائف العبادات إنما جعلها الله طرقات ومسالك يسلكها العبد إلى رحمة خالقه، ويمشي القاصد بها طالبًا لِجنَّته والقرار بجواره.

وإن غفل عن مصالحه وأعرض عن مقاصده وترك طريق الحق وأهله والدين الذي لا اختلاف فيه، وانضم إلى أهل الخلاف والشقاق وإلى طالبي الرياسة من العوام، واستحسن نسق الكلام وزخرف القول ممن يريد العلو والرياسة في دين الله تعالى تشبهًا برسوله الذي أرسله ونبيه الذي بعثه، وهو يوهم الناس أنه ركن من أركان الدين والشريعة، وأنه برأيه وقياسه واجتهاده قد أقام معوجَّها وأبان معجمها، نعوذ بالله من الميل والانضمام إلى هؤلاء، كان ذلك سبب بواره وهلاكه وبُعده عن جوار الله وقربه وقرن بالشياطين أعداء الله كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، فهكذا يكون حاله مع عالمه وغيره، تراه جميع العوام حاله شقية، وكلامه وتهذيبه وألفاظه بعيدة من حيث لا يشعر؛ لأنه إذا حلل بقوله وحرم برأيه فقد عبده كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، فعليك أيها الأخ بأهل العلم ومواظبة الذين هم أهل الذكر من أهل بيت النبوة المنصوبين لنجاة الخلق، فقد قيل: استعينوا في كل صنعة بأهلها.

ثم اعلم بأن أهل الذكر في بعض الوجوه هو العقل الذي يذكِّر النفس ما غاب عنها من أمر عالمها الروحاني ومحلها النوراني، ويحرضها على المتاجر الرابحة ويحثها على الأعمال الصالحة، وأن النفس متى عدلت عنه وخالفته وتركت وصية ربها وما أمر مولاها، وأقبلت على الطبيعة ومالت إلى استحسانها وطلب الرياسة والعلو والتعصب والتعدي، أصابها مثل ما أصاب المُقعَد والأعمى اللذين خالفا وصية صاحب البستان.

حكاية: ذكر فيما يروي من الأمثال أنه ببلاد الهند رجلان أعمى ومقعد اصطحبا في طريق، فعبرا بستانًا فمالا إليه فرآهما صاحب البستان وشاهد فقرهما ومسكنتهما فرحمهما، وقال لهما: ما تقولان في أن أُدخلكما بستاني هذا فتأويا إليه، وتتناولا منه بحسب الحاجة ما يكفيكما مما آتيكما؛ فلا تولعا بالثمار فتفسداها. فقالا: وكيف نؤذيك في بستانك ونحن على ما ترى من الزمانة وسوء الحال؛ أحدنا أعمى والآخر مقعد؟! وأي حيلة لنا في تناول شيء من الثمار وهي على رءوس الأشجار؟! فقال صاحب البستان لهما: ادخلا ذلك المكان وتبوآ مكانًا منه. وأوصى بهما الناطور الموكل بالبستان، وقال له: احفظهما وأحسِن إليهما وأْتِهما من ثمرة هذا البستان ما يكون فيه صلاح شأنهما. فقال: سمعًا وطاعة. ومضى صاحب البستان لشأنه وأقاما على ذلك مدة والناطور يتعهدهما بما فيه كفاية لهما، وأينعت الثمار وكثرت وحسنت، فقال المُقْعَد يومًا للأعمى: ويحك إنك صحيح الرجلين، وإن في هذه الأشجار التي في هذا البستان أنواعًا من الثمرات وأجناسًا من الطيبات، وهذا الناطور لا يحمل إلينا من هذا الجيد شيئًا، فما الحيلة في تناول ذلك؟ فقال الأعمى: قد شوَّقتني إلى ما ذكرتَ، وإنك ترى وتُعاين من هذه الطيبات وأصناف الثمرات، فما الحيلة في ذلك؟ فلم يزالا يفكران ويعملان الروية أن قال المُقْعَد للأعمى: ويحك أنا صحيح العين أرى ما غاب عنك، فاحملني على كتفك لأطوف بك في البستان، فكلما رأيت ثمرة مليحة طيبة قلتُ لك قدمني يمنة ويسرة وتطاول وتقاصر فأقطفها لك، فآكل منها وأطعمك، وما اعتذر وصول يدي إليه أضربه بعصاك إلى أن يقع، فتشيله بيدك أنت، وليكن ذلك إذا غفل الناطور.

فقال الأعمى: نِعم ما رأيت، وأنا أفعل ذلك غدًا. فلما كان الغد ذهب الناطور في حوائجه وأغلق باب البستان، فركب المُقْعَد عنق الأعمى وطاف به البستان، فأفسدا فيه ذلك اليوم ما قدرا عليه ووصل المُقْعَد إليه، ثم رجعا إلى موضعهما ورقدا، فلما جاء الناطور لم يَخْفَ عليه ما حدث في البستان من فساد الثمار وما كان غير عليه منها في أشجار معلومة أراد قطافها ليهديها إلى بعض رؤساء الناحية فلم يجده على الشجرة،

فجاء إليهما وسألهما: هل دخل ذلك البستان أحد في غيبتي؟ فقالا له: ما ندري. فقال الأعمى: ترى حالي إني لا أبصر. وقال المُقْعَد: وأنا كنت نائمًا. فصدقهما الناطور، فلما كان الغد خرج الناطور على الرسم، فقاما وفعلا أقبح من فعلهما الأول، وعاد الناطور ورأى الفساد قد تضاعف عما كان بالأمس، فخاف الملامة من صاحب البستان، وأنه يقول: لعلك تبيع ثماري أوْ لست تحفظها. فقال: كيف أعمل حتى أَعلم من الذي يصيب هذا البستان ومن يفعل ذلك في البستان؟ فلما كان من الغد أوهمهما أنه قد خرج لعادته، واستتر ببعض حيطان البستان، فقاما إلى ما قد عولا عليه من الفساد وارتكاب المحظور، فلما رآهما الناطور علم أن الفساد من جهتهما، وكان رجلًا حليمًا رحيمًا لطيفًا، فتركهما حين رأى ما يعملانه وقبيح ما يصنعانه إلى أن عادا إلى مكانهما، فأقبل عليهما وقال لهما: ويحكما! ما الذي استحق به صاحب البستان ما فعلتماه من هذا العبث والفساد في البستان؟! فبُهِتَا، فقال الناطور: إني نظرت إليكما وقد قمتَ أيها المُقْعَد في كتف عنق الأعمى ومشى بك تحت الشجرة، فما وصلتَ إليه أخذتَه بيدك، وما لم تصل إليه ضربته بعصاك. فلما سمعا منه ذلك تحقق كلاهما أنه قد رآهما، فقالا له: قد فعلنا ذلك فلا تخبر به صاحب البستان، فإنا نتوب على يديك ولا نعاود. فقَبِل منهما وأقبل الناطور يعظهما وقال: أنا آتيكما بكل ما تريدان من الثمار والفواكه من حيث لا أضر ببستان صاحبي ولا أضر به ولا أرتكب ما نهي عنه لئلا تأكلا إلا من حلة.

فقالا: سمعًا وطاعة. وتركاه حتى غاب الناطور وعادا إلى ما كانا عليه بل أقبح، فرجع الناطور ورأى أثر فسادهما، فأعاد عليهما النصيحة ووعظهما وخوفهما بالله تعالى، فلم يقبلا وارتكبا ما نهاهما عنه، فاتفق دخول صاحب البستان إليه ذلك اليوم، فلم يجد الناطور بدًّا من إعلامه بما كان من أمر الأعمى والمُقْعَد، فقال صاحب البستان: قد كنت أقدر أن يركب المُقْعَد ظهر الأعمى ويطوف به في البستان فيفسدا علي المعيشة.

فقال له الناطور: هكذا عملا وقد نهيتهما فما انتهيا. فقال صاحب البستان: إنهما قد استحقا العقوبة بما فعلا من قبيح ما ارتكباه. ثم أمر عبيده وأعوانه أن يعاقِبوا المُقْعَد والأعمى أشد العقوبة، وأن يخرجوهما من البستان إلى برية لا يجدان فيها معتَصَمًا ولا ملجأً حتى يأكلهما الوحش ويهلكهما الجوع والعطش، ففُعل بهما ذلك وأُخرجا من البستان ورُمي بهما في البرية كما فُعل بآدم وحواء عليهما السلام لما ذاقا الشجرة.

تفسيره؛ فاعلم أيها الأخ أنه إذا ضربت حكماء الهند هذا المثل فما ذلك إلا لأنهم شبهوا النفس بالمُقْعَد؛ وذلك لأنها لا تبطش إلا بالآلة الجسدانية، وبهذه الآلة تتمكن من

الطاعة والمعصية. وشبهوا الجسد بالأعمى؛ وذلك أنه ينقاد حيث ما تقوده النفس ويأتمر لما تأمره به. وشبهوا البستانَ بدارِ الدنيا، والثمارَ بطيباتِ الدنيا من الشهوات، وصاحب البستان هو الله تعالى، وشبهوا الناطور بالعقل الذي هو يدل على المنافع ويأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والعدوان، وهو ينصح النفس ويدلها على ما يكون لها به من الصلاح والسلامة في الدين والدنيا جميعًا وأخذ الأشياء من حيث يجب. فإذا لم تقبل النفس منه وعدلت إلى الشهوات الجسمانية والمحاسن الطبيعية والملاذ الجرمانية التي يكون بها صلاح الجسم وحسن حاله في الدنيا، فبذلك تكون إماتتها وخسران آخرتها، وتحيط بها سيئات ما عملت في البستان وقبائح ما اكتسبته في الدنيا، وتكون مِن تناول الشهوات غافلة عن مصلحتها متردية في ضلالتها، حتى تأتيها ملائكة الله الغلاظ الشداد وزبانيته وجنوده وتخرجها من دار الدنيا بالكره والإجبار، فعند ذلك تقدم على ما عملت من سوء، ومن قبائح ما اكتسبته من سوء آدابها، وقد خسرت الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين. وعند نزع النفس يأتيها الخبر، وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون.

فاحذر أيها الأخ ألا تغترَّ بهذه الدنيا، ولا بمصاحبة الجسد الفاني المضمحل المتغير الفاسد، وإنما هي أيام يسيرة ولذة حقيرة ومدة قصيرة، واعدل إلى الحق والعقل؛ فإنهما يؤديانك إلى ربك، ويدلانك على الأعمال الصالحة التي يكون لك بها الدرجة العليا، والوصول إلى الجنة المأوى في مقام الكرام؛ حيث لا تحتاج إلى جسدك الفاني، ولا تذوق الموت، ولا يصل إليك الألم، ولا يُجديك السقم، ولا تُبتلى بمفارقة الأحباب وبمباينة الأصحاب، ولا يلحقك غم الفقر ولا ذل القهر ولا ضيق القبر ولا كرب الاشتياق، وتكون في حظيرة القدس وروضة الأنس، أمنًا من المصائب والنكبات وحوادث الزمان، ولا ترى إلا ما تحب وتُؤْثِر، وتأمن من النوائب الزمانية، وما يدفع إليه أهل الدنيا من الكَدَر والنَّصَب والتعب والعَنَاء والجوع والسغب، ونكد الزمان وجور السلطان وحسد الحيوان، وما هو موجود بين أهل الديانات والمقالات من العدوات والمباغضات والملاعنات، وما يستحلُّ بعضهم من بعض من سفك الدماء وأَخْذ الأموال وهتك الحُرُم.

فإذا تأملت في أمور الدنيا وجدتها كدار قد مُلئت أجناس حيوانات تعادي بعضها بعضًا عداوة طبيعية مركوزة في الجبلة، كعداوة البوم والغربان وعداوة الكلب والسنانير وهي تهر بعضها على بعض وتحسد بعضها بعضًا كغلبة السباع والكلاب، وكما يفعل الملوك والسلاطين لمن دونهم إذا غَلبوا عليهم وأخذوا أموالهم، وكما تفعل الكلاب بالسنانير

التي تخالفها في الصورة إذا وصلت إليها وقَدَرت عليها؛ حسدًا لها على ما تأكله من دور الناس، ومن الدعة والرفاهة التي هي فيها، ومحبة الناس لها وإكرامهم إياها.

فهكذا أمور الدنيا وأهلِها؛ الأشرارُ أعداءُ الأخيارِ والفقراءُ أعداءُ الأغنياءِ؛ يتمنون لهم المصائب، وإذا قدموا على شيء من أموالهم أخذوه ونهبوه. وكذلك أهل الشرائع المختلفة يقتل بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا، كما يفعل النواصب والروافض والجبرية والقدرية والخوارج والأشاعرة وغير ذلك، وكذلك في الملة العبرانية مثل العينية والسمعية، وفي الملة السريانية كالنسطورية واليعقوبية وما بينهما من الخلاف، وكذلك في الملة الصابئية، وكذلك تجد المختلفين في اللغات؛ يستوحش بعضهم من بعض، ويثقل على كل واحد منهم ما لم يألفه من لغة، وهذا لا يخفى على من تَأَمَّلَه وتَفكَّرَ فيه.

ثم اعلم أنه لا يُصْلح بين أهل الديانات ولا يُؤَلِّف بين المتعاديات ولا تُزِيل من النفوس العداوات والأحقاد الطبيعية إلا المعرفةُ بالحق الذي يجمعهم على كلمة التقوى، ويدعوهم إلى سبيل الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، وقال تعالى لرسوله عليه السلام: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فمن رأى نفسه معاديةً لِطائفةٍ من الطوائف حنق عليها، فهو لا يزدرع الحق في قلبه، ولم تخالط الهداية لبَّه.

(١٨) فصل في أن الدين والشريعة هما من الله

ثم اعلم أن الدين والشريعة في أزمان النبي المبعوث عليه السلام إلى قومه هما من الله تعالى، ولا يكون فيهما اختلاف ولا تباغُض ولا عداوة، ويكون رأْي المؤمنين في زمانه رأيًا واحدًا، وتكون محبة بعضهم لبعض خالصة لا تشوبها كدورة، ويكونون مطمئنين مساعدين على إقامة الدنيا ومجاهَدة الكافرين. وإنما مجاهدتهم الكفار لا لعداوة منهم للكفار، بل ليردوهم إلى الحق ليكون المسلمون فارغي البال من كيدهم ونهبهم، ويقنعوا من الكفار بالجزية إن لم يقبلوا الدِّين؛ لأنهم لا يأمنوهم إن تركوهم ولم يطلبوهم في بعض الأوقات بالجزية، فقد قيل في المثل إن الروم إن لم تُغْزَ غَزَت، فهذا سبب قتالهم الكفار، وإلا فليس لهم رغبة في سفك الدماء وإتلاف النفوس وخراب الديار. وبالرغم

منهم يجري ذلك على أبدانهم ضرورة لما أعلمتك؛ لأن ظاهر هذا الفعل من فعل الأشرار الذين لا رأفة لهم ولا رحمة.

ولذلك كان رسول الله — صلى الله عليه وآله — إذا أراد قتال المشركين أرسل إليهم من ينذرهم ويحذرهم ويبيِّن لهم فساد ما هم فيه، ويدعوهم إلى ما معه من الحق، كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وأمره بالملاطفة، فقال تعالى: وقولوا لهم قولًا سديدًا، وقُل لهم قولًا معروفًا.

وقال لموسى عليه السلام لَمَّا أرسله هو وهارون عليهما السلام إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ففعل النبي عليه السلام ذلك، فلما أبَوْا واستكبروا وقالوا لا نرضى بِدِينك وكانوا من أهل الكتاب، أمرهم على بذل الجزية بعد أن تجري عليهم أحكامنا ويكفُّوا أذيتهم عنا؛ ليكون إذلالًا لهم لئلا يحدثوا أنفسهم بغلبتهم على المؤمنين، ويكون ذلك كالغمغمة والمذلة، فإن أَبَوُا الجزية فعند ذلك أَمَرهم بقتالهم وأَمَر أصحابه ألا يبدءوا حتى يبدءوهم، وإذا ظفروا بهم ألَّا يقتلوا أسيرًا حتى يعرضوا عليه الدين والإسلام، فإن أبى أُلْزِمَ الجزية، فإن أبى قُتل.

وإذا ملكوا دار الكفر ووَضعت الحرب أوزارها، أمرهم ألا يقتلوا شيخًا كبيرًا ولا صبيًّا صغيرًا ولا امرأة، إلا أن يقاتِلوا، ولا راهبًا ولا قسيسًا ولا شماسًا ولا مطرانًا ولا جاثليقًا ولا من يكون من خدم البِيَع والكنائس؛ كل ذلك رأفة بهم ورحمة عليهم.

فمن أبى واستكبر وناصب العداوة أمر بجهاده، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

ألا ترى أيها الأخ إلى هذه الرأفة! إنه لم يأمره بقتالهم إلا بعد إنذارهم وتذكارهم والملاطفة بهم، وذلك سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾، وقال: ما مِنْ أُمَّة إلَّا خَلَا فيها نَذِير، وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى.

فما دام هذا الخلاف واقعًا في الآراء والمذاهب، فإن العداوة بينها قائمة، والحرب لا تنطفي نارها؛ لأن كل واحد يقيم الحجة والدليل برأيه وقياسه على صحة مذهبه وبطلان مذهب غيره، ولا يبالي أن يَكذب على الله تعالى ورسوله ويسخطهما لرضى نفسه وتعجيل منفعته.

وكذلك السلطان الذي إذا رأى في أحد رعيته أو بعض سكان مدينته مَن له نعمة حال رغب فيها وحسده عليها، وطلبه عليها الحجج حتى يوقع به ويأخذ ذلك الغرض

اليسير الحقير في جنب ما ملكه الله تعالى من ذلك البائس ويجعله فقيرًا مسكينًا متحيرًا مغتمًّا، وربما مد عليه الضرب وطالبه بما ليس في وسعه فقتله.

وكذلك إذا علم أن رجلًا له امرأة نظيفة أو جارية حسنة حسده عليها، ولا يزال يتحيل إلى أن يفسدها عليه، فإن صح له مراده وإلَّا عدل عن إفسادها إلى ادعائها في التزوج، ولا يزال يراسلها في ذلك إلى أن يطرح بينها وبين زوجها الشر ويفرق بينهما ويأخذها لنفسه، كما حُكي عن داود النبي عليه السلام بامرأة أوريا بن حنان كيف قدمه أمام التابوت حتى قتل وتزوج بامرأته.

وأيضًا ذكروا أن تلك المرأة أم سليمان، وكان الأصل في ذلك الهواء والحسد الغالب، ومثل ما فعله حكيم بن هشام — المعروف بأبي جهل — برسول الله ﷺ وقد علم أنه رسول الله ﷺ ولكن حمله على فعله الحسد، وودَّ أنه لو كان النبيَّ المبعوثَ. كذلك أبو لهب وجماعة من قريش وبني عبد المطلب الذين خالفوا رسول الله ﷺ وناصبوه العداوة والبغضاء.

وهكذا جرت أحوال الأمم السالفة في الأيام الخالية والأدوار الماضية، ولم تزل الأمم على هذه الصفة التي ذكرنا.

فصل

ثم اعلم أن الاختلاف ينقسم قسمين: محمود ومذموم؛ فالمحمود منه كاختلاف القراء وما جرى مجراه من اختلاف الفقهاء في رواياتهم، إذا لم يختلفوا في المعاني ولم يزِيلوا الألفاظ من مواضعها ولم يبدلوها تبديلًا مع اعتمادهم على صدق المخبر بيَّن لهم بأن ذلك من صاحب الشريعة.

وإذا صح لهم ذلك كان اختلافهم منفعة؛ لأن في العرب من يخالف بعضها بعضًا في كثير من اللغة العربية.

وأما الاختلاف المذموم فهو ما كان منه في المذاهب والآراء، فإذا زال الخلاف ظهر دين الإسلام على جميع الأديان، واللغة العربية على جميع اللغات، ويكون الدين واحدًا كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. وإظهار دين النبي ﷺ على جميع الأديان ولغته على سائر اللغات من أجل أن القرآن أكرم قرآن أنزله الله تعالى وأشرف كتاب أحكمه، وأنه لا يقدر أحد من الأمم — على اختلافهم في لغاتهم — أن يحيله عما هو به من اللغة العربية إلى لغة

غيرها؛ لأنه لا يمكن أن ينقل البتة إلى لغة على ما هو به من الاختصار والإيجاز، وهذا لا خفاء به، ولا يكون اجتماع الناس على كلمة واحدة إلا بمجاهدة المجاهدين المحقين لأهل الباطل، وأن يكون الخادمون في الناموس آمرين بالمعروف فاعلين له، والناهون عن المنكر منتهين عنه، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، وأرجو أن يبلغنا الله ذلك الزمان إنه عليه يسير.

ثم اعلم أنه إنما وقع الخلاف في الشريعة بعد خروج النبي عليه السلام من الدنيا لَمَّا تنازعوا فيما بينهم لطلب الرياسة والمنزلة، وكان منهم ما كان إلى أن جرى ما جرى من هتك حرمة النبوة، وقتل آل بيت الرسالة وإهباط الوحي، وما فعله ابن زياد بكربلاء، وما كان من الفتنة التي شملت أهل الشريعة المحمدية والعصبة الهاشمية من قتل بعضهم بعضًا.

فلذلك كثرت الآراء والمذاهب، فقال قوم لم يجرِ ذلك كله إلا بقضاء الله وقدره، ولعمري إن الأمر كما قالوا لكن إنما قصد القائلون بذلك براءة نفوسهم فيما عملوا، فإنهم إنما فعلوا ذلك على ما عَلِمَه ربهم، وأنه إذا علمه فقد أراده، وإذا كان ذلك كذلك فلا ذنب لهم ولا وزر ولا لوم ولا وبال.

فصل

إن هذا الرأي يجرِّئ الإنسان على فعل المعصية وارتكاب الفاحشة، وإنما يستخرج هذا الرأي في الناس أصحاب الكبائر من الذنوب لما علموا أن ذنوبهم إذا ظهرت وانتشرت في العالم، بعد ذهاب أيامهم وانقراض دولهم، يكثر لعنهم وسبهم وشتمهم، فإذا جرى ذلك كان في العالم مَن يحفظ هذا الرأي منهم، فيذب ذلك عنهم، ويقول لمن يسمع هذا منه: «أمسكْ، فإن كل شيء إنما كان بقضاء الله وقدره وحكمه عليهم، وإن ما حكمه الله تعالى لا يقدر أحد على دفعه»، فيكون هذا تسكينًا لما سمع من ذكرهم وأفعالهم وأعمالهم وقبائح ما أتوه من أفعالهم، فوسوسوا لجهال الناس، والنساء خصوصًا، أن ما يفعلونه إنما هو محكوم عليهم به لا يمكنهم دفعه، فجعلوا هذا الاعتقاد مذهبًا، وأقدموا على المعاصي بهذه الحجة، وإن رَدَّ واحد قولهم، قيل له: «أنت كافر قدري»، فيقول إنما قضاء الله تعالى وقدره يمكن أن يحترز منه، ولم يعلموا ما القضاء والقدر، ولم يطلبوا علمه من أهله. ونشأ على ذلك الصغير، واعتاده الكثير، وإلى حيث انتهينا هو مذهب أكثر العوام وبعض من عنده أنه متميز، وإنما ذكرت هذا بحسب ما أوجبه ذكره في هذا الفصل.

ثم اعلم أن أصل العداوة في الدنيا والدين الحسد، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فالحسد يخرب الديار ويوقع الفتن ويورث البغضاء والحقد والغضب والتعدي والظلم والجور وما شاكل ذلك، وهو أيضًا من أكبر الأسباب في اختلاف الآراء والمذاهب، وذلك إذا اتخذ رجل مذهبًا ومالَ الناس إليه ورغبوا فيما عنده، فيراه آخَر من أبناء جنسه فيحسده ويجيل فكره ويعمل رأيه، إلى أن ينحت له من الحجج والكلام ما يفسد به ما أورده، ولا يزال يطعن عليه ويسعى في فساده ويلغط في أصله ووضعه، فهذا يكون سبب الاختلاف، وتكثر المذاهب مع اعتمادهم على صدق صاحب الشريعة الذي أنزل عليه القرآن.

وإذا صح ذلك لهم، كان في اختلافهم منفعة؛ لأن في العرب كثيرًا ممن يخالف بعضهم في كثير من اللغة العربية، وإنما أراد الله تعالى إفهام الكل والإفصاح عما تهم الحاجة إليه من أمر الدين والدنيا.

وكان النبي ﷺ يجيب السائل من أمته بلغته ويكلفه ويكلمه بلسانه، فأما غيرهم فإنه يكلمهم ﷺ بكلامهم، وإنما بعث إليهم وأقام فيهم وعلَّمهم وأرشدهم وسهَّل عليهم الألفاظ، وضرب لهم المعاني وأخذهم بالملاطفة حتى فهموا الدين وتعلموا القرآن بلسان فصيح، لا يخطئ فيه ولا يغيره ولا يبدله إذا كان صحيح الحفظ متقن التلقين؛ ولذلك ما يقال في الصلاة وفي الحج من التلبية والإحرام والدعاء والابتهال إلى الله تعالى، يقال فيه ولا يفهم ما سوى ذلك.

ثم اعلم أن مثل الأمة إذا تركت وصية نبيها، واختلفت من بعده، واعتمدت على رأيها، وأرادت أن تملِّك عليها ملكًا، وتنصب فيما بينها خليفة بغير معرفة من الرسول ولا وصية منه ولا إرشاد، ورأت في اجتماعها منفعة لها وصلاحًا لأمورها من غير نص ولا إشارة؛ فمَثلها كما يذكر مَثل الغربان والبزاة فيما قيل في أمثال الهند إن الغربان كان عليهم ملك منهم، وكان بهم رحيمًا وإليهم محسنًا، وإن ذلك الغراب مات واختلفوا من جهة مَن يملِّكونه عليهم من بعده، وتحاسدوا وخافوا أن تقع بينهم العداوة.

فقال بعضهم لبعض: تعالوا حتى نجتهد في الرأي ونجمع العلماء وأهل الفضل فينا، ونعقد مجلسًا للمشاورة فيمن يصلح لهذا الأمر، وفيمن ينبغي أن يكون ملكًا علينا. فاجتمعوا وتشاوروا وقالوا: لا نرضى بأحد من أهل الملِك الذي كان فينا؛ مخافة أن يعتقد ويظن أن المُلك إنما ناله وارثًا من أبيه وأقاربه، فيسومنا سوء العذاب، وإذ كنا نحن نتولى إقامة مَن نقيمه كنا نحن أصحاب المنة عليه والإحسان عليه.

قال أحدهم: وإذا كان الأمر على هذا، فعليكم بأهل الورع والدين؛ فإن صاحب الورع والدين لا يكاد يهجم على الأمور الدنيوية ولا يرغب في الدنيا.

فقالوا له: كيف لنا بذلك؟ فقال لهم: طوفوا واطلبوا مَن هذه صفته، فإنكم إن تظفروا به قدموه. وكان بالقرب منهم باز قد كبر وخرف وضعفت قوته عن الصيد، وانحل جسمه وتناثر ريشه من قلة المعيشة، وتعذر القوة، فبَلَغَه خبر الغربان وما أجمعوا عليه، فبرز من وكره إلى حيث ممرهم عليه، وأقبل يكثر التهليل والتسبيح ويظهر التخضع والتورع، فأقبلت الطيور تطير على رأسه فلا يولع بها ولا يمشي إليها، فلما رأته الغربان على تلك الحال ظنوا أنه يفعل ذلك صلاحًا وديانة، فاجتمع بعضهم إلى بعض وقالوا: ما نرى في جماعة الطيور مثل هذا البازي وما هو عليه من الديانة والزهد، فهلموا بنا نولِّه علينا. فأتوا إليه وأخبروه بما عزموا عليه، فانقبض من ذلك وأراهم من نفسه الزهادة فيما عزموا عليه، فلم يزالوا به حتى قَبِل منهم، فصار خليفة فيهم وملكًا عليهم، فقال في نفسه: كنتم تحذرون من البلاء وما أراه إلا وقد وقع بكم!

فلما تمكن منهم وقوي عليهم بما كانوا يأتونه من الرزق ويجعلون له من الأجرة على ذلك، قوي جسمه ونبت ريشه وعادت إليه صحته، أقبل يخرج كل يوم عدة من الغربان فيخرج عيونها ويأكل أدمغتها ويطرح ما سوى ذلك من أجسادها، فأقام فيها مدة، فلما دنت وفاته اعتمد على بعض أبناء جنسه، فملَّكه عليهم، فكان أشد منه وأعظم بلية وأكبر رزية، فقالت الغربان بعضها لبعض: بئس ما صنعنا بأنفسنا وقد أخطأنا. فندموا من حيث لم تنفعهم الندامة، وكان ذلك سبب الخلف والمنازعة.

فتفكرْ أيها الأخ في هذا المثل واعتبر به في أحوال مَن مضى، ولا تغفل هذه الإشارات، وإياك وإظهار المخالفة والعداوة والدخول فيما دخل فيه أهل الخلاف، فتهلك بهلاكهم ويصيبك ما أصاب العقعق؛ حيث وافق الحمام في ذلك الوقت، ونحن نذكر ها هنا ما جرى بينهما.

فصل

يقال إن جماعة من الحمام البري كانت تطير في الهواء لطلب الرعي، فرآها عقعق، وقال في نفسه: ما لي لا أكون معها؟! فلعلها تمضي إلى موضع يكون به معاش. فصار في جملتها وانتهوا إلى موضع أقبح مراح من الأرض، وكان سبق إليه صياد، فنصب شباكه ودفن فخاخه وطرح فيها حبوبًا كثيرة وكمن في موضع لا يُرى، فقال الحمام بعضه

إلى بعض: نمضي إلى مكان. وقال بعضها: بل ننزل في هذا الموضع. واختلفت وتنازعت فيما بينها حتى تضاربت وتحاربت ولم تزل ذلك حتى تقطعت إلى تلك الأرض ورأت تلك الحبوب، فأقبلت الجماعة على التقاطها، فأطبق الصياد عليها شباكه، فهبطن فيها جميعًا، فأخذها الصياد وأهلكها عن آخرها وهلك العقعق مع الحمامات جميعًا.

وإياك والمكان الذي تكون فيه المنازعة والخلاف، وإن جرى وأنت فيه فاخرج وابعد عنه. وإياك والظلم والتعدي على من هو دونك؛ فإنك إن فعلت ذلك أصابك ما أصاب الذئب الذي جار على الثعالب وغصبها وأراد قتلها وقطع أرزاقها.

فصل

وقد قيل في أمثال الهند أن ثعالب خرجت في طلب ما تأكل فرأت جملًا ميتًا ففرحت به، وقلن: قد وجدنا ما نعيش به دهرًا، ولكنا نتخوف أن يضرب بعضنا بعضًا، ولن ندع قوينا يغلب ضعيفنا، ويجب أن نؤمِّر علينا في قسمة هذا الرزق مَن هو أقوى منا؛ ليعطي كل واحد منا حقه ويأخذ لنفسه قسمة كالواحد منا. فرضوا بذلك.

فبينما هم كذلك إذ مر بالثعالب ذئب، فقلن: هذا ذئب قد جاءنا وهو قوي أمين، وكان أبوه ملكًا في بعض الأزمان، وكان محسنًا إلينا، وقد عولنا في ذلك عليه، وهو لنا رضي. فخاطبوه في ذلك وعرضوا عليه ما أرادوه، فأجابهم إليه بعد مراودات كثيرة، وقال لهم: ستجدون كما تحبون. وتولى أمرهم وقسَّم في ذلك اليوم بعض ذلك بينهم بالعدل، فلما كان الليل تَفكَّر الذئب في نفسه فقال: إن في قسمة هذا الجمل على هذه الثعالب عجزًا وسخافة رأْي، وما ينبغي لي أن أفعل ذلك لأني ذو قوة وليس لهم قدرة، وهذا رزق ساقه الله إليَّ وخصني به دونهم، فما الذي يدعوني إلى إطعامها إياه؟ والله يقسم لهم غيره وأنا أدخره لنفسي.

فلما كان من الغد أصاب الجوع جماعة الثعالب فاجتمعت عليه، فدفع إليها نصف الجمل فقسمه بينها كما فعل بالأمس، وقال: لا تعُدْن إلى بعد يومكنَّ هذا فلا رزق لَكُنَّ عندي، وإن عاودتنَّ جرى عليكنَّ مني مكروه. فعند ذلك علمت الثعالب أنها وقعت في بلية، فقال بعضها لبعض: إن صاحبنا هذا خبيث فاجر، ونراه يريد ظُلْمنا والتعدي علينا لأنه ذو قوة، وقد علم أنه ليس فينا مَن يقوى عليه، وقد طمع في الفوز بأرزاقنا. وقال بعضهم: لعله أنما حمله على ذلك ما كان فيه من الضر، ولعله إذا شبع منه قسم الباقي علينا، وفي هذا اليوم يشبع؛ فإن جثة الجمل عظيمة، وتلك الساعة يرجع إلى خلق

الكرام؛ فقد قيل في المثل لا مروءة لضعيف ولا ضيافة عند جائع، ولا بُدَّ لنا من معاودته ومخاطبته.

فلما كان من الغداة أتاه جماعة الثعالب وقلن: يا أبا جعدة إنا جعلناك أميرًا علينا وواليًا حتى لا يظلم بعضنا بعضًا، ورجونا في فعلنا ذلك عدلك، وفي أول يوم عدلت بيننا في أول ولايتك وأطمعتنا في مروءتك، ثم أتيناك أمس فدفعت إلينا النصف مما دفعت في اليوم الأول، وأتبعته باليأس مما لنا عندك دفعة واحدة، وأغلظت القول علينا فانصرفنا عنك، وقد ظننَّا بك خيرًا، فكنْ عند ظننا بك ولا تقصد ظلمنا ونحن ضعاف وقد أصابنا الجوع الشديد، وقد رزقنا الله تعالى هذا الرزق، فكلْ منه ما يكفيك وأطعمْنا منه وتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين. فأبى عليها وردها وزاد في الغلظ لها ويأَّسها مِن كل خير لها عنده.

فلما لم تجد حيلة اجتمعن وقلن كيف نعمل في أمر هذا الغادر الجائع، فاجتمعت آراؤهن على أن يرفعن أمرهن إلى الأسد؛ إذ هو أقوى منه وهو ملك السباع كلها، وأن يقصصن عليه قصتهن من أولها إلى آخرها، وجعلن له الجمل جعلًا على إهلاكه، ثم يذهب كل واحد من هذه الثعالب بعد ذلك في طلب رزقه من ربه كما وعد وله الفضل علينا. فاجتمعت على ذلك وحضرت عند الأسد وقصَّت عليه القصة وتظلمت من الذئب، فاغتاظ الأسد منه وأمرها أن تسير بين يديه، فأتوه ووجدوه باركًا على جثة الجمل يأكلها، فقبض الأسد عليه فقطعه قطعة قطعة ومزقه، وردَّ جثة الجمل على الثعالب وخلَّى بينه وبينهن؛ ولذلك قيل ما من طامة إلا وفوقها طامة.

فصل في أن السلطان الجائر قصير العمر

ثم اعلم أن السلطان الجائر قصير العمر؛ لأن الله قاصم كل جبار عنيد، ومُهلك كل مارد ومعتد، وهو منصف المظلوم من الظالم، فإنه — جلت قدرته — يقول في بعض الكتب المنزلة: أيها السلطان إنما جعلتك خليفتي في أرضي، وألقيت عليك اسمًا من أسمائي، وملَّكتك رقاب عبادي، وبسطت يديك في بلادي؛ لتنصف المظلوم من الظالم، فإذا كنت أنت الظالم وتعديت على الضعفاء من خلقي والمساكين من عبادي، وصرت أنت الظالم وهم المظلومون، فأنا ملك الملوك وسلطان السلاطين، وأنا آخذ الحق منك، ثم آذَنُ للمهلكين في إهلاكك وتخليدك في العذاب الأليم.

ثم اعلم أنك إن أقبلت على شهوات الدنيا وملاذِّها، واغتررت بما فيها من الطيبات ومحاسن المرئيات، واشتغلت بها عما لك فيه صلاح ونجاح في دار المعاد؛ يوشك أن يؤتيك ما أصاب رجلًا اجتاز في طريق كان يسلكه في نهر جرار ينحدر من جبال وعليه جسر يعبر عليه الناس.

وإنه لما صار على ظهر الجسر وقف ينظر إلى جريان الماء، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى سمكة كبيرة من أحسن أجناس السمك، فقال في نفسه: ما أنصرف في يومي هذا إلى بيتي بأحسن من هذه السمكة فأشويها وأجمع عليها أهلي وأولادي وآكل منها أكلة طيبة، ولكن أخشى من جريان الماء أن يَحُول بيني وبين السمكة. ثم قويت شهوته ورام مقام السمكة بحيث يراها، وقويت طبيعته في أخذها، فنزع ثيابه ورمى بنفسه وغاص وراءها إلى أن قبض على السمكة بإحدى يديه، وفرح بظفره بها واشتغل عن السباحة مخافة أن تفلت السمكة منه، فغلبه الماء لشدة جريانه فزحزحه عن الموضع الذي نزل منه وأشرف على الهلكة، وشح على السمكة أن يفلتها وينجو بنفسه، فلم يزل ذلك حاله وهو يروم الخلاص بنفسه مع السمكة، حتى حدره الماء إلى جرف عظيم ينصب إلى وهدة تحت الأرض فغاص به، فأتاه عامر النهر وكان يسكن ذلك الموضع، فقال: ما تفعل في هذا المكان الذي لا يقع فيه أحد إلا غرق وهلك؟

فقال: أنا الذي تركت الطريق الواضح والمحجة اللائحة التي فيها النجاة والسلامة ووقعت في هذه المهلكة من أجل لذة يسيرة وشهوة حقيرة. فقال له: هلا خليت ما في يدك ونجوت بنفسك؟ فقال: الطمع مني في السلامة والفوز بما كنت حدثت به نفسي. فقال: إنك جاهل وما أرى أحدًا أولى منك بالغرق. فوضع يده على رأسه فغرقه. فإذا تفكرت يا أخي في هذه الأمثال والإشارات، وقرأت على إخواننا — أيدهم الله — كان ذلك ذكرى لك وقومك، ونعوذ بالله أن تكون ممن تنطبق عليه هذه القصة ولا أحد من إخواننا، ولكن اتباعًا لقول الله تعالى حيث يقول لرسوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فصل

وقد حُكي أن بعض ملوك الهند لما دنت وفاته، وكان مسلمًا، قد أحضر ولدًا له قد كان أهلًا للمُلك بعده، ولم يكن له ولد سواه، وقد علمه شيئًا من الحكمة وعرَّفه شيئًا من سياسة الملك.

فقال له:

يا بني أوصيك بتقوى الله وطاعته وخشيته ومراقبته في أمر دنياك بعشر خصال تنتفع بها في الآخرة: أولها وأَولاها الإقرار بالتوحيد والابتهال إليه بالدعاء والتضرع بالليل والنهار. والثانية الإقرار برسله وتصديقهم والقبول منهم. والثالثة التصديق بالكتب المنزلة من عنده عليهم. والرابعة حفظ الناموس وسياسة الناس. والخامسة التواضع لله وترك الفخر. والسادسة ترك الظلم والجور؛ فإن مَن ظلم عباد الله كان الله تعالى خصمه، ومَن كان الله خصمه فهو مخذول لا محالة. والسابعة ترْك مخالطة النساء والاجتماع معهن والإصغاء إلى قولهن؛ فإنها تفسد عقول الرجال إذا أصغوا إليهن. والثامنة ترك شرب المسكر؛ فإنه عدو العقل، والعقلُ خليفة الله الباطن؛ فمن سلَّط على خليفة الله عدوَّه دمَّره الله وذهب عقله بدخول عدوه عليه، فإذا ذهب العقل فلا دين ولا علم ولا مروءة ولا حياء ولا مراقبة، ومَن عدم هذه الخصال كان موته صلاحًا عامًّا. والتاسعة الكرم والسخاء وسماحة النفس والتفضل على سائر الناس صديق أم عدو؛ فإنه خُلُق يشرف صاحبه. والعاشرة صدق القول وأداء الأمانة إلى البَر والفاجر.

وعليك يا بني بعشر خصال أخرى تنفعك في دنياك وترى بها الخير والبر والبركة وزيادة الرزق: أولها حسن الخلق. وثانيها حسن الأدب. وثالثها صدق الوعد والوفاء بالعهد. ورابعها العفو عند القدرة. وخامسها اصطناع الرجال وترك الحسد. وسادسها أن تحرص على ألا يكون لك عدو، وإن كان لك عدو فيكون إحسانُك إليه عقوبتَك له؛ فإن الله يكفيك مئونته ويمكِّنك من ناصيته. وسابعها ترك التفريط فيما لديك من وديعة الله عندك، وألا تفعل إلا ما يقربك إليه. وثامنها أن تكون مروءتك غالبة لشهواتك. وتاسعها ألا تؤْثر دنياك على آخرتك؛ فإن الله سبحانه إذا علم منك ذلك آتاك الدنيا؛ فإنه يقال إن الله عز وجل أوحى إلى الدنيا: يا دنيا مَن خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه. وعاشرها ترك النظر فيما لا يعنيك، وألا تشتغل إلا بما يشغلك الله تعالى به.

وعليك يا بني بعشر خصال أخرى يصلح الله تعالى بها ملكك ويثبت بها سلطانك: أولها أن تكون متفقدًا لأهل مملكتك حتى لا يغيب عنك شيء من أمور صغيرهم وكبيرهم، بل يكون علمك محيطًا بجميع أعمالهم. والثانية أن

تقابل كل واحد من رعيتك على قدر عمله. والثالثة أن يكون عدلك شاملًا لهم. والرابعة ألا تجور عليهم. والخامسة ألا تسوِّي بين علمائهم وجهالهم في العطية والمنزلة. والسادسة أن تولي عليهم مِن قِبلك الأخيار والأحرار، وإياك أن تولي عليهم العبيد والسوقة وأولاد الزنى.

ثم اعلم أن أعمال ولاتك إليك منسوبة؛ إن عدلوا قيل عَدَلَ السلطان، وإن جاروا قيل جار السلطان. والسابعة ألا تستعمل من أصحاب الرأي والمشورة مَن هو مخالف لك في دينك؛ فإنه لا ينصحك، وإن نصحك في أول مرة غشَّك في أخرى. والثامنة أن يكون وزيرك أرفع أهل زمانك درجة في الدين والدنيا جميعًا، ويكون من الأخيار؛ فقد قيل إن مَن لا أصل له فلا فرع له، ومن لا فرع له لا ثمرة له، وكل شجرة لا ثمرة لها فالنار أولى بها. والتاسعة إنصاف المظلوم من الظالم، ومنْع القوي من التعدي على الضعيف. والعاشرة رد الحق إلى أهله والانتصار لهم. فإذا كملت لك هذه الخصال الثلاثون رجوتُ لك كمال الأمور في الدين والدنيا والمُلك والسلطان، واستوجبت أن تكون ملكًا عادلًا، فتنال بذلك الحظوة من الله تعالى وحسن العاقبة في المعاد والمنقلب إليه.

فتأمل أيها الأخ هذه الوصية وتدبرْها، وانظر شفقة هذا الملك العادل على ولده كيف رضي له ما كان يرضى لنفسه، فهكذا يجب على الحكيم أن يوصي تلامذته، وعلى النبي أن ينصح أمته ومن يخلفه فيهم لمقامه وخلافته من بعده، وكان مما أوصى هذا الملكُ رعيتَه ما يأتي ذكره في هذا الفصل.

فصل

ويقال إنه لما فرغ من وصية ولده الذي أهَّله للمُلك بعده، جمع علماء أهل مملكته وأولي الفضل والشرف فيهم من أهل المنازل والرتب، الذين هم أصحابه وأسبابه، فقال: أيها العلماء الذين كانوا ولاة أمري وأهل سرِّي وبطانتي، قد كنتم لي نصحاء ومطيعين وحسنت طاعتكم لي بنية صادقة، وكانت ألسنتكم بشكري ودعائي وحُسن الثناء عليَّ ناطقة، وكنت لكم مكرمًا ولِحَقِّكم عارفًا، وعليكم مشفقًا وإلى جماعتكم محسنًا، فكونوا لهذا الغلام مثل ما كنتم لي يكُن لكم مثل ما كنت لكم.

ثم قال لجمعهم: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا ولاتكم، وإياكم والخلاف والنفاق والعداوة والمنازعة والمجادلة في أديانكم وآرائكم ومذاهبكم؛ فإن في ترك ذلك

صلاحًا لكم ولأنفسكم وجمْع شملكم ودعة لقلوبكم ودفاعًا عن بلادكم، ولا يطمع فيكم عدوكم ما دمتم على ذلك، وإن تركتم ما هو خير لكم واستبدلتم به ما هو شر لكم، فعند ذلك يطمع فيكم عدوكم وتخرب بلادكم، وتكون نفقتكم في ذلك أموالكم وأنفسكم، وربما لا يكون لكم قوة بذلك فتهلكوا عن بكرة أبيكم، ولا تتعادوا في المذاهب ولا تتلاعنوا فتهلكوا عن بكرة أبيكم، واعلموا أن في اجتماع الكلمة وترك الخلاف بركة لمن أقبل عليها وحصنًا لمن الْتجأ إليها؛ فإن القضيبين إذا جمعا وكانا ضعيفين وضم إليهما من جنسهما أضعاف عديدة حتى تكون قبضة فإنه يعسر كسرها، وإذا فرقت كسرت بأهون سعي، وقد علمتم الذي عاهدتموني عليه وما وصيتكم به في أمر هذا الغلام الذي بيني وبينكم، فإياكم والتغيير عليه ونقض العهد له، فليس المنكوث عليه بأسوأ حالًا من الناكث، فعليكم بالسمع والطاعة وأوفوا له يُوفِ الله لكم، وقُو لَه يقِ الله لكم، وتمموا له فيه ما بدأتم يُتِمَّ الله لكم أفضل أموركم ويحسن حالكم على يديه، فهذا هو ملككم.

وأخذ بعضده ودعا له، وأشهد بعضهم بذلك على بعض وأشهد الله تعالى عليهم، ولحقته سكرة الموت، واعتقل لسانه وضعف جنانه، وعرق جبينه واعتنقه ولده، وفاضت روحه وحزن عليه أهل مملكته، ثم قضى الله فيمن بعده بما أحبه وتصرفت بهم الأحوال. وإنما ذكرت لك ذلك لعلك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتكون هذه الرسالة تذكرة لك ولجميع من وقف عليها، وعساها تكون تذكرة لمن تذكر وعبرة لمن اعتبر، وفقك الله تعالى وإيانا وجميع إخواننا السداد إنه رءوف بالعباد.

(تمَّت رسالة علل اختلاف اللغات بتمامها، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.)

